الرافدين على الجلالين

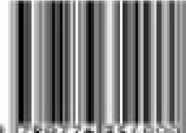
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثامن والعشرون





بسم الله الرحمن الرحيم

لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤).

{لِيَجْزِيَ الله الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّب الْمُنَافِقِينَ إنْ شَاءَ} بِأَنْ يُمِيتهُمْ عَلَى نِفَاقهمْ {أَوْ يَتُوب عَلَيْهِمْ إنَّ الله كَانَ غَفُورًا} لِمَنْ تَابَ {رحيما} به(١).

---

(١) قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} [الأحزاب: ٢٤]، أي:"ليثيب الله أهل الصدق بسبب صدقهم وبلائهم وهم المؤمنون".

قال السدي:"يعني: المؤمنين".

قال الطبري:"يقول: ليثيب الله أهل الصدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه، ووفائهم له به".

قال السعدي:"أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم، وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ [ص:٦٦٢] صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} الآية، أي: قدرنا ما قدرنا، من هذه الفتن والمحن، والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزي الصادقين بصدقهم".

قال ابن كثير:"يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم، كما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]، فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده.
=

=

وكذا قال تعالى: {مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩]. ولهذا قال هاهنا: {لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ} أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه".

قوله تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [الأحزاب: ٢٤]، أي:"ويعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم، بأن لا يوفقهم للتوبة النصوح قبل الموت، فيموتوا على الكفر، فيستوجبوا النار، أو يتوب عليهم بأن يوفقهم للتوبة والإنابة".

قال الطبري: معناه:"ويعذب المنافقين- بكفرهم بالله ونفاقهم- بأن لا يوفقهم للتوبة من نفاقهم حتى يموتوا على كفرهم إن شاء، فيستوجبوا بذلك العذاب، {أو يتوب عليهم} من نفاقهم، فيهديهم للإيمان".

قال ابن كثير:"{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ}:وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان. ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة لغضبه".

قال السعدي:"{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ} الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم، عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه. {إِنْ شَاءَ} تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم، {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب، على كرم الكريم".

=

=

قال قتادة:"يقول: إن شاء أخرجهم من النفاق إلى الإيمان".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٢٤]، أي:"إن الله كان غفورًا لذنوب المسرفين على أنفسهم إذا تابوا، رحيمًا بهم؛ حيث وفقهم للتوبة النصوح".

قال الطبري:"يقول: إن الله كان ذا ستر على ذنوب التائبين، رحيما بالتائبين أن يعاقبهم بعد التوبة".

قال السعدي:"ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة، والفضل، والإحسان فقال: {إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رحيمًا} غفورًا لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. {رَحِيمًا} بهم، حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ليجزي} الله هذه للتعليل، يعني: أن الأمر وقع كذلك على الوفاء وعلى النقض، فعلى الوفاء من المؤمنين وعلى النقض من المنافقين، وقد وقع هذا؛ ليجزي الله تعالى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين، ولولا اختلاف الناس في الأعمال ما اختلفوا في الجزاء، ولو لم يختلفوا في الجزاء ما كان لخلق الجنة والنار فائدة؛ ولهذا قال الله: {ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (١١٩)} [هود: ١١٨ - ١١٩] فالله ﷻ حكيم خلق الجنة وخلق بها سكانا، وخلق النار وخلق لها سكانا، وسكان هذه وهذه لا بد أن يكون لهم أعمال يقومون بها حتى يستحقوا أن يكونوا من أهلها.

وقوله تعالى: {ليجزي الله الصادقين بصدقهم} الباء هنا للسببية وليست

=

=

للعوض؛ لأن الجزاء على الأعمال ليس من باب المعاوضة، ولكنه من باب قرن المسبب بسببه؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "لن يدخل أحد الجنة بعمله"، فالأعمال الصالحة أسباب، وإلا فلو أن الله ﷻ أراد أن يعاوضنا على أعمالنا معاوضة بمعنى المعاوضة لكان لو قابلنا بنعمة واحدة من نعمه علينا ما قابلت كل أعمالنا، أو ما قابلتها كل أعمالنا، ولكن الأعمال سبب.

وقوله سبحانه وتعالى: {بصدقهم} وإذا كان الجزاء بالصدق فسيكون الجزاء على حسب ذلك الصدق، فالذين صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه يكون جزاؤهم على صدقهم بحسب ما قاموا به، فإذا كانوا أطوع لله ﷻ وأشد تنفيذا لأوامره وأكثر فعلا لطاعته صار جزاؤهم أكثر، والعكس بالعكس.

وقوله تعالى: {ويعذب المنافقين إن شاء} المنافق هو الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر، مأخوذ من النافقاء وهي نافقاء اليربوع الذي يجعلها في جحره حتى إذا أتاه أحد من بابه خرج من هذه النافقاء.

وقوله تعالى: [{ويعذب المنافقين إن شاء} بأن يميتهم على نفاقهم].

أشار المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: [بأن يميتهم على نفاقهم] إلى أن تعذيب المنافقين المعلق بالمشيئة هنا ليس المعنى أنه إن شاء عذبهم وإن شاء لم يعذبهم، وقد ماتوا على النفاق؛ لأنهم إذا ماتوا على النفاق فقد أخبرنا الله تعالى أنهم في الدرك الأسفل من النار، وليسوا تحت المشيئة ويكون قوله سبحانه وتعالى: {إن شاء} بأن يبقوا على نفاقهم حتى يموتوا فإذا بقوا على نفاقهم إلى الموت علمنا أن الله سبحانه وتعالى قد شاء تعذيبهم، أما إن هداهم الله فإن المنافقين قد اهتدوا؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {أو يتوب عليهم} بأن يوفقهم للتوبة، والصواب كما

=

وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥).

=

تقدم كثيرا أن المنافق تصح توبته وهي نص في قوله سبحانه وتعالى: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين} [النساء: ١٤٥ - ١٤٦].

وقوله: {أن يتوب عليهم} بأن يمن عليهم بالتوبة فيتوبوا وحينئذ لا يعذبون.

وقوله: {إن الله كان غفورا رحيما}: {إن الله كان غفورا} غفور: هذه اسم فاعل على صيغة المبالغة، يعني: كثير المغفرة، ويجوز أن تكون صفة مشبهة، أي: ذو مغفرة، والصفة المشبهة أبلغ من اسم الفاعل؛ لأن اسم الفاعل يدل على الفعل، والصفة المشبهة تدل على الوصف، أي: على اتصاف من هي وصفه بها دائما.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{غفورا} لمن تاب] فيه شيء من النظر؛ لأن الله تعالى يغفر حتى لمن لم يتب ممن هو تحت المشيئة، كفاعل المعاصي، ولو أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أبقاها على إطلاقها لكان أسلم له، فقوله تعالى: {غفورا} أي: كثير المغفرة أو ذو مغفرة متصف بها دائما، وهذا أقرب كما قلت؛ لأنه يدل على الوصف الدائم، ويدل عليه قوله تعالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} [الرعد: ٦].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{رحيما} به] يقول: [به] أي: بمن تاب، والصواب: أنه رحيم بمن تاب وبغيره، وأن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بالمعنى العام تشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وكل أحد، كل أحد، فإنه داخل في رحمة الله تعالى هذا بالمعنى العام، أما بالمعنى الخاص فإن الرحمة تختص بالمؤمنين.

{وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ الْأَحْزَاب {بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} مُرَادهمْ مِنْ الظَّفَر بِالْمُؤْمِنِينَ {وَكَفَى الله الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَال} بِالرِّيحِ وَالْمَلَائِكَة {وَكَانَ الله قَوِيًّا} عَلَى إيجَاد مَا يُرِيدهُ {عَزِيزًا} غَالِبًا عَلَى أَمْره[1].

---

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: حُبسنا يوم الخندق عن الظهر والعصر والمغرب والعشاء، حتى كفينا ذلك؛ فأنزل الله عز وجل: {وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بلالًا فأقام، ثم صلى الظهر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف: {فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا} [البقرة: ٢٣٩].

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٢٧٢، ٢٧٣ رقم ١٨٣٥١، ص ٤١٩ رقم ١٨٦٦١)، والنسائي في "المجتبى" (٢/ ١٧)، و"الكبرى" (١/ ٥٠٥ رقم ١٦٢٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢١/ ٩٤، ٩٥، ٩٥)، والبيهقي في "الدلائل" (٣/ ٤٤٥) من طريق ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه به. وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح.

* قوله تعالى: {وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا} [الأحزاب: ٢٥]، أي:"وردَّ الله أحزاب الكفر عن «المدينة» خائبين خاسرين مغتاظين، لم ينالوا خيرًا في الدنيا ولا في الآخرة".

قال الطبري: يقول:"ورد الله الذين كفروا} به وبرسوله من قريش وغطفان =

=

بكربهم وغمهم، بفوتهم ما أملوا من الظفر، وخيبتهم مما كانوا طمعوا فيه من الغلبة لم يصيبوا من المسلمين مالا ولا إسارا".

قال السعدي:"أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حنقين عليه، مغتاظين قادرين عليه جازمين، بأن لهم الدائرة، قد غرتهم جموعهم، وأعجبوا بتحزبهم، وفرحوا بِعَدَدِهِمْ وعُدَدِهِمْ، فأرسل الله عليهم، ريحًا عظيمة، وهي ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣]، فسلط عليهم هواء فرق شملهم، كما كان سبب اجتماعهم من الهَوَى، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم، لم ينالوا خيرًا لا في الدنيا، مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومَنْ هَمّ بشيء وصَدق هَمَّه بفعله، فهو في الحقيقة كفاعله".

عن مجاهد، قوله:"{ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا}: الأحزاب".

قال يزيد بن رومان: "أي: قريش وغطفان".

=

=

قال قتادة:"وذلك يوم أبي سفيان والأحزاب، رد الله أبا سفيان وأصحابه بغيظهم لم ينالوا خيرا".

عن السدي:"{ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا}:، قال: أبو سفيان وأصحابه، {لم ينالوا خيرا}، قال: لم يصيبوا من محمد ﷺ وأصحابه ظفرا".

قوله تعالى: {وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب: ٢٥]، أي:"وكفى الله المؤمنين القتال بما أيدهم به من الأسباب".

قال الطبري: يقول:"{وكفى الله المؤمنين القتال} بجنود من الملائكة والريح التي بعثها عليهم".

قال السعدي: أي: " بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية".

قال ابن كثير:"أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم، بل كفى الله وحده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» ".

وعن سليمان بن صُرَد، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: "الآن نغزوهم ولا يغزونا".

قال قتادة:"{وكفى الله المؤمنين القتال} بالجنود من عنده، والريح التي بعث عليهم".

قال السدي:"انهزموا بالريح من غير قتال".

وعن عبد الله بن أبي أَوْفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم، اهزمهم وزلزلهم".

=

=

قال العز بن عبدالسلام:" {وَكَفَى اللهُ المؤمنين القتال} بالريح والملائكة، أو بعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه".

حكى سفيان الثوري عن زيد عن مرة قال:"أقرأنا ابن مسعود هذا الحرف: {وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}، بعلي بن أبي طالب".

قال أبو سعيد الخدري: "حبسنا يوم الخندق عن الصلاة، فلم نصل الظهر، ولا العصر، ولا المغرب، ولا العشاء، حتى كان بعد العشاء بهوي كفينا، وأنزل الله: {وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا}، فأمر رسول الله ﷺ بلالا فأقام الصلاة، وصلى الظهر، فأحسن صلاتها، كما كان يصليها في وقتها، ثم صلى العصر كذلك، ثم صلى المغرب كذلك، ثم صلى العشاء كذلك، جعل لكل صلاة إقامة، وذلك قبل أن تنزل صلاة الخوف: {فإن خفتم فرجالا أو ركبانا}".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا} [الأحزاب: ٢٥]، أي:"وكان الله قويًا لا يُغالَب ولا يُقْهَر، عزيزًا في ملكه وسلطانه".

قال الطبري:"يقول: وكان الله قويا على فعل ما يشاء فعله بخلقه، فينصر من شاء منهم على من شاء أن يخذله، لا يغلبه غالب؛ {عزيزا}: يقول: هو شديد انتقامه ممن انتقم منه من أعدائه".

قال ابن كثير:"أي: بحوله وقوته، ردهم خائبين، لم ينالوا خيرًا، وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده، ونصر رسوله وعبده، فله الحمد والمنة".

قال السعدي: أي: " لا يغالبه أحد إلا غُلِبَ، ولا يستنصره أحد إلا غَلَبَ، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعنهم بقوته وعزته".

=

=

قال قتادة:"قويا في أمره، عزيزا في نقمته".

قال العثيمين: قول الله ﷻ: (ورد الله) ردهم أي: أرجعهم على أدبارهم خائبين، {الذين كفروا} يعني: الأحزاب من قريش وغيرهم.

وقوله تعالى: {بغيظهم} الباء هنا للملابسة، أي: متلبسين بالغيظ، الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، يعني: أنهم رجعوا مغتاظين غاية الغيظ، ووجه اغتياظهم أنهم جاؤوا بهذا الجمع الكثير الذي لم يشهد له نظير في ذلك الوقت، يريدون القضاء على النبي ﷺ، ومع ذلك حصل لهم التعب والعناء والجوع والبلاء، واخر الأمر أن رجعوا هاربين، ولا شك أن مثل هذا سوف يؤثر على الإنسان، فسوف يملأ قلبه غيظا وحسرة وندما، كيف يأتي بهذا الجيش الذي جمع له وأبدى فيه وأعاد وآخر الأمر أن ينقلب ولا يكون معركة؟! ولهذا قال تعالى: {ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا}.

وقوله: {لم ينالوا خيرا} لا من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة، أما أمر الآخرة فإنهم لن ينالوا خيرا بقتالهم للنبي عليه الصلاة والسلام على كل حال. وأما أمر الدنيا الذي يرونه هم خيرا لأنفسهم فما نالوه؛ فما نالوا خيرا لا في الدين ولا في الدنيا -ولله الحمد- حتى ما يظنونه خيرا من هزيمة رسول الله ﷺ والقضاء عليه وعلى أصحابه ما حصل لهم ذلك، لم ينالوا خيرا.

وقوله تعالى: {خيرا} نكرة في سياق النفي (لم) فتفيد العموم يعني: ما نالوا أي خير لا قليلا ولا كثيرا، وهذه من نعمة الله سبحانه وتعالى وأضاف الله تعالى الرد إلى نفسه {رد الله الذين كفروا}؛ لأن رجوعهم ليس بحول النبي عليه الصلاة والسلام ولا بقوته ولا بحول أصحابه رضي الله عنهم ولا قوتهم، ولكنه بحول الله تعالى

=

=

وقوته؛ ولهذا قال تعالى: {وكفى الله المؤمنين القتال}.

يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{لم ينالوا خيرا} مرادهم من الظفر بالمؤمنين {وكفى الله المؤمنين القتال}] والحمد لله! كفى الله تعالى المؤمنين القتال، يعني: أن الله تعالى أراح المؤمنين من القتال فلم يقاتلوا، وأما ما حصل من المناوشات التي حصلت لبعض الصحابة مع بعض المشركين، فإذا لا يعد قتالا؛ لأن الكلام على الجيش كله جمعاء فإنه لم يحصل فيه قتال.

وقوله تعالى: {وكفى الله المؤمنين القتال} ونعم الحسب هو الكفي عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالريح والملائكة] الريح سبق أن الله تعالى أرسل عليهم الريح الشرقية الباردة الشديدة، وأنها كفأت قدورهم وزلزلت خيامهم، ورمتهم بالحجارة تحملها الرياح مع البرد الشديد، حتى كانوا يصطلون بالنار، ويقولون: النجا النجا، وأما الملائكة فإن الله سبحانه وتعالى سلط الملائكة عليهم بأن تلقي في قلوبهم الرعب والفزع والخوف، وتوحشهم حتى ينصرفوا من المكان، وهذا من نصر الله عَزَّ وَجَلَّ للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: [{وكان الله قويا} على إيجاد ما يريده {عزيزا} غالبا على أمره] {وكان الله قويا} القوة صفة يتمكن بها القوي من فعل ما يريد بدون ضعف، وهي أعلى من القدرة؛ لأن القدرة صفة يتمكن بها القادر من فعل ما يريد بدون عجز، فالقوة أعلى، وانظر إلى رجلين حملا صخرة، أحدهما حملها لكن مع نوع من المشقة، فنقول: هذا قادر، ولكن ليس بقوي، والآخر حملها وكأنها شيء بسيط نقول: هذا قوي.

وقوة الله سبحانه وتعالى لا منتهى لها، ولا مقياس لها، بل هي فوق ما يتصوره

=

=

الإنسان، لما قالت عاد: {من أشد منا قوة} قال الله ﷻ: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون (١٥) فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون} [فصلت: ١٥ - ١٦].

وأما قوله تعالى: {عزيزا} فتقول رَحِمَهُ اللهُ: [غالبا على أمره]، فالعزيز من أسماء الله تعالى له ثلاثة معان:

١- عزيز القدر.

٢- وعزيز القهر.

٣- وعزيز الامتناع.

أما عزيز الامتناع: فمعناه: أنه يمتنع أن يناله سبحانه وتعالى سوء أو نقص في جميع صفاته وجميع أفعاله.

وأما عزة القدر: فمعناه: أنه ذو قدر عظيم رفيع مثلما تقول: فلان عزيز النفس. يعني: له عزة وترفع عن الدنايا.

وأما عزة القهر التي من الغلبة: فمعناها أنه غالب على كل شيء حتى بالجاهلية، يقول الشاعر:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

والله ﷻ هو الغالب على أمره وهو غالب على كل شيء، لا شيء يكون أمام غلبته.

فصار العزيز له ثلاثة معان: عزة القدر وعزة القهر، وعزة الامتناع، وكلها ثابتة لله ﷻ.

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦).

{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْل الْكِتَاب} أَيْ قُرَيْظَة {مِنْ صَيَاصِيهمْ} حُصُونهمْ جَمْع صِيصَة وَهُوَ مَا يُتَحَصَّن بِهِ {وَقَذَفَ فِي قُلُوبهمْ الرُّعْب} الْخَوْف {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ} مِنْهُمْ وَهُمْ الْمُقَاتِلَة {وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} مِنْهُمْ أَيْ الذَّرَارِيّ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعيد بن جبير؛ قال: كان يوم الخندق بالمدينة، قال: فجاء أبو سفيان بن حرب ومن معه من قريش ومن تبعه من كنانة، وعيينة بن حصن ومن تبعه من غطفان، وطليحة ومن تبعه من بني أسد، وأبو الأعور ومن تبعه من بني سليم، وقريظة؛ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا ذلك وظاهروا المشركين؛ فأنزل الله تعالى فيهم: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ}، فأتى جبريل عليه السلام ومعه الريح، فقال حين رأى جبريل: "ألا أبشرو" -ثلاثًا- فأرسل الله عليهم الريح؛ فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرجال، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد؛ فأنزل الله تعالى: {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا}، فرجع رسول الله ﷺ.

قال أبو بشر: وبلغني: أن رسول الله ﷺ لما رجع إلى منزله؛ غسل جانب رأسه الأيمن وبقي الأيسر، قال: فقال له؛ يعني: جبريل ﷺ: "ألا أراك تغسل رأسك؟ فوالله ما نزلنا بعد، انهض"؛ فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن ينهضوا إلى بني قريظة حتى غابت الشمس.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ٧١): نا أبو الوليد الطيالسي ثنا أبو =

=

عوانة عن أبي بشر عن سعيد به. وهذا مرسل رجاله ثقات رجال الشيخين. وهو ضعيف لإرساله.

* قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ} [الأحزاب: ٢٦]، أي:"وأنزل الله يهود بني قريظة من حصونهم؛ لإعانتهم الأحزاب في قتال المسلمين".

قال الطبري: يقول:"وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ وأصحابه-وهم بني قريظة-، من حصونهم".

قال السعدي:"أي: أنزلهم من حصونهم، نزولا مظفورًا بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام، وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة، غير بعيدة، وكان النبي ﷺ، حين هاجر إلى المدينة، وادعهم، وهادنهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئًا. فلما رأوا يوم الخندق، الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم، وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك، تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالؤوا المشركين على قتاله، فلما خذل الله المشركين، تفرغ رسول الله ﷺ، لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم، فأتم الله لرسوله والمؤمنين، المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأَقَرَّ أعينهم، بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًا".

=

=

عن مجاهد: " {وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب}، قال: قريظة، يقول: أنزلهم من صياصيهم"، "قال: قصورهم".

عن عكرمة: " {من صياصيهم}، قال: من حصونهم".

قال قتادة:"أي من حصونهم وآطامهم".

قال يزيد بن رومان:"الصياصي: الحصون والآطام التي كانوا فيها".

قال ابن زيد:"الصياصي: حصونهم التي ظنوا أنها مانعتهم من الله تبارك وتعالى".

قال القاسم بن سلام:"{من صياصيهم}، يعني: من حصونهم بلغة قيس عيلان".

قال الفراء:"{من صياصيهم}: من حصونهم. وواحدتها: صيصية، وهي طرف القرن والجبل".

قال أبوعبيدة:"{الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ}، أي: عاونوهم وهو من التظاهر، {مِنْ صَيَاصِيهِمْ}، أي: من حصونهم وأصولهم، يقال: جذّ الله صيصة فلان، أي: أصله، وهى أيضا: شوك الحاكة، قال:

وما راعنى إلّا الرماح تنوشه... كوَقْعِ الصَّياصِيْ في النسيجِ المُمَدَّدِ

وهى: شوكتا الديك، وهى: قرن البقرة أيضا".

قال ابن قتيبة:"{من صياصيهم} أي من حصونهم. وأصل «الصياصي»: قرون البقر؛ لأنها تمتنع بها وتدفع عن أنفسها. فقيل للحصون: صياصي، لأنها تمنع".

قال الزجاج:"يعنى به بنو قريظة، ومعنى {ظاهروهم}: عاونوهم على النبي ﷺ .. ومعنى الصياصى كل ما يمتنع به، والصياصي ههنا الحصون، وقيل القصور، والقصور قد يتحصن فيها، والصياصي: قرون البقر والظباء وكل قرن صيصية، لأن ذوات القرون يتحصن بقرونها وتمتنع بها، وصيصة الديك شوكته لأنه

=

=

يتحصن بها أيضا".

قال قتادة:"وهم: بنو قريظة، ظاهروا أبا سفيان وراسلوه، فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فبينا رسول الله ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه، وقد غسلت شقه، إذ أتاه جبرائيل ﷺ، فقال: عفا الله عنك؛ ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة، فانهض إلى بني قريظة، فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في زلزال وبلبال؛ قال: فاستلأم رسول الله ﷺ، ثم سلك سكة بني غنم، فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب؛ قال: فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصروهم وناداهم: «يا إخوان القردة»، فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشا، فنزلوا على حكم ابن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف، فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأومأ إليهم أبو لبابة إنه الذبح، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون}، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا قال: فإنكم كنتم ذوي عقار، وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم. وذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبر وقال: «قضى فيكم بحكم الله»".

قال ابن كثير:"قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضَري - لعنه الله - دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمدا

=

=

وأصحابه. فقال له كعب: بل والله أتيتني بذُلِّ الدهر. ويحك يا حيي، إنك مشؤوم، فدعنا منك. فلم يزل يفتل في الذِّروة والغَارب حتى أجابه، واشترط له حُيي إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم في الحصن، فيكون له أسوتهم. فلما نَقَضت قريظةُ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ساءه، وَشَقَّ عليه وعلى المسلمين جدًّا، فلما أيد الله ونَصَر، وكبت الأعداء وردَّهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدا منصورا، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوضَعت السلاح يا رسول الله؟ قال: "نعم". قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم. ثم قال: إن الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة. وفي رواية فقال له: عذيرَك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: "نعم". قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: "أين؟". قال: بني قريظة، فإن الله أمرني أن أزلزل عليهم. فنهض رسول الله ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: "لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة". فسار الناس، فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة. فلم يُعَنِّف واحدا من الفريقين. وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ –

=

سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعدا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان قد أصابه سهم في أكحَله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد فيما دعا به: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة. فاستجاب الله دعاءه، وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم. ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى سيدكم". فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم. فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: "إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت". قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قال: "نعم". قال: وعلى مَنْ في هذه الخيمة؟ قال: "نعم". قال: وعلى مَنْ هاهنا. - وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالا وإكرامًا وإعظامًا - فقال له رسول الله ﷺ: "نعم". فقال: إني أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم، وتُسبْى ذريتهم وأموالهم.

=

فقال له رسول الله ﷺ: "لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة". وفي رواية: "لقد حكمتَ بحكم المَلك". ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فَخُدّت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى مَنْ لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة، الذي أفردناه موجزا ومقتصًا. ولله الحمد والمنة".

أخرج الطبري بسنده عن ابن إسحاق، قال: "لما انصرف رسول الله ﷺ عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ. كما حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني محمد بن إسحاق، عن ابن شهاب الزهري: "معتجرا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج؛ فقال: أقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، ما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إلى بني قريظة"، فأمر رسول الله ﷺ مناديا، فأذن في الناس: "إن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة"، وقدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى إذا دنا من الحصون، سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ منهم فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخباث، قال: "لم؟ أظنك سمعت لي منهم أذى" قال: نعم يا رسول الله، قال: "لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا" فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: "يا إخوان القردة

=

هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ " قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا؛ ومر رسول الله ﷺ على أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: "هل مر بكم أحد؟ "فقالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج، فقال رسول الله ﷺ: "ذاك جبرائيل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم"؛ فلما أتى رسول الله ﷺ قريظة، نزل على بئر من آبارها في ناحية من أموالهم يقال لها: بئر أنا، فتلاحق به الناس، فأتاه رجال من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة"، فصلوا العصر فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسوله.

والحديث عن محمد بن إسحاق، عن أبيه، عن معبد بن كعب بن مالك الأنصاري، قال: وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب. وقد كان حيي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه؛ فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم؛ قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها؛ قالوا: وما هن؟ قال: نبايع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي كنتم تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره؛ قال: فإذا أبيتم هذه علي، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلا

=

يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنتخذن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؛ قال: فإذا أبيتم هذه علي، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا، فانزلوا لعلنا أن نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا؟ أما من قد علمت فأصابهم من المسخ ما لم يخف عليك؟ قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما، قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، -وكانوا من حلفاء الأوس- نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ؛ فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح؛ قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله؛ ثم انطلق أبو لبابة على وجهه. ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت وعاهد الله لا يطأ بني قريظة أبدا ولا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: "أما إنه لو كان جاءني لاستغفرت له، أما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه"؛ ثم إن ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، وهم نفر من بني هذيل ليسوا من بني قريظة، ولا النضير، نسبهم فوق ذلك، هم بنو عم القوم، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله ﷺ، وخرج في

=

تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظي، فمر بحرس رسول الله ﷺ، وعليه محمد بن مسلمة الأنصاري تلك الليلة؛ فلما رآه قال: من هذا؟ قال: عمرو بن سعدى؛ وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدا، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب، فلا يدرى أين ذهب من أرض الله إلى يومه هذا؛ فذكر لرسول الله ﷺ شأنه، فقال: "ذاك رجل نجاه الله بوفائه". قال: وبعض الناس كان يزعم أنه كان أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمته ملقاة، ولا يدرى أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ تلك المقالة، فالله أعلم.

فلما أصبحوا، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت، وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له؛ فلما كلمته الأوس، قال رسول الله ﷺ: "ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ "قالوا: بلى، قال: "فذاك إلى سعد بن معاذ"، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من أسلم يقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق "اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب" فلما حكمه رسول الله ﷺ في بني

=

قريظة، أتاه قومه فاحتملوه على حمار، وقد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلا جسيما، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى إليهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ؛ من كلمته التي سمع منه؛ فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال: "قوموا إلى سيدكم" فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ ولاك مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم كما حكمت؟ قال: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ؛ إجلالا له. فقال رسول الله ﷺ: "نعم"، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: فحدثني محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي، قال: قال رسول الله ﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة"، ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، التي هي سوقها اليوم، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالا وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ست مئة أو سبعمائة، والمكثر منهم يقول: كانوا من الثمانمائة إلى التسعمائة، وقد

=

=

قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا يا كعب، ما ترى ما يصنع بنا؟ فقال كعب: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وإنه من يذهب به منكم فما يرجع، هو والله، القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ، وأتي بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلة له فقاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة، أنملة أنملة؛ لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله، ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب الله وقدره، وملحمة قد كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه، فقال جبل بن جوال الثعلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه... ولكنه من يخذل الله يخذل

لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها... وقلقل يبغي العز كل مقلقل. وإسناده ضعيف.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسوق، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت: ويلك ما لك؟ قالت: أقتل؟ قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قال: فانطلق بها، فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: ما أنسى عجبي منها، طيب نفس، وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل". وإسناده ضعيف.

قوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الأحزاب: ٢٦]، أي:"وألقى في قلوبهم الخوف فهُزموا".

=

=

عن قتادة: " {وقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} قال: بصنيع جبريل".

قال الطبري:"يقول: وألقى في قلوبهم الخوف منكم".

قال السعدي:"فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا".

قال الزجاج:"فقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم على حكم سعد، وكان سعد حكم فيهم بأن يقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم".

قال ابن كثير:"لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ، وليس مَنْ يعلم كمن لا يعلم، فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا في الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب الفال، انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة".

قوله تعالى: {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} [الأحزاب: ٢٦]، أي:"تقتلون منهم فريقًا، وتأسرون فريقًا آخر".

قال الطبري:"يقول: تقتلون منهم جماعة، وهم الذين قتل رسول الله ﷺ منهم حين ظهر عليهم، وتأسرون منهم جماعة، وهم نساؤهم وذراريهم الذين سبوا".

قال ابن كثير:"فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء".

عن قتادة: " {فريقا تقتلون} : الذين ضربت أعناقهم، {وتأسرون فريقا} ، الذين سبوا".

قال يزيد بن رومان: "أي" قتل الرجال وسبي الذراري والنساء".

قال مقاتل:"فقتل منهم أربعمائة وخمسين رجلا {وتأسرون فريقا} ، يعني: وتسبون طائفة: سبعمائة وخمسين".

=

=

قال عطية القرظي: "عُرضتُ على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا فيَّ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت، فخلى عني وألحقني بالسبي".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم}: (أنزل) الضمير يعود على الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: {الذين ظاهروهم} أي: أعانوهم وساعدوهم، والمظاهرة بمعنى المساعدة، وتظاهر على كذا: أي: تساعد وتساند عليه، قال الله تعالى: {وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه} [التحريم: ٤]، وقال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨)} [الإسراء: ٨٨] يعين مساعدا ومعينا، فقوله تعالى: {ظاهروهم} أي: أعانوهم وساعدوهم من أهل الكتاب.

وقوله سبحانه وتعالى: {من أهل الكتاب} المراد بـ {من أهل الكتاب} اليهود والنصارى، لكن المراد بهم هنا في الآية: طائفة من اليهود، وهم بنو قريظة، وسبق أن بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع ثلاث قبائل من اليهود، قدم النبي ﷺ- المدينة وهم ساكنون فيها، فأجرى بينهم وبينه عهدا، ولكنهم نقضوا ذلك العهد، ولم يبق إلا بنو قريظة، ثم إن بني قريظة نقضوا العهد بمساعدة من الأحزاب على رسول الله ﷺ.

ولما رجع النبي عليه الصلاة والسلام من الأحزاب ودخل بيته واغتسل جاءه جبريل عليه السلام، وقال له: "اخرج لهؤلاء" مشيرا إلى بني قريظة فإنهم نقضوا العهد، فرجع، فأمر النبي ﷺ أصحابه أمرهم بالخروج وقال ﷺ: "لا يصلين أحد

=

=

العصر إلا في بني قريظة"، فما توانى الصحابة ﵃ وما تأخروا مع ما هم فيه من التعب والضعف، فخرجوا فحاصروا بني قريظة لمدة عشرين يوما حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ ﵁.

وقوله سبحانه وتعالى: {من صياصيهم} جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) يعني: أنزل هؤلاء من صياصيهم أي: من مآمنهم، والأصل في صياصي حظائر البقر؛ لأنها تؤمن فيها، فـ {من صياصيهم} يعني: من مآمنهم وحصونهم التي تحصنوا فيها، ولكن ذلك لم يغنهم من الله تعالى شيئا.

وقوله تعالى: {وقذف في قلوبهم الرعب} قذف: بمعنى: رمى، وهو أشد وقعا من قوله: وضع، يعني: لو قال: (وضع في قلوبهم الرعب) أفاد أن الرعب قد صار في القلوب، لكن إذا قال: (قذف) صار أشد.

و{الرعب} بمعنى: الخوف، وإذا وقع الخوف في القلب، فلا تسأل عن الخائف، إذ يظن أن الشجر إنسان، فلا يتصور الأمور على حقائقها حتى لو ناداه أحد من أصحابه ظن أنه عدوه يناديه؛ ليقتله، ولا أشد من سلاح يفتك بالعدو من الرعب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر".

أما إذا ثبت القلب واطمأن فإن المقاتل سيثبت كما قال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون} [الأنفال: ٤٥] وذكر الله سبحانه وتعالى تطمئن به القلوب، قال تعالى: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} [الرعد: ٢٨]، وأخبر الله ﷻ أن الله تعالى أنزل على أهل بدر المطر؛ ليثبت به الأقدام، وتكون به السكينة.

والحاصل: أن الرعب من أشد الأسلحة فتكا للعدو.

=

=

وقوله تعالى: {فريقا تقتلون وتأسرون فريقا} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فريقا تقتلون} منهم وهم المقاتلة {وتأسرون فريقا} منهم، أي: الذراري] فهم لما طال بهم الحصار، ونزلوا على حكم الرسول ﷺ خيرهم قال: "من تريدون أن تنزلوا على حكمه؟ " قالوا: نريد أن ننزل على حكم سعد بن معاذ. وكان سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حليفا لهم فظنوا أنه سيفعل مثلما فعل عبد الله بن أبي في حلفائه من اليهود حين شفع فيهم لرسول إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فتركهم، لكن سعدا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما جاء وكان في خيمة له في المسجد؛ لأنه أصيب في الأحزاب في أكحله، وضرب له النبي ﷺ خيمة في المسجد، ليعوده من قريب؛ لأنه سيد قومه -سيد الأوس- جاء على حمار من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مكان الحصار.

فأخبره النبي عليه الصلاة والسلام بأنهم حكموه، فقال: حكمي نافذ عليهم - ويشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أوحكمي فيهم نافذ؟! ويشير إلى الرسول ﷺ ويشير إليهم أيضا فقالوا: نعم! فالنبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك هؤلاء اليهود رضوا؛ فقال: لقد آن لسعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم! هذا مقام محنة عظيمة، فحكم فيهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بحكم عظيم حكم صائب مطابق للحق، قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أحكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم، وتغنم أموالهم؛ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات"، ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن تقتل مقاتلتهم وهم الرجال البالغون، وأما الذراري من النساء والرجال غير البالغين، فإنها تسبى والأموال تغنم، فقتلوا في المدينة ما بين السبع مئة إلى ثمان مئة.

=

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧).

{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضهمْ وَدِيَارهمْ وَأَمْوَالهمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} بعد وهي خيبر أخذت بعد قريظة {وكان الله على كل شيء قديرا}[1].

=

فقتلوا في يوم واحد بناء على حكم هم الذين رضوا به، فإذا هو معنى قوله تعالى: {فريقا تقتلون وتأسرون فريقا}.

وهنا قدم المفعول في قوله سبحانه وتعالى: {فريقا تقتلون} وأخر المفعول في قوله سبحانه وتعالى: {وتأسرون فريقا} فهل الفائدة من ذلك مراعاة الفواصل فقط فتكون الفائدة لفظية، أم أن هناك فائدة معنوية؟

الجواب: بل الأمران، وذلك لأن الحكم الأول أشد وأبلغ؛ فلهذا قدم مفعوله قال تعالى: {فريقا تقتلون} والثاني دون ذلك؛ لأن الأسير ربما يمن عليه بإطلاقه فقال: {وتأسرون فريقا} هذا مع مراعاة اللفظ الذي هو مراعاة الفواصل - فواصل الآيات-؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة: {فريقا كذبوا وفريقا يقتلون} [المائدة: ٧٠].

فلما كان التكذيب للرسل شديدا قدم فيه المفعول كما قدم المفعول في قتلهم، فهذه قصة الأحزاب انتهت على قوله تعالى: {وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا} [الأحزاب: ٢٧].

(١) قوله تعالى: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} [الأحزاب: ٢٧]، أي:"وملَّككم الله -أيها المؤمنون- أرضهم ومساكنهم وأموالهم المنقولة كالحليِّ والسلاح والمواشي، وغير المنقولة كالمزارع والبيوت والحصون

=

=

المنيعة".

قال الطبري:"يقول: وملككم بعد مهلكهم أرضهم، يعني مزارعهم ومغارسهم وديارهم، يقول: ومساكنهم وأموالهم، يعني سائر الأموال غير الأرض والدور".

قال السعدي:"أي: غنَّمكم أرضا كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم".

قال الزجاج:"جعل النبي ﷺ أرضهم وديارهم وأموالهم للمهاجرين لأنهم لم يكونوا ذوي عقار".

قوله تعالى: {وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} [الأحزاب: ٢٧]، أي:"وأورثكم أرضًا لم تتمكنوا مِن وطئها من قبل؛ لمنعتها وعزتها عند أهلها".

وفي قوله تعالى: {وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا} [الأحزاب: ٢٧]، أقوال:

أحدها: أنها مكة، قاله قتادة.

الثاني: خيبر، قاله السدي ، وابن زيد ، ويزيد بن رومان ، ويحيى بن سلام ، ومقاتل.

قال السمعاني:"أظهر الأقاويل: أنها خيبر".

الثالث: هي الروم وفارس، وما فتح الله عليهم. قاله الحسن.

الرابع: ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة، قاله عكرمة.

قال عكرمة:"يزعمون أنها خيبر، ولا أحسبها إلا كل أرض فتحها الله على المسلمين، أو هو فاتحها إلى يوم القيامة".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنه

=

=

أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم، وأرضا لم يطئوها يومئذ ولم تكن مكة ولا خيبر، ولا أرض فارس والروم ولا اليمن، مما كان وطئوه يومئذ، ثم وطئوا ذلك بعد، وأورثهموه الله، وذلك كله داخل في قوله {وأرضا لم تطئوها}، لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضا دون بعض".

عن أنس بن مالك قال: "كنت رديف أبي طلحة يوم فتحنا خيبر، إن ساقي لتصيب ساق النبي ﷺ، وفخذي فخذه فلما أشرفنا عليها قال النبي ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فأخذناها عنوة".

عن أنس بن مالك قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ غداة صبحنا خيبر، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ثم ركب، فلما أشرفنا عليها قالت اليهود: محمد والله والخميس قال: والخميس الجيش، فأخذناها عنوة".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب: ٢٧]، أي:"وكان الله على كل شيء قديرًا، لا يعجزه شيء".

قال الطبري: يقول:"وكان الله على أن أورث المؤمنين ذلك، وعلى نصره إياهم، وغير ذلك من الأمور ذا قدرة، لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه فعل شيء حاول فعله".

قال السعدي: أي: " لا يعجزه شيء، ومن قدرته، قدَّر لكم ما قدر".

قال العثيمين: قول المصنف: [{وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها} وهي خيبر وأخذت بعد قريظة {وكان الله على كل شيء قديرا}]،

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨).

{يَا أَيّهَا النَّبِيّ قُلْ لِأَزْوَاجِك} وَهُنَّ تِسْع وَطَلَبْنَ مِنْهُ مِنْ زِينَة الدُّنْيَا مَا لَيْسَ عِنْده {إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعكُنَّ} أَيْ مُتْعَة الطَّلَاق {وَأُسَرِّحكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} أُطَلِّقكُنَّ مِنْ غَيْر ضِرَار(١).

=

{وأورثكم أرضهم} (أورث) هذه تنصب مفعولين؛ المفعول الأول الكاف والثاني: {أرضهم}؛ والأرض والديار بينهما فرق، فالديار جمع دار، وهي المساكن والأحياء، وأما الأرض فهي أعم من ذلك، والأموال هي الأمتعة والدراهم والدنانير، وغير ذلك.

وقوله تعالى: {وأرضا لم تطئوها} يعني: ما وطئتموها حتى الآن، ولكنكم سترثونها، وهي أرض خيبر، فإن النبي ﷺ فتحها بعد ذلك في السنة السابعة.

وقوله تعالى: {وكان الله على كل شيء قديرا} فلا يعجزه شيء، وقدم المفعول لتحقق وقوع الفعل به؛ ولهذا قال تعالى: {وكان الله على كل شيء قديرا} ولا تقل كما يقول بعض الناس: (إنه على ما يشاء قدير)؛ لأنك إذا قلت: (على ما يشاء قدير) خصصت قدرته بما يشاء، مع أن القدرة تتعلق بالذي شاءه والذي لم يشأه، حتى الذي لم يشأه هو قادر عليه.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لم أزل حريصًا على (وفي رواية: لبثت سنة وأنا أريد) أن أسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله لهما: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}، [فما أستطيع أن أسأله؛ هيبة له (وفي

=

=

رواية: فلم أجد له موضعًا)، حتى خرج حاجًّا] فحججت معه، [فلما رجعت وكنا ببعض الطريق] (وفي رواية: بظهران)، فعدل [إلى الأراك لحاجة له]، وعدلت معه بالإداوة، فتبرز [فوقفت له] حتى جاء، [فقال: أدركني بالوضوء]، فسكبت على يديه من الإداوة، فتوضأ [ورأيت موضعًا]، فقلت: يا أمير المؤمنين! من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال لهما: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ}، فقال [ابن عباس: فما أتممت كلامي؛ حتى قال]: واعجبي لك يا ابن عباس! [تلك] عائشة وحفصة. [قال: فقلت: والله؛ إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع؛ هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم؛ خبَّرتك به، قال: ثم قال عمر: والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم]، (وفي رواية: فلما جاء الإسلام، وذكرهن الله؛ رأينا لهن بذلك علينا حقًا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا)، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، فقال:

إن كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد -وهي من عوالي المدينة- وكنا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل هو يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر (وفي رواية: الوحي) وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا -معشر قريش- نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، [قال: فبينا أنا في أمر أتأمره؛ إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال:] فصحت على امرأتي، فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني، [فقلت لها: ما لكِ ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟!]، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟! فوالله إن أزواج النبي ﷺ

=

=

ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل (وفي رواية: فقالت لي: عجبًا لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟!)؛ فأفزعني، فقلت [لها: قد] خابت من فعل منهن بعظيم، ثم جمعت علي ثيابي، فدخلت على حفصة، فقلت: أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت، أفتأمن (وفي رواية: خبت وخسرت، أفتأمنين) أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكين؟! لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله ﷺ، (وفي رواية: هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ) - يريد: عائشة -[ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجبًا لك يا ابن الخطاب! دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟! فأخذتني والله أخذًا؛ كسرتني عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها].

[وكان من حول رسول الله ﷺ قد استقام له، فلم يبق إلا ملك غسان بالشام، كنا نخاف أن يأتينا]، وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا [فقد امتلأت صدورنا منه] فنزل صاحبي [الأنصاري] يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أنائم (وفي رواية: أَثَمَّ) هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم! قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه، وأطول (وفي رواية: أهول)؛ طلق (وفي رواية: اعتزل) رسول الله ﷺ نساءه، قال: (وفي رواية: فقلت:) قد خابت حفصة وخسرت، [قد] كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون،

=

=

فجمعت عليّ ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل مشربة له [يرقى عليها بعجلة]، فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة؛ فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك؟! أوَلم أكن حذرتك؟! أطلقكن رسول الله ﷺ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المشربة، فخرجت، فجئت المنبر، فإذا حوله وهي يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلًا، ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود [على رأس الدرجة]: استأذن لعمر، فدخل، فكلم النبي ﷺ، ثم خرج، فقال: ذكرتك له فصمت، فانصرفت؛ حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت، فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فذكر مثله، فلما ولَّيت منصرفًا؛ فإذا الغلام يدعوني، قال: أذن لك رسول الله ﷺ، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثَّر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فسلمت عليه، ثم قلت -وأنا قائم-: [يا رسول الله! أ] طلقت نساءك؟ فرفع بصره إلي، فقال: "لا"، [فقلت: الله أكبر]، ثم قلت -وأنا قائم أستأنس-: يا رسول الله! لو رأيتني وكنا -معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا [المدينة] على قوم (وفي رواية: إذا قوم) تغلبهم نسائهم، فذكره، فتبسم النبي ﷺ، ثم قلت: لو رأيتني ودخلت على حفصة، فقلت [لها]: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي ﷺ -يريد: عائشة- (وفي رواية: فذكرت الذي قلت لحفصة وأم سلمة، والذي ردت عليّ أم سلمة)، فتبسم [تبسمة] أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر، غير أهبة ثلاثة [وإن عند رجليه قرظًا مصبوبًا]

=

=

فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وُسِّعَ عليهم، وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، [فجلس النبي ﷺ]، وكان متكئًا، فقال:

"أوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟! [إنَّ] أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا"، (وفي رواية: فبكيت، فقال: "ما يبكيك؟! "، فقلت: يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله ﷺ؟! فقال: "أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟! ")، فقلت: يا رسول الله! استغفر لي.

فاعتزل النبي ﷺ[نساءه] من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة [تسعًا وعشرين ليلة]، وكان قد قال: "ما أنا بداخل عليهن شهرًا"، من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله، فلما مضت تسع وعشرون؛ دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له عائشة: [يا رسول الله!] إنك [كنت] أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة؛ أعدها عدًا، فقال النبي ﷺ:

"الشهر تسع وعشرون"، وكان ذلك الشهر تسع وعشرون. قالت عائشة: فأُنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة [من نسائه]، فقال:

"إني ذاكر لك أمرًا، ولا عليك أن لا تعجلي؛ حتى تستأمري أبويك"، قالت: قد أعلم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، ثم قال:

"إنَّ الله [جلّ ثناؤه]، قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ} ... إلى قوله: {عَظِيمًا} "، قلت: في هذا أستأمر أبويَّ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، [فاخترته]، ثم خيَّر نساءه [كلهنَّ]، فقلن مثل ما قالت عائشة.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٤٦٨، ٥١٩١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٧٩ - ٣١ - ٣٤).

=

=

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فَأُذِنَ لأبي بكر؛ فدخل. ثم أقبل عمر فاستأذن؛ فَأُذِنَ له، فوجد النبي ﷺ جالسًا، حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أُضْحِكُ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنت خارجة! سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: "هن حولي كما ترى؛ يسألنني النفقة"، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن والله! لا نسأل رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)}، قال: فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة! إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أُحب أن لا تعجلي فيه؛ حتى تستشري أبويك"، قالت: وما هو يا رسول الله؟! فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله! أستشير أبوي؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: "لا تسألني امرأة إلا أخبرتها؛ إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا".

أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٧٨).

وعن أبي سلمة الحضرمي؛ قال: جلست مع أبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وهما يتحدثان، وقد ذهب بصر جابر، فجاء رجل فسلّم ثمّ جلس، فقال: يا

=

أبا عبد الله! أرسلني إليك عروة بن الزبير أسألك فيم هجر رسول الله ﷺ نسائه؟ فقال جابر: تركنا رسول الله يومًا وليلة لم يخرج إلى الصلاة؛ فأخذنا ما تقدم وما تأخر، فاجتمعنا ببابه نتكلم؛ ليسمع كلامنا ويعلم مكاننا، فأطلنا الوقوف فلم يأذن لنا ولم يخرج إلينا، قال: فقلنا: قد علم رسول الله مكانكم، ولو أراد أن يأذن لكم لأذن، فتفرقوا لا تؤذوه، فتفرق الناس غير عمر بن الخطاب يتنحنح ويتكلم ويستأذن، حتى أذن له رسول الله، قال عمر: فدخلت عليه وهو واضع يده على خده أعرف به الكآبة، فقلت: أي نبي الله! بأبي أنت وأمي ما الذي رابك وما لقي الناس بعدك من فقدهم لرؤيتك؟! فقال: "يا عمر! يسألني أولاء ما ليس عندي"؛ يعني: نساءه، فذاك الذي بلغ مني ما ترى"، فقلت: يا نبي الله! قد صككت جميلة بنت ثابت صكة ألصقت خدها منها بالأرض؛ لأنها سألتني ما لا أقدر عليه، وأنت يا رسول الله! على موعد من ربك وهو جاعل بعد العسر يسرًا، قال: فلم أزل أكلمه حتى رأيت رسول الله قد تحلل عنه بعض ذلك، قال: فخرجت، فلقيت أبا بكر الصديق فحدثته الحديث، فدخل أبو بكر على عائشة فقال: قد علمت أن رسول الله لا يدخر عنكن شيئًا؛ فلا تسألنه ما لا يجد، انظري حاجتك فاطلبيها إلي، وانطلق عمر إلى حفصة فذكر لها مثل ذلك، ثم اتبعا أمهات المؤمنين فجعلا يذكران لهن مثل ذلك، حتى دخلا على أم سلمة فذكرا لها مثل ذلك، فقالت لهما أم سلمة: ما لكما ولما هاهنا؟ رسول الله ﷺ أعلم بأمرنا عينًا، ولو أراد أن ينهانا لنهانا، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟ هل يدخل بينكما وبين أهليكما أحد؟ فما نكلفكما هذا، فخرجا من عندها، فقال أزواج النبي ﷺ لأم سلمة: جزاك الله خيرًا حين فعلت ما فعلت؛ ما قدرنا أن نرد عليهما شيئًا، ثم

=

قال جابر لأبي سعيد: ألم يكن الحديث هكذا؟ قال: بلى، وقد بقيت منه بقية، قال جابر: فأنا آتي على ذلك إن شاء الله، ثم قال: فأنزل الله في ذلك: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)}؛ يعني: متعة الطلاق، ويعني بتسريحهن: تطليقهن طلاقًا جميلًا، {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ}: تخترن الله ورسوله؛ فلا تنكحن بعده أحدًا.

فانطلق رسول الله ﷺ فبدأ بعائشة، فقال: "إن الله قد أمرني أن أخيّركن بين أن تخترن الله ورسوله والدار الآخرة وبين أن تخترن الدنيا وزينتها، وقد بدأت بك، فأنا أخيّرك"، قالت: أي نبي الله! وهل بدأت بأحد منهن قبلي؟ قال: "لا"، قالت: فإني أختار الله ورسوله والدار الآخرة، فاكتم علي ولا تخبر بذاك نساءك، قال رسول الله ﷺ: "بل أخبرهن"، فأخبرهن رسول الله ﷺ جميعًا؛ فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وكان خياره بين الدنيا والآخرة أن يخترن الآخرة أو الدنيا، قال: {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)}، فاخترن أن لا يتزوجن بعده، ثم قال: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}؛ يعني: الزنا، {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}؛ يعني: في الآخرة، {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}؛ يعني: تطع الله ورسوله، {وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} مضاعفًا لها في الآخرة، وكذلك العذاب: {وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، يقول: فجور، {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ

=

تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}، يقول: لا تخرجن من بيوتكن ولا تبرجن؛ يعني: إلقاء القناع، فعل أهل الجاهلية الأولى، فقال أبو سعيد: هذا الحديث على وجهه.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٩ - ١٨١): ثنا محمد بن عمر ثنا جارية بن أبي عمران قال: سمعت أبا سلمة الحضرمي به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه محمد بن عمر هو الواقدي؛ متروك الحديث، بل اتهمه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما بالكذب.

وجارية بن أبي عمران؛ قال أبو حاتم؛ كما في "الجرح والتعديل" (٢/ ٥٢١): "مجهول"، وكذا قال الذهبي في "الميزان" (١/ ٣٨٥).

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ} [الأحزاب: ٢٨]، أي:"يا أيها النبي قل لأزواجك اللاتي اجتمعن عليك، يطلبن منك زيادة النفقة إن كنتنَّ تردن الحياة الدنيا وزينتها، فأقبِلْنَ أمتعكنَّ شيئًا مما عندي من الدنيا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {قل} يا محمد، {لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن} يقول: فإني أمتعكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند

فراقهم إياهن بالطلاق بقوله: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦]".

قال مقاتل:"يقول: كما يمتع الرجل امرأته إذا طلقها سوى المهر".

قال مجاهد:"اعتزلهن رسول الله، ثم خيرهن، وذلك في زينب بنت جحش وكراهيتها لنكاح زيد بن حارثة حين أمرها به رسول الله ﷺ".

=

قال سعيد بن جبير:"أمر الله تعالى نبيه صلى الله ﷺ أن يخبر نساءه في هذه الآية، فلم تختر واحدة منهن نفسها غير الحميرية".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -من طريق شعيب- قال: "لما خيَّر رسول الله ﷺ نساءَه بدأ بعائشة، فقال: «إنّ الله خيَّركِ». فقالت: اخترتُ الله ورسوله. ثم خيّر حفصة، فقَبِلْنَ جميعًا، فاخترنَ الله ورسوله، غير العامرية اختارت قومها، فكانت بعد تقول: أنا الشقية. وكانت تلقط البَعْرَ وتبيعه، وتستأذن على أزواج النبي ﷺ وتسألهن، وتقول: أنا الشقية".

قوله تعالى: {وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب: ٢٨]، أي:"وأفارقكنَّ دون ضرر أو إيذاء".

قال الطبري:"يقول: وأطلقكن على ما أذن الله به، وأدب به عباده بقوله {إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن}".

قال السمعاني:"السراح الجميل: هو المفارقة الجميلة، وذلك من غير تعنيف ولا أذى".

عن عائشة -من طريق مسروق-:"{فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحًا جَمِيلًا}، قالت: خيّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يكن ذلك طلاقًا".

عن قتادة، والحسن، قالا:"أمره الله أن يخيّرهن بين الدنيا والآخرة، والجنة والنار -قال الحسن: في شيء كن أردنه من الدنيا. وقال قتادة: في غيْرة كانت غارتها عائشة- وكان تحته يومئذ تسع نسوة؛ خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وكانت تحته صفية بنت حي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش

=

الأسدية، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وبدأ بعائشة، فلما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رُئي الفرح في وجه رسول الله ﷺ فتتابعن كلهن على ذلك، فلما خيّرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة شكرهن الله على ذلك أن قال: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِن بَعْدُ ولا أنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِن أزْواجٍ ولَوْ أعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}. فقصره الله عليهن، وهن التسع اللاتي اخترن الله ورسوله".

أفاد قول الحسن وقتادة: أن النبي خير زوجاته بين الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق، وقد بيّن ابنُ عطية أن ذلك: «لأن التخيير يتضمن ثلاث تطليقات، وهو قد قال: {وأسرحكن سراحا جميلا}، وليس مع بتِّ الطلاق سراح جميل».

وروي عن علي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أن رسول الله ﷺ خَيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق".

قال ابن كثير:"وهذا منقطع، وقد رُوي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك، وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا} أي: أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن، وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم".

قال الزجاج:"وكن أردن شيئا من أمر الدنيا، فأمر الله رسوله ﷺ أن يخير نساءه بين الإقامة معه على طلب ما عند الله، أو التسريح إن أردن الحياة الدنيا وزينتها".

قال العثيمين: ثم قال سبحانه وتعالى: {ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها} قوله تعالى: {ياأيها النبي} لم يخاطب الله تعالى نبيه محمدا ﷺ إلا بوصف النبوة والرسالة {ياأيها النبي}، {ياأيها الرسول}، بينما

=

كان يخاطب غيره من الأنبياء كثيرا بأسمائهم مثل: يا موسى، يا نوح، يا إبراهيم، وما أشبه ذلك، وأما النبى عليه الصلاة والسلام في القرآن فلم يخاطبه الله تعالى باسمه يعني: لم يقل: يا محمد. وإن كان جعل ذلك في الأحاديث، لكن في القرآن: يا أيها النبي.

والنبي مسهل من النبيء بالهمزة، وقيل: إنه غير مسهل، واصل هذا الخلاف: هل النبي من النبأ أو من النبوة؟ إذا قلنا: من النبوة لم يكن فيه تسهيل؛ لأن الياء أصلية، وإذا قلنا: من النبأ ففيه تسهيل، وأصله النبيء، فسهلت الهمزة إلى ياء، والصحيح أنه مشتق من المعنيين جميعا، فإن النبيء مشتق من النبأ؛ لأنه منبأ منبئ ومشتق أيضا من النبوة؛ لعلو مرتبة النبيين.

قوله تعالى: {ياأيها النبي قل لأزواجك} الأزواج جمع زوج، والزوج في اللغة العربية يطلق على الأنثى والذكر، وفيه لغة ولكنها رديئة قليلة تقول للمرأة: زوجة.

ولكن هذه اللغة الرديئة القليلة هي التي استعملها الفرضيون، فتقولون: زوج. للذكر، وزوجة. للأنثى من أجل البيان والإيضاح، وهذا أمر لا بد منه في باب الفرائض.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{قل لأزواجك} وهن تسع]، خمس منهن قرشيات وأربع غير قرشيات [وطلبن منه من زينة الدنيا ما ليس عنده، طلبن منه نفقة كسوة وغير ذلك مما تريده النساء من الرجال من الأموال، والنبي عليه الصلاة والسلام كما نعلم جميعا كان قليل ذات اليد؛ لأنه كان ينفق ما عنده ولا يبقي لنفسه شيئا، فطلبن منه النفقة وضيقن عليه، وآلى منهن شهرا كاملا اعتزلهن ثم نزل في آخر

=

=

الشهر، فأنزل الله سبحانه وتعالى عليه هذه الآية: {ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها} إلى آخره.

وقوله تعالى: {إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها}: {إن} شرطية، وفعل الشرط (كان) {كنتن}، وجواب الشرط {فتعالين أمتعكن}.

وقوله تعالى: {الحياة الدنيا وزينتها} الحياة الدنيا يعني: متعها {وزينتها} ما فيها من الأموال والقصور والمراكب وما أشبه ذلك.

وقوله سبحانه وتعالى: {فتعالين} تعالين فعل أمر؛ لأنه تلحقه العلامات، فإذا كانت تلحقه العلامات فهو فعل أمر؛ ولهذا يقال: تعالين. ويقال: {تعالوا إلى كلمة سواء}، بخلاف (هلم) فإنها لا تلحقها العلامات، فهي اسم فعل؛ فقوله تعالى: {فتعالين} يعني: أقبلن إلي.

وقوله تعالى: {أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا} أمتعكن هذه جواب الطلب في قوله تعالى: {فتعالين} يعني: أعطيكن متاعا تتمتعن به {وأسرحكن سراحا جميلا} أطلقكن؛ لأن التسريح ضد التقييد، وهذا من الآداب العالية التي أمر الله تعالى بها نبيه محمدا ﷺ، وإلا كان مقتضى الحال أن يقول: إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أطلقكن، ولا خير فيمن لا تريد إلا الدنيا، ولكن من كمال الرعاية قال: أمتعكن وأسرحكن وأعطيكن مالا تتمتعن به وأسرحكن: أطلقكن.

وقوله تعالى: {سراحا جميلا} يعني: ليس فيه عداوة، وليس فيه بغضاء، وليس فيه حجر؛ لكن بعد ذلك؛ ولهذا لو أن هذا وقع لكان يحل لهن أن يتزوجن بغيره؛ لأن هذا من السراح الجميل، إذن لا فائدة من كونها تتسرح من الرسول-ﷺ ثم تبقى محبوسة، ولكن الأمر لم يقع.

=

وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

{وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُوله وَالدَّار الْآخِرَة} أَيْ الْجَنَّة {فَإِنَّ الله أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ} بإرادة الْآخِرَة {أَجْرًا عَظِيمًا} أَيْ الْجَنَّة فَاخْتَرْنَ الْآخِرَة على الدنيا[1].

=

وقوله تعالى: {فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا} أي: كل النساء كلهن.

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ} [الأحزاب: ٢٩]، أي:"وإن كنتن تردْنَ رضا الله ورضا رسوله وما أعدَّ الله لكُنَّ في الدار الآخرة".

قال الطبري:"يقول: وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وطاعتهما فأطعنهما".

قال الزجاج:"فاخترن الآخرة على الدنيا والجنة على الزينة".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٢٩]، أي:"فإن الله تعالى قد هيأ للمحسنات منكنَّ بمقابلة إحسانهن ثوابًا كبيرًا لا يوصف، وهو الجنة".

قال الطبري:"{فإن الله أعد للمحسنات منكن} وهن العاملات منهن بأمر الله وأمر رسوله {أجرا عظيما}".

قال الزجاج:"أي: من آثر منكن الآخرة فأجره أجر عظيم".

قال ابن كثير:"هذا أمر من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بأن يخَيّر نساءه بين أن يفارقهن، فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها،

=

=

وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن، رَضِيَ اللَّهُ عَنهُنَّ وأرضاهن، الله ورسوله والدار الآخرة، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة".

قال الشافعي: "فخيرهن رسول الله ﷺ فاخترنه، فلم يكن الخيار إذا اخترنه طلاقا، ولم يجب عليه أن يحدث لهن طلاقا إذا اخترنه، وكان تخيير رسول الله ﷺ إن شاء الله - كما أمره الله - عَزَّ وَجَلَّ - إن أردن الحياة الدنيا وزينتها ولم يخترنه، وأحدث لهن طلاقا لا ليجعل الطلاق إليهن، لقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: {فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا} حدث لكن إذا اخترتن الحياة الدنيا وزينتها متاعا وسراحا، فلما اخترنه، لم يوجب ذلك عليه أن يحدث لهن طلاقا ولا متاعا".

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قالت: «حلف رسول الله ﷺ ليهجرنا شهرا، فدخل علي صبيحة تسعة وعشرين، فقلت يا رسول الله، ألم تكن حلفت لتهجرنا شهرا؟ قال: إن الشهر هكذا وهكذا وهكذا وضرب بيده جميعا، وخنس يقبض إصبعا في الثالثة، ثم قال: يا عائشة، إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن تعجلي حتى تستشيري أبويك، وخشي رسول الله ﷺ حداثه سني، قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: إني أمرت أن أخيركن، ثم تلا هذه الآية: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها} إلى قوله: {أجرا عظيما}، قالت: فيم أستشير أبوي يا رسول الله؟ بل أختار الله ورسوله، فسر رسول الله ﷺ بذلك، وسمع نساؤه فتواترن عليه".

عن أبي سلمة، قال: "قالت عائشة: لما نزل الخيار، قال لي رسول الله ﷺ: "إني أريد أن أذكر لك أمرا فلا تقضي فيه شيئا حتى تستأمري أبويك". قالت: قلت:

=

=

وما هو يا رسول الله؟ قال: فرده عليها. فقالت: ما هو يا رسول الله؟ قال: فقرأ عليهن {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها...}، إلى آخر الآية، قالت: قلت: بل نختار الله ورسوله، قالت: ففرح بذلك النبي ﷺ".

وفي رواية:"فقلت: إني أريد الله ورسوله، والدار الآخرة، ولا أؤامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ، ثم استقرأ الحجر فقال: "إن عائشة قالت كذا"، فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة".

قال العثيمين: قول المصنف: [{والدار الآخرة} أي: الجنة؛ {فإن الله أعد للمحسنات منكن} بإرادة الآخرة {أجرا عظيما} أي: الجنة].

وإنما بدأ بالدنيا {إن كنتن تردن الحياة الدنيا}؛ لأنهن كن يطالبن بالنفقة، وهي مما يتعلق بالدنيا.

قال سبحانه وتعالى: {وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة}، وهذه هي الحال الثانية لهن؛ فإن الله تعالى أعد للمحسنات منكن، ولم يقل: لكن. بل قال: {للمحسنات} فأظهر في موضع الإضمار ليتبين أن هذه الإرادة إحسان، وأنهن إذا أردن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة؛ فإن ذلك من الإحسان، وأن الله تعالى أعد للمحسنات منهن أجرا عظيما.

و(من) هنا ليست للتبعيض، ولكنها للبيان، فتشمل ما لو أردن كلهن الله سبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام والدار الآخرة، فإن الله تعالى يعد لهن جميعا أجرا عظيما.

فبدأ عليه الصلاة والسلام أول ما بدأ بأحب نسائه إليه، وهي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقال لها: "لا عليك ألا تستعجلي، فتستأمري أبويك"، خاف أنها شابة صغيرة أنها

=

تتعجل وتقول: أريد الدنيا، فطلب منها ألا تتعجل حتى تستأمر أبويها، يعني: تستأذنهما، ومعلوم أن أبويها لا يريدان لها أن تختار الدنيا وزينتها على الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، ولكنها رضي الله عنها كان لها على صغر سنها نظرة بعيدة، فقالت: يا رسول الله، أفي هذا أستأمر أبوي! يعني: هذا أشاور فيه أبوي؟! لا، إنما أريد الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام والدار الآخرة، ولكن لا تخبر نساءك بما قلت، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إنما بعثت ميسرا لا متعنتا ومعنتا، وأي امرأة تسألني فسأخبرها"، لكن كل نسائه ما سألن، كل امرأة تقول: إنها تريد الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، فصرن على الحال الكاملة رضي الله عنهن، على ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام من شغف العيش، وقلة ذات اليد، ومع هذا وفقهن الله تعالى ومن عليهن، وهذا بلا شك من عناية الله تعالى برسوله ﷺ، أن يختار له مثل هؤلاء النساء فكان جزاؤهن أن الله تعالى قال له: {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك} [الأحزاب: ٥٢].

فهؤلاء النسوة اللاتي اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، بعد أن خيرن كان لهن -مع ما في ثواب الآخرة- هذا الجزاء الدنيوي، أن الرسول منع من أن يتزوج بعد ذلك بواحدة من النساء أو يبدل واحدة بامرأة جديدة، {ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا}، والله تعالى أعلم.

وقوله رحمه الله: [{بفاحشة مبينة} بفتح الياء وكسرها] مبينة مبينة [أي: بينت أو هي بينة، {يضاعف} وفي قراءة بالتضعيف: "يضعف" بالتشديد، وفي أخرى

يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠).

{يَا نِسَاء النَّبِيّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَة} بِفَتْحِ الْيَاء وَكَسْرهَا أَيْ بَيَّنَتْ أَوْ هِيَ بَيِّنَة {يُضَاعِف} وَفِي قِرَاءَة يُضَعَّف بِالتَّشْدِيدِ وَفِي أُخْرَى نُضَعِّف بِالنُّونِ مَعَهُ وَنُصِبَ الْعَذَاب {لَهَا الْعَذَاب ضِعْفَيْنِ} ضِعْفَيْ عَذَاب غَيْرهنَّ أَيْ مثليه {وكان ذلك على الله يسيرا}[١].

=

"نضعف" بالنون معه مع التشديد ونصب العذاب] "نضعف لها العذاب" ففيها إذن ثلاث قراءات: يضاعف، ويضعف، ونضعف، فعلى القراءتين الأوليين يكون العذاب بالرفع يضاعف أو يضعف العذاب بالرفع نائب فاعل، وعلى القراءة الثالثة: "نضعف" يكون العذاب بالنصب على أنه مفعول به، ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: [{يضاعف لها العذاب ضعفين} ضعفي عذاب غيرهن، أي: مثليه، {وكان ذلك على الله يسيرا}].

(١) قوله تعالى: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} [الأحزاب: ٣٠]، أي:"يا نساء النبي مَن يأت منكن بمعصية ظاهرة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لأزواج النبي ﷺ: {يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة} يقول: من يزن منكن الزنا المعروف الذي أوجب الله عليه الحد".

عن مقاتل بن سليمان، قوله: " {يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة}، يعني: العصيان للنبي ﷺ".

وقال السدي:"يعني: الزنا".

وقال ابن عباس:"النشوز وسوء الخلق".

=

قال ابن كثير: أن قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشةٍ مُّبَيِّنَةٍ} "هو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: ٦٥]، وكقوله: {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨]، {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]، {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر: ٤]، فلما كانت محلَّتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع؛ ولهذا قال: {مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}".

قوله تعالى: {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} [الأحزاب: ٣٠]، أي:"يُضاعَف لها العذاب مرتين".

قال الطبري: يقول:"{يضاعف لها العذاب} على فجورها في الآخرة {ضعفين} على فجور أزواج الناس غيرهم".

قال ابن أبي زمنين:"أي: يجعل مثلين؛ الضعف في اللغة: المثل، يقال: هذا ضعف هذا؛ أي: مثله".

قال أبو عبيدة:"«يُضاعَفْ «٥» لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ» (٢٩) أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذبة لأن ضعف الشيء مثله، وضعفى الشيء مثلا الشيء ومجاز «يُضاعَفْ» أي يجعل الشيء، شيئين حتى يكون ثلاثة فأما قوله ويضعّف أي يجعل الشيء شيئين".

قال الزجاج:"وقال أبو عبيدة: يعذب ثلاثة أعذبة، قال: كان عليها أن يعذب مرة واحدة، فإذا ضوعفت المرة ضعفين، صار العذاب ثلاثة أعذبة. وهذا القول ليس

=

بشيء، لأن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين يجعل عذاب جرمها - كعذابي جرمين، والدليل عليه {نؤتها أجرها مرتين}، فلا يكون أن تعطى على الطاعة أجرين وعلى المعصية ثلاثة أعذبة، ومعنى: «ضعف الشيء»: مثله، لأن ضعف الشيء الذي يضعفه بمنزلة مثقال الشيء".

عن مقاتل بن سليمان، قوله: " {يضاعف لها العذاب ضعفين}، في الآخرة".

عن ابن عباس: " {يضاعف لها العذاب ضعفين}، قال: يعني: عذاب الآخرة".

وقال قتادة:"عذاب الدنيا وعذاب الآخرة".

قال سعيد بن جبير:"يجعل عذابهن ضعفين، ويجعل على من قذفهن الحد ضعفين".

قال الجصاص:"قيل في تضعيف عذابهن وجهان:

أحدهما: أنه لما كانت نعم الله عليهن أكثر منها على غيرهن بكونهن أزواجا للنبي ﷺ ونزول الوحي في بيوتهن وتشريفهن بذلك، كان كفرانها منهن أعظم وأجدر بعظم العقاب؛ لأن النعمة كلما عظمت كان كفرانها أعظم فيما يستحق به من العقاب؛ إذ كان استحقاق العقاب على حسب كفران النعمة، ألا ترى أن من لطم أباه استحق من العقوبة أكثر مما يستحقه من لطم أجنبيا لعظم نعمة أبيه عليه وكفرانه لها بلطمته؟ ويدل على هذا التأويل قوله تعالى في نسق التلاوة: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} فدل على أن تضعيف العذاب عليهن بالمعصية لأجل عظم النعمة عليهن بتلاوة آيات الله في بيوتهن، ومن أجل ذلك عظمت طاعاتهن أيضا بقوله: {ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين} لأن الطاعة في استحقاق الثواب بها بإزاء

=

=

المعصية في استحقاق العقاب بها.

والوجه الآخر: أن في إتيانهن المعاصي أذى للنبي ﷺ لما يلحق من العار والغم، ومعلوم أن من آذى النبي ﷺ فهو أعظم جرما ممن آذى غيره، وقال تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} ثم قال: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا}. ولما عظم الله تعالى طاعات أزواج النبي ﷺ وأوجب بها الأجر مرتين دل بذلك على أن أجر العامل العالم أفضل وثوابه أعظم من العامل غير العالم، وقوله تعالى: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة} قد دل على ذلك".

قال الربيع بن أنس:"إن الحجة على الأنبياء أشد منها على الأتباع في الخطيئة، وإن الحجة على العلماء أشد منها على غيرهم، فإن الحجة على نساء النبي ﷺ أشد منها على غيرهن، فقال: إنه من عصى منكن فإنه يكون عليها العذاب الضعف منه على سائر نساء المؤمنين، ومن عمل صالحا فإن الأجر لها الضعف على سائر نساء المسلمين".

قوله تعالى: {وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا} [الأحزاب: ٣٠]، أي:"وكان ذلك العقاب على الله يسيرًا".

قال الطبري: يقول:"وكانت مضاعفة العذاب على من فعل ذلك منهن {على الله يسيرا}".

قال الصابوني:"أي: كان ذلك العقاب سهلًا يسيرًا على الله، لا يمنعه منه كونهنَّ أوزاج ونساء النبي ﷺ، وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجَّه الخطاب إِليهنَّ هنا مباشرةً لإِظهار الاعتناء

=

=

بأمرهن ونصحهن".

قال مقاتل بن سليمان: "يقول: وكان عذابها عند الله هينا".

قال عكرمة:"وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، وكانت تحته صفية ابنة حيي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق".

قال ابن كثير:"ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضي الله عنها، في الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف.

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تُسلِّي رسول الله ﷺ وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدَّت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضي الله عنه.

=

=

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فأقرأها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب وهذه لعَمْر الله خاصة، لم تكن لسواها.

وأما عائشة، رضي الله عنها، فإن جبريل سلَّم عليها على لسان النبي ﷺ، فروى البخاري بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: "يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام". فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ.

ومن خواص خديجة، رضي الله عنها: أنه لم تسوءه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاءً، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة.

فلمَّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضي الله عنها، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤي، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبي ﷺ تقربًا إلى رسول الله ﷺ، وحبا له، وإيثارا لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهي راضية بذلك مؤثرة، لترضي رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين

=

=

قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى، وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه في البخاري وغيره، أنه سئل أي الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة". قيل: فمن الرجال؟ قال: "أبوها".

ومن خصائصها أيضا: أنه لم يتزوج بكرا غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحي وهو في لحافها دون غيرها.

ومن خصائصها: أن الله، ﷻ، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: "ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك". فقالت: أفي هذا أستأمر أبويَّ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ، وقلن كما قالت.

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها، وبراءتها، وحيا يتلى في محاريب المسلمين، وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها أنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن بذلك الذي قيل فيها شر لها، ولا عيب لها، ولا خافض من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها. وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت: ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى،

=

=

ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها، فهذه صديقة الأمة، وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها، وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن قد صام يوما أو يومين، أو شهرا أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويُغتنم بصالح دعائهم، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم.

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان، ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الصميم، والعقل غير المستقيم، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيما، وهو عند الله حقير، ومن خصائص عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن الأكابر من الصحابة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين، استفتوها فيجدون علمه عندها.

ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ توفي في بيتها. ومن خصائصها: أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في خرقة حرير، فقال النبي ﷺ: "إن يكن هذا

=

=

من عند الله يمضه".

ومن خصائصها: أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقربًا إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، رضي الله عنهن أجمعين، وتكنى أم عبد الله، وروي أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطًا، ولا يثبت ذلك.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدرا، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسي في مختصره في السيرة: أن النبي ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة.

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشي أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهي التي أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنتين وستين، ودفنت بالبقيع، وهي

=

=

آخر أزواج النبي ﷺ موتًا، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبي ﷺ، وهي عنده فرأته في صورة دحية الكلبي. ففي صحيح مسلم عن أبي عثمان قال: أنبئت أن جبريل أتى النبي ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: "من هذا؟ " أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمي: فقلت لأبي عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد وزوَّجها ابنها - عمر - من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم في صحيحه أن عمر بن أبي سلمة - ابنها - سأل النبي ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: "سل هذه" يعني: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: "إني أتقاكم لله وأعلمكم به" أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جدا، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال البيهقي: وقول من زعم أنه كان صغيرا، دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح.

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بني خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات، وأنزل عليه: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} فقام فدخل عليها بلا استئذان، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوَّجكن أهاليكن وزوَّجني الله من فوق سبع

=

=

سمواته، وهذا من خصائصها. توفيت بالمدينة سنة عشرين، ودفنت بالبقيع.
وتزوج النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية، وكانت تحت عبد الله بن جحش، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمى أم المساكين، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيرا، شهرين أو ثلاثة، وتوفيت، رضي الله عنها.
وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وكانت سبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين، وهي التي أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، وكان ذلك من بركتها على قومها.
وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، من ولد هارون بن عمران أخي موسى، سنة سبع، فإنها سبيت من خيبر، وكانت قبله تحت كنانة بن أبي الحقيق، فقتله رسول الله ﷺ، توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين. ومن خصائصها: أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها. قال أنس: أمهرها نفسها، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد، رحمه الله. قال الترمذي: حدثنا إسحاق بن منصور، وعبد بن حميد، قالا حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن ثابت، عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: صفية بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: "ما يبكيك؟ " قالت: قالت لي حفصة: إني ابنة يهودي. فقال النبي ﷺ: "إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبما تفخر عليك؟ " ثم قال: "اتق الله يا حفصة". قال الترمذي: هذا حديث صحيح
=

=

غريب من هذا الوجه. وهذا من خصائصها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوجها بسَرَف وهو على تسعة أميال من مكة، وهي آخر من تزوج من أمهات المؤمنين، توفيت سنه ثلاث وستين، وهي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهي التي اختلف في نكاح النبي ﷺ لها. هل نكحها حلالا أو مُحرمًا؟ والصحيح إنما تزوجها حلالا كما قال أبو رافع الشفير في نكاحها.

قال الحافظ أبو محمد المقدسي وغيره: وعقد على سبع ولم يدخل بهن، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة، وأنهن نساؤه ﷺ في الدنيا والآخرة، فمن فارقها في حياتها ولم يدخل، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتي دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يانساء النبي} النداء من الله عَزَّ وَجَلَّ، موجه إلى زوجات الرسول ﷺ، وذلك لأهمية ما سيوجه إليهن؛ ولتنبيههن على ما سيلقى إليهن: {من يأت منكن بفاحشة}: {من} هذه شرطية، وفعل الشرط {يأت} و {يضاعف} جواب الشرط.

وما المراد بالفاحشة: هل المراد بالفاحشة (الزنا)، أو المراد بالفاحشة (الكلام البذيء والمتطاول فيه على رسول الله ﷺ والخارج عن المروءة)؛ أو المراد هذا وهذا؟

قال بعض أهل العلم رحمهم الله: إن المراد الأخير، ولا يراد به الزنا، مع أن الفاحشة تأتي في القرآن مرادا بها الزنا، وتأتي مرادا بها بذاءة اللسان والتطاول، قال الله سبحانه وتعالى: {واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة

=

=

منكم} [النساء: ١٥]، فالمراد بالفاحشة هنا الزنا، وقال تعالى: {لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} [الطلاق: ١]، والمراد بالفاحشة هنا بذاءة اللسان وسلاطته؛ فإذا كانت بذيئة اللسان سليطته تأتي بكلمات خارجة عن المرؤة؛ فلزوجها أن يخرجها من البيت أثناء العدة.

وهذه الآية إن قلنا بأنها تشمل الفاحشة التي هي الزنا، والفاحشة التي هي بذاءة اللسان؛ فإن ذلك لا يعني أنه يقع منهن، لأن الشرط لا يلزم وقوعه، كما قال الله تعالى: {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين} [الزخرف: ٨١]، وهل يمكن ذلك؟! لا يمكن؛ وقال تعالى: {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا} [الأنبياء: ٢٢]، وهل يمكن ذلك؟ لا يمكن، وقال تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: ٦٥]، لا يمكن هذا أبدا، فالإتيان بالشيء معلقا بالشرط لا يلزم منه جواز وقوع الشرط، وعلى هذا فلتكن الآية {من يأت منكن بفاحشة} شاملة للزنا، لكن هذا شيء محال.

أما إذا قلنا: إن المراد بالفاحشة هي سلاطة اللسان، والخروج بالقول عن المألوف والمروءة، فهذا قد يقع من النساء حتى من أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُن ولا عيب عليهن في ذلك، لأنه من طبيعة النساء: الغيرة، وعدم حفظ اللسان، وعدم التأني في الأمور، وأيا كان فإن الله عليه الصلاة والسلام يقول: {من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين} وذلك لشرفها وعلو منزلتها، فكان الذنب منها أعظم من الذنب من غيرها؛ ولهذا إذا زنت الحرة تجلد أو ترجم، وإذا زنت الأمة فليس عليها إلا نصف ما على المحصنات من العذاب؛ لشرف الأولى وانحطاط مرتبة الثانية، فزوجات الرسول ﷺ لهن من المقام الرفيع،

=

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١).

{وَمَنْ يَقْنُت} يُطِعْ {مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُوله وَتَعْمَل صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرهَا مَرَّتَيْنِ} أَيْ مِثْلَيْ ثَوَاب غَيْرهنَّ مِنْ النِّسَاء وَفِي قِرَاءَة بِالتَّحْتَانِيَّة فِي تَعْمَل وَنُؤْتِهَا {وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} فِي الجنة زيادة[1].

=

والحصن المنيع ما يقتضي أن يضاعف العذاب عليهن، إذا أتين بفاحشة مبينة، ولهذا قال تعالى {يضاعف لها العذاب ضعفين}:

فإذا كان جزاء سيئة سيئة مثلها، فجزاء السيئة التي ذكر الله سبحانه وتعالى هنا الفاحشة المبينة بالنسبة لزوجات الرسول سيئتان، جزاؤها سيئتان؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {يضاعف لها العذاب ضعفين}، أي: يكرر عليها مرتين، وكان ذلك، أي: تضعيف العذاب عليهن.

وقوله تعالى: {وكان ذلك على الله يسيرا}؛ فالمشار إليه هو تضعيف العذاب، كان ذلك يسيرا على الله تعالى، ليس صعبا عليه، وقال تعالى: {وكان ذلك على الله يسيرا}؛ لئلا يظن ظان أن هذا أمر صعب على الله تعالى؛ لكون الأمر يتعلق بزوجات نبيه محمد ﷺ فبين الله ﷻ أن هذا أمر يسير عليه، لأنه سبحانه وتعالى ليس بينه وبين خلقه نسب، وأكرم الخلق عنده أتقاهم له، كما قال الله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات: ١٣].

(١) قال تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا} [الأحزاب: ٣١]، أي:"ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل بما أمر الله به".

قال مقاتل: " يعني: من يطع منكن لله ورسوله وتعمل صالحا".

=

=

قال ابن كثير:"ثم ذكر عدله وفضله في قوله: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} أي: يطع الله ورسوله ويستجب".

قال الزجاج:"معنى {يقنت}: يقيم على الطاعة".

عن ابن عون، قال: "سألت عامرا عن (القنوت)، قال: وما هو؟ قال: قلت {وقوموا لله قانتين}، قال: مطيعين، قال: قلت {ومن يقنت منكن لله ورسوله}؟ قال: يطعن".

قال قتادة:"أي: من يطع منكن لله ورسوله".

قال قتادة:"كل قنوت في القرآن طاعة".

عن ابن عباس، قوله: " {ومن يقنت منكن لله ورسوله...}، الآية، يعني: من تطع الله ورسوله {وتعمل صالحا}؛ تصوم وتصلي".

قال تعالى: {نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ} [الأحزاب: ٣١]، أي:"نُعْطها ثواب عملها مثلَي ثواب عمل غيرها من سائر النساء".

قال مقاتل بن سليمان: " {نؤتها أجرها مرتين} في الآخرة بكل صلاة أو صيام أو صدقة أو تكبيرة أو تسبيحة باللسان مكان كل حسنة تكتب عشرين حسنة وأعتدنا لها رزقا كريما يعني حسنا وهي الجنة".

قال يحيى: "بلغني أن رجلا سأل الحسن قال: أين يضاعف لها العذاب ضعفين؟ قال: حيث تؤتى أجرها مرتين".

قال تعالى: {وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا} [الأحزاب: ٣١]، أي:"وأعددنا لها رزقًا كريمًا، وهو الجنة".

قال قتادة:"وهي الجنة".

=

=

قال مقاتل بن سليمان: " يعني: حسنا، وهي الجنة".

قال ابن كثير: "أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ، في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق، في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش".

قال العثيمين: هذه عكس الأولى، لما كن إذا أتين بفاحشة مبينة، ضعف العذاب عليهن، جازاهن الله تعالى بالعفو من جهة أخرى فقال سبحانه وتعالى: {ومن يقنت منكن لله ورسوله} [يقنت: يطع]، ولكن القنوت لله سبحانه وتعالى غير القنوت للرسول ﷺ، القنوت لله تعالى قنوت عبادة وتذلل وتعظيم، والقنوت للرسول عليه الصلاة والسلام قنوت طاعة الزوج، وليس هو كقنوتهن لله ﷻ.

قال تعالى: {ومن يقنت منكن لله ورسوله}: {لله} في الطاعة والعبادة و (لرسول الله) ﷺ بأداء حقوقه التي تجب للزوج على زوجته.

وقوله تعالى: {ومن يقنت منكن لله ورسوله} تعمل عملا صالحا، والعمل الصالح ما كان خالصا صوابا، والخالص الصواب يعني أنه جمع بين الشرطين الأساسيين في كل عبادة، وهما الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فكل عبادة لا بد فيها من هذين الشرطين، فمن اتبع الرسول ﷺ ولم يخلص لله تعالى؛ فصلاته باطلة، لأنها رياء، ومن أخلص لله تعالى ولم يتبع الرسول ﷺ فصلاته باطلة أيضا، فعبادته باطلة لقوله عليه الصلاة والسلام: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد".

فالمتابعة مع الإخلاص، وإذا وجد متابعة بدون إخلاص فلا يقبل العمل، وإذا وجد إخلاص بلا متابعة فلا يقبل، فلا بد من الأمرين، وهكذا إذا ذكر الله ﷻ عملا صالحا؛ فالمراد بالصالح ما تضمن هذين الشرطين الأساسيين.

=

قال الله سبحانه وتعالى: {نؤتها أجرها مرتين}: {نؤتها} لم يقل: (نؤتيها) بالياء؛ لأنها جواب الشرط -وهو قوله تعالى: {ومن يقنت} - يكون مجزوما، والفعل هنا مجزوم بحذف حرف العلة، وأصله نؤتيها، فلما جزم حذف حرف العلة {نؤتها}؛ فمعنى: {نؤتها} أي: نعطها؛ ولهذا نصبت مفعولين المفعول الأول (ها)، والثاني {أجرها}.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{نؤتها أجرها مرتين} أي: مثلي ثواب غيرهن من النساء، وفي قراءة بالتحتانية في "تعمل"] (ويعمل) [و {نؤتها}] يعني: و"يؤتها" والقراءة هذه سبعية، حسب اصطلاح المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، و"يؤتها" أي: الله، و {نؤتها} أي: نحن فالضمير يعود على الله عَزَّ وَجَلَّ.

فقوله سبحانه وتعالى: {نؤتها أجرها مرتين} أي: كما أنها إذا أتت بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب يوم القيامة، فإذا قنتت لله تعالى ورسوله ﷺ، وعملت صالحا آتاها الله تعالى أجرها مرتين، وإيتاء الأجر مرتين ليس بغريب؛ فقد أثبت الله تعالى الأجر مرتين في عدة مسائل، مثل: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون} [القصص: ٥٤].

وأخبر النبى عليه الصلاة والسلام أن الرجل من أهل الكتاب إذا آمن بكتابه، ثم آمن بمحمد ﷺ، فإن الله تعالى يؤتيه أجره مرتين، وقال كثير من أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ في قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته} [الحديد: ٢٨]: إن هذا هو أجر هذه الأمة: يضاعف على غيرها مرتين.

والمهم: أن فضل الله تعالى واسع، فقد يصيب العامل أجره مرتين لسبب من الأسباب.

يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢).

{يَا نِسَاء النَّبِيّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ} كَجَمَاعَةٍ {مِنْ النِّسَاء إنْ اتَّقَيْتُنَّ} الله فَإِنَّكُنَّ أَعْظَم {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ} لِلرِّجَالِ {فَيَطْمَع الَّذِي فِي قَلْبه مَرَض} نِفَاق {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} مِنْ غَيْر خضوع[1].

=

وقوله تعالى: {وأعتدنا لها رزقا كريما}: (أعتدنا) أي: هيأنا لها، {رزقا} عطاء {كريما} حسنا وكثيرا، لأن الكرم في كل موضع بحسبه؛ فالكريمة من الشاة معناها: الحسنة الجميلة، الكثيرة اللبن، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: "فإياك وكرائم أموالهم".

وهنا المراد بالرزق الكريم: العطاء الكثير الحسن الجميل، وهذا إنما يكون في الجنة، كما يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الجنة زيادة].

(١) قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ} [الأحزاب: ٣٢]، أي:"يا نساء النبيِّ -محمد- لستنَّ في الفضل والمنزلة كغيركنَّ من النساء، إن عملتن بطاعة الله وابتعدتن عن معاصيه".

قال ابن كثير:"هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال مخاطبا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة".

عن قتادة: {لستن كأحد من النساء}، قال:"كأحد من نساء هذه الأمة".

قال قتادة:"أنتن أزواج النبي ﷺ ومعه تنظرن إلى النبي ﷺ وإلى الوحي الذي يأتيه من السماء، وأنتن أحق بالتقوى من سائر النساء، تشروا إلى قوله: بكل شيء

=

=

عليما عن مجاهد رضي الله، عنه في قوله: فيطمع الذي في قلبه مرض يعني الزنا".

قوله تعالى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب: ٣٢]، أي:"فلا تتحدثن مع الأجانب بصوت لَيِّن يُطمع الذي في قلبه فجور ومرض في الشهوة الحرام".

قال ابن كثير:"معنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها".

عن السدي:"{فلا تخضعن بالقول}، قال: لا ترفثن بالقول".

عن قتادة:"{فيطمع الذي في قلبه مرض}، قال: «نفاق»".

عن مجاهد: " {فيطمع الذي في قلبه مرض}، يعني: الزنا".

وقال عكرمة:"شهوة الزنا".

قوله تعالى: {وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [الأحزاب: ٣٢]، أي:"وقُلن قولا بعيدًا عن الريبة، لا تنكره الشريعة".

قال الطبري:"يقول: وقلن قولا قد أذن الله لكم به وأباحه".

عن عطاء بن يسار: " {وقلن قولا معروفا} يعني كلاما ظاهرا ليس فيه طمع لأحد".

عن محمد بن كعب:"{وقلن قولا معروفا} / يعني: كلاما ليس فيه طمع لأحد".

قال ابن زيد:"قولا جميلا حسنا معروفا في الخير".

قال ابن عباس: يكلمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

وقال الحسن: "فلا تكلمن بالرفث".

=

=

وقال الكلبي:"هو الكلام الذي فيه ما يهوى المريب".

وقال الكلبي:"صحيحًا جميلًا لا يطمع فاجر".

قال العثيمين: قوله: {يانساء النبي} الخطاب هنا وجهه الله ﷻ بعد أن وجهه لرسوله ﷺ: وجهه إلى نسائه، فقال تعالى: {يانساء النبي}، وهذا بعد التخيير يدل على أن الزوجية استقرت لزوجات النبي ﷺ؛ ولهذا خاطبهن في قوله ﷻ: {يانساء النبي لستن كأحد من النساء}، {لستن} أصلها (ليس)، لكنه لما سكنت السين حذفت الياء؛ لأنها حرف لين، والحرف اللين عند التقاء الساكنين يحذف كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن ساكنان التقيا اكسر ما سبق ... وإن يكن لينا فحذفه استحق

وقوله: {لستن كأحد} يعني: أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام لسن كأحد يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كجماعة من النساء] وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كجماعة من النساء] فيه نظر؛ لأن (أحد) تطلق على الفرد، يعني: ليس هناك أحد من النساء مثلكن، لستن كأحد من النساء، أي: لا تشبهن أحدا، واحدة فأكثر من النساء.

وقوله تعالى: {من النساء} أي: سواكن، إن اتقيتن الله تعالى فإنكن أعظم، يعني: لستن كأحد من النساء إن اتقيتن، والمراد بالشرط: الحث والإغراء على التقوى، يعني: إن كنتن متقيات لله تعالى حقيقة فلا تقسن أنفسكن بغيركن فلستن كأحد من النساء؛ لما لهن من المزية بالاتصال برسول الله ﷺ، فكان عليهن من حماية فراشه أعظم مما على غيرهن من حماية فرش أزواجهن، لعظم حق النبي ﷺ وعلو مرتبته.

فالفرق عظيم بين فراش النبي ﷺ وفراش غيره، ولهذا من قذف زوجة من

=

=

زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام بالزنا كان كافرا، ومن قذف زوجة غيره لم يكن كافرا؛ لأن قذف زوجة من زوجات الرسول ﷺ معناه: الطعن في رسول الله ﷺ، وأنه -والعياذ بالله- خبيث؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {للخبيثين والخبيثون للخبيثات}.

فعلى هذا تكون حماية فراش النبي ﷺ أعظم وجوبا من حماية فراش غيره.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فلا تخضعن بالقول} للرجال] الخضوع بمعنى: التطامن والذل والخنوع، فالمعنى: لا تتطامن ولا تذللن ولا تخنعن لأحد من الرجال بالقول، يعني: لا يكن قولكن في مخاطبة الرجال رقيقا وضيعا هينا، لأن المرأة فتنة، فإذا خضعت بالقول دب الشيطان بينها وبين الرجل الذي تخاطبه مهما كان الإنسان من شرف ومن نزاهة، فإن المرأة إذا خاطبته بصوت خاضع؛ فإنها قد تغره؛ ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن".

والرجل الحازم الفطن الكيس لا أحد يذهب لبه، أي: عقله مثل ما تذهبه المرأة، ولهذا قال سبحانه وتعالى: {فلا تخضعن بالقول}، بل يجب على المرأة أن تكون عند مخاطبة الرجال من أبعد ما يكون على الخضوع بالقول، ولين القول، وظرافته، بحيث تؤدي إلى هذا الأمر العظيم، وهو قوله سبحانه وتعالى: {فيطمع الذي في قلبه مرض} يطمع فيكن، إما بفعل الفاحشة أو بالتمتع والتلذذ بخطابهن.

فإن الإنسان الذي في قلبه مرض إذا خضعت له المرأة بالقول فإنه يستمر معها في مخاطبتها حتى يغريه الشيطان، وربما يحصل بعد ذلك موعد ولقاء وفاحشة،

=

=

كما يوجد كثير من السفهاء الآن تجده -والعياذ بالله-، ولا سيما بعد وجود هذه الهواتف -يفتح مثلا، أي رقم يكون، فإذا خاطبته امرأة بدأ معها بالكلام اللين الخاضع، حتى يغريه الشيطان يغريه بها، ويغريها به؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {فيطمع الذي في قلبه مرض} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [نفاق] والصواب: أن المراد بالمرض هنا مرض الشهوة والتمتع، لا مرض النفاق لأن بعض المنافقين قد لا يكون في نفوسهم هذا الشيء، كما أن بعض المؤمنين قد يكون في قلوبهم هذا الشيء، فالمراد بالمرض هنا مرض التمتع والتلذذ بصوت المرأة.

وقوله سبحانه وتعالى: {وقلن قولا معروفا}: (قلن) فعل أمر مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك.

فلما نهاهن سبحانه وتعالى عن الخضوع بالقول أمرهن بأن يقلن قولا معروفا؛ لئلا يظن ظان أن المرأة لا تخاطب الرجل مطلقا، وليس كذلك، بل المرأة مخاطبتها للرجال جائزة، لكن بالقول المعروف.

وقوله تعالى: {وقلن قولا معروفا} من غير خضوع، وما المراد بالمعروف؟ هل المراد بالمعروف المتعارف عليه بين الناس من مخاطبة الرجال والنساء، أو المراد بالمعروف ما ليس بمنكر؟

المراد الأخير؛ لأن الأول لو قلنا: إنه ما يتعارف الناس عليه من الخطاب بين الرجل والمرأة، لكان هذا خاضعا لاختلاف الأعراف، فيوجد مثلا من الناس من عرفهم أن المرأة تخاطب الرجل وتضحك إليه وتمازحه كما يوجد الآن في كثير -مع الأسف- من بلاد المسلمين، المرأة مع الرجل الأجنبي الذي لا تعرفه، تجدها تقف معه وتمازحه، وتضحك كأنما تخاطب زوجها -والعياذ بالله- وهذا

=

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣).

=

لا شك أنه حرام، وأنه دعوة إلى الفجور.

إذن: المراد بالمعروف: ما ليس بمنكر، يعني: ما عرفه الشرع وأقره من الكلام الذي يكون بعيدا عن الخضوع بالقول، وعن التمتع والتلذذ به.

ومن علامة الكلام المباح الذي يجوز للمرأة أن تتكلمه مع الرجل الأجنبي: أن تتكلم بكلام لو سمعه الناس منها معه، ما استنكروه وه ولم تستحي هي منه، فيعرفه الناس ولا يستنكرونه، وهكذا ينبغي أن تكون العفيفة في خطابها إن احتاجت إلى رجل لا يسمعها أحد: أن تخاطبة بحديث لو سمعه زوجها وولدها والناس، لم يستنكروه، ولعدوه معروفا.

وقوله سبحانه وتعالى: {وقلن قولا معروفا}: {قولا}، هذه مصدر، و {معروفا} هذه صفة، فهي مبينة لنوع هذا القول، وهو أنه قول المعروف، لا قول المنكر، إذا قلنا: ما أقره الشرع يكفي؛ لأن الشرع يقر كل ما تعارف الناس مما لا يخالف الحق، فالمعروف مثل قوله سبحانه وتعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} [آل عمران: ١١٠].

مسألة: إذا اتصل بامرأة فليقل: السلام عليكم. ولا شيء فيه، لكن لا يقول: (ألو) لأن (ألو) هذه تحية النصارى، مع أنها الآن مع الأسف شائعة، حتى يكلمك ناس من أهل العلم وأهل المعرفة يقول لك: (ألو)، وهو الذي يتكلم، هو الذي يتكلم.

{وَقَرْنَ} بِكَسْرِ الْقَاف وَفَتْحهَا {فِي بُيُوتكُنَّ} مِنْ الْقَرَار وَأَصْله أَقْرِرْنَ بِكَسْرِ الرَّاء وَفَتْحهَا مِنْ قَرَرْت بِفَتْحِ الرَّاء وَكَسْرهَا نُقِلَتْ حَرَكَة الرَّاء إلَى الْقَاف وَحُذِفَتْ مَعَ هَمْزَة الْوَصْل {وَلَا تَبَرَّجْنَ} بِتَرْكِ إحْدَى التَّاءَيْنِ مِنْ أَصْله {تَبَرُّج الْجَاهِلِيَّة الْأُولَى} أَيْ مَا قَبْل الْإِسْلَام مِنْ إظْهَار النِّسَاء مَحَاسِنهنَّ لِلرِّجَالِ وَالْإِظْهَار بَعْد الْإِسْلَام مَذْكُور فِي آيَة {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتهنَّ إلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} {وَأَقِمْنَ الصَّلَاة وَآتِينَ الزَّكَاة وَأَطِعْنَ الله وَرَسُوله إنَّمَا يُرِيد الله لِيُذْهِب عَنْكُمْ الرِّجْس} الْإِثْم يَا {أَهْل الْبَيْت} أَيْ نِسَاء النَّبِيّ ﷺ {وَيُطَهِّركُمْ} منه {تطهيرا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن جعفر؛ قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة؛ قال: "من يدعو لي؟"؛ فقالت ابنته: أنا يا رسول الله! فقال: "ادعي عليًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ"، فدُعي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، فجعل الحسن عن يمينه والحسين عن يساره وفاطمة تجاهه ثم غشاهم كساء، ثم قال: "هؤلاء أهلي"؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

أخرجه البزار في "البحر الزخار" (٦/ ٢١٠ رقم ٢٢٥١)، والحاكم (٣/ ١٤٧، ١٤٨) من طريق محمد بن إسماعيل بن أبي فديك، ثني عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه به. وسنده ضعيف؛ فيه المليكي هذا، وهو ضعيف، وانظر: "التهذيب" (٦/ ١٤٦).

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: فيه عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي؛ وهو ذاهب الحديث".

=

=

ويشهد له في الجملة ما أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" (٤/ ١٨٧١ رقم ٣٢).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنه تلا هذه الآية: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}؛ قال: كانت فيما بين نوح وإدريس ألف سنة، وأن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحًا وفي النساء دمامة، وكانت نساء السهل صباحًا وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلًا من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، وكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئًا مثل ذلك الذي يزمر فيه الرعاة، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك مَنْ حولهم، فانتابوهم يسمعون إليه، فاتخذوا عيدًا يجتمعون إليه في السنة، فتتبرج الرجال للنساء، قال: ويتزين النساء للرجال، وإن رجلًا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن ونزلوا معهن؛ فظهرت الفاحشة فيهن؛ فذلك قول الله عز وجل: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٤)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٥٤٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤/ ٣٧٣ رقم ٥٤٥١) من طريق داود بن أبي الفرات ثنا علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا سند حسن.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠١) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. والحديث سكت عنه الحاكم والذهبي.

وعن الحكم بن عتيبة؛ قال: كان بين آدم ونوح ثمان مائة سنة، فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء، ورجالهم حسان، فكانت المرأة تريد الرجل على نفسه؛

=

=

فأنزلت هذه الآية: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}.

أخرجه الطبري (٢٢/ ٤): ثنا ابن وكيع؛ قال: ثنا ابن عيينة عن أبيه عن الحكم به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال.

الثانية: سفيان بن وكيع فيه ضعف معروف.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}؛ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٤٩١)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٧٣/ ١١١) من طريق علي بن حرب الموصلي ثنا زيد بن الحباب ثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا سند حسن.

وأخرج ابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٣) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٣٩)، و"الوسيط" (٣/ ٤٦٩، ٤٧٠) من طريق أبي يحيى الحماني عن صالح بن موسى القرشي عن خصيف عن سعيد به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: خصيف؛ ضعيف.

الثانية: الحماني؛ ضعيف أيضًا.

وعن عروة بن الزبير؛ قال: يعني: أزواج النبي ﷺ؛ نزلت في بيت عائشة.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٩٩).

=

=

وفيه الواقدي؛ وهو متروك، وفيه شيخه مصعب بن ثابت وهو لين الحديث.

وعن أم سلمة رضي الله عنها؛ قالت: إنّ النبيَّ ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، فقال لها: "ادعي زوجك وابنيك"، قالت: فجاء عليٌّ، والحسين، والحسن، فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان، تحته كساء له خيبري، قالت: وأنا أُصلي في الحجرة؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، قالت: نأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم! هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأَذْهِبْ عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، اللهم! هؤلاء أهل بيتي وخاصتي؛ فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا"، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله! قال: "إنك إلى خير، إنك إلى خير".

وفي رواية للطبراني، قالت: جاءت فاطمة غُدَّيةً بثريد لها تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: "وأين ابن عمك؟"، قالت: هو في البيت، قال: "اذهبي فادعيه، وائتيني بابني"؛ فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد، وَعَلَيٌّ يمشي في إثرهما، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ، فأجلسهما في حجره، وجلس عليٌّ عن يمينه، وجلست فاطمة رضي الله عنها في يساره، قالت أم سلمة: فأخذت من تحتي كساء كان بساطنا على المنامة، وفي البيت برمة فيها خزيرة، فقال لها النبي ﷺ: "ادعي لي بعلك وابنيك: الحسن والحسين"، فدعتهم، فجلسوا جميعًا يأكلون من تلك البرمة، قالت: وأنا أصلي في تلك الحجرة؛ فنزلت هذه الآية: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، فأخذ فضل

=

=

الكساء فغشاهم، ثم أخرج يده اليمنى من الكساء وألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم! هؤلاء أهل بيتي وحامتي؛ فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا"، قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: يا رسول الله! وأنا معكم؟ قال: "أنت على خير" -مرتين-.

أخرجه أحمد في "المسند" (٦/ ٢٩٢، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٢٣)، وإسحاق بن راهويه في "المسند" (رقم ١٨٧٤)، والترمذي (٥/ ٦٩٩ رقم ٣٨٧١)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٧٣ رقم ١٢١٥٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٦، ٧)، وأبو يعلى في "المسند" (١٢/ ٣١٣ رقم ٦٨٨٨، ص ٣٤٤ رقم ٦٩١٢)، وابن عدي في "الكامل" (٥/ ١٩١٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٣/ ٥٢ - ٥٥ رقم ٢٦٦٢، ٢٦٦٤، ٢٦٦٦، ٢٦٦٨، ٢٣/ رقم ٦١٢، ٦٢٧، ٧٥، ٧٥٩، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٣، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨٣، ٩٣٩)، والدولابي في "الكنى" (٢/ ١٢٢)، والحاكم (٢/ ٤١٦)، والبيهقي (٢/ ١٥٠)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٣٩)، والبغوي في "معالم التنزيل" (٦/ ٣٥١) من طرق عن أم سلمة به.

وإن كان لا يخلو فيها مقال إلا أن الحديث يكون إن شاء الله حسن بمجموعها، وله شاهد بسند صحيح من حديث عمر بن أبي سلمة ربيب النبي ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} في بيت أم سلمة؛ فدعا فاطمة وحسنًا وحسينًا فجلّلهم بكساء، وعلي خلف ظهره فجلّلهم بكساء، ثم قال: "اللهم! هؤلاء أهل بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا".

=

=

قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟! قال: "أنتِ على مكانك وأنت على خير".

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥١ رقم ٣٢٠٥)، والطبري (٢٢/ ٧).

وشاهد آخر من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند مسلم بنحوه (رقم ٢٤٢٤).

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة عند الطبري (٢٢/ ٦، ٧) بنحوه.

وسنده ضعيف جدًا؛ فيه سعيد بن زربي وهو منكر الحديث؛ كما في "التقريب".

وعن عكرمة؛ قال: ليس الذي يذهبون إليه، إنما هي أزواج النبي ﷺ، وكان عكرمة ينادي هذا في السوق، وفي رواية: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٧، ٨) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٠)، والوسيط (٣/ ٤٧٠) -: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا يحيى بن واضح قال: حدثنا الأصبغ عن علقمة عن عكرمة به. وابن حميد؛ متروك الحديث، بل اتهمه الإمام أحمد وغيره بالكذب، مع ملاحظة أنه مرسل.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٥): ثنا محمد بن المثنى قال: ثنا بكر بن يحيى العنزي عن مندل بن علي عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري به.

وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: العوفي؛ ضعيف مدلس، وتدليسه معروف أنه من أقبح أنواع التدليس؛

=

=

حيث كان يقول: حدثنا أبو سعيد ويسكت، فيوهم أنه الخدري وليس الأمر كذلك، بل هو الكلبي، وكان يكنى أبا سعيد فيوهم أنه الخدري.

الثانية: الأعمش مدلس وقد عنعن.

الثالثة: مندل بن علي ضعيف.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٤) وزاد نسبته لابن أبي حاتم والطبراني.

قلنا: ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٤٩٤): أن ابن أبي حاتم أخرجه في "تفسيره" من طريق هارون بن سعد العجلي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري به موقوفًا.

وهارون صدوق؛ كما في "التقريب"، ورواه عن عطية به موقوفًا، وخالفه الأعمش -وهو أوثق بكثير منه- عن عطية به مرفوعًا، وعلى كل؛ فمدار الموقوف والمرفوع على عطية وعرفت ما فيه؛ فالأثر لا يصح ألبتة.

ثم إن الواحدي أخرجه في "أسباب النزول" (ص ٢٣٩)، و"الوسيط" (٣/ ٤٧٠) من طريق أخرى عن عطية به، فانحصرت علة الخبر في عطية.

* قوله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"والْزَمْنَ بيوتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة".

قال ابن كثير:"أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تَفِلات»، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» ".

عن ابن عباس، في قوله تعالى: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ}، قال:"يريد الحجاب، الستر

=

=

بلزوم البيت".

وقال مقاتل بن حيان: "أن يستقررن في بيوتهن".

عن محمد بن سيرين، قال: "نبئت أنه قيل لسودة زوج النبي -ﷺ- -رضي الله عنها-: مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك، فقالت: قد حججت واعتمرت وأمرني الله أن أقر في بيتي فول الله لا أخرج من بيتي حتى أموت، قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها".

عن مسروق، قال: "كانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت: {وقرن في بيوتكن}، بكت حتى تبل خمارها".

عن أنس، رضي الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "من قعد - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله".

عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: "إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروْحَة ربها وهي في قَعْر بيتها".

وعن النبي ﷺ قال: "صلاة المرأة في مَخْدعِها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها".

قوله تعالى: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"ولا تُظهرن محاسنكن، كما كان يفعل نساء الجاهلية الأولى في الأزمنة السابقة على الإسلام".

عن الحسن: {الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}، أي:"قبلكم".

=

=

قال ابن عباس في {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}: "تكون جاهلية أخرى".

عن ابن عباس:"أن عمر بن الخطاب قال له: أرأيت قول الله لأزواج النبي: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، هل كانت إلا واحدة، فقال ابن عباس: وهل من أولى إلا ولها آخرة؛ فقال: لله درك، يا ابن عباس، كيف قلت، فقال: يا أمير المؤمنين، وهل كانت من أولى إلا ولها آخرة، قال: فأت بتصديق ما تقول من كتاب الله، قال: نعم، {وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ}، كما جاهدتم أول مرة، قال عمر: فمن أمرنا بالجهاد، قال: قبيلتان من قريش: مخزوم، وعبد شمس فقال عمر: صدقت".

عن محمد بن سيرين، قال: "لا تقوم الساعة حتى يعبد ذو الْخَلَصَةِ، فإنه كان سيد الأوثان في الجاهلية".

عن عبد الله بن عمرو، قال: "تنفخ النفخة الأولى، وما يعبد الله يومئذ في الأرض".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد في قوله: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، قال: يقول: التي كانت قبل الإسلام، قال: وفي الإسلام جاهلية؟ قال: قال النبي ﷺ لأبي الدرداء، وقال لرجل وهو ينازعه: يا ابن فلانة: لأم كان يعيره بها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: "يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية"، قال: أجاهلية كفر أو إسلام؟ قال: بل جاهلية كفر، قال: فتمنيت أن لو كنت ابتدأت إسلامي يومئذ. قال: وقال النبي ﷺ: "ثلاث من عمل أهل الجاهلية لا يدعهن الناس: الطعن بالأنساب، والاستمطار بالكواكب، والنياحة"".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى} [الأحزاب: ٣٣]، وجوه

=

=

من التفسير:

أحدها: أنه التبختر، قاله ابن أبي نجيح.

الثاني: كانت لهن مشية تكسرٍ وتغنج، فنهاهن عن ذلك، قاله قتادة.

قال قتادة:"أي إذا خرجتن من بيوتكن، قال: كانت لهن مشية وتكسر وتغنج، يعني بذلك: الجاهلية الأولى، فنهاهن الله عن ذلك".

ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: "صِنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخُلْن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا".

الثالث: أنه كانت المرأة تمشي بين يدي الرجل، فذلك هو التبرج، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"كانت المرأة تتمشى بين الرجال فذلك تبرج الجاهلية".

الرابع: هو أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشده ليواري قلائدها وعنقها وقرطها، ويبدو ذلك كله منها، فذلك هو التبرج، قال مقاتل بن حيان ، ومقاتل بن سليمان.

الخامس: أن تبدي من محاسنها ما أوجب الله تعالى عليها ستره، حكاه النقاش.

وأصله: من برج العين، وهو السعة فيها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى نساء النبي أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وجائز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى، فيكون معنى ذلك: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام.

وفي {الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى} أربعة أقوال:

=

=

أحدها: أن الجاهلية الأولى: ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام، قاله الشعبي ، وابن أبي نجيح.

الثاني: زمان إبراهيم، قاله مقاتل ، والكلبي ، وكانت المرأة في ذلك الزمان تلبس درعًا مفرجًا ليس عليها غيره وتمشي في الطريق، وكان زمان نمرود.

الثالث: أنه ما بين آدم ونوح عليهما السلام ثمانمائة سنة، وكان نساؤهم أقبح ما تكون النساء، ورجالهم حسان، وكانت المرأة تريد الرجل على نفسها، فهو تبرج الجاهلية الأولى: قاله الحكم ، والحسن.

قال الحكم:"كان بين آدم ونوح ثمانمائة سنة، فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء، ورجالهم حسان، فكانت المرأة تريد الرجل على نفسه؛ فأنزلت هذه الآية: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}".

الرابع: أنه ما بين نوح وإدريس. قاله ابن عباس.

روى عكرمة عن ابن عباس:"تلا هذه الآية: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، قال: كان فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صباحا، وفي النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا، وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام، فأجر نفسه منه، وكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئا مثل ذلك الذي يزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع مثله، فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيدا يجتمعون إليه في السنة، فتتبرج الرجال للنساء، قال: ويتزين النساء للرجال، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء، فأتي أصحابه فأخبرهم

=

=

بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن، فظهرت الفاحشة فيهن، فهو قول الله: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}".

قوله تعالى: {وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"وأدِّين -يا نساء النبي- الصلاة كاملة في أوقاتها، وأعطين الزكاة كما شرع الله".

قال الزمخشري:"أمرهن أمرا خاصا بالصلاة والزكاة، ثم جاء به عاما في جميع الطاعات، لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات: من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما".

قال ابن كثير:"نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة - وهي: عبادة الله، وحده لا شريك له - وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين".

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

قال الحسن: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالزكاة". وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"وأطعن الله ورسوله في أمرهما ونهيهما".

قال يحيى بن سلام:"في ما أمركن به".

قال الطبري:"فيما أمراكن ونهياكن".

قال ابن كثير:"وهذا من باب عطف العام على الخاص".

قال عطاء: "طاعتهما اتباع الكتاب والسنة".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"إنما أوصاكن الله بهذا؛ ليزكيكنَّ، ويبعد عنكنَّ الأذى والسوء والشر يا أهل

=

=

بيت النبي -ومنهم زوجاته وذريته عليه الصلاة والسلام-".

قال الطبري:"يقول: إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت محمد".

وقال مقاتل:"من الإثم الذي ذكر في هذه الآيات".

قال ابن زيد:"«الرجس» هاهنا: الشيطان، وسوى ذلك من الرجس: الشرك".

قال الجصاص:"يحتمل: التطهير من الذنوب ويحتمل التطهير من الأحداث والجنابة والنجاسة كقوله تعالى {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة: ٦]".

قال الزجاج:"«الرجس» -في اللغة-: كل مستنكر مستقذر من مأكول أو عمل أو فاحشة".

قال السمعاني:"الرجس: ما يدعو إلى المعصية".

قال ابن كثير:"وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح".

وفي قوله تعالى: {أَهْلَ الْبَيْتِ} [الأحزاب: ٣٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عنى عليًا وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، قاله أبو سعيد الخدري، وعائشة، وأم سلمة، رضي الله عنهم، وبه قال جماعة كثيرة من التابعين منهم مجاهد، وقتادة، وبه قال الكلبي.

عن أم سلمة -رضي الله عنها-؛ قالت: (إن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، فقال لها: "ادعي زوجك وابنيك"، قالت: فجاء علي، والحسين، والحسن، فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على

=

=

منامة له على دكان، تحته كساء له خيبري، قالت: وأنا أصلي في الحجرة؛ فأنزل الله -ﷻ- هذه الآية: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}، قالت: نأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم! هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، اللهم! هؤلاء أهل بيتي وخاصتي؛ فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله! قال: "إنك إلى خير، إنك إلى خير". وفي رواية للطبراني، قالت: جاءت فاطمة عدية بثريد لها تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: "وأين ابن عمك؟ "، قالت: هو في البيت، قال: "اذهبي فادعيه، وائتيني بابني"؛ فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد، وعلي يمشي في إثرهما، حتى دخلوا على رسول الله ﷺ ، فأجلسهما في حجره، وجلس علي عن يمينه، وجلست فاطمة - رضي الله عنها - في يساره، قالت أم سلمة: فأخذت من تحتي كساء كان بساطنا على المنامة، وفي البيت برمة فيها خزيرة، فقال لها النبي ﷺ : "ادعي لي بعلك وابنيك: الحسن والحسين"، فدعتهم، فجلسوا جميعا يأكلون من تلك البرمة، قالت: وأنا أصلي في تلك الحجرة؛ فنزلت هذه الآية: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}، فأخذ فضل الكساء فغشاهم، ثم أخرج يده اليمنى من الكساء وألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم! هؤلاء أهل بيتي وحامتي؛ فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"، قالت أم سلمة: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: يا رسول الله! وأنا معكم؟ قال: "أنت على خير" -مرتين-).

=

=

الثاني: أنه عنى أزواج النبي -ﷺ -خاصة، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وابن السائب ، ومقاتل.

عن علقمة، قال:"كان عكرمة ينادي في السوق {إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} ، قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة".

قال مقاتل:"يعني: نساء النبي – ﷺ– لأنهن في بيته".

قال ابن الجوزي:"ويؤكد هذا القول أن ما قبله وبعده متعلق بأزواج رسول الله ﷺ. وعلى أرباب هذا القول اعتراض، وهو أن جمع المؤنث بالنون، فكيف قيل: «عنكم» «ويطهركم»؟

فالجواب أن رسول الله ﷺ فيهن، فغلب المذكر".

الثالث: أن الآية عامة في الكل: الأهل والأزواج، قاله الضحاك.

قال السمعاني:"وهذا أحسن الأقاويل، فآله قد دخلوا في الآية، ونساؤه قد دخلن في الآية. واستدل من قال: إن نساءه قد دخلن في الآية؛ أنه قال: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت} وأهل بيت الرسول هن نساءه؛ ولأنه تقدم ذكر نسائه، والأحسن ما بينا من التعميم".

قال القرطبي:"والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنما قال ويطهركم لأن رسول الله ﷺ وعليا وحسنا وحسينا فيهم، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت، لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، يدل عليه سياق الكلام اه ملخصا".

قال الزجاج:"اللغة تدل على أنه للنساء والرجال جميعا لقوله: {عنكم} بالميم، {ويطهركم} ، ولو كان للنساء لم يجز إلا «عنكن» و «يطهركن»، والدليل على

=

=

هذا قوله: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن}، حيث أفرد النساء بالخطاب".

قال ابن كثير:"فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك:".

- الحديث الأول: عن أنس بن مالك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: "الصلاة يا أهل البيت، {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}".

- حديث آخر: عن أبي الحمراء قال: "رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ، قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر، جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: "الصلاة الصلاة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}".

- حديث آخر: عن شداد أبو عمار قال:"دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم، فذكروا عليًّا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله الله عليه وسلم؟ قلت: بلى. قال: أتيت فاطمة أسألها عن علي فقالت: تَوَجه إلى رسول الله ﷺ، فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ، ومعه علي وحسن وحسين، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل، فأدنى عليًّا وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسنًا وحسينًا كل واحد منهما على فخذه، ثم لفَّ عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق". وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير، عن الوليد بن مسلم، عن أبي

=

=

عمرو الأوزاعي بسنده نحوه - زاد في آخره: قال واثلة: فقلت: وأنا يا رسول الله - صلى الله عليك - من أهلك؟ قال: "وأنت من أهلي" قال واثلة: إنها من أرجى ما أرتجي". ثم رواه أيضا عن عبد الأعلى بن واصل، عن الفضل بن دُكَيْن، عن عبد السلام بن حرب، عن كلثوم المحاربي، عن شداد أبي عمار قال: إني لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليا فشتموه، فلما قاموا قال: اجلس حتى أخبرك عن الذي شتموه، إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين فألقى ﷺ عليهم كساء له، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا". قلت: يا رسول الله، وأنا؟ قال: "وأنت" قال: فوالله إنها لأوثق عملي عندي".

- حديث آخر: عن عطاء بن أبي رباح،" حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة، رضي الله عنها، ببرمة فيها خَزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: "ادعي زوجك وابنيك". قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامةٍ له على دكان تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}. قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: "إنك إلى خير، إنك إلى خير".

ولهذا الحديث طرق أخرى:

- عن عطية الطُّفَاوِيّ، عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت: بينما رسول الله ﷺ في

=

=

بيتي يومًا إذ قال الخادم: إن فاطمة وعليا بالسدّة قالت: فقال لي: "قومي فَتَنَحي عن أهل بيتي". قالت: فقمت فتنحيت في البيت قريبًا، فدخل علي وفاطمة، ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبَّلهما، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى، وقَبَّل فاطمة وقَبَّل عليا، وأغدق عليهم خَميصَة سوداء وقال: "اللهم، إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي". قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله؟ صلى الله عليك. قال: "وأنت".

- عن أبي سعيد، عن أم سلمة؛ أن هذه الآية نزلت في بيتها: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} قالت: وأنا جالسة على باب البيت فقلت: يا رسول الله، ألستُ من أهل البيت؟ فقال: "إنك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ" قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، رضي الله عنهم".

- عن أبي هريرة، عن أم سلمة قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحلها على طبق، فوضعته بين يديه، فقال: "أين ابن عمك وابناك؟ " فقالت: في البيت، فقال: "ادعيهم". فجاءت إلى علي فقالت: أجب النبي ﷺ أنت وابناك، قالت أم سلمة: فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه، فقال: "هؤلاء أهل البيت، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا".

- عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب عند أم سلمة، فقالت: في بيتي نزلت: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

=

=

قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: "لا تأذني لأحد". فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها. ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه، ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: "هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا". فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: "إنك إلى خير".

- حديث آخر: عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة، رضي الله عنها: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}"...

- حديث آخر: عن عامر بن سعد، قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي، فأخذ عليا وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: "رب، هؤلاء أهلي وأهل بيتي".

- حديث آخر: عن يزيد بن حَيَّان قال: "انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيرًا كثيرًا رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا؛ حَدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد كَبِرَت سِنِّي، وقدم عهدي، ونسيتُ بعض الذي كنتُ أعي من

=

=

رسول الله ﷺ، فما حَدّثتكُم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوما خطيبا بماء يدعى خُمًّا - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وَذَكّر، ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به". فَحَثّ على كتاب الله وَرَغَّب فيه، ثم قال: "وأهل بيتي، أذَكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي" ثلاثا. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدَقة بعده. قال: ومَنْ هم؟ قال هم آل علي، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم".

وفي رواية:"فقلنا له: مَنْ أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصبَته الذين حُرموا الصدقة بعده".

قال ابن كثير:"هكذا وقع في هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعا أيضا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن في بعض أسانيدها نظرًا، والله أعلم. ثم الذي لا يشك فيه من تَدَبَّر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}، فإن سياق الكلام معهن".

=

=

قوله تعالى: {وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣]، أي:"ويطهِّر نفوسكم غاية الطهارة".

قال الطبري: يقول:"ويطهركم من الدنس الذي يكون في أهل معاصي الله تطهيرا".

قال السمعاني:"أي: من المعاصي بتقوى الله تعالى".

قال قتادة:"فهم أهل بيت طهرهم الله من السوء، وخصهم برحمة منه".

قال الزمخشري:"استعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر، لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس. وأما المحسنات، فالعرض معها نقى مصون كالثوب الطاهر. وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به".

عن أبي جميلة، قال: إن الحسن بن علي استُخلفَ حين قُتِل علي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها أشهرا، ثم بَرَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذي قال الله: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} قال: فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء".

عن أبي الديلم قال:"قال علي بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت في الأحزاب: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}؟

=

=

قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم".

عن الضحاك بن مزاحم:"أن نبي الله ﷺ كان يقول: «نحن أهل بيت طهرهم الله من شجرة النبوة، وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، وبيت الرحمة ومعدن العلم»".

قال العثيمين: قال المصنف: [بكسر القاف وفتحها]، وهو من القرار، وهو: التقاء مع السكون والاستقرار، وهو أبلغ من قوله: وابقين في بيوتكن؛ لأن القرار بقاء وزيادة مع سكون؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقرن في بيوتكن} من القرار وأصله: اقررن بكسر الراء وفتحها] اقررن واقررن، [من قررت بفتح الراء، وكسرها قررت وقررت، نقلت حركة الراء إلى القاف، وحذفت مع همزة الوصل] فأصل قرن اقررن أو اقررن، فما الذي حدث؟ نقلت فتحة الراء إلى القاف الساكنة، وصارت الراء ساكنة، وصارت القاف مفتوحة أو مكسورة، ثم حذفت همزة الوصل فصارت: {وقرن}.

وقوله ﷻ: {وقرن في بيوتكن}: {بيوتكن} هنا للإضافة، يحتمل أنها للتمليك، وأن بيوت زوجات رسول الله ﷺ ملك لهن، ويحتمل أنها للاختصاص، وأن البيوت ملك لرسول الله ﷺ، والأقرب أنها للتمليك بدليل أن النبي ﷺ لما توفي بقيت هذه البيوت لزوجاته، ولو كانت البيوت لرسول الله ﷺ لم تورث من بعده، لأن الأنبياء لا يورثون، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة"؛ لأنه يفسد المعنى، الرافضة يقولون: إن لفظ الحديث: إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة؛ لأجل أن يقولوا: إن الذي تركوه غير صدقة يورث، وأن أبا بكر وعمر وبقية الصحابة ظلموا ورثة النبي ﷺ

=

=

حيث لم يورثوهم، لكن أهل السنة والجماعة يقولون: كذبتم أيها الرافضة، بل إن لفظ الحديث: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث" فانتهت الجملة الأولى، ثم قال مبينا ماذا يكون مآل المال بعدهم، قال: "ما تركنا صدقة"، أي: الذي تركناه صدقة.

والمعنى الذي ذهبت إليه الرافضة باطل؛ لأن ما ترك صدقة لا يورث، حتى في غير الأنبياء، يعني: ما تركه الإنسان صدقة بعد موته لا يرثه ورثته، حتى ولو كان غير نبي فهم محرفون للحديث لفظا ومعنى، يقولون: إننا لا نورث الذي تركناه صدقة، يعني: إن معناها: إذا وقفنا شيئا مثلا نحن وجعلناه في سبيل الله تعالى فإننا لا نورث هذا الشيء، إنما نورث الأملاك الأخرى، وهل هو خاص بالرسل؟ لا، ليس خاصا بهم.

إذن: نقول قوله تعالى: {في بيوتكن} الأقرب أن الإضافة للتمليك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ولا تبرجن} بترك إحدى التاءين من أصله] (تبرجن) فعل مضارع، والدليل (لا) الناهية فإنها لا تدخل إلا على المضارع، وإلا فإن كلمة (تبرج) والنساء تبرجن، هذا فعل ماض، لكن في الآية: {ولا تبرجن}، هذا فعل مضارع، يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بترك إحدى التاءين، وأصلها: تتبرجن، هذا أصلها: ولا تتبرجن، وحذف إحدى التاءين في المضارع كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: {فأنذرتكم نارا تلظى} [الليل: ١٤] أي: تتلظى.

إذن: {ولا تبرجن} فعل مضارع مبني على السكون، لاتصاله بنون النسوة في محل جزم بـ(لا) الناهية.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} أي: ما قبل الإسلام] {ولا

=

=

تبرجن تبرج الجاهلية الأولى}، التبرج في الأصل مأخوذ من التعالي والترفع، ومنه البرج الحصن المنيع الرفيع كما قال تعالى: {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة} [النساء: ٧٨]، وكما في قوله تعالى: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا} [الفرقان: ٦١]، أي: جعل فيها كتلا عظيمة من النجوم كالبروج المشيدة.

وقوله تعالى: {ولا تبرجن} أي: تتعالين وتترفعن باللباس وغيره.

وقوله سبحانه وتعالى: {تبرج الجاهلية الأولى} هذا مصدر مبين للنوع بالإضافة إلى الجاهلية، قال سبحانه وتعالى: {تبرج الجاهلية}، ومعلوم أن المصدر يكون لبيان العدد وبيان النوع والتوكيد وغير ذلك مما ذكره أهل العلم بالنحو، وقوله تعالى: {تبرج الجاهلية} أضافه إلى (الجاهلية)؛ لأنه مبني على الجهل والسفه؛ لأن المرأة إذا تبرجت فإن ذلك يعتبر جهلا منها وسفها؛ ولهذا أضيف إلى الجاهلية، ثم أضيف إلى الأولى، وهل المراد الأولى زمنا؟ أو الأولى مرتبة؟ أو كلاهما؟ يعني: هل معنى (الجاهلية الأولى): الأعظم جهلا من نوعها، كما يقال: هذا هو الأول في الجهل، هذا هو الأول في السفه، هذا الأول في الإسلام، هذا هو الأول في الإصلاح، وما أشبه ذلك، أو المراد بالأولى الأولى من حيث الزمن أو كلاهما؟

كلاهما في الواقع فهي جاهلية من الطراز الأول من الجهل، وهي جاهلية أولى، لأنها سبقت الإسلام، ولا يعني بذلك أنها الجاهلية المباشرة للإسلام، لأن الجاهلية المباشرة للإسلام امتداد لجاهلية سبقت منذ زمن بعيد.

فالجاهلية الأولى استمرت إلى أن محاها الإسلام بالعلم والتقوى والحمد لله

=

=

تعالى، ولهذا قال تعالى: {تبرج الجاهلية الأولى}، والمراد بالإضافة هنا -كما قلت قبل قليل- بيان النوع، وما أقبح نوعا يكون جهلا! وعلى هذا فالمراد به التقبيح، تقبيح هذا التبرج، وأنه تبرج مبني على الجهل والسفه، والبعد عن الإيمان والعلم، والرشد.

{ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} أي: ما قبل الإسلام من إظهار النساء محاسنهن للرجال. نعم؛ في الجاهلية تتبرج المرأة، وتخرج بأحسن ما يكون عندها من اللباس والحلي.

ولهذا قال الله ﷻ: {ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن} [النور: ٣١]، فهذا التبرج يكون بنوع اللباس، ويكون بالطيب، ويكون بتحسين البدن بالحناء، والتحمير وتسويد العين بالكحل، وما يسمى عندنا في الوقت الحاضر بالمكياج، وما يسمى بالمناكير، وعلى هذا فقس، كل هذا من التبرج الذي يعتبر من تبرج الجاهلية الأولى.

ولهذا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن إظهار النساء محاسنهن للرجال، والإظهار بعد الإسلام مذكور في آية: {ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها}، رحم الله تعالى المصنف فإن هذا ليس بصواب منه، ما في الإسلام إظهار للزينة أبدا، إلا في نوعين: النوع الأول: الإظهار العام لكل أحد، والنوع الثاني: الإظهار الخاص للبعولة والمحارم.

فالإظهار العام؛ إلا ما ظهر منها، والمراد بما ظهر منها، ما جرت العادة بأنه لا بد من ظهوره، كالجلباب والعباءة وما أشبه ذلك، كما فسره بذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعلى هذا يكون الاستثناء في قوله تعالى: {إلا ما ظهر منها} استثناء

=

=

منقطعا ليس متصلا، لأن ما ظهر ليس من الزينة في الواقع، فما ظهر وما جرت العادة بظهوره ولا بد منه هذا أمر ليس من الزينة، حتى لو سمي زينة ولباسا؛ فإنه لا بد من ظهوره.

أما الزينة الأخرى التي خصها الله بقوم معينين فقال: {ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن} وهذه هي الزينة الباطنة كالثياب التي تكون داخل الجلباب والعباءة، وما أشبه ذلك، لا يبدينه إلا لبعولتهن أو آبائهن... إلى آخره.

والحاصل: أن التبرج لم يأذن الله تعالى فيه أبدا، فالتبرج النهي عنه عام.

وأما التزين للزوج فهذا أمر مطلوب من المرأة أن تتجمل لزوجها، لما في ذلك من تأكيد الحكمة التي من أجلها شرع الزواج كما قال تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة} [الروم: ٢١].

ولا شك أن المرأة إذا تجملت لزوجها بأنواع الجمال فإن ذلك مما يوجب سكونه إليها، ومودته لها، فيكون هذا من باب تأكيد الحكمة التي من أجلها شرع الزواج؛ ولهذا تؤمر المرأة بأن تتجمل لزوجها، كما أن الزوج أيضا كما قال بعض السلف: إن من حقها علي أن أتجمل لها، كما أن من حقي عليها أن تتجمل لي، أما أن يأتي الزوج زوجته كلابس الخيشة، وما أشبه ذلك، ويريد منها أن تلائمه، ويقول: لم لا تتجملين لي؟! وهو يلبس أردأ اللباس، فهذا من غير العدل.

فالإنسان يجب عليه أن يراعي العدل في كل معاملاته، فالخشونة في المواضع مثل: إذا ركب الخيل فليكن خشنا، وليلبس الجيش والمغفر، لكن مع المرأة لا،

=

=

فلكل مقام مقال.

وقوله سبحانه وتعالى: {وأقمن الصلاة} أي: ائتين بها مستقيمة، وذلك بفعل شروطها وأركانها، وواجباتها، ومستحباتها، لكن الإتيان بالثلاثة الأولى على سبيل الوجوب، وفي الرابع على سبيل الكمال والاستحباب.

وقوله تعالى: {وأقمن الصلاة} يشمل الفريضة والنافلة.

وقوله سبحانه وتعالى: {وآتين الزكاة} أي: أعطينها، والزكاة في اللغة النماء والزيادة، وفي الشرع: مال مقدر مخصوص في مال المخصوص، يعني: جزء من أموال مخصوصة يدفع لمستحقيه، أو: التعبد لله تعالى بإخراج جزء معلوم من المال على حسب ما جاءت به الشريعة، وهذا أوضح.

وقوله تعالى: {وآتين الزكاة}: (آتين) تنصب مفعولين، لأنها من باب كسا وأعطى؛ فالمفعول الأول الزكاة والمفعول الثاني محذوف، أي: مستحقها، لأن إيتاء الزكاة لغير أهلها لا ينفع، كما لو صلى الإنسان في غير الوقت.

وقوله تعالى: {وآتين الزكاة} بعد الأمر بإقامة الصلاة؛ فيه دليل على تأكد الزكاة، وهل يلزم منه أن أمهات المؤمنين عندهن مال يزكينه، إذا قلنا: لا يلزم. صار توجيه الخطاب إليهن بإيتاء الزكاة من باب اللغو، لأنهم ستقولن: ما عندنا مال. أو يقال: أمرنا بإيتاء الزكاة إما التزاما، وإما إعطاء بالفعل، التزاما إذا لم يكن عندهن شيء، وإعطاء بالفعل إذا كان عندهن شيء، ولا شك أن عندهن ما تجب الزكاة فيه، أو عند بعضهن من الحلي كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت تلبس أوضاحا من ذهب؛ فقالت: يا رسول الله، أكنز هو؟ قال: "إذا أديت زكاته فليس بكنز".

=

=

فهن عندهن ما يزكين به، قد لا يكون دراهم ودنانير، ولكن من الحلي.

وقوله تعالى: {وأطعن الله ورسوله} أطعن الله، الطاعة قال العلماء رحمهم الله: هي موافقة الأمر. أي: عدم المعصية، فتوافق أمر المطاع إن كان مطلوبا بالفعل، وإن كان منهيا عنه بالترك.

وقوله تعالى: {وأطعن الله ورسوله} عطف طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام على طاعة الله تعالى بالواو؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، كما قال الله تعالى: {من يطع الرسول فقد أطاع الله}، وقد سبق لنا مرارا وتكرارا: أن المسائل الشرعية يجوز أن يقرن فيها بين الله تعالى وبين الرسول ﷺ؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ من المسائل الشرعية هو مما أمر الله تعالى به.

وقوله تعالى: {وأطعن الله ورسوله} هل المراد هنا طاعة التعبد؟ أم المراد بها عدم المخالفة؟ أما بالنسبة لطاعة الله تعالى فهي طاعة التعبد، والتذلل ورجاء الثواب والخوف من العقاب، وأما طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام فإنها طاعة بمعنى: موافقة الأمر سواء كان فيما يأمر به من الشرع، أو فيما يأمر به من حوائجه الخاصة؛ فإن الرسول ﷺ يوجه الأمر إلى أهله، إما على سبيل العبادة، مما أمره الله تعالى به، وإما على سبيل الأمور الخاصة المتعلقة به عليه الصلاة والسلام.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس} الإثم يا {أهل البيت} أي: نساء النبي ﷺ {ويطهركم} منه {تطهيرا}].

قوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب}: {إنما} هذه أداة حصر، والحصر يقول العلماء رحمهم الله: معناه: إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما سواه، والحصر

=

هنا إضافي أو حقيقي؟ إضافي، لأن الله تعالى يريد هذا وغيره.
فالإضافي هو الذي لا يكون محصورا بحسب الواقع في هذا الشيء.
والحقيقي هو الذي يكون محصورا في هذا الشيء، بحسب الواقع.
فإذا قلت: لا طالب يلتفت إلا خالد. فإن كان لا يلتفت غيره فهو حقيقي، وإن كان أحد يلتفت غيره فهو إضافي، وفائدة الإضافي: كأن هذا الرجل لكثرة التفاته لا يلتفت أحد سواه، كما لو قلت: لا شجاع إلا خالد. أي: خالد بن الوليد رضي الله عنه؛ إضافي لأن هناك شجعان كثيرين غير خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولو قلت: لا خاتم للأنبياء سوى محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا حقيقي؛ لأنه ليس هناك خاتم للأنبياء إلا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس} هل الله عز وجل لا يريد بأهل البيت إلا ذلك؟ الجواب: لا، بل يريد الله تعالى بهم أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم وأن ينعم عليهم، وأن يغدق عليهم بفضل... إلى آخره.
وهل الإرادة هنا شرعية أو كونية؟ الإرادة كونية، وهذه هي الفائدة من اختصاص أهل البيت بذلك، أما إرادة عدم الرجس فهي لكل أحد من الناحية الشرعية.
والإرادة -كما سبق لنا- نوعان: إرادة شرعية وكونية، وهل هما متلازمان؟ لا، قد توجد إحداهما بدون الأخرى، وقد تجتمعان، فما هو الفرق بينهما حتى نعرف اجتماعهما وافتراقهما؟
أولا: الإرادة الكونية تتعلق فيما يحبه الله تعالى، وفيما لا يحبه، والإرادة الشرعية فيما يحبه الله تعالى فقط؛ فإذا قلت: يريد أي: شرعا فمعناه: يحب.
ثانيا: الإرادة الكونية يلزم فيها وقوع المراد، والإرادة الشرعية لا يلزم فيها وقوع

=

المراد.

إذن: الفرق من وجهين فقد تجتمع الإرادتان في شيء، وقد تنتفيان جميعا، وقد توجد إحداهما دون الأخرى، فإذا سألنا شخصا: ما تقول في إيمان أبي بكر رضي الله عنه؟ أهو مراد لله تعالى شرعا أم كونا؟ فالجواب: كونا وشرعا؛ كونا لأنه وقع؛ وشرعا لأن الله تعالى يحبه، إذن: اجتمعت الإرادتان.

وإذا قيل: ما تقول في إيمان أبي لهب؟ فالجواب: غير مراد كونا ومراد شرعا! فالله تعالى يريد منه أن يسلم.

وإذا قيل: ما تقول في كفر أبي بكر رضي الله عنه؟ فالجواب: غير مراد كونا؛ لأنه لم يقع، ولا شرعا لأن الله تعالى لا يحبه.

وما يقال في كفر أبي لهب؟

الجواب: مراد كونا لا شرعا؛ لأن الله تعالى لا يحبه.

فالكفر مراد من الله سبحانه وتعالى كونا، وأي إنسان يكفر فقد أراد الله تعالى كفره كونا.

أمثلة من القرآن:

قال الله تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} [البقرة: ١٨٥].

الإرادة هذه شرعية؛ والدليل أن الله تعالى قد يعسر على الإنسان فلو كانت الإرادة كونية لكان في الواقع تكذيب للآية، إذن: يريد هنا بمعنى: محب، محب الله تعالى بكم اليسر، ولا يحب العسر، وأما كونا فإن الله تعالى يريد بنا العسر قال الله تعالى: {فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا} [الشرح: ٥ - ٦].

قال الله تبارك وتعالى عن نوح عليه السلام: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح

=

=

لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} [هود: ٣٤] أي: {إن كان الله يريد أن يغويكم} هذه إرادة كونية، لأن الله تعالى لا يريد من خلقه الإغواء، والدليل أنه لا يريد الإغواء قوله تعالى: {يبين الله لكم أن تضلوا} [النساء: ١٧٦]، وقوله تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم} [النساء: ٢٦].

قال الله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس}: {ليذهب} اللام هنا جاءت فى مفعول (يريد)، والمعروف أن (يريد) تتعدى بنفسها فتقول: أردت كذا. ولا تقول: أردت لكذا.

إذن: فاللام هنا زائدة من حيث المعنى، يعني: من حيث الإعراب زائدة، والتقدير: إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس، فاللام يقول النحويون: إنها زائدة.

وقوله سبحانه وتعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس}، يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإثم]، والصواب أن الرجس هو النجاسة لأن الرجس فى الأصل النجس، سواء كان نجاسه معنوية أو نجاسة حسية.

فمن الرجس بالمعنى الحسي بالنجاسة الحسية، قوله تعالى: {قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون} [الأنعام: ١٤٥].

وأما قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} [المائدة: ٩٠]، فهذا رجس معنوي.

وهنا في قوله سبحانه وتعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس} الرجس المعنوي؛ لأن الرجس الحسي ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يذهبه عنهم، بل هو

=

=

موجود فيهم، هم يبولون ويتغوطون وبولهم نجس، وغائطهم نجس، إذن: فالمراد بالرجس الذي أراد الله تعالى أن يذهبه عن أهل البيت هو الرجس المعنوي، وهو السافل من الأخلاق والأعمال.

وقوله تعالى: {أهل البيت} أفادنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [يا {أهل البيت}] أن أهل منصوب على النداء، وحذف منه حرف النداء.

ومن المراد بأهل البيت؟

الجواب: لا شك أن المراد به نساء الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن الآيات كلها في سياق نساء الرسول عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: {يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (٣٢) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا} [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

فلا شك أن المراد بذلك نساء الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهل ينافي ذلك ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام من أنه وضع الكساء على علي وفاطمة والحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وقال: "هؤلاء أهل البيت اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"؟

نقول: لا ينافيه؛ لأن هؤلاء أهل البيت من حيث القرابة، وهؤلاء أهل البيت من حيث الزوجية، فكلهم أهل البيت بلا شك، لا أهل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل إن آل البيت أعم من هؤلاء الأربعة؛ لأن أهل البيت تشمل كل من تحرم عليهم الصدقة من

=

=

بني هاشم، فدخل فيهم آل علي وآل جعفر وآل العباس وآل الحارث ابن عبد المطلب، وكل من كان من ذرية هاشم فالرسول ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فكل من كان من آل هاشم فإنه من آل البيت لا تحل له الصدقة.

وعلى هذا فنقول: إن تفسيرنا لأهل البيت هنا بأنهن زوجات الرسول ﷺ الذي يعينه السياق، خلافا للرافضة الذين أخرجوا الكلام عن سياقه، وجعلوا كلام الله ﷻ عضين متفرقا، فقالوا: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس} يريد بهم آل البيت الأربعة فقط، وأما زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه لا يريد الله تعالى ليذهب عنهم الرجس؛ ولهذا يرمون عائشة رضي الله عنها بالفحشاء -والعياذ بالله- ولا يبالون بذلك.

وأنا سمعت شريطا للأخ إحسان إلهي ظهير يرد على رجل من الشيعة، ويتكلم على هذه الآية بشدة وبقوة، يقول: إن الذي يصرف الآية هذه لآل البيت الأربعة، لا يعرف اللغة العربية ولا يعرف أساليب الكلام، إذ كيف إنه يخرج الآية هذه من بين الآيات كلها المحيطة بها، والتي توجه إلى أمهات المؤمنين، ثم يخرج هذه الآية!.

وأقول: إن قوله: (آل البيت) هنا وفي أصحاب الكساء الأربعة، وفي آل البيت الذين لا تحل لهم الصدقة، كلها لا ينافي بعضها بعضا.

ولذلك كان القول الراجح: أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام لا تحل لهن الصدقة، لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن الصدقة لا تحل لآل محمد" وزوجاته بلا شك من آله، كما في هذا الحديث، وعلى هذا فإننا نقول:

=

=

إنه لا تعارض بين الأدلة.

ونظير ذلك: أن الرسول ﷺ سئل ما هو المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم؟ فقال: "مسجدي هذا"، مع أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء أيضا، كل منهما أسس على التقوى من أول يوم، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أسس مسجده من أول يوم قدم، وكان الصحابة رضي الله عنهم كل منهم يقول: النزول عندي، النزول عندي، النزول عندي. فتقول: "دعوها فإنها مأمورة" يعني: ناقته، فلما وصلت إلى مكان مسجده بركت، فزجرها النبي ﷺ، فقامت ثم التفتت يمينا وشمالا، ثم رجعت إلى مكانها الأول فبركت، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: "المنزل هاهنا إن شاء الله"، ثم نزل، وكان أقرب البيوت إليه بيت أبي أيوب رضي الله عنه فذهب إليه من أول يوم نزل وهو شارع في تخطيط المسجد.

ولهذا ينبغي للمسؤولين في البلديات وفي الأوقاف أن يجعلوا أكبر همهم في المخططات الجديدة وضع المساجد، فيعتنوا بها قبل كل شيء.

على كل حال إني أقول: إن وصف الشيء بصفة، ووصف غيره بصفة لا يقتضي أن يكون ذلك تناقضا، بل كل منهما له نصيب من هذا الوصف، وقوله تعالى: {أهل البيت}: (البيت) هنا (أل) للعهد الذهني، يعني: أهل البيت المعهود المعروف، وهو هذا البيت الطاهر بيت رسول الله ﷺ.

قال رحمه الله: [{ويطهركم} منه] أي: من الرجس {تطهيرا}، و (تطهيرا) هنا مصدر طهر، مصدر للفعل السابق، والمراد به التوكيد، كما في قوله تعالى: {وكلم الله موسى تكليما}.

=

=

والتطهير من الرجس أبلغ من ذهاب الرجس؛ لأنه بعد ذهاب الرجس قد يبقى له أثر، فإذا قال: يذهبه ويطهركم، صار ذلك أبلغ؛ لأنه يذهب ذلك الرجس ويطهر مكانه بحيث لا يبقى له أثر.

ولا ريب أن بيت الرسول عليه الصلاة والسلام أبعد البيوت عن الرجس، وأطهر البيوت من الرجس، هذا لا يشك فيه مؤمن أبدا، وكل من قدح في بيت الرسول عليه الصلاة والسلام في زوجاته فإنه يعتبر قادحا بالرسول عليه الصلاة والسلام، لأن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: {الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات} [النور: ٢٦].

ونحن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليختار لنبيه إلا أفضل نساء العالمين بلا شك، وقد ثبت في كتاب الله سبحانه وتعالى براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مما رماها به أصحاب الإفك من المنافقين، وغيرهم ممن انخدعوا من المسلمين، عفا الله تعالى عنهم.

وقد قال الله في حادثة الإفك: {إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم (١٥) ولولا إذ سمعتموه} [النور: ١٥ - ١٦]، يعني: هلا إذا سمعتموه {قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا}: {ما يكون} يعني: يمتنع غاية الامتناع، أن نتكلم بهذا {سبحانك} تنزيها لك {هذا بهتان عظيم}، فانظر كيف قال تعالى: {سبحانك} فالتنزيه في هذا الأمر يعني: ننزهك يا ربنا أن يقع ذلك في إحدى أمهات المؤمنين، زوجات خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: {سبحانك} يعنى: تنزيها لك أن يقع مثل هذا في زوجات نبيك عليه الصلاة والسلام.

=

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤).

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتكُنَّ مِنْ آيَات الله} الْقُرْآن {وَالْحِكْمَة} السُّنَّة {إنَّ الله كَانَ لَطِيفًا} بِأَوْلِيَائِهِ {خَبِيرًا} بِجَمِيعِ خَلْقه(١).

=

هذا التأكيد العظيم نرى الآن ممن ينتسبون للإسلام، وهم بريئون منه، والإسلام منهم براء، يقولون: إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والعياذ بالله- بغي ومع ذلك قد برأها الله تعالى من ذلك في القرآن الكريم، فمن قذف واحدة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو غيرها فهو كافر بلا شك، ويجب أن يقتل ولو تاب، إن تاب توبة نصوحة فهي بينه وبين الله تعالى، لكن نحن علينا أن نغار لرسول الله ﷺ، وأن نقتل هذا الذي قذف واحدة من أمهات المؤمنين.

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب: ٣٤]، أي:"واذكرن ما يتلى في بيوتكن من القرآن وحديث الرسول ﷺ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لأزواج نبيه محمد ﷺ: واذكرن نعمة الله عليكن؛ بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك، واحمدنه عليه وعني بقوله: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله} : واذكرن ما يقرأ في بيوتكن من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة".

قال الزمخشري:"ثم ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحى، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: هو آيات بينات تدل على صدق النبوة، لأنه معجزة بنظمه. وهو حكمة وعلوم وشرائع".

=

=

قال ابن كثير:"أي: اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة ، وغير واحد، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أَوْلاهُنَّ بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحيُ في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

قال بعض العلماء: لأنه لم يتزوج بكرا سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: "وأهل بيتي أحق". وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: "هو مسجدي هذا".

فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قُباء، كما ورد في الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بِتَسمِيَته بذلك، والله أعلم".

قال الشافعي:"فذكر الله الكتاب، وهو: القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سنة رسول الله ﷺ ، وهذا يشبه ما قال، والله أعلم؛ لأن القرآن ذكر وأتبِعَته الحكمة، وذكر الله منهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز - والله أعلم - أن يقال: الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله ﷺ . وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتَّم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقولٍ: فرضٌ إلا لكتاب

=

=

الله ثم سنة رسوله، لما وصفنا، من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونًا بالإيمان به، وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد، دليلًا على خاصِّه وعامِّه، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسول الله ﷺ".

عن قتادة:"{واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة}، قال: القرآن، والسنة، عتب عليهن بذلك".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [الأحزاب: ٣٤]، أي:"إن الله كان عالمًا بما يصلح لأمر العباد، خبيرًا بمصالحهم".

عن قتادة: " {خبيرا}، قال: خبير بخلقه".

قال الطبري: يقول:"إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا".

قال ابن كثير:"أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك".

قال الزمخشري:"{إن الله كان لطيفا خبيرا} حين علم ما ينفعكم ويصلحكم في دينكم فأنزله عليكم. أو علم من يصلح لنبوته ومن يصلح لأن يكونوا أهل بيته. أو حيث جعل الكلام الواحد جامعا بين الغرضين".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله} القرآن {والحكمة} السنة] (اذكرن) الأمر هنا للإرشاد، وبيان المنة والفضل من الله سبحانه وتعالى عليهن، وقوله: {واذكرن} يحتمل أن يكون المراد به تذكرن وتدبرن هذا الأمر واعرفن ما فيه من فضل الله تعالى عليكن، ويحتمل أن المعنى:

=

=

اذكرنه بتلاوته.

وقوله تعالى: {ما يتلى في بيوتكن}: {يتلى} بمعنى: يقرأ، والتلاوة نوعان؛ تلاوة لفظية وتلاوة معنوية، فإذا قلت: تلا كتاب الله تعالى حتى أكمله، فالمعنى: اللفظية، وإذا قلت: سجدة التلاوة فهي التلاوة اللفظية، أما التلاوة المعنوية فهي اتباع القرآن، تلاه يتلوه إذا اتبعه، فالتلاوة المعنوية بمعنى: اتباع القرآن في عقائده، في أخلاقه، في أعماله، هذه التلاوة.

وأيهما المقصود الأعظم؟

المقصود الأعظم: هو التلاوة المعنوية، أما التلاوة اللفظية فلا شك أنها مقصودة، وأن من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به عشر حسنات؛ لكن المهم التلاوة المعنوية {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب} [ص: ٢٩].

وقوله تعالى: {من آيات الله والحكمة}: {آيات الله} لا شك أنها القرآن كما قال الله سبحانه وتعالى: {بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم} [العنكبوت: ٤٩].

والآيات هنا المراد بها الآيات الشرعية؛ فإن آيات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

١- آيات كونية، وهي ما خلقه الله تعالى ويخلقه في هذا الكون؛ فإن كله آيات علامات على خالقه ﷻ لما فيه من بديع الصنعة والنظام الحكيم البالغ، الذي لا يتناقض ولا يتنافر؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض} [المؤمنون:

=

=

٩١]، وإذا ذهب كل إله بما خلق، لم يكن الكون منتظما؛ لأن كل إله يخلق على ما يريد، ثم لا بد من علو أحدهما على الآخر، لأنهما إن تمانعا وعجز كل واحد منهما عن الآخر، لم يصح أن يكونا إلهين، وإن غلب أحدهما الآخر فالمغلوب لا يصح، وحينئذ تكون الدلالة العقلية على أنه لا بد من إله واحد فقط، وهو الله سبحانه وتعالى؛ المهم: أن الآيات الكونية كل ما يخلق الله تعالى في الكون.

٢- أما الآيات الشرعية فهي ما جاءت به الرسل من الوحي، وسميت آيات؛ لأنها علامات على مشرعها ومنزلها؛ لما فيها من انتظام المصالح، وانتفاء المفاسد؛ فإن الشرع كله تحصيل للمصالح، وتقليل للمفاسد؛ ولذلك ما من شيء يتضمن مصلحة راجحة أو خالصة إلا أمر به الشرع، وما من شيء يتضمن مفسدة خالصة أو راجحة إلا نهى عنه الشرع؛ لكن من المصالح ما ندركه بعقولنا، ومن المفاسد ما ندركه بعقولنا، ومنه ما لا ندركه، ولكننا نعلم علم التقين أن مقتضى حكمة الله ﷻ ومن أسمائه الحكيم، أنه لا يمكن أن يأمر إلا بما فيه مصلحة؛ إما خالصة وإما راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة إما خالصة وإما راجحة؛ ولهذا سميت الكتب النازلة من السماء آيات؛ لأنها علامات على من شرعها سبحانه وتعالى وعلى من أنزلها، قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: ٨٢].

وهنا مسألة بدأ الناس يفعلونها: يقسمون بآيات الله تعالى، يقول: قسما بآيات الله ما كان كذا وكذا. أو قسما بآيات الله لأفعلن كذا وكذا. وفيه تفصيل: إن قصد الآيات الكونية فهو حرام؛ لأنه حلف بغير الله تعالى، حلف بالمخلوقات، وإن أراد بالآيات الآيات الشرعية، فهو حلف بكلمات الله تعالى، والحلف بكلمات

=

=

الله جائز؛ لأن كلمات الله تعالى من صفاته، والغالب على العامة حينما يقسمون هذا القسم -فيما أظن- هو الآيات الشرعية، أنهم ما يريدون قسما بآيات الله تعالى، أما قسما بالشمس وبالقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار، فلا يقسمون بهذا، بل (قسما بآيات الله) يقصدون بذلك القرآن، وحينئذ يكون هذا القسم جائزا باعتبار الدلالة العرفية على المراد به، أما لو نظرنا إلى لفظه فلا بد من التفصيل.

وعلى كل حال: الإقسام على المصحف هذا من البدع؛ لأنه لم يرد عن النبي عليه الصلاة والسلام والذي ورد في تغليظ الأيمان ما ذكره الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: {فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى} [المائدة: ١٠٦]، وقوله سبحانه وتعالى: {تحبسونهما} قبله {تحبسونهما من بعد الصلاة} أي: صلاة العصر، وفي باب الدعاوى: أن التغليظ يكون بالزمان، ويكون بالمكان، ويكون بالهيئة، ويكون بالصيغة.

وقوله تعالى: {والحكمة} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هي السنة] كما قال الله تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة}، وقال تعالى: {ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣].

والأصل في العطف المغايرة، وإلا فلقائل أن يقول: إن القرآن الكريم قد تضمن الحكمة فيكون تعليم القرآن تعليم الأحكام، وتعليم حكم الأحكام، لأن معرفة أحكام الشريعة أمر عظيم جدا؛ فالإنسان إذا عرف حكمة الأحكام الشرعية يستنير قلبه أكثر، ويقتنع بالأحكام الشرعية أكثر، ويعرف من صفات الله سبحانه وتعالى وحكمه ما هو أكثر ويستطيع أيضا أن يقنع الخصم؛ لأن الخصم لو تقول مثلا: هذا حرام؛ لأن القرآن حرمه؛ فهو قد لا يكون ممن يؤمن بالقرآن أو يطمئن

=

=

إليه، لكن إذا كان لديك معرفة بحكم الشريعة أمكنك أن تقنع هذا الشخص.
ولهذا معرفة حكمة الشرع مهم جدا، بل إن غالب القياس إنما جاء من معرفة الحكمة؛ لأنه إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، وعلى هذا فربما يقول قائل: إن المراد بالحكمة ما يعلم من أسرار أحكام الشريعة وحكمها.
ولكن أهل العلم رحمهم الله من السلف والخلف أئمة الخلف فسروا الحكمة بأنها السنة.
وقوله سبحانه وتعالى: {إن الله كان لطيفا خبيرا} لطيفا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأوليائه {خبيرا} بجميع خلقه] (اللطيف) فسره أهل الباطل بأنه الذي لا يدرك لصغره -أعوذ بالله! -، فسروه بذلك وكذبوا.
وفسره أهل السنة فقالوا: إن اللطيف جاء في كتاب الله تعالى معدى باللام ومعدى بالباء، قال تعالى {الله لطيف بعباده} [الشورى: ١٩]، وقال تعالى: {إن ربي لطيف لما يشاء} [يوسف: ١٠٠]، فعدي بالباء وعدي باللام.
وعلى هذا فيكون اللطيف له معنيان:
أحدهما: اللطف للعبد، وهو أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقدر له مواقع الإحسان، بمعنى أنه يلطف له فييسر له الأمر، ويسهله عليه.
الثاني: اللطيف به بالباء، وهو بمعنى: إدراك الأمور الخفية؛ لأن اللطيف معناه: الذي يدرك ما لطف، فمعنى {لطيف بعباده}، أي: مدرك لما خفي من أمورهم، فيكون بمعنى الخبير، بل أدق من معنى الخبير؛ ولهذا جمع الله تعالى بينهما فقال: {خبيرا}، والخبير قال العلماء رحمهم الله: هو العالم ببواطن الأمور.
يقول ابن القيم في النونية -وهي من أحسن ما نظم في التوحيد وأجمعه-:

=

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥).

{إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقنتات} الْمُطِيعَات {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَات} فِي الْإِيمَان {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَات} عَلَى الطَّاعَات {وَالْخَاشِعِينَ} الْمُتَوَاضِعِينَ {وَالْخَاشِعَات وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَات وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَات وَالْحَافِظِينَ فُرُوجهمْ وَالْحَافِظَات} عَنْ الْحَرَام {وَالذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات أَعَدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَة} لِلْمَعَاصِي {وَأَجْرًا عَظِيمًا} عَلَى الطَّاعَات[1].

=

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسان

فصار اللطيف له معنيان: اللطيف للعبد، واللطيف به؛ فاللطيف به بمعنى: الخبير ببواطن أموره، وما لطف من أمره، وله الذي يقدر له من أسرار حكمته أو من أسرار إحسانه وفضله ما لا يدركه بعقله.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟! قالت: فلم يَرُعْنِي ذات يومٍ ظهرًا إلا نداؤه على المنبر، قالت: وأنا أُسرح رأسي، فَلَفَفت شعري ثم خرجت إلى حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند

=

=

الجريد، فهذا هو يقول على المنبر: "يا أيها الناس! إن الله يقول في كتابه: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} إلى آخر الآية: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١، ٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (١٤٠٥)، والطيراني في الكبير (٢٣/ ٢٤١ رقم ٦٥٠) والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩٠) وغيرهم من طريق عفان بن مسلم والمغيرة بن سلمة أبو هشام المخزومي كلاهما عن عبد الواحد بن زياد نا عثمان بن حكيم نا عبد الرحمن بن شيبة؛ قال: سمعت أم سلمة (فذكره) والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي، و حسنه الحافظ ابن حجر في موافقة الخبر (٢/ ٢١ - ٢٢) وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، والأرنؤوط في تحقيق المسند، وصححه أيضا صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٠٨ - ١١٢)، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٧): صحيح لشواهده.

وخالف عفانَ والمغيرةَ يونسُ بنُ محمد ومحمدُ بنُ المنهال، فروياه عن عبد الواحد بن زياد به؛ إلا أنهما قالا: عن عبد الله بن رافع بدلًا من عبد الرحمن بن شيبة.

أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١)، والطبراني (٢٣/ ٢٤٥ رقم ٦٦٥) على الترتيب.

قال الحافظ ابن حجر: "ورواية عفان أرجح لموافقة المغيرة بن سلمة".

وأخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٤/ ١٢٣٦ رقم ٦٢٤ - تكملة) -ومن طريقه البيهقي في "معرفة السنن والآثار" (٦/ ٥٠٠ رقم ٥٣٠٨) -، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ١/ ١٥٦) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٥/ ٣١) -، وأحمد في "المسند" (٦/ ٣٢٢)، والترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢)،

=

=

وأبو يعلى في "المسند" (١٢/ ٣٩٣ رقم ٦٩٥٩) -ومن طريقه الحافظ ابن حجر في "موافقة الخبر الخبر" (٢/ ٢٢، ٢٣) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (ق ٩٩/ ب، وق ١٣٢/ أ)، وابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٩٩)، والطبري في "جامع البيان" (٥/ ١٥٣٠، ٢٢/ ١٠)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦، ٤١٦)، والفريابي؛ كما في "العجاب" (٢/ ٨٦٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٩٩) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة. وهذا سند صحيح، وفصلنا القول فيه في سورة النساء عند آية (رقم ٣٢).

وقال الحافظ: "هذا حديث حسن".

وقال الحاكم في الموضع الأول: "صحيح على شرط الشيخين، إن كان مجاهد سمعه من أم سلمة".

وقال في الموضع الثاني: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي في كليهما.

وقال الترمذي: "هذا مرسل"؛ يعني: أن مجاهدًا لم يسمع من أم سلمة.

لكن قال الحافظ: "ومجاهد قد ثبت سماعه من علي رضي الله عنه وهو أقدم موتًا من أم سلمة بعشرين سنة".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٨): ثنا أبو كريب؛ قال: ثنا أبو معاوية عن محمد بن عمرو بن سلمة عن أبي سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله! أيذكر الرجال في كل شيء ولا نُذْكر؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

=

=

وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}.

وهذا سند حسن، وخالف أبا كريب يحيى بن عبد الحميد الحماني؛ فرواه عن أبي معاوية عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أم سلمة به، فأسقط يحيى منه.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٣/ رقم ٥٥٤).

ويحيى الحماني؛ حافظ؛ لكنه متهم بسرقة الحديث؛ فلا يعتد بمخالفته.

وأخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ١٦٩ رقم ٤٢٤) بسند صحيح إلى شريك بن عبد الله القاضي عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أم سلمة؛ أنها قالت للنبي ﷺ: يا نبي الله! ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرون؟! فأنزل الله ﷻ: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}. لكن هذا ضعيف -أيضًا-؛ لأن شريكًا القاضي ضعيف، سيئ الحفظ.

ولا يقال: إن مجموع حديثي الحماني وشريك يقويان بعضهما بعضًا فيقدمان على رواية أبي معاوية الأولى -والتي أخرجها الطبري-، لا؛ لأن الضعف في الطريق الأولى شديد؛ لأجل الحماني، وللمخالفة التي فيه.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٨) وزاد نسبته للفريابي

=

=

وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبي ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، ولم يذكر النساء بشيء؛ فنزلت: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}.

أخرجه عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٨) -وعنه الترمذي في "الجامع" (٥/ ٣٥٤ رقم ٣٢١١)، وابن الأثير في "أسد الغابة" (٦/ ٣٧١) -، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٦/ ١٧٢ رقم ٣٤٠٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٥/ ٢٧ رقم ٥١، ٥٣)، وابن منده في "معرفة الصحابة" -ومن طريقه الحافظ ابن حجر في "موافقة الخبر الخبر" (٢/ ٢٣، ٢٤) -، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣٥٣٥ رقم ٧٩٩٣) من طريق جرير بن عبد الحميد وسليمان بن كثير كلاهما عن حصين عن عكرمة عن أم عمارة الأنصارية به.

قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

وقال الحافظ ابن حجر: "هذا حديث حسن... ورجاله رجال الصحيح؛ لكن اختلف في وصله وإرساله؛ فرواه شعبة عن حصين مرسلًا، وهو أحفظ من سليمان بن كثير، وأخرجه عبد بن حميد في "تفسيره" عن روح بن عبادة عن شعبة".

=

=

وتابع حصينًا سفيان الثوري عن عكرمة به مرسلًا.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٥/ ٢٧ رقم ٥٢) من طريق مصرف بن عمرو اليامي ثنا عبد الله بن إدريس عن سفيان به. وسنده صحيح إليه. والصواب -والله أعلم- الإرسال.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٨) وزاد نسبته للفريابي وسعيد بن منصور وابن مردويه.

وشاهد آخر من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قالت النساء: يا رسول الله! ما لنا لا نذكر كما يذكر الرجال؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٨، ٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٠٨)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ رقم ١٢٦١٤) -ومن طريقه الحافظ ابن حجر في "موافقة الخبر الخبر" (٢/ ٢٤)- من طريق أبي كدينة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ قابوس لين الحديث؛ كما قال الحافظ ابن حجر في "التقريب".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩١): "رواه الطبراني؛ وفيه قابوس وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله ثقات". وقال الحافظ ابن حجر: "هذا حديث

=

=

حسن". وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٨): "بسند حسن". وقال في "لباب النقول" (ص ١٧٤): "بسند لا بأس به".

وعن قتادة؛ قال: لما ذكر الله أزواج النبي ﷺ ورضي عنهن؛ قال النساء: فما لنا؟ فنزلت: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٨): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وأخرج ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٩٩، ٢٠٠): نا محمد بن عمر [الواقدي] عن معمر عن قتادة؛ قال: لما ذكر أزواج النبي ﷺ؛ قال النساء: لو كان فينا خير؛ لذكرنا؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)}. والواقدي؛ متروك؛ لكن تابعه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١١٦)؛ فصح الأثر عن قتادة.

وعن عكرمة؛ قال: الجاهلية الأولى التي ولد فيها إبراهيم ﷺ، وكن النساء يتزين ويلبسن ما لا يواريهن، وأما الآخرة؛ فالتي ولد فيها محمد ﷺ، وكانوا أهل ضيق

=

=

في معايشهم في مطعمهم ولباسهم؛ فوعد الله نبيه ﷺ أن يفتح عليه الأرض، فقال: قل لنسائك: إن أردنك ألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)}، يقول: {مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ}: القرآن، فقال النساء للرجال: أسلمنا كما أسلمتم، وفعلنا كما فعلتم؛ فتذكرون في القرآن ولا نذكر؟! وكان الناس يسمون المسلمين، فلما هاجروا؛ سموا المؤمنين؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}؛ يعني: المطيعين والمطيعات، {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} شهر رمضان، {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}؛ يعني: من النساء، {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}، فلما خيرهن رسول الله ﷺ؛ اخترن الله ورسوله؛ فأنزل الله: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، قال: من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك فقد حرم عليك تزوج غيرهن، {وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} إلا التسع اللاتي كن عندك.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ٢٠٠): نا محمد بن عمر قال: أخبرني ابن أبي سبرة قال: أخبرني سليمان بن يسار عن عكرمة به. وهذا مرسل ضعيف جدًا؛ فالواقدي -وهو محمد بن عمر- وابن أبي سبرة متروكان.

* قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

=

=

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)} [الأحزاب: ٣٥].

عن أم سلمة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-؛ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟! قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهرا إلا نداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فهذا هو يقول على المنبر: "يا أيها الناس! إن الله يقول في كتابه: {إن المسلمين والمسلمات} إلى آخر الآية: {أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}.

أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٦٢٤)، وعبد الرزاق (١/ ١/ ١٥٦)، والطبري في تفسيره (٥/ ٣١)، وأحمد (٦/ ٣٢٢)، والترمذي (٣٠٢٢)، وأبو يعلى (٦٩٥٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٦٦٩)، والحاكم (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦، ٤١٦)، والبيهقي في المعرفة (٦/ ٥٠)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٩٩) والحديث قال عنه الترمذي: هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلا أن أم سلمة قالت كذا وكذا، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد أم سلمة وأقره الذهبي، وقال الحافظ في موافقة الخبر الخبر (٢/ ٢٢ - ٢٣): هذا حديث حسن ومجاهد قد ثبت سماعه من علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو أقدم موتا من أم سلمة بعشرين سنة، وصححه في صحيح الترمذي، وصححه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (١/ ٣٨١).

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"إن المنقادين لأوامر الله والمنقادات".

قال الطبري: يقول: "إن المتذللين لله بالطاعة والمتذللات".

=

=

قال مقاتل:"يعنى: المخلصين بالتوحيد والمخلصات".

قال سعيد بن جبير:"يعني المخلصين لله من الرجال، والمخلصات من النساء".

قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والمصدِّقين والمصدِّقات".

قال الطبري: يقول: " والمصدقين والمصدقات رسول الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله".

قال مقاتل:"يعنى: المصدقين بالتوحيد والمصدقات".

قال سعيد بن جبير:"يعني: المصدقين والمصدقات".

قال ابن كثير:"فقوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه".

قوله تعالى: {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والمطيعين لله ورسوله والمطيعات".

قال الطبري: يقول: والمطيعين لله والمطيعات له فيما أمرهم ونهاهم".

قال مقاتل:"يعنى: المطيعين والمطيعات".

قال سعيد بن جبير:"يعني: المطيعين والمطيعات".

قال السدي:"يعني: المطيعين لله والمطيعات".

قال ابن كثير:"القنوت: هو الطاعة في سكون، {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا

=

وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: ٩]، وقال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [الروم: ٢٦]، {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣]، {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨]. فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما".

قوله تعالى: {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والصادقين في أقوالهم والصادقات".

قال الطبري: يقول:"والصادقين لله فيما عاهدوه عليه والصادقات فيه".

قال مقاتل:"والصادقين في إيمانهم والصادقات في إيمانهن".

قال سعيد بن جبير:"يعني: الصادقين في إيمانهم".

قال ابن كثير:"هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرّب عليه كِذْبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومَنْ صدق نجا، «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ولا يزال الرجل يكذب ويتَحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا». والأحاديث فيه كثيرة جدا".

قوله تعالى: {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والصابرين عن الشهوات وعلى الطاعات وعلى المكاره والصابرات".

قال الطبري: يقول:"والصابرين لله في البأساء والضراء على الثبات على دينه وحين البأس والصابرات".

=

قال مقاتل:"والصابرين على أمر الله- ﷻ- والصابرات عليه".

قال سعيد بن جبير:"يعني: على أمر الله".

قال ابن كثير:"هذه سَجِيّة الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وَتَلَقّي ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها".

قوله تعالى: {وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والخائفين من الله والخائفات".

قال الطبري: يقول:"والخاشعة قلوبهم لله وجلا منه ومن عقابه والخاشعات".

قال مقاتل:"يعني: المتواضعين والمتواضعات، قال مقاتل: من لا يعرف في الصلاة من عن يمينه ومن عن يساره من الخشوع لله- ﷻ- فهو منهم".

قال سعيد بن جبير:"{والخاشعين}: يعني المتواضعين لله في الصلاة من لا يعرف من عن يمينه ولا من عن يساره ولا يلتفت من الخشوع لله، {والخاشعات}، يعني: المتواضعات من النساء".

قال ابن كثير:"الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ".

قوله تعالى: {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والمتصدقين بالفرض والنَّفْل والمتصدقات".

قال الطبري: يقول:"والمتصدقين والمتصدقات وهم المؤدون حقوق الله من

=

=

أموالهم والمؤديات".

قال مقاتل:"والمتصدقين بالمال والمتصدقات به".

قال عطاء: "من صدق في كل أسبوع بدرهم فهو من هذه الجملة".

قال ابن عباس: "يتصدقون بالأموال ومما رزقهم الله من الثمار والمواشي وكل ما ملكوا يطلبون ما عند الله موقنين بالخلف والثواب".

قال ابن كثير:"الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحسانا إلى خلقه".

وفي الحديث: " سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق فى المساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه".

عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: " ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة".

وفي الحديث خطب النبي ﷺ يوم العيد قال في خطبته: "يا معشر النساء تصدَّقْنَ ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار".

قال ابن كثير:"وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار".

عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ، مثل البخيل والمتصدق، كمثل رجلين

=

=

عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزفت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع".

عن أبى ذر قال: "قلت يا رسول الله ماذا ينجى العبد من النار قال الإيمان بالله قلت إن مع الإيمان عملا قال يرضخ مما رزقه الله، قلت: أرأيت إن كان فقيرا لا يجد ما يرضخ به، قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قلت: أرأيت إن كان عييا لا يستطيع أن يصنع شيئا، قال: يعين مغلوبا، قلت: أرأيت إن كان ضعيفا لا يستطيع أن يعين مغلوبا، قال: ما تريد أن تترك فى صاحبك شيئا من الخير يمسك الأذى عن الناس، قلت: يا رسول الله إذا فعل ذلك دخل الجنة، قال والذى نفسى بيده ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء يريد بها وجه الله إلا أخذت بيده يوم القيامة حتى تدخله الجنة".

قوله تعالى: {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والصائمين في الفرض والنَّفْل والصائمات".

قال الطبري: يقول:"والصائمين شهر رمضان الذي فرض الله صومه عليهم والصائمات ذلك".

قال مقاتل:"من صام شهر رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فهو من {الصائمين}، فهو من أهل هذه الآية".

قال سعيد بن جبير:"من صام شهر رمضان، ثلاثة أيام من كل شهر، فهو من أهل هذه الآية".

قال يحيى:"بلغني أنه من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فهو من الصائمين

=

=

والصائمات".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم».

قال ابن كثير:"أي: تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا".

قال ابن كثير:"ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، مَنْ استطاع منكم الباء فليتزوج، فإنه أغَضُّ للبصر، وأحْصَن للفرج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء» - ناسب أن يذكر بعده: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}".

قوله تعالى: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والحافظين فروجهم عن الزنى ومقدماته، وعن كشف العورات والحافظات".

قال الطبري: يقول:"والحافظين فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم والحافظات ذلك إلا على أزواجهن إن كن حرائر أو من ملكهن إن كن إماء".

قال مقاتل:"والحافظين فروجهم عن الفواحش والحافظات من الفواحش".

قال سعيد بن جبير:"يعني: فروجهم عن الفواحش".

قوله تعالى: {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"والذاكرين الله كثيرًا بقلوبهم وألسنتهم والذاكرات".

قال الطبري: يقول:"والذاكرين الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، كذلك".

قال مقاتل:"والذاكرين الله كثيرا باللسان والذاكرات الله كثيرا باللسان".

=

=

قال مجاهد:"لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما، وقاعدا، ومضطجعا".

عن السدي: {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ} "يعني: باللسان".

قال يحيى: "وليس في هذا الذكر وقت".

عن أبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كتبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات".

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمْدان فقال: "هذا جُمْدان، سيروا فقد سبق المُفَرّدون". قالوا: وما المُفَرّدون؟ قال: "الذاكرون الله كثيرا". ثم قال: "اللهم اغفر للمحلقين". قالوا: والمقصرين؟ قال: "اللهم، اغفر للمحلقين". قالوا: والمقصرين؟ قال: "والمقصرين".

عن معاذ بن جبل، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما عمل آدمي عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله". وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم"؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: "ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ".

قوله تعالى: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥]، أي:"أعدَّ الله لهؤلاء مغفرة لذنوبهم وثوابًا عظيمًا، وهو الجنة".

قال الطبري: يقول:"أعد الله لهم مغفرة لذنوبهم، وأجرا عظيما: يعني ثوابا في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيما، وذلك الجنة".

قال ابن كثير:"أي: هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرا عظيما وهو الجنة".

=

=

قال سعيد بن جبير: "ثم أخبر بثوابهم فقال: {أعد الله لهم مغفرة}، يعني: لذنوبهم، {وأجرا عظيما}، يعني: جزاء وافر في الجنة".

قال العثيمين: أولا: أن القرآن الكريم في غالب ما يتحدث عن الأحكام الجزائية، والأحكام العملية أكثر ما يتحدث مخاطبا الرجال؛ لأن الرجال أشرف من النساء؛ ولأن الرجال قوامون على النساء، فإذا صلح الرجال صلحت النساء؛ ولأنه إذا اجتمع جنسان فإنه يغلب أشرفهما وأعلاهما؛ ولهذا أكثر الخطابات الواردة في القرآن توجه إلى الرجال؛ لهذه الأسباب الثلاثة ولغيرها.

لكن في بعض الآيات تذكر الأحكام للرجال والنساء، إما على سبيل التفصيل، وإما على سبيل الإجمال:

مثال الأول: قوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات} إلى آخره.

ومثال الثاني: قوله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض} [آل عمران: ١٩٥]، فإن في هذا إجمالا.

ثانيا: في هذه الآيات ذكر المصنفون أن من أسباب نزولها: أن أم سلمة ﵂ قالت: يا رسول الله، إن الله تعالى إذا تكلم إنما يتكلم عن الرجال ولا يذكر النساء، فأنزل الله تعالى هذه الآيات: {إن المسلمين والمسلمات} إلى آخره.

ففي قوله ﷻ: {إن المسلمين والمسلمات} هذه (إن) التوكيدية التي تنصب المبتدأ والخبر، وفي قوله تعالى: {أعد الله لهم} ما قال: أعد الله تعالى لهم ولهن، بل قال تعالى: {أعد الله لهم} فدل ذلك على تغليب جانب الذكورية، كما أن في قوله سبحانه وتعالى: {إن المسلمين والمسلمات} تقديم الذكور، يدل على شرف الذكور، وهذا أمر لا يمتري فيه عاقل، لكن لما جاء الغرب الخبيث القبيح

=

=

المقلوب فطرة ودينا، وصار يقدم النساء من أجل إثارة الفتنة بهن، وتشريفهن على الرجال؛ تبعه الذين يتبعون كل ناعق، وصاروا يقدمون النساء على الرجال؛ حتى كانوا لا يطلقون على النساء إلا كلمة (السيدات) يعني: أنهن سيدات للرجال، فقلبوا الحقائق والأوضاع؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد قلب فطرهم فعبدوا المادة دون خالقها، وكذلك تصرفوا في تصرفاتهم هذه، ويجب على المسلمين الحذر والتنبه من مغالطات أولئك الكفرة، لا في هذا ولا في غيره، حتى يكونوا على بينة من أمرهم، ودينهم -والحمد لله- قد بين الله تعالى فيه كل شيء.

قوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} الإسلام: في أعمال الجوارح الظاهرة، لأنه يشمل أو يراد به أن يستسلم الإنسان لله تعالى ظاهرا بجوارحه، بلسانه بيديه برجليه بعينه بأذنه؛ هذا الاستسلام الظاهر يسمى إسلاما، وقد يقع من غير المؤمن، فقد يقع من المنافق، وقد يقع من ضعيف الإيمان، قال الله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم} [الحجرات: ١٤]، وهذا الإسلام مرتبته دون الإيمان، لأنه يقع من المؤمن حقا، ومن المنافق، ومن ضعيف الإيمان، لأن الاستسلام لله تعالى بالجوارح الظاهرة.

وقوله سبحانه وتعالى: {والمؤمنين والمؤمنات} هذا الاستسلام لله تعالى باطنا؛ وذلك بالإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره؛ ولسنا بحاجة إلى تفسير أحد للإيمان بعد أن فسره النبي ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام: ما الإيمان؟ قال: "أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم

=

=

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"، وتفاصيل هذه الجملة قد تكلمنا عليه مرارا، وليس هذا موضع بسطه.

إذن: الإيمان هو: الاستسلام لله تعالى باطنا بحيث يؤمن الإنسان بما يجب الإيمان به، وهو: الإيمان بالله تعالى وملائكته... إلى آخره.

والإيمان أعلى من الإسلام؛ لأن الإيمان يستلزم الإسلام ولا عكس؛ فكل مؤمن لا بد أن يكون مسلما؛ لأنه إذا صلح القلب صلحت الأعضاء، كما قال النبي ﷺ: "ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"، ولكن بعض الناس يعمل المعاصي، ويحتج بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "التقوى هاهنا"، إذا قلت: يا أخي، اتق الله، صل مع الجماعة! اتق الله، دع حلق اللحية! اتق الله اترك الغيبة! وما أشبه ذلك يقول لك: "التقوى هاهنا".

وكيف يرد عليه؟

الجواب: أن نقول له: لو اتقى ما هاهنا لاتقى ما هاهنا. يعني: لو اتقى الباطن لاتقى الظاهر، لأن الرسول ﷺ يقول: "إذا صلحت صلح"، فجعل الأمر جملة شرطية، والمعروف في اللغة والعرف والشرع أن الجملة الشرطية يتحقق فيها المشروط متى تحقق الشرط.

ونقول: صحيح -ونحن معك- بأن هذا الذنب الذي تعمله دون الشرك قابل لأن يغفره الله تعالى، ولكن الله تعالى لم يقل: ويغفر ما دون ذلك لكل أحد. بل قال تعالى: {لمن يشاء} [النجم: ٢٦]، فهل تشهد أنك أنت ممن شاء الله أن يغفر لهم؟! إذن: فأنت على خطأ، والأصل أن الوعيد على المعاصي ثابت، لأن رفعه

=

=

تحت المشيئة، ووقوعه بمقتضى الوعد، فالأصل ثبوته، فلا حجة له في هذا.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{والقانتين والقانتات} المطيعات] كان عليه أن يقول: المطيعين، ويصير: والقانتات معروف أنها المطيعات.

وقوله سبحانه وتعالى: {والقانتين} القنوت ليس مطلق الطاعة كما يفهم من كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ، ولكنه: الطاعة بدوام وذل وسكون، ويدل لذلك قوله تعالى: {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين} [البقرة: ٢٣٨]، ولما نزلت هذه الآية أمروا بالسكوت ونهوا عن الكلام، فدل هذا على أن القنوت ليس مجرد فعل الطاعة، بل هي طاعة مع ذل وخضوع، ودوام.

وقوله تعالى: {والقانتين والقانتات} القنوت أعلى مما سبقه؛ لأن القانت معه الإيمان والإسلام، كما قال تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: ٩].

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{والصادقين والصادقات} في الإيمان] الصدق هو: الإخبار بما يطابق الواقع؛ هذا الأصل في معنى الصدق، مثل: أن أقول لك: إن هذه المروحة تشتغل. هذا صدق؛ لأنه إخبار بما يطابق الواقع، ولو قلت: إن هذه المروحة لا تشتغل. لم يكن صدقا، لأنه إخبار بما يخالف الواقع، ولكن الصدق هل هو في القول فقط أو يكون الصدق في القول والعمل والعقيدة؟ الجواب: الأخير.

فيكون الصدق في العقيدة: بأن يكون الإنسان صادق الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في كل أعماله، صادق العقيدة بحيث تكون مطابقة لما جاء به الشرع.

ويكون الصدق كذلك في الأقوال، بألا يقول إلا صدقا، ولو كان الأمر عليه، قال

=

=

تعالى: {ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين}.

وانظر إلى نتيجة الصدق في قصة الثلاثة الذين خلفوا، يعني: أرجئ أمرهم؛ لأنهم جاؤوا وأخبروا بالصدق، والمنافقون كانوا يأتون يقولون: يا رسول الله، لنا عذر، ولنا عذر. فيستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، لكن هؤلاء صدقوا فخلفوا عن الحكم عليهم بما حكم على المنافقين، وليس المراد أنهم خلفوا عن الغزوة، لو كان كذلك لقال: الذين تخلفوا. هؤلاء الثلاثة وهم: كعب بن مالك، وهلال ابن أمية، ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم، هؤلاء صدقوا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأشد من تكلم وأبين من تكلم وأفصح من تكلم من هؤلاء الثلاثة كعب بن مالك رضي الله عنه، لأنه أشبهم رضي الله عنه، فتكلم كلاما عجيبا، ويحسن بكم أن تراجعوا قصته؛ لأنها في الحقيقة تزيد في الإيمان، هؤلاء صدقوا فكانت نتيجة صدقهم: أن الله سبحانه وتعالى أنزل فيهم كتابا يتلى إلى يوم القيامة، في مدحهم والثناء عليهم؛ حتى قال الله سبحانه وتعالى للناس كلهم: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} [التوبة: ١١٩]، أما الآخرون فقال تعالى: {سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون} [التوبة: ٩٥].

فانظر الفرق بين الأمرين، هؤلاء كذبوا فأرجسوا -والعياذ بالله- وهؤلاء صدقوا فرفعوا، فعليك بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله تعالى صديقا.

فالمهم أن {والصادقين والصادقات} نقول: في الإيمان، وفي القول، وفي العمل،

=

=

فالصدق في العمل أن يكون مطابقا للباطن؛ فلا تعمل رياء ولا سمعة، ولا مصانعة، ولا مجاملة، ولا لأجل شيء من الدنيا، مثال ذلك رجل أخرج من جيبه ألف درهم فتصدق بها، لأن الناس يشاهدونه، فقال: أريد أن يقول الناس: ما أكرم فلانا! فهل صدق في فعله؟ ظاهر فعله أنه لله تعالى صادق، ولكن حقيقة أمره العكس، فكان كاذبا، ومن الصدق في الأقوال أو في الأعمال متابعة الرسول ﷺ فإنها دليل على صدق محبة الإنسان لله تعالى ورسوله ﷺ، قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم} [آل عمران: ٣١]، فصار الصدق في العقيدة في القول وفي العمل.

وقوله تعالى: {والصابرين والصابرات} لما كان الصدق قد يترتب عليه من مجاهدة النفس ما يترتب؛ لأن إخبار الإنسان بالصدق ولا سيما على نفسه أمر صعب، أعقبه بذكر الصبر، يعني كأنما يقول: اصدق واصبر على صدقك. فقال تعالى: {والصابرين والصابرات}.

والصبر في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: قتل صبرا. يعني: حبسا.

وفي الشرع: حبس النفس عن التسخط والكراهة لحكم الله ﷻ والتضجر منه.

فقولنا: لحكم الله سبحانه وتعالى يشمل الحكم الكوني والحكم الشرعي، وهذا التعريف يشمل أنواع الصبر الثلاثة التي تكلم عليها أهل العلم، حيث قالوا: إن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة.

فنحن إذا قلنا: حبس النفس عن التسخط والكراهة لحكم الله تعالى. يشمل الأنواع الثلاثة، لأنه كله حكم الله تعالى الكوني والشرعي، فالكوني يتعلق بالصبر

=

=

علـى أقـدار الله تعـالى، والـشرعي يتعلـق بالـصبر علـى طاعـة الله تعـالى، وعـن معصيته.

وأما تعريف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ للصبر، فيقول: هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب؛ وهو صحيح وقولنا: (عن الكراهة لحكم الله تعالى) أعم مما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما الصبر على طاعة الله تعالى: فهو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه صبر النفس على عمل وحركة وتعب، والصبر عن معصية الله تعالى دونه في المرتبة؛ لأن فيه حبسا للنفس عما تشتهيه، من أجل أنه معصية لله عَزَّوَجَلَّ، لكن هل فيه عمل كالصبر على طاعة الله تعالى؟ لا، ليس فيه عمل، ما فيه إلا كف النفس عن هذا المحرم، فبهذا تميز الصبر على طاعة الله تعالى على الصبر عن معصيته؛ لأن في كل منهما جهادا للنفس، لكن الصبر على الطاعة فيه تكليف النفس بالعمل، وهذا ليس فيه تكليف نفس بالعمل، ولكن فيه الكف عن معصية الله تعالى؛ فلهذا كان دون الأول في المرتبة، ولكننا نحن نقول: دون الأول في المرتبة. باعتبار نفس النوع لا باعتبار الصابرين؛ لأن بعض الصابرين يعاني من المشقة من الصبر على معصية الله تعالى أكثر مما يعاني من الصبر على طاعة الله تعالى، فلو فرضنا أن رجلا تساوره نفسه وتدعوه إلى فعل الفاحشة بضغط شديد، ولكنه عندما يصلي يجد نفسه مرتاحا بدون عناء ولا مشقة، لا شك أن معاناته الأولى أشد، ولكن نحن نتكلم عن أنواع الصبر من حيث هي نوع، بقطع النظر عن الصابر وما يتعلق بحاله.

أما القسم الثالث: فهو صبر على أقدار الله تعالى المؤلمة، وهذا أدنى أنواع

=

=

الصبر؛ لأنه صبر على ما لا فعل للإنسان به، صبر على أمر ليس من فعلك، ولا من مقدورك، لكن الصبر على الطاعة وعن المعصية من مقدورك، أما أقدار الله تعالى فإنها ليست من مقدورك، فهو صبر على أمر ليس بمقدورك؛ لهذا كان أدنى منها؛ ولذلك قال بعض السلف في المصاب: إما أن يصبر صبر الكرام، أو يسلوا سلو البهائم.

وهذا صحيح؛ من منا لم يصب ببدنه أو أهله أو ماله، ثم تكون المصيبة عظيمة جدا وبعد مضي مدة من الزمن ينساها ما كأنها شيء؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، هذا حقيقة الصبر، أما بعد ذلك تبرد النفس، وتتلهى بأمر بما يحدث لها من شؤونها في حياتها حتى تتسلى ولا كأن شيئا جرى.

إذن: الصبر أنواعه ثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره المؤلمة.

فصبر أيوب عليه الصلاة والسلام على ما مسه من الضر من باب الصبر على أقدار الله تعالى، وصبر يوسف عليه الصلاة والسلام عن فعل الفاحشة في امرأة العزيز صبر عن معصية الله تعالى، وفي صبره على ما ناله من ألم السجن وأذيته صبر على أقدار الله تعالى المؤلمة، وهل ليوسف عليه الصلاة والسلام صبر على طاعة الله تعالى؟

الجواب: نعم، دعوته أهل السجن إلى عبادة الله تعالى وإلى توحيده، هذا من الصبر على طاعة الله تعالى.

فاجتمع في حقه أنواع الصبر الثلاثة، وهكذا تكون أنواع الصبر الثلاثة لكثير من عباد الله تعالى، فالرسول ﷺ صبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى

=

=

أقداره، وهذا شيء كثير.

والصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة لا ينال أجرها ومرتبتها إلا بوجود أسبابها؛ فأما أن يقول الإنسان: أنا صابر. ثم لا يصبر فإنه لا ينال تلك المرتبة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يناله من أقدار الله تعالى المؤلمة أكثر من غيره، كما ثبت عنه أنه قال: "إنه يوعك كما يوعك الرجلان"، يعني: بمعنى أنه يصاب بالحمى كما يصاب الرجلان، وفي سياق الموت شدد عليه عليه الصلاة والسلام من أجل أن تتم له هذه المرتبة، مرتبة الصابرين؛ حتى ينال أعلاها.

والصبر هل هو واجب أو مستحب؟

الصبر واجب، وقلنا -المعنى العام للصبر: حبس النفس عن التسخط والكراهة لأحكام الله تعالى- ما قلنا لشريعة الله تعالى؛ وقلنا: (لأحكام الله)؛ لأجل أن يشمل هذا الصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة، فالصبر إذن: واجب، وفيه أجر كثير، قال الله تعالى: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب} [الزمر: ١٠]؛ ولهذا قال الله تعالى في الصوم: "كل عمل ابن آدم له، الحسنه بعشر أمثالها، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"؛ لأن الصوم حقيقة اجتمع فيه أنواع الصبر الثلاثة فهو صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصيته، وصبر على أقداره المؤلمة.

ففيه صبر على طاعة الله تعالى؛ لأنه صبر على الصوم، وحبس نفسه على الرضا به فصام، وصبر عن معصية الله تعالى، فالصائم مأمور بأن يجتنب أشياء كثيرة فاجتنابها صبر عن معصية الله تعالى، وصبر على أقدار الله تعالى فالجوع والعطش والتالم من هذا الجوع والعطش، إذن صبر على أقدار الله تعالى المؤلمة؛ ففيه أنواع الصبر الثلاثة: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصية

=

=

الله تعالى، وصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة.

قال تعالى: {والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [المتواضعين] الخاشع المتواضع المتطامن، وضده المتعالي المستكبر؛ فالخشوع إذن: تطامن، وخضوع، وتواضع، وهو من أعلى مراتب الإيمان، ومن اكمل أحوال القلب، والخشوع له مواضع منها الخشوع في الصلاة؛ فسره الفقهاء رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه سكون في القلب، يتبين على الجوارح، وبعضهم قال: معنى في النفس، يظهر منه خشوع الأطراف. فهو في القلب ويظهر أثره على الجوارح.

ولهذا يروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه رأى رجلا يعبث بلحيته وهو يصلي، فقال: لو سكن قلب هذا لسكنت جوارحه. وقد روي مرفوعا ولا يصح، وإنما هو عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ما فيه ضعف عنه.

فالخشوع في الصلاة: هو سكون القلب الذي يظهر أثره على الجوارح، أو معنى يكون بالنفس يظهر منه سكون الأطراف، وهناك أيضا خشوع في بقية الطاعات، بأن يؤديها الإنسان، وهو متواضع متطامنا لله عَزَّوَجَلَّ، ومنه ما حصل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين فتح مكة وانتصر على أهلها؛ فإنه عليه الصلاة والسلام لم يدخل دخول العالي المستكبر، وإنما دخل مطأطئا رأسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاضعا لله تبارك وتعالى.

ومنه أيضا الخشوع في الحج والعمرة؛ حيث يؤديها الإنسان بتطامن، وذل، وهو يعتقد أنه يعبد الله تعالى، فأنت إذا دخلت في العمرة أو الحج فاعتقد أنك في عبادة، من حين أن تقول: (لبيك اللهم لبيك) إلى أن تنتهي، ولكننا -مع الأسف الشديد- لا نشعر بهذا، فتجد الإنسان يتلبس بمحظورات الإحرام وبغيرها من المحرمات، إلا من شاء الله تعالى.

=

إذن: الخشوع يشمل جميع الطاعات، بأن يؤديها الإنسان بتواضع وذل وتطامن، ليس في قلبه استكبار ولا علو، ولا فرق في هذا بين أن يكون الخشوع في أثناء فعل العبادة، أو بعد فعل العبادة أيضا؛ لأن من الناس من يخشع في العبادة لكن إذا انتهى منها رأى نفسه في درجة عالية، وأنه مرتفع، وأنه قد نال درجة ما نالها غيره، وهذا من الإعجاب بالنفس وبالعمل، فالإنسان ينبغي له إذا أدى العبادة أن يكون كما قال الله سبحانه وتعالى: {وقلوبهم وجلة}، إن نظروا إلى تقصيرهم خافوا، وإن نظروا إلى فضل الله تعالى طمعوا.

وقوله سبحانه وتعالى: {والمتصدقين والمتصدقات} المتصدقين يعني: الباذلين للصدقة، والصدقة هي بذل المال تقربا إلى الله ﷻ، ويشمل الزكاة؛ فإنها أعلى الصدقات، ويشمل البذل التطوعي كصدقة التطوع، وكالإنفاق على الضيف وعلى الأهل، وعلى النفس، كل هذا من الصدقة فما يجعله الإنسان في فم امرأته من الصدقة، وما يأكله من الصدقة.

وكل شيء من المال تبذله لله سبحانه وتعالى فهو من الصدقة، وقد يقال: إن المتصدقين أعم من الباذلين لمالهم في ما يرضي الله ﷻ، فيشمل فعل كل خير؛ لأن الرسول ﷺ يقول: "كل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عليها، أو تضع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة".

فإذا أخذنا بهذا العموم صار المتصدقون والمتصدقات يشمل من قام بأي طاعة من طاعات الله سبحانه وتعالى، ولكنه من المعروف أن المتصدقين والمتصدقات، يتبادر إلى الذهن أنهم الباذلون لمالهم فيما يرضي الله ﷻ.

=

ولا حاجة بنا إلى التطويل في تفصيل الصدقات، وما ينبغي للإنسان أن يتصدق به، وهل يجوز أن يتصدق بكل ماله ويدع عائلته فقراء، أو لا يجوز؟ فإن هذا له وضع آخر.

المهم: أن الله تعالى أثنى على المتصدقين والمتصدقات.

وقوله تعالى: {والصائمين والصائمات} ففي الصدقة بذل، وفي الصيام إمساك، والصائمون هم الذين قاموا بالتعبد لله تعالى بالصيام.

والصيام هو: التعبد لله تعالى بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وهو أنواع: منه ما هو ركن من أركان الإسلام، ومنه ما هو واجب، وليس بركن، ومنه ما هو سنة معينة مقيدة، ومنه ما هو سنة مطلقة، أربعة أنواع:

١- فالواجب الذي هو فرض من فروض الإسلام، وكذلك قضاء الصوم.

٢- والواجب الذي ليس من أركان الإسلام النذر الذي أوجبته على نفسك.

٣- ومنه ما هو سنة مقيدة معينة بوقت معين مقيدة بوقت معين، كأيام البيض والاثنين والخميس، ومنه عاشوراء وتسع ذي الحجة ويوم عرفة؛ وست من شوال تدخل في المعين، لكنها في كل الشهر.

٤- ومنه ما هو مطلق مثل أن يصوم الإنسان لله تعالى يوما من الأيام إلا أنه يكره أن يصوم الإنسان يوم جمعة منفردا، بل إما أن يصوم يوما قبله أو يوما بعده.

وقوله تعالى: {والصائمين والصائمات} ممسكون عن ملاذهم وشهواتهم، عن الأكل والشرب والجماع وما يتبع ذلك، لكن هذه هي الأساسيات في الملاذ؛ ولهذا قال الله ﷻ في الحديث القدسي في الصائم: "يدع طعامه وشرابه وشهوته

=

=

من أجلي"، والصيام يدخل في الصبر، ولكنه عبادة مستقلة بنفسه، متضمن الصبر.

وقوله تعالى: {والحافظين فروجهم والحافظات} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [عن الحرام] وهي كلمة جامعة، تشمل حفظ الفرج عن الزنا، وحفظ الفرج عن النظر، وحفظ الفرج عن العمل المحرم، الذي هو دون الزنا.

وقد بين الله عَزَّ وَجَلَّ من يحفظ عنه الفرج أو من لا يحفظ فقال تعالى: {والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون} [المعارج: ٢٩ - ٣١]، فأعلى شيء يحفظ عنه الفرج الزنا، وهو فعل الفاحشة في قبل أو دبر، إلا أنه إذا تعلق بذكر سمي لواطا واللواط أعظم من الزنا، والعياذ بالله، لأن اللواط عقوبته القتل بكل حال، سواء كان الفاعل محصنا أم غير محصن، لكن بشرط أن يكون مكلفا، أي: بالغا عاقلا، فإذا تلوط ذكر بآخر وهما عاقلان بالغان وجب قتلهما، وإن لم يكونا محصنين. ولكن كيف يقتلان؟

اختلف في ذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم فقيل: يرجمان بالحجارة كالزاني المحصن. وقيل: يلقيان من أعلى مكان في البلد، ويتبعان بالحجارة. وقيل: يحرقان بالنار كما فعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كتب إلى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال له: "إن عنده رجلا ينكح كما تنكح المرأة. فكتب إليه أبو بكر أن يحرقه مبالغة في عقوبته".

فائدة: استخدام لفظ (اللواط) ليس فيه إساءة إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا شيء متعارف، فالنسبة يجوز فيها أن تنسب إلى المضاف أو المضاف إليه، هذا في

=

=

مقتضى اللغة العربية قوم لوط، يعني: لوطي أي: منتسب إلى هؤلاء القوم.

إذن: أوجب ما يكون أن يحفظ عنه الفرج هو الزنا، كذلك النظر يجب أن يحفظ الإنسان فرجه عن النظر، حتى الجنس مع جنسه، ولهذا قال النبي ﷺ: "لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا الرجل إلى عورة الرجل"، فيجب حفظ العورة عن النظر إلا على الزوجة وما ملكت يمينه.

كذلك حفظ الفرج عن الأفعال المحرمة غير الزنا واللواط والنظر؛ كالاستمناء مثلا، وهو ما يعرف عند الناس بالعادة السرية، ويكون في الرجال ويكون في الإناث أيضا، حتى بعض الإناث يستعملن ذلك! وهذه أيضا محرمة لا تحل، وذلك لأنه ليس فيها حفظ للفرج، فإن الإنسان الذي يبتغي نيل شهوته بغير امرأته وما ملكت يمينه يدخل في قوله تعالى: {فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون}، فهو حرام بالقرآن وبالسنة أيضا.

والسنة ذكرنا أن من أدلتها قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء"، وجه الدلالة من الحديث: أن الرسول ﷺ أرشد إلى الصوم، وهو أشق من هذه الفعلة، ولو كانت هذه الفعلة جائزة لأرشد إليها الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنها أسهل وأيسر، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: "ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما"، فلما لم يختر هذا الأيسر علم أنه إثم محرم.

مسألة: إذا استمنى رجل في رمضان فهل عليه كفارة؟

الجواب: لا، ليس عليه كفارة، الكفارة لا تكون إلا بالجماع فقط.

مسألة أخرى: أحاديث وطء المرأة في الدبر كلها فيها مقال، لكن يشد بعضها

=

بعضا، وتدل على التحريم، وقد تقدم في قوله سبحانه وتعالى: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى} [البقرة: ٢٢٢] أن من فوائدها: تحريم وطء الدبر، أما الإثم فنعم، فهي اللوطية الصغرى.

فائدة: تحريم الوطء على من تلبس بنسك أو تلبس بصوم أو تلبس بصلاة مفروضة، ليس هو من أجل حفظ الفرج، لكن من أجل احترام هذه العبادة.

قوله تعالى: {والذاكرين الله كثيرا والذاكرات} ختم الآية الكريمة بهذا الوصف العظيم، وهو ذكر الله ﷻ، وهو شامل لكل عبادة، فكل عبادة فهي ذكر لله ﷻ، حتى دراسة العلم هي من ذكر الله؛ ولهذا تسمى حلق العلم حلق الذكر، أو مجالس الذكر، فكل ما يقرب إلى الله تعالى كل عبادة فهي من ذكر الله تعالى.

وذكر الله ﷻ يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح، فبالقلب التفكر، وباللسان النطق، وبالجوارح الفعل والعمل، أيها أفضل: ذكر الله سبحانه وتعالى باللسان، أو ذكر الله تعالى بالقلب أو ذكر الله تعالى بالجوارح؟

لا شك أن الجمع أفضل وهذا معلوم، فالقلب وحده لا يكفي، واللسان وحده لا يكفي، والجوارح وحدها لا تكفي، يعني: لو أن الإنسان قال: سأتفكر في آيات الله ﷻ وفي أسمائه وصفاته ولكن ليس بذاكر، هل يكون مسلما؟ لا بد أن يقول من قال: لا إله إلا الله. وكذلك أيضا بالنسبة للجوارح.

لكن لا شك أن اختلال الذكر بالقلب له أثر عظيم جدا؛ لأن المدار على القلب، ولا شك أيضا أن تأثير ذكر الله سبحانه وتعالى بالقلب أبلغ في تقوية الإيمان، وفي التقرب إلى الله سبحانه وتعالى من الذكر بالجوارح؛ لأن المدار كله على ما في القلب، لا بالنسبة للأعمال وقوام الأعمال ولا بالنسبة للجزاء كما قال الله تعالى:

=

{يوم تبلى السرائر (٩) فما له من قوة ولا ناصر} [الطارق: ٩ - ١٠].

وذكر الله ﷻ يكون مطلقا في كل وقت، ويكون مقيدا بأحوال، ويكون مقيدا بأماكن، ويكون مقيدا بأزمان، فهو إذن أربعة أنواع:

١- أما المطلق فقد قال الله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب (١٩٠) الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، هذا في كل وقت، في كل حال، وقال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا (٤١) وسبحوه بكرة وأصيلا} [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]، وكما في هذه الآية: {والذاكرين الله كثيرا}.

٢- المقيد بزمن؛ مثل: أدبار الصلوات، وكذلك الذكر في أول النهار وفي آخره، {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} [ق: ٣٩].

٣- المقيد بأمكنة، كدخول المسجد، ودخول المنزل والخروج منه، ورمي الجمرات، وركوب السيارات.

٤- أما المقيد بحال من الأحوال فهو أيضا كثير: عند الهم والحزن، وعند الأكل والشرب، وعند الاستسقاء، وما أشبه ذلك.

وعلى كل حال: الذكر إما مطلق وإما مقيد، والله سبحانه وتعالى شرع لعباده ذلك لأجل أن يكونوا دائما على ذكر الله ﷻ حتى عند لبس الثوب، وعند الأكل والشرب، والفراغ منهما.

وقوله سبحانه وتعالى: {أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}: {أعد} فعل ماض، ولفظ الجلالة فاعل، والجملة من الفعل والفاعل خبر (إن) واسم (إن) {المسلمين}، وما عطف عليه، وقوله تعالى: {أعد الله لهم} أي: لهؤلاء،

=

=

والميم علامة جمع الذكور، وفيه دلالة واضحة على تفضيل الرجال على النساء، لم يقل الله ﷻ: أعد الله لهم ولهن. ولم يقل: أعد الله لهن. وإنما قال تعالى: {أعد الله لهم}.

وقوله تعالى: {أعد} بمعنى: هيأ لهم.

وقوله تعالى: {مغفرة} المغفرة مأخوذة من الغفر وهو الستر أو الستر مع الوقاية، لأن أصلها من المغفر الذي يوضع على الرأس، لاتقاء السهام، والمغفر الذي يوضع على الرأس؛ لاتقاء السهام يحصل به الستر والوقاية.

إذن: المغفرة نقول: هي ستر الذنوب، والتجاوز عنها، ليست ستر الذنوب فقط، بل هي ستر مع التجاوز، ستر عن الخلق، وتجاوز عن العقوبة؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: "أن الله يخلو بعبده المؤمن يقرره بذنوبه، ثم يقول له: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم".

إذن: بإعداد المغفرة يسلمون من الآثام وأوزارها وعواقبها.

وقوله سبحانه وتعالى: {وأجرا عظيما} أي: ثوابا ذا عظمة في نفسه، هذا الأجر العظيم هو دخول الجنة، وهو أجر لا يمكن أن يحيط به البشر؛ لأن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]، ويقول تعالى: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد} [ق: ٣٥].

هذا الأجر العظيم الذي لا يقدر قدره إلا الله ﷻ، يكون لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات، وإذا كان الله تعالى قد بين القائمين بهذه الصفات، وبين ما أعد لهم من

=

=

الأجر والثواب فهل المراد بذلك مجرد إعلام الناس بهذا أو أن المراد شيء وراء ذلك؟

الجواب: المراد شيء وراء ذلك، وهو أن يقوم الناس بهذه الصفات العظيمة حتى ينالوا ذلك الأجر العظيم والمغفرة.

وقوله تعالى: {أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}، كلمة (مغفرة) نكرة، فهل نقول: إنها نكرت للتعظيم، بدليل العطف عليها {وأجرا عظيما} أو ماذا؟

الجواب: الظاهر: أنها نكرت للتعظيم، أي: مغفرة عظيمة، كما أن لهم أجرا عظيما يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {مغفرة} للمعاصي {وأجرا عظيما} على الطاعات] وهذا جيد؛ فالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جعل المغفرة في مقابل المعاصي، والأجر في مقابل الطاعات.

ولكن هل لترك المعاصي أجر؟

الجواب: إن قلت: لا. أخطأت، وإن قلت: نعم. أخطأت، ونقول: تارك المعاصي له ثلاث حالات:

إما أن يتركها عجزا عنها مع فعل الأسباب الموصلة إليها.

وإما أن يتركها؛ لأنها لم تطرأ له على باله.

وإما أن يتركها مع كونها على باله، لكن تركها لله عَزَّوَجَلَّ.

أما الحال الأولى: الذي ترك المعصية عجزا عنها مع فعل الأسباب الموصلة إليها، فهذا له حكم الفاعل، مثال ذلك: رجل أتى بالسلم؛ ليصعد إلى البيت فيسرق، وحين أراد أن يصعد سمع صوتا، ونظر وإذا حوله أناس، فترك، له حكم الفاعل لكن عند الله تعالى، أما في الدنيا فلا نقطع يده، لكن عند الله تعالى له

=

=

حكم الفاعل، والدليل قوله ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار"، قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ يعني: كيف يكون مقتولا ويصير في النار، قال ﷺ: "لأنه كان حريصا على قتل صاحبه": "حريصا" فهذا فعل له سبب، فحكم عليه الرسول ﷺ بالنار، لأنه كان حريصا على قتل صاحبه.

الحال الثانية: من تركها؛ لأنها لم تطرأ له على بال، مثل: إنسان مثلا لا سرق ولا زنى ولا شرب الخمر، لأن نفسه ما دعته إلى ذلك يوما من الأيام، فما الحكم؟

الجواب: هذا ليس له شيء وليس عليه شيء، لأنه ما فعل إثما، ولا تقرب إلى الله تعالى بنية، فلا يكون له شيء، ولا عليه شيء.

الحال الثالثة: رجل هم بمعصية، وربما فعل أسبابها، ولكنه تركها لله ﷻ عندما تذكر عظمة الله تعالى، خشي الله ﷻ وخافه، فهذا حكمه أن له أجرا على الترك، كما جاء في الحديث الصحيح: "من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى حسنة كاملة"، قال: "لأنه إنما ترك ذلك من جرائي"، أي: من أجلي، فإذا تركتها لله تعالى فإنه فإنك تؤجر على ذلك.

ولو أن الإنسان هم بالمعصية وفعل الأسباب، لكن تركها لا لله سبحانه وتعالى ولا لعباد الله تعالى، هل يأثم أو ما يأثم؟

يعني: واحد هم بالسرقة وأتى بالسلم، ولما أراد أن يصعد رجع لنفسه، وقال: لماذا تسرق ما دام أن الله أرضاك، فعندك مال، ولست في حاجة إلى السرقة. فتركها؛ ونقول: هو ليس عليه إثم السرقة، ولا له أجر، لكن هل يأثم على فعل السبب؟

=

=

الجواب: يأثم على فعل السبب هو الظاهر، وإن كان أن الغاية لم يصل إليها، لكن نقول: هذا السبب الذي فعلت، وقد قال تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} [الزلزلة: ٧ - ٨].

فهو لم يرجع؛ لأن الأسباب الأولى ما تركها لله تعالى، إنما تركها، لأنه نظر أنه ليس بحاجة للسرقة فتركها.

ونقول: أما السرقة فلا تأثم -وإن كنت قد نويتها في الأول- لأنك ما فعلتها، وأما فعل الأسباب، فإن هذه الأسباب محرمة.

وهذا رجل ترك المعصية لشرفه، يعني: ترك الزنا مع تيسره، لأنه رجل شريف، لا يحب أن يتلوث بهذه الأخلاق السافلة، فهل يؤجر أو لا يؤجر؟

الجواب: أما على ترك الزنا فالظاهر: أنه لا يؤجر، لأنه ما تركه لله تعالى، وأما على حماية شرفه فإنه يؤجر، لأن الإنسان ينبغي له أن يدافع عن شرفه، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام لما قال: "هذه صفية"، وهذا ليس لدفع التهمة عن نفسه؛ لأن هذا شيء بعيد، لكن لئلا تقع التهمة في أولئك فيهلكوا؛ ولهذا قال ﷺ: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا".

فالظاهر لي: أن الإنسان الذي يترك الشيء محافظة على شرفه وعلى سمعته فإنه يؤجر على ذلك؛ لأنه صان نفسه، وفي الحديث: "رحم الله امرأ كف الغيبة عن نفسه"، ولا أدري عن صحته.

لكن الإنسان مأمور بحماية شرفه بلا شك، والذود عن نفسه، وإزالة التهمة عنها، فإذا كانت هذه نيته، فإنه يؤجر، لكن لا يؤجر أجر من ترك الزنا لله تعالى، لأن

=

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦).

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَة إِذَا قَضَى الله ورسوله أمرا أن تكون} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {لَهُمْ الْخِيرَة} أَيْ الِاخْتِيَار {مِنْ أمرهم} خلاف أَمْر الله وَرَسُوله نَزَلَتْ فِي عَبْد الله بْن جَحْش وَأُخْته زَيْنَب خَطَبَهَا النَّبِيّ لِزَيْدِ بْن حَارِثَة فَكَرِهَا ذَلِكَ حِين عَلِمَا لِظَنِّهِمَا قَبْل أَنَّ النَّبِيّ ﷺ خَطَبَهَا لِنَفْسِهِ ثُمَّ رَضِيَا لِلْآيَةِ {وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُوله فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} بَيِّنًا فَزَوَّجَهَا النَّبِيّ ﷺ لِزَيْدٍ ثُمَّ وَقَعَ بَصَره عَلَيْهَا بَعْد حِين فَوَقَعَ فِي نَفْسه حُبّهَا وَفِي نَفْس زَيْد كَرَاهَتهَا ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أريد فراقها فقال أمسك عليك زوجك كما قال تعالى(١).

=

بينهما فرقا عظيما.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} إلى آخر الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب على فتاه زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: "فانكحيه"، فقالت: يا رسول الله! أؤامر نفسي، فبينما هما يتحدثان؛ إذ أنزل الله هذه الآية على رسوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ} إلى قوله: {ضَلَالًا مُبِينًا}، قالت: قد رضيته لي يا رسول! منكحًا، قال: "نعم"، قالت: إذًا لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦٠٩). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

=

وعنه -أيضًا-؛ قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه؛ وقالت: أنا خير منه حَسَبًا، وكانت امرأة فيها حدة؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٩، ١٠) من طريق محمد بن حمير ثنا ابن لهيعة عن ابن عمرة عن عكرمة عن ابن عباس به. وابن لهيعة فيه كلام مشهور ومعروف، ومحمد بن حمير لم يرو عنه قبل اختلاطه واحتراق كتبه، وهو ضعيف كل أحواله، ولكن من روى عنه قبل احتراق كتبه، فحديثه أصح وليس بصحيح.

وعن ابن زيد في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا} إلى آخر الآية؛ قال: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها، وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوجنا عبده، قال: فنزل القرآن: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} إلى آخر الآية، قال: وجاء أمر أجمع من هذا {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، قال: فذاك خاص، وهذا إجماع.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٧٤)، و"الدر المنثور" (٦/ ٦١٠). وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم متروك الحديث.

وعن قتادة؛ قوله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}؛ قال: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله ﷺ، فخطبها

=

رسول الله ﷺ فرضيت ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة؛ أبت وأنكرت؛ فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، قال: فتابعته بعد ذلك ورضيت.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١١٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٩)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٤/ ٣٦، ٣٧ رقم ١٢٣، ١٢٤) من طرق عن قتادة.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩٢): "رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٧٤): "بسند صحيح عن قتادة".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٠) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن زينب بنت جحش؛ قالت: خطبني عدة من قريش، فأرسلت أُختي حَمَنة إلى رسول الله ﷺ أستشيره، فقال لها رسول الله: "أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسُنة نبيها؟ "، قالت: ومن هو يا رسول الله قال: "زيد بن حارثة"، قال: فغضبت حمنة غضبًا شديدًا، وقالت: يا رسول الله! أَتُزَوِّجُ بنت عمتك لمولاك؟ قالت: وجاءتني، فأعلمتني فغضبت أشد من غضبها، وقلتُ أَشدَّ من قولها؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، قالت: فأَرْسَلْتُ إلى رسول الله ﷺ، وقلت: إني أَسْتَغْفِرُ الله،

=

=

وأطيعُ اللهَ ورسولَه، أفعل ما رأيت، فزوجني زيدًا، وكنت أرثى عليه؛ فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فعاتبني رسول الله ﷺ، ثم عدت فأخذته بلساني؛ فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، فقال: يا رسول الله! أنا أُطلقها، قالت: فَطَلَّقَني، فلما انقضت عدتي؛ لم أعلم إلا رسول الله ﷺ قد دخل عليَّ ببيتي وأنا مكشوفة الشعر، فقلت: إنه أمر من السماء، فقلت: يا رسول الله! بلا خطبة ولا إشهاد؟! فقال: "الله المزوج، وجبريل الشاهد".

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٤/ ٣٢ رقم ١٠٩)، والدارقطني في "سننه" (٣/ ٣٠١)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ١٣٦، ١٣٧)، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢١/ ٢٥١) من طريق الحسين بن أبي السري العسقلاني ثني الحسن بن محمد بن أعين الحراني ثنا حفص بن سليمان عن الكميت بن زيد الأسدي حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش عن زينب بنت جحش به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٢٤٧): "فيه حفص بن سليمان وهو متروك، وفيه توثيق لين". وقال الزيلعي في "تخريج الكشاف" (٣/ ١١٠): "والحسين بن أبي السري ضعفه أبو داود وغيره، وحفص بن سليمان الأسدي؛ قال البخاري: تركوه". اهـ.

وقال الحافظ في "الكاف الشاف": "إسناده ضعيف".

وسنده ضعيف جدًا؛ كما نقل الزيلعي آنفًا عن حال حفص والحسين.

وعن مجاهد قوله: {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}؛ قال: في زينب بنت جحش وكراهتها نكاح زيد بن حارثة حين أمرها به رسول الله ﷺ.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٩) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

و عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ لزينب رضي الله عنها: "إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة؛ فإني قد رضيته لك"، قالت: يا رسول الله! لكني لا أرضاه لنفسي؛ وأنا أيم قومي، وبنت عمتك، فلم أكن لأفعل؛ فنزلت هذه الآية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ}؛ يعني: زيدًا {وَلَا مُؤْمِنَةٍ}؛ يعني: زينب {إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}؛ يعني: النكاح في هذا الموضع {أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا}؛ قالت: قد أطعتك فاصنع ما شئت، فزوجها زيدًا ودخل عليها.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٠) ونسبه لابن مردويه.

وعن عكرمة: أن النبي ﷺ اشترى زيد بن حارثة في الجاهلية من عكاظ بحلي امرأته خديجة فاتخذه ولدًا، فلما بعث الله نبيه ﷺ؛ مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم أراد أن يزوجه زينب بنت جحش؛ فكرهت ذلك؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...}، فقيل لها: إن شئت الله ورسوله، وإن شئت ضلالًا مبينًا، فقالت: بل الله ورسوله، فزوجه رسول الله إياها، فمكثت ما شاء الله أن تمكث، ثم إن النبي ﷺ دخل يومًا بيت زيد فرآها وهي بنت عمته، فكأنها وقعت في نفسه، قال عكرمة؛ فأنزل الله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ}؛ يعني: زيدًا بالإسلام {وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}: يا

=

=

محمد بالعتق {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}، قال عكرمة: فكان الناس يقولون -من شدة ما يرون من حب النبي ﷺ لزيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنه ابنه، فأراد الله أمرًا، قال الله: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} يا محمد، {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ}؛ وأنزل الله: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} فلما طلقها زيد؛ تزوجها النبي ﷺ فعذرها، قالوا: لو كان زيد ابن رسول الله ﷺ؛ ما تزوج امرأة ابنه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٦) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر. وسنده ضعيف لإرساله.

* قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: ٣٦]، أي:"ولا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله فيهم حُكمًا أن يخالفوه، بأن يختاروا غير الذي قضى فيهم".

قال الطبري: يقول:"لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما".

عن السدي: " {وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى اللهُ ورَسُولُهُ أمْرًا} يعني: فعلَ الله ورسوله أمرًا، يعني: شيئًا من أمر تزويج زينب {أن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أمْرِهِمْ".

عن مجاهد، قوله: " {أن تكون لهم الخيرة من أمرهم}، قال: زينب بنت جحش وكراهتها نكاح زيد بن حارثة حين أمرها به رسول الله ﷺ".

=

=

عن طاووس: "أنّه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر. فنهاه، وقال ابن عباس: «وما كانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى اللهُ ورَسُولُهُ أمْرًا أنْ تَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أمْرِهِمْ»".

عن أنس قال: "خطب النبي ﷺ على جُلَيْبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتى أستأمر أمها. فقال النبي ﷺ: فنعم إذًا. قال: فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها، فقالت: لاها الله ذا، ما وجد رسول الله ﷺ إلا جلَيبيبا، وقد منعناها من فلان وفلان؟ قال: والجارية في سترها تسمع. قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك. فقالت الجارية: أتريدون أن تَرُدّوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. قال: فكأنها جَلَّت عن أبويها، وقالا صدقت. فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: إن كنت رضيته فقد رضيناه. قال: "فإني قد رضيته". قال: فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جُلَيْبيب فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة".

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر:"فسمعت ابنتهما بما أراد رسول الله ﷺ من ذلك فتلت: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، وقالت: رضيت وسلمت لما يرضي لي به رَسُول اللهِ ﷺ، فدعا لها رسول الله ﷺ: اللَّهمّ اصبب عليها الخير صبًا ولا تجعل عيشها كدًا، ثم قتل عنها جليبيب، فلم يكن في الأنصار أيم أنفق منها".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا} [الأحزاب: ٣٦]، أي:"ومن يعص الله ورسوله فقد بَعُدَ عن طريق الصواب بُعْدًا ظاهرًا".

=

=

قال الطبري: يقول:"ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد. وذكر أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على فتاه زيد بن حارثة، فامتنعت من إنكاحه نفسها".

عن السدي: {فقد ضل ضلالا مبينا}، يعني: أخطأ خطأ طويلا".

قال العثيمين: قوله (ما كان لمؤمن) (ما) هذه نافية، و {كان} فعل ماض ناقص، وخبرها: {لمؤمن} الجار والمجرور، و {أن يكون لهم الخيرة}، هذا هو اسمها مؤخرا.

يقول الله ﷻ: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة}، يعني: هذا أمر لا يمكن أن يكون، فهو نفي للإمكان، ولكنه للإمكان الشرعي دون القدري، إذ إن المؤمن أو المؤمنة قد يكون لهم الخيرة من أمرهم فيما قضاه الله تعالى ورسوله ﷺ، ولكن شرعا لا يكون هذا.

يقول تعالى: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا} قال المصنف رحمه الله: ["أن تكون" بالتاء والياء {لهم الخيرة}؛ أي: الاختيار {من أمرهم} خلاف أمر الله ورسوله].

وقوله تعالى: {لمؤمن ولا مؤمنة} -وكما سبق- فيه ذكر الذكور والإناث، {لمؤمن ولا مؤمنة}، وقوله تعالى: {إذا قضى الله ورسوله أمرا}، المراد بالقضاء هنا: القضاء الشرعي، إذ إن القضاء الكوني لا يمكن لأحد أن يختار خلافه، لا مؤمن، ولا كافر، لأن القضاء الكوني لا بد أن يقع، فالمراد هنا {إذا قضى الله}، أي: قضاء شرعيا.

=

=

وقوله تعالى: {إذا قضى الله ورسوله} عطف رسوله بالواو؛ لأن قضاء الرسول ﷺ الشرعي من قضاء الله تعالى، وقوله تعالى: {إذا قضى الله ورسوله أمرا}: {أمرا} هنا واحد الأمور؛ يعني: إذا قضى شأنا سواء كان ذلك الشأن أمرا أو نهيا، {إذا قضى الله ورسوله أمرا} "أن تكون لهم الخيرة" و {أن يكون لهم الخيرة}، أما على قراءة التاء، فالأمر فيها ظاهر؛ لأن اسمها مؤنث، فأنث الفعل من أجلها "أن تكون"، وأما عن قراءة الياء، فإن الفعل يكون مذكرا مع أن الاسم مؤنث، ولكن هنا لا يجب التأنيث لوجهين:

الوجه الأول: الفصل بين الفعل وفاعله، وهنا بين الفعل واسمه.

والثاني: أن التأنيث في الخيرة تأنيث مجازي، وابن مالك رحمه الله يقول:

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصل أو مفهم ذات حر

وقوله تعالى: {الخيرة}؛ أي: الاختيار، أفادنا المصنف رحمه الله أن الخيرة هنا اسم مصدر بمعنى الاختيار، أو بمعنى التخير؛ كالطيرة بمعنى التطير، فهي إذن اسم مصدر؛ بمعنى: الاختيار، وإن شئت فقل: بمعنى التخير، وقوله تبارك وتعالى: {من أمرهم}، قد يقول قائل: إن المتبادر أن يقول: (من أمره)، لأن {لمؤمن ولا مؤمنة} مفرد، والمتبادر أن يقول: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون له الخيرة من أمره)، ولكنه جمع، لأن (مؤمن) و (مؤمنة) جاءا منكرا في سياق النفي، فيكون للعموم، فعاد الضمير إليه باعتبار المعنى، لا باعتبار اللفظ.

وقوله تعالى: {من أمرهم} معناه: أي: من شأنهم، ويجوز أن يكون {من أمرهم}؛ أي: من أمر الله تعالى إياهم، فعلى الأول: يكون الإضافة من باب

=

=

إضافة الشيء إلى فاعله، وعلى الثاني: من باب إضافته إلى مفعوله، وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خلاف] هذه بالنصب مفعول للخيرة بمعنى الاختيار، يعني: ما كان لهم أن يختاروا [خلاف أمر الله ورسوله]، فتبين الآن معنى الآية.

فمعنى الآية: أن الله تعالى يقول: لا يمكن لمؤمن ولا مؤمنة، -لا يمكن شرعا، فإذا قضى الله تعالى ورسوله ﷺ أمرا أن يخالفوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن يختاروا خلاف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يمكن؛ لأن ما في قلوبهم من الإيمان يمنعهم من المخالفة، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: "لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن"؛ لأنه لو كان في قلبه إيمان حين الزنا، ما زنى، "ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن"، فالإيمان إذا وقر في القلب لا يمكن أن يكون صاحبه مخالفا لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نزلت في عبد الله بن جحش وأخته زينب خطبها النبي ﷺ لزيد بن حارثة، فكرها ذلك حين علم بظنهما قبل أن النبي ﷺ خطبها لنفسه ثم رضيا للآية].

هكذا ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها نزلت في هذه القصة، وهذ القصة ضعيفة، لأنها معضلة ومنقطعة، فهي ضعيفة، ونحن لا يهمنا في الحقيقة سبب النزول -وسبب النزول صحيح أن فيه فائدة، وهو أنه يكشف أحيانا المعنى؛ ليبينه ويوضحه-، لكن المهم الحكم، وهو أنه لا يمكن لمؤمن إذا قضى الله تعالى ورسوله ﷺ أمرا أن يختار خلاف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ {أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}؛ لأنهم لا بد أن يوافقوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ لما في قلوبهم من الإيمان؛ ولهذا كلما هم المؤمن بمعصية ذكره إيمانه بالله تعالى فكف عنها.

=

=

ألا ترى إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله، قال ﷺ: "ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال"، وهذه الدعوة كانت في محل خال، لا يطلع عليهما أحد سوى الله تعالى "فقال: إني أخاف الله"، فمنعه إيمانه من أن يفعل الفاحشة مع سهولة أسبابها.

وكذلك أحد الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار حين مكنته ابنة عمه من نفسها، فلما جلس منها مجلس الرجل مع امرأته -وأعتقد في هذه الحال أن الرغبة ستكون شديدة وقوية، وأنه لا يفصمها إلا إيمان قوي، فلما جلس منها مجلس الرجل مع امرأته، قالت له: "يا هذا اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه"، فقام منها، وهي أحب الناس إليه، هذا من الإيمان بلا شك.

إذن: نحن لا يهمنا أن تكون نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها وأخيها عبد الله أو في غيرهما، المهم أن حال المؤمن تمنعه من مخالفة أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وأما ما ذكره المصنف فهو يقول: [إن النبي ﷺ خطب زينب بنت جحش]، وقد خطبت -كما ذكره غيره- من قبل رجال شرفاء وذوي جاه، فخطبها النبي ﷺ، فظنوا أنه خطبها لنفسه، ثم بعد ذلك بين لهم أنه خطبها لزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وكان- حسب ما ذكر أهل السير- عبدا لخديجة رضي الله عنها، فوهبته للنبي ﷺ، فأعتقه، فلما علما أنه خطبها لزيد رضي الله عنه امتنعا، فلما نزلت الآية رضيا بذلك، وهذا ليس بغريب على الصحابة، لو صح الحديث، ليس بغريب أن يقدموا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ على ما تهواه أنفسهم.

ثم قال الله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا}.

قوله تعالى: {ومن يعص الله}: {ومن} شرطية، وعلم أنها شرطية من فعل

=

=

الشرط؛ لأنه مجزوم {ومن يعص الله}، لكنه مجزوم بحذف حرف العلة.

وقوله تعالى: {يعص الله}؛ المعصية: مخالفة الأمر، أو إن شئت فقل: المعصية خلاف الطاعة، سواء كانت وقوعا في منهي عنه، أو تركا لمأمور به، لكن إذا قيل: طاعة ومعصية، صارت الطاعة فعل المأمور، والمعصية فعل المحظور، أما إذا قيل: (معصية) وحدها، أو (طاعة) وحدها، فإنها تشمل الأمرين.

قال تعالى: {ومن يعص الله ورسوله} سواء عصاهما جميعا، يعني: أمر من الله تعالى، وأمر من رسوله ﷺ، وقعت فيه المعصية، أو عصى الله تعالى وحده، أو عصى الرسول ﷺ وحده، فإنه قد ضل ضلالا مبينا.

ومعصيتهما جميعا مثالها: قوله تعالى: {فاتقوا الله ما استطعتم}، وقال النبي ﷺ: "إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"، فلو خالف الإنسان في ذلك يكون قد عصى الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأن الأمر هنا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، وأحيانا يرد الأمر في القرآن دون السنة، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيا لله تعالى، وأحيانا يرد في السنة دون القرآن، فإذا عصاه الإنسان صار عاصيا للرسول ﷺ.

ولكن لتعلم أن معصية الرسول عليه الصلاة والسلام معصية لله تعالى؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتكلم عمن أرسله، فإذا عصيته فقد عصيت من أرسله، فلو أن رجلا أتاك وقال: إن فلانا أرسلني إليك. وقال: ليفعل كذا وكذا. فخالفت الرسول فتكون مخالفا في الواقع للمرسل؛ ولهذا قال الله ﷻ: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: ٨٠].

فعلى هذا يكون {ومن يعص الله ورسوله} سواء على سبيل الانفراد أو على سبيل الاشتراك.

=

=

وقوله تعالى: {فقد ضل ضلالا مبينا}، هذا جواب الشرط، وقرن بالفاء؛ لأنها اقترنت في {فقد}، وهناك ضوابط لجواب الشرط الذي يجب اقترانه بالفاء، ذكرت في بيت:

اسمية طلبية وبجامد وبـ (ما) ... و (قد) وبـ (لن) وبالتنفيس

فإذا كان جواب الشرط أحد هذه الأشياء السبعة فإنه يقترن بالفاء وجوبا، ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا أمر نادر كقول الشاعر:

من يفعل الحسنات الله يشكرها ....

ولم يقل: فالله يشكره. لكن هذا نادر أو ضرورة.

وهنا معنا من الأشياء السبعة: (قد).

وقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بينا] ونحن تكلمنا من قبل أن (أبان) الرباعية تكون متعدية، وتكون لازمة، وإذا كانت لازمة فهي بمعنى (بان)، وإذا كانت متعدية فهي بمعنى (أظهر)، وهنا قال تعالى: {ضلالا مبينا} هل تصلح بمعنى (أظهر) بمعنى: ضلالا مظهرا؟ الجواب: لا تصلح.

إذن: فهي من (أبان) اللازم الذي يكون منه الاسم على (بين) لا على (مبين)، وقلنا: لا على (مبين) بمعنى (مظهر)، فما هو (المبين) بمعنى (مظهر)؟ الجواب: مثل قوله تعالى: {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس: ٦٩]، هذا من المتعدي يقينا، لأن القرآن مظهر للحقائق؛ ولهذا قال بعده: {لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين} [يس: ٧٠].

وقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا} قال المصنف

=

=

رَحِمَهُ اللَّهُ: [فزوجها النبي ﷺ لزيد، ثم وقع بصره عليها بعد حين فبلغ في نفسه حبها، وفي نفس زيد كراهتها، ثم قال للنبي ﷺ: أريد فراقها. فقال: "أمسك عليك زوجك"، كما قال تعالى: {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه}]، هذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر عن بعض المصنفين من السلف والخلف، لكنه كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أقوال ينبغي أن يضرب الإنسان عنها صفحا"؛ لأنها أقوال باطلة، لا تليق بمقام النبي ﷺ؛ لأن القصة إذا قرأها الإنسان يتصور أن الرسول ﷺ كان عاشقا من العشاق.

وما أشبه هذه القصة الباطلة بقصة داود عليه الصلاة والسلام، التي ذكروا فيها: أن داود طلب من أحد جنوده أن يتزوج امرأته، ولكنه أبى، فاحتال عليه بحيلة، قال: فأرسله مع الجيش لأجل أن يقتل فيتزوج امرأته! وهل هذا يمكن أن يقع من نبي من أنبياء الله تعالى؟! أبدا، وهذه لو قال قائل: إنها وقعت من أحد السوقة من الناس. لقيل: ما أظلم هذا الرجل! وما أجهله! فكيف بنبي من أنبياء الله تعالى؟

فالرسول ﷺ هل يمكن أن يتصور أحد أنه عشق هذه المرأة؟ ويلاحظ الآن أن بعض الناس -حتى بعض المصنفين والعياذ بالله- صار يتلفظ بهذا اللفظ، يقول: الرسول عشق المرأة زينب! ولكن هذا قول باطل، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- في الكلام على تفسير الآية بيان معنى الآية، وأن معناها ناصع واضح.

ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال له: "أمسك عليك زوجك واتق الله"، وأنه أخفى حبها؛ وذلك: لأن الله تعالى قال في نفس الآية: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه}، فبين الله تعالى أنه سيبدي ما أخفاه في نفسه، لو كان الذي

=

=

أخفاه النبي عليه الصلاة والسلام في نفسه الحب لكان الله تعالى يبديه، لكن ما الذي أبدى الله تعالى؟ الذي أبدى الله تعالى تزويجه، أنه زوجه إياها، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام أخفى في نفسه ما أعلمه الله تعالى أنه سيتزوجها، بدون أن يكون هناك حب وعلاقة، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام علم بما أعلمه الله تعالى أنه سيتزوجها، فلما جاء هذا الرجل يستشيره قال ﷺ له: "اتق الله" لا تطلق المرأة، فعاتب الله تعالى رسوله ﷺ، لماذا قال له: اتق الله وأمسكها! وقد علم أن الله تعالى سيزوجه إياها، فالمسألة واضحة ليس فيها أي إشكال.

ولكن المشكل أن بعض المصنفين يأخذون عن بعض من غير تمحيص، ومن غير أن يكون هناك ترو في المسألة، حتى إن بعض الناس اعتذر وقال: (إن محبة الإنسان للمرأة ولو كانت عند زوج آخر أمر لا ينكر، إنما الذي ينكر أن يحاول التوصل إلى هذه المرأة بطريق غير شرعي، وأما أن يقع في نفسه محبة امرأة عند زوج فهذا لا بأس به، وهو أمر جبلي قد تدعو إليه الجبلة والطبيعة).

وهذا وإن كانت المسألة تحتاج إلى نظر في هذا القول: وهو أن محبة الإنسان لزوجة غيره إما أن تكون محبة للجنس، أو محبة للشخص، فإن كان محبة للجنس فهذا أمر جائز، أي: جنس هذا الطراز من النساء، وهذا المراد بقولي: (الجنس)، فإن كان محبة للجنس يعني: أنه يرغب مثل هذه المرأة فهذا لا بأس به، والإنسان دائما إذا سمع مثلا من امرأة رجل أنها امرأة صالحة قانتة حافظة للغيب بما حفظ الله تعالى يحبها ويحب أن يكون له مثلها.

وأما إذا كان حبا شخصيا فعندي أن في جواز ذلك نظرا، وأن الإنسان يجب عليه

=

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا (٣٧).

{وإذ} منصوب باذكر {تقول للذي أنعم الله عليه} بالإسلام {وأنعمت عليه} بالإعتاق وهو زيد بن حارثة كان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه {أمسك عليك زوجك واتق الله} في أمر طلاقها {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} مظهره من محبتها وأن لو فارقها زيد تزوجتها {وتخشى الناس} أن يقولوا تزوج زوجة ابنه {والله أحق أن تخشاه} في كل شيء وتزوجها ولا عليك من قول الناس ثم طلقها زيد وانقضت عدتها قال تعالى {فلما قضي زيد منها وطرا} حاجة {زوجناكها} فدخل عليها النبي ﷺ بغير إذن وأشبع المسلمين خبزا ولحما {لكي لا يكون على المؤمنين حرج في

=

أن إذا تعلقت نفسه بامرأة تعلقا شخصيا أو محبة شخصية يجب عليه أن يحاول التخلص من هذا؛ لأنها مشكلة، فالمحبة -في الحقيقة- جذابة، المحبة كأنها رشا من حديد يجذب الإنسان، فإذا تعلق قلبه بامرأة فإن الغالب أن يحاول الوصول إليها، فإن لم تكن مزوجة فيمكن أن يخطبها، وإن كانت مزوجة فمشكلة.

فالذي أرى في هذه المسألة أنه إذا أحبها محبة جنس -بمعنى: أحب جنس هذه المرأة- فهذا لا شك أنه ليس فيه مانع، ولا يحصل فيه مفسدة، وأما إذا أحبها محبة شخصية فإن الأمر خطير.

أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله} مقضيه {مفعولا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٨٧).

وفي رواية له (رقم ٧٤٢٠): جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: "اتق الله وأمسك عليك زوجك"، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كتم شيئًا؛ لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوّجكن أهاليكن، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات.

وفي رواية الترمذي (٥/ ٣٥٤ رقم ٣٢١٢)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ١٧٥ رقم ٤٢٧)، وأحمد (٣/ ١٤٩، ١٥٠)، وابن خزيمة؛ كما في "الفتح" (١٣/ ٤١١)، وابن حبان في "صحيحه" (١٥/ ٥١٩ رقم ٧٠٤٥ - إحسان)، والحاكم (٢/ ٤١٧)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ٥٧)، والإسماعيلي في "المستخرج"؛ كما في "الفتح" (١٣/ ٤١١) عن أنس؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ} في شأن زينب بنت جحش، جاء زيد يشكو؛ فَهَمَّ بطلاقها، فاستأمر النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: "أمسك عليك زوجك واتق الله". هذا لفظ الترمذي. قال الترمذي: "هذا حديث صحيح".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: لما انقضت عدة زينب؛ قال رسول الله ﷺ لزيد: "فاذكرها عليّ"، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها؛ عظمت =

=

في صدري حتى ما أستطع أن انظر إليها؛ أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أُوَامر ربّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله! كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وُعِظوا به.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٢٨/ ٨٩) وغيره.

وعن قتادة في قوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ}؛ قال: أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه النبي ﷺ بالعتق {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ}، قال قتادة: جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: إن زينب اشتد عليَّ لسانها، وإني أريد أن أطلقها، فقال له النبي ﷺ: "اتق الله وأمسك عليك زوجك"، والنبي ﷺ يحب أن يطلقها ويخشى قالة الناس إن أمره بطلاقها؛ فأنزل الله تعالى: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا}، قال قتادة: لما طلقها زيد؛ {زَوَّجْنَاكَهَا}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١١٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٠)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٢٤/ ٣٣، ٣٤ رقم ١١٣، ١١٤، ١١٥)

=

=

من طرق عن قتادة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩١): "رواه الطبراني من طرق، رجال بعضها رجال الصحيح".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٤) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وعن السدي في قوله: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ}؛ قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، فأراد أن يزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله نبيه ﷺ بَعْدُ أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر زيد بن حارثة بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب بعض ما يكون بين الناس، فيأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان رسول الله ﷺ قد تبنى زيدًا.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٦). وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف أسباط بن نصر.

* قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام وأنعمت عليه بالتحرير من العبودية والإعتاق".

=

=

عن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٨٧). وفي رواية له (رقم ٧٤٢٠): جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: "اتق الله وأمسك عليك زوجك"، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كتم شيئا؛ لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات.

و عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ قال: لما انقضت عدة زينب؛ قال رسول الله ﷺ لزيد: "فاذكرها علي"، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها؛ عظمت في صدري حتى ما أستطع أن انظر إليها؛ أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، قال: فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله! كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وعظوا به. أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٢٨/ ٨٩) وغيره.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ عتابا من الله له {و} اذكر يا محمد {إذ تقول للذي أنعم الله عليه} بالهداية {وأنعمت عليه} بالعتق، يعني زيد بن حارثة

=

=

مولى رسول الله ﷺ".

عن قتادة:"{وإذ تقول للذي أنعم الله عليه} وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام {وأنعمت عليه} أعتقه رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"أَبْقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تطلقها، واتق الله يا زيد".

قال الطبري:"وذلك أن زينب بنت جحش فيما ذكر رآها رسول الله ﷺ فأعجبته، وهي في حبال مولاه، فألقي في نفس زيد كراهتها لما علم الله مما وقع في نفس نبيه ما وقع، فأراد فراقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ زيد، فقال له رسول الله ﷺ: {أمسك عليك زوجك} وهو ﷺ يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها، {واتق الله} وخف الله في الواجب له عليك في زوجتك".

قال ابن زيد:"كان النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش، ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوما يريده وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ، فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله إني أريد أن أفارق صاحبتي، قال: ما ذاك، أرابك منها شيء؟ "قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرا، فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله".

قال علي بن حسين:"كان الله تبارك وتعالى أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها، قال: اتق الله وأمسك عليك زوجك، قال الله: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه}".

قوله تعالى: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"وتخفي -

=

=

يا محمد- في نفسك ما أوحى الله به إليك من طلاق زيد لزوجه وزواجك منها، والله تعالى مظهر ما أخفيت".

قال الطبري:"يقول: وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها لتتزوجها إن هو فارقها، والله مبد ما تخفي في نفسك من ذلك".

قال قتادة:"وكان يخفي في نفسه ود أنه طلقها".

قال ابن زيد:"تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها".

عن علي بن زيد بن جدعان، قال:": سألني علي بن الحسين ما يقول الحسن في قوله: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} ؟ فذكرت له فقال: لا ولكن الله أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال: اتق الله، وأمسك عليك زوجك. فقال: قد أخبرتك أني مُزَوّجكها، وتخفي في نفسك ما الله مبديه".

قال الحسن: ما أنزلت عليه آية كانت أشد عليه منها؛ قوله {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} ولو كان نبي الله ﷺ كاتما شيئا من الوحي لكتمها".

عن عائشة، قالت: "لو كتم رسول الله ﷺ شيئا مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه}".

قوله تعالى: {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"وتخاف المنافقين أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، والله تعالى أحق أن تخافه".

قال الطبري: يقول: " وتخاف أن يقول الناس: أمر رجلا بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها، والله أحق أن تخشاه من الناس".

=

=

قال قتادة:"خشي نبي الله ﷺ مقالة الناس".

قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"فلما قضى زيد منها حاجته، وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلما قضى زيد بن حارثة من زينب حاجته، وهي الوطر، ومنه قول الشاعر:

ودعني قبل أن أودعه... لما قضى من شبابنا وطرا

{زوجناكها} يقول: زوجناك زينب بعد ما طلقها زيد وبانت منه".

قال قتادة:"فكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: أما أنتن زوجكن آباؤكن، وأما أنا فزوجني ذو العرش".

عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: "تفاخرت عائشة وزينب، قال: فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء قال: وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه حين حملني ابن المعطّل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة، ما قلت حين ركبتيها، قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلت كلمة المؤمنين".

عن الشعبي، قال: كانت زينب زوج النبي ﷺ تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن؛ إن جدي وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله من السماء، وإن السفير لجبرائيل عليه السلام".

قوله تعالى: {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [الأحزاب: ٣٧]، أي:"لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني، إذا لم يبق لأزواجهن

=

=

حاجة فيهن".

قال قتادة:"يقول: إذا طلقوهن، وكان رسول الله ﷺ تبني زيد بن حارثة".

قال الطبري:"يعني: في نكاح نساء من تبنوا وليسوا ببنيهم ولا أولادهم على صحة إذا هم طلقوهن وبن منهم، إذا قضوا منهن حاجاتهم وآرابهم، وفارقوهن وحللن لغيرهم، ولم يكن ذلك نزولا منهم لهم عنهن".

قال ابن كثير:"أي: إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال له: "زيد بن محمد"، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ}، ثم زاد ذلك بيانا وتأكيدا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة؛ ولهذا قال في آية التحريم: {وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم} [النساء: ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِي؛ فإن ذلك كان كثيرًا فيهم".

عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: " {فلما قضى زيد منها وطرا....} إلى قوله: {وكان أمر الله مفعولا} إذا كان ذلك منه غير نازل لك، فذلك قول الله: {وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم}".

قال الحسن البصري: "كانت العرب تظن أن حرمة المُتبَنّى مشتبكة كاشتباك الرحم، فميّز الله تعالى بين المُتبَنّى وبين الرحم، وأراهم أن حلائل الأدعياء غير محرمة عليهم، لذلك قال: {وحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِن أَصْلابِكُمْ} [النساء: ٢٣] فقيَّد".

=

=

قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} [الأحزاب: ٣٧]، أي: "وكان أمر الله مفعولا لا عائق له ولا مانع".

قال الطبري: "يقول: وكان ما قضى الله من قضاء مفعولا أي: كائنا كان لا محالة. وإنما يعني بذلك أن قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ كان ماضيا مفعولا كائنا".

قال ابن كثير: "أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحَتَّمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ".

قال مقاتل: "كان تزويج النبي - ﷺ - زينب كائنا".

قال الثعلبي: أي " كائنا لا محالة، وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله".

قال الواحدي: "وإنما يعني بذلك أن قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله - ﷺ - كان ماضيًا مفعولًا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإذ} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه منصوب باذكر] و (اذكر) محذوف، أي: اذكر يا محمد إذ تقول للذي أنعم الله تعالى عليه... إلى آخره، اذكر هذا القول حتى تكون مستعدا لما يلقى إليك من الموعظة؛ لأن الله تعالى وعظه في هذه الآية موعظة عظيمة، حتى قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: "لو كان محمد كاتما ما أنزل إليه لكتم هذه الآية".

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{للذي أنعم الله عليه} بالإسلام {وأنعمت عليه} بالإعتاق] بين الله ﷻ أن هذا الرجل الذي أبهم اسمه هنا، ثم أوضحه فيما بعد أن عليه نعمتين؛ النعمة الأولى: لله تعالى، والثانية: للرسول عليه الصلاة والسلام، وهنا قال تعالى: {للذي أنعم الله عليه وأنعمت}، فأتى بالواو الدالة على الاشتراك، مع أن

=

=

هذا ليس من باب التشريك، حتى نقول: إنه يجوز إشراك الله تعالى مع الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو من باب النعمة والعطاء والفضل، فكيف جمع بين إنعام الرسول ﷺ وإنعام الله تعالى بالواو الدالة على التشريك؟

فالجواب أن نقول: جمع بينهما بالواو الدالة على التشريك، لأن النعمتين مختلفتان، فالنعمة الأولى من الله تعالى بالإسلام، والثانية: النعمة من الرسول ﷺ بالعتق، فلما اختلفت النعمتان صارت الواو لا تدل على الاشتراك، لامتناع الاشتراك بين شيئين مختلفين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأنعمت عليه} بالإعتاق وهو زيد بن حارثة كان من سبي الجاهلية اشتراه النبي ﷺ قبل البعثة وأعتقه وتبناه، المشهور أن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مملوكا لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهبته للنبي ﷺ، هذا هو المعروف في السير، وأيا كان فإن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مملوكا للرسول ﷺ، ثم أعتقه وتبناه أيضا، فرفع معنوياته بكونه أضافه إليه ابنا له، وكان يدعى زيد بن محمد، حتى أبطل الله تعالى ذلك في قوله: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين} [الأحزاب: ٤٠]، وبقوله سبحانه وتعالى: {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم} [الأحزاب: ٤].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أمسك عليك زوجك واتق الله} في أمر طلاقها: {أمسك عليك} هنا عدى {أمسك} بـ(على)، لأنها بمعنى: اضمم عليك زوجك، يعني: اجعلها منضمة عليك ولا تفارقها.

قوله تعالى: {زوجك} المراد بها: زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد

=

=

تزوجها بمشورة النبي ﷺ، فجاء يستشيره في طلاقها، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: {أمسك عليك زوجك}؛ يعني: لا تطلقها، وأمره بأن يتقي الله تعالى: {واتق الله}، إغراء له على إمساكها، وإن كان الرجل لم يفعل خطيئة، لأن الطلاق مما يباح للرجال، لكن من باب الإغراء على إمساكها.

وقال بعض المصنفين: إنه -أي: زيد بن حارثة رضي الله عنه ذكر زينب رضي الله عنها بعيب، فقال له الرسول ﷺ: {واتق الله} يعني: لا تصفها بالعيب، وليس المعنى: اتق الله لا تطلقها؛ لأن الأصل في الطلاق أنه مباح.

قال الله تعالى: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه}، الواو حرف عطف، {وتخفي} معطوفة على قوله تعالى: {تقول}، يعني: واذكر أيضا إذ تخفي في نفسك ما الله تعالى مبديه، وأبهم الله تعالى ما أخفاه، لكنه بين أنه سيبديه، وننظر ماذا أبدى الله عز وجل:

قال تعالى: {وتخفي في نفسك ما}: {ما} هذه اسم موصول في محل نصب مفعول لـ {وتخفي}، و {الله} مبتدأ، و {مبديه} خبره، والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب، يعني: تخفي في نفسك الذي الله تعالى مبديه، وهنا لم يقل: وتخفي في نفسك ما يبديه الله تعالى، بل قال تعالى: {ما الله مبديه}، فأتى بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت كأن هذا أمر لا بد منه، أي: لا بد أن يبديه الله عز وجل، وهذا هو الذي وقع.

ومعنى: {مبديه}، أي: مظهره، وهو مقابل لقوله: {وتخفي}، قال تعالى: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} إلا أن المقابلة اختلفت من حيث الصيغة، فالصيغة في الإخفاء جاءت بالمضارع، وأما الصيغة بالإبداء فجاءت بالجملة

=

=

الاسمية.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وتخفي في نفسك ما الله مبديه} مظهره من محبتها، وأن لو فارقها زيد تزوجتها] هذا ما زعم المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعا لكثير من المصنفين: أن الذي أخفاه النبي عليه الصلاة والسلام هو محبته لهذه المرأة، فأبدى الله تعالى ذلك، ولكنك إذا تأملت الآيات وجدت أن الذي أخفاه هو (نية الزواج بها بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله تعالى أمره أن يتزوجها بعد زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكأن هذا -والله تعالى أعلم- من أجل جبر قلبها حيث تزوجت زيد بن حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو مولى، وهي من صميم العرب، فأراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكافئها على خضوعها لمشورة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يتزوجها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه من جهة.

ومن جهة أخرى: أمره الله تعالى أن يتزوجها لأجل أن يزول ما كان مشهورا عندهم في الجاهلية؛ من أن ابن التبني لا يجوز لمن تبناه أن يتزوج بامرأته، فيكون هذا من باب البيان بالفعل الذي هو أقوى من البيان بالقول.

وإذا نظرنا إلى الذي أبداه الله تعالى وجدنا أنه زواجه، لا أنه يحبها، فلم يقل الله تعالى في القرآن: إنك تحبها، أبدا! ولا تعرض للحب.

وقوله تعالى: {وتخشى الناس} أي: تخاف من قولهم، ومن كلامهم، بأن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وهذا عند العرب عيب، فهم يرونه من المنكرات.

قال الله تعالى: {والله أحق أن تخشاه} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في كل شيء وتزوجها، ولا عليك من قول الناس، ثم طلقها زيد وانقضت عدتها]، قال الله تعالى: {وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه} من الناس، ولكنه هنا أطلق، فقال تعالى: {والله أحق أن تخشاه}، ولم يذكر المفضل عليه من أجل العموم؛ لأنه

=

=

دائما يكون الحذف مفيدا للعموم، يعني: أحق أن تخشاه من كل أحد من الناس، ومن الجن، ومن غيرهم.

وقوله تعالى: {أن تخشاه}، يعني: أن تخافه، ولكن الخشية خوف مع علم؛ لقوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}، والخشية أيضا خوف مع قوة المخشي وعظمته، فالجوف دون الخشية؛ لأن الخوف يقع بدون علم؛ ولأن الخوف يقع من ضعف الخائف، لا من قوة المخوف؛ ولهذا كانت الخشية أرفع مرتبة وأقوى، {والله أحق أن تخشاه}.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فلما قضى زيد منها وطرا}، حاجة، {زوجناكها} فدخل عليها النبي ﷺ بدون إذن وأشبع المسلمين خبزا ولحما].

قال تعالى: {فلما قضى زيد منها وطرا}؛ أي: حاجة، وهذا دليل على أن زيدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلقها عن رغبة، وأنها انقضت حاجته منها، ولم يطلقها عن ضغط أو إكراه.

وقوله تعالى: {زوجناكها} شرعا وقدرا، لكن المهم: شرعا؛ لأنه لو كان المراد قدرا فقط لم يكن بينها وبين أمهات المؤمنين فرق؛ لأن امهات المؤمنين أيضا مما زوجهن الله تعالى قدرا، وكانت هي -أي: زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تفتخر على نساء النبي ﷺ، فتقول: "زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات"، وهذا دليل على أنه تزويج شرعي، ولكنه قدري أيضا في نفس الوقت.

وقوله تعالى: {زوجناكها} في هذا ضميران مفعولان؛ الضمير الأول: الكاف، والثاني: (ها)، وهو متمش على القاعدة، وابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وقدم الأخص في اتصال ... وقدمن ما شئت في انفصال

وضمير المخاطب أخص من ضمير الغائب؛ ولهذا قال تعالى: {زوجناكها}.

=

=

والحكمة من ذلك: قال تبارك وتعالى: {لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا}.

قوله تعالى: {لكي لا يكون} اللام هنا للتعليل، و (كي) حرف مصدر؛ لأنها بعد اللام مصدرية محضة؛ أي: (لأن)، و (لا) نافية.

وقوله تعالى: {حرج}؛ أي: ضيق ومشقة.

وقوله تعالى: {في أزواج أدعيائهم} أدعياؤهم: أبناؤهم الذين تبنوهم، هؤلاء هم الأدعياء، وهؤلاء الأدعياء ليسوا بأبناء، كما قال الله تعالى: {وما جعل أدعياءكم أبناءكم} [الأحزاب: ٤]، وتأمل قوله تعالى: {لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم}، ولم يقل: (أبنائهم الذين تبنوهم)؛ لأن هذه البنوة منتفية شرعا وباطلة شرعا؛ ولهذا قال تعالى: {أدعيائكم}.

وبهذا نعرف أن قول من قال في قوله تعالى: {وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم}: (إن قوله: {أصلابكم} احتراز من ابن التبني) يتبين لنا أن هذا القول لا وجه له؛ لأن ابن التبني لم يسمه الله تعالى ابنا أبدا، بل نفى عنه البنوة، فقال تعالى: {وما جعل أدعياءكم أبناءكم}، وقال هنا: {لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم}، وإذا كان ابن التبني لا يسمى ابنا شرعا، فإنه لا حاجة إلى أن نأتي بصفة تخرجه؛ لأنه ليس بداخل أصلا حتى يخرج بهذه الصفة الذين من أصلابكم؛ ولكنها احتراز من ابن الرضاعة، كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله تعالى: {إذا قضوا منهن وطرا}: {إذا قضوا} الفاعل يعود على الأدعياء، وقوله تعالى: {إذا قضوا منهن وطرا} فيه إشارة إلى أنه لو كان ذلك بضغط من

=

=

الأب المدعي لكان ذلك فيه حرج، بل لا بد أن يكونوا قد قضوا منهن وطرا وأنهوا رغبتهن فيهن.

وقوله تعالى: {وكان أمر الله مفعولا}، {وكان أمر الله}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مقضيه {مفعولا}]، {أمر الله} أي: الكوني؛ لأن الشرعي قد يفعل وقد لا يفعل، ولكن الأمر الذي لا بد أن يفعل هو أمر الله تعالى الكوني، فإذا أمر الله تعالى بشيء كونا فلا بد أن يقع.

وخلاصة تفسير هذه الآية أن نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر نبيه ﷺ بهذا الأمر العظيم، وهو قوله لزيد بن حارثة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين جاء يستشيره في طلاق زوجته: {أمسك عليك زوجك واتق الله}، مع علم النبي ﷺ بأن الله تعالى سوف يزوجه إياها، وكان على النبي عليه الصلاة والسلام أن يسكت على الأقل، ويقول: انظر ما يبدو لك في هذا الأمر، لكنه أشار عليه أن يمسك؛ لأنه يخشى أن يقول الناس: تزوج امرأة ابنه الذي تبناه. فكان النبي عليه الصلاة والسلام يخاف من هذا الأمر، ولكن الله تعالى وجهه هذا التوجيه السليم.

مسألة: قال ابن عقيل في الواضح ٣/ ١٠٢: (فأخبر أنه إنما أباحه ذلك ليكون مبيحا لجميع الأمة، ولو كان الأمر يخصه لما انتفى عنهم الحرج بنفي الحرج عنه، فصار كأنه يقول: أرخصنا لك في تزويج أزواج أدعيائك؛ لنرخص لأمتك بذلك اقتداء بك، ونزولا على ما شرع لك، فثبت بهذا أنهم مشاركوه في الحكم الذي يخاطب به).

أشار ابن عقيل إلى مسألة: أن الخطاب للنبي ﷺ في أمور الشرع خطاب لأمته إلا إذا دل الدليل على تخصيصه، وهذه مسألة أصولية مشهورة تكلم فيها

=

=

الأصوليون.

وقول ابن عقيل هو قول الحنفية وبعض المالكية وبعض الشافعية: أن الله تعالى إذا أمر نبيه ﷺ فإن أمته يشاركونه في ذلك الأمر، ومن أدلتهم هذه الآية التي استدل بها ابن عقيل: {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا (٣٧)} [الأحزاب:٣٧]، ووجه الاستدلال بها: أنه لو كان الأمر يخص النبي ﷺ في تزوج زوجة الدعي لما انتفى الحرج عن المؤمنين بانتفائه عنه ﷺ، وكان التعليل به عبثا.

وهو ما ذهب إليه جمع من المفسرين:

قال الجصاص: (قد حوت هذه الآية أحكاما ...) إلى أن قال: (والثالث: أن الأمة مساوية للنبي ﷺ في الحكم إلا ما خصه الله تعالى به؛ لأنه أخبر أنه أحل ذلك للنبي ﷺ ليكون المؤمنون مساوين له).

وقال البيضاوي: {لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا} [الأحزاب:٣٧] علة للتزويج، وهو دليل على أن حكمه وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل).

وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى ١٥/ ٤٤٣: (قوله: {فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا} الآية [الأحزاب:٣٧] دليل على أن ما أبيح له

=

=

كان مباحا لأمته؛ لأنه أخبر أن التزويج كان لمنع الحرج عن الأمة في مثل ذلك التزويج، فلولا أن فعله المباح له يقتضي الإباحة لأمته لم يحسن التعليل وهذا ظاهر).

وذهب بعض الشافعية وغيرهم: إلى أن الخطاب لا يعمهم إلا بدليل.

قالوا: لأن اللغة تقتضي أن خطاب المفرد لا يتناول غيره.

قال الغزالي: (وإنما يشاركه غيره بدليل لا بموجب هذا اللفظ).

ولذا قال الآمدي في الإحكام ٢/ ٢٦٢: (إن رفع الحرج عن النبي ﷺ كان لمقصود رفع الحرج عن المؤمنين، وذلك حاصل بقياسهم عليه بواسطة دفع الحاجة وحصول المصلحة). فحكم بدخول الأمة مع النبي ﷺ في الآية لكن بدليل القياس.

وقال الطوفي في شرح مختصر روضة الناظر ٢/ ٤١٨: (وكأن الخلاف لفظي ...) ثم قال: (وحينئذ يكون التقدير: أن اللغة تقتضي أن الخطاب لواحد معين يختص به، ولا خلاف فيه بينهم، والواقعة الشرعية الخاصة، إذا قام دليل على عمومها عمت، ولا خلاف أيضا فيه بينهم، فعاد النزاع كما قلنا لفظيا).

وقال أيضا: (أجمع الصحابة رضي الله عنهم على الرجوع في قضاياهم العامة إلى قضايا النبي ﷺ الخاصة، كرجوعهم في حد الزاني إلى قصة ماعز ...) ا.هـ.

(منبهة): قال الله تعالى: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا (٣٧)) [الأحزاب:

=

=

٣٧].

وفي الحديث عن أنس بن مالك – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال: «أتى رسول الله ﷺ منزل زيد بن حارثة، فرأى رسول الله ﷺ امرأته زينب، وكأنه دخله (لا أدري من قول حماد، أو في الحديث) ؛ فجاء زيد يشكوها إليه، فقال له النبي ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله. قال: فنزلت: (واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه) إلى قوله: (زوجناكها) يعني زينب» أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٤٩) قال: حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس.... ، فذكره. وهذا الحديث فيه ثلاث علل:

الأولى: أنه من راوية مؤمل بن إسماعيل، وهو سيئ الحفظ، كثير الغلط، قال أبو حاتم: صدوق، كثير الخطأ. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال الآجري: سألت أبا داود عنه: فعظمه ورفع من شأنه، إلا أنه يهم في الشيء. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما أخطأ. وقال يعقوب بن سفيان: حديثه لا يشبه حديث أصحابه، وقد يجب على أهل العلم أن يقفوا عن حديثه؛ فإنه يروي المناكير عن ثقات شيوخه، وهذا أشد، فلو كانت هذه المناكير عن الضعفاء لكنا نجعل له عذرا. وقال الساجي: صدوق كثير الخطأ، وله أوهام يطول ذكرها. وقال ابن سعد: ثقة كثير الغلط. وقال الدارقطني: ثقة كثير الخطأ. وقال محمد بن نصر المروزي: إذا انفرد بحديث وجب أن يتوقف ويتثبت فيه؛ لأنه كان سيئ الحفظ، كثير الغلط. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر (١٠/ ٣٣٩).

العلة الثانية: أن مؤمل بن إسماعيل قد تفرد بزيادة منكرة في هذا الحديث، وهي قوله – في أول الحديث –: «أتى رسول الله ﷺ منزل زيد بن حارثة، فرأى رسول

=

=

الله ﷺ امرأته زينب، وكأنه دخله». وقد روى هذا الحديث جماعة من الثقات، عن حماد بن زيد، ولم يذكروا هذه الزيادة، ومن هؤلاء الرواة:

١- معلى بن منصور: أخرج حديثه، البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، حديث (٤٧٨٧)، قال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا معلى بن منصور، عن حماد بن زيد، حدثنا ثابت، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن هذه الآية: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) نزلت في شأن زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة».

٢- محمد بن أبي بكر المقدمي: أخرج حديثه، البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، حديث

(٧٤٢٠) قال: حدثنا أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك. قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذه».

٣- أحمد بن عبدة الضبي: أخرج حديثه، الترمذي في سننه، في كتاب التفسير، حديث (٣٢١٢) قال: حدثنا أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: «لما نزلت هذه الآية: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس) في شأن زينب بنت جحش، جاء زيد يشكو، فهم بطلاقها، فاستأمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله».

٤- عفان بن مسلم: أخرج حديثه، ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥١٩) قال: أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف قال: حدثنا أبو يحيى محمد بن

=

=

عبد الرحيم قال: حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أمسك عليك أهلك، فنزلت: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه)».

٥- محمد بن سليمان: أخرج حديثه، النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٣٢) قال: أنا محمد بن سليمان، عن حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال:.... ، فذكره، بنحو رواية ابن حبان.

العلة الثالثة: تردد مؤمل بن إسماعيل في هذه الزيادة التي رواها في الحديث، وذلك بقوله: «لا أدري من قول حماد، أو في الحديث»، وهذا يدل على سوء حفظه، وأن هذه الرواية غير محفوظة في الحديث.

وقد رويت هذه القصة من طرق أخرى، كلها ضعيفة، وهذا تفصيلها:

الرواية الأولى: عن محمد بن يحيى بن حبان: قال: جاء رسول الله ﷺ بيت زيد بن حارثة يطلبه، وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد، فربما فقده رسول الله ﷺ الساعة، فيقول: أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه، فلم يجده، وتقوم إليه زينب بنت جحش، زوجته فضلا، فأعرض رسول الله ﷺ عنها، فقالت: ليس هو هاهنا يا رسول الله، فادخل بأبي أنت وأمي، فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل، وإنما عجلت زينب أن تلبس، لما قيل لها رسول الله ﷺ على الباب، فوثبت عجلى، فأعجبت رسول الله ﷺ، فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه إلا ربما أعلن سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب، فجاء زيد إلى منزله، فأخبرته امرأته أن رسول الله ﷺ أتى منزله، فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت ذلك عليه فأبى. قال: فسمعت شيئا؟ قالت: سمعته حين ولى تكلم بكلام، ولا

=

=

أفهمه، وسمعته يقول: سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب، فجاء زيد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: بلغني أنك جئت منزلي فهلا دخلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك فأفارقها، فيقول رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك. فما استطاع زيد إليها سبيلا بعد ذلك اليوم، فيأتي إلى رسول الله ﷺ ، فيخبره رسول الله: أمسك عليك زوجك. فيقول: يا رسول الله، أفارقها؟ فيقول رسول الله ﷺ : احبس عليك زوجك. ففارقها زيد، واعتزلها، وحلت، يعني انقضت عدتها، قال: فبينا رسول الله ﷺ جالس يتحدث مع عائشة إلى أن أخذت رسول الله ﷺ غشية، فسري عنه وهو يتبسم وهو يقول: من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء، وتلا رسول الله ﷺ : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) [الأحزاب: ٣٧]».

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٠١) قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني عبد الله بن عامر الأسلمي، عن محمد بن يحيى بن حبان قال:.... فذكره. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥)، من طريق محمد بن عمر، به. وهذه الرواية فيها ثلاث علل:

الأولى: أنها من طريق محمد بن عمر، وهو الواقدي. قال البخاري: متروك الحديث، تركه أحمد، وابن المبارك، وابن نمير، وإسماعيل بن زكريا، وقال في موضع آخر: كذبه أحمد.

وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن حبان: كان يروي عن الثقات المقلوبات، وعن الأثبات المعضلات، وقال علي بن المديني:

=

=

الواقدي يضع الحديث.

انظر: التاريخ الكبير، للبخاري (١/ ١٧٨)، والمجروحين، لابن حبان (٢/ ٢٩٠)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر (٩/ ٣٢٣).

العلة الثانية: شيخ الواقدي، وهو عبد الله بن عامر الأسلمي، متفق على ضعفه. انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٢٤١).

العلة الثالثة: أن هذه الرواية مرسلة؛ لأن محمد بن يحيى بن حبان، تابعي مات سنة ١٢١ هـ، وهو لم يدرك القصة، ولم يذكر من حدثه بها.

الرواية الثانية: عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: «كان النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يوما يريده، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر، فانكشفت وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ ؛ فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي. قال: ما لك؟ أرابك منها شيء؟ قال: لا والله، ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرا، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله. فذلك قول الله تعالى: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه) تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها».

أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣٠٢) قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد.... ، فذكره.

وهذه الرواية فيها علتان:

الأولى: أنها معضلة؛ لأن عبد الرحمن بن زيد من الطبقة الثانية من التابعين، مات

=

=

سنة ١٨٢ هـ، فهو لم يدرك القصة، ولم يذكر الواسطة بينه وبين من حدث بها عن الصحابة - رضي الله عنهم -.

العلة الثانية: أن ابن زيد متفق على ضعفه، وممن ضعفه: الإمام أحمد، وابن معين، وابن المديني، والنسائي، وأبو زرعة، وقال ابن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته، من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك. وقال ابن سعد: كان كثير الحديث، ضعيفا جدا. وقال ابن خزيمة: ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه. وقال ابن الجوزي: أجمعوا على ضعفه. انظر: تهذيب التهذيب (٦/ ١٦١).

الرواية الثالثة: عن قتادة قال: جاء زيد إلى النبي ﷺ فقال: إن زينب اشتد علي لسانها، وأنا أريد أن أطلقها. فقال له النبي ﷺ: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، والنبي ﷺ يحب أن يطلقها، ويخشى قالة الناس إن أمره بطلاقها، فأنزل الله تعالى: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس) [الأحزاب: ٣٧].

أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١١٧)، عن معمر، عن قتادة، به.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤١)، من طريق معمر، به.

وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٣٠٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٢)، كلاهما من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، بنحوه.

وقتادة: هو ابن دعامة السدوسي، أحد الأئمة الحفاظ المشهورين بالتدليس، وكثرة الإرسال، قال أحمد بن حنبل: ما أعلم قتادة سمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ، إلا من أنس بن مالك.

قلت: وروايته هذه مرسلة، وقد قال الشعبي: كان قتادة حاطب ليل. وذكر أبو

=

=

عمرو بن العلاء: أن قتادة لا يغث عليه شيء، وكان يأخذ عن كل أحد.

انظر: جامع التحصيل (١/ ٢٥٤)، وتهذيب التهذيب (٨/ ٣١٧ - ٣٢٢).

الرواية الرابعة: عن مقاتل بن سليمان قال: زوج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد، فمكثت عنده حينا، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يوما يطلبه، فأبصر زينب قائمة، وكانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهويها وقال: سبحان الله، مقلب القلوب، فسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبرا، تعظم علي وتؤذيني بلسانها، فقال عليه السلام: أمسك عليك زوجك واتق الله.

وهذه الرواية ذكرها القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٢٣)، عن مقاتل، ولم يذكر لها سندا، ومقاتل: متهم بالكذب، ووضع الحديث، قال عمرو بن علي: متروك الحديث كذاب. وقال ابن سعد: أصحاب الحديث يتقون حديثه وينكرونه. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال في موضع آخر: لا شيء ألبتة. وقال عبد الرحمن بن الحكم: كان قاصا ترك الناس حديثه. وقال أبو حاتم: متروك الحديث. وقال النسائي: كذاب. وقال ابن حبان: كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مشبها يشبه الرب سبحانه وتعالى بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك في الحديث.

وقال الدارقطني: يكذب، وعده في المتروكين. وقال العجلي: متروك الحديث.

انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر (١٠/ ٢٥٢ - ٢٥٣).

الرواية الخامسة: عن عكرمة قال: «دخل النبي ﷺ يوما بيت زيد، فرأى زينب وهي بنت عمته، فكأنها وقعت في نفسه، فأنزل الله: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه

=

=

وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه)».

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٨٥)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

وهذه الرواية ضعيفة؛ لإرسالها من قبل عكرمة، وتعليقها من قبل السيوطي.

الرواية السادسة: عن الشعبي: «أن رسول الله ﷺ رأى زينب بنت جحش فقال: سبحان الله، مقلب القلوب. فقال زيد بن حارثة: ألا أطلقها يا رسول الله؟ فقال: أمسك عليك زوجك؛ فأنزل الله ﷻ: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه)».

أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٣١٦) قال: ثنا الساجي، ثنا الحسن بن علي الواسطي قال: ثنا علي بن نوح، ثنا محمد بن كثير، ثنا سليم مولى الشعبي، عن الشعبي، به.

وأعله ابن عدي بسليم مولى الشعبي، وضعفه. وهو مرسل أيضا.

الرواية السابعة: عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة: «أن رسول الله ﷺ جاء بيت زيد بن حارثة، فاستأذن، فأذنت له زينب، ولا خمار عليها، فألقت كم درعها على رأسها، فسألها عن زيد، فقالت: ذهب قريبا يا رسول الله، فقام رسول الله ﷺ وله همهمة، قالت زينب: فاتبعته، فسمعته يقول: تبارك مصرف القلوب، فما زال يقولها حتى تغيب».

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٤) قال: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، ثنا الحسن بن علي الحلواني، ثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثني موسى بن يعقوب، عن عبد الرحمن بن المنيب، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، به.

=

=

وأبو بكر بن أبي حثمة، تابعي، ذكره الحافظ ابن حجر في التقريب (٢/ ٤٠٤) وقال: مدني ثقة، من الرابعة، روى له البخاري ومسلم مقرونا بغيره.

وهذه الرواية فيها علتان: الأولى: أنها مرسلة، والثانية: جهالة عبد الرحمن بن المنيب، فلم أقف على ترجمته.

* ظاهر هذه الرواية، وما ورد في معناها من الروايات الأخرى، أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش رضي الله عنها، وهي في عصمة زيد - رضي الله عنه -، وأن النبي ﷺ كان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، وهذه الرواية مشكلة؛ لما فيها من القدح بعصمة النبي ﷺ، والنيل من مقامه الشريف.

* مسالك العلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث:

للعلماء في دفع الإشكال الوارد في الحديث مسلكان:

الأول: مسلك رد الحديث وإنكاره؛ وذلك لعدم ثبوته، ولما فيه من القدح بعصمة

النبي ﷺ.

ويرى أصحاب هذا المسلك: أن الصواب في سبب نزول الآية: أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله إليه أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها له، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: اتق الله، أي في أقوالك، وأمسك عليك زوجك، وهو يعلم أنه سيفارقها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق، لما علم من أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن تزوج زينب بعد زيد وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها؛ فعاتبه

=

=

الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في أمر قد أباحه الله تعالى له.

وهذا المذهب روي عن: علي بن الحسين، والزهري، والسدي.

وذكر القرطبيان في المفهم وفي التفسير: أن هذا القول هو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين، والعلماء الراسخين. وممن قال به:

أبو بكر الباقلاني، وبكر بن العلاء القشيري، وابن حزم، والبغوي، وابن العربي، والثعلبي، والقاضي عياض، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والقاضي أبو يعلى، وابن كثير، والتفتازاني، وابن القيم، وابن حجر، وابن عادل، والآلوسي، والقاسمي، ورحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين.

قال القاضي عياض: «اعلم - أكرمك الله - ولا تسترب في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر، وأن يأمر زيدا بإمساكها، وهو يحب تطليقه إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين، وأصح ما في هذا: ما حكاه أهل التفسير، عن علي بن حسين: أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وتطليق زيد لها». اهـ

وقال أبو العباس القرطبي: «وقد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به ويستحيل عليه، إذ قد عصمه الله منه ونزهه عن مثله، وهذا القول إنما يصدر عن جاهل بعصمته عليه الصلاة والسلام، عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته، والذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين: أن ذلك القول الشنيع ليس بصحيح، ولا يليق

=

=

بذوي المروءات، فأحرى بخير البريات، وأن تلك الآية إنما تفسيرها ما حكي عن علي بن حسين....". اهـ

أدلة هذا المسلك: استدل أصحاب هذا المسلك بأدلة منها:

الأول: أن الله تعالى أخبر أنه مظهر ما كان يخفيه النبي ﷺ، فقال: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه)، ولم يظهر سبحانه غير تزويجها منه، حيث قال: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها)، فلو كان الذي أضمره رسول الله ﷺ محبتها أو إرادة طلاقها؛ لأظهر الله تعالى ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله إياه: أنها ستكون زوجة له، لا ما ادعاه هؤلاء أنه أحبها، ولو كان هذا هو الذي أخفاه لأظهره الله تعالى كما وعد.

الدليل الثاني: أن الله تعالى قال بعد هذه الآية: (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) [الأحزاب: ٣٨]، وهذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن عليه حرج في زواجه من زينب رضي الله عنها، ولو كان على ما روي من أنه أحبها وتمنى طلاق زيد لها، لكان فيه أعظم الحرج؛ لأنه لا يليق به مد عينيه إلى نساء الغير، وقد نهي عن ذلك في قوله تعالى: (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨)) [الحجر: ٨٨].

الدليل الثالث: أن زينب رضي الله عنها هي بنت عمة النبي ﷺ، ولم يزل يراها منذ ولدت، وكان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذ حجاب، وهو الذي زوجها لمولاه زيد، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة، ولا تقع في قلبه إلا بعد أن تزوجها زيد، وقد كانت وهبت نفسها للنبي ﷺ وكرهت

=

=

غيره، فلم تخطر بباله ﷺ، فكيف يتجدد لها هوى لم يكن، حاشاه ﷺ من ذلك، وهذا كله يدل على بطلان القصة، وأنها مختلقة موضوعة.

الدليل الرابع: أن الله تعالى بين الحكمة من زواجه ﷺ بزينب، فقال: (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا)، وهذا تعليل صريح بأن الحكمة هي قطع تحريم أزواج الأدعياء، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة، صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها، التي كانت سببا في طلاق زيد لها، كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: (فلما قضى زيد منها وطرا)؛ لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره.

الثاني: مسلك قبول الحديث واعتماده، وجعله سببا في نزول الآية.

ويرى أصحاب هذا المسلك: أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب، وهي في عصمة زيد، وكان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره أنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظما بالشرف، قال له: اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك. وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف، قالوا: وخشي النبي ﷺ قالة الناس في ذلك، فعاتبه الله تعالى على جميع هذا.

وهذا المذهب روي عن: قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وعكرمة، ومحمد بن يحيى بن حبان، ومقاتل، والشعبي، وابن جريج.

وهو اختيار: ابن جرير الطبري، والزمخشري، والبيضاوي، وأبي السعود، وابن

=

=

جزي، والعيني، والسيوطي.

قال ابن جرير الطبري: «ذكر أن النبي ﷺ رأى زينب بنت جحش فأعجبته، وهي في حبال مولاه، فألقي في نفس زيد كراهتها، لما علم الله مما وقع في نفس نبيه ﷺ ما وقع، فأراد فراقها، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك، وهو ﷺ يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها، واتق الله، وخف الله في الواجب عليك في زوجتك، (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) يقول: وتخفي في نفسك محبة فراقه إياها، لتتزوجها إن هو فارقها، والله مبد ما تخفي في نفسك من ذلك، (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يقول تعالى ذكره: وتخاف أن يقول الناس: أمر رجلا بطلاق امرأته ونكحها حين طلقها، والله أحق أن تخشاه من الناس». اهـ

أدلة هذا المسلك:

استدل أصحاب هذا المسلك بأدلة منها:

الأول: الروايات الواردة في سبب نزول الآية.

واعترض: بأن هذه الروايات ضعيفة، وليس فيها شيء يصح.

الدليل الثاني: أنه قد روي عن عائشة ، وأنس - رضي الله عنهما - أنهما قالا: «لو كان رسول ﷺ كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)».

قالوا: وهذا يدل على أنه ﷺ وقع منه استحسان لزينب، وأنه كان يخفي ذلك، حتى أظهره الله تعالى.

=

=

واعترض: بأن مراد عائشة، وأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رغبة النبي ﷺ في تزوج زينب، كان سرا في نفسه لم يطلع عليه أحدا، إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد، وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد في قوله: (أمسك عليك زوجك)، ولما طلقها زيد ورام تزوجها، علم أن المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة، وتبليغ خبره، بلغه ولم يكتمه، مع أنه ليس في كتمه تعطيل شرع، ولا نقص مصلحة، فلو كان كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية، التي هي حكاية سر في نفسه، وبينه وبين ربه تعالى، ولكنه لما كان وحيا بلغه؛ لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.

ويرى أصحاب هذا المسلك أن ما فعله النبي ﷺ من تعلقه بزينب، ليس بمستهجن ولا بمستقبح، لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع؛ لأنه ليس بفعل الإنسان، ولا وجوده باختياره، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضا، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استنزال زيد عنها، ولا طلب إليه وهو أقرب منه من زر قميصه أن يواسيه بمفارقتها، مع قوة العلم بأن نفس زيد لم تكن من التعلق بها في شيء، بل كانت تجفوا عنها ونفس رسول الله ﷺ متعلقة بها، ولم يكن مستنكرا عندهم أن ينزل الرجل عن امرأته لصديقه، ولا مستهجنا إذا نزل عنها أن ينكحها الآخر؛ فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة استهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداهما وأنكحها المهاجر.

وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان ويستحي من إطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الدخول في

=

=

ذلك المباح سلما إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين ويجل ثوابها.

و الذي يظهر صوابه ـ والله تعالى أعلم ـ هو ضعف القصة، وأن الآية لا يصح في سبب نزولها إلا حديث أنس – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أنه قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك» ، وهذا الحديث ليس فيه شيء مما ذكر في هذه القصة، فيجب الاقتصار عليه، وطرح ما سواه من الروايات الضعيفة.

ومما يدل على ضعف القصة:

١ – أنها لم ترو بسند متصل صحيح، وكل الروايات الواردة فيها، إما أنها مرسلة، أو أن في أسانيدها ضعفاء أو متروكين.

٢– تناقض روايات هذه القصة واضطرابها، ففي رواية محمد بن يحيى بن حبان: أن النبي ﷺ جاء يطلب زيدا في بيته، وأن زينب خرجت له فضلا متكشفة، وأما رواية ابن زيد ففيها أن زينب لم تخرج إليه، وإنما رفعت الريح الستر فانكشفت وهي في حجرتها حاسرة، فرآها النبي ﷺ ، وتأتي رواية أبي بكر بن أبي حثمة فتخالف هاتين الروايتين، وتدعي أن رسول الله ﷺ استأذن عليها، فأذنت له ولا خمار عليها، وهذا الاضطراب والتناقض بين الروايات يدل دلالة واضحة على ضعف القصة وبطلانها.

٣– أن هذه الروايات مخالفة للرواية الصحيحة الواردة في سبب نزول الآية، والتي فيها أن زيدا جاء يشكو للنبي ﷺ ، ولم تذكر هذه الرواية شيئا عن سبب شكواه، وهي صريحة بأنه جاء يشكو شيئا ما ، وأما تلك الروايات الضعيفة فتدعي أن زيدا عرض طلاقها على النبي ﷺ ، نزولا عند رغبته، لما رأى من

=

مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨).

{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيّ مِنْ حَرَج فِيمَا فَرَضَ} أَحَلَّ {الله لَهُ سُنَّة الله} أَيْ كَسُنَّةِ الله فَنُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِض {فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل} مِنْ الْأَنْبِيَاء أَنْ لَا حَرَج عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ تَوْسِعَة لَهُمْ فِي النِّكَاح {وَكَانَ أَمْر الله} فِعْله {قَدَرًا مَقْدُورًا} مقضيا(١).

=

تعلقه بها.

٤- أن هذه الروايات فيها قدح بعصمة النبي ﷺ، ونيل من مقامه الشريف، فيجب ردها وعدم قبولها، وتنزيه مقام النبي ﷺ عن مثل هذه القصص.

٥- أن الآيات النازلة بسبب القصة ليس فيها ما يفيد أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وقد تقدم وجه دلالتها على هذا المعنى، في أدلة المذهب الأول، والله تعالى أعلم.

(١) قوله تعالى: {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ} [الأحزاب: ٣٨]، أي:"ما كان على النبيِّ محمد ﷺ من ذنب فيما أحلَّ الله له من زواج امرأة مَن تبنَّاه بعد طلاقها".

قال الطبري: يقول:"ما كان على النبي من حرج: من إثم فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها".

قال ابن كثير:"أي: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دَعِيُّه زيد بن حارثة".

قال قتادة:"أي: أحل الله له".

قوله تعالى: {سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} [الأحزاب: ٣٨]، أي:"هذه سنة

=

=

الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسَّع عليهم فيما أباحلهم".

قال الطبري: " يقول: لم يكن الله تعالى ليؤثم نبيه فيما أحل له مثال فعله بمن قبله من الرسل الذين مضوا قبله في أنه لم يؤثمهم بما أحل لهم، لم يكن لنبيه أن يخشى الناس فيما أمره به أو أحله له، ونصب قوله {سنة الله} على معنى: حقا من الله، كأنه قال: فعلنا ذلك سنة منا".

قال ابن كثير:"هذا حكم الله في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حَرج، وهذا رَدٌّ على مَنْ تَوَهَّم مِن المنافقين نقصًا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعيه، الذي كان قد تبناه".

عن ابن جريج: {سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، قال:"داود والمرأة التي نكح وزوجها، واسمها: اليسيه، فذلك سنة الله في محمد وزينب".

قال قتادة:"يقول: كما هوى داود النبي عليه السلام المرأة التي نظر إليها فهويها فتزوجها، فكذلك قضى الله لمحمد ﷺ فتزوج زينب، كما كان سنة الله في داود أن يزوجه تلك المرأة".

قوله تعالى: {وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب: ٣٨]، أي:"وكان أمر الله قضاءً مقضيًا، وحكمًا مقطوعًا به من الأزل، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل".

قال الطبري:"يقول: وكان أمر الله قضاء مقضيا".

قال ابن كثير:"أي: وكان أمره الذي يقدِّره كائنًا لا محالة، وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن".

قال قتادة:"{وكان أمر الله قدرا مقدورا}، في أمر زينب".

قال ابن جريج:"كذلك من سنته في داود والمرأة، والنبي ﷺ وزينب".

=

قال ابن عباس: "وكان من قدره أن تلد تلك المرأة التي ابتلي بها داود ابنا مثل سليمان، ويملك من بعده".

عن ابن زيد، قوله: {وكان أمر الله قدرا مقدورا} " إن الله كان علمه معه قبل أن يخلق الأشياء كلها، فأتمه في علمه أن يخلق خلقا، ويأمرهم وينهاهم، ويجعل ثوابا لأهل طاعته، وعقابا لأهل معصيته؛ فلما ائتمر ذلك الأمر قدره، فلما قدره كتب وغاب عليه، فسماه الغيب وأم الكتاب، وخلق الخلق، على ذلك الكتاب أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة من الكتاب الذي كتبه أنه يصيبهم؛ وقرأ: {أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم} [الأعراف: ٣٧] وأمر الله الذي ائتمر قدره حين قدره مقدر، فلا يكون إلا ما في ذلك، وما في ذلك الكتاب، وفي ذلك التقدير، ائتمر أمرا ثم قدره، ثم خلق عليه، فقال: كان أمر الله الذي مضى وفرغ منه، وخلق عليه الخلق {قدرا مقدورا} [الأحزاب: ٣٨] شاء أمرا ليمضي به أمره وقدره، وشاء أمرا يرضاه من عباده في طاعته؛ فلما أن كان الذي شاء من طاعته لعباده رضيه لهم، ولما أن كان الذي شاء أراد أن ينفذ فيه أمره وتدبيره وقدره، وقرأ: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس} [الأعراف: ١٧٩] فشاء أن يكون هؤلاء من أهل النار، وشاء أن تكون أعمالهم أعمال أهل النار، فقال: {كذلك زينا لكل أمة عملهم} [الأنعام: ١٠٨] وقال: {وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم} [الأنعام: ١٣٧] هذه أعمال أهل النار {ولو شاء الله ما فعلوه} [الأنعام: ١٣٧] قال: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين} [الأنعام: ١١٢] إلى قوله: {ولو شاء ربك ما فعلوه}

=

[الأنعام: ١١٢] وقرأ: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم} [الأنعام: ١٠٩].. إلى {كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله} [الأنعام: ١١١] أن يؤمنوا بذلك، قال: فأخرجوه من اسمه الذي تسمى به، قال: هو الفعال لما يريد، فزعموا أنه ما أراد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ما كان}: {ما} نافية، و {كان} فعل ماض ناقص، واسمها قوله تعالى: {حرج}، لكن فيها {من} الزائدة لإثبات النفي وتوكيده، وقوله تعالى: {على النبي}، هذا خبرها مقدم.

ومعنى {فيما فرض} أي: فيما أحل الله تعالى له، أيا كان، فكل ما أحل الله تعالى، فإنه لا حرج عليه عند الله تعالى، وإذا كان لا حرج عليه عند الله تعالى فإنه لا يجوز لأحد أن يتكلم في هذا الذي أحل الله تعالى له، ويقول: لم فعل؟ لم صنع؟ وسيأتي -إن شاء الله تعالى- في الفوائد: أن هذا عام للرسول ﷺ ولغيره.

وقوله تعالى: {فيما فرض} الفرض تارة يتعدى باللام، وتارة يتعدى بـ (على)، فيتعدى باللام مثل هذه الآية: {فيما فرض الله له}، ويتعدى بـ (على) مثل: فرض الله علينا كذا وكذا. فإن تعدى بـ (على) فهو بمعنى: أوجب، وإن تعدى باللام فهو بمعنى: أحل؛ لأن الفرض في الأصل بمعنى التقدير، والمقدر قد يكون واجبا، وقد يكون محللا.

وقد فسرها بأوجب الزمخشري، والبيضاوي، وابن جزي، وأبو السعود.

قال الزمخشري: (فرض الله له: قسم له وأوجب من قولهم فرض لفلان في الديوان كذا، ومنه: فروض العسكر لرزقاتهم).

وفسرها بأحل له الطبري، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن

=

الَّـذِينَ يُبَلِّغُـونَ رِسَـالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَـدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَـى بِـاللهِ حَسِيبًا (٣٩).

{الَّذِينَ} نَعْت لِلَّذِينَ قَبْله {يُبَلِّغُونَ رِسَالَات الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا الله} فَلَا يَخْشَوْنَ مَقَالَة النَّاس فِيمَا أَحَلَّ الله لَهُمْ {وَكَفَى بِاَللهِ حَسِيبًا} حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقه وَمُحَاسَبَتهمْ(١).

=

عطية، وغيرهم، وذكره الطبري والنحاس عن قتادة.

قال الطبري: (فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها).

وقوله المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{سنة الله} أي: كسنة الله تعالى، فنصب بنزع الخافض].

يعني: أن الله تعالى نفى عنه الحرج فيما أحل له؛ لأن هذا هو سنة الله تعالى فيمن سبق، و {سنة الله}؛ أي: طريقته، والمعنى: كطريقة الله تعالى فيمن سبق من الأنبياء عليهم السلام.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{في الذين خلوا من قبل} من الأنبياء: أن لا حرج عليهم في ذلك توسعة لهم في النكاح، {وكان أمر الله}، فعله، {قدرا مقدورا}؛ مقضيا].

يقول الله ﷻ: إن الرسول عليه الصلاة والسلام كغيره من الأنبياء السابقين، فما أحل الله تعالى له فإنه لا حرج عليه فيه، يعني: لا تضييق لا من قبل الله تعالى ولا من قبل عباد الله تعالى، وهكذا الأنبياء السابقون ليس عليهم حرج فيما فرض الله تعالى لهم يفعلون ما يشاؤون، ما دام الأمر محللا لهم.

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ} [الأحزاب: ٣٩]، أي:"هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد وجعلتُ لك قدوة بهم، هم الذين يبلّغون رسالات الله إلى امن أُرسلوا إليه".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: سنة الله في الذين خلوا من قبل محمد من الرسل، الذي يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه".

قال البغوي:"يعني: سنة الله في الأنبياء الذين يبلغون رسالات الله".

قال ابن كثير:"يمدح تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ} أي: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها".

قال مقاتل:"يعني: النبي- ﷺ- خاصة".

قوله تعالى: {وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ} [الأحزاب: ٣٩]، أي:"ويخافون الله وحده، ولا يخافون أحدًا سواه".

قال مقاتل:"يقول: محمد يخشى الله أن يكتم عن الناس ما أظهر الله عليه من أمر زينب إذ هويها ولا يخشون أحدا إلا الله في البلاغ عن الله- ﷻ-".

قال الطبري: يقول: ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك إياهم، ولا يخافون أحدا إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إن هم قصروا عن تبليغهم رسالة الله إلى من أرسلوا إليه. يقول لنبيه محمد: فمن أولئك الرسل الذين هذه صفتهم فكن، ولا تخش أحدا إلا الله، فإن الله يمنعك من جميع خلقه، ولا يمنعك أحد من خلقه منه، إن أراد بك سوءا".

قال البغوي:"لا يخشون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل الله لهم وفرض عليهم".

قال ابن كثير:"أي: يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله".

قال السمعاني:"أي: خشية تحول بينهم وبين معصيته، وهذا هو الخشية حقيقة. وقوله: {ولا يخشون أحدا إلا الله} أي: غير الله، ومعناه: أنهم لا يراقبون أحدا

=

=

فيما أحل لهم. وفي بعض (الآثار): من لم يستح مما أحل الله له خفت مؤنته".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} [الأحزاب: ٣٩]، أي:"وكفى بالله محاسبًا عباده على جميع أعمالهم ومراقبًا لها".

عن سعيد بن جبير:"{وكفى بالله حسيبا}، يعني: شهيدا"، وروي عن السدي مثله".

قال الطبري: يقول:"وكفاك يا محمد بالله حافظا لأعمال خلقه، ومحاسبا لهم عليها".

قال ابن كثير:"أي: وكفى بالله ناصرًا ومعينًا".

قال يحيى بن سلام:"حفيظا لأعمالهم".

قال مقاتل:"يعني شهيدا في أمر زينب إذ هويها فلا شاهد أفضل من الله- ﷻ-".

ثم قال ابن كثير:"وسيد الناس في هذا المقام - بل وفي كل مقام - محمد رسول الله ﷺ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى مَنْ قام بها بعده أصحابه، رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحَضَره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي اللهعنهم وأرضاهم. ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم".

=

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

{مَا كَانَ مُحَمَّد أَبَا أَحَد مِنْ رِجَالكُمْ} فَلَيْسَ أَبَا زَيْد أَيْ وَالِده فَلَا يَحْرُم عَلَيْهِ التَّزَوُّج بِزَوْجَتِهِ زَيْنَب {وَلَكِنْ} كَانَ {رَسُول الله وخاتم النبيين} فلا يكون له بن رَجُل بَعْده يَكُون نَبِيًّا وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ التَّاء كَآلَةِ الْخَتْم أَيْ بِهِ خُتِمُوا {وَكَانَ الله

=

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في إعرابها: [{الذين} نعت للذين قبله]، أي: في قوله تعالى: {سنة الله في الذين خلوا من قبل} أي: في الذين يبلغون.

وقوله تعالى: {يبلغون رسالات الله}، جمع رسالة، والمراد بها المرسل به، فهم يبلغون ما أرسلهم الله تعالى به، والتبليغ معناه: الإيصال، ومنه ما جاء في الحديث: "لا بلاغ لي اليوم".

وقوله تعالى: {ولا يخشون أحدا إلا الله}؛ لأن الخشية عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، هذا في الأصل مع أن الخشية قد تكون غير عبادة، قد تكون خوفا طبيعيا لا يتعبد به الإنسان الخائف، فيفرق بين خشية الإنسان للناس، وبين خشية الإنسان لله تعالى، قال: [فلا يخشون مقالة الناس فيما أحل الله لهم] وكذلك في غيرها.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكفى بالله حسيبا}؛ حافظا لأعمال خلقه ومحاسبتهم] إعراب {وكفى بالله}: (كفى) تتعدى بالباء على أنه حرف جر زائد، وهو كثير، وقد تتعدى بنفسها إلى الفاعل، كقول الشاعر:

... **... كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا**

فلم يأت بالباء، لكن الأكثر أن يأتي بها.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} مِنْهُ بِأَنْ لَا نَبِيّ بَعْده وَإِذَا نَزَلَ السَّيِّد عِيسَى يَحْكُم بشريعته[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي؛ لكتم هذه الآية: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} بالعتق فأعتقته، {أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} إلى قوله: {وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} وإن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه؛ فأنزل الله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلًا يقال له: زيد بن محمد؛ فأنزل الله: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ} فلان مولى فلان أخو فلان {هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ}؛ يعني: اعدل.

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٢، ٣٥٣ رقم ٣٢٠٧): ثنا علي بن حجر نا داود بن الزبرقان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة به.

والحديث قال عنه الترمذي: غريب، وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ١٩٠): فيه داود بن الزبرقان وهو متروك، وقال العلامة الألباني في ضعيف الترمذي: ضعيف الإسناد جدا، وكذا قال صاحبا الإستيعاب (٣/ ١٢١).

وأصل الحديث في "الصحيحين" وغيرهما من حديث عائشة وليس فيه هذا التفصيل، وإنما فيه طرفه الأول.

وعن علي بن الحسين؛ قال: نزلت في زيد بن حارثة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٣) بسنده واهٍ جدًا.

=

=

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٧) وزاد نسبته لابـن المنـذر وابن أبي حاتم وابن عساكر.

وعن قتادة؛ قال: نزلت في زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أي: أنه لم يكن بابنه، ولعمـري لقـد ولـد لـه ذكور، وأنه لأبو القاسم وإبراهيم والطيب والمطهر.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦١٧) ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حميـد وابن أبي حاتم.

والذي في "تفسير" عبد الرزاق (٢/ ١١٨) عن معمر عـن قتـادة بنحـوه لـيس فيـه ذكر لسبب النزول، وعلى كل فهو مرسل.

* قوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ} [الأحزاب: ٤٠]، أي:"ما كان محمد أبًا لأحد من رجالكم".

قال الطبري: يقول:"ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثـة، ولا أبـا أحـد مـن رجالكم الذين لم يلده محمد؛ فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها".

قال الزمخشري:"أي: لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة، حتى يثبت به وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، وزيد واحد من رجالكم الـذين ليـسوا بـأولاده حقيقـة، فكـان حكمـه حكمكـم، والادعـاء والتبنـي مـن بـاب الاختصاص والتقريب لا غير".

قال ابن كثير:"نهى تعالى أن يقال بعد هذا: "زيد بن محمد" أي: لم يكن أباه وإن كان قد تبناه، فإنـه، صـلوات الله عليـه وسـلامه، لـم يعـش لـه ولـد ذكـر حتـى بلـغ الحلم؛ فإنه ولد له القاسم، والطيب، والطاهر، من خديجة فمـاتوا صـغارا، وولـد له إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضا رضيعا، وكان له من خديجة أربع بنات:

=

=

زينـب، ورقيـة، وأم كلثـوم، وفاطمـة، رَضِيَٱللَّهُعَنهُم أجمعـين، فمـات في حياتـه ثـلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به، صلوات الله وسلامه عليه، ثم ماتت بعده لستة أشهر".

قال عامر:"ما كان ليعيش له فيكم ولد ذَكر".

قـال قتـادة:"ولعمـري لقـد ولـد لـه ذكـور وإنـه لأبـو القاسـم وإبـراهيم والطيـب والمطهر".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠]، أي:"ولكنـه- ﷺ- رسول الله وخاتم النبيين، فلا نبوة بعده إلى يوم القيامة".

قال الطبـري: يقـول:"ولكنـه رسـول الله وخـاتم النبيـين، الـذي خـتم النبـوة فطبـع عليها، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة".

قـال الزمخـشري:"ولكـن كـان رسـول الله وكـل رسـول أبـو أمتـه فيمـا يرجـع إلـى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم. ووجوب الـشفقة والنـصيحة لهـم عليـه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وكان {خاتم النبيين}، يعنى: أنه لـو كـان له ولد بالغ مبلغ الرجال لكان نبيا ولـم يكن هو خاتم الأنبياء، كمـا يـروى أنـه قـال في إبراهيم حين توفى: «لو عاش لكان نبيا» ".

عن قتادة:"{ولكن رسول الله وخاتم النبيين}، قال: آخر نبي".

قال الحسن:"ختم الله النبيين بمحمد، وكان آخر مَن بُعِث".

عن جابر رضي الله، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكـان مـن دخلهـا فنظـر إليهـا قـال: مـا أحسنها! إلا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة فختم بي الأنبياء».

=

=

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي." قال: فشَقّ ذلك على الناس، قال: قال: "ولكن المبشرات". قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: "رؤيا الرجل المسلم، وهي جزء من أجزاء النبوة".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأحِلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون".

وعن العِرْباض بن سارية قال: قال النبي ﷺ: "إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنْجَدِل في طينته".

وعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي".

عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودّع، فقال: "أنا محمد النبي الأمي - ثلاثا - ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بي، وعُوفيتُ وعُوفيتْ أمتي؛ فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذُهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه".

قال ابن كثير عند تفسير الآية:"فهذه الآية نص فيأنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام

=

=

النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة.. فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل مَنِ ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله، سبحانه وتعالى، على يد الأسود العَنْسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي لب وفهم وحِجى أنهما كاذبان ضالان، لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب مَنْ جاء بها. وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} الآية [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا ما دامت الأرض والسموات".

=

=

وفي قراءة ابن مسعود: «ولكن نبيا ختم النبيين».

وقرئ: «وخاتم النبيين»، بكسر التاء.

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: ٤٠]، أي:"وكان الله بكل شيء من أعمالكم عليمًا، لا يخفى عليه شيء".

قال الطبري: يقول:"وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم لا يخفى عليه شيء".

قال محمد بن إسحاق:"أي: عليم بما يخفون".

قال سعيد بن جبير:"{عليم} يعني: عالما بها".

قال العثيمين: ثم قال الله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم}: {ما} نافية، وهل هي حجازية أو غير عاملة؟

الجواب: غير عاملة؛ لأن العمل لـ (كان) وليس لها، {ما كان محمد} يعني: رسول الله ﷺ {أبا أحد من رجالكم}، لم يقل: ما كان رسول الله. بل قال: {ما كان محمد} فتحدث عنه باعتباره شخصا من الناس، ثم قال بعد ذلك: {ولكن رسول الله}، فأثبت له الرسالة.

وقوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم}: {أبا} بالألف؛ لأنها خبر (كان)، قال رحمه الله: [{أبا أحد من رجالكم} فليس أبا زيد رضي الله عنه؛ أي: والده، فلا يحرم عليه التزوج بزوجته زينب].

قوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} تبنيا، وولادة أيضا؛ لأن أبناء الرسول ﷺ الثلاثة توفوا قبل أن يبلغوا الرجولة، كلهم توفوا وهم صغار، وقال بعض أهل العلم رحمهم الله: إن المراد: أبا أحد من رجالكم تبنيا؛ لأنه تعالى

=

=

قال: {من رجالكم}، فأضاف الرجال إليه، ولم يقل: أبا أحد من الرجال.

وعلى هذا فلا يكون في الآية دليل على أنه ليس أبا لأحد من الرجال نسبا وتبنيا، وهذا هو الأقرب: أن المراد: أبا أحد من رجالكم تبنيا؛ لأجل أن ينفي ما كان معروفا عندهم من أن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن لرسول ﷺ.

وقوله تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} تقدم فيما سبق في قوله تعالى: {وأزواجه أمهاتهم} أن بعض السلف قرأ: "وهو أب لهم" فكيف يجمع بينه وبين هذه الآية؟

الجمع بينهما أن يقال: هنا ليس أربا أحد من الرجال بالتبني، ولكنه أب للمؤمنين باعتبار التعليم والتوجيه والإرشاد.

وقوله سبحانه وتعالى: {ولكن رسول الله وخاتم النبيين}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولكن} كان {رسول الله}] أفاد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن {رسول الله} منصوبة بفعل محذوف تقديره: كان رسول الله.

وقوله تعالى: {رسول} بمعنى: مرسل، أي: مرسل الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده، {وخاتم النبيين} يعني: وكان خاتم النبيين، قال: [فلا يكون له ابن رجل بعده يكون نبيا] وهذا التفسير الذي ذهب إليه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فيه نظر؛ لأنه يقول: {وخاتم النبيين} إذن ليس له ولد بعده يكون رجلا فيكون نبيا، وهذا بناء على أنه يلزم أن يكون ابن نبي بعده نبيا، وهذا ليس بلازم، فإن بعض الأنبياء عليهم السلام ليس كلهم أولادهم أنبياء، صحيح أن كثيرا من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صار أولاده أنبياء كإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مثلا، ولكن لا يعني ذلك أن جميع الأنبياء عليهم السلام يلزم من كونهم أنبياء إذا خلفوا أولادا أن يكونوا أنبياء، ولكن معنى قوله تعالى: {وخاتم

=

=

النبيين} أنه لا نبي بعده، هذا معنى الآية التي لا يحتمل غيره.

وقوله تعالى: {وخاتم} فيها قراءتان إحداهما بالكسر والثانية بالفتح، وهي عندي في التفسير بالكسر "وخاتم النبيين" على أن (خاتم) اسم فاعل، يعني: الذي يختمهم، قال: [وفي قراءة بفتح التاء، كآلة الختم، أي: به ختموا] ففتح التاء {وخاتم} والخاتم ما يختم به الشيء، مثل الخاتم الذي يكون في الإصبع، وكتب عليه اسم صاحبه، فإذا أراد أن يختم الكتاب ختمه بهذا الخاتم، والنبي ﷺ خاتم وخاتم، فهو خاتم؛ لأنه آخرهم، وخاتم كأنه طبع على الرسالات، بعد ذلك فلا يمكن أن يأتي بعده رسالة، وهذه هي فائدة القراءتين.

وقوله تعالى: {وخاتم النبيين} هذا كما ترون في القرآن، وفي السنة أيضا أدلة كثيرة تدل على أنه خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا فلا نبي بعده.

فإن قلت: ألم يثبت أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل في آخر الزمان وهو نبي؟

فالجواب: بلى، ينزل وهو نبي، لكن نبوة عيسى عليه السلام لم تتجدد بعد، بل كان نبيا من قبل أن يرفع، ولم يتجدد له نبوة بعد نبوة النبي ﷺ، فكان النبي ﷺ خاتم الأنبياء، وهل يأتي عيسى عليه السلام بشريعة جديدة؟ لا.

فإن قلت: أليس يضع الجزية، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل إلا الإسلام؟

فالجواب: بلى! وهذه الأحكام مخالفة لحكم الشريعة الآن، فهل معنى ذلك بأنه يأتي بأحكام متجددة؟

الجواب: لا؛ لأن إخبار النبي ﷺ بذلك يكون إقرارا له، فيكون هذا من سنة الرسول ﷺ؛ لأنه من المعلوم أن سنة الرسول عليه الصلاة والسلام هي قوله

=

=

وفعله وإقراره، فإذا قال ذلك عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مقررا له صار ذلك من سنته، وحينئذ فلم يأت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنبوة جديدة، ولم يأت بتشريع جديد، ولا إشكال في ذلك.

وقوله تعالى: {وكان الله بكل شيء عليما}: (كان) هنا مسلوبة الزمان، وإنما يؤتى بها لتحقق الصفة، وهي العلم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكان الله بكل شيء عليما} منه بأن لا نبي بعده] يعني: من العلم الذي علمه الله تعالى أنه لا نبي بعده؛ ولهذا قال تعالى: {ولكن رسول الله وخاتم النبيين}.

وقوله تعالى: {بكل شيء عليما} يشمل حتى أعمال بني آدم؛ قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} [ق: ١٦]، قبل أن يعمله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وإذا نزل السيد عيسى يحكم بشريعتهم] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إذا نزل السيد] والله ما وصفه بهذا، ففي سورة آل عمران: {إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا} [آل عمران: ٤٦] قال: {وجيها} لكن ما قال: سيد.

وعلى كل حال: أنا أخشى أن هذه الكلمة دخلت على المصنف من عبارات النصارى؛ لأنهم دائما يقولون: السيد المسيح، السيد المسيح. ولا شك أنه سيد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه نبي من الأنبياء عليهم السلام.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [يحكم بشريعته] وحينئذ لا يأتي بشريعة جديدة، فلا ينافي الآية: {وخاتم النبيين}، وقد علمتم أنه يرد على قضية نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يرد عليها إيرادان:

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١).

{يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا}.

وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢).

{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَة وَأَصِيلًا} أَوَّل النَّهَار وَآخِره[1].

=

أولا: أنه نبي فكيف يكون نبيا والرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء عليهم السلام.

ثانيا: أنه يحصل به تغيير لبعض أحكام الشريعة، وأجبنا عن ذلك.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأحزاب: ٤١]، أي:"يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قال خيثمة: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين".

قوله تعالى: {اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا} [الأحزاب: ٤١]، أي:"اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْرًا كثيرًا".

قال الطبري: يقول:"اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا، فلا تخلو أبدانكم من ذكره في حال من أحوال طاقتكم ذلك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى، المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب، وجميل المآب".

=

=

قال السدي:"يعني: باللسان".

قال مقاتل:"باللسان، بالتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، وذكروه على كل حال".

قال يحيى: "وهذا ذكر ليس فيه وقت وهو تطوع".

قال ابن عباس:"يقول: لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله، قال: {فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال".

عن أبي الدرداء، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ " قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: "ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ".

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه، إلا رأوه حسرة يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤٢]، أي:"وسبحوا ربكم في الصباح والمساء".

قال الطبري: " يقول: صلوا له غدوة صلاة الصبح، وعشيا صلاة العصر".

قال ابن كثير:"أي: عند الصباح والمساء، كقوله: {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}

=

=

[الروم: ١٧، ١٨]".

عن قتادة، قوله: " {وسبحوه بكرة وأصيلا}، صلاة الغداة، وصلاة العصر".

قال مقاتل:"يقول: صلوا لله بكرة بالغداة وأصيلا بالعشى".

قال العثيمين: ثم قال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا} قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا} قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله تعالى يقول: {ياأيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه"، وإذا نادى الله تعالى المؤمنين بوصف الإيمان فإن هذا من باب الإغراء لهم على امتثال الأمر إن كان الموجه إليهم أمرا، وعلى اجتناب النهي إن كان الموجه إليهم نهيا؛ لأنك إذا ذكرت الإنسان بوصف يقتضي الامتثال فمعنى ذلك أنك تغريه بأن يمتثل، وإذا خاطب الله تعالى المؤمنين بوصف الإيمان كان ذلك دليلا على أنما ما خوطبوا به من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان، وإذا صدر الله تعالى الحكم بالنداء كان في ذلك دليل على أهميته والاعتناء به {ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا}.

والذكر كما سبق يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بالجوارح، وقوله تعالى: {ذكرا كثيرا} غير مقيد بمئة ولا مئتين ولا ألف ولا ألفين {ذكرا كثيرا}، والإنسان العاقل يمكنه أن يذكر الله تعالى دائما، والإنسان الغافل يغفل عن ذلك.

وقوله تعالى: {وسبحوه بكرة وأصيلا} هذا ذكر خاص بعد عام في العمل وفي الزمن، أما في العمل فإن التسبيح من الذكر فهو تخصيص بعد تعميم، وأما في الزمن فهنا خصه بالبكرة والأصيل.

=

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣).

{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ} أَيْ يَرْحَمكُمْ {وَمَلَائِكَته} يَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ {لِيُخْرِجكُمْ} لِيُدِيمَ إخْرَاجه إيَّاكُمْ {مِنْ الظُّلُمَات} أي الكفر {إلى النور} أي الإيمان {وكان بالمؤمنين رحيما}[1].

=

وأما الذكر فأطلق، وهذه الآية كقوله تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها} [طه: ١٣٠].

وقوله تعالى: {اذكروا الله ذكرا كثيرا (٤١) وسبحوه} التسبيح معناه: التنزيه عن كل نقص وعيب، ومن العيب مشابهة المخلوقين أو مماثلة المخلوقين، فأنت إذا قلت: سبحان الله. فالمعنى أنك تنزه الله تعالى عن كل نقص وعيب، ومنه -أي: من العيوب- مماثلة المخلوقين، فهو منزه عن مماثلة المخلوقين، وعن كل نقص في صفاته، فهو سميع منزه عن نقص السمع، عليم منزه عن نقص العلم، وهكذا بقية الصفات.

وقوله تعالى: {وسبحوه بكرة} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أول النهار وآخره] يعني: البكرة أول النهار، والأصيل آخر النهار، وعلى هذا فيكون الله عَزَّ وَجَلَّ قد أمرنا أن نسبحه الصباح والمساء.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن مجاهد؛ قال: لما نزلت: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}؛ قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! ما أنزل الله عليك خيرًا إلا أشركنا فيه؛ فنزلت: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ}.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٢٢)، و"لباب النقول" (ص ١٧٥) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ} [الأحزاب: ٤٣]، أي:"هو الذي يرحمكم ويثني عليكم وتدعو لكم ملائكته".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا إذا أنتم فعلتم ذلك، الذي يرحمكم، ويثني عليكم هو ويدعو لكم ملائكته. وقيل: إن معنى قوله: {يصلي عليكم وملائكته}: يشيع عنكم الذكر الجميل في عباد الله".

قال ابن عباس:"وقال: {وسبحوه بكرة وأصيلا} فإذا فعلتم ذلك؛ صلى عليكم هو وملائكته".

قال مقاتل:"يقول هو الذي يغفر لكم ويأمر الملائكة بالاستغفار لكم".

قال الزجاج:"صلاة الله على خلقه رحمته وهدايته إياهم".

قال أبو عبيدة:"أي يبارك عليكم قال الأعشى:

عَلَيْكِ مثل الذي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضي... نَومًا فإنَّ لِجَنْبِ المرءِ مُضْطَجعا

قال ابن قتيبة:"«الصلاة» من الله: الرحمة والمغفرة. قال الله تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي} [الأحزاب: ٥٦]. وقال: {هو الذي يصلي عليكم وملائكته} [الأحزاب: ٤٣] وقال: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة: ١٥٧] أي: مغفرة. وقال النبي، ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى». يريد: ارحمهم واغفر لهم".

قال أبو العالية:"صلاه الله: ثناؤه، وصلاة الملائكة عليهم: السلام الدعاء".

=

عن سعيد بن جبير، قوله: " {هو الذي يصلي عليكم وملائكته}، قال: يغفر لكم، وتستغفر لكم ملائكته".

قال ابن كثير:"قوله: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ}: هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذكرني في مَلأ ذكرته في ملأ خير منهم».

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة ورد بقوله: {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}.

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ} الآية. [غافر: ٧ - ٩]".

عن سفيان، "أنه سئل، عن قوله: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم قال: أكرم الله أمة محمد ﷺ فصلى عليهم

=

كما صلى على الأنبياء فقال: هو الذي يصلي عليكم وملائكته".

قوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الأحزاب: ٤٣]، أي:"ليخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الإسلام".

قال مجاهد:"يعني: من الضلالة إلى الهدى".

قال ابن زيد:"من الضلالة إلى الهدى، قال: والضلالة الظلمات، والنور: الهدى".

وعن الحسن:"أنه يعصم المؤمنين من الضلالة، وقال هو كقول الرجل: الحمد لله الذي نجاني من كذا وكذا لأمر لم ينزل به، صرفه الله عنه".

قال الطبري: " يقول: تدعو ملائكة الله لكم؛ فيخرجكم الله من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان".

قال مقاتل:"يعني: من الشرك إلى الإيمان".

قال ابن كثير:"أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبَصّرهم الطريق الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام. وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم".

عن أنس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني

=

=

ابني، وَسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفَّضهم رسول الله ﷺ وقال: "ولا الله، لا يلقي حبيبه في النار".

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: "أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟ " قالوا: لا. قال: "فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها".

قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]، أي:"وكان بالمؤمنين رحيمًا في الدنيا والآخرة، لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين له".

قال الطبري: يقول:"وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمة أن يعذبهم وهم له مطيعون، ولأمره متبعون".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

عن عطاء بن دينار: " {رحيم} بهم بعد التوبة".

(فائدة): قال الله - ﷻ -: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} [الأحزاب:٥٦]. والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا. فإذا كان مولانا - سبحانه وتعالى - في عظمته وكبريائه، وملائكته في أرضه وسمائه يصلون على النبي الأمي -صلى الله عليه وآله وسلم- إجلالا لقدره، وتعظيما لشأنه، وإظهارا لفضله، وإشارة إلى قربه من ربه، فما أحرانا

=

=

نحن المؤمنين أن نكثر من الصلاة والسلام عليه امتثالا لأمر الله - سبحانه وتعالى -، وقضاء لبعض حقه -صلى الله عليه وآله وسلم-؛ فقد أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، وهدانا به إلى الصراط المستقيم، وجعلنا به من خير الأمم، وفضلنا به على سائر الناس أجمعين، وكتب لنا به الرحمة التي وسعت كل شيء {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي} [الأعراف:١٥٦ - ١٥٧]. فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، والحمد لله أن جعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{هو الذي يصلي عليكم} أي: يرحمكم {وملائكته}؛ أي: يستغفرون لكم] فسر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة بالنسبة إلى الله تعالى: بالرحمة، وبالنسبة إلى الملائكة: بالاستغفار، فقال تعالى: {يصلي عليكم} يرحمكم، {وملائكته} يستغفرون لكم، وهذا فيه نظر، والصواب أن معنى {يصلي عليكم} أي: يثني عليكم في الملأ الأعلى، والملائكة أيضا يثنون عليكم، هذا هو معنى الصلاة من الله تعالى ومن الملائكة أيضا.

وقوله تعالى: {الذي يصلي عليكم وملائكته} فيها إشكال من حيث الإعراب فقوله تعالى: {وملائكته} مرفوعة، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وإن على ضمر رفع متصل ... عطفت فافصل بالضمير المنفصل

أو فاصل ما...... ....

وهنا لم يأت بالضمير، وما قال: (هو الذي يصلي عليكم هو وملائكته)، أو فاصل ما، وهذا داخل في قوله: (أو فاصل ما) والفاصل هنا هو الجار والمجرور؛

=

=

ولذلك إذا قلت: قمت وزيد. هذا ضعيف، والأرجح منه أن تقول: قمت وزيدا. على أنها مفعول معه، أما إذا فصلت فقلت: قمت أنا وزيد. أو قمت في الناس خطيبا وزيد. وفصلت، فهذا لا بأس به، وهنا فصل بالجار والمجرور.

وقوله تعالى: {يصلي عليكم وملائكته} أضاف الله تعالى الملائكة إليه من باب التشريف لهم؛ لأنهم ملائكته، وهم أيضا مخلوقون له، والملائكة كما تقدم هم عالم غيبي خلقهم الله تبارك وتعالى من نور، {يسبحون الليل والنهار لا يفترون} [الأنبياء: ٢٠]، {لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون} [التحريم: ٦].

وهل يمكن أن يكونوا من عالم الشهادة؟

نعم، كما جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى مريم عليها السلام: {فتمثل لها بشرا سويا} [مريم: ١٧]، وجاء إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان في صورة رجل؛ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه أحد من الصحابة، وكما جاء في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه، وغير ذلك، لكن الأصل أنهم عالم غيبي.

ولهم أجساد، ولا جسد إلا بروح، فلهم أجساد وأرواح؛ ولهذا سمى الله تعالى جبريل عليه السلام روحا، ورآه النبي عليه الصلاة والسلام على خلقته مرتين، وله ست مئة جناح قد سد الأفق.

وقوله تبارك وتعالى: {وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور} اللام في قوله تعالى: {ليخرجكم} للتعليل، قال المصنف رحمه الله: [ليديم إخراجه إياكم] إنما صرف اللفظ إلى معنى الإدامة؛ لأنه يخاطب المؤمنين، وإذا كان يخاطب المؤمنين فإنهم قد أخرجوا من الظلمات إلى النور من الأصل، ولكن قد يقال:

=

=

إنه لا حاجة إلى هذا التأويل، وأن معنى قوله تعالى: {ليخرجكم} أي: ليزيدكم علما وإيمانا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ليخرجكم من الظلمات}؛ أي: الكفر، {إلى النور}؛ أي: الإيمان]، لا شك أن الكفر ظلمات، كما قال الله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: ١٣]، ولا شك أيضا أن الإيمان نور، ولكن الآية أعم مما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو قال: ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، فيكون المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قصر أو تقاصر في تفسيره للآية، والصواب أنه يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

قال الله سبحانه وتعالى: {وكان بالمؤمنين رحيما}: (كان) يعني: الله عَزَّ وَجَلَّ {بالمؤمنين رحيما}: {بالمؤمنين} جار ومجرور متعلق بـ {رحيما} قدم عليه للحصر؛ لأن هذه الرحمة رحمة خاصة للمؤمنين، تقتضي العناية بهم وتوفيقهم وهدايتهم إلى الخير، وأما الرحمة العامة فهي للمؤمنين وغير المؤمنين، لكن الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط.

* مسائل في الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المسألة الأولى: معنى الصلاة والسلام على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

معنى الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند جمهور العلماء هو أنها: من الله تعالى: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء، وذهب آخرون - ومنهم أبو العالية من المتقدمين، وابن القيم من المتأخرين، والعثيمين من المعاصرين - إلى أن معنى "الصلاة على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" هو الثناء عليه في الملأ الأعلى، ويكون دعاء الملائكة ودعاء المسلمين بالصلاة عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يثني الله تعالى عليه في

=

=

الملأ الأعلى، وقد ألف ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - كتابا في هذه المسألة، سماه " جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام، قال العلامة ابن القيم فيه في معرض الكلام على صلاة الله وملائكته على رسوله ﷺ: وأمر عباده المؤمنين بأن يصلوا عليه بعد أن رد أن يكون المعنى الرحمة والاستغفار قال: بل الصلاة المأمور بها فيها - يعني آية الأحزاب - هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه فهي تتضمن الخبر والطلب وسمى هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين أحدهما أنه يتضمن ثناء المصلى عليه والإشادة بذكر شرفه وفضله والإرادة والمحبة لذلك من الله فقد تضمنت الخبر والطلب والوجه الثاني أن ذلك سمى صلاة منا لسؤالنا من الله أن يصلي عليه فصلاة الله ثناؤه لرفع ذكره وتقريبه وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به" انتهى. وقد توسع في بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ، وأحكامها، وفوائدها العلامة ابن القيم في هذا الكتاب، فلينظره من أراد التوسع.

قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: " قوله: " صل على محمد " قيل: إن الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء.

فإذا قيل: صلت عليه الملائكة، يعني: استغفرت له. وإذا قيل: صلى عليه الخطيب، يعني: دعا له بالصلاة.

وإذا قيل: صلى عليه الله، يعني: رحمه. وهذا مشهور بين أهل العلم، لكن الصحيح خلاف ذلك، أن الصلاة أخص من الرحمة، ولذا أجمع المسلمون على جواز الدعاء بالرحمة لكل مؤمن، واختلفوا: هل يصلى على غير الأنبياء؟ ولو

=

=

كانت الصلاة بمعنى الرحمة لم يكن بينهما فرق، فكما ندعو لفلان بالرحمة نصلي عليه. وأيضا: فقد قال الله تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) البقرة١٥٧، فعطف " الرحمة " على " الصلوات " والعطف يقتضي المغايرة فتبين بدلالة الآية الكريمة، واستعمال العلماء رحمهم الله للصلاة في موضع والرحمة في موضع: أن الصلاة ليست هي الرحمة. وأحسن ما قيل فيها: ما ذكره أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ أن صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى. فمعنى " اللهم صل عليه " أي: أثن عليه في الملأ الأعلى، أي: عند الملائكة المقربين. فإذا قال قائل: هذا بعيد من اشتقاق اللفظ؛ لأن الصلاة في اللغة الدعاء وليست الثناء: فالجواب على هذا: أن الصلاة أيضا من الصلة، ولا شك أن الثناء على رسول الله ﷺ في الملأ الأعلى من أعظم الصلات؛ لأن الثناء قد يكون أحيانا عند الإنسان أهم من كل حال، فالذكرى الحسنة صلة عظيمة. وعلى هذا فالقول الراجح: أن الصلاة عليه تعني: الثناء عليه في الملأ الأعلى انتهى من الشرح الممتع (٣/ ١٦٣، ١٦٤).

ثانيا: وأما معنى " السلام عليه ﷺ ": فهو الدعاء بسلامة بدنه – في حال حياته –، وسلامة دينه ﷺ، وسلامة بدنه في قبره، وسلامته يوم القيامة، قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: " السلام عليك ": " السلام " قيل: إن المراد بالسلام: اسم الله؛ لأن النبي ﷺ قال: " إن الله هو السلام " كما قال الله تعالى في كتابه: (الملك القدوس السلام) الحشر/ ٢٣، وبناء على هذا القول يكون المعنى: أن الله على الرسول ﷺ بالحفظ والكلاءة والعناية وغير ذلك، فكأننا نقول: الله عليك، أي: رقيب حافظ معتن بك، وما أشبه ذلك. وقيل: السلام: اسم مصدر سلم بمعنى

=

=

التسليم، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) الأحزاب/ ٥٦ فمعنى التسليم على الرسول ﷺ: أننا ندعو له بالسلامة من كل آفة. إذا قال قائل: قد يكون هذا الدعاء في حياته عليه الصلاة والسلام واضحا، لكن بعد مماته كيف ندعو له بالسلامة وقد مات ﷺ؟

فالجواب: ليس الدعاء بالسلامة مقصورا في حال الحياة، فهناك أهوال يوم القيامة، ولهذا كان دعاء الرسل إذا عبر الناس على الصراط: " اللهم سلم سلم "، فلا ينتهي المرء من المخاوف والآفات بمجرد موته. إذا؛ ندعو للرسول ﷺ بالسلامة من هول الموقف. ونقول - أيضا -: قد يكون بمعنى أعم، أي: أن السلام عليه يشمل السلام على شرعه وسنته، وسلامتها من أن تنالها أيدي العابثين؛ كما قال العلماء في قوله تعالى: (فردوه إلى الله والرسول) النساء/ ٥٩، قالوا: إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته. وقوله: " السلام عليك " هل هو خبر أو دعاء؟ يعني: هل أنت تخبر بأن الرسول مسلم، أو تدعو بأن الله يسلمه؟

الجواب: هو دعاء تدعو بأن الله يسلمه، فهو خبر بمعنى الدعاء. ثم هل هذا خطاب للرسول عليه الصلاة والسلام كخطاب الناس بعضهم بعضا؟.

الجواب: لا، لو كان كذلك لبطلت الصلاة به؛ لأن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الآدميين؛ ولأنه لو كان كذلك لجهر به الصحابة حتى يسمع النبي ﷺ، ولرد عليهم السلام كما كان كذلك عند ملاقاتهم إياه، ولكن كما قال شيخ الإسلام في كتاب " اقتضاء الصراط المستقيم ": لقوة استحضارك للرسول عليه الصلاة والسلام حين السلام عليه، كأنه أمامك تخاطبه.

ولهذا كان الصحابة يقولون: السلام عليك، وهو لا يسمعهم، ويقولون: السلام

=

=

عليك، وهم في بلد وهو في بلد آخر، ونحن نقول: السلام عليك، ونحن في بلد غير بلده، وفي عصر غير عصره. انتهى من الشرح الممتع " (٣/ ١٤٩، ١٥٠).

المسألة الثانية: كيفية الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

هذه الصلاة تؤدى بأية صيغة كانت، وأفضلها ـ كما قال كثير من العلماء ـ هي الصلاة الإبراهيمية التي تقال بعد التشهد الأخير في الصلاة؛ لأن الأحاديث الصحيحة وردت في أنها هي التي علمها النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– لأصحابه، وهاك بعض الأحاديث الواردة في كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم: وقد ذكر المصنف بعضها هنا.

وذكر العلامة الألباني – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – ما ثبت من صيغ الصلاة علي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه صفة صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

١ – «اللهم صل على محمد وعلى أهل بيته وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل بيته وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد» (رواه أحمد والطحاوي بسند صحيح) قال الشيخ الألباني: وهذا كان يدعو به هو نفسه صلى الله عليه وآله وسلم.

٢– «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم وعلى آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد» (رواه البخاري ومسلم).

٣– «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على

=

=

إبراهيم وآل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد» (رواه أحمد والنسائي وأبو يعلى)

٤- «اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد» (رواه مسلم وأبو عوانة)

٥- «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد عبدك ورسولك وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» (رواه البخاري والنسائي والطحاوي وأحمد)

٦- «اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد» (رواه البخاري ومسلم)

٧- «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم؛ إنك حميد مجيد» (رواه النسائي والطحاوي) انتهى.

وقد درج السلف الصالح ومنهم المحدثون بذكر الصلاة والسلام عليه ﷺ عند ذكره بصيغتين مختصرتين إحداهما (ﷺ) والثانية (عليه الصلاة والسلام) وهاتان الصيغتان قد امتلأت بهما ولله الحمد كتب الحديث بل إنهم يدونون في مؤلفاتهم الوصايا بالمحافظة على ذلك على الوجه الأكمل من الجمع بين الصلاة والتسليم عليه ﷺ. يقول الإمام ابن الصلاح في كتابه علوم الحديث: ينبغي له - يعني كاتب الحديث - أن يحافظ على كتبة الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ عند ذكره ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكرره فإن ذلك من أكبر

=

=

الفوائد التي يتعجلها طلبة الحديث وكتبته ومن أغفل ذلك حرم حظا عظيما - إلى أن قال -: وليتجنب في إثباتها نقصين: أحدهما أن يكتبها منقوصة صورة رامزا إليها بحرفين أو نحو ذلك والثاني أن يكتبها منقوصة معنى بأن لا يكتب (وسلم) وإن وجد ذلك في خط بعض المتقدمين انتهى محل الغرض منه.

وقال النووي في كتاب الأذكار: إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ولا يقتصر على أحدهما فلا يقل (صلى الله عليه) فقط ولا (عليه السلام) فقط انتهى.

وقد نقل هذا عنه ابن كثير في ختام تفسيره آية الأحزاب من كتاب التفسير ثم قال ابن كثير: وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله: {يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} فالأولى أن يقال: ﷺ تسليما. انتهى.

وقال الفيروزبادي في كتابه الصلات والبشر: ولا ينبغي أن ترمز للصلاة كما يفعله بعض الكسالى والجهلة وعوام الطلبة فيكتبون صورة (صلعم) بدلا من ﷺ.

وقال العلامة ابن بن باز في مجموع فتاواه (٢/ ٣٩٧ - ٣٩٩):... وبما أن الصلاة على النبي - ﷺ - مشروعة في الصلوات في التشهد، ومشروعة في الخطب والأدعية والاستغفار، وبعد الأذان، وعند دخول المسجد، والخروج منه، وعند ذكره، وفي مواضع أخرى، فهي تتأكد عند كتابة اسمه في كتاب، أو مؤلف، أو رسالة، أو مقال، أو نحو ذلك.

والمشروع أن تكتب كاملة تحقيقا لما أمرنا الله تعالى به، وليتذكرها القارئ عند مروره عليها، ولا ينبغي عند الكتابة الاقتصار في الصلاة على رسول الله على كلمة (ص) أو (صلعم) وما أشبهها من الرموز التي قد يستعملها بعض الكتبة

=

=

والمؤلفين؛ لما في ذلك من مخالفة أمر الله – سبحانه وتعالى – في كتابه العزيز بقوله: {صلوا عليه وسلموا تسليما} (الأحزاب:٥٦). مع أنه لا يتم بها المقصود وتنعدم الأفضلية الموجودة في كتابة (ﷺ) كاملة. وقد لا ينتبه لها القارئ أو لا يفهم المراد بها، علما بأن الرمز لها قد كرهه أهل العلم وحذروا منه.

فقد قال ابن الصلاح في كتابه علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح في النوع الخامس والعشرين من كتابه: " في كتابة الحديث وكيفية ضبط الكتاب وتقييده " قال ما نصه:

التاسع: أن يحافظ على كتابة الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ عند ذكره، ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكرره فإن ذلك من أكبر الفوائد التي يتعجلها طلبة الحديث وكتبته، ومن أغفل ذلك فقد حرم حظا عظيما. وقد رأينا لأهل ذلك منامات صالحة، وما يكتبه من ذلك فهو دعاء يثبته لا كلام يرويه فلذلك لا يتقيد فيه بالرواية. ولا يقتصر فيه على ما في الأصل.

وهكذا الأمر في الثناء على الله سبحانه عند ذكر اسمه نحو ﷻ وتبارك وتعالى، وما ضاهى ذلك، إلى أن قال: (ثم ليتجنب في إثباتها نقصين: أحدهما: أن يكتبها منقوصة صورة رامزا إليها بحرفين أو نحو ذلك، والثاني: أن يكتبها منقوصة معنى بألا يكتب (وسلم).

وروي عن حمزة الكناني رحمه الله تعالى أنه كان يقول: كنت أكتب الحديث، وكنت أكتب عند ذكر النبي (صلى الله عليه) ولا أكتب (وسلم) فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: ما لك لا تتم الصلاة علي؟ قال: فما كتبت بعد ذلك (صلى الله عليه) إلا كتبت (وسلم)... إلى أن قال ابن الصلاح: قلت: ويكره أيضا

=

=

الاقتصار على قوله: (عليه السلام) والله أعلم. انتهى المقصود من كلامه رحمه الله تعالى ملخصا.

وقال العلامة السخاوي رحمه الله تعالى في كتابه " فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي " ما نصه: (واجتنب أيها الكاتب (الرمز لها) أي الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ في خطك بأن تقتصر منها على حرفين ونحو ذلك فتكون منقوصة - صورة - كما يفعله (الكتاني) والجهلة من أبناء العجم غالبا وعوام الطلبة، فيكتبون بدلا من ﷺ (ص) أو (صم) أو (صلعم) فذلك لما فيه من نقص الأجر لنقص الكتابة خلاف الأولى).

وقال السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه " تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ": (ويكره الاقتصار على الصلاة أو التسليم هنا وفي كل موضع شرعت فيه الصلاة كما في شرح مسلم وغيره لقوله تعالى: (صلوا عليه وسلموا تسليما) إلى أن قال: ويكره الرمز إليهما في الكتابة بحرف أو حرفين كمن يكتب (صلعم) بل يكتبهما بكمالها) انتهى المقصود من كلامه رحمه الله تعالى ملخصا.

هذا ووصيتي لكل مسلم وقارئ وكاتب أن يلتمس الأفضل ويبحث عما فيه زيادة أجره وثوابه ويبتعد عما يبطله أو ينقصه. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه رضاه، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

المسألة الثالثة: ذكر مواطن الصلاة المقيدة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

١- في الصلاة في آخر التشهد: وقد أجمع المسلمون على مشروعية الصلاة على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في هذا الموضع واختلفوا في وجوبها فيه.

=

=

وقد استدل من قال بوجوب الصلاة على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (سمع رجلا يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «عجل هذا» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه ـ جل وعز ـ والثناء عليه ثم يصلي على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ثم يدعو بعد بما شاء) وفي رواية (وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا يصلي فمجد الله وحمده وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ادع تجب وسل تعط) أخرجه أحمد (٦/ ١٨، رقم ٢٣٩٨٢)، وأبو داود (٢/ ٧٧، رقم ١٤٨١)، والترمذى (٥/ ٥١٧، رقم ٣٤٧٧) وابن السنى فى (ص ٥٣، رقم ١١١)، وابن خزيمة (١/ ٣٥١، رقم ٧٠٩)، وابن حبان (٥/ ٢٩٠، رقم ١٩٦٠)، والطبرانى في الكبير (١٨/ ٣٠٧، رقم ٧٩١)، والحاكم (١/ ٣٥٤، رقم ٨٤٠). والبيهقى في الكبرى (٢/ ١٤٧، رقم ٢٦٧٦). والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى، وصححه العلامة الألباني في أصل صفة الصلاة (٣/ ٩٩٠)، وصححه العلامة ابن باز في تعليقه على بلوغ المرام (٢٣٥) وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٠٦٨)، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٢): إسناده حسن.

٢- في صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية: لحديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أن السنة في الصلاة على الجنازة

=

=

أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم...) أخرجه النسائي في المجتبى (٤/ ٧٥)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (٩٤)، وابن حزم في المحلى (٥/ ١٢٩) والحديث صححه ابن حزم في المحلى (١٠/ ٩٥ - ٩٦)، وقال عنه النووي في الخلاصة (٢/ ٩٧٥): رواه النسائي بإسناد على شرط الصحيحين، وصححه الحافظ في الفتح (٣/ ١٦٤)، وصححه العلامة الألباني في أحكام الجنائز (ص١١١).

٣- يوم الجمعة: فعن أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة؛ فأكثروا علي من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة علي قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ ـ يقولون: بليت ـ فقال: «إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ حرم على الأرض أجساد الأنبياء) أخرجه أحمد (٤/ ٨، رقم ١٦٢٠٧)، وابن أبى شيبة (٢/ ٢٥٣، رقم ٨٦٩٧)، وأبو داود (١/ ٢٧٥، رقم ١٠٤٧)، والنسائى (٣/ ٩١، رقم ١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والدارمى (١/ ٤٤٥، رقم ١٥٧٢)، وابن خزيمة (٣/ ١١٨، رقم ١٧٣٣)، وابن حبان (٣/ ١٩١، رقم ٩١٠)، والحاكم (١/ ٤١٣، رقم ١٠٢٩)، والطبرانى (١/ ٢١٦، رقم ٥٨٩)، والبيهقى (١/ ٥١٩، رقم ١٦٦٦) والحديث ذكره ابن أبي حاتم في العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر، وقال عنه الحافظ المنذري في الترغيب: وله علة دقيقة امتاز إليها البخاري وغيره ليس هذا موضعها وقد جمعت طرقه في جزء، قلت يبدوا أن هذه العلة غير قادحة فقد صحح الحديث

=

=

كثير من الأئمة فقد سكت عنه أبو داود فهو عنده على أقل الأحوال صالح للإعتبار، وصححه النووي في كثير من مصنفاته مثل المجموع والرياض، وقال ابن تيمية في الإخنائية له شواهد، وقال ابن القيم في تهذيب السنن غلط في هذا الحديث فريقان فريق في لفظه وفريق في تضعيفه، وقال ابن كثير في تفسيره: صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، وقال ابن حجر في التلخيص له شاهد، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١٥٢٧)، وقال الحويني في رسالتان في فضل الصلاة على النبي ﷺ (٢٧): حديث صحيح ، وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٣).

٤- بعد سماع الأذان: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم - يقول (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة) رواه مسلم.

(تنبيه): هذا أمر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة عليه بعد الأذان، وهذا عام يشمل المؤذن وغيره؛ قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي» وكلمة (ثم) فيها دليل على أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليست من ألفاظ الأذان؛ لأن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تكون بعد ترديد ما يقوله المؤذن، فدل ذلك على أن المؤذن لا يرفع الصوت بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله

=

=

وسلم بعد الأذان. فهل كان بلال أو ابن أم مكتوم وكل من أذن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم و رضي الله عنهم يفعلون ما يفعله بعض المؤذنين في هذا الزمان من رفع الصوت بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد الأذان؟ وهل فعل ذلك في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم الذين أمرنا بالاقتداء بسنتهم وكذلك في عهد الأئمة الأربعة وأتباع التابعين أو أحد القرون الثلاثة المفضلة؟ اللهم لا. ومن قال بخلاف هذا فقد افترى على الإسلام ودعاته الأوائل. وهل يوجد في صفة الأذان في أي كتاب من كتب الفقه والحديث المعتمدة ما أحدثه المؤذنون من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المنائر بعد الأذان؟ اللهم إنه لا يوجد حتى في كتب الفقهاء المتأخرين.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد) (متفق عليه). وكل بدعة في الدين ضلالة في النار. فكل ما لم يرد فعله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا خلفائه الراشدين فهو مردود على صاحبه كائنا من كان. ولا توجد في الإسلام بدعة حسنة وأخرى سيئة.

فالجهر بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عقب الأذان غير مشروع.

٥- في كل مجلس: فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة؛ فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦١، رقم ٣٣٨٠)، و الحاكم (١/ ٤٩٦)، و إسماعيل القاضي في" فضل الصلاة على النبي ﷺ (رقم ٥٤)، وابن السني في عمل اليوم و الليلة (رقم ٤٤٣)، و أحمد

=

=

(٢/ ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٩٥)، الطيالسي (٢٣١١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٠) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وحسنه البغوي في شرح السنة (٣/ ٧٣)، وصححه ابن العربي في العارضة (٧/ ٩)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (٧٤)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (١٥/ ٥٢٤): صحيح وهذا إسناد حسن رجاله ثقات رجال الشيخين غير صالح مولى التوأمة.

٦- عند ذكره صلى الله عليه وآله وسلم: فعن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي) أخرجه أخرجه أحمد (١/ ٢٠١، رقم ١٧٣٦)، والنسائى فى الكبرى (٥/ ٣٤، رقم ٨١٠٠)، والترمذى (٥/ ٥٥١، رقم ٣٥٤٦)، وأبو يعلى (١٢/ ١٤٧، رقم ٦٧٧٦)، وابن حبان (٣/ ١٨٩، رقم ٩٠٩)، والطبرانى (٣/ ١٢٧، رقم ٢٨٨٥)، والحاكم (١/ ٧٣٤، رقم ٢٠١٥)، والبيهقى فى الشعب (٢/ ٢١٣، رقم ١٥٦٦)، والضياء في المختارة (٢/ ٤٦، رقم ٤٢٤) والحديث قال عنه الترمذى: حديث حسن صحيح، وصححه ابن حبان، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحافظ فى " الفتح (١١/ ١٦٨): لا يقصر عن درجة الحسن، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح وقال الأرنؤوط: إسناده قوي، وقال العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٢): إسناده حسن، وقال العلامة الألباني في الإرواء حديث رقم (٥): رجاله ثقات معروفون غير عبد الله بن على حفيد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد وثقه ابن حبان وحده وروى عنه جماعة وقد اختلف عليه في إسناده على وجوه خرجها إسماعيل القاضي لكن الحديث

=

=

صحيح فإن له شاهدين ": أحدهما عن أبى ذر والاخر عن الحسن البصري مرسلا بسند صحيح عنه. أخرجهما القاضى. وله شاهد ثالث أورده الفيروز أبادي في " الرد على المعترضين على ابن عربي " (ق ٣٩/ ١) من رواية النسائي عن أنس ثم قال: " وهذا حديث صحيح ".

٧- عند دخول المسجد والخروج منه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم ليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك، فإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك) أخرجه أبو داود (٤٦٥) وغيره وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود.

وعن فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم قالت (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد يقول بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج قال بسم الله والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٢ رقم ٢٦٤٥٩)، والترمذي (٢/ ١٢٧ رقم ٣١٤)، وابن ماجة (١/ ٢٥٣ رقم ٧٧١)، وأبو يعلى (١٢/ ١٩٩ رقم ٦٨٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٤ رقم ١٠٤٤) والحديث منقطع كما قال الترمذي ولكن له شواهد لذا صححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٤٧١٤/ ١) وقال الأرنؤوط في تحقيق المسند: صحيح لغيره دون قوله: " اللهم اغفر لي ذنوبي " فحسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم وليقل: اللهم

=

=

افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليقل اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم) أخرجه النسائى فى الكبرى (٦/ ٢٧، رقم ٩٩١٨)، وابن ماجه (١/ ٢٥٤، رقم ٧٧٣)، وابن خزيمة (١/ ٢٣١، رقم ٤٥٢)، وابن حبان (٥/ ٣٩٩، رقم ٢٠٥٠)، وابن السنى في عمل اليوم والليلة (ص ٤٣، رقم ٨٥)، والحاكم (١/ ٣٢٥، رقم ٧٤٧)، والبيهقى (٢/ ٤٤٢، رقم ٤١١٩). والحديث صححه ابن خزيمة وابن حبان وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبى وقال البوصيرى في مصباح الزجاجة (١/ ٩٧): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات وقال الحافظ فى النتائج (١/ ٢٧٩): قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ورجال هذا الحديث من رجال الصحيح لكن أعله النسائى قال النسائى: ابن أبى ذئب أثبت عندنا من الضحاك بن عثمان ومن محمد بن عجلان وحديثه أولى بالصواب، قال الحافظ: رواية ابن عجلان أخرجها عبد الرازق وابن أبى شيبة وأخرجه عبد الرازق عن أبى معشر عن سعيد المقبرى أن كعبا قال لأبى هريرة فذكره، فهؤلاء الثلاثة خالفوا الضحاك فى رفعه وزاد ابن أبى ذئب فى السند راويا، و خفيت هذه العلة على من صحح الحديث من طريق الضحاك و فى الجملة هو حسن لشواهده، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٥١٤)، وخرجه الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة (رقم ٤٦٥) وقال: هذا لحديث ظاهره الحسن، وقد كنت كتبته في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" ولكن ثم ذكر مثل كلام الحافظ المتقدم.

٨- عند الدعاء: قال صلى الله عليه وآله وسلم (كل دعاء محجوب حتى يصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم) روي عن عدة من الصحابة وقال عنه

=

=

العلامة الألباني في الصحيحة (٢٠٣٥): وخلاصة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق و الشواهد لا ينزل عن مرتبة الحسن إن شاء الله تعالى على أقل الأحوال.

وعن عبد الله بن أبي بكر قال: كنا بالخيف ومعنا عبد الله ابن أبي عتبة فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ودعا بدعوات ثم قام فصلى بنا) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٩٠) وصححه العلامة الألباني.

(تنبيه) يمكن تقسيم الدعاء في الشرع إلى قسمين، قسم مطلق وقسم مقيد.

أما المطلق: فهو الذي رغب الشرع بإنشائه من العبد، كالدعاء في ثلث الليل الآخر، والدعاء بين الأذان والإقامة، والدعاء في عرفة، وما شابه ذلك.

وأما المقيد: فهو الدعاء الذي يقال عند دخول مكان أو خروج منه أو عند حدوث شيء أو ما شابه ذلك، كالدعاء عند دخول الخلاء والخروج منه، والدعاء عند هبوب الريح وغير ذلك.

أما الأول وهو المطلق: فهو الذي يتأكد فيه الصلاة على النبي ﷺ، ويكون فيه أيضا الثناء على الله ﷻ.

ومراتب الصلاة على النبي ﷺ عند الدعاء قد ذكرها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جلاء الأفهام (ص ٣٧٥) فقال:

إحداها: أن يصلي عليه قبل الدعاء وبعد حمد الله تعالى.

والمرتبة الثانية: أن يصلي عليه في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

والثالثة: أن يصلي عليه في أوله وآخره ويجعل حاجته متوسطة بينهما. "

=

=

وأما الحكمة من جعل الصلاة على النبي ﷺ في الدعاء فقد قال شيخ الإسلام رحمه الله عن ذلك: الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها، والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع قال الله تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} [الأحزاب / ٥٦] مجموع الفتاوى (١/ ٣٤٧).

وقال ابن القيم: وهذه المواطن التي تقدمت كلها شرعت الصلاة على النبي ﷺ فيها أمام الدعاء، فمفتاح الدعاء الصلاة على النبي ﷺ كما أن مفتاح الصلاة الطهور فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما." جلاء الأفهام " (ص ٣٧٧)..

وأما النوع المقيد من الأدعية فليس فيه الصلاة على النبي ﷺ، إلا ما جاء في بعضها كدعاء دخول المسجد وبعد الأذان كما سيأتي نصها.

وقد علم النبي ﷺ أمته أدعية مخصوصة مقيدة في أوقات معلومة أو بعد أفعال مخصوصة ليس فيها الصلاة والسلام عليه ﷺ، فلا يشرع فيها الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، لأن الأذكار الواردة عن النبي ﷺ كاملة من كل وجه، والأصل فيها التوقيف،

لذا كان هذا هو هدي السلف في هذه الباب، لذلك أنكر بعض الصحابة على من زاد على المشروع؛ فعن نافع أن رجلا عطس إلى جنب ابن عمر رضي الله عنهما، فقال: الحمد لله، والسلام على رسول الله. قال ابن عمر: " وأنا أقول: الحمد لله، والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ؛ علمنا أن نقول: الحمد لله على كل حال " رواه الترمذي (٢٧٣٨) وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي. وقال ابن القيم رحمه الله في جلاء الأفهام (١/ ٤٢٤): " والصلاة

=

=

على رسول الله ﷺ وإن كانت من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى، فلكل ذكر موطن يخصه لا يقوم غيره مقامه فيه، قالوا ولهذا لا تشرع الصلاة عليه في الركوع ولا السجود ولا قيام الاعتدال من الركوع " انتهى.

٩- في القنوت: عن قتادة عن عبد الله بن الحارث (أن أبا حليمة معاذ رضي الله عنه كان يصلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القنوت) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١٠٧) وصححه العلامة الألباني.

١٠ - بين تكبيرات العيد: عن علقمة، أن ابن مسعود وأبا موسى، وحذيفة - رضي الله عنهم -، خرج عليهم الوليد بن عقبة قبل العيد يوما، فقال لهم: «إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه؟» قال عبد الله: «تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بالصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، ثم تدعو أو تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، ثم تدعو وتكبر الله، وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن) أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (٨٨) وصححه العلامة الألباني. وقد توسع العلامة ابن القيم في جلاء الأفهام (ص٣٢٧ - ٤٤٢) في هذه المواطن فأوصلها إلى واحد وأربعين موطنا ولكن فيها مواضع كثيرة لا تصح.

المسألة الرابعة: هل يستحب لمن أراد أن يقيم الصلاة أن يصلي على النبي ﷺ

=

=

قبل أن يشرع في الإقامة؟ قال بذلك بعض متأخري فقهاء الشافعية، فقرره زين الدين بن عبد العزيز المليباري (ت٩٨٧هـ) في كتابه "فتح المعين" (١/ ٢٨٠) ونسبه للنووي في شرح الوسيط. وجاء في "إعانة الطالبين" (١/ ٢٨٠) للسيد البكري الدمياطي (ت بعد ١٣٠٢هـ) قوله: " وتسن الصلاة على النبي ﷺ قبلهما: أي الأذان والإقامة " انتهى.

ولكن نقل الشيخ علي الشبراملسي (ت١٠٨٧هـ) من فقهاء الشافعية في حاشيته على "نهاية المحتاج" (١/ ٤٣٢) عن بعضهم نفي نسبة القول للنووي، وأنه سبق قلم وقع في شرح الوسيط، والصحيح "بعد الإقامة" وليس "قبل الإقامة".

ويمكن أن يستدل لهذا القول بحديث يرويه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٨/ ٣٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان بلال إذا أراد أن يقيم الصلاة قال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، الصلاة رحمك الله)

لكن في سنده راو اسمه عبد الله بن محمد بن المغيرة ضعيف جدا، يروي المنكرات والموضوعات، جاء في ترجمته في "لسان الميزان" (٣/ ٣٣٢): " قال أبو حاتم: ليس بقوي. وقال ابن يونس: منكر الحديث. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. قال النسائي: روى عن الثوري ومالك بن مغول أحاديث كانا أتقى لله من أن يحدثا بها. ذكره العقيلي في الضعفاء فقال: يحدث بما لا أصل له " انتهى. لذلك حكم العلامة الألباني رحمه الله على حديثه هذا بالكذب والوضع - كما في "السلسلة الضعيفة" (٨٩١) - ثم قال: " وهذا الحديث كأنه الأصل لتلك البدعة الفاشية التي رأيناها في حلب وإدلب وغيرها من بلاد الشمال، وهي الصلاة والسلام على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم جهرا قبيل الإقامة،

=

=

وهي كالبدعة الأخرى، وهي الجهر بها عقب الأذان كما بينه العلماء المحققون. على أن الظاهر من الحديث - لو صح - أن بلالا كان يدخل على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو في حجرته ليخبره بأنه يريد أن يقيم حتى يخرج عليه الصلاة والسلام فيقيم بلال، أو لعله لا يسمع الإقامة فيخبر بها " انتهى.

فالصحيح أنه لا يستحب الصلاة على النبي ﷺ قبل الإقامة - كما جرت به العادة في بعض البلاد - لعدم ثبوت ذلك عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه، وهي إلى البدعة أقرب منها إلى السنة. وقد أنكر المحققون من الشافعية هذا الفعل أيضا: فقد سئل ابن حجر الهيتمي في "الفتاوى الفقهية الكبرى" (١/ ١٢٩): " هل نص أحد على استحباب الصلاة والسلام على النبي ﷺ أول الإقامة؟

فأجاب: لم أر من قال بندب الصلاة والسلام أول الإقامة، وإنما الذي ذكره أئمتنا أنهما سنتان عقب الإقامة كالأذان، ثم بعدهما: اللهم رب هذه الدعوة التامة... (ثم ذكر الآثار السابقة عن الحسن البصري وغيره) انتهى.

وقال أيضا في (١/ ١٣١): " لم نر في شيء منها - يعني الأحاديث - التعرض للصلاة عليه ﷺ قبل الأذان، ولا إلى محمد رسول الله بعده، ولم نر أيضا في كلام أئمتنا تعرضا لذلك أيضا، فحينئذ كل واحد من هذين ليس بسنة في محله المذكور فيه، فمن أتى بواحد منهما في ذلك معتقدا سنيته في ذلك المحل المخصوص نهي عنه ومنع منه؛ لأنه تشريع بغير دليل، ومن شرع بلا دليل يزجر عن ذلك وينهى عنه " انتهى.

المسألة الخامسة: النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من إبراهيم، فكيف طلب له من الصلاة ما لإبراهيم، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه؟

=

=

فكيف الجمع بين هذه الأمرين؟

أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة كثيرة، وقد بلغت نحو عشرة أقوال، منها:

١- أن التشبيه المذكور إنما هو في أصل الصلاة، لا في قدرها، ولا في كيفيتها، فالمسئول إنما هو راجع إلى الهيئة، لا إلى قدر الموهوب، وهذا كما تقول للرجل: أحسن إلى ابنك كما أحسنت إلى فلان، وأنت لا تريد بذلك قدر الإحسان، وإنما تريد به أصل الإحسان. وقد يحتج لذلك بقوله تعالى: {وأحسن كما أحسن الله إليك} (القصص:٧٧)، ولا ريب أنه لا يقدر أحد أن يحسن بقدر ما أحسن الله إليه، وإنما أريد به أصل الإحسان لا قدره، فالتشبيه في الآية لا يتعلق بمقدار الإحسان؛ بل بأصله؛ فكأن معنى الآية: كما وقع الإحسان من الله إليك أيها العبد الفقير إلى الله - سبحانه وتعالى -، فأحسن بالصدقة وبالعبادة وغيرها من الطاعات.

ومنها قوله تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده} (النساء:١٦٣)، وهذا التشبيه في أصل الوحي لا في قدره وفضل الموحى به.

٢- قول قواه واستحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: وهو قول من قال عن آل إبراهيم عليه السلام: فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- ولآله مثل ما لإبراهيم وآله ـ وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك ما يليق بهم، فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء ـ وفيهم إبراهيم ـ لمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم- فيحصل له من المزية ما لا يحصل لغيره»

٣- قال الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام): «... وأحسن منه (أي من القول

=

=

السابق) أن يقال: «محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- هو من آل إبراهيم، بل هو خير آل إبراهيم، كما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} (آل عمران: ٣٣)، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «محمد من آل إبراهيم». وهذا نص، فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء الذين هم من ذرية إبراهيم في آله، فدخول رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أولى. فيكون قولنا: «كما صليت على آل إبراهيم» متناولا للصلاة عليه، وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم. ثم قد أمرنا الله - عز وجل - أن نصلي عليه وعلى آله خصوصا بقدر ما صلينا عليه مع سائر آل إبراهيم عموما، وهو فيهم، ويحصل لآله من ذلك ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له صلى الله عليه وآله وسلم. وتقرير هذا أنه يكون قد صلى عليه خصوصا، وطلب له من الصلاة ما لآل إبراهيم وهو داخل معهم، ولا ريب أن الصلاة الحاصلة لآل إبراهيم ـ ورسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- معهم ـ أكمل من الصلاة الحاصلة له دونهم، فيطلب له من الصلاة هذا الأمر العظيم الذي هو أفضل مما لإبراهيم قطعا». اهـ بتصرف.

المسألة السادسة: هل تشرع الصلاة على الملائكة لفضلهم ورفعة قدرهم؟

"الصلاة على الملائكة مشروعة أن تقول: عليهم الصلاة والسلام، وتقول: عليهم السلام، لأنهم عباد مكرمون، وهم خلق من خلق الله فضلهم الله وسبحانه وتعالى، على غيرهم كما قال تعالى في حقهم: (بل عباد مكرمون) الأنبياء/ ٢٦، وكما قال تعالى: (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين) الانفطار/ ١٠،١١، وقال تعالى (بأيدي سفرة كرام بررة) عبس/ ١٥،١٦، إلى غير ذلك، فهم لهم قدرهم

=

=

ولهم فضلهم وشرفهم ويشرع الصلاة عليهم، لا مانع من ذلك، بل هذا مشروع" انتهى من مجموع فتاوى الشيخ صالح الفوزان (١/ ٥٢).

المسألة السابعة: حكم الصلاة على النبي أثناء خطبة الجمعة.

قال الإمام أحمد: لا بأس أن يصلي على النبي ﷺ فيما بينه وبين نفسه. (المغني ٢/ ١٦٥ وما بعدها)

وقالت اللجنة الدائمة: (إذا صلى الخطيب على النبي ﷺ فيصلي المستمع من غير رفع صوت). (فتاوى اللجنة الدائمة ٨/ ٢١٧)

وقال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١٦/ ١٦٦): إذا ذكر الخطيب النبي ﷺ فإن المستمع يصلي عليه سرا، حتى لا يشوش على من حوله.

وقال في لقاءات الباب المفتوح: لا يجوز، لا تشميت العاطس، ولا رد السلام على المسلم، ولا الصلاة على النبي ﷺ لكن الأخيرة تجوز إذا لم يكن هناك تشويش على الناس؛ لأن الأخيرة ليست خطابا ولا كلام آدمي، وإذا كان الرسول ﷺ يقول: (إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب: أنصت فقد لغوت) (أنصت) نهي عن منكر، وجعل النبي ﷺ ذلك لغوا، أي: أنه يفوت على الإنسان فضيلة الجمعة، فكل خطاب لآدمي فهو حرام، وأما الدعاء والتأمين عليه فهذا جائز إذا لم يحصل فيه تشويش. ا. هـ

أما العلامة الألباني فقال في الأجوبة النافعة (ص٦٢): وأما ما عدا صلاة التحية من الأذكار والأدعية والمتابعة للخطيب في الصلاة على النبي ﷺ فلم يأت ما يدل على تخصيصها من ذلك العموم والمتابعة في الصلاة عليه ﷺ وإن وردت بها أدلة قاضية بمشروعيتها فهي أعم من أحاديث منع الكلام حال الخطبة من

=

=

وجه وأخص منها من وجه فيتعارض العمومان وينظر في الراجح منهما وهذا إذا كان اللغو المذكور في حديث: " ومن لغا فلا جمعة له " يشمل جميع أنواع الكلام وأما إذا كان مختصا بنوع منه وهو ما لا فائدة فيه فليس مما يدل على منع الذكر والدعاء والمتابعة في الصلاة عليه ﷺ يقول ملخصه محمد ناصر الدين: والأرجح من الاحتمالين الأول بدليل قوله (صحيح) ﷺ: " إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: أنصت فقد لغوت " أخرجه الشيخان وغيرهما

فإن قول القائل: أنصت لا يعد لغة من اللغو لأنه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومع ذلك فقد سماه عليه الصلاة والسلام: لغوا لا يجوز وذلك من باب ترجيح الأهم وهو الإنصات لموعظة الخطيب على المهم وهو الأمر بالمعروف في أثناء الخطبة وإذا كان الأمر كذلك فكل ما كان في مرتبة الأمر بالمعروف فكيف إذا كان دونه في الرتبة فلا شك أنه حينئذ بالمنع أولى وأحرى وهي من اللغو شرعا وأما قول المصنف (ص ٢٧) وفي الروضة (١٤٠):

ويمكن أن يقال: إن ذلك الذي قال: (أنصت) لم يؤمر في ذلك الوقت بأن يقول هذه المقالة. فكان كلامه لغوا أيضا. والله أعلم.

المسألة الثامنة: إذا مر الإنسان في الصلاة بآية فيها ذكر للنبي ﷺ فهل يصلي عليه بمناسبة ذكره، أم أن الصلاة عليه ليست من أعمال الصلاة، إلا في موضعها من التشهد، فلا تفعل إلا فيه وأما في غيره فلا؟

قال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (١١/ ٢٠١): أما في الفريضة فلا يفعل ذلك؛ لعدم نقله عن النبي ﷺ، وأما في النافلة فلا بأس؛ لأنه كان ﷺ في تهجده بالليل يقف عند كل آية فيها تسبيح فيسبح، وعند كل آية فيها تعوذ فيتعوذ، وعند

=

=

كل آية فيها سؤال فيسأل، والصلاة عليه ﷺ من هذا الباب ا. هـ

وسئل الشيخ ابن جبرين كما في فتاوى إسلامية (١/ ٢٩١): هل تجوز الصلاة على النبي ﷺ، إذا قرأ الإمام: (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)؟

فأجاب: "إذا كنت خلف الإمام في الصلاة وهو يقرأ جهرا فعليك أن تنصت وتستمع لقراءته ولا تتكلم وهو يقرأ، ولو بذكر أو دعاء لقوله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا). أجمعوا على أنها في الصلاة، وورد في الحديث: (إذا كبر الإمام فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا). فأما إن قرأ الإمام هذه الآية في خطبة جمعة أو عيد أو سمعت من يقرؤها وأنت خارج الصلاة، أو قرأت ذلك أنت فإنه يشرع ويتأكد أن تصلي على النبي صلى الله وعليه وسلم، كما تشرع في سائر الأوقات، وفيها فضل عظيم" انتهى.

المسألة التاسعة: حكم الصلاة والسلام على غير الأنبياء.

لقد بسط ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الكلام على هذه المسألة في كتابه: "جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ﷺ"، ونسب القول بالكراهة إلى ابن عباس وطاووس وعمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة ومالك وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري وأصحاب الشافعي.

ونسب القول بالجواز - نقلا عن القاضي أبي يعلى - إلى: الحسن البصري وخصيف ومجاهد ومقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان وكثير من أهل التفسير. قال وهو قول الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه وأبي ثور ومحمد بن جرير الطبري.

وساق للمانعين عشرة أدلة، وللمجيزين أربعة عشر دليلا، وانتهى إلى قوله: "

=

=

وفصل الخطاب في هذه المسألة أن الصلاة على غير النبي إما أن يكون آله وأزواجه وذريته أو غيرهم، فإن كان الأول، فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبي ﷺ وجائزة مفردة.

وأما الثاني: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموما الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم جاز ذلك أيضا، فيقال اللهم صل على ملائكتك المقربين وأهل طاعتك أجمعين.

وإن كان شخصا معينا أو طائفة معينة كره أن يتخذ الصلاة عليه شعارا لا يخل به، ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولا سيما إذا جعلها شعارا له ومنع منها نظيره أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعلي رضي الله عنه، فإنهم حيث ذكروه قالوا عليه الصلاة والسلام ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع، لا سيما إذا اتخذ شعارا لا يخل به، فتركه حينئذ متعين.

وأما إن صلى عليه أحيانا بحيث لا يجعل ذلك شعارا كما صلي على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر: للميت صلى الله عليه، وكما صلى النبي ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روي عن علي من صلاته على عمر، فهذا لا بأس به، وبهذا التفصيل تتفق الأدلة وينكشف وجه الصواب، والله الموفق " انتهى من "جلاء الأفهام" ص (٤٦٥ - ٤٨٢).

وقال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر الخلاف ملخصا هذا الخلاف: " وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: (اللهم، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته)، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم.

=

=

فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقوله: (هو الذي يصلي عليكم وملائكته)، وبقوله: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة)، وبقوله تعالى: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)، وبحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: (اللهم صل عليهم) وأتاه أبي بصدقته فقال: (اللهم صل على آل أبي أوفى). أخرجاه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله، صل علي وعلى زوجي. فقال: (صلى الله عليك وعلى زوجك).

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعارا للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه. أوقال: علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحا، كما لا يقال: قال محمد ﷻ، وإن كان عزيزا جليلا؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، ﷻ. وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامرأته، وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك، والله أعلم.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار، ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في اللسان بالأنبياء

=

=

صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا: "عز وجل"، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال: "محمد عز وجل"، وإن كان عزيزا جليلا لا يقال: "أبو بكر – أو: علي –صلى الله عليه". هذا لفظه بحروفه.

قال [أي النووي]: وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: "علي عليه السلام"، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليكم، أو سلام عليك، أو السلام عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه. انتهى ما ذكره.

قلت: وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب، أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال: "عليه السلام"، من دون سائر الصحابة، أو: "كرم الله وجهه" وهذا وإن كان معناه صحيحا، لكن ينبغي أن يساوى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين " انتهى من "تفسير ابن كثير" لقوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) الأحزاب/ ٥٦.

وقال السفاريني: " هل السلام كالصلاة خلافا ومذهبا أو ليس إلا الإباحة فيجوز أن يقول السلام على فلان وفلان عليه السلام؟

أما مذهبنا [أي الحنبلي] فقد علمت جوازه من جواز الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم استقلالا بالأولى. وأما الشافعية فكرهه منهم أبو محمد الجويني فمنع أن يقال فلان عليه السلام. وفرق آخرون بينه وبين الصلاة، فقالوا: السلام يشرع في حق كل مؤمن حي وميت حاضر وغائب ، فإنك تقول بلغ فلانا مني السلام ، وهو تحية

=

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤).

{تَحِيَّتهمْ} مِنْهُ تَعَالَى {يَوْم يَلْقَوْنَهُ سَلَام} بِلِسَانِ الْمَلَائِكَة {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} هُوَ الْجَنَّة[1].

=

أهل الإسلام بخلاف الصلاة فإنها من حقوق الرسول ﷺ، ولهذا يقول المصلي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " انتهى من "غذاء الألباب" (١/ ٣٣).

وينظر: الأذكار للنووي ص ٢٧٤، مطالب أولي النهى (١/ ٤٦١)، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ١٧٣)، الموسوعة الفقهية (٢٧/ ٢٣٩).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: " والصلاة على غير الأنبياء تبعا جائزة بالنص والإجماع لكن الصلاة على غير الأنبياء استقلالا لا تبعا هذه موضع خلاف بين أهل العلم هل تجوز أو لا؟ فالصحيح جوازها، أن يقال لشخص مؤمن صلى الله عليه وقد قال الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ: (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم) فكان النبي ﷺ يصلي على من أتى إليه بزكاته وقال: (اللهم صلى على آل أبي أوفى) حينما جاؤوا إليه بصدقاتهم، إلا إذا اتخذت شعارا لشخص معين كلما ذكر قيل: صلى الله عليه، فهذا لا يجوز لغير الأنبياء، مثل لو كنا كلما ذكرنا أبا بكر قلنا: صلى الله عليه، أو كلما ذكرنا عمر قلنا: صلى الله عليه، أو كلما ذكرنا عثمان قلنا: صلى الله عليه، أو كلما ذكرنا عليا قلنا: صلى الله عليه، فهذا لا يجوز أن نتخذ شعارا لشخص معين " انتهى من "فتاوى نور على الدرب".

(١) قوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [الأحزاب: ٤٤]، أي:"تحية هؤلاء المؤمنين من الله في الجنة يوم يلقونه سلام، وأمان لهم من عذاب الله".

=

=

قال الطبري: يقول:"تحية هؤلاء المؤمنين يوم القيامة في الجنة سلام، يقول بعضهم لبعض: أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أن يعذبنا بالنار أبدا".

قال قتادة:"تحية أهل الجنة السلام".

قال مقاتل:"يعني: تسليم الملائكة عليهم".

قال الحسن:"تحييهم الملائكة عن الله بالسلام".

قال البراء بن عازب:"يوم يلقون ملك الموت، ليس من مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه".

قال ابن كثير:"الظاهر أن المراد - والله أعلم - {تَحِيَّتُهُمْ} أي: من الله تعالى يوم يلقونه {سَلامٌ} أي: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى: {سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس: ٥٨]".

قوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} [الأحزاب: ٤٤]، أي:"وقد أعدَّ لهم ثوابًا حسنًا، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول: وأعد لهؤلاء المؤمنين ثوابا لهم على طاعتهم إياه في الدنيا، كريما، وذلك هو الجنة".

عن قتادة: " {وأعد لهم أجرا كريما}، أي: الجنة".

قال ابن كثير:"وقد يستدل بقوله تعالى: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]، وقوله: {وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {تحيتهم} الضمير يعود على المؤمنين، والتحية معناها: الدعاء بالبقاء، فإذا قال: حياك؛ أي: دعا لك بالبقاء، ثم صارت اسما لما يستقبل به الضيف، أو الداخل، أو ما أشبه ذلك مما يدل على الإكرام، فالتحية إذن في الأصل: الدعاء بالبقاء والحياة، ثم نقلت في العرف إلى كل ما يحيا به المرء، ويستقبل به من عبارات التكريم، فتحيتهم؛ أي: تحية المؤمنين.

{يوم يلقونه} يلقون الله تعالى، يوم يلقون الله تعالى، وذلك يوم القيامة، سواء كان في عرصات القيامة، أو كان بعد دخولهم الجنة، فتحيتهم حينئذ {سلام}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بلسان الملائكة] يعني: أن الملائكة هم الذين يسلمون على هؤلاء بأمر الله تعالى، فإذا سلموا على هؤلاء بأمر الله تعالى صار كأن المسلم هو الله تعالى، ولكن هذا صرف للآية عن ظاهرها، فإن ظاهر الآية أن الذي يسلم هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان السلام من الله تعالى فهو خبر محض، وليس دعاء؛ لأن الله تعالى لا يدعو أحدا، ولكن يخبر بالسلام الدائم الذي لا يعتريه أي نقص أو أي خوف.

أما إذا كان من الملائكة فإنه يحتمل الخبر، ويحتمل الدعاء، {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٣) سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

إنما الصواب -بلا شك- أن هذا السلام من الله تعالى؛ لأنه يقول: {تحيتهم يوم يلقونه سلام}، الملاقى هو الذي يسلم، وهو الذي يحيي هؤلاء، ولا شك أن الرب عَزَّوَجَلَّ إذا قال لهم: سلام عليكم. سينزل عنهم كل خوف؛ ولهذا تسمى الجنة دار السلام، كما قال تعالى: {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى

=

=

صراط مستقيم} [يونس: ٢٥]؛ لأنها دار سالمة من كل آفة، لا فيها مرض، ولا فيها موت، ولا فيها هرم، ولا فيها نقص في الرزق، بل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال ﷻ: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧]، {تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما}.

إذن: لما قال تعالى: {سلام} أي: من الآفات ذكر بعد ذلك: {وأعد لهم أجرا كريما}، وهذا تحلية بعد تخلية، حين أخبرهم أنهم سالمون من كل آفة بين أنه أعد لهم أجرا كريما، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الجنة] والأجر بمعنى: الثواب، وهو ما يعطى الأجير في مقابلة عمله، ويسمى أجرا، ويسمى أجرة، ولكن سبق لنا مرات كثيرة: أن أجر العاملين على عملهم ليس من باب المعاوضة؛ لأنه لو كان من باب المعاوضة لكان نعمة واحدة من نعم الله تعالى على العبد تستوعب جميع عمله، بل لو كان على سبيل المعاوضة لكان توفيقك للعمل نعمة يحتاج إلى أجر؛ ولهذا قال بعضهم:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

وثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: "لن يدخل الجنة أحد بعمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

إذن: فالعمل نصفه إذا لم يكن عوضا بأنه سبب، وليس بعوض؛ ولهذا صرح الله سبحانه وتعالى في عدة آيات بأن الثواب هذا جزاء بما كانوا يعملون؛ أي: بسبب ما كانوا يعملون، فالباء للسببية في قوله تعالى: {جزاء بما كانوا يعملون}

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥).

{يأيها النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهِدًا} عَلَى مَنْ أَرْسَلْت إِلَيْهِمْ {وَمُبَشِّرًا} مِنْ صِدْقك بِالْجَنَّةِ {وَنَذِيرًا} مُنْذِرًا مَنْ كَذَّبَك بِالنَّارِ.

وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦).

{وَدَاعِيًا إِلَى الله} إِلَى طَاعَته {بِإِذْنِهِ} بِأَمْرِهِ {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} أَيْ مِثْله فِي

=

[السجدة: ١٧]، والباء للعوض في قول الرسول ﷺ: "لن يدخل الجنة أحد بعمله"، وبهذا يجمع بين النصين.

وقوله تعالى: {وأعد لهم أجرا كريما} الأجر هو الكريم أم الكريم هو المتفضل بالأجر؟

الجواب: يجب أن نعلم أن الكريم يطلق على الجواد الباذل للمال، ويطلق على الشيء الحسن، ومنه قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "إياك وكرائم أموالهم" يعني: الحسنة، فقوله تعالى: {أجرا كريما}، أي: حسنا، فما وجه كرم هذا الثواب أو هذا الأجر؟

الجواب: أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، هذا من وجه، ومن وجه آخر أن مدة بقاء الإنسان في الدنيا بالنسبة للآخرة ليست بشيء إطلاقا ولا ينسب، فالرسول ﷺ يقول: "الموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها"، فـ "موضع السوط" السوط -كما يعرف- حوالي متر، خير من الدنيا وما فيها، إذن فكرم هذا الثواب يعني: لا ينسب العمل إليه؛ لأنه كرم واسع لا نهاية له {خالدين فيها أبدا}، اللهم اجعلنا وإياكم منهم.

الِاهْتِدَاء بِهِ[1].

(١) قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: ٤٥]، أي:"يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهدًا على أمتك بإبلاغهم الرسالة، ومبشرًا المؤمنين منهم بالرحمة والجنة، ونذيرًا للعصاة والمكذبين من النار".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد {إنا أرسلناك شاهدا} على أمتك بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الرسالة، ومبشرهم بالجنة إن صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك، {ونذيرا} من النار أن يدخلوها، فيعذبوا بها إن هم كذبوك، وخالفوا ما جئتهم به من عند الله".

قال يحيى: " {شاهدا} على امتك تشهد عليهم في الآخرة أنك قد بلغتهم. {ومبشرا} في الدنيا بالجنة، {ونذيرا} من النار".

قال ابن كثير:"{شَاهِدًا} أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، {وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا}، كقوله: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]، وقوله: {وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} أي: بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب".

قال الزجاج:"هذا كله منصوب على الحال، أي: أرسلناك في حال الشهادة والبشارة والإنذار".

قال ابن عباس:"لما نزلت: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، وقد كان أمر عليا ومعاذ أن يسيرا إلى اليمن، فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أنزل علي: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، =

=

قال: شاهدا ومبشرا بالجنة ونذيرا من النار، وداعيا إلى شهادة لا إله إلا الله: بإذنه {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} بالقرآن".

عن قتادة، قوله: " {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا} ، قال: على أمتك بالبلاغ، {ومبشرا} : بالجنة، {ونذيرا} : من النار".

قال سهل:"شاهدا عليهم بالتوحيد، ومبشرا لهم بالمعونة والتأييد، ومحذرا عن البدع والضلالات".

قال عطاء بن يسار: "لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني، عن صفة رسول الله ﷺ فِي التوراة قال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ونذيرا} وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظٍ وَلا صَخَّابٍ فِي الأسواق ولا تجزئ بالسيئة، السيئة ولكن تعفو وتصفح".

قوله تعالى: {وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ} [الأحزاب: ٤٦]، أي:"وداعيًا إلى توحيد الله وعبادته وحده بأمره إياك".

قال الطبري:"يقول: وداعيا إلى توحيد الله، وإفراد الألوهة له، وإخلاص الطاعة لوجهه دون كل من سواه من الآلهة والأوثان، بأمره إياك بذلك".

قال الزجاج:"أي: داعيا إلى توحيد الله وما يقرب منه، بأمره".

قال ابن كثير:"أي: داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك".

قال يحيى: " بالقرآن، الوحي الذي جاء من عنده".

عن قتادة: " {وداعيا إلى الله} : إلى شهادة أن لا إله إلا الله، {بإذنه} : قال: بأمره".

=

=

قوله تعالى: {وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: ٤٦]، أي:"وسراجًا منيرًا لمن استنار بك".

قال الزجاج:"أي: وكتابا بينا، المعنى أرسلناك شاهدا وذا سراج منير وذا كتاب بين، وإن شئت كان {وسراجا} منصوبا على معنى داعيا إلى الله وتاليا كتابا بينا".

قال الطبري:"يقول: وضياء لخلقه يستضيء بالنور الذي أتيتهم به من عند الله عباده، ضياء ينير لمن استضاء بضوئه، وعمل بما أمره، وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به من اتبعه من أمته".

قال يحيى: " مضيئا".

قال ابن كثير:"أي: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند".

عن قتادة: " {وسراجا منيرا} : قال: كتاب الله يدعوهم إليه وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا وهي الجنة".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {ياأيها النبي} تشريفا له وإظهارا لنبوته.

وقوله تعالى: {ياأيها النبي إنا أرسلناك} جمع له بين الوصفين؛ النبوة والرسالة على وجه صريح، وإلا فلو وصف بالرسالة وحدها لتضمنت وصفه بالنبوة؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا، لكن الجمع بين الوصفين أولى على وجه النص والتعيين، وفي حديث البراء بن مالك رضي الله عنه يقال من الذكر عند النوم-؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه إذا أوى إلى فراشه أن يقول مما يقول: "آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت"، فلما أعادها عليه البراء رضي الله عنه قال: "آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت"، فقال صلى الله عليه وسلم له: "وبنبيك الذي

=

=

أرسلت"، قال العلماء رحمهم الله: لأجل أن يجمع له بين وصفي النبوة والرسالة على وجه التعيين؛ لأن دلالة الرسالة على النبوة من باب دلالة الالتزام، وأما دلالة النبوة على النبوة فهو من باب دلالة النص والتعيين، هذا من وجه.

وجه آخر: أنه إذا قال: (ورسولك الذي أرسلت) لم يكن نصا في الإيمان بمحمد ﷺ، إذ قد يجوز أن يراد به الرسول الملكي دون الرسول البشري.

هنا يقول: {ياأيها النبي إنا أرسلناك}، ولم يقل: (يا أيها الرسول إنا أرسلناك)؛ ليجمع له بين وصفي النبوة والرسالة على سبيل التعيين والنص، لكن انظر إلى قوله تعالى: {ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك} [المائدة: ٦٧]، حيث قال تبارك وتعالى: {ياأيها الرسول}، ثم قال تعالى: {بلغ}؛ لأنه إنما يأمره بالبلاغ، وهذا يناسب الرسالة.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنا أرسلناك شاهدا} على من أرسلت إليهم]، وكلمة {شاهدا} حال من الكاف في قوله تعالى: {أرسلناك}، والشاهد يطلق على المخبر، ويطلق على الحاكم، والنبي ﷺ شاهد مخبر حاكم، فهو مخبر عن الله ﷻ بما أرسله به، وكذلك مخبر عمن أرسل إليهم، بالقبول أو الرفض، وكذلك هو حاكم، فإن الحكم لله تعالى ورسوله ﷺ.

والدليل على أن الشاهد بمعنى: الحاكم قوله تعالى: {وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين} [يوسف: ٢٦ - ٢٧]، إذن (شاهد) بمعنى: (مخبر) و (حاكم)، فهو مخبر عن الله تعالى، ومخبر عن عباد الله تعالى، مخبر عن الله تعالى بما أوحاه إليه، ومخبر عن عباد الله تعالى بالقبول أو الرفض.

=

=

وكذلك هو شاهد على من سبقه من الأمم في تبليغ رسالات الرسل، وفي تكذيب قومهم لهم، كما قال الله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة: ١٤٣]، إذن: شاهد بما أوحاه الله تعالى إليه، وحاكم به، وشاهد على من أرسل إليهم، وشاهد على من سبقه من الأمم.

وقوله تعالى: {ومبشرا} معطوف على {شاهدا}.

قوله تعالى: {ومبشرا}، أي: أرسلناك مبشرا، والبشارة تقتضي أربعة أمور: مبشر، ومبشر، ومبشر به، وسبب يوصل إلى المبشر به، فالرسول عليه الصلاة والسلام: مبشر، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام مبشرا، فلا بد أن يكون هناك من يبشره، وهم الذين أرسل إليهم، واتبعوه على ما دعا إليه، ولا بد أن يكون هناك مبشرا به، وهو الجنة، تقدمنا في هذه الآيات {وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا}، ولا بد أن يكون هناك سبب يوصل إلى المبشر به الأعمال الصالحة.

إذن: فالنبي عليه الصلاة والسلام قد بين وبلغ الرسالة إلى المبشرين، وبين المبشر به، وما يتضمنه من الثواب، وأنواع النعيم، وبين الأسباب الموصلة إلى ذلك، وهي الأعمال الصالحة؛ ولهذا ترك النبي ﷺ أمته على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

قوله تعالى: {ومبشرا ونذيرا} النذير هو: من أتى بالإنذار، وهو الإعلام المقرون بالتخويف يسمى إنذارا، وفي حديث جابر رضي الله عنه في صفة خطبة النبي ﷺ يقول: "كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم".

=

=

وقوله تعالى: {ونذيرا} نقول فيها كما قلنا في {بشيرا}: لا بد فيها من أمور أربعة: منذر، ومنذر، ومنذر به، وأسباب توصل إلى ذلك، فكلها قد جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام.

فالمنذر: الأمة عموما، والمنذر به: النار، وأسبابه: الأعمال السيئة، والمنذر: هو الرسول ﷺ، فقد بين النبي ﷺ كل هذه الأمور، بين لكل المنذرين، وأدى إليهم الرسالة، أو أدى الأمانة، وكذلك بين المنذر به، وما فيه من العقوبات المتنوعات والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: {وداعيا إلى} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ومبشرا} من صدقك بالجنة {ونذيرا} منذرا من كذبك بالنار {وداعيا إلى الله} إلى طاعته بإذنه بأمره].

هذا الوصف الرابع: {وداعيا إلى الله} أن يدعو الناس إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى طاعته] فيه نظر؛ فالأولى أن تبقى الآية على ظاهرها وأن النبي ﷺ يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإلى الوصول إليه في دار كرامته، ولا وصول إليه في دار كرامته إلا بامتثال أمره واجتناب نهيه، فهو داع إلى الله تعالى بطاعته واجتناب نهيه.

وقوله تعالى: {وداعيا إلى الله} لم يبين هنا كيفية الدعوة، ولكنه بينها في آية أخرى في قوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن} [النحل: ١٢٥].

والدعوة لا بد فيها أيضا من أمور أربعة: داع، ومدعو، ومدعو إليه، وسبب يوصل إلى المدعو إليه، وكل هذا جاء به النبي ﷺ.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو الناس سرا وجهرا حسب ما تقتضيه

=

=
المصلحة والحاجة، فكان أول دعوته سرا؛ لأنه كان يخشى أن تصادم هذه الدعوة حتى تدفن، ثم بعد ذلك جهر بالدعوة لما قال له الله تعالى: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} [الحجر: ٩٤]، ثم صار يدعو من قرب {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: ٢١٤]، ثم من بعد على حسب ما تقتضيه الدعوة.

وقوله تعالى: {وداعيا إلى الله} يعني: لا إلى نفسك؛ ولهذا كان النبي ﷺ لا ينتقم لنفسه قط أبدا إلا أن تنتهك حرمات الله ﷻ، فإنه كان أشد الناس غضبا لله تعالى؛ لأنه ليس يدعو إلى نفسه كما يوجد من كثير من الدعاة يدعون إلى أنفسهم في الواقع، يريدون أن يعظمهم الناس وأن يأخذوا بقولهم، حتى إنهم إذا خولفوا في ذلك تجد الإنسان يتكدر؛ لا لأنه خولف أمر الله تعالى؛ ولكن لأنه خولف هو، الذي هذا شأنه إنما يدعو إلى نفسه وليس يدعو إلى ربه، ففتش نفسك: هل فيك سر من هذا؟ إن كان فيك سر من هذا فأصلح الأمر، وإن كنت لا تغضب إلا لله تعالى، ولا ترضى إلا لله تعالى، فهذا هو الداعية حقيقة.

وقوله تعالى: {إلى الله بإذنه} الإذن هنا يشمل الإذن الكوني والإذن الشرعي، فإن كان المراد به ما يدعى به فهو الشرعي، يعني: إن كان المعنى: داعيا إلى الله تعالى بأمره الذي أمرك بالدعوة إليه فالمراد به الإذن الشرعي، وإن كان المراد داعيا إلى الله تعالى بقدره يعني: حيث قواك على ذلك، وهيأ لك الأسباب فهو إذن كوني، والآية تشمل هذا وهذا، فإن الرسول ﷺ إنما يدعو بقضاء الله تعالى وقدره، ويدعو كذلك بدينه وشرعه فهو داع بالأمرين جميعا.

الوصف الخامس: قوله تبارك وتعالى: {وسراجا منيرا} أي: مثله في الاهتداء به سراجا، والسراج ما يستضاء به، ووصفه بأنه {منيرا} إما لبيان الواقع، لأن كل
=

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧).

{وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ الله فَضْلًا كَبِيرًا} هُوَ الْجَنَّة[1].

=

سراج فله إنارة؛ وإما لبيان أن هذا السراج كان له إضاءة قوية فهو منير لما حوله، وهذا هو الأقرب؛ لأن عندنا من القواعد المقررة أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الكلام تأسيسا أو توكيدا فالأصل أنه تأسيس، لأن التأسيس فيه زيادة معنى، بخلاف التوكيد، التوكيد ليس فيه إلا التقوية، لكن التأسيس فيه زيادة معنى، وعلى هذا فالأظهر أن هذا وصف للسراج باعتبار قوته وإضاءته، ولا شك أن النبي ﷺ علم يهتدى به في الظلمات، فهو قد فتح للناس نور العلم ونور الإيمان حتى ترك أمته على محجة بيضاء ليلها كنهارها.

هذه الأوصاف الخمسة التي بينها الله تعالى لرسوله ﷺ ويمكن أن نضيف إليها وصفا سادسا ووصفا سابعا.

الوصف السادس: قوله تعالى: {إنا أرسلناك} فإن هذا فيه إثبات الرسالة له.

الوصف السابع: قوله تعالى: {ياأيها النبي} فإن فيه أيضا إثباتا للنبي ﷺ.

وعلى هذا فالآية تضمنت سبعة أوصاف للرسول ﷺ: النبوة والرسالة والشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى الله تعالى بإذنه، وكونه سراجا منيرا.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن الربيع بن أنس؛ قال: لما نزلت: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} [الأحقاف: ٩]؛ نزل بعدها: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ٢]، فقالوا: يا رسول الله! قد علمنا ما يفعل بك، فما يفعل بنا؟ فأنزل الله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)}، قال: الفضل الكبير: الجنة.

=

=

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ١٥٩) من طريق أبي العباس الأصم قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن عيسى بن عبد الله عن الربيع بن أنس به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: عيسى بن عبد الله هو أبو جعفر الرازي؛ صدوق سيئ الحفظ.

الثالثة: أحمد بن عبد الجبار؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٤٧]، أي:"وبَشِّر -أيها النبي- أهل الإيمان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وبشر أهل الإيمان بالله يا محمد".

قوله تعالى: {بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٤٧]، أي:"بأن لهم من الله ثوابًا عظيمًا، وهو روضات الجنات".

قال الطبري: يقول:"بأن لهم من ثواب الله على طاعتهم إياه تضعيفا كثيرا، وذلك هو الفضل الكبير من الله لهم".

عن قتادة:"{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا}، وهي الجنة".

عن السدي:"{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا}، يعني: الجنة".

قال الزمخشري:"الفضل: ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب، وإذا ذكر المتفضل به وكبره فما ظنك بالثواب. ويجوز أن يريد بالفضل: الثواب، من قولهم للعطايا: فضول وفواضل، وأن يريد أن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم، وذلك الفضل من جهة الله، وأنه آتاهم ما فضلوهم به".

=

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٤٨).

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {وبشر المؤمنين} هذا عطف، ولكنه مبين للمبشر في قوله تعالى: {ومبشرا} بشر المؤمنين بأن لهم من الله تعالى فضلا كبيرا، والمؤمنون هنا يراد بهم المؤمنون والمسلمون جميعا؛ لأنه تقدم أن الإيمان إذا ذكر وحده شمل الإسلام، والإسلام إذا ذكر وحده شمل الإيمان، وإن ذكرا جميعا صار الإيمان في القلب والإسلام في الجوارح.

فقوله تعالى: {وبشر المؤمنين} لم يقل: بشر المسلمين؛ لأن من المسلمين من يكون إسلامهم ظاهرا، ويكون الإيمان في قلوبهم إما مفقودا وإما ضعيفا، فالذين لهم البشارة المطلقة هم المؤمنون الذين وقر الإيمان في قلوبهم، وصاروا ينفذون مقتضى ذلك الإيمان؛ ولهذا قال الله ﷻ: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٣) لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} [يونس: ٦١ - ٦٣]، فالبشارة المطلقة لا يمون إلا للمؤمنين.

وقوله تعالى: {المؤمنين} كلما جاءت لفظة (المؤمنين) مفردة -كما قلت قبل قليل- فإنها تشمل المؤمن والمسلم، قال تعالى: {وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا} فضلا منصوبة بـ (أن) فهي اسمها مؤخرا.

والفضل الكبير هو الجنة، ولا شيء أكبر من فضل الجنة قال الله تعالى: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} [آل عمران: ١٨٥]، ولا نعيم أعظم من دخول الجنة بما يكون في ضمنه، بل هو أعلى شيء فيه، وهو النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى.

{وَلَا تُطِـعْ الْكَـافِرِينَ وَالْمُنَـافِقِينَ} فِيمَـا يُخَـالِف شَـرِيعَتك {وَدَعْ} أُتْـرُكْ {أَذَاهُمْ} لَا تُجَازِهِمْ عَلَيْهِ إلَى أَنْ تُؤْمَر فِيهِمْ بِأَمْرٍ {وَتَوَكَّلْ عَلَى الله} فَهُوَ كَافِيك {وَكَفَى بِاَللهِ وَكِيْلًا} مُفَوِّضًا إلَيْهِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ} [الأحزاب: ٤٨]، أي: لا تطعهم فيما يطلبوه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أُوحي إليك.

قال الطبري:"يقول: ولا تطع لقول كافر ولا منافق؛ فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير في تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه".

قال ابن كثير:"أي: لا تطعهم ولا تسمع منهم في الذي يقولونه".

قال مقاتل:"{ولا تطع الكافرين} من أهل مكة: أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي. {والمنافقين}: عبد الله بن أبي، وعبد الله بن سعد، وطعمة بن أبيرق حين قال أبو سفيان ومن معه من هؤلاء النفر: يا محمد ارفض ذكر آلهتنا وقل: إن لهما شفاعة ومنفعة لمن عبدها".

عن ابن جريج:"{ولا تطع الكافرين} أبي بن خلف، {والمنافقين} أبو عامر الراهب وعبد الله بن أبي بن سلول والحد بن قيس".

قوله تعالى: {وَدَعْ أَذَاهُمْ} [الأحزاب: ٤٨]، أي:"واترك أذاهم".

قال الطبري:"يقول: وأعرض عن أذاهم لك، واصبر عليه، ولا يمنعك ذلك عن القيام بأمر الله في عباده، والنفوذ لما كلفك".

قال الزجاج:"معناه: دع أذى المنافقين، وتأويل {ودع أذاهم} دعهم لا تجازهم عليه إلى أن تؤمر فيهم بأمر".

=

=

قال ابن كثير:"أي: اصفح وتجاوز عنهم".

قال قتادة:"اصبر على أذاهم".

قال مجاهد:"أعرض عنهم".

قال مقاتل:"{ودع أذاهم} إياك، يعني: الذين قالوا للنبي- ﷺ- قل إن لآلهتنا شفاعة".

قال البغوي:"وهذا منسوخ بآية القتال".

قوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} [الأحزاب: ٤٨]، أي:"واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله".

قال الطبري:"يقول: وفوض إلى الله أمورك، وثق به؛ فإنه كافيك جميع من دونه، حتى يأتيك بأمره وقضاؤه".

قال مقاتل:"يعنى: وثق بالله".

قال ابن كثير:"وكِلْ أمرهم إلى الله".

عن محمد بن إسحاق: قوله: " {وتوكل على الله}، أي: ارْضَ به مِن العباد".

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

قوله تعالى: {وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [الأحزاب: ٤٨]، أي:"إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:"فإن فيه كفايةً لهم".

قال الطبري:"يقول: وحسبك بالله قيما بأمورك، وحافظا لك وكالئا".

قال مقاتل:"يعنى: مانعا".

قال البغوي: أي:"حافظا".

=

=

عن قتادة:"{وكفى بالله وكيلا}، قال: حفيظا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين} لما كان الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١- مؤمن ظاهرا وباطنا.

٢- كافر ظاهرا وباطنا.

٣- مؤمن ظاهرا، كافر باطنا.

بين الله تعالى هؤلاء الأقسام في قوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين} بعد قوله تعالى: {وبشر المؤمنين}، والله تعالى يقرن بين هؤلاء الأصناف الثلاثة في عدة مواضع من القرآن، ففي أول سورة البقرة ذكر الله تعالى الأصناف الثلاثة، وفي سورة الأحزاب لما ذكر الأمانة وتحملها ذكر الأصناف الثلاثة، وهنا ذكر الأصناف الثلاثة قال تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين}.

والكافر كل من كفر بالله تعالى سواء كان كفره عن جحود أو عن استكبار؛ لأن الكفر كله يدور على هذين الأمرين؛ إما الجحود وهو التكذيب، وإما الاستكبار عن الطاعة، فمن كفر بالله تعالى وأعلن كفره فهو من الكافرين، ومن ستر كفره فهو من المنافقين.

فالمنافق إذن: من يظهر الإسلام ويبطن الكفر مأخوذ من نافقاء اليربوع، نافقاء اليربوع هي بيته؛ لأن اليربوع له حيلة؛ يحفر في الأرض جحرا له، ويجعل له بابا، ويجعل في أطرف الجحر قشرة رقيقة؛ لأجل إذا حجر مع بابه، نتق مع هذه القشرة الرقيقة فيقال: نافقاء اليربوع، والمنافق هكذا عمله إذا حجر فعل ما يتخلص به، لكن نفاقا، كما قال الله تبارك وتعالى: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا

=

=

آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون} [البقرة: ١٤].
وقوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين} [الأحزاب: ١]، وهذا النهي نهي عما لم يكن، لئلا يكون، وليس نهيا عما كان لئلا يستمر، وبينهما فرق، فهو نهي عما لم يكن لئلا يكون، وليس نهيا عما كان لئلا يستمر.
فإذا قلت لشخص: يا فلان لا تسرق. وهو يسرق فهو نهي عما كان لئلا يستمر، وإذا قلت لمن لم يسرق، لكنه هم بالسرقة أو لم يهم فهذا نهي عما لم يكن لئلا يكون، فقوله تعالى: {ولا تطع الكافرين والمنافقين} ليس المعنى أن الرسول ﷺ كان يطيعهم -حاشاه من ذلك- لكنه لأجل ألا يكون أذيتهم له ومضايقتهم له وإحراجهم إياه؛ لئلا يكون سببا لأن يتنازل عن شيء مما أمر به من أجل دفع أذاهم وإلا فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يطيع المنافقين والكافرين في معصية الله تعالى، ولكن النفس البشرية قد تجتهد في أمر من الأمور، وترى أن من المصلحة التنازل عن بعض الأشياء لدفع ما هو أعظم في نظر المكلف، ويكون الأمر ليس كذلك؛ ولهذا قال تعالى: {ودع أذاهم} قال بعض المصنفين: إنها مضافة إلى المفعول به. يعني: لا تؤذهم، وقال بعض المصنفين: إنها مضافة إلى الفاعل يعني: دع أذيتهم إياك، فلا تلتفت لها، ولا تهتم بها.
والصحيح: هو القول الثاني؛ لأن الأول غير وارد، الرسول عليه الصلاة والسلام لم يؤذهم، ولكنه يؤذى منهم، وعلى هذا يكون المصدر هنا مضافا إلى الفاعل، يعني: دع أذيتهم إياك.
وهذا الأمر إما أن يكون للتهديد، وإما أن يكون للتاييد والتقوية، وإما أن يكون
=

=

لهما جميعا.

إما أن يكون للتهديد: تهديد هؤلاء الكافرين والمنافقين، يعني: دع أذاهم إياك، فسوف ينتقم الله تعالى منهم بدليل قوله تعالى: {وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا}.

أو أن المعنى: التاييد، يعني: دع أذاهم، أي: اصبر عليهم، فيكون هذا من باب تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يأمره بأن يدع أذاهم ولا يهتم بهم ولا يبالي بهم؛ لأن العاقبة ستكون للرسول ﷺ حتى مع هذه الأذية التي قاموا بها بالنسبة لرسول الله ﷺ.

فائدة: الفرق بين الشرك والكفر: أن الكفر أعم فإن كل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركا، قد يجحد الإنسان شيئا مما أنزل الله تعالى فيكون كافرا، وليس بمشرك.

وقوله تعالى: {ودع أذاهم وتوكل على الله} التوكل: ذكروا في حده أقوالا متعددة، ولكن أقرب ما يقال فيه: إنه صدق الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة بالله تعالى صدق الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار مع الثقة به.

وهذا أحسن ما قيل في تفسير التوكل، لأن الإنسان إذا اعتمد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به صار ذلك أقوى له وأطمن لقلبه، ولكن مع هذا فإن التوكل لا ينافي فعل الأسباب الشرعية التي ثبتت إما عن طريق الشرع، وإما عن طريق الحس.

ومن زعم أن هذا ينافي التوكل فقد أخطأ، وذلك لأن الرسول ﷺ لا شك أنه إمام

=

=

المتوكلين، وسيد بني آدم، ومع هذا فكان يفعل الأسباب، فقد كان يتقي من البرد، ويتقي من الحر، ويتقي من البأس، فكان يلبس الدروع كما ظاهر في يوم أحد بين درعين، ومع هذا فإنه لا يقال: إن الرسول عليه الصلاة والسلام ضعيف التوكل.

إذن: فعل الأسباب من تمام التوكل على الله تعالى؛ لأن درء ما تخافه يكون بأمرين: أمر من قبلك أنت، وأمير آخر من قبل الله تعالى، فالأشياء الخفية التي تدركها ولا طاقة لك بها هذا من قبل الله تعالى، والأشياء الظاهرة التي لك بها قبل هذه من قبل نفسك، فعليك أن تفعل هذا، وأن تعتمد على الله تعالى فيما لا تدركه ولا يصل إليه ذهنك.

وقوله تعالى: {وكفى بالله وكيلا}: (كفى) فعل ماض كما هو معروف، والباء حرف جز زائد؛ لتحسين اللفظ، و (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: {وكفى} تارة تتعدى بنفسها، فإذا كان المراد بيان الكفاية فقط فإنها تتعدى بدون حرف الجر، مثل: {وكفى الله المؤمنين القتال} مثل: أن تقول: كفاك الله تعالى شر أعدائك. وما أشبهها، وتارة تتعدى بالباء إذا كان المراد بها معنى التعجب، يعني: ما أبلغ كفايته! مثل قوله تعالى: {وكفى بالله حسيبا}، وقوله تعالى: {وكفى بالله وكيلا}، وما أشبهها.

وهنا المراد بها التعجب، يعني: أنهما أشد كفاية الله تعالى، وما أبلغ كفايته!

وقوله تعالى: {وكفى بالله وكيلا}: {وكيلا} هذه حال من فاعل (كفي)، وقوله تعالى: {وكيلا} بمعني: حفيظا وكافيا، كما قال الله تعالى: {ومن يتوكل على الله

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ الْمُؤْمِنَات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْل أَنْ تَمَسُّوهُنَّ} وَفِي قِرَاءَة تُمَاسُّوهُنَّ أَيْ تُجَامِعُوهُنَّ {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّة تَعْتَدُّونَهَا} تُحْصُونَهَا بِالْأَقْرَاءِ وَغَيْرهَا {فَمَتِّعُوهُنَّ} أَعْطُوهُنَّ مَا يَسْتَمْتِعْنَ بِهِ أَيْ إنْ لَمْ يُسَمِّ لَهُنَّ أصدقة وإلا فلهن نصف المسمى فقط قاله بن عَبَّاس وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيّ {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} خَلُّوا سبيلهن من غير إضرار[1].

=

فهو حسبه} [الطلاق: ٣]، أي: كافيه.

واعلم أن الله تعالى أطلق على نفسه الوكيل وأطلق على نفسه الموكل، يعني: وصف نفسه بالموكل؛ فأما الوكيل فكثير في كتاب الله تعالى، ومعناه: الكافي الحافظ، وما أشبه ذلك، وأما وصف الله تعالى بالتوكيل أنه موكل، ففي قوله تعالى: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما} [الأنعام: ٨٩] ثم قال: {وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين}، ومناسبة قوله تعالى: {وكفى بالله وكيلا}؛ لقوله تعالى: {وتوكل على الله} مناسبتها أنك إذا توكلت عليه كفاك كل شيء، وحفظك، وصار رقيبا عليك.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأحزاب: ٤٩]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»".

=

=

وقال جعفر الصّادق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-:"لذة «يا» في النداء أزال تعب العبادة والعناء".

قوله تعالى: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ} [الأحزاب: ٤٩]، أي:"إِذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن".

قال ابن كثير:"قوله: {الْمُؤْمِنَاتِ} خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق".

قوله تعالى: {ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ} [الأحزاب: ٤٩]، أي:"ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهن".

قال الطبري: " يعني: من قبل أن تجامعوهن".

قال الزجاج:"معنى: {تمسوهن}: تقربوهن".

قال ابن كثير:"هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده؛ لقوله: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها.. وفي الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء".

عن السدي:"{مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}، يعني: تجامعوهن".

عن إبراهيم النخعي: " {وإنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أنْ تُماسُّوهُنَّ}، قال: الجماع".

عن ابن عباس، "أنه تلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}، قال: فلا يكون طالق حتى يكون نكاح".

=

=

قال ابن عباس:"إذا قال: كل امرأة أزوجها فهي طالق، أو إن تزوجت فلانة فهي طالق فليس بشيء، إنما الطلاق لمن يملك من أجل أن الله يقول: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}".

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك".

عن علي، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا طلاق قبل نكاح".

قال ابن كثير:"وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسَيَّب، والحسن البصري، وعلي بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: {إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: "إن تزوجت فلانة فهي طالق". فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: "كل امرأة أتزوجها فهي طالق". فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رَحِمَهُ اللَّهُ: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية".

قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا} [الأحزاب: ٤٩]، أي:"فليس لكم عليهم حق في العدة تستوفون عددها عليهن".

قال الطبري: " يعني: من إحصاء أقراء، ولا أشهر تحصونها عليهن".

=

=

قال ابن كثير:"هذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها مَنْ شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا".

قال ابن عباس:"فهذا في الرجل يتزوج المرأة، ثم يطلقها من قبل أن يمسها، فإذا طلقها واحدة بانت منه، ولا عدة عليها تتزوج من شاءت".

قوله تعالى: {فَمَتِّعُوهُنَّ} [الأحزاب: ٤٩]، أي:"فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيف نفوسكم به من مالٍ أو كسوةٍ، تطييبًا لخاطرهن، وتخفيفًا لشدة وقع الطلاق عليهن".

قال الطبري: " يقول: أعطوهن ما يستمتعن به من عرض أو عين مال".

قال ابن كثير:"المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها، قال الله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ} [البقرة: ٢٣٧]، وقال {لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦]".

عن سهل بن سعد وأبي أسيد قالا: «تزوج النبي ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين».

قوله تعالى: {وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب: ٤٩]، أي:"وخلّوا سبيلهنَّ

=

=

تخليةً بالمعروف، من غير إضرار ولا إيذاء، ولا هضمٍ لحقوقهن".

قال الطبري: " يقول: وخلوا سبيلهن تخلية بالمعروف، وهو التسريح الجميل".

قال ابن عباس:"يقول: إن كان سمى لها صداقا، فليس لها إلا النصف، فإن لم يكن سمى لها صداقا، متعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل".

عن قتادة، في قوله تعالى:" {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا}، قال: «المرأة التي نكحت ولم يبن بها ولم يفرض لها فليس لها صداق وليس عليها عدة»".

وقال سعيد بن المسيب:"نسخت هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها} قال: نسخت هذه الآية التي في البقرة ".

عن قتادة، قوله: " {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات...} إلى قوله: {سراحا جميلا}، قال: قال سعيد بن المسيب: ثم نسخ هذا الحرف المتعة: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُم}} ".

قال الزجاج:"النصف ينوب عن التمتيع، إلا أن يكون لم يسم لها مهرا، فلها نصف مهر مثلها، وأسقط الله العدة عن التي لم يدخل بها؛ لأن العدة في الأصل استبراء".

قال الشافعي في الآية:"في هذا - وغيرها من الآيات - دلالة على أن لا يجوز نكاح إلا باسم النكاح أو التزويج، ولا يقع بكلام غيرهما، وإن كانت معه نية التزويج، وأنه مخالف للطلاق الذي يقع بما يشبه الطلاق من الكلام مع نية

=

=

الطلاق؛ وذلك أن المرأة قبل أن تزوج محرمة الفرج، فلا تحل إلا بما سمى الله - ﷻ - أنها تحل به لا بغيره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا} تقدم لنا الكلام على تصدير الخطاب بمثل هذا النداء، وأنه يدل على أهمية الموضوع، وأنه يدل على أن امتثال ما سيأتي من مقتضيات الإيمان وأن مخالفته من نواقص الإيمان.

وقوله تعالى: {إذا نكحتم المؤمنات} المراد بالنكاح هنا العقد، والنكاح يطلق على العقد وعلى الجماع؛ وذلك لأن أصله في اللغة العربية الضم والجمع؛ لأن العقد يضم الزوج إلى زوجته والزوجة إلى زوجها، وهو يطلق بمعنى هذا وهذا، ولكنه إذا أضيف إلى أجنبية فهو بمعنى العقد، وإذا أضيف إلى زوجة فهو بمعنى الجماع، فإذا قيل: نكح الرجل زوجته. أي: جامعها، وإذا قيل: نكح فلانة بنت فلان. المعنى: عقد عليها.

وهي في القرآن بمعنى العقد، كلما جاءت فهي بمعنى العقد، والغريب أن بعض أهل العلم رحمهم الله يقول: لم تأت بمعنى العقد إلا في هذه الآية، وأنها في القرآن جاءت بمعنى الجماع.

ولكن هذا ليس بصواب، فالصواب العكس وهو: أنها ما جاءت في القرآن إلا بمعنى العقد.

ونستعرض الآيات الواردة في هذا؛ قال الله تعالى: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن} [البقرة: ٢٢١] المعنى: العقد، وفي قوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن} [البقرة: ٢٢١] العقد، وفي قوله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} [النساء: ٢٢] العقد.

=

=

وفي قوله تعالى: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة} [النور: ٣] العقد، فالزاني لا ينكح أي: لا يعقد إلا على زانية أو مشركة، والزانية لا يتزوجها إلا زان أو مشرك، فقوله تبارك وتعالى: {لا ينكح إلا زانية أو مشركة} قال في آخر الآية: {وحرم ذلك على المؤمنين} [النور: ٣]، فإذا كان نكاح الزانية حراما ونكاح الزاني حراما، فإذا عقد على زانية وهو حرام: فإما أن يعتقد التحريم فيكون زانيا؛ لأنه جامعها وهو يعتقد أنه حرام، وإما ألا يعتقد التحريم، ويقول: هذا حلال. فتحليل ما حرم الله تعالى شرك، كما قال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} [التوبة: ٣١]، هذا هو معنى الآية التي لا تحتمل سواه، وهو الذي قرره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله.

مسألة: إذا تزوج الإنسان امرأة ووجد أنها قد جومعت من قبل فلا يجب عليه أن يفارقها إلا إذا علم أنها لا تزال على إصرارها، أما إذا تابت فيجوز أن يتزوجها.

وفي قوله تبارك وتعالى: {فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره} [البقرة: ٢٣٠] العقد، لكن السنة بينت أضافت إلى هذا شرطا آخر وهو "أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته"، وإلا فهو العقد، وهذا واضح.

وفي قوله تعالى: {وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم} [النور: ٣٢] اعقدوا لهم.

المهم: كلما جاءت في القرآن فهي بمعنى العقد حتى في هذه الآية، قال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن} يعني: من قبل أن تجامعوهن.

قوله تعالى: {إذا نكحتم المؤمنات} أي: عقدتم عليهن.

=

=

وقوله تعالى: {المؤمنات} بناء على الأغلب أن الأغلب أن المؤمن لا يتزوج إلا مؤمنة، ولكن لو كانت يهودية أو نصرانية فالحكم لا يختلف، فعلي هذا يكون من باب الاقتصار، وليس من باب الاختصار؛ من باب الاقتصار على أحد الصنفين، وأما الصنف الآخر؛ فلأنه قليل بالنسبة إلى نكاح المؤمنات.

وقوله تعالى: {ثم طلقتموهن} ولم يقل: وطلقتموهن أو فطلقتموهن؛ ليتبين به أنه لو تأخر الطلاق عن العقد مدة طويلة فالحكم لا يتغير كما أنه لو طلقها مباشرة، فالحكم لا يتغير أيضا، فقوله تعالى: {ثم طلقتموهن} أي: بعد العقد.

والطلاق في اللغة حل قيد البعير ونحوه، يعني: حل القيد يسمى طلاقا، وهو اسم مصدر (طلق)، والمصدر من (طلق) تطليقا، مثل: كلم والمصدر تكليما، واسم المصدر كلام، (طلق) المصدر تطليق، واسم المصدر طلاق؛ فالطلاق إذن: هو حل القيد.

أما في الاصطلاح أو في الشرع فطلاق المرأة معناه: حل قيد النكاح أو بعضه، فإن كان الطلاق بائنا لا تحل به الزوجة، فهو حل لقيد النكاح مطلقا، وإن كان رجعيا فهو حل لبعضه، إذ إنه يجوز له أن يراجع.

وقوله تعالى: {ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن}: {من قبل أن تمسوهن} أي: من قبل أن تجامعوهن، وهذا من باب الكناية عما يستقبح ذكره بما يدل عليه؛ ولهذا لم يأت الجماع بلفظ صريح في القرآن الكريم، وإنما كني عنه في كل موضع بما يتناسب والمقام، فمرة يعبر عنه بالإتيان، ومرة بالإفضاء، ومرة بالمس، ومرة بالملامسة، وما أشبه ذلك، كل هذا من باب استعمال ما لا تمجه الأسماع من الكلمات.

=

=

وقوله تعالى: {من قبل أن تمسوهن} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءة: "تماسوهن" أي: تجامعوهن] يقول تعالى: {فما لكم عليهن من عدة تعتدونها} فما لكم: (ما) هذه نافية، و {لكم} جار ومجرور خبر مقدم و {من} حرف جر زائد لمعنى زائد، وقد قلنا: إنه حرف زائد زائد. وكلمة (زائد) الثانية تأسيس لا توكيد، فهو حرف جر زائد لفظا، لكنه يزيد المعنى، (زائد) الأولى من (زاد) اللازم، و (زائد) الثانية من (زاد) المتعدي، فإذا قلت: زاد إيمان الرجل. هذا لازم، وإذا قلت: زادهم إيمانا. هذا متعد، فنقول: هذا حرف جر (زائد) من (زاد) اللازمة، أو: (زائد) من (زاد) المتعدي، يعني: زائد بنفسه، زائد معنى في غيره.

المهم: أن قوله تعالى: {من عدة}: {من} حرف جر زائد لفظا لا معنى.

وقوله تعالى: {عدة} مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ولو قال لنا قائل: هل يجوز أن نجعل (ما) هنا حجازية؟

الجواب: لا يجوز؛ لأن خبرها مقدم، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

... ... مع بقا النفي وترتيب زكن

قوله تبارك وتعالى: {فما لكم عليهن من عدة تعتدونها}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تحصونها].

والعدة في اللغة: اسم مأخوذ من العدد، ولكنها في الاصطلاح أو الشرع: تربص مفارقة في الحياة أو في الممات محدود شرعا.

وقوله تعالى: {تعتدونها} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تحصونها بالأقراء وغيرها]: [بالأقراء] إن كانت من ذوات الأقراء، وعددها ثلاثة قروء، [وغيرها] إن لم تكن من ذوات

=

=

الأقراء وهن الحوامل ومن لا تحيض لصغر أو إياس، فالحامل عدتها وضع الحمل، ومن لا تحيض عدتها ثلاثة أشهر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فمتعوهن} أعطوهن ما يستمتعن به، أي: إن لم يسم لهن أصدقة، وإلا فلهن نصف المسمى فقط، قاله ابن عباس وعليه الشافعي].

وقوله تعالى: {فمتعوهن} الفاء حرف عطف، و (متعوهن) أي: أعطوهن ما يستمتعن به من الدراهم، ومن الثياب، ومن المتاع، ومن العقار، ومن أي شيء، فالله عَزَّ وَجَلَّ أطلقها، ثم إنها مطلقة من جهة الكمية كما أنها مطلقة من جهة النوعية الكمية، فإذا أردت أن أعطيها دراهم، فكما قال تعالى: {ومتعوهن علي الموسع قدره وعلي المقتر قدره} [البقرة: ٢٣٦] أي: حسب حال الزوج.

وقوله تبارك وتعالى: {فمتعوهن} بعد قوله تبارك وتعالى: {ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن} يستثنى من ذلك من سمي لها مهر، فإن من سمي لها مهر لا يجب لها إلا نصفه؛ لقوله تبارك وتعالى: {وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم} [البقرة: ٢٣٧]، فبين الله عَزَّ وَجَلَّ أن لهن نصف ما فرضنا، وهذا إذا سمي لها المهر سواء قل أو كثر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا} خلوا سبيلهن من غير إضرار]، فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بأمرين:

١- التمتيع وهو بذل المال.

٢- والسراح الجميل وهو بذل الخلق.

وذلك بأن تكون المفارقة عن رضا، وبالقول اللين الذي يجبر الخاطر؛ لأن المرأة إذا طلقت بعد أن عقد عليها ولم يدخل بها لا شك أنه ينكسر خاطرها،

=

=

وأنها تتأثر، وأن الناس سوف يتكلمون: لماذا طلقت قبل أن يدخل بها؟ ما هو السبب؟ هل رأى فيها عيبا؟ هل سمع عنها بشيء؟ ولا سيما إذا كانت هي راغبة أيضا بالزوج ثم طلقها من قبل أن يتصل بها، فإنه لا بد أن يكون هناك ردود فعل في نفسها، فأرحم الراحمين سبحانه وتعالى أمرنا أن نمتعهن بالمال، وأن نسرحهن سراحا جميلا بالقول والمعاملة الطيبة.

وذلك مثل أن نقول لها: هذا أمر لم يقدر، وهذا أمر أراده الله ﷻ، وأنا ما فارقتك لسوء خلقك؛ أو لأني سمعت عنك ما يسوء، أو ما أشبه ذلك من الكلام حتى تنفصل منه وهي طيبة النفس منشرحة الصدر، ثم بعد ذلك لا يحصل منها أو من أهلها كلام؛ لأنه ربما إذا طلقها ولم يمتعها، أو متعها بما دون ما تستحقه، أو سرحها سراحا غير جميل، ربما يحصل منها أو من أهلها كلام في الرجل يتكلمون فيه وفي عرضه وفي أهله، وما أشبه ذلك.

فهذا من آداب الله ﷻ التي أدب بها عباده إذا طلق المرأة قبل المسيس، فإن الواجب عليه أمران: التمتيع بالمال، والسراح الجميل بالقول والفعل وطلاقة الوجه وانبساط القلب، وما أشبه ذلك.

وقد يقول قائل: كيف يمكن هذا والرجل لم يطلقها في هذه الحال إلا وهو كارة لها بلا شك؛ ولو كان عنده أدني محبة لكان دخل بها وجامعها، ونظر ربما تتغير الأمور، يعني: لو كان زهد فيها بعض الزهد لكان في قلبه محبة لها هل يغامر ويطلقها من قبل أن يجامع، العقل لا يقتضي ذلك، يقتضي أن تنتظر وتجامعها لأنه ربما تغيرت الأمور.

ومن ثم نهي عن الطلاق في الحيض؛ لأن الإنسان إذا كانت امرأته حائضا فإنه لا

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠).

{يأيها النَّبِيّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَك أَزْوَاجك اللَّاتِي آتَيْت أُجُورهنَّ} مُهُورهنَّ {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينك مِمَّا أَفَاءَ الله عَلَيْك} مِنْ الْكُفَّار بِالسَّبْيِ كَصَفِيَّة وَجُوَيْرِيَة {وَبَنَات عَمّك وَبَنَات عَمَّاتك وَبَنَات خَالك وَبَنَات خَالَاتك اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَك} بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْنَ {وَامْرَأَة مُؤْمِنَة إنْ وَهَبَتْ نَفْسهَا لِلنَّبِيِّ إنْ أَرَادَ النَّبِيّ أَنْ يَسْتَنْكِحهَا} يَطْلُب نِكَاحهَا بِغَيْرِ صَدَاق {خَالِصَة لَك مِنْ دُون الْمُؤْمِنِينَ} النِّكَاح بِلَفْظِ الْهِبَة مِنْ غَيْر صَدَاق {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {فِي أَزْوَاجهمْ} مِنْ الْأَحْكَام بِأَنْ لَا يَزِيدُوا عَلَى أَرْبَع نِسْوَة وَلَا يَتَزَوَّجُوا إلَّا بِوَلِيٍّ وَشُهُود ومهر {و} في {ما مَلَكَتْ أَيْمَانهمْ} مِنْ الْإِمَاء بِشِرَاءٍ وَغَيْره بِأَنْ تَكُون الْأَمَة مِمَّنْ تَحِلّ لِمَالِكِهَا كَالْكِتَابِيَّةِ بِخِلَافِ المجوسية والوثنية وأن تستبريء قَبْل الْوَطْء {لِكَيْلَا} مُتَعَلِّق بِمَا قَبْل ذَلِكَ {يكون عليه حَرَج} ضِيق فِي النِّكَاح

=

يجامعها، لكن فيبقى كارها لها، ولا يوجد هناك سبب يدعو إلى المحبة وهو الجماع؛ فلهذا نهي عنه.

فهذه من الحكم في النهي عن الطلاق في الحيض، وليست هي الحكمة الوحيدة {فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا}.

{وَكَانَ اللهُ غَفُورًا} فِيمَا يُعْسِر التَّحَرُّز عَنْهُ {رَحِيمًا} بِالتَّوْسِعَةِ فِي ذلك[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: خطبني رسول الله ﷺ؛ فاعتذرت إليه، فعذرني، ثم أنزل: {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}، قالت: فلم أكن أحل له؛ لأني لم أهاجر، كنت من الطلقاء.

أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٥٣)، والترمذي (٣٢١٤)، والطبري في جامع البيان (٢٢/ ١٥)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٢٧)، والحاكم (٢/ ٤٢٠) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٥٤) وغيرهم، والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن العربي في أحكام القرآن (٣/ ٥٨٨): ضعيف جدا ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج في مواضعه بها، وقال الذهبي في المهذب (٥/ ٢٦١٩): فيه أبو صالح بازام متكلم فيه، وقال العلامة الألباني في ضعيف الترمذي: ضعيف جدا، وكذا قال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٢٣ - ١٢٤)، وكذا ضعفه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن الترمذي (٥/ ٤٢٧).

وعن عكرمة؛ قال -في قول الله تعالى: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ} -: هي أم شريك الدوسية.

=

=

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٥٥): نا محمد بن عمر الواقدي عن ابن جريج عن أبي الزبير عن عكرمة به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الواقدي؛ متروك الحديث، وكذبه بعضهم.

الثانية: ابن جريج وأبو الزبير مدلسان، وقد عنعناه.

الثالثة: الإرسال.

وأخرج ابن سعد (٨/ ١٥٥) عن محمد بن عمر (الواقدي) حدثني عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون مثله. وسنده ضعيف جدًا.

وعن منير بن عبد الله الدوسي؛ قال: أسلم زوج أم شريك، وهي غزية بنت جابر الدوسية من الأزد، وهو أبو العكر، فهاجر إلى رسول الله مع أبي هريرة مع دوس حين هاجروا، قالت أم شريك: فجاءني أهل أبي العكر، فقالوا: لعلك على دينه؟ قلت: أي والله، إني لعلى دينه، قالوا: لا جرم والله لنعذبنك عذابًا شديدًا، فارتحلوا بنا من دارنا -ونحن كنا بذي الخلصة وهو موضعنا-، فساروا يريدون منزلًا، وحملوني على جمل ثفال شر ركابهم وأغلظه، يطعموني الخبز بالعسل ولا يسقوني قطرة من ماء، حتى إذا انتصف النهار وسخنت الشمس ونحن قائظون؛ نزلوا فضربوا أخبيتهم، وتركوني في الشمس؛ حتى ذهب عقلي وسمعي وبصري؛ ففعلوا ذلك بي ثلاثة أيام، فقالوا لي في اليوم الثالث: اتركي ما أنت عليه، قالت: فما دريت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة، فأشير بإصبعي إلى السماء بالتوحيد، قالت: فوالله إني لعلى ذلك وقد بلغني الجهد؛ إذ وجدت برد دلو على صدري، فأخذته، فشربت منه نفسًا واحدًا ثم انتزع مني، فذهبت أنظر؛

=

=

فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه، ثم دلّي إليّ ثانية؛ فشربت منه نفسًا ثمّ رفع، فذهبتُ أنظر؛ فإذا هو بين السماء والأرض، ثمّ دلّي إليّ الثالثة؛ فشربت منه حتى رويت وأهرقت على رأسي ووجهي وثيابي، قالت: فخرجوا فنظروا، فقالوا: من أين لك هذا يا عدوة الله؟! قالت: فقلت لهم: إنّ عدوة الله غيري من خالف دينه، وأمّا قولكم من أين هذا؛ فمن عند الله، رزقًا رزقنيه الله، قالت: فانطلقوا سراعًا إلى قربهم وأداواهم فوجدوها موكأة لم تحلّ، فقالوا: نشهد أن ربّك هو ربّنا، وأنّ الذي رزقك ما رزقك في هذا الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام، فأسلموا وهاجروا جميعًا إلى رسول الله، وكانوا يعرفون فَضْلِي عليهم وما صنع الله إلي، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وهي من الأزد، فعرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة وقد أسنت، فقالت: إني أهب نفسي لك وأتصدّق بها عليك، فقبلها النبيّ ﷺ، فقالت عائشة: ما في امرأة حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك، فسمّاها الله مؤمنة، فقال: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}، فلما نزلت هذه الآية؛ قالت عائشة: إنّ الله ليسرع لك في هواك.

قال محمد بن عمر: رأيت من عندنا يقولون: إنّ هذه الآية نزلت في أمّ شريك، وإنّ الثبت عندنا أنّها امرأة من دوس من الأزد؛ إلا في رواية موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن جده.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٥٥، ١٥٦): نا محمد بن عمر؛ قال: حدثني الوليد بن مسلم عن منير به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

=

=

الأولى: الواقدي وهو محمد بن عمر؛ متروك الحديث، وكذبه بعضهم.

الثانية: الوليد بن مسلم؛ يدلس تدليس التسوية ولم يصرح هنا بالتحديث.

الثالثة: منير هذا لم نجد له ترجمة، وسياقه فيه نكارة.

الرابعة: الإرسال.

* قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"يا أيها النبي إنَّا أبَحْنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك} اللاتي تزوجتهن بصداق مسمى".

قال مقاتل:"يعنى: النساء التسع اللاتي آتيت أجورهن أحللنا لك".

قال يحيى: {أجورهن} : " صداقهن".

عن مجاهد، قوله: " {أزواجك اللاتي آتيت أجورهن} ، قال: صدقاتهن".

قال ابن زيد:"كان كل امرأة آتاها مهرا فقد أحلها الله له".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن...} إلى قوله: {خالصة لك من دون المؤمنين} فما كان من هذه التسمية ما شاء كثيرا أو قليلا".

قوله تعالى: {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"وأبَحْنا لك ما مَلَكَتْ يمينك من الإماء، مما أنعم الله به عليك".

قال الطبري:"يقول: وأحللنا لك إماءك اللواتي سبيتهن، فملكتهن بالسباء، وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء".

=

=

قال مقاتل:"يعني بالولاية: مارية القبطية أم إبراهيم وريحانة بنت عمرو اليهودي، وكانت سبيت من اليهود".

قال ابن كثير:"أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السراري، رضي الله عنهما".

قوله تعالى: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"وأبحنا لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك".

قال الطبري:"فأحل الله له ﷺ من بنات عمه وعماته وخاله وخالاته، المهاجرات معه منهن دون من لم يهاجر منهن معه".

قال مقاتل:"فإن كانت لم تهاجر إلى المدينة فلا يحل تزويجها".

قال ابن كثير:"قوله: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}: هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فَرّطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا بشع فظيع.

وإنما قال: {وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ} فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه، وجمع الإناث لنقصهن كقوله: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل: ٤٨]، {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، {وَجَعَلَ

=

=

الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]، وله نظائر كثيرة".

عن الحسن، أن النبي عليه السلام لما خير نساءه، فاخترن الله ورسوله قصره عليهن، وقال: {لا يحل لك النساء من بعد} [الأحزاب: ٥٢] إلى آخر الآية".

عن أم هانئ، قالت: "خطبني النبي ﷺ فاعتذرت له بعذري، ثم أنزل الله عليه: {إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن...} إلى قوله: {اللاتي هاجرن معك}، قالت: فلم أحل له؛ لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء".

في قراءة ابن مسعود: «وبنات خالاتك واللاتي هاجرن معك»، بواو.

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في حرف ابن مسعود: «واللاتي هاجرن معك»، يعني بذلك: كل شيء هاجر معه ليس من بنات العم والعمة، ولا من بنات الخال والخالة".

قوله تعالى: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"وأبحنا لك امرأة مؤمنة مَنَحَتْ نفسها لك من غير مهر".

قال ابن كثير:"أي: ويحل لك - يأيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك".

قال مقاتل:"وهي أم شريك بنت جابر بن ضباب بن حجر من بنى عامر بن لوى وكانت تحت أبي الفكر الأزدي وولدت له غلامين شريكا ومسلما ويذكرون أنه نزل عليها دلو من السماء فشربت منه ثم توفي عنها زوجها أبو الفكر فوهبت نفسها للنبي - ﷺ - فلم يقبلها ولو فعله لكان له خاصة دون المؤمنين. فإن وهبت امرأة يهودية أو نصرانية أو أعرابية نفسها فإنه لا يحل للنبي - ﷺ - أن يتزوجها".

=

=

عن مجاهد، قوله: " {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي} بغير صداق، فلم يكن يفعل ذلك وأحل له خاصة من دون المؤمنين".

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «وامرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبي» بغير «إن».

قوله تعالى: {إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"إن كنت تريد الزواج منها".

قال الطبري:"يقول: إن أراد أن ينكحها فحلال له أن ينحكها وإذا وهبت نفسها له بغير مهر".

قال ابن كثير:"وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخبارًا عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: {وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} [هود: ٣٤]، وكقول موسى: {يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]، وقال هاهنا: {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا}".

عن سهل بن سعد الساعدي؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وَهَبت نفسي لك. فقامت قياما طويلا فقام رجل فقال: يا رسول الله، زَوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال رسول الله ﷺ: "هل عندك من شيء تُصدقها إياه"؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ: "إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك، فالتمس شيئا". فقال: لا أجد شيئا. فقال: "التمس ولو خاتما من حديد" فالتمس فلم يجد شيئا، فقال له النبي ﷺ: "هل معك من القرآن شيء؟ " قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ: "زوجتكها بما معك من القرآن".

=

=

عن ثابت، قال: "كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها. فقال: "هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها".

عن أنس بن مالك: "أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها. فقال: "قد قبلتها".فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تَشْتَك شيئًا قط، فقال: "لا حاجة لي في ابنتك".

قوله تعالى: {خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٥٠]، أي:"خالصة لك، وليس لغيرك أن يتزوج امرأة بالهِبَة".

قال الطبري:"يقول: لا يحل لأحد من أمتك أن يقرب امرأة وهبت نفسها له، وإنما ذلك لك يا محمد خالصة أخلصت لك من دون سائر أمتك".

قال مقاتل:"يعني: خاصة لك، يا محمد من دون المؤمنين لا تحل هبة المرأة نفسها بغير مهر لغيرك من المؤمنين".

قال ابن كثير:"أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه بها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش، رضي الله عنها".

واختلف في التي وهبت نفسها له على أربعة أقوال:

=

=

أحدها: أنها أم شريك بنت جابر بن ضباب، وكانت امرأة صالحة، قاله عروة بن الزبير ، ومقاتل.

قال عروة:"كنا نتحدث أن أم شريك رضي الله، عنها كانت ممن وهبت نفسها للنبي ﷺ وكانت امرأة صالحة".

قال مقاتل:"وكانت أم شريك قبل أن تهب نفسها للنبي - ﷺ- امرأة أبي الفكر الأزدى ثم الدوسي من رهط أبي هريرة".

عن الحكم، قال: "كتب عبد الملك إلى أهل المدينة يسألهم، قال: فكتب إليه علي، قال شعبة: وهو ظني علي بن حسين، قال: وقد أخبرني به أبان بن تغلب، عن الحكم، أنه علي بن الحسين الذي كتب إليه، قال: هي امرأة من الأسد يقال لها: أم شريك، وهبت نفسها للنبي".

الثاني: أنها خولة بنت حكيم، وهذا قول عائشة رضي الله عنها ، عروة بن الزبير.

الثالث: أنها ميمونة بنت الحارث، قاله ابن عباس.

عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة. ست من قريش خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسورة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة وامرأتين من بني هلال، ميمونة بن الحرث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وزينب أم المساكين، وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بن الحارث وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش والسبيتين صفية بنت حي وجويرية بنت الحارث الخزاعية".

قال قتادة:"يقول: ليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير أمر ولي ولا مهر، إلا للنبي، كانت له خالصة من دون الناس ويزعمون أنها نزلت في ميمونة بنت

=

=

الحارث أنها التي وهبت نفسها للنبي".

الرابع: أنا زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار. قاله الشعبي.

عن الشعبي، أنها امرأة من الأنصار، وهبت نفسها للنبي، وهي ممن أرجأ".

وقال ابن عباس:"لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها".

قال ابن زيد:"كان كل امرأة آتاها مهرا فقد أحلها الله له إلى أن وهب هؤلاء أنفسهن له، فأحللن له دون المؤمنين بغير مهر خالصة لك من دون المؤمنين إلا امرأة لها زوج".

عن صالح بن مسلم، قال: "سألت الشعبي عن امرأة وهبت نفسها لرجل، قال: لا يكون لا تحل له، إنما كانت للنبي ﷺ".

عن أبي بن كعب، "أن التي أحل الله للنبي من النساء هؤلاء اللاتي ذكر الله: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن...} إلى قوله: {في أزواجهم} وإنما أحل الله للمؤمنين مثنى وثلاث ورباع".

عن ابن عباس، قوله: " {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك...} إلى آخر الآية، قال: حرم الله عليه ما سوى ذلك من النساء، وكان قبل ذلك ينكح في أي النساء شاء، لم يحرم ذلك عليه، فكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا أن ينكح في أي الناس أحب؛ فلما أنزل الله: إني قد حرمت عليك من الناس سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه".

روي عن الحسن البصري أنه قرأ: " «أن وهبت» بفتح الألف، بمعنى: وأحللنا له امرأة مؤمنة أن ينكحها؛ لهبتها له نفسها".

قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}

=

=

[الأحزاب: ٥٠]، أي:"قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقةٍ، ومهر، وشهود في العقد، وعدم تجاوز أربع من النساء، وما أبحنا لهم من مِلك اليمين عدا الحرائر، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرًا لك".

قال الطبري: يقول:"قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك، وما خصصناهم به من الحكم في ذلك دونك وهو أنا فرضنا عليهم أنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي عصبة وشهود عدول، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع، وقوله: {وما ملكت أيمانهم} يقول تعالى ذكره: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم، لأنه لا يحل لهم منهن أكثر من أربع، وما ملكت أيمانهم، فإن جميعهن إذا كن مؤمنات أو كتابيات، لهم حلال بالسباء والتسري وغير ذلك من أسباب الملك".

قال مقاتل:"يعني: ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر وبينة وأحللنا لهم ما ملكت أيمانهم يعنى جماع الولاية".

عن السدي: {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم}،"يعني: ما أوجبنا عليهم".

عن مجاهد: " {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم}، قال: في الأربع". وفي لفظ:"يجاوز الرجل أربع نسوة".

قال قتادة:"كان مما فرض الله عليهم أن لا تزوج امرأة إلا بولي وصداق عند شاهدي عدل، ولا يحل لهم من النساء إلا أربع وما ملكت أيمانهم".

قال العثيمين: ثم قال الله ﷻ: {ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مهورهن].

=

=

قوله تعالى: {ياأيها النبي} مثل: هذه الصيغة تدل على تعظيم المخاطب حيث وجه إليه الخطاب بالنداء؛ هذا من وجه. ومن وجه آخر أنه وصف بالنبوة: {ياأيها النبي}، ففي ذلك تعظيم وتفخيم لرسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: {إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن}: {أحللنا} أي: جعلناهن حلا لك.

وهل المراد أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن؟ أو المراد أزواجك اللاتي تزوجت بهن؟

الجواب: في هذا قولان لأهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

فمنهم من قال: {إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن} يعني: أزواجك اللاتي تريد أن تتزوج بهن وتؤتيهن أجورهن.

وحجة هؤلاء: أننا لو حملناها على من تزوج بهن لكان ذلك من باب تحصيل الحاصل؛ لأنه إذا كانت الزوجة معه وقد أقره الله تعالى عليه فلا حاجة إلى أن يقول: إنا أحللنا لك؛ لأنهن عنده متزوج بهن.

والقول الثاني: أن المراد أحللنا لك أزواجك اللاتي تزوجت بهن؛ بدليل قوله تعالى: {اللاتي آتيت أجورهن}، وهذا القول الثاني هو الموافق لظاهر الآية؛ لأن قوله تعالى: {آتيت} فعل ماض؛ وعلى القول الأول يجب أن نؤول الفعل الماضي بالفعل المضارع، يعني: اللاتي تؤتي أجورهن وهذا خلاف ظاهر الآية.

ويجاب عما أيد به أولئك قولهم: أنه إذا كان المراد الزوجات اللاتي في حباله، فإن ذكر الإحلال من باب تحصيل الحاصل.

ويجاب على هذا: بأن ذكر الإحلال من باب التوكيد، ومعناه: أن هؤلاء حلال

=

=

لك ليس فيهن شبهة، وليس فيهن معارضة.

ويمكن أن يكون للامتنان، لكن الظهور دفع ما يمكن أن يوجه إليه من لوم.

قوله تبارك وتعالى: {اللاتي آتيت أجورهن}: {آتيت} بمعنى: أعطيت، وأما (أتيت) بغير ما فهي بمعنى: جئت، يقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: أي: [مهورهن]، وسمي المهر أجرا؛ لأنه عوض عن الانتفاع بالزوجة والاستمتاع بها، وليس عوضا عن ذاتها، ولو كان عوضا عن ذاتها لسمي ثمنا، لكنه عوض الاستمتاع بها والانتفاع بها؛ ولهذا سمي أجرة.

وقوله تعالى: {آتيت أجورهن} إذا كانت (آتيت) بمعنى: أعطيت، فهي تنصب مفعولين، المفعول الأول محذوف، والتقدير: آتيتهن، و {أجورهن} هو المفعول الثاني، وجائز حذف المفعول مع العلم به.

وقوله تعالى: {وما ملكت يمينك} الواو حرف عطف، و (ما) معطوفة على قوله تعالى: {أزواجك}: وأحللنا لك ما ملكت يمينك، أي: ملكت ذاته أو الانتفاع به؛ وملك الذات يستلزم ملك المنافع؛ لأن من ملك شيئا ملك منافعه، ومن ملك المنافع لم يلزم أن يملك الأعيان أو الذات.

وقوله تعالى: {وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك} يمينك ويداك وما أشبه ذلك يعبر بها عن الذات؛ لأنها غالبا وسيلة الأخذ والإعطاء، فقوله تعالى: {فبما كسبت أيديكم} يعني: بما كسبتم، وقوله تعالى: {وما ملكت أيمانهم} أي: مما ملكت، لكنه عبر باليمين عن الذات؛ لأن الغالب أن الأخذ والإعطاء هنا باليد، واليمين أشرف من اليسار، فهي التي يؤخذ ويعطى بها.

وقوله تعالى: {وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك}: (من) هذه بيانية وما هو

=

المبين؟ المبين اسم الموصول -واسم الشرط واسم الاستفهام كلها من الأشياء المبهمة فيأتي البيان بعدها-؛ فقوله: (من) بيان (ما) في قوله تعالى: {وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الكفار بالسبي] (أفاء) بمعنى: رد، ومنه الفيء، وهو الظل بعد الشمس؛ لأنه رجع بعد أن نسخته الشمس، فصار ظلا كما هو الحال قبل أن تأتيه الشمس.

وقوله تعالى: {مما أفاء الله عليك} المراد به هنا الغنيمة؛ لأن الغنيمة في الحقيقة رد للمال من غير أهله إلى أهله، فإننا نحن -المسلمين- المستحقون حقا لما رزق الله تعالى الخلق، والكفار يستمتعون به على وجه الظلم؛ ولهذا يؤاخذون به، وقد تقدم أن الكفار يحاسبون على الأكل والشرب واللباس، وذكرنا في ذلك دليلا من القرآن، قال تعالى: {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة} [الأعراف: ٣٢]، فهذه فيها اللباس، والأكل {والطيبات من الرزق}، و {للذين آمنوا} هذه اللام للإباحة والاستحقاق {خالصة يوم القيامة} للمؤمنين، أما أولئك فليست لهم وليست خالصة لهم يوم القيامة، فهي في الدنيا حرام عليهم، ويحاسبون عليها يوم القيامة.

والآية التي فيها الدليل على أن الأكل والشرب حرام على الكفار هي قوله تعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} مفهومه: أن الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات عليهم جناح فيما طعموا.

إذن: بهذا يتبين وجه كون الغنيمة فيئا، والفيء بمعنى: الرجوع والرد؛ فلهذا يكون المال الذي بأيدي الكفار إذا غنمه المسلمون فقد عاد إلى أهله، كأنهم يأخذون

=

المال بغير حق، فإذا أخذناه منهم عاد إلى مستحقه.

وقوله تعالى: {وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الكفار بالسبي كصفية وجويرية]، وصفية من سبايا خيبر، وجويرية من سبايا غزوة بني المصطلق، وهما من أمهات المؤمنين.

وقوله تعالى: {مما أفاء الله عليك} ظاهره أن ما ملكت يمينه من غير ذلك لا تحل له، ولكنه غير مراد، بدليل أن مارية القبطية استحلها النبي عليه الصلاة والسلام.

وأتت منه بولد، وكانتا -صفية وجويرية - من ملك اليمين أولا، ثم أعتقهن وتزوجهن.

وقوله تعالى: {وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخلاف من لم يهاجرن].

وهؤلاء الأربع هن الحلائل من الأقارب، وما عداهن من الأقارب فحرام كما في سورة النساء، فصار الأقارب الآن محللات ومحرمات، أما المحرمات فما ذكرن في سورة النساء في قوله تعالى: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت} [النساء: ٢٣]، وهن سبع، والمحللات من الأقارب أربع: بنات العم يعني: وإن نزلن، وبنات العمة وإن نزلن، وبنات الخال وإن نزلن، وبنات الخالة وإن نزلن، هؤلاء كلهن حلال.

وقوله تعالى: {وبنات عمك وبنات عماتك} تكلم المصنفون على قوله: بنات عمك وعماتك وخالك وخالاتك؛ فقالوا: لما أفرد في الذكور وجمع في الإناث،

=

=

فقال في الذكور: عمك وخالك. وفي الإناث قال: عماتك وخالاتك. فقال بعضهم: إن هذا من باب التشريف؛ الذكورة كأن الواحد يقابله من النساء جمع، وإلى هذا ذهب ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال بعضهم: أنه لما كان لفظ العم والخال كلفظ المصدر صار الأنسب ألا يجمع؛ لأن المعروف أن المصادر لا تجمع ولا تثنى، لكن هذا في النفس منه شيء.

والأقرب: ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوة صلة العم بالإنسان أقوى من قوة صلة العمة به؛ فلهذا جمع، وإلا فمن المعلوم أن الإنسان له أعمام وليس له عم واحد فقط، وبنات أعمامه كلهن حلال.

وقوله تعالى: {وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك} فيه زيادة قيد بالنسبة للرسول ﷺ وهو قوله تعالى: {اللاتي هاجرن معك} يعني: هاجرن من مكة إلى المدينة، وسواء كن في معيته مباشرة أو في معيته بالمعنى، أي: بالهجرة، فليس بلازم أن تكون بنت العم أو بنت الخال مع الرسول ﷺ مباشرة يعني: تسير معه، بل لو هاجرت قبله أو بعده فهي داخلة في هذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها} يطلب نكاحها غير صداق {خالصة لك من دون المؤمنين} النكاح بلفظ الهبة من غير صداق]، يعني: الخالص هو النكاح {فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن} إلخ.

قوله تعالى: {وامرأة مؤمنة} يعني: وأحللنا لك امرأة مؤمنة، وهذا نكرة في سياق الإثبات، والمعروف أن النكرة في سياق الإثبات لا تقتضي العموم، لكن لما كان

=

=

السياق سياق منة صارت للعموم، والأصل في النكرة ألا تعم إذا كانت في سياق الإثبات، فإذا قلت لك: اضرب رجلا. ليس معناها أني آمرك أن تضرب جميع الرجال، لكن إذا كانت النكرة في سياق الإثبات يراد بها الامتناع صارت للعموم؛ لأنها لو قيدت بالواحدة لم تكمل بها المنة، فلا تكمل المنة إلا إذا كانت يراد بها العموم.

إذن: نقول: قوله: (امرأة) وإن كانت صياغتها صيغة الواحد، لكن المراد بها العموم، لأنها سيقت للامتنان، والامتنان بالواحدة لا يكمل إلا إذا كانت امتنانا بكل فرد من أفراد هذه النكرة.

إذن: يكون معني الآية: وأحللنا لك أي امرأة، وقوله تعالى: {مؤمنة} هذا قيد يخرج به غير المؤمنة ولو كانت كتابية، فإنها لا تحل للنبي ﷺ؛ ولهذا ذهب بعض العلماء رحمهم الله إلى أن من خصائص النبي ﷺ في النكاح ألا يتزوج امرأة كتابية، وهذا لم يقع، لم يقع أن النبي ﷺ تزوج امرأة كتابية.

ومن المعلوم أن من خصائص الرسول ﷺ في النكاح ما هو توسعة وما هو تضييق، فالتوسعة النكاح بالهبة والتزوج بأكثر من أربع، والتضييق أنه لا يحل له من بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته إلا من هاجرن معه.

وكذلك على القول الراجح أنه بعد تخيير النبي ﷺ لزوجاته لا يحل له النساء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: {إن وهبت نفسها للنبي} وهبت هي بدون وليها، وهبت نفسها أي: أعطتها للنبي ﷺ بلا عوض؛ لأن الهبة تعريفها: بذل المال بدون عوض. فمعنى {وهبت نفسها} يعني: جاءت للرسول عليه الصلاة والسلام وقالت له: قد

=

=

وهبت نفسي لك. فتحل له، لكن لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مخيرا في ذلك، وليس واجبا عليه أن يقبل قال تعالى: {إن أراد النبي أن يستنكحها}، وهذا الشرط داخل في الشرط الأول؛ وقد علم أن الشرط الثاني قيد في الشرط الأول، فهو متأخر لفظا متقدم معنى؛ وكلما تداخلت الشروط فاجعل الشرط الأخير قيدا فيما قبله فهو متأخر رتبة، لكن متقدم معنى؛ فإذا تعددت الشروط (إن) الشرطية أو (إذا) أو ما أشبه، فإن الشرط الأخير يكون شرطا فيما قبله، فيكون متأخرا لفظا متقدما معنى ورتبة، مثلا إذا قلت: أخبرني إذا ضربك زيد إن ظلمك. صار الظلم سابقا على الضرب، وإن كان متأخرا عنه في الذكر، ويتضح ذلك تماما في قول الشاعر:

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا ... منا معاقل عز زانها كرم

فالشرط الأول: (إن تستغيثوا)، والثاني: (إن تذعروا)، والشرط الثاني متأخر عن الأول في اللفظ، لكن متقدم عنه في المعنى والرتبة؛ لأن الذعر سابق على الاستغاثة.

وهذه قاعدة: كلما تعددت الشروط فإن الشرط الثاني سابق على الشرط الأول، أو على الشرط الذي قبله لو تعددت؛ ولو كانت ثلاثة شروط أو أربعة شروط فالثاني سابق لقبله، فإذا كانت ثلاثة شروط فالثالث سابق على الثاني، والثاني سابق على الأول، يعني: بالعكس.

وهنا قال تعالى: {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد} الإرادة تسبق الحل والقبول؛ ولهذا قال تعالى: {إن أراد النبي أن يستنكحها}، وفائدة هذا الشرط أنه لما كان رد النبي ﷺ للمرأة إذا وهبت نفسها النبي ﷺ لما كان أمرا

=

=

شديدا وكان النبي ﷺ أشد الناس حياء كان عرض المرأة نفسها على الرسول ﷺ قد يكون شبه ملزم له بمقتضى خلقه، فلما كان كذلك فتح الله تعالى لرسوله ﷺ الباب على مصراعيه؛ حيث أثبت له الإرادة والتخيير في هذه الحال، فقال تعالى: {إن أراد}.

إذن: فما فائدة ذكر الإرادة مع أن الموهوب له إن شاء قبل الهبة، وإن شاء لم يقبل؛ يعني: هذا أمر معلوم؟

الجواب: الفائدة من قوله تعالى: {إن أراد النبي أن يستنكحها}؛ لئلا يلزم النبي ﷺ نفسه قبول الهبة لما علم من خلقه ﷺ أنه أشد الناس حياء، ومعلوم أن رد الإنسان هبة المرأة نفسها له أمر صعب، كيف امرأة تهب نفسها لك، وتأتي راغبة فيك أشد الرغبة، بحيث إنها فدتك بنفسها، فكيف تردها؟! هذا أمر فيه صعوبة في الواقع، وقد يكون ردها منافيا للمروءة، والنبي ﷺ أشد الناس حرصا على المروءة وأشد الناس حياء في مثل هذه الأمور، لكن الله تعالى أراد أن يفتح له الباب حتى لا يعترض أحد أو يقول قائل: كيف ردها؟! ويكون الرسول ﷺ أعطاها الحرية الكاملة في ذلك في قبولها أو ردها.

قوله تعالى: {إن أراد النبي أن يستنكحها} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [يطلب نكاحها] والصواب: يوافق على نكاحها؛ لأنه مطلوب، والصواب: أن المراد أن يستنكحها، أي: أن يقبل نكاحها.

قوله تعالى: {خالصة لك من دون المؤمنين}، قوله تعالى: {خالصة لك} يحتمل أن تكون صفة لقوله تعالى: {وامرأة مؤمنة}، ويحتمل أن تكون مفعولا لفعل محذوف، والتقدير: جعلناها خالصة لك، أي: هذه الشريعة أو هذه الشرعة

=

=

جعلناها خالصة لك، والخالص من الشيء هو الذي لا يخالطه غيره، فمعنى {خالصة لك} يعني: لا يشاركك أحد فيها، فيما إذا وهبت امرأة نفسها لأحد، فإنها لا تحل له.

وهل المراد بالخالص هنا أن يتزوج بلا مهر ولا ولي، أو أن يقع ذلك بلفظ الهبة؟

الجواب: الصحيح الأول: أن الخالص أن يكون ذلك بلا مهر ولا ولي ولا شروط على القول باشتراط الشروط؛ لأن الهبة هي التبرع بلا عوض، فالمقصود: المعنى لا اللفظ، يعني: أن الذي اختص به الرسول عليه الصلاة والسلام هو أن المرأة تأتي إليه وتقول: وهبت نفسي لك. ويأخذها، وهذا قد وقع فعلا أكثر من مرة، تأتي النساء إلى الرسول ﷺ ويهبن أنفسهن له، فالخالص للرسول ﷺ والخاص به هو أن يكون النكاح مجانا بلا ولي ولا شروط.

وأما الهبة فإن العلماء رحمهم الله اختلفوا: هل يصح النكاح بلفظ الهبة مثل أن أقول: وهبتك بنتي على صداق قدره كذا وكذا، أو ملكتك بنتي على صداق قدره كذا وكذا. اختلف فيه العلماء رحمهم الله على قولين: منهم من يرى أنه لا يصح، وأنه لا بد أن يكون عقد النكاح بلفظ التزويج أو بلفظ الإنكاح، ومنهم من يرى أنه يصح، وهذا له محل آخر.

وقوله تعالى: {خالصة لك من دون المؤمنين}: {دون} بمعنى: سوى، أي: من سواهم، والمعنى: أن المؤمنين لا يحل لهم ذلك، والكافرون من باب أولى، فإن الكافر لا يحل له أن يتزوج بالهبة وكذلك المؤمن.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{خالصة لك من دون المؤمنين} النكاح بلفظ الهبة من غير

=

=

صداق هذا خاص للرسول ﷺ من دون المؤمنين].

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{قد علمنا ما فرضنا عليهم} أي: المؤمنين {في أزواجهم} من الأحكام] {قد علمنا}: {قد} هذه للتحقيق، وقد قيل: إن {قد} إذا دخلت على الماضي فهي للتحقيق، وإن دخلت على المضارع فهي للتقليل، وقد يراد بها التحقيق، فإن قلت: قد قمت. فهذا للتحقيق، وإن قلت: قد يجود البخيل وقد يصدق الكذاب. فهذا للتقليل، لكن تأتي للتحقيق في مثل قوله تعالى: {قد يعلم ما أنتم عليه} [النور: ٦٤]، وقوله تعالى: {قد يعلم الله المعوقين منكم} [الأحزاب: ١٨]، هذه لا شك أنها للتحقيق.

وقوله تعالى: {قد علمنا ما فرضنا عليهم}، يعني: أننا قد فرضنا عليهم أشياء، وعلمنا أن المصلحة تقتضي ما فرضنا دون سواه، فليس المراد بالآية مجرد العلم أو مجرد الإخبار بأن الله تعالى قد علم ما فرض؛ لأن كون الله تعالى قد علم ما فرض أمر معلوم، فإن كون الله تعالى فرضه معلوم أنه صادر عن علم، لكن المراد أن ما فرضناه قد صدر عن علم منا بما يناسبهم في أزواجهم، وليس عن جهل؛ ولهذا قال تعالى: {قد علمنا ما فرضنا عليهم}: {فرضنا} هنا بمعنى: أوجبنا عليهم؛ أي: على المؤمنين {في أزواجهم} من الأحكام.

قوله تعالى: {في أزواجهم}: (أزواج) جمع زوجة أو جمع زوج؛ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [من الأحكام بألا يزيدوا عن أربع نسوة، ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر] وغير ذلك من الأشياء التي تخالف الأحكام الثابتة للرسول ﷺ؛ لأن النبي ﷺ خص بالنكاح بأحكام، وخص المؤمنون بأحكام، وكل ذلك عن علم من الله سبحانه وتعالى وعن حكمة.

=

=

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بألا يزيدوا على أربع] فلا يحل لمؤمن أن يزيد على أربع زوجات؛ لقول الله تعالى: {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع} [النساء: ٣]، فجعل آخر شيء الرباع، أي: الأربع، مع العلم بأن المقام يقتضي الزيادة لو كان هناك زيادة بدليل أن الآية إنما ذكر الله تعالى فيها العدد الممكن؛ لأنها رتبت على شرط، وهو {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى} يعني: إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامي في النساء التي بين أيديكم كبنت العم وشبهها إن خفتم ألا تعدلوا فيها فلديكم النساء كثير، فلو كان هناك زيادة على الأربع لكان الله تعالى يذكرها حتى يكون المجال أوسع، فالآية نزلت مقيدة بشرط {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى} أي: ألا تعدلوا في نكاحهن.

وكانوا في الجاهلية إذا كان الإنسان عنده بنت عم يتيمة كان يظلمها في النكاح، إما أن يمنعها أو بأن يعلقها على أنها تكون له، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقوله تعالى: {فانكحوا} يعني: فالنساء سواهن كثير، قال تعالى: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع}، فلو كان عدد زائد على الأربع جائزا لذكر هنا، ولقيل مثلا: فانكحوا ما شئتم من النساء، أو لقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء. ولم يقيد، فلما قيد علم أنه لا يجوز أكثر من أربع، ولم يخالف في ذلك إلا شذاذ من أهل العلم رحمهم الله أو الرافضة.

والرافضة عندهم توسع في مسائل النكاح، منها هذه المسألة يجوزون أن يتزوج الإنسان إلى تسع، ومنها مسألة المتعة، وهذا مما يوجب لضعفاء الإيمان أن يعتنقوا مذهبهم؛ لأنهم يجدون فيه إشباعا لرغباتهم، فإذا كانوا يجيزون المتعة

=

=

للإنسان إذا نزل ببلد له أن يذهب إلى امرأة فيقول لها: زوجيني نفسك لمدة سبعة أيام، أو لمدة عشرة أيام، أو لمدة شهر. هم يجوزون ذلك!! ويجوزون أيضا أن يتزوج الإنسان إلى تسع!!.

كذلك يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يتزوج إلا بولي] لا يجوز النكاح إلا بولي، والدليل على ذلك من القرآن قوله تبارك وتعالى: {وأنكحوا الأيامى منكم} [النور: ٣٢] أي: زوجوا، وقوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركين} [البقرة: ٢٢١] لا تزوجوا، وقوله تعالى: {فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن} [البقرة: ٢٣٢]، ولولا أن الولي شرط لم يكن لعضله حكم.

ثانيا: [ولا شهود] الشهود مختلف في اشتراطه في النكاح، فالمشهور أنه لا بد من الشهود؛ لأن عقد النكاح خطير، ويترتب عليه مسائل وحقوق نسب ومال؛ وغيره من العقود الأخرى تجدها إما مالية وإما حقوقية أخرى غير المال، لكن هو جامع بين المال والنسب والحقوق؛ فالمال كالمهر والنفقة والإرث، والنسب كإلحاق الولد بأبيه في الزواج، والحقوق ما يجب على الزوج وزوجته من المعاشرة بالمعروف، فلا بد من شهود.

وابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لا يشترط الشهود، بينما اشترط إعلان النكاح أو الشهود، فإن وجد الإعلان ولو بلا شهود كفى، فإما أن يجتمع الإشهاد والإعلان، وهذا أعلى الأقسام، وإما أن يفقد الإشهاد والإعلان وهذا لا يصح، وإما أن يوجد الإشهاد بلا إعلان قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي صحة النكاح هنا تردد ونظر"؛ وإما أن يوجد الإعلان بلا إشهاد، وهذا عندهم صحيح.

فالأقسام إذن أربعة:

=

=

١- أن يوجد الإعلان والإشهاد.

٢- أن يعدم الإعلان والإشهاد.

٣- أن يوجد الإشهاد دون الإعلان.

٤- أن يوجد الإعلان دون الإشهاد.

فيشهدون على العقد، أما الإشهاد على الرضا فهو سنة وليس بواجب.

والإعلان ليس لازما بالوليمة، فقد يكون الإعلان مثلا بالمشي ليلة الزفاف بالأسواق، كما يصنع فيما سبق، وكذلك الآن في السيارات إعلان بين، وكذلك في وضع الأنوار على بيت الزوج وبيت الزوجة هذا أيضا من الإعلان، وإذا لم يحصل فلا يكون إعلانا، فإذا كان لا يظهر أنه عرس فلا يكون إعلانا، أما إن ظهر فإن كان المجتمع اعتبر من العادة أن هذا إعلان فهو إعلان.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلا بولي وشهود ومهر] المهر: الصداق، وظاهر كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن المهر شرط في النكاح.

واعلم أن للمهر ثلاث حالات:

- تارة يذكر معينا.
- وتارة ينفى.
- وتارة يسكت عنه.

ثلاث حالات تارة ينفى، وتارة يثبت معينا، وتارة يسكت عنه فلا يذكر معينا ولا ينفى.

الحال الأولى: الذي يذكر معينا مثل أن يقول: زوجتك ابنتي بعشرة ريالات. فيصح، أو يقول: زوجتك ابنتي بريال واحد. يصح؛ وتزوج رجل امرأة بريال، =

=

فلما صارت الضحى وهو عندها قرع الباب رجل، فذهب يفتح له فتنازعوا إياه، وعلت أصواتهما، فلما رجع إليها قالت زوجته: من هذا الرجل الذي يأتي يخاصمك في أول يوم من زواجك. قال: هذا رجل يطلبني؛ قالت: خذ هذا الريال أعطه إياه، وكان مهرها، لكن الآن لا يوجد أحد يزوج بريال.

فهذا إثباته معين، يعني يقول زوجتك ابنتي بريال أو بعشرة ريالات أو بمئة ريال أو بأكثر أو أقل.

الحال الثانية: أن ينفي فيقول: زوجتك ابنتي. فيقول: قبلت بلا مهر. فاختلف العلماء رحمهم الله في هذا العقد هل يصح أو لا يصح؟ والمشهور من المذهب أن العقد صحيح، ولها مهر المثل، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن العقد لا يصح؛ لأنه تزوج على غير الشرط الذي ذكر الله تعالى؛ لأن الله تعالى يقول {وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين} [النساء: ٢٤].

الحال الثالثة: أن يسكت عنه فلا يذكر معينا ولا ينفى بأن يقول: زوجتك ابنتي. فيقول قبلت. فالعقد هنا صحيح، ولها مهر المثل، وقد نص على ذلك قوله تعالى: {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن} [البقرة: ٢٣٦]، فهنا يجب مهر المثل إذا دخل بها، فإن لم يدخل بها وطلقها قبل الدخول وجبت المتعة.

وظاهر كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: [وشهود ومهر] أن المهر شرط في صحة العقد، فيكون ذلك موافقا لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال تعالى: {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم}: (فرض) إذا تعدت باللام

=

=

فهي بمعنى: أحل كما في قوله تعالى فيما سبق: {ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له} أي: فيما أحل، وكقوله تعالى: {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم} [التحريم: ٢]، أي: أحلها وشرعها، أما إذا تعدت بـ (على) فهي بمعنى الإيجاب كما هنا {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم}.

فائدة: النفي يحمل أولا على نفي الوجود، فإن لم يمكن فعلى نفي الصحة، فإن لم يمكن فعلى نفي الكمال، مثاله في نفي الوجود: لا إله حق إلا الله، ومثاله لنفي الصحة: لا صلاة إلا بوضوء؛ لأنه يمكن أن يصلي الإنسان بدون وضوء، ومثاله في نفي الكمال لا صلاة بحضرة طعام؛ لأنه لو صلى لصحت، ولا يمكن أن نحمله على الكمال وهو يمكن نفيه على الصحة: لا نكاح صحيحا إلا بولي، فما دام يمكن حمله على نفي الصحة يجب، فأول ما نسلط النفي على نفي الوجود؛ لأن هذا هو ظاهر اللفظ؛ فإن لم يمكن بأن كان موجودا حملناه على نفي الصحة؛ لأن نفي الصحة نفي للوجود شرعا، فإن لم يمكن فإن دلت النصوص على الصحة يحمل على نفي الكمال.

قوله تعالى: {وما ملكت أيمانهم} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الإماء] يعني: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من الإماء، خص المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ما) العامة بالإماء؛ لأن (ما) اسم موصول، تفيد العموم، والإنسان يملك الإماء، ويملك المواشي، ويملك الدراهم، ويملك البناء، ويملك الأراضي، فهل (ما) هنا للعموم؛ يعني: وفيما ملكت أيمانهم من كل شيء من الإماء كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

نقول: إن اللفظ العام لا يمكن أن نخصصه نحن إلا بدليل، وإلا فالواجب إبقاء

=

=

العموم على عمومه، وهنا خصصناه بالإماء بدليل قرنه بالأزواج.

والكلام الآن فيما يتعلق بالحقوق الزوجية، فقال تعالى: {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم} من الإماء، فتكون الدلالة على التخصيص من قوله تعالى: {أزواجهم}.

وعلى هذا فنقول: كل موضع ذكر فيه الأزواج وما ملكت اليمين، فالمراد بما ملكت اليمين: الإماء.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [بشراء وغيره] يعني: علمنا ما فرضنا عليهم من الإماء بالشراء وبغير الشراء، وهل يمكن أن يملك الإنسان الأمة بغير الشراء؟

الجواب: يمكن، بالسبي، وبالهبة، وبالإرث، وأسباب التملك كثيرة.

المهم: أن ملك اليمين أسبابه متعددة.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية] أفادنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه لا يحل من الإماء إلا الأمة غير الكتابية، وهي اليهودية والنصرانية، فأما الأمة المجوسية فلا تحل، يعني: لو سبينا إماء من المجوس، فإنه لا يحل لنا وطؤهن، وكذلك الوثنية وهي التي تعبد الأوثان، فهي لا تحل لنا بملك اليمين.

وما الفرق بين المجوسية والوثنية؟

الفرق بينهما أن المجوسية تعبد النار، والوثنية تعبد الأصنام من الأشجار والأحجار وما أشبه ذلك، وكذلك من يعبد القبور، وكذلك من لا تصلي، لكن من لا تصلي مرتدة يجب أن تقتل إذا لم تتب.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخلاف المجوسية والوثنية] هذا أحد القولين في

=

=

المسألة، والصحيح أن المجوسية والوثنية حلال بملك اليمين؛ لعموم قوله تعالى: {وما ملكت أيمانهم}، {إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم} [المؤمنون: ٦]، فكلمة (ما ملكت أيمانهم) عام، يشمل ما ملكته من الكتابيات وما ملكته من المجوسيات وما ملكته من الوثنيات والشيوعيات وغير ذلك، ولا دليل على التقييد بالكتابية.

نعم؛ النكاح هو الذي لا يحل إلا من الكتابية، كما قال الله تعالى: {والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن} [المائدة: ٥]، ما قال: إذا ملكتموهن. قال تعالى: {إذا آتيتموهن أجورهن}، فدل هذا على أن المراد بذلك النكاح؛ لأنها هي التي تؤتي أجرها، أما المملوكة فتشترى.

فالصواب: أنه تحل لنا المملوكة إذا كانت مجوسية أو كتابية لعموم الكتاب.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأن تستبرأ قبل الوطء] هذا أيضا مما فرضه الله تعالى علينا، أن نستبرئ الأمة التي ملكناها قبل أن نطأها؛ لأن النبي ﷺ في غزوة أوطاس نهى أن توطأ حامل حتى تضع، وأن لا توطأ ذات حيض حتى تحيض، فلا بد من الاستبراء إن كانت حاملا فبوضع الحمل، وإن كانت تحيض فبحيضة.

وهل الاستبراء واجب بكل حال أو لا تستبرأ البكر؟

ذهب بعض العلماء رحمهم الله إلى أن الاستبراء واجب حتى في الأبكار، وقال بعض أهل العلم رحمهم الله -ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن البكر لا تستبرأ؛ لأن الغرض من الاستبراء العلم ببراءة الرحم، والبكر براءة رحمها معلوم، واحتمال أن تتحمل بعلاج غير الوطء وارد لكنه بعيد، يعني: يحتمل أن تكون بكرا، لكن تتحمل بمني رجل من الناس وتحمل؛ لكن هذا بعيد، فإذا

=

=

ملكها رجل أمين وأخبره أنه قد استبرأها قبل البيع، فالمذهب يجب الاستبراء، والقول الثاني في المسألة أنه لا يجب الاستبراء ما دام البائع أمينا.

وقوله تعالى: {لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما}: (لكيلا): (كي) مصدرية، ولا يصح أن تكون حرف جر للتعليل، كما لو قلت: جئت كي أقرأ. فإنه إذا اقترنت باللام تعين أن تكون مصدرية؛ لئلا يجمع بين حرفي تعليل، فإن لم تسبق باللام صارت حرف تعليل، والفعل بعدها منصوب بـ (أن).

إذن: في (لكي): اللام حرف جر، و (كي) مصدرية، و (لا) نافية، و (يكون) فعل مضارع منصوب بـ (كي)، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

وقوله سبحانه وتعالى: {لكيلا يكون عليك} يعني: على النبي ﷺ، فالخطاب للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: {حرج} أي: ضيق في النكاح، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [متعلق بما قبل ذلك]، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [قبل ذلك] يحتمل أن يريد أنه متعلق بـ (أحللنا): {إنا أحللنا لك أزواجك} [الأحزاب: ٥٠] إلى قوله تعالى: {لكيلا يكون عليك حرج}.

ويحتمل أن تكون متعلقة بـ (خالصة لك): {خالصة لك من دون المؤمنين} أي: خالصة لك؛ لكي لا يكون عليك حرج.

وكلا المعنيين صحيح؛ ولهذا قال بعض العلماء رحمهم الله: إنها متعلقة بـ (أحللنا). وقال بعضهم: إنها متعلقة بـ (خالصة). وكلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ صالح للوجهين، لكي لا يكون عليك حرج، يعني: أننا أحللنا لك هذا الحل حتى لا يكون عليك ضيق في النكاح.

=

=

ومعلوم أن النبي ﷺ مطلوب، فالنساء قد يأتين إليه يعرضن أنفسهن عليه، فإذا لم تحل له الواهبة نفسها صار عليه في ذلك ضيق من وجهين:

١- إن رغبها ففيه ضيق عليه ألا يتزوجها.

٢- وإن لم يرغبها ففيه ضيق عليه إن ردها.

والله ﷻ جعل الخيار له قال تعالى: {إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج} أي: ضيق حتى يتسع له المجال، والرسول ﷺ خص بهذا - أي: بأن يتزوج من شاء- حتى فيمن وهبت نفسها له؛ لأن اتصاله بهن فيه مصلحة عظيمة، لهن ولأهلهن وللمسلمين:

١- لهن ظاهر.

٢- ولأهلهن؛ لأنه لا شك أنه من الشرف أن يتزوج النبي ﷺ بامرأة؛ لأنه ليس من الشك في أن لمن تزوج النبي ﷺ منهم الشرف في مصاهرة النبي ﷺ.

٣- وللمسلمين؛ لأن هذه المرأة سيكون عندها علم من سنة رسول الله ﷺ؛ لولا العلم لولا اتصاله به ما حصلته؛ ولهذا كثير من السنن البيتية، تلقيت من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: {وكان الله غفورا رحيما} يجمع الله تعالى دائما بين هذين الاسمين الكريمين؛ لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، وإذا زال المكروه وحصل المطلوب فقد تمت الأمور.

وقوله تعالى: {وكان الله غفورا}: (كان) هنا مسلوبة الدلالة على الزمن، والمراد بها تحقق الموصوف بالصفة، أي: أن الصفة هذه في هذا الموصوف حقيقة.

=

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١).

{ترجيء} بِالْهَمْزَةِ وَالْيَاء بَدَله تُؤَخِّر {مَنْ تَشَاء مِنْهُنَّ} أَيْ أَزْوَاجك عَنْ

=

وقوله تعالى: {غفورا} يحتمل أن تكون صيغة مبالغة، وأن تكون صفة مشبهة، وأيا كان فإنها مشتقة من المغفرة وهي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله تعالى: {رحيما} مشتقة من الرحمة، وهي صفة تتعلق بذات الله ﷻ من مقتضاها الإحسان والإنعام.

والغفور والرحيم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وكل اسم من أسماء الله تعالى فإنه دال على أمور ثلاثة إذا كان متعديا، وعلى أمرين إذا كان غير متعد.

فالثلاثة إذا كان متعديا: الاسم والصفة والأثر. مثال ذلك في الغفور أن الغفور من أسماء الله تبارك وتعالى، والصفة في الغفور المغفرة، والأثر أنه يغفر الذنوب جميعا سبحانه وتعالى، والرحيم مثلها: الاسم الرحيم، والصفة الرحمة، والأثر يرحم.

أما إذا كان لازما فلا يتعدى، فيستفاد فائدتان: الاسم والصفة، الاسم مثل: {العلي العظيم} [البقرة: ٢٥٥]، يستفاد من العلي الاسم والصفة وهي العلو، ولا تتعدى لأحد حتى نقول: يستفاد منها أثر. والعظيم كذلك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكان الله غفورا} بما يحصل التحرز منه {رحيما} بالتوسعة في ذلك] هذا من بعد المغفرة والرحمة، وليس هو المغفرة والرحمة، بل المغفرة فيما يقابل الذنوب، والرحمة فيما يحصل به المطلوب.

نَوْبَتَهَا {وَتُؤْوِي} تَضُمّ {إِلَيْك مَنْ تَشَاء} مِنْهُنَّ فَتَأْتِيهَا {وَمَنْ ابْتَغَيْت} طَلَبْت {مِمَّنْ عَزَلْت} مِنْ الْقِسْمَة {فَلَا جُنَاح عَلَيْك} فِي طَلَبهَا وَضَمّهَا إِلَيْك خَيْر فِي ذَلِكَ بَعْد أَنْ كَانَ الْقَسْم وَاجِبًا عَلَيْهِ {ذَلِكَ} التَّخْيِير {أَدْنَى} أَقْرَب إِلَى {أَنْ تَقَرّ أَعْيُنهنَّ ولا يحزن ويرضين بِمَا آتَيْتهنَّ} مَا ذَكَرَ الْمُخَيَّر فِيهِ {كُلّهنَّ} تَأْكِيد لِلْفَاعِلِ فِي يَرْضَيْنَ {وَاَللَّه يَعْلَم مَا فِي قُلُوبكُمْ} مِنْ أَمْر النِّسَاء وَالْمَيْل إِلَى بَعْضهنَّ وَإِنَّمَا خَيَّرْنَاك فِيهِنَّ تَيْسِيرًا عَلَيْك فِي كُلّ مَا أَرَدْت {وَكَانَ الله عَلِيمًا} بِخَلْقِهِ {حليما} عن عقابهم[1].

---

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟! فلما نزلت: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}؛ قلت: يا رسول الله! ما أرى ربك إلا يسارعُ في هواك.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٥١١٣)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٦٤/ ٥٠).

وفي رواية لمسلم (رقم ١٤٦٤/ ٤٩) عنها؛ قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: تهب المرأة نفسها؟! فلما أنزل الله ﷻ: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ}؛ قالت: فقلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك.

وعن أبي رزين؛ قال: هَمَّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك؛ جعلنه في حل من أنفسهن يؤثر من يشاء على من يشاء؛ فأنزل الله: {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ} حتى بلغ: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}، يقول: =

=

تعزل من تشاء، فعزل زينب وأم حبيبة وصفية وجويرية وميمونة، وجعل يأتي حفصة وعائشة وأم سلمة، قال: ترجئ من تشاء، قال: تعزل من تشاء {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ...}، ثم ذكر: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}؛ يعني: المشركات.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة في "المصنف" (٤/ ٢٠٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٨)، والواحدي في "الوسيط" (٣/ ٤٧٨) من طرق عن منصور عن أبي رزين به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٣٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وعن مجاهد؛ قال: كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فخشين أن يطلقن؛ فقلن: يا رسول الله! اقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت؛ فنزلت: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)}.

أخرجه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ١١٧) من طرق عن الإمام أحمد بن حنبل ثنا عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري عن سفيان حدثني سالم الأفطس عن مجاهد به. وهذا مرسل رجاله ثقات؛ غير عبد الملك وهو صدوق.

وعن ثعلبة بن أبي مالك؛ قال: إنما هَمَّ رسول الله أن يطلق بعضهن؛ فجعلنه في

=

=

حلّ، فكان يأتي زينب بنت جحش وعائشة وأم سلمة، وعزل سائر نسائه، قال: {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ}؛ يعني: نساءه اللاتي عزل لا تستكثر منهن، ثم قال: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ}؛ يعني: بعد هؤلاء التسع، وأنكر أن يكن المشركات.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٩٧): نا محمد بن عمر الواقدي: حدثني محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن أبي مالك عن أبيه عن جده به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: الواقدي؛ متروك الحديث، بل اتهم بالكذب.

الثانية: محمد بن رفاعة؛ قال عنه في "التقريب": "مقبول"؛ يعني: حيث يتابع، وإلا؛ فلين.

الثالثة: ثعلبة هذا؛ مختلف في صحبته، وفي "التقريب": "قال العجلي: تابعي ثقة".

* قوله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} [الأحزاب: ٥١]، أي:"تؤخر مَن تشاء مِن نسائك في القَسْم في المبيت، وتضم إليك مَن تشاء منهن".

قال الزجاج:"هذا مما خص الله به النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان له أن يؤخر من أحب من نسائه ويؤوي إليه من أحب من نسائه وليس ذلك لغيره من أمته، وله أن يرد من أخر إلى فراشه عَلَيْهِ السَّلَامُ".

عن الحسن البصري: " {ويَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} مِن الحاجة التي تَخُصُّ منهنَّ لحاجتك".

=

=

واختلف أهل العلم في قوله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ} [الأحزاب: ٥١]، على وجوه:

أحدها: تطلق من تشاء من نسائك وتمسك من تشاء منهن، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، قوله: " {ترجي من تشاء منهن} : أمهات المؤمنين، {وتؤوي إليك من تشاء}، يعني: نساء النبي ﷺ، ويعني بالإرجاء: يقول: من شئت خليت سبيله منهن. ويعني بالإيواء: يقول: من أحببت أمسكت منهن".

قال ابن زيد:"كان أزواجه قد تغايرن على النبي ﷺ فهجرهن شهرا، ثم نزل التخيير من الله له فيهن، فقرأ حتى بلغ: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} فخيرهن بين أن يخترن أن يخلي سبيلهن ويسرحهن، وبين أن يقمن إن أردن الله ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين، لا ينكحن أبدا، وعلى أنه يؤوي إليه من يشاء منهن ممن وهبت نفسها له، حتى يكون هو يرفع رأسه إليها، ويرجي من يشاء حتى يكون هو يرفع رأسه إليها، ومن ابتغى ممن هي عنده وعزل فلا جناح عليه ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين إذا علمن أنه من قضائي عليهن إيثار بعضهن على بعض {ذلك أدنى أن} يرضين، قال: {ومن ابتغيت ممن عزلت} من ابتغى أصابه، ومن عزل لم يصبه، فخيرهن بين أن يرضين بهذا، أو يفارقهن، فاخترن الله ورسوله، إلا امرأة واحدة بدوية ذهبت، وكان على ذلك صلوات الله عليه، وقد شرط الله له هذا الشرط، ما زال يعدل بينهن حتى لقي الله".

الثاني: تترك نكاح من تشاء وتنكح من تشاء، قاله الحسن.

قال الحسن:"كان نبي الله ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لرجل أن يخطبها حتى

=

=

يتزوجها أو يتركها".

الثالث: تعزل - بغير طلاق-من شئت من أزواجك فلا تأتيها، وتأتي من شئت من أزواجك فلا تعزلها، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لم يكن النبي ﷺ يطلق، كان يعتزل".

قال قتادة:"فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن، ويأتي من يشاء منهن بغير قسم، وكان نبي الله يقسم".

قال الضحاك:"فما شاء صنع في القسمة بين النساء، أحل الله له ذلك".

قال الماوردي:"ويدل على أن القَسم في هذا التأويل كان ساقطًا عنه".

الرابع: تؤخر من تشاء من أزواجك، وتضم إليك من تشاء منهن، قاله قتادة.

الخامس: تقبل من تشاء من المؤمنات اللواتي يهبن أنفسهن، وتترك من تشاء، قاله الشعبي ، وعكرمة.

وروى منصور عن ابن رزين قال:"لما أشفقن أن يطلقهن، قلن: يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، فكان ممن أرجأ منهن سودة بنت زمعة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة، وكان ممن آوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب".

وفي رواية اخرى، عن أبي رزين:"وكان ممن آوى إليه عليه الصلاة والسلام: عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة؛ فكان قسمه من نفسه لهن سوى قسمه. وكان ممن أرجى: سودة وجويرية وصفية وأم حبيبة وميمونة؛ فكان يقسم لهن ما شاء، وكان أراد أن يفارقهن، فقلن له: اقسم لنا من نفسك ما شئت، ودعنا نكون على حالنا".

=

=

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره جعل لنبيه أن يرجي من النساء اللواتي أحلهن له من يشاء، ويؤوي إليه منهن من يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاء والإيواء على المنكوحات اللواتي كن في حباله عندما نزلت هذه الآية دون غيرهن ممن يستحدث إيواؤها أو إرجاؤها منهن.

إذا كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: تؤخر من تشاء ممن وهبت نفسها لك، وأحللت لك نكاحها، فلا تقبلها ولا تنكحها، أو ممن هن في حبالك؛ فلا تقربها. وتضم إليك من تشاء ممن وهبت نفسها لك أو أردت من النساء اللاتي أحللت لك نكاحهن؛ فتقبلها أو تنكحها، وممن هي في حبالك؛ فتجامعها إذا شئت وتتركها إذا شئت بغير قسم".

قال ابن الجوزي:"أكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نسائه كيف شاء من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهن. غير أنه كان يسوي بينهن".

قال الشعبي: "كن نساء وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن فلم يقربن حتى توفي ولم ينكحن بعده منهن أم شريك".

قال الزهري:"ما علمنا رسول الله ﷺ أرجأ منهن أحدا، ولقد آواهن كلهن حتى مات".

عن عائشة رضي الله، عنها: "أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية: {ترجي من تشاء منهن} فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قال: كنت أقول له: إن كان ذاك إلي فإني لا أريد أن أوثر عليك أحدا".

=

=

قال أبو زيد: "هم رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك أتينه فقلن: لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك، إفرض لنا من نفسك ومالك ما شئت فأنزل الله: ترجي من تشاء منهن نسوة يقول: تعزل من تشاء فأرجأ منهن وآوى نسوة وكان ممن أرجئ: ميمونة، وجويرية، وأم حبيبة وصفية، وسودة. وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء، وكان ممن آوى: عائشة وحفصة، وأم سلمة، وزينب. فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء".

وعن ابن عباس، قال: "خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل، ونزلت هذه الآية: {وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا}، الآية".

قوله تعالى: {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ} [الأحزاب: ٥١]، أي:"ومَن طَلَبْتَ ممن أَخَّرت قَسْمها، فلا إثم عليك في هذا".

قال الزجاج:"أي: إن أردت ممن عزلت أن تؤوي إليك فلا جناح عليك".

قال ابن الجوزي:"أي: إذا أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلت من القسمة فلا جناح عليك، أي: لا ميل عليك بلوم ولا عتب ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ} [الأحزاب: ٥١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: ومن نكحت من نسائك فجامعت ممن لم تنكح، فعزلته عن الجماع، فلا جناح عليك. قاله قتادة ، وابن زيد.

قال قتادة:"إن شاء أتى من شاء منهن، ولا جناح عليه".

قال ابن زيد:"ومن ابتغى أصابه، ومن عزل لم يصبه".

=

=

الثاني: معناه: ومن استبدلت ممن أرجيت، فخليت سبيله من نسائك، أو ممن مات منهن ممن أحللت لك فلا جناح عليك. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"يعني بذلك: النساء اللاتي أحل الله له من بنات العم والعمة والخال والخالة {اللاتي هاجرن معك}، يقول: إن مات من نسائك اللاتي عندك أحد، أو خليت سبيله، فقد أحللت لك أن تستبدل من اللاتي أحللت لك مكان من مات من نسائك اللاتي هن عندك، أو خليت سبيله منهن، ولا يصلح لك أن تزداد على عدة نسائك اللاتي عندك شيئا".

قال الطبري:"وأولى التأويلين بالصواب في ذلك: تأويل من قال: معنى ذلك: ومن ابتغيت إصابته من نسائك {ممن عزلت} عن ذلك منهن {فلا جناح عليك} لدلالة قوله: {ذلك أدنى أن تقر أعينهن} على صحة ذلك، لأنه لا معنى لأن تقر أعينهن إذا هو ﷺ استبدل بالميتة أو المطلقة منهن، إلا أن يعني بذلك: ذلك أدنى أن تقر أعين المنكوحة منهن، وذلك مما يدل عليه ظاهر التنزيل بعيد".

قوله تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} [الأحزاب: ٥١]، أي:"ذلك التخيير أقرب إلى أن يفرحن ولا يحزنَّ، ويرضين كلهن بما قسمت لهنَّ".

قال ابن الجوزي:"أي: ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهن أقرب إلى رضاهن. والمعنى: إنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله تعالى، كان أطيب لأنفسهن، {ويرضين بما آتيتهن كلهن}، أي: بما أعطيتهن من تقريب وتأخير".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي جعلت لك يا محمد من إذني لك أن ترجي من

=

=

تشاء من النساء اللواتي جعلت لك إرجاءهن، وتؤوي من تشاء منهن، ووضعي عنك الحرج في ابتغائك إصابة من ابتغيت إصابته من نسائك، وعزلك عن ذلك من عزلت منهن، أقرب لنسائك أن تقر أعينهن به ولا يحزن، ويرضين بما آتيتهن كلهن من تفضيل من فضلت من قسم، أو نفقة وإيثار من آثرت منهم بذلك على غيره من نسائك، إذا هن علمن أنه من رضاي منك بذلك، وإذني لك به، وإطلاق مني لا من قبلك".

قال ابن كثير:"أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحَرَج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختيارا منك لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن".

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ} [الأحزاب: ٥١]، وجوه من التفسير:

أحدها: إذا علمن أنه لا يطلقهن قرت أعينهن ولم يحزن. حكاه الماوردي.

الثاني: إذا علمن أنه لا يتزوج عليهن قرت أعينهن ولم يحزن. قاله قتادة.

قال يحيى:"يعني: نساءه اللائي عنده يومئذ، يعني: التسع، {ولا يحزن}، إذا عرفن إلا تنكح عليهن".

الثالث: إذا علمن أن هذا من حكم الله تعالى فيهن قَرَّت أعينهن ولم يحزن. قاله قتادة ، وروي عن ابن زيد نحوه.

قال محمد بن كعب القرظي:"كان رسول الله ﷺ مُوسَّعًا عليه في قسْم أزواجه،

=

=

يقسم بينهن كيف شاء، وذلك قوله الله: {ذَلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ} إذا علمن أنّ ذلك مِن الله".

الرابع: أنهن علمن أن له ردهن إلى فراشه إذا اعتزلهن قرَّت أعينهن ولم يحزن، قاله مجاهد.

الخامس: إذا لم تجعل لواحدة منهن يوما وكن فى ذلك سواء، كان أحرى أن تطيب أنفسهن ولا يحزن. قاله الفراء.

عن ابن شهاب، قوله: " {ترجي من تشاء}، قال: هذا أمر جعله الله إلى نبيه ﷺ في تأديبه نساءه لكي يكون ذلك أقر لأعينهن وأرضى في عيشتهن ولم نعلم رسول الله ﷺ أرجأ منهن شيئا ولا عزله بعد أن خيرهن فاخترنه".

وقرأ ابن محيصن، وأبو عمران الجوني: «أن تقر»، بضم التاء وكسر القاف «أعينهن» بنصب النون.

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [الأحزاب: ٥١]، أي:"والله يعلم ما في قلوب الرجال مِن مَيْلها إلى بعض النساء دون بعض".

قال الطبري:"يقول: والله يعلم ما في قلوب الرجال من ميلها إلى بعض من عنده من النساء دون بعض بالهوى والمحبة، يقول: فلذلك وضع عنك الحرج يا محمد فيما وضع عنك من ابتغاء من ابتغيت منهن، ممن عزلت تفضلا منه عليك بذلك وتكرمة".

قال ابن كثير:"أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه".

قال ابن الجوزي:"والله يعلم ما في قلوبكم من الميل إلى بعضهن. والمعنى: إنما خيرناك تسهيلا عليك".

=

=

قال الصابوني:"خطابٌ للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل إنسان، من عدل أو ميل، ومن حب أو كراهية، وإنما خيرناك فيهن تيسيرًا عليك فيما أردت".

ويذكر عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: "اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا} [الأحزاب: ٥١]، أي:"وكان الله عليمًا بما في القلوب، حليمًا لا يعجل بالعقوبة على من عصاه".

قال الطبري:"يقول: وكان الله ذا علم بأعمال عباده، وغير ذلك من الأشياء كلها {حليما} يقول: ذا حلم على عباده، أن يعاجل أهل الذنوب منهم بالعقوبة، ولكنه ذو حلم وأناة عنهم ليتوب من تاب منهم، وينيب من ذنوبه من أناب منهم".

قال محمد بن إسحاق: " {والله عليم} أي: عليم بما يخفون".

عن أبي العالية:"{حكيما}، قال: حكيم في أمره".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك} قوله تعالى: "ترجئ" يقول المصنف رحمه الله: [بالهمزة والياء، بدله: تؤخر] "ترجئ" و {ترجي} بمعنى: تؤخر، وقوله تعالى: {من تشاء} هذه مفعول {ترجي}.

وقوله رحمه الله: [{من تشاء منهن} أي: أزواجك عن نوبتها، {وتؤوي} تضم {إليك من تشاء} فتأتيها {ومن ابتغيت} طلبت {ممن عزلت} من القسمة {فلا جناح عليك} في طلبها وضمها إليك، خير في ذلك بعد أن كان قسمه واجبا

=

=

عليه].

كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الآن يدل على أن قوله تعالى: {ترجي من تشاء منهن} أن الضمير يعود على زوجات النبي ﷺ اللاتي في حباله، ومعني (ترجي): تؤخرها فلا تقسم لها، و (تؤوي): تضمها فتقسم لها، فتكون الآية نازلة في قسم النبي ﷺ لزوجاته وأن الله تعالى خيره، خيره بين أن يرجئ وبين أن يضم، يعني: خيره بأن يقسم للزوجات وأن لا يقسم، فيكون في هذا توسعة للنبي ﷺ في القسم، إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم.

وهذا هو أحد القولين في تفسير الآية الكريمة، وربما يدل عليه السياق، قال تعالى: {ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن} [الأحزاب: ٥٠] إلى أن قال تعالى: {ترجي من تشاء منهن} أي: من أزواجك {وتؤوي إليك من تشاء} فيكون الإرجاء بمعنى: ترك القسم، والإيواء بمعنى: القسم.

والقول الثاني في المسألة: {ترجي من تشاء منهن} أي: من الواهبات أنفسهن لك، يعني: أنك إن شئت قبلت وإن شئت رددت.

وقوله تعالى: {ومن ابتغيت ممن عزلت} يعني: لو أنك رددتها أولا ثم أردتها ثانيا فلا جناح عليك، وقد سبق لنا قاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا يتنافيان فإن الواجب حملها على المعنيين؛ ولهذا اختار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعا، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام خير بين القسم وعدمه، وخير بين قبول الهبة وعدمها، وأنه أيضا إذا لم يقسم ثم أراد أن يقسم فله ذلك، وإذا رد الهبة ثم أراد أن يقبل فله ذلك، فليس للمرأة إذا لم يقسم لها ثم أراد القسم ليس لها أن تمتنع؛ لأن الخيار بيد النبي ﷺ.

=

=

فقسمه لمن عنده عليه الصلاة والسلام ليس على سبيل الوجوب من الله تعالى، يعني: هو من ذات نفسه يقسم مع أنه مخير، والدليل على أنه مخير هذه الآية، وقد فسرها السلف في ذلك فهي صالحة للوجهين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ذلك} التخيير] ذلك المشار إليه، التخيير: {ترجي من تشاء منهن وتؤوي}] أي: ذلك التخيير المستفاد من الجملتين [{أدنى} أقرب إلى {أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن}] ما ذكر المخير فيه {كلهن}.

وقوله تبارك وتعالى: {أدنى أن تقر أعينهن} وجه كون ذلك أقرب إلى أن تقر أعينهن؛ لأنهن إذا علمن أن التخيير بين القسم وعدمه من الله عَزَّوَجَلَّ قرت أعينهن؛ لأنهن يرضين بحكم الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لو كان هذا من النبي ﷺ إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم لكان في نفوسهن بعض الشيء تظن الواحدة منهن أن ذلك من قبل النبي ﷺ وليس من شرع الله تعالى، فإذا علمت النساء أن هذا من شرع الله تعالى فإن أعينهن تقر.

وكلمة {تقر} مأخوذة إما من القرار وإما من القرورة والبرد، وذلك أن العين إذا بردت فمعناها أنها غير حزينة، وإذا حميت فمعناها الحزن؛ ولهذا يقال: دمع الحزن حار؛ لأنه يخرج من العين إذا حميت من الحزن، أما إذا لم يكن هناك حزن فإنها تبرد وتستقر.

وقوله تبارك وتعالى: {ولا يحزن} معطوفة على قوله تعالى: {تقر}، و {تقر} منصوبة بـ (أن) و {يحزن} معطوف عليه، وليس منصوبا، ولكن مبني على السكون؛ لاتصاله بنون النسوة، ونون الفعل مدغمة في نون النسوة؛ لأن {يحزن} هذا الفعل، والنون الثانية هي نون النسوة، وهي فاعل.

=

=

وقوله تعالى: {ويرضين} الواو حرف عطف، {ويرضين} معطوف على {تقر}، وليس على {يحزن}؛ لأنه لو كان على {يحزن} لفسد المعنى؛ إذ لو كان معطوفا على {يحزن} لكان المعنى: ولا يحزن ولا يرضين، والمراد خلاف ذلك، فالمراد: ذلك أدنى أن تقر أعينهن ويرضين.

فإن قلت: ما الفائدة من اعتراض الجملة الثانية {ولا يحزن}؟

فالجواب: لأن صلتها بقوله تعالى: {تقر أعينهن} أقوى، فإن قوله تعالى: {ولا يحزن} يراد به كمال قرار العين، يعني: أنها تقر أعينهن حتى لا يبقى فيها حزن إطلاقا؛ فلهذا اعترضت هذه الجملة بين المعطوف والمعطوف عليه.

قوله تبارك وتعالى: {بما آتيتهن}: {آتيتهن} بالمد بمعنى: أعطيتهن، و (آتى) تنصب مفعولين، وهنا مفعولها الأول الهاء ومفعولها الثاني محذوف، قدره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [ما ذكر] وما الذي ذكر قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المخير فيه]، يعني: أنهن يرضين بما أعطيتموهن من التخيير من القسم وعدمه.

وسبق أنا بينا العلة في قوله تعالى: {ويرضين} بذلك وهو أنه إذا جاء الحكم من الله سبحانه وتعالى رضين به بخلاف ما لم لو كان من النبي ﷺ فقد لا يرضين بذلك، فقد تظن الواحدة منهن أنه هوى من النبي ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{كلهن} تأكيد للفاعل في {ويرضين}]، وإنما قال ذلك لأنه لو كان تأكيدا للهاء في قوله تعالى: {بما آتيتهن} لكانت منصوبة {بما آتيتهن كلهن}، لكنها كما قال تأكيد للفاعل في قوله تعالى: {ويرضين}، ألا يصح أن تكون تأكيدا للضمير في قوله تعالى: {أعينهن}؟

الجواب: لا يصح، لأنه لو كان تأكيدا له لكان مجرور {كلهن} فإذن: يتعين أن

=

=

يكون تأكيدا لقوله تعالى: {ويرضين بما آتيتهن كلهن}.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والله يعلم ما في قلوبكم} من أمر النساء والميل لبعضهن] لما بين الله عَزَّ وَجَلَّ أن النبي ﷺ مخير بين أنه عَزَّ وَجَلَّ يعلم ما في القلوب من ميل الإنسان إلى بعض النساء دون بعض.

وقد بين الله تعالى هذا المعلوم بقوله تعالى: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة} [النساء: ١٢٩]، وهذا أمر يؤيده الواقع ويشهد له، فإن الإنسان لا يمكن أن تكون مودة زوجتيه على حد سواء، حتى لو فرض أن إحداهما كانت عنده أرجح من وجه، والأخرى أرجح من وجه آخر فلا يمكن التساوي، وهذا ما يؤيده قوله تعالى: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم}.

وقوله تعالى: {والله يعلم ما في قلوبكم} هل يستفاد منها التهديد والوعيد؟ أم يستفاد منها أن هذا أمر لا تملكونه؟ الظاهر الثاني، وأن هذا أمر لا نملكه.

وقوله سبحانه وتعالى: [{وكان الله عليما} بخلقه {حليما} عن عقابهم] هذا كالتعليل لقوله تعالى: {والله يعلم ما في قلوبكم} [الأحزاب: ٥١]، فهو سبحانه وتعالى عليم بكل شيء، ومنه ما في قلوبنا من الميل إلى بعض النساء دون بعض.

وقوله تبارك وتعالى: {حليما} الحلم هو عدم التعجل بالعقوبة، وليس هو ترك العقوبة، ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فالحلم إذن تأخير العقوبة وليس العفو عنها؛ فيؤخر العقوبة لعل هذا المذنب يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فترتفع العقوبة عنه.

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢).

{لا تحل} بالتاء والياء {لَك النِّسَاء مِنْ بَعْد} بَعْد التِّسْع الَّتِي اخْتَرْنَك {وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ} بِتَرْكِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْل {بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاج} بِأَنْ تُطَلِّقهُنَّ أَوْ بَعْضهنَّ وَتَنْكِح بَدَل مِنْ طَلَّقْت {وَلَوْ أَعْجَبَك حُسْنهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينك} مِنْ الْإِمَاء فَتَحِلّ لَك وَقَدْ مَلَكَ ﷺ بَعْدهنَّ مَارِيَة وَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيم وَمَاتَ فِي حَيَاته {وَكَانَ الله عَلَى كُلّ شيء رقيبا} حفيظا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي؛ أي: تنزل عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} قال: فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ، وعنده عائشة رضي الله عنها، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: "فأين الاستئذان؟ "، فقال: يا رسول الله! والله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت، ثم قال: مَنْ هذه الحميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: "هذه عائشة أم المؤمنين"، فقال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ فقال: "يا عيينة! إن الله تبارك وتعالى قد حرم ذلك"، قال: فلما أن خرج؛ قالت عائشة رحمة الله عليها: مَنْ هذا؟ قال: "أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه!".

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٦٥ - ٦٦ رقم ٢٢٥١ - "كشف الأستار")، والدارقطني في "سننه" (٣/ ٢١٨) من طريق عبد السلام بن حرب عن إسحاق =

=

بن عبد الله بن أبي فروة عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة به. والحديث قال عنه البزار: "تفرد به أبو هريرة، ولا له إلا هذا الإسناد، وإسحاق ليِّن الحديث جدًا، ولو علمناه عن غيره لم نروه عنه". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩٢): "رواه البزار؛ وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك". وقال الحافظ في "فتح الباري": "حديث أبي هريرة في نكاح البدل ضعيف جدًا".

وعن عكرمة؛ قال: الجاهلية الأولى التي ولد فيها إبراهيم ﷺ، وكن النساء يتزين ويلبسن ما لا يواريهن، وأما الآخرة؛ فالتي ولد فيها محمد ﷺ، وكانوا أهل ضيق في معايشهم في مطعمهم ولباسهم، فوعد الله نبيه ﷺ أن يفتح عليه الأرض؛ فقال: قل لنسائك: إن أردنك ألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)}، يقول: ما يتلى في بيوتكن القرآن، فقال النساء للرجال: أسلمنا كما أسلمتم، وفعلنا كما فعلتم؛ فتذكرون في القرآن ولا نذكر! وكان الناس يسمون المسلمين، فلما هاجروا؛ سموا المؤمنين؛ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}؛ يعني: المطيعين والمطيعات، {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ} شهر رمضان، {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ}؛ يعني: من النساء، {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ}؛ يعني: ذكر آلاء الله وذكر نعمه، {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}، فلما خيّرهن رسول الله؛ اخترن الله ورسوله؛ فأنزل الله: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ

=

=

أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)}، قال: من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك فقد حرم عليك تزوج غيرهن ولا أن تبدل بهن من أزواج -ولو أعجبك حسنهن-؛ إلا ما ملكت يمينك؛ إلا التسع اللاتي كن عندك.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ٢٠٠، ٢٠١) بسند ضعيف جدًا، كما بيّناه عند الآية رقم (٣٥) من هذه السورة.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٣٨) وزاد نسبته لابن مردويه.

* قوله تعالى: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} [الأحزاب: ٥٢]، أي:"لا يحل لك تزوج النساء من بعد زوجاتك أمهات المؤمنين".

قال الطبري: يقول:"لا يحل لك يا محمد النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك في الآية قبل".

قال السعدي:"وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكورًا، لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله، والدار الآخرة، أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن فقال: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} زوجاتك الموجودات".

وفي قوله تعالى: {لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ} [الأحزاب: ٥٢]، وجوه:

أحدها: لا يحل لك نساء من بعد نسائك اللاتي خيرتهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة. قاله ابن عباس ، وقتادة.

قال ابن عباس:"نهي رسول الله ﷺ أن يتزوج بعد نسائه الأول شيئا".

قال قتادة:"لما خيرهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة قصره عليهن؛ فقال: {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج}، وهن التسع التي

=

=

اخترن الله ورسوله".

قال الحسن: "يعني: أزواجه التسع". وفي رواية: "هؤلاء اللاتي عندك".

قال الحسن: "قال الحسن: خيرهن فاخترن الله ورسوله قصر عليهن، فقال: «لا يحل لك النساء من بعد» يقول: من بعد هؤلاء اللاتي عندك".

وفي رواية عن الحسن، قال: "قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن. قال علي: فأخبرت علي بن الحسين -رضي الله، عنه- فقال: لو شاء تزوج غيرهن ولفظ عبد بن حميد، فقال: بل كان له أيضا أن يتزوج غيرهن".

الثاني: لا يحل لك النساء من بعد الذي أحللنا لك بقولنا: {إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي ءَآتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}، إلى قوله: {إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}، الآية، والمعنى: معناه: لا يحل لك من النساء إلا التي أحللناها لك. وكانت الإباحة بعد نسائه مقصورة على بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته المهاجرات معه، قاله أبي بن كعب.

عن زياد: "قال لأبي بن كعب: هل كان للنبي ﷺ لو مات أزواجه أن يتزوج؟ قال: ما كان يحرم عليه ذلك، فقرأت عليه هذه الآية: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك}، قال: فقال: أحل له ضربا من النساء، وحرم عليه ما سواهن، أحل له كل امرأة آتى أجرها، وما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته، وكل امرأة وهبت نفسها له إن أراد أن يستنكحها خالصة له من دون المؤمنين".

قال أبو صالح: "أمر أن لا يتزوج أعرابية ولا غريبة، ويتزوج بعد من نساء تهامة، ومن شاء من بنات العم والعمة والخال والخالة إن شاء ثلاث مئة".

=

=

وروي عن عكرمة: " {لا يحل لك النساء من بعد}، هؤلاء التي سمى الله إلا {بنات عمك...} الآية".

قال الكلبي:"«ما قص الله عليك من بنات العم وبنات الخال وبنات وبنات»".

قال عبيد: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {لا يحل لك النساء من بعد}، يعني: من بعد التسمية، يقول: لا يحل لك امرأة إلا ابنة عم أو ابنة عمة أو ابنة خال أو ابنة خالة أو امرأة وهبت نفسها لك، من كان منهن هاجر مع نبي الله ﷺ".

وفي حرف ابن مسعود: " {واللاتي هاجرن معك}، يعني بذلك: كل شيء هاجر معه ليس من بنات العم والعمة، ولا من بنات الخال والخالة".

الثالث: لا يحل لك النساء من غير المسلمات كاليهوديات والنصرانيات والمشركات، ويحل ما سواهن من المسلمات، قاله مجاهد.

عن أبي ذر -رضي الله، عنه-: " {لا يحل لك النساء من بعد}، قال: من المشركات إلا ما سبيت فملكته يمينك".

قال الطبري:"وأولى الأقوال عندي بالصحة قول من قال: معنى ذلك: لا يحل لك النساء من بعد بعد اللواتي أحللتهن لك بقولي: {إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن...} إلى قوله: {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي}، وإنما قلت ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن قوله: {لا يحل لك النساء} عقيب قوله: {إنا أحللنا لك أزواجك}، وغير جائز أن يقول: قد أحللت لك هؤلاء ولا يحللن لك إلا بنسخ أحدهما صاحبه، وعلى أن يكون وقت فرض إحدى الآيتين، فعل الأخرى منهما. فإذ كان ذلك كذلك ولا دلالة ولا برهان على نسخ حكم إحدى الآيتين حكم الأخرى، ولا تقدم تنزيل إحداهما قبل صاحبتها،

=

=

وكان غير مستحيل مخرجهما على الصحة، لم يجز أن يقال: إحداهما ناسخة الأخرى. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن لقول من قال: معنى ذلك: لا يحل من بعد المسلمات يهودية ولا نصرانية ولا كافرة، معنى مفهوم، إذ كان قوله {من بعد} إنما معناه: من بعد المسميات المتقدم ذكرهن في الآية قبل هذه الآية، ولم يكن في الآية المتقدم فيها ذكر المسميات بالتحليل لرسول الله ﷺ ذكر إباحة المسلمات كلهن، بل كان فيها ذكر أزواجه وملك يمينه الذي يفيء الله عليه، وبنات عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي، فتكون الكوافر مخصوصات بالتحريم، صح ما قلنا في ذلك، دون قول من خالف قولنا فيه".

عن سلمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قالت: "لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله: ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء".

وقرئ: «لا تحل لك النساء»، بالتاء توجيها منه إلى أنه فعل للنساء، والنساء جمع للكثير منهن.

قوله تعالى: {وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ} [الأحزاب: ٥٢]، أي:"ولا أن تطلقهن وتتزوج بدلهن غيرهن -إكرامًا لهن، وشكرًا على حسن صنيعهن من اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة- ولو أعجبك حسن غيرهن من النساء".

قال الطبري: يقول:"ولا أن تطلق نساءك اللواتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فتبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسن من أردت أن تبدل به منهن".

=

=

قال ابن كثير:"فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه".

قال السعدي:"أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها، {وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ} أي: حسن غيرهن، فلا يحللن لك، فحصل بهذا، أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة".

وفي قوله تعالى: {وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ} [الأحزاب: ٥٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: ولا أن تبدل بالمسلمات بالمسلمات غيرهن من النصارى واليهود والمشركين، قاله أبو رزين ، ومجاهد.

عن مجاهد:"{لا يحل لك النساء}، من بعد يهوديات ولا نصرانيات، لا ينبغي أن يكن أمهات المؤمنين".

قال أبو رزين:"لا يحل لك أن تتزوج من المشركات إلا من سبيت فملكته يمينك منهن".

الثاني: لا تطلق زوجاتك لتستبدل بهن من أعجبك حسنهن، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"لا يصلح لك أن تطلق شيئا من أزواجك ليس يعجبك، فلم يكن يصلح ذلك له".

قال الماوردي:"وقيل التي أعجبه حسنها أسماء بنت عميس بعد قتل جعفر بن أبي طالب عنها".

الثالث: ولا أن تبدل بأزواجك زوجات غيرك، فإن العرب كانوا في الجاهلية

=

يتبادلون بأزواجهم فيعطي أحدهم زوجته لرجل ويأخذ بها منه زوجته بدلًا منها، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم؛ يعطي هذا امرأته هذا ويأخذ امرأته؛ فقال: {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك}، لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئت أن تبادل، فأما الحرائر فلا قال: وكان ذلك من أعمالهم في الجاهلية".

قال أبو هريرة:"كان البَدلُ في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلُك بامرأتي: أي: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي. فأنزل الله: {وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}، قال: فدخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: "فأين الاستئذان؟ " فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت. ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله ﷺ: "هذه عائشة أم المؤمنين". قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق؟ قال: "يا عيينة إن الله قد حرم ذلك". فلما أن خرج قالت عائشة: مَنْ هذا؟ قال: هذا أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: ولا أن تطلق أزواجك فتستبدل بهن غيرهن أزواجا، إنما قلنا ذلك أولى بالصواب لما قد بيننا قبل من أن قول الذي قال معنى قوله: {لا يحل لك النساء من بعد} لا يحل لك اليهودية أو النصرانية والكافرة، قول لا وجه له. فإذ كان ذلك كذلك فكذلك قوله: {ولا أن تبدل بهن} كافرة لا معنى له، إذ كان من المسلمات من قد حرم

=

عليه بقوله {لا يحل لك النساء من بعد} الذي دللنا عليه قبل. وأما الذي قاله ابن زيد في ذلك أيضا فقول لا معنى له، لأنه لو كان بمعنى المبادلة لكانت القراءة والتنزيل: ولا أن تبادل بهن من أزواج، أو ولا أن تبدل بهن بضم التاء، ولكن القراءة المجمع عليها: ولا أن تبدل بهن بفتح التاء، بمعنى: ولا أن تستبدل بهن، مع أن الذي ذكر ابن زيد من فعل الجاهلية غير معروف في أمة نعلمه من الأمم: أن يبادل الرجل آخر بامرأته الحرة، فيقال: كان ذلك من فعلهم فنهى رسول الله ﷺ عن فعل مثله.

فإن قال قائل: أفلم يكن لرسول الله ﷺ أن يتزوج امرأة على نسائه اللواتي كن عنده، فيكون موجها تأويل قوله: {ولا أن تبدل بهن من أزواج} إلى ما تأولت، أو قال: وأين ذكر أزواجه اللواتي كن عنده في هذا الموضع، فتكون الهاء من قوله: {ولا أن تبدل بهن} من ذكرهن وتوهم أن الهاء في ذلك عائدة على النساء، في قوله {لا يحل لك النساء من بعد}؟ قيل: قد كان لرسول الله ﷺ أن يتزوج من شاء من النساء اللواتي كان الله أحلهن له على نسائه اللاتي كن عنده يوم نزلت هذه الآية، وإنما نهي ﷺ بهذه الآية أن يفارق من كان عنده بطلاق أراد به استبدال غيرها بها، لإعجاب حسن المستبدلة له بها إياه إذ كان الله قد جعلهن أمهات المؤمنين وخيرهن بين الحياة الدنيا والدار الآخرة، والرضا بالله ورسوله، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فحرمن على غيره بذلك، ومنع من فراقهن بطلاق، فأما نكاح غيرهن فلم يمنع منه، بل أحل الله له ذلك على ما بين في كتابه. وقد روي عن عائشة أن النبي ﷺ لم يقبض حتى أحل الله له نساء أهل الأرض".

قال ابن كثير في الآية:"ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس، ومجاهد،

=

=

والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضًا عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول ﷺ عليهن".

عن عطاء، عن عائشة قالت:"ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء، تعني: أهل الأرض".

عن عبيد بن عمير الليثي، عن عائشة قالت: "ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء".

عن أم سلمة أنها قالت: "لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله، ﷻ: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}".

قال ابن كثير:"فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم".

ثم قال الطبري:"فإن قال قائل: فإن كان الأمر على ما وصفت من أن الله حرم على نبيه بهذه الآية طلاق نسائه اللواتي خيرهن فاخترنه، فما وجه الخبر الذي روي عنه أنه طلق حفصة ثم راجعها، وأنه أراد طلاق سودة حتى صالحته على ترك طلاقه إياها، ووهبت يومها لعائشة؟ قيل: كان ذلك قبل نزول هذه الآية.

=

=

والدليل على صحة ما قلنا من أن ذلك كان قبل تحريم الله على نبيه طلاقهن، الرواية الواردة أن عمر دخل على حفصة معاقبها حين اعتزل رسول الله ﷺ نساءه، كان من قيله لها: قد كان رسول الله ﷺ طلقك، فكلمته فراجعك، فوالله لئن طلقك، أو لو كان طلقك لا كلمته فيك. وذلك لا شك قبل نزول آية التخيير، لأن آية التخيير إنما نزلت حين انقضى وقت يمين رسول الله ﷺ على اعتزالهن.

وأما أمر الدلالة على أن أمر سودة كان قبل نزول هذه الآية، أن الله إنما أمر نبيه بتخيير نسائه بين فراقه والمقام معه على الرضا بأن لا قسم لهن، وأنه يرجي من يشاء منهن، ويؤوي منهن من يشاء، ويؤثر من شاء منهن على من شاء، ولذلك قال له تعالى ذكره: {ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن} ومن المحال أن يكون الصلح بينها وبين رسول الله ﷺ جرى على تركها يومها لعائشة في حال لا يوم لها منه.

وغير جائز أن يكون كان ذلك منها إلا في حال كان لها منه يوم هو لها حق كان واجبا على رسول الله ﷺ أداؤه إليها، ولم يكن ذلك لهن بعد التخيير لما قد وصفت قبل فيما مضى من كتابنا هذا".

قال ابن كثير:"واختار ابن جرير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعا. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيرا منهم روي عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل

=

=

نزول قوله: {لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم.

فأما قَضية سَوْدَة ففي الصحيح عن عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي سبب نزول قوله تعالى: {وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} الآية [النساء: ١٢٨].

وأما قضية حفصة.. عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد قوي.

وقال الحافظ أبو يعلى:... عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا" ".

قوله تعالى: {إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} [الأحزاب: ٥٢]، أي:"إلا ما ملكت يمينك من الإماء، فهن حلال لك".

عن مجاهد:"{إلا ما ملكت يمينك}، قال: هي اليهوديات والنصرانيات لا بأس أن يشتريها".

قال الطبري: يقول: "لا يحل لك النساء من بعد اللواتي أحللتهن لك إلا ما ملكت يمينك من الإماء، فإن لك أن تملك من أى أجناس الناس شئت من الإماء".

=

قال السعدي:"أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات، في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات، في الإضرار للزوجات".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [الأحزاب: ٥٢]، أي:"وكان الله على كل شيء رقيبًا، لا يغيب عنه علم شيء".

قال الحسن وقتادة:"أي: حفيظا".

قال السدي:"حفيظا لأعمالكم".

قال الطبري:"يقول: وكان الله على كل شيء؛ ما أحل لك، وحرم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها، حفيظا لا يعزب عنه علم شيء من ذلك، ولا يئوده حفظ ذلك كله".

قال السعدي:"أي: مراقبًا للأمور، وعالمًا بما إليه تؤول، وقائمًا بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: ["لا تحل"] بالتاء والياء]، لا تحل ولا يحل. فأما على قراءة: "لا تحل" فلا إشكال؛ لأن النساء جمع نسوة، والنسوة جمع امرأة؛ لأن امرأة ليس لها جمع من لفظها، وإنما لها جمع من معناها كالإبل جمع بعير ليس لها جمع من لفظها، أي: ليس لها مفرد من لفظها، فقوله تعالى: {لا يحل لك النساء} لا إشكال فيه، لكن قوله تعالى: {لا يحل لك النساء} كيف ذكر الفعل مع أن الفاعل مؤنث؟

الجواب: قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في اتصال تاء التأنيث بالماضي:

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصل أو مفهم ذات حر

وهذا مع الاتصال؛ أما مع الفصل فيجوز.

=

وقوله تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعد التسع التي اخترنك] كان مقتضى الكلام أن يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اللاتي اخترنك. والمعنى أن النبي ﷺ لما خير نساءه اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ، فلما اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ شكر الله تعالى لهن، وقال تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج}، وعلى هذا يكون هذا من باب الجزاء العاجل، ولهن الجزاء الآجل أيضا؛ لأنهن لما اخترن الله تعالى ورسوله ﷺ على الدنيا وزينتها شكر الله تعالى لهن، فمنع نبيه ﷺ من أن يتزوج بسواهن، أو أن يطلق واحدة ويتزوج سواها فقال تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد}، وهذا أحد القولين في الآية.

والقول الثاني: أن معنى الآية {لا يحل لك النساء من بعد} أي: من بعد ما ذكرنا لك، وهو قوله تعالى: {إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك} [الأحزاب: ٥٠].

والمعنى على هذا: لا يحل لك النساء من بعد ما ذكرنا لك، وعليه فلا يحل للنبي ﷺ أن يتزوج امرأة من العرب سوى بنات عمه وبنات عماته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ولا يحل له أن يتزوج امرأة من أهل الكتاب؛ لأنها ليست من هؤلاء.

واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شاملة للمعنيين جميعا، فلا يحل له أن يتزوج على أمهات المؤمنين، ولا أن يتزوج سوى هؤلاء.

فإن قلت: أفلا يمكن أن نقول: إن المعنى الأول الذي هو: لا يحل لك النساء سوى هؤلاء النساء، يدخل فيه المعنى الثاني، فلا حاجة إلى القول الثاني. أي: إذا

=

=

قلنا لك: لا يحل لك سوى هؤلاء اللاتي معك. فإن هذا يدخل فيه القول الثاني: إنه لا يحل له سوى من ذكر: {إنا أحللنا لك أزواجك} فما فائدة القول الثاني إذن؟

الجواب: أنه لو قدر أن هؤلاء النساء متن في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام فهل يحل له أن يتزوج سوى هؤلاء اللاتي أحل الله تعالى له؟ فحينئذ يكون للقول الثاني فائدة، وهذه الفائدة تظهر فيما لو قدر أن زوجات الرسول ﷺ اللاتي معه يتوفين قبله، فإنه لا يحل له من النساء إلا ما ذكر الله تعالى: {وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك}.

قال الله تعالى: {ولا أن تبدل بهن} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بترك إحدى التاءين في الأصل] وهي كلمة {تبدل} أصلها: تتبدل، والدليل على أن أصلها تتبدل وأنها ليست فعلا ماضيا أن (أن) دخلت عليها ونصبتها، و (أن) لا تدخل وتنصب إلا المضارع، وإلا فإن كلمة {تبدل} تصح أن تكون فعلا ماضيا، لكنه لما دخلت عليها (أن) وعملت فيها النصب علم أنه فعل مضارع حذفت منه إحدى التاءين، ولهذا نظير مثل قوله تعالى: {تنزل الملائكة} [القدر: ٤]، أي: تتنزل الملائكة، وقوله تعالى: {فأنذرتكم نارا تلظى} [الليل: ١٤] أي: تتلظى.

فإن قال قائل: طلاق الرسول ﷺ لبعض نسائه مثل حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ومراجعته مناف للمعنى الأول، كيف يكون مع هذا المعنى {لا يحل لك النساء}؟

فالجواب: أنه لا ينافي، فهو لا يجوز أن يتزوج غيرهن؛ {لا يحل لك النساء من بعد}، ولا يجوز أنه يطلق واحدة ليتزوج أخرى غيرها {ولا أن تبدل بهن من أزواج} ولم يقل: ولا أن تطلق، قال تعالى: {ولا أن تبدل بهن من أزواج} بأن

=

=

تطلق واحدة وتزوج غيرها.

فإن قال قائل: هل مقصدها الالتزام؟

فالجواب: نعم {ولا أن تبدل بهن من أزواج} بأن تطلقهن أو بعضهن وتنكح بدل من طلقت، هذا أيضا لا يحل له، ولم يفعل النبي ﷺ بعد أن نزلت هذه الآية، فإنه لم يطلق واحدة ليتزوج أخرى، ولا تزوج عليهن سواهن، بل بقين معه إلى أن توفي، ولكنه توفي له من زوجاته في حياته زوجتان هما خديجة وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما، وهذه تزوجها بعد أن استشهد زوجها في أحد، وبقيت عنده أشهرا ثم توفيت، والبقية من نسائه توفي عنهن.

قوله تعالى: {ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن} المراد الحسن الظاهر، أو الحسن الباطن، أو كلاهما؟

يشمل هذا وهذا، فالنبي ﷺ كغيره من البشر، قد يتزوج المرأة لجمالها لكن مع الدين، وقد يتزوجها لدينها أو لمعرفتها وفهمها، فقوله تعالى: {ولو أعجبك حسنهن}، يشمل الحسن الظاهر والحسن الباطن، وقوله تعالى: {أعجبك} أي: بلغ الإعجاب بك منك، أي: بلغ الإعجاب منك، وذلك لكمال حسنها الظاهر والباطن.

* اختلف العلماء رحمهم الله في مسألة حكم تزوج النبي ﷺ على نسائه التسع ، هل هو على الإباحة أن ينكح من يشاء ، أو هو ممنوع ؟.

والذي يظهر - والعلم عند الله - أن الله تعالى منع نبيه ﷺ من التزوج على نسائه رضي الله عنهن أولا بقوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا)

=

=

الأحزاب/ ٥٢ ؛ إكراما لنسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عندما خيرهن النبي ﷺ ، ثم نسخ هذا الحكم المانع بحكم آخر يبيح له صلى الله عليه التزوج بغيرهن ؛ وذلك إكراما للنبي ﷺ.

ثم أكرم النبي ﷺ نساءه بأن لم يتزوج عليهن ، فكانت المنة له عليهن بذلك.

وقد اختلف العلماء فيما نسخ ذلك المنع ، على ثلاثة أقوال:

١ . القول الأول: أن الناسخ هو قوله تعالى: (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) الأحزاب/ ٥٠.

ولا يشكل كون الآية الناسخة قبل المنسوخة في المصحف ؛ إذا العبرة بالنزول وليس بالتدوين والكتابة ، وثمة موضع آخر - عند الجمهور - يشبه هذا ، ولم يستنكروا كون الآية الناسخة قبل المنسوخة في ترتيب المصحف ، والآيتان هما: قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) البقرة/ ٢٣٤ ، وهي ناسخة - عند الجمهور - لقوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) البقرة/ ٢٤٠.

قال القرطبي - رَحِمَهُ اللهُ -: ويبين لك أن اعتراض هذا المعترض لا يلزم: أن قوله ﷻ (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول

=

=

غير إخراج) منسوخة على قول أهل التأويل – لا نعلم بينهم خلافا – بالآية التي قبلها (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي – رَحِمَهُ اللهُ –: قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)، هذه الآية يظهر تعارضها مع قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج)، والجواب ظاهر، وهو: أن الأولى ناسخة لهذه، وإن كانت قبلها في المصحف؛ لأنها متأخرة عنها في النزول.

وليس في القرآن آية هي الأولى في المصحف وهي ناسخة لآية بعدها إلا في موضعين، أحدهما: هذا الموضع، الثاني: آية (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) هي الأولى في المصحف، وهي ناسخة لقوله: (لا يحل لك النساء من بعد) الآية؛ لأنها تقدمت في المصحف، فهي متأخرة في النزول، وهذا على القول بالنسخ.

" دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " (ص ١٣).

٢. القول الثاني: أن الناسخ هو قوله تعالى: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما) الأحزاب/ ٥١.

وهو قول " الضحاك " رَحِمَهُ اللهُ، كما في " معاني القرآن " للنحاس (٥ / ٣٦٨)، وهو الذي رجحه النووي رَحِمَهُ اللهُ، كما في " شرح مسلم " (١٠ / ٥٠)، وقال: "

=

=

قال أصحابنا: الأصح: أنه ﷺ ما توفي حتى أبيح له النساء مع أزواجه " انتهى.

وهو - كذلك - ترجيح الشيخ أبي بكر الجزائري حفظه الله ، كما في كتابه: " أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير " (٤ / ٢٨٤).

٣. القول الثالث: أن الذي نسخ المنع هو السنة النبوية:

عن عطاء قال: قالت عائشة رضي الله عنها: " ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء". رواه الترمذي (٣٢١٦) وقال: حسن صحيح ، والنسائي (٣٢٠٤).

وروي عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: " لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قول الله عز وجل: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء)".

لكن الأثر ضعيف لا يصح ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم في " تفسيره " (١٠ / ٣١٤٥) ، وفيه: عمر بن أبي بكر الموصلي ، وهو متروك ، فالإسناد ضعيف جدا.

ورواه ابن سعد (٨ / ١٩٤) من طريق الواقدي ، وهو ضعيف جدا.

وقد رجح " النحاس " هذا القول ، ورأى أن السنة هي التي نسخت المنع ، وذكر كونها منسوخة بالقرآن احتمالا ، لا ترجيحا ، فقال رحمه الله:

وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية ، وهو وقول عائشة رضي الله عنها واحد في النسخ ، وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن. " الناسخ والمنسوخ " (ص ٦٢٩).

وهو الذي رآه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، وذكر لفتة متينة ، فقال:

قوله تعالى: (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الآية ، يظهر تعارضه مع قوله:

=

=

(لا يحل لك النساء من بعد) الآية.

والجواب: أن قوله: (لا يحل لك النساء) منسوخ بقوله: (إنا أحللنا لك أزواجك)، وقد قدمنا في " سورة البقرة " أنه أحد الموضعين اللذين في المصحف ناسخهما قبل منسوخهما لتقدمه في ترتيب المصحف مع تأخره في النزول – على القول بذلك –، وقيل: إن الآية الناسخة لها هي قوله تعالى: (ترجي من تشاء منهن) الآية.

والذي يظهر لنا: أن القول بالنسخ أرجح، وليس المرجح لذلك عندنا أنه قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، منهم: علي، وابن عباس، وأنس، وغيرهم، ولكن المرجح له عندنا: أنه قول أعلم الناس بالمسألة، أعني أزواجه ﷺ؛ لأن حلية غيرهن من الضرات، وعدمها: لا يوجد من هو أشد اهتماما بهما منهن، فهن صواحبات القصة، وقد تقرر في علم الأصول أن صاحب القصة يقدم على غيره، ولعل هناك تفريق بين ما إذا كان صاحب القصة راويا، وبين كونه مستنبطا، كقصة فاطمة بنت قيس في إسقاط النفقة والسكنى، فالحجة معها، والحديث يؤيدها، ومع ذلك فعمر يرد قولها، ولذلك قدم العلماء رواية ميمونة، وأبي رافع (أنه ﷺ تزوجها وهو حلال) على رواية ابن عباس المتفق عليها (أنه تزوجها محرما)؛ لأن ميمونة صاحبة القصة وأبا رافع سفير فيها.

فإذا علمت ذلك: فاعلم: أن ممن قال بالنسخ: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: " ما مات ﷺ حتى أحل الله له النساء "، وأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: " لم يمت ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم".

أما عائشة: فقد روى عنها ذلك: الإمام أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي

=

=

في ســننيهما ، والحــاكم وصــححه ، وأبــو داود في " ناســخه " ، وابــن المنــذر ، وغيرهم.

وأما أم سلمة: فقد رواه عنها: ابن أبي حاتم - كما نقله عنه ابن كثير - ، وغيره.

ويشهد لذلك: ما رواه جماعة عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أم حبيبة وجويرية رضي الله عنهما بعد نزول (لا يحل لك النساء) ، قال الألوسي في " تفسيره " إن ذلك أخرجه عنه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والعلم عند الله تعالى. ا.هـ من دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب،

فالخلاصة:

أن الله تعالى أباح لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج من يشاء من النساء غير من عنده من التسع ، وكان هذا بعد المنع منه ، ولكنه صلى الله عليه وسلم اقتصر عليهن ؛ إكراما لهن.

قال المصنف رحمه الله: [{إلا ما ملكت يمينك} من الإماء، فتحل لك...] إلخ؛ يعني: استثنى الله عز وجل ما ملكت يمينه؛ وذلك لأن ما ملكت يمينه لا يحصل للزوجة غيرة منها، بخلاف الزوجة، وإنما لا يحصل للزوجة غيرة من ملك اليمين؛ لأنها لا تساميها ولا تساويها؛ ولأنها ليس لها قسم، فإن ملك اليمين لا يجب لهن القسم.

قوله تعالى: {وكان الله على كل شيء رقيبا} لما بين الله عز وجل ما أحل لرسوله صلى الله عليه وسلم وما حرم عليه ختم الآية بذكر رقابته تبارك وتعالى على كل شيء، بين الله تعالى رقابته على كل شيء؛ لأجل الحذر من مخالفة أمره؛ لأنه إذا كان سبحانه وتعالى رقيبا على كل شيء، فإن الإنسان يحذر ويخاف من مخالفته.

وقوله تعالى: {وكان الله} تقدم نظيرها عدة مرات، وقلنا: إن الماضي هنا

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا (٥٣).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوت النَّبِيّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَن لَكُمْ} فِي الدُّخُول بِالدُّعَاءِ {إِلَى طَعَام} فَتَدْخُلُوا {غَيْر نَاظِرِينِ} مُنْتَظِرِينَ {إِنَاهُ} نُضْجه مَصْدَر أَنِيَ يَأْنِي {وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا} تَمْكُثُوا {مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} مِنْ بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ {إنَّ ذَلِكُمْ} الْمُكْث {كَانَ يؤذي النبي فيستحيي منكم} أن يخرجكم {والله لا يستحيي مِنْ الْحَقّ} أَنْ يُخْرِجكُمْ أَيْ لَا يَتْرُك بيانه وقريء يَسْتَحْي بِيَاءٍ وَاحِدَة {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ} أَيْ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ {مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاء حِجَاب} سِتْر {ذَلِكُمْ أَطْهَر لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبهنَّ} مِنْ الْخَوَاطِر

=

مسلوب الدلالة على الزمن؛ إذ ليس المعنى أن الله تعالى كان في زمن مضى، وتخلف الحكم عنه في هذا الزمن، وإنما هو لتحقيق اتصاف الله سبحانه وتعالى بالرقابة.

وقوله تعالى: {وكان الله على كل شيء رقيبا} على كل شيء، فيشمل ما كان خفيا وما كان ظاهرا، وما كان خاصا بالرسول ﷺ وما كان عاما فيه وفي الأمة، ويشمل ما كان من أعمال الجوارح، وما كان من أعمال القلوب كما قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} [ق: ١٦].

الْمُرِيبَة {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُول الله} بِشَيْءٍ {وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجه مِنْ بَعْده أَبَدًا إنَّ ذَلِكُمْ كان عند الله} ذنبا {عظيما}.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤).

{إنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ} مِنْ نِكَاحهنَّ بَعْده {فَإِنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شَيْء عَلِيمًا} فيجازيكم عليه[١].

---

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن أنس بن مالك؛ قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؛ فنزلت: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥]، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله! لو أمرت نساءك أن يحتجبن؛ فإنه يكلمهن البر والفاجر؛ فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في المغيرة عليه فقلت لهن: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ} [التحريم: ٥]؛ فنزلت هذه الآية.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٠٢).

وعنه -أيضًا- قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش؛ دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو يتأهب للقيام؛ فلم يقوموا، فلما رأى ذلك؛ قام، فلما قام؛ قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل؛ فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا، فانطلقت؛ فجئت فأخبرت النبي ﷺ: أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ} الآية.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٩١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم =

=

١٤٢٨، ٩٢) وغيرهما من طريق أبي مجلز عن أنس به.

وفي رواية للبخاري (رقم ٦٢٣٨)، ومسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٣) وغيرهما من طريق الزهري عن أنس؛ قال: كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فخدمت رسول الله ﷺ عشرًا حياته، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وقد كان أُبيّ بن كعب يسألني عنه، وكان أول ما نزل في مُبْتنى رسول الله ﷺ بزينب ابنة جحش: أصبح النبي ﷺ بها عروسًا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا وبقي منهم رهط عند رسول الله ﷺ فأطالوا المكث، فقام رسول الله ﷺ فخرج وخرجت معه؛ كي يخرجوا فمشى رسول الله ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عتبة حجرة عائشة، ثم ظن رسول الله ﷺ أنهم خرجوا؛ فرجع رسول الله ﷺ ورجعت معه، حتى دخل على زينب؛ فإذا هم جلوس لم يتفرقوا؛ فرجع النبي ﷺ ورجعت معه، حتى بلغ عتبة حجرة عائشة، فظن أن قد خرجوا، فرجع ورجعت معه؛ فإذا هم قد خرجوا؛ فأنزل آية الحجاب، فضرب بيني وبينه سترًا.

وفي رواية للبخاري (رقم ٤٧٩٢)، ومسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٢) من طريق أبي قلابة؛ قال: قال أنس بن مالك: أنا أعلم الناس بهذه الآية: آية الحجاب: لما أُهديت زينب إلى رسول الله ﷺ؛ كانت معه في البيت، صنع طعامًا ودعا القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} إلى قوله: {مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} فضرب الحجاب، وقام القوم.

وفي رواية للبخاري (رقم ٤٧٩٣) من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس؛

=

=

قال: بُنِيَ على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيًا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت: يا نبي الله! ما أجد أحدًا أدعوه، فقال: "فارفعوا طعامكم"، وبقي ثلاثة وهي يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: "السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله"، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ، فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ -شديد الحياء- فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر: أن القوم خرجوا؛ فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة؛ أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت الآية.

وفي أخرى (رقم ٤٧٩٤) من طريق حميد عن أنس؛ قال: أوْلم رسول الله ﷺ حين بني بزينب بنت جحش، فأشبع الناس خبزًا ولحمًا، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه؛ فيسلم عليهن ويدعو لهن، ويسلمن عليه ويدعون له، فلما رجع إلى بيته؛ رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رآهما؛ رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان نبي الله ﷺ رجع عن بيته؛ وثبا مسرعين، فما أدري: أنا أخبرته بخروجهما، أم أخبر؟ فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب.

وفي رواية لمسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٤، ٩٥) من طريق الجعد أبي عثمان عن أنس؛ قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حَيْسًا؛

=

=

فجعلته في تور، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ؛ فقلت: إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: "ضعه"، ثم قال: "اذهب فادع لي فلانًا وفلانًا وفلانًا ومن لقيت" -وسمى رجالًا-، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت. قال: قلت لأنس: عَدَدَ كَم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: "يا أنس! هات التود"، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: "ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه"، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: "يا أنس! ارفع"، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟ قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس وزوجته مولّية وجهها إلى الحائط؛ فثقلوا على رسول الله ﷺ؛ فخرج رسول الله ﷺ فسلّم على نسائه، ثم رجع، فلما رأوْا رسول الله ﷺ قد رجع؛ ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال: فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى خرج عليّ، وأُنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ} إلى آخر الآية.

قال الجعد: قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهدًا بهذه الآيات، وحُجِبْنَ

=

=

نساء النبي ﷺ.

وفي رواية للنسائي في "تفسيره" (رقم ٤٣٧)، والترمذي (رقم ٣٢١٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧، ٢٨) من طريق بيان بن بشر عن أنس؛ قال: بني رسول الله ﷺ بامرأة من نسائه، فأرسلني فدعوت قومًا إلى الطعام، فلما أكلوا وخرجوا؛ قام رسول الله ﷺ منطلقًا قبل بيت عائشة، فرأى رجلين جالسين؛ فانصرف راجعًا؛ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ} .وسنده حسن.

وقال الترمذي: "هذا حدث حسن غريب"، وهو في البخاري (رقم ٥١٧٠) مختصر جدًا.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيسًا في قعب، فمرَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فدعاه فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حَسِّ -أو أَوْهِ- لو أطاع فيكن؛ ما رأتكن عين؛ فنزل الحجاب.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ١٨٨ - ١٨٩ رقم ٤٣٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥١٣)، والطبراني في "المعجم الصغير" (١/ ٨٣، ٨٤)، و"الأوسط" (٣/ ٢١٢ رقم ٢٩٤٨)، والبخاري في "الأدب المفرد" (رقم ١٠٥٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٢٦) كلهم من طريق سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عنها به. وسنده صحيح.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩٣): "رواه الطبراني في "الأوسط"؛ ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة"، وسكت عنه الحافظ

=

=

في "الفتح" (٨/ ٥٣١).

وصححه السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٧٨)، و"الدر المنثور" (٦/ ٦٤٠).

وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيح الأدب المفرد" (رقم ٨٠٤).

وخالف ابن عيينة محمد بن بشر؛ فرواه عن مسعر به مرسلًا.

أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٧ رقم ١٢٠٦٦): ثنا محمد بن بشر به.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٨) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٣) - بسند مرسل ضعيف، وليس فيه ذكر لعمر.

قال الدارقطني في "العلل" (٥/ ٨٢/ أ): "هذا حديث يرويه مسعر، واختلف عنه؛ فرواه ابن عيينة عنه عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد، عن عائشة، وغيره يرويه عن مسعر عن موسى عن مجاهد مرسلًا، والصواب المرسل". اهـ.

وانظر ما قاله الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" في الجمع بين روايات الحديث.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، قالت: فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلًا إذا تبرزن إلى المناصع -وهو صعيد أفيح-، فخرجت سودة بنت زمعة -زوج النبي ﷺ- ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: ألا قد عرفناك يا سودة! -حرصًا على أن ينزل الحجاب-، قالت عائشة: فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ آية الحجاج.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٦٨): "رواه الطبراني في "الكبير"، و"الأوسط"؛ وفيه أبو عبيدة بن فضيل بن عياض وهو لين، وبقية رجاله ثقات".

=

=

قلنا: أبو عبيدة صدوق، ومع ذلك توبع عند الطبراني نفسه والبيهقي، وهو ما لم يتنبه له الهيثمي!

وتقدم الكلام على هذا الحديث في سورة التوبة آية رقم (٨٤)، والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه

وعن عائشة ﵂؛ قالت: كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، قالت: فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلًا إذا تبرزن إلى المناصع -وهو صعيد أفيح-، فخرجت سودة بنت زمعة -زوج النبي ﷺ- ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: ألا قد عرفناك يا سودة! -حرصًا على أن ينزل الحجاب-، قالت عائشة: فأنزل الله ﷻ آية الحجاج.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ١٤٦)، ومسلم "في صحيحه" (رقم ٢١٧٠، ١٨).

وفي رواية: خرجت سودة بعدما ضرب عليها الحجاب؛ لتقضي حاجتها، وكانت امرأة جسيمة تفرع النساء جسمًا لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب؛ فقال: يا سودة! أما والله لا تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشّى وفي يده عرق، فدخلت؛ فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: "إنه قد أُذن لكن أن تخرجن لحاجتكن".

أخرجه البخاري (رقم ٤٧٩٥، ٥٢٣٧)، ومسلم (رقم ٢١٧٠/ ١٧).

=

=

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا مضى إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس، فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله، ولا يبسط يده إلى الطعام؛ استحياء منهم؛ فعوتبوا في ذلك؛ فأنزل الله تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا (٥٣)}، قوله: ناظرين إناه؛ يعني: إناة الطعام.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٤): نا محمد بن عمر حدثني موسى بن عبيدة عن ابن كعب به. وهذا سند ضعيف جدًا، مسلسل بالعلل:

الأولى: الواقدي محمد بن عمر؛ متروك الحديث، متهم بالكذب.

الثانية: موسى بن عبيدة الربذي؛ ضعيف الحديث.

الثالثة: الإرسال.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزل حجاب نساء رسول الله ﷺ في عمر؛ أكل مع النبي ﷺ طعامًا فأصابت يده بعض أيدي نساء النبي؛ فأمر بالحجاب.

أخرجه ابن سعد (٨/ ١٧٥): نا محمد بن عمر ثنا إسحاق بن يحيى عن مجاهد عنه به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ الواقدي -محمد بن عمر-؛ متروك الحديث، لكن يشهد له حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المتقدم.

=

=

وأخرجه من طريق أبي الصباح عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد مثله.

قلنا: في الطريق إليه الواقدي الهالك.

ومن طريق أخرى فيها الواقدي -أيضًا-.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: نزل الحجاب مبنى رسول الله بزينب بنت جحش، قال: أهدت له أم سليم حيسًا في تور من حجارة، فقال: "اذهب فادع لي من لقيت من المسلمين"، قال: فخرجت فدعوت من لقيت من المسلمين، فجعلوا يدخلون فيأكلون ويخرجون، ووضع رسول الله يده على الطعام فدعا فيه، وبقي طائفة منهم فجعلوا يتحدثون، فاستحيا رسول الله ﷺ أن يقول لهم شيئًا، فخرج وتركهم في البيت؛ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٤) بسند فيه الواقدي التالف، وتقدم آنفًا من طرق أخرى عن أنس بنحوه.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كانوا إذا طعموا جلسوا عند النبي ﷺ؛ رجاء أن يجيء شيء؛ فنزلت: {فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ

=

=

وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا}.

أخرجه الخطيب في "تاريخ بغداد" (٧/ ٢١١) من طريق عمر بن أحمد الواعظ: نا جعفر بن حمدان الموصلي الضرير الشحام ثنا عبد الرحيم بن محمد بن يزيد السكري ثنا أبو بكر بن عياش عن حميد عن أنس به. وسنده قوي.

وعن الربيع بن أنس؛ قال: كانوا يجيئون فيدخلون بيت النبي ﷺ، فيجلسون فيتحدثون؛ ليدركوا الطعام؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا (٥٣)} ليدرك الطعام {وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}: ولا تجلسوا فتحدثوا.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤١) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت في رجل هَمَّ أن يتزوج ببعض نساء النبي ﷺ بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: هكذا ذكروا.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٢٨) من طريق محمد بن حميد عن مهران عن سفيان عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: محمد بن حميد؛ حافظ ضعيف، بل اتهمه بعض أهل العلم بالكذب؛

=

=

كالإمام أحمد.

الثانية: مهران هو ابن أبي عمر العطار، قال عنه في "التقريب": "صدوق له أوهام، سيئ الحفظ"، بل قال العقيلي: "روى عن الثوري أحاديث لا يتابع عليها".

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: أمر عمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، فقالت زينب: يا ابن الخطاب إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا؛ فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٩) من طريق همام ثنا عطاء بن السائب عن أبي وائل عنه به. وعطاء بن السائب اختلط؛ فالإسناد ضعيف.

وذكر السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٢): أن ابن مردويه أخرجه في "تفسيره" عنه بلفظ قال: فضل الناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أربع، بذكره الأساري يوم بدر أمر بقتلهم؛ فأنزل الله تعالى: {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)} [الأنفال: ٦٨]، وبذكره الحجاب أمر نساء النبي ﷺ أن يحتجبن؛ فقالت له زينب رضي الله عنها: وإنك لتغار علينا يا ابن الخطاب! والوحي ينزل في بيوتنا؛ فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، وبدعوة النبي ﷺ: "اللهم أيد الإسلام بعمر"، وبرأيه في أبي بكر كان أول الناس بايعه.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ

=

=

وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا}؛ قال: ربما بلغ النبي ﷺ أن الرجل يقول: لو أن النبي ﷺ توفي؛ تزوجت فلانة من بعده، قال: فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ؛ فنزل القرآن: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٩) بسند ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف عبد الرحمن.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم.

وعن السدي؛ قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا، ويتزوج نساءنا من بعدنا، لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده؛ فنزلت هذه الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٣)، والزيلعي في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٢٨) ونسباه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن قتادة: أن رجلًا قال: لو قبض النبي ﷺ؛ لتزوجت فلانة؛ يعني: عائشة؛ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٢٢) عن معمر عن قتادة به. وسنده ضعيف.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قوله {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا}؛ قال: نزلت في طلحة بن عبد الله؛ لأنه

=

=

قال: إذا توفي رسول الله؛ تزوجت عائشة.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ٢٠١): نا محمد بن عمر ثني عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون عن أبي بكر به. وهذا مع إرساله؛ فيه الواقدي، وهو متروك.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: لو قد مات رسول الله ﷺ؛ لتزوجت عائشة أو أم سلمة؛ فأنزل الله -: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥١٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٣/ ١٢٨)، والطبراني -ومن طريقه البيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ٦٩) - من طريق محمد بن حميد ثنا مهران بن أبي عمر ثنا سفيان الثوري عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: محمد بن حميد؛ حافظ متهم بالكذب.

الثانية: مهران بن أبي عمر؛ قال عنه في "التقريب": "صدوق له أوهام، سيئ الحفظ".

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلًا أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلمها وهو ابن عمها، فقال النبي ﷺ: " لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا"، فقال: يا رسول الله! إنها ابنة عمي، والله ما قلت لها منكرًا، ولا قالت لي، قال النبي ﷺ: "قد عرفت ذلك أنه ليس أحد أغير من الله، وأنه ليس أحد أغير مني"، فمضى،

=

ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجها من بعده؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحج ماشيًا من كلمته.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٤) ونسبه لابن جرير الطبري.

ولم نجده في "تفسيره" فلعله تصحف على الناشر اسم الذي أخرجه، فقد وجدنا السيوطي ذكر هذا الأثر بعينه في "لباب النقول" (ص ١٧٩) وقال: وأخرج جويبر عن ابن عباس به، فلعل الناسخ استعجم عليه اسمه فحرّفه إلى جرير.

وجويبر ضعيف جدًا؛ فالأثر ساقط.

* قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا (٥٣)} [الأحزاب: ٥٤]

عن أنس بن مالك؛ قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: فقلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؛ فنزلت: {واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى} [البقرة: ١٢٥]، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله! لو أمرت نساءك أن يحتجبن؛ فإنه يكلمهن البر والفاجر؛ فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي ﷺ في المغيرة عليه فقلت لهن: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن} [التحريم: ٥]؛ فنزلت هذه الآية. أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٠٢).

=

وعنه -أيضا- قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش؛ دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو يتأهب للقيام؛ فلم يقوموا، فلما رأى ذلك؛ قام، فلما قام؛ قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل؛ فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا، فانطلقت؛ فجئت فأخبرت النبي ﷺ : أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه؛ فأنزل الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي} الآية. أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٧٩١)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٢٨، ٩٢) وغيرهما من طريق أبي مجلز عن أنس به.

وفي رواية للبخاري (رقم ٦٢٣٨)، ومسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٣) وغيرهما من طريق الزهري عن أنس؛ قال: كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فخدمت رسول الله ﷺ عشرا حياته، وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، وقد كان أبي بن كعب يسألني عنه، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب ابنة جحش: أصبح النبي ﷺ بها عروسا، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا وبقي منهم رهط عند رسول الله ﷺ فأطالوا المكث، فقام رسول الله ﷺ فخرج وخرجت معه؛ كي يخرجوا فمشى رسول الله ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عتبة حجرة عائشة، ثم ظن رسول الله ﷺ أنهم خرجوا؛ فرجع رسول الله ﷺ ورجعت معه، حتى دخل على زينب؛ فإذا هم جلوس لم يتفرقوا؛ فرجع النبي ﷺ ورجعت معه، حتى بلغ عتبة حجرة عائشة، فظن أن قد خرجوا، فرجع ورجعت معه؛ فإذا هم قد خرجوا؛ فأنزل آية الحجاب، فضرب بيني وبينه سترا.

=

=

وفي رواية للبخاري (رقم ٤٧٩٢)، ومسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٢) من طريق أبي قلابة؛ قال: قال أنس بن مالك: أنا أعلم الناس بهذه الآية: آية الحجاب: لما أهديت زينب إلى رسول الله ﷺ ؛ كانت معه في البيت، صنع طعاما ودعا القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون؛ فأنزل الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه} إلى قوله: {من وراء حجاب} فضرب الحجاب، وقام القوم.

وفي رواية للبخاري (رقم ٤٧٩٣) من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس؛ قال: بني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو، فقلت: يا نبي الله! ما أجد أحدا أدعوه، فقال: "فارفعوا طعامكم"، وبقي ثلاثة وهي يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: "السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله"، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك، بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ ، فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء- فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أخبر: أن القوم خرجوا؛ فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة وأخرى خارجة؛ أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت الآية.

وفي أخرى (رقم ٤٧٩٤) من طريق حميد عن أنس؛ قال: أولم رسول الله ﷺ حين بني بزينب بنت جحش، فأشبع الناس خبزا ولحما، ثم خرج إلى حجر

=

=

أمهات المؤمنين كما كان يصنع صبيحة بنائه؛ فيسلم عليهن ويدعو لهن، ويسلمن عليه ويدعون له، فلما رجع إلى بيته؛ رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رآهما؛ رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان نبي الله ﷺ رجع عن بيته؛ وثبا مسرعين، فما أدري: أنا أخبرته بخروجهما، أم أخبر؟ فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. وفي رواية لمسلم (رقم ١٤٢٨/ ٩٤، ٩٥) من طريق الجعد أبي عثمان عن أنس؛ قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيسا؛ فجعلته في تور، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ؛ فقلت: إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: "ضعه"، ثم قال: "اذهب فادع لي فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت" -وسمى رجالا-، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت. قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: "يا أنس! هات التود"، قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: "ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه"، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي: "يا أنس! ارفع"، قال: فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت؟ قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط؛ فثقلوا على رسول الله ﷺ؛ فخرج رسول الله ﷺ فسلم على نسائه، ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع؛ ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال:

=

=

فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج علي، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأهن على الناس: {ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي} إلى آخر الآية.

قال الجعد: قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهدا بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي ﷺ .

وفي رواية للنسائي في "تفسيره" (رقم ٤٣٧)، والترمذي (رقم ٣٢١٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٢٧، ٢٨) من طريق بيان بن بشر عن أنس؛ قال: بني رسول الله ﷺ بامرأة من نسائه، فأرسلني فدعوت قوما إلى الطعام، فلما أكلوا وخرجوا؛ قام رسول الله ﷺ منطلقا قبل بيت عائشة، فرأى رجلين جالسين؛ فانصرف راجعا؛ فأنزل الله: {ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم} . وسنده حسن. وقال الترمذي: "هذا حدث حسن غريب"، وهو في البخاري (رقم ٥١٧٠) مختصر جدا.

وعن عائشة -رضي الله عنها-؛ قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيسا في قعب، فمر عمر -رضي الله عنه- فدعاه فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حس -أو أوه- لو أطاع فيكن؛ ما رأتكن عين؛ فنزل الحجاب. أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٣)، والنسائي في تفسيره (٤٣٩)، وفي الكبرى (١١٤١٩)، والطبراني في الصغير (١/ ٨٣، ٧٤)، وفي الأوسط (٣/ ٢١٢ رقم ٢٩٤٨) والحديث قال عنه

=

=

قال الدارقطني في العلل (٥/ ٨٢/ أ): هذا حديث يرويه مسعر، واختلف عنه؛ فرواه ابن عيينة عنه عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد، عن عائشة، وغيره يرويه عن مسعر عن موسى عن مجاهد مرسلًا، والصواب المرسل، وقال الهيثمي (٧/ ٩٣): رجاله رجال الصحيح غير موسى بن أبى كثير وهو ثقة، وصححه السيوطي في لباب النقول (ص ١٧٨)، وكذا صححه العلامة الألباني في صحيح الأدب المفرد، وصححه أيضا صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ١٣٤).

وعن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-؛ قالت: كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، قالت: فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلا إذا تبرزن إلى المناصع -وهو صعيد أفيح-، فخرجت سودة بنت زمعة -زوج النبي ﷺ - ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: ألا قد عرفناك يا سودة! -حرصا على أن ينزل الحجاب-، قالت عائشة: فأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ- آية الحجاج. أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ١٤٦)، ومسلم "في صحيحه" (رقم ٢١٧٠، ١٨).

وفي رواية: خرجت سودة بعدما ضرب عليها الحجاب؛ لتقضي حاجتها، وكانت امرأة جسيمة تفرع النساء جسما لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب؛ فقال: يا سودة! أما والله لا تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى وفي يده عرق، فدخلت؛ فقالت: يا رسول الله! إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا، قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: "إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن". أخرجه البخاري (رقم ٤٧٩٥، ٥٢٣٧)،

=

=

ومسلم (رقم ٢١٧٠/ ١٧).

قوله تعالى: {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"لا تدخلوا بيوت النبي إلا بإذنه لتناول طعام غير منتظرين نضجه".

قال الطبري: يقول:"لا تدخلوا بيوت نبي الله إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه وبلوغه، يقال: قد أنى هذا الشيء يأني إنى وأنيا وإناء، قال الحطيئة:

وآنيت العشاء إلى سهيل... أو الشعرى فطال بي الأناء".

قال أبو عبيدة:"{إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ}، أي: إدراكه وبلوغه، ويقال: أبى لك أن تفعل، يأنى انيا، والاسم: إنى وأبى: أبلغ أدرك، قال:

تمخّصت المنون له بيوم... أنى ولكلّ حاملة تمام".

عن مجاهد، قوله:"{إلى طعام غير ناظرين إناه}، قال: متحينين نضجه".

قال ابن عباس:"يقول: غير ناظرين الطعام أن يصنع".

قال قتادة:"غير متحينين طعامه".

قال ابن كثير:"حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء»، ثم

استثنى من ذلك فقال: {إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}، أي: لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا يكرهه الله

=

=

ويذمه. وهذا دليل على تحريم التطفيل، وهو الذي تسميه العرب الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتابا في ذم الطفيليين. وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها".

قال السعدي:"المعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"ولكنْ إِذا دُعيتم وأُذن لكم في الدخول فادخلوا".

قال الطبري:"يقول: ولكن إذا دعاكم رسول الله ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله".

عن ابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب، عُرسًا كان أو غيره".

قوله تعالى: {فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"فإذا أكلتم فانصرفوا".

قال الطبري:"يقول: فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم لأكله فتفرقوا واخرجوا من منزله".

قوله تعالى: {وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"غير مستأنسين لحديث بينكم".

قال الطبري: معناه: " ولا متحدثين بعد فراغكم من أكل الطعام إيناسا من بعضكم لبعض به".

قال ابن كثير:"أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث،

=

=

ونسُوا أنفسهم، حتى شَقّ ذلك على رسول الله ﷺ".

عن مجاهد: " {ولا مستأنسين لحديث}، بعد أن تأكلوا". وروي عن السدي مثله.

عن سليمان بن أرقم، قوله: " {ولا مستأنسين لحديث}، قال: نزلت في الثقلاء".

عن جويرية بن أسماء، قال: "قُرِئ بين يدي إسماعيل ابن أبي حكيم هذه الآية، فقال: هذا أدبٌ أدَّبَ اللهُ به الثقلاء".

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"فإن انتظاركم واستئناسكم يؤذي النبي، فيستحيي من إخراجكم من البيوت مع أن ذلك حق له".

قال الطبري:"يقول: إن دخولكم بيوت النبي من غير أن يؤذن لكم وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له كان يؤذي النبي فيستحي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن مع كراهيته لذلك منكم".

قال البيضاوي: أي:"إن ذلكم اللبث كان يؤذي النبي لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه. فيستحيي منكم من إخراجكم بقوله".

قال السعدي:"ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: {إِنَّ ذَلِكُمْ} أي: انتظاركم الزائد على الحاجة، {كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ} أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه {فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ} أن يقول لكم: " اخرجوا " كما هو جاري العادة، أن الناس -وخصوصًا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم".

=

=

قولـه تعـالى: {وَاللهُ لَا يَـسْتَحْيِي مِـنَ الْحَـقِّ} [الأحـزاب: ٥٣]، أي:"والله لا يستحيي من بيان الحق وإظهاره".

قال الطبري: يقول: " {والله لا يستحيي من الحق} أن يتبين لكم، وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياء منكم".

قال ابن كثير:"أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجرَكم عنه".

قال السعدي:"فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدبا وحياء، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان".

قال محمد بن كعب:"كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته بادروه، فأخذوا المجالس، فلا يُعرَف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم، فعُوتِبُوا في ذلك؛ فأنزل الله: {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبي} الآية".

قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"وإذا سألتم نساء رسول الله ﷺ حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر".

قال الطبري: " يقول: وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعا {فاسألوهن} من وراء ستر بينكم وبينهن، ولا تدخلوا عليهن بيوتهن".

قال ابن كثير:"أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن

=

=

بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب".

عن مجاهد، قوله: " {وإذا سألتموهن متاعا}، قال: أزواج النبي ﷺ عليهن الحجاب".

عن السدى، قوله:"{وإذا سألتموهن متاعا}، قال: حاجة".

عن السُّدِّيّ: " {وإذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعًا فاسْأَلُوهُنَّ مِن وراءِ حِجابٍ} أن يكون ذلك من وراء حجاب".

قال قتادة:"بلغنا: أنّهُنَّ أُمِرْن بالحجاب عند ذلك".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال".

قال الطبري: يقول: "سؤالكم إياهن المتاع إذا سألتموهن ذلك من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من عوارض العين فيها التي تعرض في صدور الرجال من أمر النساء، وفي صدور النساء من أمر الرجال، وأحرى من أن لا يكون للشيطان عليكم وعليهن سبيل".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما ينبغي لكم أن تؤذوا رسول الله، وما يصلح

=

=

ذلك لكم".

قوله تعالى: {وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"ولا أن تتزوجوا أزواجه من بعد موته أبدًا".

قال الطبري:"يقول: وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا لأنهن أمهاتكم، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه".

قال ابن كثير"أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: {مِنْ بَعْدِهِ} أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعا، والله أعلم".

عن معمر، عن قتادة، أن رجلا، قال: "لو قبض النبي ﷺ، لتزوجت فلانة يعني عائشة: " فأنزل الله تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا}".

قال معمر: "سمعت أن هذا الرجل طلحة بن عبيد الله".

عن عامر:"أن النبي ﷺ مات، وقد ملك قيلة بنت الأشعث، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها منه بالردة التي أرتدت مع قومها، فاطمأن أبو بكر وسكن".

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا} [الأحزاب: ٥٣]، أي:"إنَّ أذاكم

=

=

رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده إثم عظيم عند الله".

قال الطبري:"يقول: إن أذاكم رسول الله ﷺ ونكاحكم أزواجه من بعده عند الله عظيم من الإثم".

قال البيضاوي:"يعني: إيذاءه ونكاح نسائه. كان عند الله عظيما ذنبا عظيما، وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب لحرمته حيا وميتا".

قال ابن كثير:"وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: {إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا}".

قوله تعالى: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ} [الأحزاب: ٥٤]، أي:"إن تُظْهِروا شيئًا على ألسنتكم -أيها الناس- مما يؤذي رسول الله مما نهاكم الله عنه، أو تخفوه في نفوسكم".

قال ابن كثير:"أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم".

قال البيضاوي:"إن تبدوا شيئا كنكاحهن على ألسنتكم. أو تخفوه في صدوركم".

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، في قوله: {إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ}، قال: "إن تكلموا به فتقولوا: نتزوج فلانة، لبعض أزواج النبي ﷺ، أو تُخفوا ذلك في أنفسكم فلا تنطقوا به، يعلمه الله".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب: ٥٤]، أي:"فإن الله تعالى يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، وسيجازيكم على ذلك".

قال ابن كثير: أي: "فإن الله يعلمه؛ فإنه لا تخفى عليه خافية، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: ١٩]".

قال البيضاوي:"فيعلم ذلك فيجازيكم به، وفي هذا التعميم مع البرهان على

=

=

المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد".

قال القرطبي:"البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض تقضى، ولا مستقبل يأتي. وهذا على العموم تمدح به، وهو أهل المدح والحمد. والمراد به ها هنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: {ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن}، ومن أشير إليه في قوله: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا}، فقيل لهم في هذه الآية: إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها. فصارت هذه الآية منعطفة على ما قبلها مبينة لها. والله أعلم".

قال العثيمين: ثم قال الله ﷻ: {ياأيها الذين آمنوا} المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم} في الدخول بالدعاء {إلى طعام} فتدخلوا، {غير ناظرين} منتظرين {إناه} نضجه مصدر أنى يأني].

قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا} سبق لنا الكلام على مثل هذه العبارة، وبينا أن تصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به والعناية به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى، وأن وصف هذا النداء بالإيمان يدل على أن التزام هذا الحكم من مقتضيات الإيمان، وأن التخلف عنه سبب لنقصان الإيمان.

ثم إن التعبير بالإيمان فيه إغراء وحث؛ لأن المؤمن حقا يلتزم ما أمر به ويترك ما نهي عنه، ومن ذلك إذا قلت: يا رجل افعل كذا. فالمعنى: بمقتضى رجوليتك يلزمك أن تفعل؛ وكذا: يا مؤمن افعل كذا، أي: بمقتضى إيمانك؛ يلزم أن تفعل كذا، ففيه إغراء وحث.

=

=

قوله تبارك وتعالى: {ياأيها الذين آمنوا} يعني: لإيمانكم وجهنا إليكم هذا الخطاب.

قوله تعالى: {لا تدخلوا بيوت النبي} بيوت النبي جمع ومضاف إلى الرسول ﷺ؛ لأن بيوته كانت تسعة، كل امرأة من نسائه لها بيت، لم يجمعهن عليه الصلاة والسلام في بيت واحد، بل جعل لكل امرأة بيتا.

وإضافته إلى النبي ﷺ مع أنه أضيف إلى النساء أنفسهن، كما سبق في قوله تعالى: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله} [الأحزاب: ٣٤] هل هذا يتناقض مع ذاك؟

الجواب: لا، لا يتناقض فهو مضاف إلى كل شيء منهما بنسبة معينة، فباعتبار أن هذه البيوت مأوى النبي ﷺ ومسكنه أضيفت إليه، وباعتبار أنها -أي: هذه البيوت- ملك لزوجاته أضيفت البيوت إليهن.

والعلماء رحمهم الله اختلفوا: هل بيوت زوجات الرسول ﷺ ملك لهن أو ملك للرسول عليه الصلاة والسلام؟ فيه قولان لأهل العلم رحمهم الله، وسبق لنا أن الأظهر أنها ملك للزوجات، بدليل أنهن ورثن هذه البيوت، ولو كانت ملكا للرسول ﷺ ما ورثنها؛ لأن النبي ﷺ يقول: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة"، ولا يرد على هذا أن هذه البيوت أدخلت في المسجد فيما بعد؛ لأنها إما أن تكون أخذت بعوض، وإما أن تكون أخذت برضاء مستحقيها، وهذا لا ينافي التنبيه.

قوله تعالى: {إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه}: {إلا أن يؤذن} بالبناء للمجهول، ولم يقل: إلا أن يأذن النبي؛ لأنه قد تأذن المرأة من نسائه لأحد

=

=

فيدخل، فليس بشرط أن يكون الإذن من الرسول ﷺ، ولكن الله تعالى اشترط ثلاثة شروط:

الأول: الإذن.

والثاني: إلى طعام.

والثالث: غير ناظرين إناه.

ولننظر هذه القيود: هل هي معتبرة أم لا؟

فالأول: قوله تعالى: {إلا أن يؤذن لكم} يشمل: الإذن العرفي، والإذن اللفظي.

فالإذن اللفظي: أن يقال: ادخل.

والإذن العرفي: أن يكون هناك علامة تدل على أن المقام مقام إذن؛ كفتح الباب وما أشبه ذلك.

فلا يمكن الدخول بدون إذن، فالإذن إذن معتبر فهو قيد.

والثاني: قوله تعالى: {إلى طعام}، هذا لا يدل على أنهم لو أذن لهم في الدخول إلى غير طعام لا يحل، فلو دعي إلى غير طعام هل يدخل أو لا؟ إن نظرنا إلى ظاهر قوله تعالى: {إلى طعام} قلنا: لا يدخل؛ لأن الله تعالى قال: {إلى طعام}، ولكننا نقول: إن هذا القيد بيان للواقع، وما كان بيانا للواقع فإنه لا مفهوم له، فالآية وردت في قضية معينة وهي دخول هؤلاء إلى الطعام بدون دعوة؛ فلهذا قيدت بقوله تعالى: {إلى طعام}.

والثالث: قوله تعالى: {غير ناظرين إناه}، ناظر إن تعدت بـ (إلى) فهي من النظر بالعين، وإن تعدت بنفسها فهي بمعنى: الانتظار، تقول: نظرت إليه. وتقول: نظرته. بمعنى: انتظرته، قال الله سبحانه وتعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم

=

=

الملائكـة} [الأنعـام: ١٥٨]، و {هـل ينظـرون إلا تأويلـه} [الأعـراف: ٥٣]، والمعنى: هل ينتظرون؛ لأنها تعدت بنفسها، وقوله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلـى ربهـا نـاظرة} [القيامـة: ٢٢ - ٢٣]، هـذا مـن النظـر بـالعين؛ وهنـا {ناظرين} متعدية بنفسها، فتكون بمعنى: منتظرين.

وقوله تعالى: {إناه} أي: نضجه؛ وهل هذا شرط أم لا؟ نقول: إنه شرط لجواز الدخول أن يدخلوا لطعام غير منتظرين نضجه، وكانوا يتحرون نضج الطعام، فإذا تحروا أنه قد نضج وقارب أن يقدم أو قدم دخلوا البيوت؛ لكي يأكلوا.

ولا شك أن مفاجأة الإنسان عند أكله تؤذيه، ويسمى هذا الذي يفجأ الناس عند تقديمهم الطعام يسمى طفيليا، وضيفن بالنون؛ لأن هذه مثل الذي يتكئ على عصا كأنه ثقيل، فإذا كان عندك ضيف لا تحب أن يكون عندك، فقلت لصاحبك: هل عندك ضيف؟ قلت: لا، عندي ضيفن. يعني: ثقيل، طفيلي جاء بلا دعوة، ونام على نهض صاحب البيت، فلا يتزحزح ولا يخرج، ويتطلب: هات ماء، هات شرابا، هات كذا، أريد الحمام، أريد أن أروح لكذا... فيتعبك.

المهم: أن قوله تعالى: {غير ناظرين إناه} هذا شرط، يعني: لا يجوز لكم أن تتحروا إنى الطعام حتى تدخلوا لما في ذلك من التضييق على النبي عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن المعنى: لا تدخلوا مبكرين بحيث تبقون في البيوت حتى ينضج الطعام؛ لأن في هذا أيضا إشقاقا على صاحب البيت، فإذا كان تجهيز الغداء في الساعة الواحدة، فجاء هؤلاء في الساعة الثانية عشرة، فانتظروا ساعة، وهذا فيه تضييق على النبي ﷺ، والنبي عليه الصلاة والسلام حيي كريم، لو استأذنوا عليه قبل نضج الطعام بساعة لم يردهم ﷺ، وإن كان يتأذى بذلك، لكن

=

=

لكرمه وحيائه لا يردهم.

فتبين بهذا النهي عن دخول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام إلا بثلاثة شروط:

١ - الإذن.

٢- وأن يكون إلى طعام.

٣- وأن يكونوا غير ناظرين إناه.

ولكن {إلى طعام} يقولون: إن هذا ليس بشرط؛ لأنه قيد لبيان الواقع فلا مفهوم له، وكل قيد لبيان الواقع فإنه لا مفهوم له؛ ولهذا لو دعوا إلى غير الطعام فلا بأس أن يدخلوا.

وقوله تعالى: {إلا أن يؤذن لكم} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الدخول بالدعاء {إلى طعام}]، فأفادنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن قوله تعالى: {إلى طعام} لا يتعلق بقوله تبارك وتعالى: {إلا أن يؤذن لكم} إلا على وجه التضمين؛ لأن (يؤذن) لا تتعدى بـ (إلى)، وإنما تتعدى بـ (في) أو باللام، لكنها باللام للمأذون له لا للمأذون إليه، فتتعدى بـ (في): إلا أن يؤذن لكم في طعام، لكنها جاءت بـ (إلى)؛ لأن الإذن هنا ضمن معنى الدعاء، يعني: إلا أن تدعوا إلى طعام.

وقوله تعالى: {غير ناظرين إناه} جاءت منصوبة، مع أن الذي قبلها مجرور - يعني: لم تكن بلفظ: إلى طعام غير ناظرين إناه-؛ لأنها حال من الكاف في قوله تبارك وتعالى: {يؤذن لكم إلى طعام}، أي: حال كونكم غير ناظرين إناه، فإن كنتم منتظرين نضجه وتتحرون نضجه فلا تدخلوا عليه أيضا؛ لما في ذلك من الإشقاق والأذية.

وقوله تعالى: {إناه} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها [مصدر أنى يأني] إنى، فهي ليس

=

=

فيها شيء محذوف، يعني: لست (إناءه) في الأصل، بل هي (إناه) أصلا وفرعا، مصدر أنى يأني إنى.

وقوله تبارك وتعالى: {ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا} لما كان قوله تبارك وتعالى: {لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم} قد يتوهم منه واهم أنهم لا يدخلون أبدا؛ قال تعالى: {ولكن إذا دعيتم فادخلوا}، فكان في قوله تعالى: {ولكن إذا دعيتم فادخلوا} كان فيه فائدة، وهي أنهم متى دعوا دخلوا، فكونهم هم يدخلون بأنفسهم لا يجوز إلا بالشروط السابقة، لكن إذا دعوا فإنهم يدخلون، فإذا طعموا فإنهم ينتشرون؛ ولهذا قال تعالى: {ولكن إذا دعيتم فادخلوا}، أي: ولا تدخلوا بغير دعوة.

وهذا غير قوله تعالى: {إلا أن يؤذن لكم إلى طعام}؛ لأن (يؤذن) معناها: أنهم جاؤوا فاستأذنوا، وأما التي معنا -الجملة الثانية {ولكن إذا دعيتم} - فهنا هم الذين دعوا.

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى طعامه، كما دعا أبو هريرة ﵁ حين وجده جائعا في يوم من الأيام، فقد خرج أبو هريرة ﵁ من بيته وهو جائع حتى كاد يسقط مغشيا عليه من الجوع، فلما خرج الناس تبع عمر بن الخطاب ﵁ يسأله عن آية من كتاب الله تعالى، وأبو هريرة ﵁ حينما سأله عن الآية يعرف الآية لكن يؤمل لعل عمر ﵁ يقول: اتبعني. ولكن عمر ﵁ لم يفكر في هذا الأمر، أخبره بالآية ومضى، يقول: فلما جاء الرسول ﷺ ورآني عرف ما في وجهي. فدعاه فدخل، فجيء بلبن إلى النبي ﷺ فأمره أن يدعو أهل الصفة -وأهل الصفة: هم الفقراء المهاجرون الذين ليس لهم مأوى في المدينة،

=

=

كان لهم صفة في المسجد يجتمعون فيها، أحيانا يبلغون الثمانين، وأحيانا يكون أكثر، وأحيانا يكون أقل- يقول: لما قال: ادع أهل الصفة. واللبن قليل، فكأنه تردد ﷺ وقال: ما يغني هذا اللبن لأهل الصفة؟ فإذا دعوت أهل الصفة وشربوا اللبن بقيت أنا جائعا، ولكن لم يكن لي بد من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فذهب فدعا أهل الصفة فجاؤوا فشربوا، كل يشرب من هذا اللبن، وكل يشرب، فلما بقي بقية قال: "اشرب". يقول: فشربت حتى رويت. فقال: "اشرب أبا هر"، فقلت: والله يا رسول الله لا أجد له مسارا. فبقيت بقية فشربها النبي ﷺ.

ففي هذه دعوة عامة ودعوة خاصة، وكذلك في حديث أنس ﷺ لما صنع النبي عليه الصلاة والسلام طعاما، قال: اخرج فادع لي من لقيت؛ فإذا دعي المسلمون إلى طعام فادخلوا، {ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا} ولم يقل: فإذا شبعتم. قال: إذا طعمتم؛ لأن الطعام قد يشبع وقد لا يشبع.

وقوله تعالى: {فانتشروا} أي: تفرقوا؛ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{ولا} تمكثوا {مستأنسين لحديث}]، أفادنا المصنف بقوله: [{ولا} تمكثوا] أن كلمة {مستأنسين} حال من فاعل محذوف مع فعله، والتقدير: ولا تمكثوا مستأنسين لحديث.

والاستئناس بالشيء معناه: الاطمئنان إليه، يعني: لا تبقوا بعد الأكل تتحدثون وتنبسطون وتطمئنون، وأما الحديث العابر فلا بأس به بعد الأكل، ولكن هذا ليس من آداب الطاعم على كل حال؛ لأنه علل، قال تعالى: {إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{مستأنسين لحديث} من بعضكم لبعض {إن ذلكم}

=

=

المكث {كان يؤذي النبي فيستحيي منكم} أن يخرجكم {والله لا يستحيي من الحق} أن يخرجكم]. وعلى هذا فينهون عن البقاء مطمئنين للحديث لعلة وهي الأذية، أذية النبي عليه الصلاة والسلام، وبناء على هذه العلة لو قدر أنه لا يتأذى بذلك فلا حرج على الإنسان أن يبقى.

وقوله تعالى: {إن ذلكم كان يؤذي النبي}، أعاد الاسم الظاهر في موضع الضمير؛ تعلية لشأن الرسول ﷺ، وإلا لكان المتوقع أن يقول: إن ذلكم كان يؤذيه، ولكن قال تعالى: {يؤذي النبي} إعلاء لشأنه ﷺ، وإشارة إلى أنه لنبوته يجب أن يتحاشى المرء أذيته لما له من الفضل.

وقوله تعالى: {إن ذلكم} لماذا جمع فيها الخطاب؟

الجواب: لأن المخاطبين جمع، واسم الإشارة إذا اقترن بالكاف فإنه يراعى فيه المخاطب والمشار إليه، والمشار إليه يتغير به اسم الإشارة، والمخاطب تتغير به الكاف.

فالقاعدة: أنه إذا اقترنت الكاف باسم الإشارة فإنه يراعى في اسم الإشارة المشار إليه، وفي الكاف المخاطب.

فلنفرض أنني أشير إلى جماعة وأخاطب واحدا أقول: أولئك. وبالعكس أشير إلى واحد وأخاطب جماعة أقول: ذلكم. وأشير إلى جماعة وأخاطب جماعة فأقول: أولئكم. وأشير إلى جماعة وأخاطب جماعة نساء فأقول: أولئكن. وأشير إلى واحد وأخاطب جماعة نساء فأقول: ذلكن، قال تعالى: {قالت فذلكن الذي لمتنني فيه} [يوسف: ٣٢].

الخلاصة: أن اسم الإشارة إذا اقترنت به الكاف؛ فإنه يراعى في الكاف

=

=

المخاطب، ويراعى في اسم الإشارة المشار إليه، فإن كان جمعا فاجمعها، وإن كان مثنى فثنها، وإن كان مفردا فأفردها. فإذا كنت تشير إلى اثنين مخاطبا اثنين تقول: ذانكما. وإذا كنت تشير إلى اثنتين مخاطبا اثنتين تقول: تانكما؛ لأن المثنى المؤنث يقال له: تان. قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وذان تان للمثنى المرتفع ....

وهذه يغلط فيها كثير من الطلبة فيلتبس عليه المشار إليه بالمخاطب.

فقوله تعالى: {إن ذلكم} المشار إليه هنا مفرد، والمخاطب جمع؛ لأنه يخاطب جماعة المؤمنين، ويشير إلى شيء مذكور، أي: إن ذلك المذكور {يؤذي النبي فيستحيي منكم}.

وقوله تعالى: {يؤذي النبي} الأذية ليست هي الضرر؛ إذ قد يتأذى المتأذي ولا يتضرر بذلك؛ ولهذا يوصف الله سبحانه وتعالى بالتأذي ولا يوصف بالضرر، قال الله تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} [الأحزاب: ٥٧]، وقال تعالى في الحديث القدسي: "يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر"، أما في الضرر فقال في الحديث القدسي: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنعوني"، ونحن نشاهد الآن في أنفسنا أننا نتأذى بالشيء ولا نتضرر به، إذ يتأذى الإنسان بالرائحة الكريهة؛ كرائحة البصل والكراث والنتن والوسخ والعرق وما أشبه ذلك، ولكنه لا يتضرر به، فلا يلزم من الأذية الضرر.

يقول تعالى: {إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم} الفاء عاطفة على قوله تعالى: {يؤذي}؛ يعني: فكان أيضا يستحيي منكم، أي: يستحيي منكم أن

=

يخرجكم إذا دخلتم في هذه الحال.

وقوله تعالى: {فيستحيي منكم} إذا قيل لنا: ما هو الحياء؟ أو عرف الحياء؟ فنقول: الحياء نكتب عليه ميم بخط عريض، أي: معروف، ففي القاموس إذا جاءت كلمة معروفة كتب: ميم، يعني: معروف، فلا يحتاج إلى أن نحده، كما لو قيل لك: ما هي المحبة؟ فلا تستطيع أن تحدها، مثلما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في روضة المحبين: إن المحبة لا تحد بأوضح من لفظها، المحبة هي المحبة. وكذلك: الكراهة هي الكراهة؛ لأن هذه انفعالات نفسية يحس بها الإنسان من نفسه، ولا يستطيع أن يعبر عنها، فالحياء هو الحياء، وكذلك: النوم هو النوم معروف، وبعضهم يقول: إنها غشية ثقيلة تهجم على المخ فتفقد الوعي والإحساس، فلو تصورت أن هذا هو النوم ما جاءني نوم، فلا أتصور أنه غشية!.

وكذلك: الجوع، من صفات البطن من قلة الطعام، هذا أثره، أما هو فإنه معروف. فهذه المعاني النفسية لا يمكن في الحقيقة أن يعرفها أحد، ولا يمكن أن تعرف بأوضح من لفظها.

إذن: الحياء معروف، والنبي ﷺ يستحيي من هؤلاء؛ لأنه ﷺ أكمل الناس إيمانا، والحياء من الإيمان؛ ولأنه ﷺ أكرم الناس، والكريم يستحيي من ضيفه أن يخرجه، أو أن يتبرم بوجوده، أو أن يتكره له؛ ولهذا الرسول ﷺ يصبر وإن كان متأذيا من ذلك؛ لما جبله الله تعالى عليه من كمال الإيمان وكمال الكرم، فيستحي منكم.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فيستحيي منكم} أن يخرجكم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أن يخرجكم]، هذه في محل جر بدل اشتمال؛ لأن التقدير: فيستحيي من إخراجكم.

=

قولـه تبـارك وتعـالى: {والله لا يـستحيي مـن الحـق}، والحـق هـو: العـدل في الأحكام، والصدق في الأخبار، فالرب ﷻ لا يستحي من الحق؛ لأن الحياء من الحق يستلزم ترك الحق والخور وعدم الحزم، والله ﷻ لا يستحيي من أن يبين الحق.

ويقـول المـصنف رحمه الله: [{لا يـستحيي مـن الحـق} أن يخـرجكم]، هكـذا قـال المصنف رحمه الله، وفيما قاله نظر، بل الصواب: {لا يستحيي من الحق} أن يبينه لكم؛ لأن المقام هنا ليس مقام إخراج، بل المقام مقام تبيين لما يجب على هؤلاء الذين استأذنوا على الرسول عليه الصلاة والسلام، فالمعنى: لا يستحيي من الحق، كما قلت: إن الحق هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، بينما المراد بالحق هنا -على رأي المصنف رحمه الله هو الإخراج، يعني لا يستحيي أن يخرجكم، ولكن الصواب لا يستحي أن يبين لكم ما يلزمكم فتخرجوا.

ثم قال المصنف عفا الله عنه: [أي: لا يترك بيانه]، أي: لا يترك بيان الحق، وهذا من التحريف؛ حيث فسر الحياء بلازمه وهو الترك؛ لأن من لازم الحياء من الشيء أن يدعه حياء منه، فالمصنف رحمه الله فسر الحياء بلازمه وهو الترك، أي: لا يترك بيان الحق، وفي قوله: لا يترك بيان الحق. مع قوله: [{لا يستحيي} أن يخرجكم] هناك شيء من التناقض؛ لأنه جعل المستحيا منه هنا بيان الحق وجعله في القول الأول الإخراج، والصواب قوله الثاني، أي: لا يستحي من بيان الحق، لكن تفسيره الاستحياء بالترك هذا باطل؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ.

والواجب علينا فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته: أن نجريها على ظاهرها اللائق بالله سبحانه وتعالى، معتقدين أنه لا مثيل له في هذه الصفة، ومبتعدين عن

=

=

تكليفها، أما وجوب إجرائها على ظاهرها؛ فلأن الله تعالى خاطبنا بلسان عربي مبين، ولو أراد خلاف ذلك الظاهر لكان التعبير بهذا الذي يفيد ظاهره الكفر أو التمثيل خلاف البيان، والله ﷻ يقول: {يريد الله ليبين لكم} [النساء: ٢٦]، فكيف يعبر تبارك وتعالى أو يتكلم بما هو خلاف البيان فيما يعتبر صميم العقيدة، وهو ما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته؟! ولهذا كان طريق هؤلاء المنحرفين من أبلغ ما يكون طعنا في كلام الله ﷻ، بل من أبلغ ما يكون طعنا في الله تعالى نفسه؛ إذ إن طريقتهم تستلزم أن يكون الله ﷻ لم يبين الحق فيما يتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته، وجعل الحق موكولا إلى ما تقتضيه عقولهم، ويحاولون بعد ذلك أن يردوا كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ إلى ما تقتضيه هذه العقول الفاسدة المتناقضة، والطريق الأسلم والأعلم والأحكم هي طريق السلف، أن تأخذ كلام الله تعالى ورسوله ﷺ على ظاهره؛ لأننا:

١- نعلم علم اليقين أنه لا أحد أعلم بالله تعالى من نفسه، ولا أحد من الخلق أعلم بالله تعالى من رسول الله ﷺ.

٢- ونعلم أيضا أنه لا أحد أصدق كلاما من الله تعالى، ولا أحد من المخلوقين أصدق كلاما من رسول الله ﷺ، وهذا ثابت أيضا.

٣- والأمر الثالث: نعلم أنه لا أحد أوضح بيانا في كلامه من الله تبارك وتعالى، ولا أحد من المخلوقين أعظم بيانا من رسول الله ﷺ.

٤- نعلم أيضا أنه لا أحد أصح إرادة وقصدا من الله ﷻ؛ فإن الله تعالى ما أراد من عباده إلا أن يبين لهم الحق، وكذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ لا نعلم أحدا أنصح منه للخلق، وأصدق إرادة في بيان الحق.

=

=

فإذا تمت هذه الأمور الأربعة في أي كلام يكون: صار ما يدل عليه ظاهره هو المراد الذي يجب علينا أن نأخذ به، فهذه أمور أربعة إذا اجتمعت في الكلام صار الكلام واجب الأخذ بظاهره؛ وهذه الأمور الأربعة هي: العلم والقصد والصدق والبيان.

وضدها لا يؤخذ ولا يعتبر، فلو جاء إنسان جاهل يتكلم لك بكلام من أفصح البيان، وهو رجل نعرف أنه من أنصح الخلق، وأصدقهم؛ لا تثق بقوله.

ولو جاء رجل يتكلم عن الطب، ونحن نعلم أنه لم يدرس الطب أبدا، وقام يشرح لنا الطب؛ لا نثق به؛ لأنه جاهل.

ولو جاء عالم نعرف أنه عالم بما يتكلم به، لكنه كذوب؛ لا نثق بكلامه؛ لأنه كذوب، قد يكذب علينا.

ولو جاءنا رجل عالم، وصدوق، لكنه سيئ الإرادة قد يغش ويقصد ضلال الخلق، هذا أيضا لا نثق به؛ لأننا نخشى أن يغشنا فيما قال.

ولو جاءنا إنسان عالم، وناصح، وصدوق، لكن ما يحسن يعبر، مثل إنسان فارسي لا يعرف باللغة العربية، وقام يعبر باللغة العربية؛ فلا نثق بقوله؛ لأنه لا يحسن التعبير، فأحيانا يقول إذا أراد أن يضيف الضمير إلى نفسه: أنت أكلت. أي: أنه إذا أراد أن يقول: أنا أكلت. يقول: أنت أكلت. وإذا أراد أن يقول: أنت أكلت. يقول: أنا أكلت. فلا نثق بكلامه، لأنه قد يقلب الكلام؛ لأنه عيي.

لكن كلام الله تعالى وكلام الرسول ﷺ اجتمعت فيه صفات القبول الأربع؛ فلهذا يجب علينا أن نؤمن بكل صفة وصف الله تعالى بها نفسه.

فإن قال قائل: الآية وما أشبهها فيها نفي الحياء، والنفي ضد الإثبات، فكيف

=

=

تقول: إن في الآية إثبات الحياء؟!

فالجواب: منطوق الآية {والله لا يستحيي من الحق}، ومفهومها: يستحيي من غير الحق؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لكان نفي الاستحياء عن الحق لغوا من القول لا معنى له.

ثم نقول: إنه قد ثبتت صفة الحياء لله ﷻ بصيغة الإثبات، كما في الحديث الذي في المسند: "إن الله حيي كريم" فـ (حيي) فيها إثبات الحياء لله سبحانه وتعالى.

فكل صفة أثبتها الله تعالى لنفسه؛ فإنه يجب علينا أن نأخذها بالقبول، ولكننا ننزه اعتقادنا عن محذورين عظيمين وهما: التمثيل، والتكييف.

والتعبير بـ (التمثيل) أحسن من التعبير بـ (التشبيه)؛ لأن هذا هو الذي نفاه الله تعالى عن نفسه؛ ولأن نفي التشبيه المطلق هذا ليس بصواب، كما ذكرنا أنه ما من موجودين إلا ويشتركان في صفة الوجود، وإن كانا يتباينان فيما تقتضيه هذه الصفة في مقتضياتها ومستلزماتها، وما من سميعين إلا ويشتركان في صفة السمع وإن كانا يختلفان في ملزوماتها ومقتضياتها، وما من بصيرين إلا ويشتركان في صفة البصر، فيكون بينهما مشابهة من بعض الوجوه فيما يشتركان فيه؛ ولهذا فنفي التمثيل هو الذي ينبغي لنا -معشر طلبة العلم- أن نعبر به؛ لأنه هو الذي جاء في القرآن وهو أسلم.

فإن قال قائل: هل التعبير بـ (تشبيه) يكون فيه قصور، لا يؤدي المطلوب؟

فالجواب: أنه لا يؤدي المطلوب، وفيه قصور؛ لأنه بخلاف تعبير القرآن، ولأن هذا أدى إلى أن تنكر كثير من الصفات بهذه الدعوى؛ ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في العقيدة الواسطية لم يقل: من غير تشبيه، قال: "من غير تحريف

=

=

ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل"، وهذا هو الأولى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والله لا يستحيي من الحق} أي: لا يترك بيانه، وقرئ: "يستحى" بياء واحدة]، فـ (قرئ) تعني: قراءة شاذة؛ لأن قاعدة المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: (وقرئ)، فهي قراءة شاذة بخلاف ما إذا قال: (وفي قراءة)، أو قال: بالياء والنون، أو بالياء والتاء، وما أشبه ذلك؛ فهما قراءتان سبعيتان.

قوله تعالى: {وإذا سألتموهن} الفاعل يعود على الصحابة، والمفعول يعود على نساء النبي ﷺ، وهن لم يسبق لهن ذكر في الآية، لكن قوله تعالى: {بيوت النبي} يدل على ذلك؛ لأن ساكن بيوت النبي هن أزواج النبي ﷺ.

يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وإذا سألتموهن} أي: أزواج النبي ﷺ]: [أي] هذه تفسيرية، و [أزواج] عطف بيان للهاء في قوله: {وإذا سألتموهن} أي: أزواج النبي ﷺ {متاعا} المراد بالمتاع: ما يتمتع به من ملابس ومطاعم ومشارب وغيرها، حتى الدراهم تعتبر متاعا، فكل ما يتمتع به فهو متاع.

قوله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فاسألوهن من وراء حجاب} ستر] و (اسألوهن) تنصب مفعولين؛ الأول: الهاء في قوله تعالى: {فاسألوهن}، والثاني: محذوف دل عليه ما قبله، أي: فاسألوهن المتاع من وراء حجاب.

وقوله تعالى: {من وراء حجاب} حجاب بمعنى ستر، وكلمة {من} تدل على أن هذا الستر لا بد أن ينفصل، وأنه غير ستر الوجه أو البدن بالثياب، بل هو ستر آخر: حجاب، وحجاب أمهات المؤمنين غير حجاب نساء المؤمنين؛ لأن حجاب نساء المؤمنين يصح أن يكون متصلا بالبدن كالخمار والملحفة، وما أشبههما، أما حجاب أمهات المؤمنين فإنه حجاب آخر منفصل يحول بين

=

=

الرجل وبين رؤية أمهات المؤمنين؛ ولهذا قال تعالى: {من وراء حجاب} فتدل على أن هذا الحجاب منفصل عن المستتر به، ومنه قوله تعالى عن الكفار يقول للرسول ﷺ: {ومن بيننا وبينك حجاب} [فصلت: ٥].

وقوله تعالى: {ذلكم أطهر لقلوبكم} لماذا قال: (ذا) مفرد و (كم) جمع، فكيف يتلاءم جمع مع مفرد؟

الجواب: لاختلاف المرجع، فاسم الإشارة يعود على المشار إليه، والكاف للخطاب يعود على المخاطب، فقد يكون المشار إليه مفردا والمخاطب جمعا كما هنا: {ذلكم} أي: المذكور والخطاب للصحابة رضي الله عنهم.

وقوله تبارك وتعالى: {ذلكم أطهر لقلوبكم}: {أطهر} يعني: أبلغ في طهر القلوب لقلوبكم أيها السائلون {وقلوبهن} أي: المسؤولات، قال رحمه الله: [من الخواطر المريبة] وانظر! فهذا الخطاب للصحابة وهم أطهر هذه الأمة قلوبا في جانب نساء النبي ﷺ، وهن أعظم النساء عفة وبعدا عن المكروه، فإذا كان هذا الخطاب في مثل هؤلاء القوم لهؤلاء النساء، فما بالك بمن سواهم، إذا كان احتمال تدنس القلب بمخاطبة المرأة من دون حجاب واردا في مثل هؤلاء القوم، فما بالك فيمن دونهم بمراحل لا في الزمن ولا في الرتبة؟! يكون هذا أشد وأشد؛ ولذلك ينكر إنكارا عظيما على من قال: إن الحجاب خاص بأمهات المؤمنين؛ فمن أين الخصوصية؟! فإذا كان الله تعالى علل بأنه أطهر لقلوبهم، أي: قلوب المخاطبين والمخاطبات، وهن -بلا شك- أطهر النساء وأعفهن، وكذلك الذين يخاطبونهن خير الناس كما جاء في الحديث: "خير الناس قرني" فما بالك بمن دونهم؛ فاحتمال تنجس القلب من مخاطبة المرأة بدون حجاب فيمن بعد

=

=

الصحابة أقرب وأقرب بكثير، وإذا كان هذا باعتبار الصحابة مع زوجات الرسول ﷺ فغيرهم مع نساء دونهن بكثير من باب أولى.

وقوله تعالى: {ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن} المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [من الخواطر المريبة] الخواطر التي ترد على القلب والخواطر التي ترد على القلب إذا لم يطمئن الإنسان إليها ويسترسل معها فإنه لا يعاقب عليها؛ لأنها من حديث النفس، بل هي مما يصول عن النفس، والتحرز منها أشد؛ لأن الرسول ﷺ ثبت عنه أنه قال: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بها أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم"، فإذا كان هذا في حديث النفس، فما بالك بما يهجم على النفس بدون قصد؟ إذ يكون قصد العفو عنه من باب أولى.

فالخواطر التي ترد على القلب إذا لم يسترسل معها الإنسان ويطمئن إليها فإنها لا تضره، سواء كانت هذه الخواطر فيما يتعلق بجلال الله ﷻ أو فيما يتعلق برسوله ﷺ، أو فيما يتعلق بشهوة النفس وإراداتها، فإنها لا تضر الإنسان بشرط ألا يسترسل، بل إن هذه الخواطر ما ترد إلا على قلب سليم، يهاجم الشيطان بها القلب حتى يفسده؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى النبي ﷺ مثل هذه الخواطر، قال: "أوجدتم ذلك" قالوا: نعم. قال: "ذلك صريح الإيمان"، يعني: خالصه؛ لأن الشيطان لا يهجم على قلب فاسد، وإنما يهجم على القلوب الصالحة ليفسدها، ودواء ذلك أن تستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي، وأن تثني على الله ﷻ بما هو أهله، فتقول: الله أحد صمد لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، استجارة بالله تعالى وانتهاء، ووصفا لله تعالى بالكمال، وبعد ذلك تزول عنك شيئا فشيئا.

=

=

وقوله تعالى: {وما كان لكم} الخطاب للصحابة رضي الله عنهم، وكذلك من بعدهم من باب أولى؛ (ما كان لكم)، ومثل هذه العبارة تدل على الممتنع غاية الامتناع؛ ولهذا قال المصنف رحمه الله: [{وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله} بشيء] ولم يبينها، يعني: لا يصلح ولا يستقيم، ولا يمكن لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ.

ومثل هذا التعبير يدل على امتناع الشيء مثل قوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله} [المؤمنون: ٩١] المعنى أن ذلك ممتنع لا يصلح ولا يستقيم، فكل مؤمن لا يمكن في حقه ولا يستقيم ولا يصلح في حقه أن يؤذي رسول الله ﷺ لا بالقول ولا بالفعل: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا}، وأذية الرسول ﷺ من أعمال المشركين، فهم الذين يؤذون الرسول ﷺ بالقول وبالفعل.

وقال تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله} [الأحزاب: ٥٣]، وهنا قال: {أن تؤذوا رسول الله}، وأول آية يقول: {النبي} إشارة إلى أن الرسول ﷺ شرف لعظم من أرسله وهو الله تعالى، فلما كان رسول الله ﷺ فلا يمكن أن يؤذى؛ لأنه رسول من عند الله تبارك وتعالى، أذية الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته ما يتصل بشخصه، وأذية الرسول ﷺ بعد مماته ما يتصل بسنته، فإنه لا ينبغي ولا يصلح لأي مؤمن أن يقول في سنة الرسول عليه الصلاة والسلام على وجه يتأذى به الرسول ﷺ مثل ردها وتحريفها وما أشبه ذلك، قال تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله}.

إذن: هل نجلس مستأنسين للحديث بعد الطعام، يعني: في حق الرسول عليه الصلاة والسلام؟

=

=

الجواب: لا؛ لأن الله تعالى قال: {إن ذلكم كان يؤذي النبي}، إذن: ما كان لنا أن نجلس ما دام فيه أذية للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: {ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} يعني: وما كان لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا؛ وقوله تعالى: {تنكحوا} المراد بالنكاح هنا العقد، يعني: لا يمكن أن تعقدوا على أزواجه من بعده، وكل نكاح في القرآن فإنه بمعنى العقد، خلافا لمن قال: كل نكاح في القرآن فهو بمعنى الوطء إلا قوله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} [النساء: ٢٢]، والصواب: أن كل نكاح في القرآن فإنه بمعنى العقد، وأما من قال: إنه بمعنى الجماع إلا في الآية هذه: {ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن} [الأحزاب: ٤٩] فليس بصحيح.

وقوله تعالى: {أزواجه} تكون المرأة زوجة للإنسان بالعقد عليها.

وقوله تعالى: {من بعده} أي: من بعد مفارقته لها، ومفارقة النبي ﷺ لها تكون بالحياة وتكون في الموت، والمفارقة في الحياة تكون قبل الدخول وبعد الدخول، فهاهنا ثلاث حالات:

الحال الأولى: من فارقها بموته، فهذه لا تحل لأحد من بعده بالإجماع، ولم يخالف في ذلك أحد.

الحال الثانية: من فارقها في حياته بدون دخول، فهذه تحل، ولا نزاع فيها كما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير.

الحال الثالثة: من فارقها في حياته بعد دخوله بها، فهذه موضع خلاف بين أهل العلم.

=

=

فمنهم من قال: إنها تحل. ومنهم من قال: إنها لا تحل. وعلى هذا الرأي الذي يقول: إنها لا تحل؛ يقول: إنه يصدق عليها أنها زوجته، وأنها من بعده، ولولا أن من عقد عليها ثم فارقها قبل الدخول لولا الإجماع لقلنا أيضا لا تحل لمن بعده.

فصارت الأحوال ثلاثة: من فارقها بموته فهذه لا تحل بالإجماع، ومن فارقها في حياته قبل الدخول بها فهذه جائزة تحل لغيره، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لا نزاع في ذلك. ومن فارقها في حياته بعد الدخول بها ففيها خلاف بين العلماء رحمهم الله، منهم من قال: إنها تحل. ومنهم من قال: إنها لا تحل.

فائدة: لا نعلم أن أحدا تزوج زوجة للرسول ﷺ بعد الدخول بها.

وقوله تعالى: {إن ذلكم كان عند الله عظيما}: {إن ذلكم} المشار إليه: إيذاء النبي ﷺ ونكاح زوجاته من بعده.

وقوله تعالى: {كان عند الله عظيما}: {كان} هنا مسلوبة الدلالة على الزمن، والمراد إثبات عظم ذلك عند الله تعالى: {إن ذلكم كان عند الله عظيما}، وفي كون هذا الأمر عظيما عند الله ﷻ دليل على حماية الله ﷻ لرسوله ﷺ، ولا سيما فيما يتعلق بالنكاح؛ ولهذا قال الله في قصة الإفك: {إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم} [النور: ١٥].

فهنا قال سبحانه وتعالى: {إن ذلكم كان عند الله عظيما} عظيما أي: في إثمه وجرمه.

وعلى هذا فالعظم معناه: عظم الشيء، يعني: كبره، وهو شامل لما يكون مدحا، ولما يكون ذما، فهنا كان عند الله عظيما في إثمه قال: [فيجازيكم عليه] على حسب الذنب الذي قمتم به؛ لأن الجزاء من جنس العمل، ونكاح زوجات

=

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥).

{لَا جُنَاح عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانهنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانهنَّ وَلَا

=

الرسول ﷺ من بعده عظيم عن الله تعالى.

وقد حذر تعالى من مخالفة ذلك في قوله تعالى: {إن تبدوا شيئا أو تخفوه} [الأحزاب: ٥٤]، والجملة هنا شرطية و {شيئا} نكرة في سياق الشرط، فتكون دالة على العموم: {إن تبدوا شيئا}.

وقوله تعالى: {إن تبدوا شيئًا أو تخفوه} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في نكاحهن بعده]، والصواب في الآية عدم التقييد، وأنها عامة في كل شيء، في نكاح زوجات النبي ﷺ بعده وفي غير ذلك.

وقوله تعالى: {أو تخفوه} يعني: فلا تظهروه لأحد، تخفوه في أنفسكم، أو تخفوه فيما بينكم وبين أقاربكم؛ لأن الإخفاء أو الإظهار أمر نسبي، أشده ما أخفاه الإنسان في نفسه، ثم ما أظهره لذويه وأصحابه وأخفاه عن غيره، ثم ما أظهره لأهل بلده، ثم ما أظهره لعموم الناس، وأيا كان فإن كل ما أبداه الإنسان أو أخفاه {فإن الله كان بكل شيء عليما} [الأحزاب: ٥٤].

وقوله: {فإن الله كان بكل شيء عليما} الجملة هنا جواب الشرط، واقترنت بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، {فإن الله} فهي جملة اسمية وإن قرنت بـ (إن) الدالة على التوكيد، ووجه ارتباطها بما قبلها -أي: بفعل الشرط-: أنه إذا كان الله تعالى عالما به، فسوف نجازيكم عليه؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

أَبْنَاء أَخَوَاتهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ} أَيْ الْمُؤْمِنَات {وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانهنَّ} مِنْ الْإِمَاء وَالْعَبِيد أَنْ يَرَوْهُنَّ وَيُكَلِّمُوهُنَّ مِنْ غَيْر حِجَاب {وَاتَّقِينَ الله} فِيمَا أَمَرْتُنَّ بِهِ {إِنَّ الله كَانَ عَلَى كُلّ شَيْء شَهِيدًا} لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء[1].

---

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قوله: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ} حتى بلغ {وَلَا نِسَائِهِنَّ}؛ قال: أنزلت هذه الآية في نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، وقوله: {نِسَائِهِنَّ}؛ يعني: نساء المسلمات {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} من المماليك والإماء، ورخص لهن أن يرونهن بعدما ضرب عليهن الحجاب.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٥) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} [الأحزاب: ٥٥]، أي:"لا إثم على النساء في عدم الاحتجاب من آبائهن وأبنائهن وإخوانهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن والنساء المؤمنات والعبيد المملوكين لهن؛ لشدة الحاجة إليهم في الخدمة".

قال مجاهد:"لا جناح عليهن في آبائهن ومن ذكر معهن أن يروهن، يعني: أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

قال ابن كثير: "لما أمر تعالى لنساء بالحجاب من الأجانب، بيَّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور، عند قوله: {وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ
=

=

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ} إلى آخرها، [النور: ٣١]،

وفيها زيادات على هذه... وقد سأل بعض السلف فقال: لِم لَمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي: بأنهما لم يذكرا؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما".

عن داود، عن الشعبي وعكرمة، في قوله: في قوله: " {لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن}، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قال: لأنهما ينعتانها لأبنائهما، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها".

وفي قوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٥]، قولان:

أحدهما: لا جناح عليهن في ترك الحجاب. قاله قتادة.

قال قتادة:"فرخص لهؤلاء أن لا يحتجبن منهم".

الثاني: وضع عنهن الجناح في وضع جلابيبهن عندهم، قاله مجاهد.

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك وضع الجناح عنهن في هؤلاء المسلمين أن لا يحتجبن منهم؛ وذلك أن هذه الآية عقيب آية الحجاب، وبعد قول الله: {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب} فلا يكون قوله: {لا جناح عليهن في آبائهن} استثناء من جملة الذين أمروا بسؤالهن المتاع من وراء الحجاب إذا سألوهن ذلك أولى وأشبه من أن يكون خبر مبتدأ عن غير ذلك المعنى، وتأويل الكلام: لا إثم على نساء النبي ﷺ

=

=

وأمهات المؤمنين في إذنهن لآبائهن وترك الحجاب منهن، ولا لأبنائهن ولا لإخوانهن ولا لأبناء إخوانهن. وعنى بإخوانهن وأبناء إخوانهن إخوتهن وأبناء إخوتهن".

وفي قوله تعالى: {وَلَا نِسَائِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٥]، قولان:

أحدهما: يعني النساء المسلمات دون المشركات، قاله مجاهد.

قال ابن كثير:": يعني بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات".

قال السعدي:"أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نسائهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار".

الثاني: أنه في جميع النساء. حكاه الماوردي.

قال السعدي:"ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة".

قال الطبري: معناه:"ولا جناح عليهن أيضا في أن لا يحتجبن من نساء المؤمنين".

عن ابن زيد، قوله: " {ولا نسائهن}، قال: نساء المؤمنات الحرائر ليس عليهن جناح أن يرين تلك الزينة، قال: وإنما هذا كله في الزينة، قال: ولا يجوز للمرأة أن تنظر إلى شيء من عورة المرأة. قال: ولو نظر الرجل إلى فخذ الرجل لم أر به بأسا، قال: {ولا ما ملكت أيمانهن} فليس ينبغي لها أن تكشف قرطها للرجل، قال: وأما الكحل والخاتم والخضاب فلا بأس به، قال: والزوج له فضل والآباء من وراء الرجل لهم فضل، قال: والآخرون يتفاضلون، قال: وهذا كله يجمعه ما ظهر من الزينة، قال: وكان أزواج النبي ﷺ لا يحتجبن من المماليك".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} [الأحزاب: ٥٥]، قولان:

أحدهما: الإماء دون العبيد، قاله سعيد بن المسيب.

الثاني: أنه عام في الإماء والعبيد. حكاه الطبري عن بعضهم ، واختاره ابن كثير.

واختلف من قال بهذا فيما أبيح للعبد على قولين:

أحدهما: ما أبيح لذوي المحارم من الآباء والأبناء ما جاوز السرة وانحدر عن الركبة لأنها تحرم عليه كتحريمها عليهم.

الثاني: ما لا يواريه الدرع من ظاهر بدنها، قاله إبراهيم. لأنه العبد وإن حرم في الحال فقد يستباح بالعتق في ثاني حال.

قوله تعالى: {وَاتَّقِينَ اللهَ} [الأحزاب: ٥٥]، أي:"وخفن الله -أيتها النساء- أن تتعدَّيْن ما حَدَّ لكنَّ، فتبدين من زينتكن ما ليس لكُنَّ أن تبدينه، أو تتركن الحجاب أمام مَن يجب عليكن الاحتجاب منه".

قال الطبري:"يقول: وخفن الله أيها النساء أن تتعدين ما حد الله لكن، فتبدين من زينتكن ما ليس لكن أن تبدينه، أو تتركن الحجاب الذي أمركن الله بلزومه، إلا فيما أباح لكن تركه، والزمن طاعته".

قال ابن كثير:"أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب".

قال السعدي:"ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره، لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي فقال: {وَاتَّقِينَ اللهَ}، أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال".

قال القرطبي:"لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة،

=

=

عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعينهن في هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن. والله أعلم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا} [الأحزاب: ٥٥]، أي:"إن الله كان على كل شيء شهيدًا، يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، وسيجزيهم عليها".

قال الطبري: يقول:"إن الله شاهد على ما تفعلنه من احتجابكن، وترككن الحجاب لمن أبحت لكن ترك ذلك له، وغير ذلك من أموركن، يقول: فاتقين الله في أنفسكن لا تلقين الله، وهو شاهد عليكم، بمعصيته، وخلاف أمره ونهيه، فتهلكن، فإنه شاهد على كل شيء".

قال السعدي:"يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك، أتم الجزاء وأوفاه".

عن عطاء: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}،" يريد: لم يغب عنه علم ما خلق وبرأ".

قال القرطبي:"فيه وعيد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لا جناح عليهن في آبائهن} الضمير في قوله تعالى: {عليهن} يعود على زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام الذي قال الله تعالى في حقهن: {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب}؛ فكأن هذه الآية استثناء مما سبق {وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب}؛ حيث إن الآية {سألتموهن} تشمل المحارم وغيرهم، فاستثنى المحارم فقال تعالى: {لا

=

=

جناح عليهن في آبائهن}.

والجناح بمعنى: الإثم؛ أي: لا جناح عليهن أن يبرزن لآبائهن، وأن يسألهن آباؤهن بدون حجاب، وهذا كقوله تعالى في سورة النور: {ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن...} [النور: ٣١].

وقوله تعالى: {لا جناح عليهن في آبائهن} وآباء: يشمل الآباء من جهة الأم والآباء من جهة الأب؛ فالجد من جهة الأم في باب النكاح كالجد من جهة الأب، ولقد كان الناس يسألون كثيرا عن أبي الأم هو محرم لزوجة ابن ابنته أم لا؟

والجواب: يكون محرما؛ لأن باب النكاح لا يفرق فيه بين الأبوة من جهة الأم والأبوة من جهة الأب، فليس كالإرث، فأبو الأم لا يرث بخلاف أبي الأب، لكن أبا الأم في باب النكاح كأبي الأب، فقوله إذن: {لا جناح عليهن في آبائهن} يشمل الأجداد من جهة الأب ومن جهة الأم.

وقوله تعالى: {ولا أبنائهن} يعني: أبنائهن من الصلب وأبنائهن من البطن أي: أبناء الأبناء وأبناء البنات وإن نزلوا، وفي هذه الحال يكن جدات لهؤلاء الأبناء.

وقوله تعالى: {ولا إخوانهن} يعني: ولا جناح عليهن في إخوانهم؛ سواء كانوا أشقاء أم لأب أم لأم.

وقوله تعالى: {ولا أبناء إخوانهن} يعني: وإن نزلوا.

وقوله تعالى: {ولا أبناء أخواتهن} يعني: وإن نزلوا، سواء كانوا أشقاء أم لأب أم لأم.

ولم يذكر: (ولا أبناء أعمامهن) لأنهم ليسوا محارم، فأبناء الأعمام وأبناء العمات وأبناء الأخوال وأبناء الخالات ليسوا محارم، لكن لم يذكر العم والخال مع أن

=

=

العم والخال محرم ولـم يـذكرا في هـذه الآيـة ولا في آيـة النـور أيـضا: {ولا يبـدين زينتهن إلا ما ظهر منهـا وليـضربن بخمـرهن على جيـوبهن ولا يبـدين زينـتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنـي إخوانهن أو بني أخواتهن أو نـسائهن أو مـا ملكـت أيمـانهن أو التـابعين غيـر أولـي الإربة من الرجال أو الطفل الـذين لـم يظهـروا على عـورات النـساء}، فلـم يـذكر العـم ولا الخـال، وهنـا كـذلك لـم يـذكر العـم ولا الخـال مـع أن العـم والخـال محارم؟

الجواب: أبدى بعض العلماء رحمهم الله مناسبة في هـذا وقـالوا: إنـه لـم يـذكر لا لأنـه يحـرم إبـداء الزينـة لهمـا، ولكـن لبيـان التحـرز منهمـا؛ لـئلا يـصفن المـرأة لأبنائهن؛ لأن أبناء العم والخال يجوز أن يتزوجوا بهن، فلما كان يخشى أن العـم والخال يصف المرأة لابنه لم يذكرا للتحرز لا لمخالفة الحكم، وهذا التعليـل لـه بعض الوجه، والله أعلم بما أراد.

وعلى كل حال: إن كان هذا هو الحكمة من عدم الذكر فله وجه، وإن لم يكـن لـه الحكمة، فالله أعلم، ما وصلنا إلى الحكمة في ذلك.

ولا شك أن قوة المحرمية في العم والخال أضـعف مـن قوتهـا فـيمن عـداهم، وإن كان ابن الأخ وابن الأخت بالنسبة لعمتـه وخالتـه الـصلة بينهمـا متقاربـة مـع العـم والخال، لكن ابن الأخت من الأخ والأخت فروعهما محارم، فالعلة التـي قيلـت في العم والخال منتفية فيهما، فيقول: لا جناح علينا في هـؤلاء، وفيمـا عـدا هـؤلاء علـيهن جنـاح، يعنـي: مـا عـدا هـؤلاء مـن الأقـارب فـإن علـيهن جنـاح في عـدم التحجب منهم.

=

=

مسألة: الأخ من الرضاع وابن الأخ من الرضاع وما أشبه ذلك ما ذكر في هذه الآية، نقول: صحيح ما ذكر؛ لكنه ذكر في قول الرسول ﷺ: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب".

وقوله تعالى: {ولا نسائهن}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المؤمنات] أي: ولا جناح عليهن في نسائهن المؤمنات؛ لأن النساء أضيفت إلى ضمير المؤمنات، فيكون مضافا من جنس المضاف إليه، أي: ولا النساء المؤمنات؛ فللمرأة أن تكشف وجهها للمرأة المؤمنة، ومفهومه: أن الكافرة لا يحل لها أن تكشف وجهها له، وأن المرأة الكافرة بالنسبة للمرأة المؤمنة كالرجل مع المرأة، وهذا أحد القولين في هذه المسألة؛ على أن الإضافة هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بمعنى: أنها إضافة صفة أي: ولا النساء اللاتي شاركنهن في الإيمان.

وعللوا ذلك أيضا بأن المرأة الكافرة لا يؤمن من أن تفشي ما تراه من المرأة المؤمنة؛ لأنها ليس عندها إيمان يردعها؛ وبناء على هذا القول فإنه يجب على أولئك الجماعة الذين عندهم من الخدم الكافرات يجب على نسائهم أن يحتجبوا عن هؤلاء الخادمات؛ لأنهن كافرات، ونحن نقول هذا -مع بالغ الأسف- أن يكون لدى المؤمنين خدم من غير المسلمين؛ لأن معنى ذلك أن الرجل أو المرأة يتصبح ويتمسى، وفي كل وقت ينظر بملء عينيه إلى من هو عدو لله تعالى ولرسوله ﷺ وعدو له أيضا، كما قال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} [الممتحنة: ١] ليس هو عدو الله تعالى فقط، بل عدو لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ ولهذا الذي هو في بيته.

ومع ذلك -نسأل الله تعالى السلامة والعافية- تجد هؤلاء يحتضنون مثل هؤلاء

=

=

الكفار غير مبالين بهم وغير مبالين بكونهم مخالفين لهم في الدين والعقيدة والعمل، بل إن بعضهم يحتضنهم فرحا بهم؛ لأن الشيطان زين لهم أنهم أنصح في العمل وأتقن وأجلد وأصبر، وهذا من البلية والمحنة التي امتحن بها الناس في هذا الزمان ولا سيما في هذه الجزيرة العربية مع قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "أخرجوا المشركين من جزيرة العرب"، "وأخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب"، وهؤلاء بدل أن يخرجوهم يحتضنونهم.

ثم إنه لو لم يكن من مضرة هؤلاء الخدم الكافرات إلا أن هؤلاء -الذين يقولون: إنهم مسلمون وهم كما قالوا- تذهب عنهم الغيرة من نفوسهم وكراهة الكفار، حتى يكون هؤلاء كغيرهم كأنهم مسلمون؛ لأنهم يألفونهم ويرونهم ويشاهدونهم، وكما قيل: إذا كثر الإمساس قل الإحساس.

وهذه مسألة خطيرة جدا، نسأل الله تعالى أن يسلط ولاة الأمور على منعها من هذه البلاد؛ لأنه:

أولا: قد يكون لا داعي إلى وجود الخادم في البيت.

ثانيا: إذا دعت الحاجة فلتكن مسلمة، من الدول المسلمة الفقيرة التي ينتفع المسلمون بما يدفع لهذه الخادم من الأجرة، أما أن يجعل كفارا يؤخذ من أجورهم ما تعمر به الكنائس وما يقوى به دعوة التنصير فإن هذا -لا شك عند التأمل فيه-: يجد هؤلاء القوم الذين يستخدمون الكافرات والكافرين: أنهم مخطئون خطأ عظيما فادحا إن كان لهم قلوب.

فأما إن كان قلوبهم قد عميت، {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} [الحج: ٤٦]، فيمكن أن قلوبهم قد مرضت وصدأت من المعاصي

=

=

وعدم المبالاة وعدم الغيرة، فلا يحسون بهذا الأمر الخطير، ولكن بلغني أن رجلا كان من أهل الخير وقد اغتر ببعض هؤلاء الخدم، كان يجلس مع أولاده ويعلمهم مبادئ الإسلام فقال لواحد من الصغار: من ربك؟ قال: ربي عيسى ابن مريم!! من أين جاء هذا الطفل وهو في عش المسلمين إلا من هذه الخادمة، هذه الخادمة قد تكون مغرورة ومخدوعة في بني قومها ولا تعرف إلا هذا، لكن هذا الطفل عاش بين المسلمين كيف لا يعرف إلا هذا؟! فهذا من الخطر العظيم بالنسبة لهؤلاء الخدم من الكفار والكافرات، نسأل الله تعالى السلامة.

المهم: أن كثيرا من أهل العلم رحمهم الله يقولون: إن معنى قوله تعالى: {ولا نسائهن} أي: المؤمنات ولا النساء المشاركات لهن في الإيمان؛ لأن المضاف من جنس المضاف إليه.

وقال بعض العلماء رحمهم الله: المراد بنسائهن ما كان من جنسهن؛ أي: النساء اللاتي يشاركنهن في الأنوثة؛ فهو من باب إضافة الجنس إلى جنسه، وهذا القول هو مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ المشهور من مذهبه، وهو أقرب إلى الصواب؛ لأن تعلق المرأة بالمرأة لا يختلف باختلاف الدين، وليس كتعلق الرجل بالمرأة، فالصواب أن المراد بنسائهن أي: النساء اللاتي من جنسهن في الأنوثة.

فإن قال قائل: لماذا قلنا في الآية الأولى: إن فيها مستثنى منه، وهم الرجال، وفي الآية الأخرى: {لا جناح عليهن} أي: النساء؟

فالجواب: لأن قوله تعالى: {فاسألوهن من وراء حجاب} يتعلق بشيئين: سائل ومسؤول؛ ففي الأول علق الخطاب بالسائل، وفي الثاني علق بالمسؤول من باب التفنن، ولأجل أن يشمل هذا ما إذا كانت المسألة في سؤال المتاع وفي غيره.

=

=

وقوله تعالى: {ولا ما ملكت أيمانهن} يعني: ولا جناح عليهن في ما ملكت أيمانهن، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الإماء والعبيد].

قوله تعالى: {ما ملكت أيمانهن} أي: ملكته ملكا تاما لا ملكا مشتركا، فلو كان عبد بين امرأتين، فإنه لا يحل لواحدة منهما أن تكشف وجهها له؛ وذلك لأنه ليس ملك لإحداهما، بل ملك لهما جميعا، والآية: {ما ملكت أيمانهن}.

وقوله تبارك وتعالى: {ما ملكت أيمانهن} أضاف الملك إلى اليمين؛ لأن الأخذ والإعطاء يكون باليمين غالبا، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الإماء والعبيد]، أما قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [من العبيد] فظاهر، وأما قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [من الإماء] فبناء على أن قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{نسائهن} أي: المؤمنات]، فإذا كان للمرأة أمة كافرة فلا يلزمها أن تحتجب عنها؛ لأنها مما ملكت يمينها، وكل هؤلاء المستثنين كلهم محارم إلا ما ملكت أيمانهن فليسوا بمحارم؛ لأن التحريم فيهم إلى أمد، والمحرمية إنما تثبت فيما إذا كان التحريم مؤبدا؛ ولهذا أخت الزوجة حرام وليست بمحرم، والمملوك حرام على مملوكته، ولا يلزمها أن تحتجب عنه، ولكنه ليس بمحرم لها بدليل أنه إذا خرج عن ملكها لزمها أن تحتجب عنه؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ما ملكت أيمانهن} من الإماء والعبيد أن يروهن ويكلموهن من غير حجاب].

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{واتقين الله} فيما أمرتن به] {واتقين الله} الواو حرف عطف، و (اتقين) فعل أمر، لكن حد الفعل الياء، والنون فاعل، وهنا في الجملة التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ فقوله تبارك وتعالى: {لا جناح عليهن} هذا ضمير غائب، {واتقين الله} ضمير مخاطب، وقد ذكرنا أنه من فوائد الالتفات: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فقد لا يكون من الإنسان انتباه،

=

إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦).

{إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَته يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيّ} مُحَمَّد ﷺ {يأيها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} أَيْ قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّد وَسَلِّمْ[1].

=

فإذا اختلف النسق حصل التنبه، ثم إن في الالتفات هنا فائدة أخرى: وهي مواجهتهن بالأمر بتقوى الله ﷻ، وهذا الخطاب موجه لأطهر النساء على الإطلاق، وهن زوجات النبي ﷺ: اتقين الله تعالى أن ترين أحدا سوى هؤلاء، أو أن يراكن أحد سوى هؤلاء، فإذا كان هذا الخطاب موجها إلى زوجات الرسول ﷺ وهن أطهر النساء وأكرمهن عفة، فما بالك بمن دونهن؟! فإنه يوجه إليهن من الأمر بالتقوى أكثر مما يوجه إلى نساء النبي ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [{إن الله كان على كل شيء شهيدا} لا يخفى عليه شيء]، وهنا قال: {إن الله كان على كل شيء شهيدا}؛ لأن الحجاب وعدمه مما يرى، فناسب أن يختم الآية بذكر شهادة الله ﷻ على كل شيء تحذيرا من مخالفته بعدم الاحتجاب ممن يجب الاحتجاب عنه.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى! هل يصلي ربك؟ قال: اتقوا الله، قالوا: فهل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، قالوا: فهل يصبغ ربك؟ قال: اتقوا الله؛ فناداه ربه ﷻ: يا موسى! سألوك: هل يصلي ربك؟ فقال: نعم؛ أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي؛ فأنزل الله ﷻ على نبيه: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} إلى آخرها، وسألوك: هل ينام ربك؟ فخذ زجاجتين بيديك،

=

=

فقم الليل، ففعل موسى ﷺ فلما ذهب من الليل ثلث نعس؛ فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس؛ فسقطت الزجاجتان؛ فانكسرتا، فقال: يا موسى! لو كنت أنام لسقطت السماوات على الأرضين؛ فهلكت، كما هلكت الزجاجتان بيديك؛ فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ آية الكرسي، وسألوك: هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان الأحمر الأبيض والأسود والألوان كلها في صبغي؛ فأنزل الله على نبيه ﷺ: {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً} [البقرة: ١٣٨] إلى آخرها.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥١٤) - وعنه أبو الشيخ في "العظمة" (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣ رقم ١٣٨) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦٤٦) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ١٢١، ١٢٢ رقم ١٢١) - من طريق أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي ثنا أبي عن أبيه ثنا أشعث القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

وسنده ضعيف؛ جعفر بن أبي المغيرة صدوق؛ كما قال الذهبي والعسقلاني، وزاد: "يهم"؛ لكن قال ابن منده: "رواية جعفر عن سعيد على وجه الخصوص ليست بالقوية" -والله أعلم بالصواب-.

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه؛ قال: قيل للنبي ﷺ: قد عرفنا السلام عليك، وكيف الصلاة عليك؟ فنزلت: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٣) من طريق أبي حذيفة قال: نا

=

=

الثوري عن الزبير بن عدي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة به.
وهذا سند ضعيف؛ فيه أبو حذيفة موسى بن مسعود النهدي: "صدوق سيئ الحفظ وكان يصحف"؛ كما في "التقريب".

والحديث عند البخاري (رقم ٤٧٩٧)، ومسلم (رقم ٤٠٦) من طريق عبد الرحمن بنحوه وليس فيه ذكر سبب نزول الآية.

* قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٦]، أي:"إن الله تعالى يثني على النبي ﷺ عند الملائكة المقربين، وملائكته يثنون على النبي ويدعون له".

قال الطبري: يقول:"إن الله وملائكته يبركون على النبي محمد ﷺ".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٦]، على أربعة أقوال:

أحدها: أن صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، قاله أبو العالية.

وقال الضحاك: "صلاة الله: رحمته. وفي رواية عنه: مغفرته. وصلاة الملائكة: الدعاء".

الثاني: أن صلاة الله تعالى عليه المغفرة له، وصلاة الملائكة الاستغفار له، قاله سعيد بن جبير، والسدي، ومقاتل.

عن السُّدِّيّ: " {إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النبي}، يعني: أن الله يغفر للنبي ﷺ، وتستغفر له الملائكة"

الثالث: أن صلاة الله تعالى عليه رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء له، قاله

=

=

الحسن.

الرابع: أن صلاتهم عليه أن يباركوا عليه. قاله ابن عباس، وبه قال الطبري.

قال ابن عباس: "يقول: يباركون على النبي".

قال عطاء بن أبي رباح: "صلاته تبارك وتعالى: «سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي»".

قال أبو عبد الله الحَلِيمي: "فأمر الله تعالى عباده أن يصلوا عليه ويسلموا، وقدم قبل أمرهم بذلك أخبارهم: بأن ملائكته يصلون عليه، لينبئهم بذلك على ما في الصلاة عليه من الفضل، إذا كانت الملائكة مع انفكاكهم من شريعته تتقرب إلى الله بالصلاة والتسليم عليه ليعلموا أنهم بالصلاة والتسليم عليه أولى وأحق".

عن الحسن البصري -من طريق هشام- قال: "إذا قال الرجل في الصلاة {إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النبي} الآية؛ فلْيُصَلِّ عليه".

قال مجاهد: "لما نزلت: {إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النبي} الآية؛ قال أبو بكر: ما أعطاك الله تعالى مِن خير إلا أشْرَكَنا فيه. فنزلت: {هو الذي يصلي عليكم وملائكته} [الأحزاب: ٤٣]".

عن ابن جريج، في قوله: {إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ}، قال: "لَمّا نزلت جعل الناس يهنونه بهذه الآية، وقال أُبَيّ بن كعب: ما أنزل فيك خيرًا إلا خَلَطَنا به معك، إلا هذه الآية. فنزلت: {وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: ٤٧]".

قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: ٥٦]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، صلُّوا على رسول الله، وسلِّموا تسليمًا، تحية وتعظيمًا له".

=

=

قال ابن عباس: "ادعوا له بالرحمة".

قال الطبري:"يا أيها الذين آمنوا ادعوا لنبي الله محمد ﷺ وحيوه تحية الإسلام".

قال طلحة:"أتى رجل النبي ﷺ، فقال: "سمعت الله يقول: {إن الله وملائكته يصلون على النبي...} الآية، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»".

عن كعب بن عجرة -من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى- قال: "لَمّا نزلت: {إِنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النبي}، قمتُ إليه، فقلت: السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك، يا رسول الله؟ قال: «قل: اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

وفي رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال: "لما نزلت: {إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}، قال: قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام فكيف الصلاة عليك، قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: وعلينا معهم".

قال ابن كثير:"المقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده

=

=

ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا".

قال القرطبي:"هذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك. والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره".

قال أبو شامة:"أما الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فهي من أفضل القربات ومن الأعمال الصالحات كما قال الله تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}، وقال النبي ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرا» ، وهي مشروعه في جميع الأوقات ومتأكدة في آخر كل صلاة بل واجبة عند جمع من أهل العلم في التشهد الأخير من كل صلاة وسنة مؤكدة في مواضع كثيرة منها بعد الآذان وعند ذكره عليه الصلاة والسلام وفي يوم الجمعة وليلتها كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة والله المسئول أن يوفقنا وسائر المسلمين للفقه في دينه والثبات عليه وأن يمن على الجميع يلزوم السنة والحذر من البدعة إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه".

قال مقاتل:"فلما نزلت هذه الآية قال المسلمون: هذه لك، يا رسول الله، فما لنا؟ فنزلت {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣]".

=

=

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي} إن الله وملائكته هذا خبر مؤكد بـ {إن}، وعطف الملائكة على الله ﷻ بالواو؛ لأنهم مشاركون لله سبحانه وتعالى بهذا الفعل؛ ولهذا قال تعالى: {إن الله وملائكته}، الملائكة تقدم أنهم جمع ملك، وأن أصل الملك (مألك) من الألوكة وهي الرسالة، ولكنها حصل فيها إعلال بالتقديم والتأخير، فصارت بدل (مألك)، فصارت (ملأك)، ثم حذفت الهمزة للتخفيف لكثرة الاستعمال، فصارت ملك، أما الجمع فإنها ردت الهمزة وقيل فيها: ملائكة.

واشتق الملك من الألوكة، والألوكة في اللغة بمعنى: الرسالة، والملائكة رسل، فأصلها إذن: مألك يعني: من الألوكة، ثم أعل بالتقديم والتأخير فصارت ملأك، ثم حذفت الهمزة للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، ونقلت حركتها إلى اللام فصارت (ملك)، أما الجمع فملائكة.

فالملائكة هم الذين جعلهم الله تعالى رسلا، وهم عالم غيبي، مخلوقون من نور، ممتثلون لأمر الله ﷻ، قائمون بعبادته آناء الليل والنهار، كما ذكر الله تعالى عنهم: {يسبحون الليل والنهار لا يفترون} [الأنبياء: ٢٠]، وهم مع ذلك لا يعصون الله تعالى ما أمرهم؛ لقوة امتثالهم لأمر الله تعالى، ويفعلون ما يؤمرون؛ لقوتهم على التنفيذ، فيقول تعالى: {لا يعصون الله ما أمرهم}، هذا باعتبار الإرادات، ما عندهم إرادة تخالف أمر الله تعالى، {ويفعلون ما يؤمرون} باعتبار التنفيذ والعمل.

وهم -أي: الملائكة- أصناف في أشكالهم، وفي أعمالهم، وفي صفاتهم؛ وما نعلم من هذا إلا ما أعلمنا الله تعالى به ورسوله ﷺ، والباقي مجهول لنا، فنؤمن بما

=

=

علمنا من أسمائهم وأشكالهم وأوصافهم وأعمالهم، وما لم نعلمه نؤمن به على سبيل الإجمال، نقول: (آمنا بالله وملائكته).

وقوله تعالى: {إن الله وملائكته} الخبر {يصلون على النبي} محمد ﷺ؛ ولهذا قال: [محمد ﷺ].

وما معنى {يصلون}؟

اشتهر عند كثير من أهل العلم رحمهم الله أن الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة الاستغفار؛ وعلى هذا فيفسر {يصلون} باعتباره من الله تعالى بمعنى: الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ولكن هذا التفسير خطأ، فإن الرحمة أعم من الصلاة؛ لأن الرحمة يدعى بها لكل أحد، والصلاة خاصة بالأنبياء، فهي شعارهم، ولا تقال لأحد سواهم إلا على سبيل لا يكون شعارا، وأما الرحمة فهي عامة حتى إن بعض أهل العلم رحمهم الله يقول: لا يجوز أن تدعو للرسول عليه الصلاة والسلام بالرحمة، لا تقل: (محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (قال رسول الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن هذا القول ضعيف؛ لأن النبي ﷺ كان يدعو لنفسه بالرحمة، يقول: "رب اغفر لي وارحمني"؛ وفي قصة الأعرابي: "اللهم ارحمني ومحمدا"، ولم ينكر عليه النبي عليه الصلاة والسلام، لكنها عند السلف يدعى للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرحمة والرضا، وما أشبه ذلك.

والصواب: أن صلاة الله تعالى على رسوله ﷺ معناها: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، وليست رحمته إياه بدليل قوله سبحانه وتعالى: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة: ١٥٧]، قال تعالى: {صلوات}، {ورحمة}، فدل هذا على أن الرحمة غير الصلاة، وهو كذلك.

=

=

أما صلاة الملائكة على الرسول عليه الصلاة والسلام فيحتمل أن تكون بمعنى: الدعاء أنهم يدعون له بالصلاة، ويحتمل أن المعنى: أنهم يثنون عليه مع الله تعالى، وهذا أقرب، حتى لا يتوزع المعنى في كلمة {يصلون}، ويكون المعنى أن الله تعالى يثني عليه، والملائكة كذلك يثنون عليه، وهذا من تعلية شأن الرسول ﷺ؛ ولهذا قدم هذه الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية الطلبية في قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه}؛ لأن النفس إذا علمت شرف هذا النبي ﷺ، وأن الله سبحانه وتعالى نفسه وملائكته المقربين وغير المقربين من الملائكة الآخرين، فإنهم يصلون عليه؛ وأنا قلت: (الملائكة المقربين)؛ لأن الملائكة كلهم مقربون بالمعنى العام، لكن هناك ملائكة مقربون عند الله تعالى كحملة العرش ونحوهم، وكل هؤلاء يصلون على النبي ﷺ.

وقال تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي} فلما تقرر في النفوس علو شأن الرسول ﷺ بهذه الجملة وجه الله تعالى الخطاب إلى المؤمنين فقال: {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}، وتصدير الجملة بالنداء يدل على الأهمية والعناية بها، لأن النداء يستلزم انتباه المنادى، ولا داعي لتنبيه المخاطب إلا لأمر هام.

ثم النداء بهذا الوصف {ياأيها الذين آمنوا} فيه إغراء لامتثال الخطاب الموجه؛ ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا قال الله: {ياأيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك. يعني: استمع لها، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه، وفي وصف الإيمان مع كونه إغراء دليل على أن امتثال هذا الأمر من مقتضيات الإيمان، وأن معصيته نقص في الإيمان.

=

قال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه} يعني: ادعوا له بالصلاة فليس المراد بالصلاة إذا قلت: صل على فلان؛ ليس معناها: الدعاء المطلق، بل الدعاء بالصلاة؛ ولهذا لما أمر الله تعالى نبيه بأن يصلي على من أعطاه الصدقة صار يقول: اللهم صل عليه. فالصلاة في الدعاء صحيح، ولكن إذا أمرتك أن تصلي على شخص فالمعنى أن تدعو له بصلاة الله تعالى عليه، فمعنى {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه}: أمر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وهو أمر مطلق غير مقيد؛ فإذن تكون الصلاة على رسول الله ﷺ مطلقة غير مقيدة؛ فنصلي عليه بأي صيغة صلينا، ونصلي عليه في أي وقت، وفي كل مكان؛ لكن هناك أمكنة تتأكد فيها الصلاة، وأمكنة لا تنبغي فيها الصلاة، وأمكنة تستحب فيها الصلاة مطلقا، يعني: ليس بتأكد.

فمما تتأكد الصلاة على النبي ﷺ فيه:

أولا: إذا ذكر اسمه فإن الصلاة واجبة عليه؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أتاني جبريل قال: رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك"، وهذا دعاء له بإرغام الله تعالى أنفه في التراب، وإرغام الأنف في التراب دليل على الذل والإهانة، وهذا يدل على وجوب الصلاة على الرسول ﷺ إذا ذكر اسمه.

ثانيا: الصلاة عليه في التشهد الأخير ركن لا تصح الصلاة إلا به على مذهب الحنابلة والشافعية، ولا فرق بين الفريضة والنافلة.

ثالثا: أنه يستحب الصلاة على النبي ﷺ في الدعاء مقدمة عليه أو مؤخرة عنه.

رابعا: عند الأذان، قال ﷺ: "فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي".

والمواضع متعددة، لكن منها على سبيل الوجوب، ومنها على سبيل

=

الاستحباب.

أما كراهة الصلاة على النبي ﷺ فذكروا أنها تكره الصلاة عليه عند الذبح، إذا قلت: بسم الله والله أكبر. لا تقل: اللهم صل على محمد. قالوا: لأن المقام مقام إخلاص وتوحيد فلا ينبغي أن يذكر مع اسم الله تعالى غيره، فتقول: بسم الله والله أكبر. ولا تصل على النبي ﷺ.

وقوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه} قلت لكم: إنه مطلق بأي صفة كانت، فما ورد عن النبي ﷺ عندما سأله الصحابة قالوا: كيف نصلي عليك؟ قال: "قولوا: اللهم صل على محمد"، هذا على سبيل الاستحباب، وليس على سبيل الوجوب؛ ولهذا أجمع العلماء رحمهم الله على أن الصلاة على آل الرسول ﷺ لا تجب مع أن الصيغة التي علمها النبي ﷺ أمته فيها الصلاة على آله؛ مع أنها ليست بواجبة مما يدل على أنها على سبيل الاستحباب.

وربما يستدل لذلك أيضا بأن الصيغ التي أمر بها الرسول ﷺ في كيفية الصلاة عليه مختلفة، وليست كلها على صيغة واحدة، وهذا يدل على أن أي صيغة أتيت بها فهي مجزئة.

وقوله تعالى: {صلوا عليه وسلموا تسليما}: {وسلموا تسليما} أي: قولوا: السلام عليك. أي: ادعوا له بالسلام، فقولوا: السلام عليك أيها النبي. والسلام على النبي ﷺ مع كونه غائبا أمر مشروع؛ ولهذا نقول في صلاتنا: "السلام عليك أيها النبي"؛ مع أنه غائب، والصحابة يقولون: السلام عليك أيها النبي. مع أنه غائب ولا يسمعهم، حتى لو كانوا معه في الصلاة فهو لا يسمعهم؛ لكن لأن هناك ملائكة سياحين يبلغون النبي ﷺ السلام من أمته؛ ولأنه لما كان الإنسان قوي

=

=

الإيمان بالرسول ﷺ صار كأنه حاضرا عنده يخاطبه.

وقوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا...} الآية، فيها تقديم الصلاة على السلام مع أنه في التشهد يقدم السلام على الصلاة، فهل بين الآية وما ثبت به الحديث والتشهد تناقض؟

الجواب: لا، لأن العطف بالواو لا يستلزم وجوب التقديم، وإن كان قد يقتضيه، لكنه لا يستلزمه؛ لأن الواو كما قال أهل اللغة رحمهم الله: تدل على مطلق الاشتراك بدون ترتيب؛ ولهذا إذا ما قلت: ما شاء الله تعالى وشئت. مع أنك قدمت مشيئة الله تعالى صار هذا نوعا من الشرك؛ لأن الواو تقتضي التسوية، وليست تستلزم الترتيب.

فإذا قال قائل: لماذا أكد التسليم بالمصدر، قال تبارك وتعالى: {وسلموا تسليما} ولم يؤكد الصلاة؟

فالجواب: أن الصلاة تقدم ما يؤكدها وهو إخبار الله تعالى بأنه يصلي عليه وملائكته، وهذا يعطي الإنسان قوة في الصلاة عليه متى علم بأن الرسول ﷺ يصلي الله تعالى وملائكته عليه؛ ولهذا جاء التوكيد في التسليم دون الصلاة؛ لأن الصلاة أكدت تأكيدا معنويا بذكر أن الله تعالى وملائكته يصلون على النبي ﷺ، وأما التسليم فأكد تأكيدا لفظيا؛ لأن قوله تعالى: {تسليما} مصدر لقوله تعالى: {وسلموا}.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن الله وملائكته يصلون على النبي} محمد ﷺ] ولم يفسر {يصلون} رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا نقص في التفسير.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} أي: قولوا: اللهم

=

=

صل على محمد وسلم] ولم يفسر التسليم، فما معنى التسليم؟ قال بعض العلماء رحمهم الله: إنك إذا قلت: السلام عليك. فالسلام من أسماء الله تعالى، يعني: (الله عليك)، وما معنى: (الله عليك)؟ أي: الله تعالى حفيظ عليك يراقبك ويحفظك.

وقال بعض العلماء رحمهم الله: السلام عليك، أي: التسليم عليك، فهي جملة خبرية بمعنى الدعاء، والسلام اسم مصدر بمعنى: سلم، مثل الكلام اسم مصدر كلم، فمعنى السلام عليك، أي: تسليم الله تعالى عليك؛ أي: تسليمك من الآفات.

وهذا المعنى هو الصحيح: أنك إذا قلت للإنسان: السلام عليك. أنك تسأل الله سبحانه وتعالى أن يسلمه من الآفات؛ الآفات الحسية والمعنوية، فالسلامة الحسية سلامة البدن والعرض والمال، والسلامة المعنوية سلامة الدين من الآفات؛ لأن الإنسان محوط بآفتين، آفة الدين وآفة الدنيا، والسلامة منهما جميعا من أكبر نعم الله تعالى على العبد.

فإن قال قائل: الإنسان إذا سلم ولم يستحضر المعنى؟

فالجواب: لا بد أن يستحضر المعنى وإلا كان لغوا من القول، وأكثر الناس عندما يسلم يستحضر أنها تحية فقط، وكذلك الرد، وهذا لا ينبغي، بل الذي ينبغي أن تستحضر أنها دعاء له بالسلامة من الآفات؛ لأنك إذا كنت لا تستحضر إلا أنها تحية فلا فرق بينها وبين قولك: (أهلا وسهلا)، بل ربما تكون التحية بـ (أهلا وسهلا، مرحبا يا أبا فلان، حياك الله وبياك)، وما أشبه ذلك من الكلمات الترحيبية تكون أبلغ من هذا.

=

=

وما دمنا لم نقصد المعنى الذي قصده الشار صار لفظا مجردا، فينبغي لنا إذا سلمنا على أحد أن نستحضر أننا ندعو له بالسلامة من الآفات؛ ولهذا لو أتيت بكل ترحيب ما قابل هذه الجملة الدعائية: أن تدعو الله تعالى له بالسلامة.

فالحاصل: أن أكثر الناس يقولون: (السلام عليكم) من باب التحية فقط، ونحن ينبغي لنا أن نستحضر المعاني في كل ما نقول حتى الآن: التحيات لله -تاب الله علينا وعليكم- هل نستحضر معنى التحيات، ومعنى الصلوات، ومعنى الطيبات أم ألفاظ تقرأ؟

فإن قال قائل: أحيانا وأحيانا!

فالجواب: هذا أيضا لا ينبغي، بل ينبغي أن نستحضر لكل لفظ معناه، وإلا صارت ألفاظا جوفاء، كثياب ليس فيها أجسام أو أجسام ليس فيها أرواح، وماذا تقول في: (التحيات لله والصلوات والطيبات) وأنت لاه ما عندك إلا ألفاظ تمر على القلب فقط؟! لذلك ينبغي كلما قرأتها أن تستحضرها وأنت تصلي، ما معنى التحيات لله، والصلوات، والطيبات؟

فـ(التحيات): كل لفظ دال على البقاء والتعظيم والتكريم؛ لأن التحية معروفة تعظيم للمحيا وتكريم له.

و(لله) معروف أنها مستحقة لله، وأنها خاصة به.

و(الصلوات): الفريضة أو النافلة، وهي العبادة المخصوصة ويدخل فيها الدعاء، فالصلوات بمعنى العبادة المخصوصة وبمعنى الدعاء أيضا، كله لله ﷻ، فلا يدعى إلا الله تعالى، ولا يتعبد بالصلاة إلا لله تعالى.

و(الطيبات): من الأقوال والأفعال خاصة بالله تعالى، وكذلك أوصافه، فالطيبات

=

=

منا والطيبات منه، فكل صفاته طيبة، وكل أفعاله طيبة، وكل أقواله طيبة، ومنا أيضا: ما يكون لله تعالى، ولا يقبله الله تعالى إلا ما كان طيبا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "إن الله طيبا لا يقبل إلا طيبا".

فمن يستحضر هذين المعنيين وهو يصلي أن الطيبات باعتبارها صفة لله تعالى ووصفا لفعل المخلوق؟! والثاني: أن الطيبات الواقعة منا تكون لله تعالى لا يقبل الله تعالى سواها، فكلا المعنيين حق: أن الله طيب، وهذا باعتبار ما يتعلق بالله تعالى، ولا يقبل إلا طيبا باعتبار بما يفعله العبد.

ومعنى: (السلام عليك أيها النبي) تقدم ذكرها.

ومعنى: (ورحمة الله وبركاته) الرحمة هي الدعاء له بالرحمة، وهي حصول المطلوب، وبالسلام زوال المكروه.

و(بركاته) يعني: الخير الثابت الكثير، فأنت بعدما دعوت له بالرحمة سألت الله تعالى أن يجعل ذلك بركة عليه مستمرة.

وأما: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فقد فسرها النبي ﷺ وقال: "إنكم إذا قلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض"، فمن يستحضر إذا سلم أنه يسلم على الأنبياء والملائكة والأولياء والصالحين من هذه الأمة وغيرها، حتى نسلم بهذا الكلام على الحواريين الذين اختارهم عيسى عليه السلام، والسبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام، والقليل الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وأصحاب الكهف، وآدم عليه السلام، وغيره، من يستحضر هذا؟! الغالب أننا لا نستحضر!.

فإن قال قائل: قول الرسول ﷺ أما يدل على أن الصحابة لم يستحضروا أنه قال:

=

=

"إذا سلمت فقد سلمت على كل عبد".

فالجواب: لا، لأنهم كانوا يقولون: السلام على جبريل وعلى ميكائيل وعلى فلان وعلى فلان؛ لأن ذلك التخصيص الذي أنت خصصته ليس له حاجة، فإذا قلتم: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) دخل في هذا ما خصصتم.

فإن قال قائل: هل معنى ذلك أنهم ما كانوا يستحضرون؟

فالجواب: لا، بل كانوا يستحضرونه، ولهذا خصوه.

أما قوله: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله) فهذا واضح.

(أشهد) يعني: أقر، لكن إقرارا كالمشاهد بالعين، يعني: ليس هو إقرارا هزيلا، و (أشهد) أصل الشهود والشهادة لما رئي أو سمع بالأذن؛ لكن هنا عبر عما في القلب بالشهادة كأن الإنسان يشاهد ما أقر به.

وأما (ألا إله إلا الله) فإن العامة يخطئون فيها يقولون: (أشهد أن لا إله إلا الله) (أشهد أن)، وهذا خطأ من حيث اللغة؛ لأن (أن) المشددة لا يحذف اسمها، ولكنها (أن) المخففة، فتقول: (ألا إله إلا الله)، يعني: لا إله حق. أي: لا معبود حق إلا الله ﷻ، والمعبودات التي تعبد بدونه باطلة.

(وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) فيها أيضا الإقرار المتيقن، كأنما يشاهد بأن محمدا عبد الله ورسوله، فهو عبد ليس له حق الربوبية، ورسول ليس فيه شيء من الخيانة، فهو رسول حقا.

وهذه معان ظاهرة عابرة، ومع هذا أكثر الناس لا يستحضرونها. انتهى.

(تنبيه): قدمنا بحثا موسوعا في أحكام الصلاة على النبي صلي الله عليه وسلم تحت الآية رقم (٤٣) من نفس السورة.

=

=

(منبهة): قال الله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦)) [الأحزاب: ٥٦].

وفي الحديث عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه -: "أن رجلا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوي". أخرجه باللفظ المذكور مسلم في صحيحه، في كتاب الجمعة، حديث (٨٧٠)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير، قالا: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم... ، فذكره. وقد تفرد وكيع بزيادة ذكرها في آخر الحديث، وهي قوله ﷺ : "قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوي"، وهذه الزيادة لم يتابع عليها، من طريق سفيان الثوري، فقد رواه يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، والفريابي، وعبد الله بن الوليد العدني، رووه جميعا عن سفيان الثوري، ولم يذكروا هذه الزيادة، وسيأتي تخريج هذه الطرق، لكن جاءت هذه الزيادة من طريق آخر غير طريق سفيان، فرواه الشافعي في الأم (١/ ٢٣٢)، ومن طريقه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٤/ ٣٧١)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ٤٠٥)، قال الشافعي: أخبرنا إبراهيم (هو ابن طهمان) قال: حدثني عبد العزيز بن رفيع، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم قال: "خطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال النبي ﷺ: اسكت فبئس الخطيب أنت". ثم قال النبي ﷺ: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولا تقل ومن يعصهما".

=

=

وقد روي الحديث بلفظين آخرين:

الأول: "أن خطيبا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما. فقال: قم، أو اذهب، بئس الخطيب أنت".

ويلاحظ في هذه الرواية أن الخطيب وقف على قوله: "ومن يعصهما"، ولم يقل بعدها: "فقد غوى".

وهذه الرواية جاءت من طريقين عن سفيان الثوري:

الأول: طريق يحيى بن سعيد القطان: أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الصلاة، حديث (١٠٩٩)، واللفظ له.

الثاني: طريق عبد الرحمن بن مهدي، وقد روي عنه من ثلاثة طرق:

١- ما رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٧٩)، قال: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم قال: "جاء رجلان إلى رسول الله ﷺ، فتشهد أحدهما فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما. فقال رسول الله ﷺ: بئس الخطيب أنت، قم".

٢- ما رواه الطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٣٧١)، قال: حدثنا يزيد بن سنان قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: ثنا سفيان، عن عبد العزيز بن رفيع، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم قال:... ، فذكره بمثل رواية الإمام أحمد.

٣- ما رواه النسائي في السنن الصغرى، في كتاب النكاح، حديث (٣٢٧٩)، قال: أخبرنا إسحاق بن منصور قال: أنبأنا عبد الرحمن قال: حدثنا سفيان، عن عبد العزيز، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم قال: "تشهد رجلان عند النبي ﷺ فقال أحدهما: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال

=

=

رسول الله ﷺ: بئس الخطيب أنت".

وقد خالف إسحاق بن منصور أقرانه في هذه الرواية، فزاد - بعد قول الخطيب: "ومن يعصهما"- زاد: "فقد غوى".

وهذه الزيادة جاءت من طرق أخرى عن سفيان، وعن عبد العزيز بن رفيع، وقد تقدمت رواية وكيع عند مسلم، وفيها هذه الزيادة، ورواية إبراهيم بن طهمان عند الشافعي، وستأتي أيضا رواية قيس بن الربيع، وأبي بكر بن عياش، كلاهما عن عبد العزيز بن رفيع، به. وفيهما هذه الزيادة، وستأتي هذه الزيادة أيضا في رواية الفريابي، وأبي حذيفة، وعبد الله بن الوليد العدني، جميعهم عن سفيان، به.

اللفظ الثاني: "تشهد رجلان عند النبي ﷺ فقال أحدهما: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال رسول الله ﷺ: بئس الخطيب أنت".

ويلاحظ في هذه الرواية أن النبي ﷺ لم يقل في آخر الحديث: "قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوي"، وهذه الزيادة كما تقدم تفرد بها وكيع من طريق سفيان، وتفرد بها أيضا إبراهيم بن طهمان، من طريق عبد العزيز بن رفيع، وقد رواه عن سفيان: يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، والفريابي، وعبد الله بن الوليد العدني، رووه جميعا عن سفيان الثوري، ولم يذكروا هذه الزيادة.

أما رواية يحيى بن سعيد: فتقدمت وهي عند أبي داود.

وأما رواية عبد الرحمن بن مهدي: فتقدمت أيضا، وهي عند أحمد والنسائي، والطحاوي.

وأما رواية الفريابي: فأخرجها الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٩٨).

وأما رواية أبي حذيفة: فأخرجها الطبراني في الموضع السابق، والبيهقي في السنن

=

=

الكبرى (١/ ٨٦)،

إلا أن البيهقي لم يسق المتن كاملا.

وأما رواية عبد الله بن الوليد العدني: فأخرجها البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢١٦)، ولم يسق المتن كاملا، وإنما أشار إلى أن هذه الزيادة لم تأت من هذا الطريق.

وروى الحديث قيس بن الربيع، وأبو بكر بن عياش، كلاهما عن عبد العزيز بن رفيع، به. ولم يذكروا هذه الزيادة.

أما رواية قيس بن الربيع: فأخرجها الطيالسي في مسنده (١/ ١٣٨)، والطبراني في المعجم الكبير

(١٧/ ٩٨).

وأما رواية أبي بكر بن عياش: فأخرجها أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٠ - ٣١١).

وثمة رواية مرسلة أخرجها عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٧٤)، كلاهما من طريق معمر، عن مغيرة، عن إبراهيم، مرسلا.

وليس في هذه الرواية الزيادة التي في آخر الحديث، وفيها أن الخطيب قال: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى".

النتيجة: سيأتي في مبحث الترجيح بيان الراجح من هذه الروايات.

* ظاهر قوله تعالى: (يصلون) جواز الجمع بين اسم الله تعالى، واسم غيره من المخلوقين في ضمير واحد، وكلمة واحدة، وأما الحديث الشريف فيوهم خلاف الآية؛ لأن النبي ﷺ أنكر على الخطيب قوله: "ومن يعصهما"، وأمره بأن يقول: "ومن يعص الله ورسوله"، وهذا الإنكار منه ﷺ يفهم منه تحريم الجمع بين

=

=

اسم الله تعالى، واسم غيره من المخلوقين في ضمير واحد، وكلمة واحدة.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث:

للعلماء في دفع التعارض بين الآية والحديث مسلكان:

الأول: مسلك الجمع بينهما:

وعلى هذا المسلك عامة العلماء، من مفسرين ومحدثين وفقهاء، إلا أنهم اختلفوا في الجمع على مذاهب:

الأول: أن مثل هذا التركيب جائز في كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، وأما سائر الناس فلا يجوز لهم أن يجمعوا بين اسم الله تعالى، واسم رسوله ﷺ في ضمير واحد، وكلمة واحدة.

وهذا مذهب الجمهور من العلماء، وممن قال به:

الشافعي، والخطابي، والبغوي، والقاضي عياض، والفخر الرازي، وابن الأثير، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والحافظ زين الدين العراقي، وابن عبدالسلام، والحافظ ابن حجر، والسيوطي، والسندي، والشوكاني، والآلوسي، والألباني.

وأيدوا مذهبهم: بالآية الكريمة، وبأحاديث رويت عن النبي ﷺ من قوله، وفيها استعماله ﷺ لمثل هذا التركيب، ومن هذه الأحاديث:

١- حديث أنس - رضي الله عنه -، أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

٢- وحديث أنس - رضي الله عنه - قال: "لما كان يوم خيبر جاء جاء فقال: يا رسول

=

=

الله، أكلت الحمر. ثم جاء آخر فقال: يا رسول الله، أفنيت الحمر. فأمر رسول الله ﷺ أبا طلحة فنادى: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر...".

٣- وحديث ابن مسعود - رضي الله عنه -: "أن رسول الله ﷺ كان إذا تشهد قال: الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا".

والشاهد من هذه الأحاديث: قوله: "مما سواهما"، وقوله: "ينهيانكم"، وقوله: "ومن يعصهما"، حيث جمع النبي ﷺ بين اسم الله تعالى، واسمه ﷺ، في ضمير واحد، وكلمة واحدة، فدل على جواز ذلك، إذا كان من قوله ﷺ.

وقد أشار بعض أصحاب هذا المذهب للعلة التي أوجبت نهيه ﷺ عن مثل هذا الأسلوب، فقالوا:

إن النبي ﷺ إنما أنكر عليه قوله: "ومن يعصهما"، لتشريكه في الضمير المقتضي للتسوية، وأمره بالعطف تعظيما لله تعالى، بتقديم اسمه، كما قال ﷺ في الحديث الآخر: "لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان".

ذكر هذا الوجه: الشافعي، والخطابي، والبغوي، والقاضي عياض، والفخر الرازي، وابن الأثير، وأبو العباس القرطبي، وأبو عبد الله القرطبي، والحافظ زين الدين العراقي، وابن عبد السلام، والحافظ ابن حجر، والسيوطي، والسندي.

قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام: "من خصائصه ﷺ أنه كان يجوز له الجمع في الضمير بينه وبين ربه تعالى، وذلك ممتنع على غيره، وإنما يمتنع من غيره

=

=

دونه؛ لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاق التسوية، بخلافه هو ﷺ، فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك". اهـ

المذهب الثاني: وهو ما ذكره النووي: أن سبب النهي هو أن الخطب شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ليفهم.

ثم أشار النووي إلى ضعف مذهب الجمهور المتقدم فقال: وأما قول الأولين فيضعف بأشياء، منها:

أن مثل هذا الضمير قد تكرر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله ﷺ؛ كقوله ﷺ: "أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"، وغيره من الأحاديث، وإنما ثنى الضمير ها هنا؛ لأنه ليس خطبة وعظ، وإنما هو تعليم حكم، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه، بخلاف خطبة الوعظ، فإنه ليس المراد حفظه، وإنما يراد الاتعاظ بها، ومما يؤيد هذا ما ثبت في سنن أبي داود، بإسناد صحيح، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: "علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة، الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا". والله أعلم". اهـ

وقد وافق النووي على رأيه هذا: الشوكاني، وأبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي.

=

=

وعلى مذهب النووي ومن تبعه فإنه لا إشكال في الآية؛ لأنها ليست في سياق الخطبة والوعظ، إذ الممتنع على رأيهم هو استعمال مثل هذا الأسلوب في خطب الوعظ فقط.

وقد اعترض السندي على رأي النووي فقال: "إنه ضعيف جدا؛ إذ لو كان ذلك سببا للإنكار، لكان في محل حصل فيه بالضمير نوع اشتباه، وأما في محل لا اشتباه فيه فليس كذلك، وإلا لكان ذكر الضمير في الخطبة منكرا منهيا عنه، مع أنه ليس كذلك، بل الإظهار في بعض المواضع في الخطب يكون منكرا فتأمل". اهـ

المذهب الثالث: أن ما جاء في الآية - من جمع الله تعالى الملائكة مع نفسه في ضمير واحد - جائز للبشر فعله، والنبي ﷺ لم يقل: "بئس الخطيب أنت" لهذا المعنى، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على: "ومن يعصهما"، فجمع بين حالي من أطاع الله ورسوله ومن عصى، والأولى أن يقف على: "رشد"، ثم يقول: "ومن يعصهما فقد غوى".

وهذا مذهب أبي جعفر الطحاوي، وابن الجزري، وابن عطية.

قال الطحاوي: "المعنى عندنا - والله أعلم - أن ذلك يرجع إلى معنى التقديم والتأخير، فيكون: من يطع الله ورسوله ومن يعصهما فقد رشد، وذلك كفر، وإنما كان ينبغي له أن يقول: ومن يعصهما فقد غوى، أو يقف عند قوله: فقد رشد، ثم يبتدئ بقوله: ومن يعصهما فقد غوى، وإلا عاد وجهه إلى التقديم والتأخير الذي ذكرنا". اهـ

وقد اعترض أبو العباس القرطبي على هذا المذهب فقال: "وهذا التأويل لم تساعده الرواية، فإن الرواية الصحيحة أنه أتى باللفظين في مساق واحد، وأن آخر

=

=

كلامه إنما هو: "فقد غوى"، ثم إن النبي ﷺ رد عليه وعلمه صواب ما أخل به، فقال: "قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى"، فظهر أن ذمه له إنما كان على الجمع بين الاسمين في الضمير". اهـ

وقد أجاب ابن عطية على هذا الاعتراض، فقال: "يحتمل أن يكون لما خطأه في وقفه وقال له: "بئس الخطيب أنت" أصلح له بعد ذلك جميع كلامه؛ لأن فصل ضمير اسم الله تعالى من ضمير غيره أولى لا محالة، فقال له: "بئس الخطيب أنت" لموضع خطئه في الوقف، وحمله على الأولى في فصل الضميرين، وإن كان جمعهما جائزا". اهـ

قلت: لكن ما اعترض به القرطبي الصواب عدم ثبوته في الحديث، وسيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث الترجيح.

المذهب الرابع: وهو مذهب أبي بكر الجصاص، حيث قال: "قد ذكر الله تعالى في كتابه اسمه وذكر نبيه ﷺ ، فأفرد نفسه بالذكر ولم يجمع الاسمين تحت كناية واحدة، نحو قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه) [التوبة: ٦٢]، ولم يقل: "ترضوهما"؛ لأن اسم الله واسم غيره لا يجتمعان في كناية، وروي عن النبي ﷺ أنه خطب بين يديه رجل فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال النبي ﷺ : "قم، فبئس خطيب القوم أنت"، لقوله: "ومن يعصهما". فإن قيل: فقد قال الله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي) فجمع اسمه واسم ملائكته في الضمير؟ قيل له: إنما أنكرنا جمعهما في كناية يكون اسما لهما، نحو الهاء التي هي كناية عن الاسم، فأما الفعل الذي ليس باسم ولا كناية عنه وإنما فيه الضمير فلا يمتنع ذلك فيه". اهـ

=

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧).

{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الله وَرَسُوله} وَهُمْ الْكُفَّار يَصِفُونَ الله بِمَا هُوَ مُنَزَّه عَنْهُ مِنْ الْوَلَد وَالشَّرِيك وَيُكَذِّبُونَ رَسُوله {لَعَنَهُمْ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة} أَبْعَدَهُمْ {وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} ذَا إِهَانَة وَهُوَ النَّار[1].

=

المذهب الخامس: أن ما جاء في الحديث من النهي يجب إعماله على إطلاقه، فلا يجوز الجمع بين اسم الله تعالى واسم نبيه في ضمير واحد.

وهذا مذهب أبي جعفر النحاس، وأجاب عن الآية: بأن فيها حذفا تقديره: "إن الله يصلي، وملائكته يصلون"، فيكون الضمير في قوله: "يصلون"، مختص بالملائكة فقط، ولم يجب عن بقية الأحاديث الواردة في المسألة، التي جاء فيها استعمال مثل هذا التركيب.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ١٧٩)، و"الدر المنثور" (٦/ ٦٥٦). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أنزلت في عبد الله بن أُبيّ وناس معه قذفوا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فخطب النبي ﷺ، وقال: "من يعذرني في رجل يؤذيني، ويجمع في

=

=

بيته من يؤذيني"؛ فنزلت(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا).

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٥٦) ونسبه للطبري. ولم نجده في المطبوع.

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [الأحزاب: ٥٧]، أي:"إن الذين يؤذون الله بالشرك أو غيره من المعاصي، ويؤذون رسول الله بالأقوال أو الأفعال".

قال الطبري: يقول:"إن الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه، وركوبهم ما حرم عليهم، وقد قيل: إنه عنى بذلك أصحاب التصاوير؛ وذلك أنهم يرومون تكوين خلق مثل خلق الله".

قال يحيى:"هؤلاء المنافقون كانوا يؤذون رسول الله عليه السلام ويستخفون بحقه، ويرفعون أصواتهم عنده استخفافا بحقه، ويكذبون عليه ويبهتونه".

قال ابن جريج:"وآذوا رسوله، قالوا: إنه شاعر، ساحر، مجنون".

قال قتادة:"يا سبحان الله ما زال أناس من جهلة بني آدم حتى تعاطوا أذى ربهم، وأما أذاهم رسول الله ﷺ فهو طعنهم عليه في نكاحه صفية بنت حيي فيما ذكر".

قوله تعالى: {لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا} [الأحزاب: ٥٧]، أي:"أبعدهم الله وطردهم مِن كل خير في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة عذابًا يذلهم ويهينهم".

قال الطبري: يقول:"أبعدهم الله من رحمته في الدنيا والآخرة وأعد لهم في الآخرة عذابا يهينهم فيه بالخلود فيه".

=

=

قال مقاتل:"يعني باللعنة في الدنيا العذاب والقتل والجلاء، وأما في الآخرة فإن الله يعذبهم بالنار".

عن مقاتل بن حيان، قوله: " {عذابا مهينا}، يعني بالمهين: الهوان".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن الذين يؤذون الله ورسوله} وهم الكفار يصفون الله تعالى بما هو منزه عنه من الولد والشريك، ويكذبون رسوله]، هذا من الإيذاء {إن الذين يؤذون} جملة خبرية مؤكدة بـ (إن)، وخبر (إن) قوله تعالى: {لعنهم الله في الدنيا والآخرة}.

قال الطبري: (يعني بقوله تعالى ذكره: {إن الذين يؤذون الله} إن الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه، وركوبهم ما حرم عليهم).

وقال ابن عطية: (قال الجمهور معناه: بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه ووصفه بما لا يليق به).

وقوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله} يؤذون الله تعالى بوصفه بالعيوب التي لا تليق به، مثل قول بعضهم عن الله تعالى: فقير. ومثل: سب الدهر؛ والله تعالى يقول: "يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر"، ومثل أن يقولوا: إن الله تعالى اتخذ صاحبة أو ولدا، أو إن الله تعالى لما خلق السموات والأرض تعب واستراح يوم السبت. وما أشبه ذلك، فإيذاء الله تعالى يكون بأن يوصف بما لا يليق به.

ومنه إنكار أسمائه وصفاته؛ لأن هذا -لا شك- سلب للكمال عنه فيتضمن النقص؛ لأن الكمال والنقص متضادان، فما من شيء إلا موصوف بالكمال أو بالنقص، فإذا سلبت عنه صفات الكمال لزم ذلك اتصافه بالنقص وهو نوع من

=

=

الإيذاء.

وأما إيذاء الرسول ﷺ فيكون بالقول وبالفعل؛ فبالقول: أن يوصف الرسول ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، والغريب أن الساحر والمجنون، وصف به جميع الأنبياء عليهم السلام، فكل الأنبياء السابقين المرسلين إلى قومهم وصفوا بهذا، قال سبحانه وتعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢]، فهذه الأوصاف -لا شك- أنها تؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام، وتؤذي كل ولي لله تعالى ورسوله ﷺ أن يوصف النبي ﷺ بهذه الأوصاف الكاذبة.

وكذلك إيذاء الرسول بالفعل ما صنعت قريش به ﷺ حين أتوا بسلى الناقة وهو ساجد في المسجد الحرام أمام بيت الله ﷻ، فوضعوا سلى الناقة على ظهره وهو ساجد، وأي أذية أبلغ من هذا؟! رجل لم يتعرض لهم فإنما يعبد الله ﷻ في آمن مكان على وجه الأرض؛ أمام بيت الله سبحانه وتعالى! وأقرب ما يكون من ربه! ثم يأتي هؤلاء الظلمة المعتدون فيضعون عليه هذه القاذورات؛ أعتقد أن هذا من أبلغ ما يكون من الأذية حتى جاءت ابنته الطفلة الصغيرة فأزالته عنه.

وكذلك من الأذية ما ذكروا أنهم كانوا يلقون الأنتان والقاذورات على عتبة بابه ﷺ في مكة حتى إنه كان يخرج ويقول: "أي جوار هذا؟! " يعني: لو كنت جارا لكم ولست منكم لم تفعلوا بي هذا الفعل! فهؤلاء الذين يؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ لعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة -والعياذ بالله- يعني: أبعدهم الله عن رحمته في الدنيا وفي الآخرة؛ لأن اللعن بمعنى: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وفي قوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله} ولم يقل: (آذوا الله)؛ لأنهم مستمرون في

=

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨).

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} يَرْمُونَهُمْ بِغَيْرِ مَا

=

الأذية، وما داموا مستمرين في الأذية فإن لهم اللعن في الدنيا والآخرة، أما إذا من الله تعالى عليهم بالهداية ورجعوا إلى الله تعالى وتابوا من شركهم؛ فإن اللعنة ترتفع عنهم؛ لأن الحكم يدور مع علته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لعنهم الله في الدنيا والآخرة} أبعدهم {وأعد لهم عذابا مهينا}]، {وأعد} بمعنى: هيأ، والعذاب بمعنى: العقوبة و {مهينا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [ذا إهانة وهو النار] عذاب النار -والعياذ بالله- إهانة بدنية وإهانة نفسية؛ ولهذا يقال لأصحاب النار: {خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم} [الدخان: ٤٧]، {خذوه فاعتلوه} أي: ادفعوه بشدة وعنف إلى سواء الجحيم، يعني: قعرها وأصلها، {ثم صبوا} من {فوق رأسه} الرأس الذي لم يكن ينحني لأحد ولا لله تعالى، {صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم} الحميم الماء الشديد الحرارة؛ ثم يقال له بعد الإهانة بالفعل يقال له: {ذق إنك أنت العزيز الكريم} [الدخان: ٤٩]، هذا تهكم به، يعني: إنك كنت في نفسك عزيزا كريما؛ لكنك الآن ذليل مهين خلاف المجد والكرم، فهذا هو العذاب الأليم الذي أعد للكافرين -عسى الله تعالى أن يسلمنا وإياكم منه- فصارت عقوبة هؤلاء المؤذين لله تعالى ولرسوله ﷺ أمرين عظيمين، أحدهما اللعن وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والثاني العذاب المهين الذي يوقعهم في الهوان والذل، المؤمنون والمؤمنات.

عَمِلُوا {فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا} تحملوا كذبا {وإثما مبينا} بينا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا} [الأحزاب: ٥٨]، أي:"والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بقول أو فعل من غير ذنب عملوه".

قال السمعاني:"أي: يقعون فيهم، ويعيبونهم بغير جرم وجد من قبلهم".

قال ابن كثير:"أي: ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه".

قال الزمخشري:"معنى: {بغير ما اكتسبوا}: بغير جناية واستحقاق للأذى".

عن مجاهد:"{والذين يؤذون}، قال: يقفون، {بغير ما اكتسبوا}، قال: بغير ما عملوا". وفي رواية:"يقعون بغير ما علموا".

قال الطبري:"فمعنى الكلام على ما قال مجاهد: والذين يقفون المؤمنين والمؤمنات. ويعيبونهم طلبا لشينهم {بغير ما اكتسبوا} يقول: بغير ما عملوا".

عن مجاهد، قال: "قرأ ابن عمر: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا}، قال: فكيف إذا أوذي بالمعروف، فذلك يضاعف له العذاب".

وفي رواية عن ثور عن ابن عمر، قال:"كيف بالذي يأتي إليهم المعروف".

قوله تعالى: {فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [الأحزاب: ٥٨]، أي:"فقد ارتكبوا أفحش الكذب والزور، وأتوا ذنبًا ظاهر القبح يستحقون به العذاب في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: فقد احتملوا زورا وكذبا وفرية شنيعة، وبهتان: أفحش الكذب، {وإثما مبينا} يقول: وإثما يبين لسامعه أنه إثم وزور".

قال ابن كثير:"وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات =

=

ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومَنْ أكثر مَنْ يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد بَرَّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله، ﷻ، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين".

عن مجاهد:"{فقد احتملوا بهتانا}، قال: إثما".

عن أبي هريرة، أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: "ذكرُكَ أخاك بما يكره". قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه".

قال مجاهد:"يلقى الجرب على أهل النار فيحكون حتى تبدو العظام، فيقولون: ربنا بم أصابنا هذا؟ فيقال: بأذاكم المسلمين".

قال الحسن: "إيّاكم وأذى المؤمن؛ فإنّه حبيبُ ربه، أحبَّ اللهَ فأحبَّه، وغَضِب لربه فغَضِبَ اللهُ له، وإنّ الله يحوطه، ويؤذي مَن آذاه".

قال قتادة:"إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أبي بن كعب رضي الله، عنه فدخل عليه فقال: يا أبا المنذر، إني قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات}، والله إني لأعاقبهم وأضربهم فقال له: إنك لست منهم، إنما أنت معلم".

قال الفضيل:"لا يحل لك أن تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق، فكيف إيذاء

=

=

المؤمنين والمؤمنات".

وحكي عن ابن عون، انه كان "لا يكرى الحوانيت إلا من أهل الذمة، لما فيه من الروعة عند كر الحول".

عن إبراهيم، قال: "جاء رجلٌ إلى علقمة، فشتمه، فقال علقمة: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا}. فقال الرجل: أمُؤْمِنٌ أنت؟ قال: أرجو".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ [{والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا} يرمونهم بغير ما عملوا {فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} تحملوا كذبا و {وإثما مبينا} بينا].

تأمل الفرق بين أذية الله تعالى ورسوله ﷺ وأذية المؤمنين تجد بينهما فرقا كبيرا في العقوبة، قال سبحانه وتعالى: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا}: {بغير ما اكتسبوا} هذا لم يذكر في الآية الأولى بسبب أنه لا يمكن أن يكون من فعل الله تعالى أو من فعل رسوله ﷺ ما يستحقون به الأذية، لكن المؤمنين يمكن أن يقع منهم ما يستحقون به الأذية؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: {بغير ما اكتسبوا}؛ لأن المؤمن قد يكتسب شيئا يستحق الأذية عليه.

وأيضا قال تبارك وتعالى: {فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا} ولم يقل: لعنهم الله ولا أعد لهم عذابا مهينا، بل قال تبارك وتعالى: {احتملوا بهتانا} يعني: كذبا وتحملوه، والبهتان هو أن تذكر أخاك بما ليس فيه؛ ولهذا لما سأل النبي ﷺ عن الغيبة قال ﷺ: "هي ذكرك أخاك بما يكره" قال: يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩).

{يأيها النَّبِيّ قُلْ لِأَزْوَاجِك وَبَنَاتك وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبهنَّ} جَمْع جِلْبَاب وَهِيَ الْمُلَاءَة الَّتِي تَشْتَمِل بِهَا الْمَرْأَة أَيْ يُرْخِينَ بَعْضهَا عَلَى الْوُجُوه إذَا خَرَجْنَ لِحَاجَتِهِنَّ إلَّا عَيْنًا وَاحِدَة {ذَلِكَ أَدْنَى} أَقْرَب إلَى {أَنْ يُعْرَفْنَ} بِأَنَّهُنَّ حَرَائِر {فَلَا يُؤْذَيْنَ} بِالتَّعَرُّضِ لَهُنَّ بِخِلَافِ الْإِمَاء فَلَا يُغَطِّينَ وُجُوههنَّ فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَعَرَّضُونَ لَهُنَّ {وَكَانَ الله غَفُورًا} لِمَا سَلَفَ مِنْهُنَّ مِنْ

=

بهته".

إذن: أذية المؤمنين بماذا تكون؟

الجواب: تكون بالقول وبالفعل وهي كثيرة لا حصر لها، منها أذية الجار حتى إن العلماء رحمهم الله يقولون: لا يجوز للإنسان أن يدق وتدا في الجدار المشترك بينه وبين جاره على نحو يؤذي جاره، ولا يجوز أن يسقي نخله إذا كان الماء يتسرب إلى جاره، ولا يجوز أن يجعل رحا تطحن حول جاره؛ لأن ذلك يؤذيه، فالأذية كثيرة.

ومن هذا النوع أن يهينه عندما يأتي لطلب حقه فإن بعض الموظفين -والعياذ بالله- إذا جاءهم الناس لإجراء معاملاتهم تجدهم يمتهنونهم ويؤذونهم، هذا أيضا من أذية المؤمنين بغير ما اكتسبوا، وأنواعها لا يمكن حصرها، والشيء العام هو أن يحصل للمؤمن أذية من فعل أو قول، فالذين يؤذون المؤمنين بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا، نسأل الله تعالى العافية.

تَرْك السِّتْر {رَحِيمًا} بِهِنَّ إذْ سَتَرَهُنَّ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي مالك؛ قال: كان نساء نبي الله ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين؛ فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء؛ فنزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"، وسعيد بن منصور في "سننه"، وعبد بن حميد وابن المنذر في "تفسيريهما"؛ كما في "الدر المنثور" (٦/ ٦٥٩)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٥) عن حصين عن أبي مالك به.

وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن الحسن في قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}؛ قال: إماء كن بالمدينة يتعرض لهن السفهاء؛ فيؤذين، فكانت الحرة تخرج فتحسب أنها أمة فتؤذى؛ فأمرهن الله أن يدنين عليهن من جلابيبهن.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٦، ١٧٧) ومع إرساله فيه شيخه الواقدي وهو متروك.

وعن محمد بن كعب؛ قال: كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين يؤذيهن، فإذا قيل له؛ قال: كنت أحسبها أمة، فأمرهن الله أن يخالفن زي الإماء =

=

ويدنين عليهن من جلابيبهن، تخمر وجهها إلا إحدى عينيها، يقول: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ}، يقول: ذلك أحرى أن يعرفن.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٦، ١٧٧) ومع إرساله فيه شيخه الواقدي وهو متروك.

عن أبي صالح؛ قال: قدم النبي ﷺ المدينة على غير منزل، فكان نساء النبي ﷺ وغيرهن إذا كان الليل خرجن يقضين حوائجهن، وكان رجال يجلسون على الطريق للغزل؛ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)} يقنعن بالجلباب حتى تعرف الأمة من الحرة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٣٣، ٣٤) بسند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالضعفاء والمجاهيل.

وعن معاوية بن قرة: أن ذعارًا من ذعار أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل، فينظرون النساء ويغمزونهن، وكانوا لا يفعلون ذلك بالحرائر، إنما يفعلون ذلك بالإماء؛ فأنزل الله هذه الآية: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٦٠) ونسبه لعبد بن حميد.

* قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ} [الأحزاب: ٥٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي قل لأزواجك

=

=

وبناتك ونساء المؤمنين: لا يتشبهن بالإماء في لباسهن إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن، فكشفن شعورهن ووجوههن. ولكن ليدنين عليهن من جلابيبهن".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرا رسوله، ﷺ تسليما، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء. و «الجلباب» هو: الرداء فوق الخمار، وهو بمنزلة الإزار اليوم. قاله الجوهري: الجلباب: الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلا لها:

تَمْشي النُّسور إليه وَهْيَ لاهيةٌ... مَشْيَ العَذَارى عَلَيْهِنَّ الجَلابيبُ".

قال الزمخشري:"«الجلباب»: ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها، ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن، ويغطين بها وجوههن وأعطافهن. يقال: إذا زل الثوب عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك، وذلك أن النساء كن في أول الإسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار فصل بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء، وربما تعرضوا للحره بعلة الأمة، يقولون: حسبناها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه، ليحتشمن ويهبن فلا يطمع فيهن طامع".

قالت أم سلمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: "لما نزلت هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسية سود يلبسنها".

وفي رواية:"لما نزلت هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الأنصار

=

=

كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها".

عن يونس بن يزيد، قال: "وسألناه -يعني الزهري-: هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب، لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات: وقد قال الله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن}".

قال السدي:"كان أناس من فساق أهل المدينة بالليل حين يختلط الظلام، يأتون إلى طرق المدينة فيتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق، فيقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يتبعون ذلك منهن، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة فكفوا، عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها".

واختلف أهل التفسير في صفة الإدناء الذي أمرهن الله به، على قولين:

أحدهما: أن يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين منهن إلا عينا واحدة. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة".

عن ابن عون عن محمد عن عبيدة، قوله: " {ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن}، فلبسها عندنا ابن عون، قال: ولبسها عندنا محمد، قال محمد: ولبسها عندي عبيدة، قال ابن عون بردائه فتقنع به، فغطى أنفه وعينه اليسرى وأخرج عينه اليمنى، وأدنى رداءه من فوق حتى

=

=

جعله قريبا من حاجبه أو على الحاجب".

عن ابن سيرين قال: "سألت عبيدة عن قوله: {قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن}، قال: فقال بثوبه، فغطى رأسه ووجهه، وأبرز ثوبه عن إحدى عينيه".

وروي ن عكرمة، في الآية، قال: "تدني الجلباب حتى لا يرى ثغرة نحرها".

الثاني: أنهن أمرن أن يشددن جلابيبهن على جباههن. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن عباس:"كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن. وإدناء الجلباب: أن تقنع وتشد على جبينها".

قال مجاهد:"يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فلا يعرض لهن فاسق بأذى من قول ولا ريبة".

قال قتادة:"أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يقنعن على الحواجب، {ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين}، وقد كانت المملوكة إذا مرت تناولوها بالإيذاء، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء".

قوله تعالى: {ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ} [الأحزاب: ٥٩].

قال الطبري: يقول:"إدناؤهن جلابيبهن إذا أدنينها عليهن أقرب وأحرى أن يعرفن ممن مررن به، ويعلموا أنهن لسن بإماء فيتنكبوا عن أذاهن بقول مكروه، أو تعرض بريبة".

قال الزمخشري:"أي: أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن ولا يلقين ما يكرهن".

=

=

قال ابن كثير:"أي: إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنَّهن حرائر، لسن بإماء ولا عواهر".

قال أبو مالك:"فأمر بذلك حتى عرفوا من الإماء".

عن أبي قلابة، قال: "كان عمر بن الخطاب لا يَدَع في خلافته أمَةً تقَنَّع، ويقول: إنّما القناع للحرائر؛ لكيلا يؤذين".

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٥٩]، أي:"وكان الله غفورًا رحيمًا حيث غفر لكم ما سلف، ورحمكم بما أوضح لكم من الحلال والحرام".

قال الطبري: " {وكان الله غفورا} لما سلف منهن من تركهن إدناءهن الجلابيب عليهن {رحيما} بهن أن يعاقبهن بعد توبتهن بإدناء الجلابيب عليهن".

قال ابن كثير:"أي: لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك".

عن قتادة:"قوله: {غفورا}، قال: للذنوب الكثيرة أو الكبيرة" ، " {رحيما}، بعباده".

عن عطاء بن دينار، قوله: " {غفور} لما كان منهم قبل التوبة، {رحيم} بهم بعد التوبة".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن} الخطاب بـ {ياأيها النبي} تقدم التنبيه عليه بأن الله ﷻ نادى محمدا ﷺ بوصفه نبيا، والنبي ينفذ ما أوحي إليه، ولا يتأخر عنه، وسبق أن النبي مأخوذ من النبأ أو النبوة أو منهما جميعا، فإنه منبئ منبأ، وذو رفعة

=

=

فهو مشتق من النبأ سواء كان واقعا منه أو واقعا عليه، ومن النبوة وهي الرفعة فالشيء النابي هو الشيء المرتفع.

قوله تعالى: {قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين}: {قل} هذه فعل أمر ومن المعلوم أن الرسول ﷺ قد أمر أن يقول جميع القرآن وأن يبلغه، لكن إذا كان الحكم مصدرا بـ (قل) فهو دليل على العناية به؛ لأنه أمر أن يبلغه بخصوصه؛ فيكون في هذا دليل على أنه -أي: هذا الشيء الذي أمر أن يقوله الرسول ﷺ أمر هام.

قوله تعالى: {قل لأزواجك} جمع زوج، وزوج يطلق على الرجل والمرأة؛ لأنه مأخوذ من الازدواج وهو الاختلاط، واللغة الفصحى فيه أن لا تفريق بين الذكر والأنثى ولكن الفرضيين رحمهم الله التزموا أن يجعلوا الأنثى بالهاء والرجل بدون هاء، تفريقا بين الوسائل؛ لأنه إذا قالوا: مات ميت عن زوج وابن، وأرادوا بالزوج الأنثى اشتبه هل يراد بالزوج الذكر أو الأنثى فالتزموا أن يفرقوا بين الذكر والأنثى بالتاء؛ على أنه قد قيل: إنها لغة لكنها قليلة.

وقوله تعالى: {قل لأزواجك} وبدأ بالأزواج؛ لأن الحماية لهن والغيرة فيهن أشد وأبلغ.

وقوله تعالى: {وبناتك} قلنا: إنهن أربعة، لكن إذا كانت هذه الآية قد نزلت في السنة السادسة للهجرة فإن بعضهن قد مات، وعلى هذا نقول: المراد الموجود منهن {ونساء المؤمنين} عام في كل امرأة من المؤمنين؛ وإنما قال تبارك وتعالى: {ونساء المؤمنين} دون أن يقول: (والنساء)؛ لأجل الإغراء والحث، كقوله ﷺ: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر"، وإلا فإن الكافرات يجب عليهن من

=

=

الحجاب ما يجب على المؤمنات؛ لئلا يفتتن الناس بهن.

وقوله تعالى: {ونساء المؤمنين} يشمل زوجات المؤمنين ومن للمؤمنين عليهن ولاية، من البنات والأخوات والعمات والخالات والأمهات وغير ذلك، وفي قوله تعالى: {ونساء المؤمنين} دليل على أن الرجال قوامون على النساء، وإلا لاكتفى بقول: (والنساء المؤمنات).

فإن قال قائل: الكتابيات إذا تزوجن من المسلمين هل يخاطبن بالحجاب، رغم قوله تعالى: {ونساء المؤمنين} وهل يقال: إنها غير مكلفة فلا تخاطب؟

فالجواب: في قوله تعالى: {ونساء المؤمنين} الخطاب موجه لهن، وإلا فغير المؤمنات يجب أن يسترن وجوههن؛ لأن الفتنة حاصلة، بل ربما تكون الفتنة في غير المؤمنات أكثر؛ لأن الرجل يقول: هذه كافرة، فذنبها أعظم؛ لأنه قد يحارشها أو يتوصل إليها بالزنا.

وهي مخاطبة، ولا سيما في الأمور الظاهرة؛ ولهذا يمنعون من إظهار الخمر والخنزير وما أشبه ذلك، مع أنه مباح في شريعتهم.

قوله تعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن} جملة: {يدنين عليهن من جلابيبهن} تحتمل أن تكون مرفوعة وأن تكون مجزومة؛ وعلى كل حال هي: مبنية الآن لاتصالها بنون النسوة، والفعل المضارع يكون مبنيا في موضعين إذا اتصلت به نون النسوة أو نون التوكيد، وهنا اتصلت به نون النسوة، فهو مبني على السكون، لكن هل هو في محل رفع أو في محل جزم؟

الجواب: إن كانت {يدنين} مقول القول فهي في محل رفع، يعني: قل لهؤلاء: أدنين. وإن كانت جوابا للأمر فإنها في محل جزم؛ لأن جواب الأمر يكون

=

=

مجزوما، وقيل: إنها مجزومة على تقدير اللام، أي: قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ليدنين عليهن من جلابيبهن هذه على تقدير لام الأمر كقول الشاعر:

محمد تفد نفسك كل نفس ....

(تفد): التزمها على تقدير اللام، أي: لتفد نفسك؛ وأي الاحتمالين أرجح أن تكون مقولا للقول في محل رفع أو أن تكون في محل جزم؟

فالجواب: القرآن قد بين ذلك، قال الله تعالى: {وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن} [الإسراء: ٥٣] هذا يدل على أنها مجزومة على أنها جواب الأمر، إذ لو كانت مرفوعة لقال: يقولون التي هي أحسن فلما قال: {يقولوا} دل عن أنها جواب الأمر، وهي أيضا من حيث المعنى أبلغ؛ إذا كانت جوابا للأمر كأنهم يفعلون ذلك مباشرة؛ يعني: كأن فعلهم هذا جواب للأمر، أي: أنه متسبب عنه فيكون ذلك أبلغ في الامتثال من أن يؤمروا أمرا قد يمتثلونه وقد لا يمتثلونه.

فقوله تعالى: {قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم} [النور: ٣٠] وماذا يؤيد أنها جواب الأمر أو أنها مقول القول؟ الجواب: أنها جواب الأمر؛ ولهذا يقول: {يغضوا من أبصارهم} فجزمها بحذف النون، ولم يقل (يغضون من أبصارهم).

وقوله تعالى: {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن} [النور: ٣١] وماذا يؤيد؟

الجواب: لا دليل فيه؛ لأنه مبني، فليس فيه دليل على هذا ولا على هذا.

المهم: أن الأولى أن نجعل قوله سبحانه وتعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن} جوابا للأمر، ويؤيد ذلك: السياق في كتاب الله، ويؤيد ذلك: أنه أقوى في الامتثال والتنفيذ؛ حيث كان جوابا لمجرد القول: كأنهن يفعلن ويمتثلن.

=

=

وقوله تعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن}: {من} ليست زائدة كما قيل؛ لأن (من) لا تزاد إلا في النفي كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وزيد في نفي وشبهه فجر ... نكرة كـ (ما لباغ من مفر) وعلى هذا فـ (من) ليست بزائدة، يعني: ليس المعنى: يدنين عليهن جلابيبهن، بل (من) للتبعيض، أي: يدنين عليهم من جلابيبهن، أي: بعض جلابيبهن.

وهل التبعيض هنا تبعيض جزء من كل، أو تبعيض فرد من فرد، بمعنى هل قوله تعالى: {من جلابيبهن} أي: من الجلابيب التي عندهن؛ لأن الواحدة قد يكون عندها جلبابان أو أكثر، أو أن المعنى ببعض الجلباب التي عليها؟

الجواب: هذا الأخير هو الأقرب، يعني: تدني عليها بعض جلبابها.

والجلباب: هو الرداء أو الملاءة أو الملحفة، يعني: الشيء الواسع الذي يشمل جميع البدن أو أكثره.

و{يدنين عليهن} ولم يقل: (إليهن) بل قال تعالى: {عليهن}؛ ليكون الإدناء ملاصقا لهن، فكأنه ضمن معنى: يضممن عليهن؛ {يدنين عليهن من جلابيبهن} أي: يقربنه حتى يضممنه عليهن.

وقوله تعالى: {يدنين عليهن من جلابيبهن} لم يقل: (على وجوههن) ولا (على نحورهن) ولا (على صدورهن)، فيكون شاملا لجميع البدن؛ فقال تعالى: {يدنين عليهن} أي: على جميع البدن، ولكن من المعروف أن الجلباب ساتر لأكثر البدن، والعادة عندهم أن المرأة تكشف وجهها وتخرج مكشوفة الوجه ومكشوفة النحر، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يدنين عليهن من جلابيبهن، أي: على هذا المكشوف الذي يكشف عادة وهو الوجه والنحر، كما قال ذلك ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

=

=

وغيره: بأن تغطي وجهها ولا تبد إلا عينا واحدة تنظر بها للضرورة، وهذا فيما إذا كان الجلباب صفيقا بحيث إذا غطت وجهها لا ترى، أما إذا كان خفيفا كما هو معروف عندنا في الوقت الحاضر فلا حاجة إلى إبداء العين؛ لأن إبداء العين إنما هو للضرورة، بدليل أن الصحابة كابن عباس رضي الله عنه وغيره رخصوا في إبداء العين الواحدة؛ لأنها بقدر الضرورة وإلا لكانوا يقولون: تخرج العينين جميعا.

وعلى كل حال: فالمعنى يدنين عليهن من جلابيبهن فيما يكشفنه من أبدانهم وهو الوجه، فهذا ما جرت عليه العادة.

وكان هذا الكشف عاما للإماء والحرائر، فصار بعض من في قلبه مرض من المنافقين الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات يلاحقونهن فإذا عثر عليهم قالوا هذه حسبناها أمة فعيرناها وهي حرة! فشكي ذلك إلى الرسول ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية: {ياأيها النبي} هكذا قال بعضهم في سبب النزول، لكنه غير مسند، ونحن لا يهمنا أن تكون آية لها سبب في نزولها أم ليست لها سبب؛ المهم: هو الحكم الذي دلت عليه.

قال رحمه الله: [{يدنين عليهن من جلابيبهن} جمع جلباب وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة، أي: يرخين بعضها على الوجوه إذا خرجن لحاجتهن إلا عينا واحدة] لضرورة النظر.

وقوله رحمه الله: [جمع جلباب وهي الملاءة]، وهي تشبه العباءة عندنا، ولما أمر النبي ﷺ بخروج النساء في العيد للصلاة، قالت أم عطية رضي الله عنها: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلباب. فقال ﷺ: "لتلبسها أختها من جلبابها"، ولم يقل: لتخرج بدون جلباب. وهذا يدل على أنه لا بد أن تخرج المرأة بما يسترها ولا

=

=

يبين حجم جسمها.

قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [{ذلك أدنى} أقرب إلى {أن يعرفن} بأنهن حرائر {فلا يؤذين} بالتعرض لهن] قوله: [يعرفن بأنهن حرائر] هذا بناء على ما قلت، ولكن لنا أن نقول: {أدنى أن يعرفن} بأنهن محتشمات وبعيدات عن الريب ولا يردن السوء ولا الفاحشة؛ لأن المرأة إذا كانت محتشمة متحجبة دل ذلك على كمال عفتها، وأنها لا تريد أن تقع في مواضع الريب، بخلاف المرأة العاهرة -والعياذ بالله- فإنها تتبرج وتكشف وجهها وتخرج يديها وذراعيها وحليها وما أشبه ذلك، فإذا كانت المرأة متحجبة علم أنها امرأة محتشمة عفيفة؛ ولهذا قال تبارك وتعالى {أدنى أن يعرفن}، وإذا كانت عفيفة محتشمة فإن الفساق لا يتعرضون لها؛ لأنهم يعلمون أنها ليست من أصحابهم، وإنما هي امرأة حامية نفسها محتفظة، هذا من جهة؛ ويحتمل ما قاله المصنف رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [{أن يعرفن} بأنهن حرائر]؛ والآية صالحة لهذا ولهذا.

قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [{فلا يؤذين} بالتعرض لهن بخلاف الإماء فلا يغطين وجوههن، فكان المنافقون يتعرضون لهن] وهكذا كانت الإماء في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء لا يحتجبن لأنهن مملوكات، ولا يتعلق بهن إلا رديء النفس.

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحَمَهُ ٱللَّهُ قال: "إن هذا في الإماء اللاتي لا يخشى منهن فتنة، وأما الإماء الجميلات اللاتي يفتن فإنه يجب عليهن أن يغطين وجوههن؛ وذلك لخوف الفتنة لا لإلحاقهن بالحرائر"، وما قاله رَحَمَهُ ٱللَّهُ صحيح، والمعنى يؤيده، فإن كل ما يخشى منه الفتنة فإنه يجب البعد عنه؛ ولهذا قال الله تعالى: {ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن}؛ لأن الخلخال الذي يسمع

=

=

إذا ضربت المرأة برجلها يخشى منه الفتنة، وخشية الفتنة بمخفي عند ضرب المرأة برجلها أقل بكثير من أن تخرج المرأة وجهها، ذلك الوجه الجميل المجمل بالكحل والتحمير وغير ذلك.

وكل يعلم أن هذا أعظم فتنة من خلخال مستور يسمع صوته عند الضرب بالرجل، وتأبى حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينهى عن ضرب المرأة برجلها؛ لئلا يسمع خلخالها، ثم يرخص لامرأة من أجمل النساء أن تظهر وجهها وكفيها!! فهذا تأباه حكمة الله ﷻ.

فإن قال قائل: لم ضرب عمر الأمة حينما غطت رأسها؟

فالجواب: ضربها لئلا تتشبه بالحرائر خوفا من أن يختلط هؤلاء بهؤلاء، ثم يبقى الفرق والميزة بينهما لا أثر لها، فإذا كانت الإماء يغطين وجوههن بقيت الحرائر غير معلومات؛ ولا يحتج به؛ لأن عندنا قواعد عامة وهي التعرض للفتن ممنوع في الشرع.

قال تعالى: {وكان الله غفورا رحيما}، قال المصنف رحمه الله: [{وكان الله غفورا} لما سبق منهن من ترك التستر، رحيما بهن إذ سترهن] {وكان الله غفورا} سبق تفسير الغفور والرحيم، وأن الله تعالى يجمع بينهما دائما لأجل أن يتركب من الاسمين زوال المكروه وحصول المطلوب، فزوال المكروه بالمغفرة وحصول المطلوب بالرحمة.

والله ﷻ يذكر دائما المغفرة والرحمة عن أمر قد سلف ولم ينزل به حكم مثل قوله تعالى: {وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما} [النساء: ٢٣]؛ لأنه لولا مغفرة الله تعالى ورحمته لكان يعاقبنا على المخالفة

=

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠).

{لَئِنْ} لَام قَسَم {لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ} عَنْ نفاقهم {والذين في قلوبهم مرض} بالزنى {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَة} الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ قَدْ أَتَاكُمْ الْعَدُوّ وَسَرَايَاكُمْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} لنسلطنك عليهم {ثم لا يجاورونك} يساكنونك {فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} ثُمَّ يَخْرُجُونَ.

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١).

{مَلْعُونِينَ} مُبْعَدِينَ عَنْ الرَّحْمَة {أَيْنَمَا ثُقِفُوا} وُجِدُوا {أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} أَيْ الْحُكْم فِيهِمْ هَذَا عَلَى جِهَة الْأَمْر بِهِ[1].

=

التي لا تليق، لكن الله تعالى من مغفرته ورحمته لا يؤاخذنا بما لم يشرع لنا.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن قتادة: أن ناسًا من المنافقين أرادوا أن يظهروا نفاقهم؛ فنزلت: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠)} يقول: لنحرشنك بهم.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٢٣) عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٦٦٢) وزاد نسبته لابن المنذر.

وعن طاووس: نزلت (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) في بعض أمور النساء.

=

=

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٢٣) عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} [الأحزاب: ٦٠]، أي: "لئن لم يكفَّ الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإيمان والذين في قلوبهم شك وريبة، والذين ينشرون الأخبار الكاذبة في مدينة الرسول ﷺ عن قبائحهم وشرورهم".

قال الطبري: يقول: "لئن لم ينته أهل النفاق الذين يستسرون بالكفر ويظهرون الإيمان {والذين في قلوبهم} ريبة من شهوة الزنا وحب الفجور، وأهل الإرجاف في المدينة بالكذب والباطل".

قال الزمخشري: "المعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدكم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء".

قال مقاتل: "يقول: لئن لم ينتهوا عن الفجور والإرجاف والنفاق".

قال القرطبي: "أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال: «{المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة}، قال: هم شي واحد»، يعني: أنهم قد جمعوا هذه الأشياء".

وفي قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ} [الأحزاب: ٦٠]، قولان:

أحدهما: عن إيذاء نساء المسلمين. قاله الكلبي.

الثاني: عن إظهار ما في قلوبهم من النفاق، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل،

=

=

واختاره البغوي.

قال ابن زيد:"هؤلاء صنف من المنافقين".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأحزاب: ٦٠]، قولان:

أحدهما: أنهم الزناة، قاله عكرمة ، وقتادة ، والسدي ، وأبو صالح ، وابن زيد ، ومقاتل.

وقال عطاء:"كانوا مؤمنين، وكان في أنفسهم أن يزنوا".

قال مقاتل:"{والذين في قلوبهم مرض} : الفجور وهم الزناة".

قال ابن زيد:"أهل الزنا من أهل النفاق الذين يطلبون النساء فيبتغون الزنا. وقرأ: {فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض} ، قال: والمنافقون أصناف عشرة في براءة، قال: فالذين في قلوبهم مرض صنف منهم مرض من أمر النساء".

قال السدي:"كان النفاق على ثلاثة وجوه. نفاق مثل نفاق عبد الله بن نبتل، ومالك بن داعس، فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار، فكانوا يستحبون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم، {والذين في قلوبهم مرض} ، قال: الزنا إن وجدوه عملوه، وإن لم يجدوه لم يبتغوه. ونفاق يكابرون النساء مكابرة، وهم هؤلاء الذين كانوا يكابرون النساء".

الثاني: أصحاب الفواحش والقبائح، قاله سلمة بن كهيل ، وعطاء ، وعكرمة -في رواية أخرى-.

قال القرطبي:"معنى القولين متقارب".

وفي قوله تعالى: {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} [الأحزاب: ٦٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الذين يكاثرون النساء ويتعرضون لهن، قاله السدي.

=

=

الثاني: أنهم الذين يذكرون من الأخبار ما يضعف به قلوب المؤمنين وتقوى به قلوب المشركين قاله قتادة ، ويحيى بن سلام ، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: المنافقين كانوا يخبرون المؤمنين بالمدينة بما يكرهون من عدوهم".

قال قتادة:"الإرجاف: الكذب الذي كان نافقه أهل النفاق، وكانوا يقولون: أتاكم عدد وعدة. وذكر لنا أن المنافقين أرادوا أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق، فأوعدهم الله بهذه الآية قوله: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض...} الآية، فلما أوعدهم الله بهذه الآية كتموا ذلك وأسروه".

قال ابن زيد:"هم أهل النفاق أيضا الذين يرجفون برسول الله ﷺ وبالمؤمنين".

قال يحيى:"يعني: المنافقين يرجفون بالنبي ﷺ وأصحابه يقولون: يهلك محمد وأصحابه".

قال ابن كثير:"يعني: الذين يقولون: "جاء الأعداء" و"جاءت الحروب"، وهو كذب وافتراء".

قال السعدي:"أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك، كل ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة، من أمثال هؤلاء".

الثالث: أن «الإرجاف»: التماس الفتنة، قاله ابن عباس.

قال الماوردي:"وسميت الأراجيف لاضطراب الأصواب بها وإفاضة الناس
=

=

فيها".

قال الراغب:"الرجف: الاضطراب الشديد، يقال: رجفت الأرض ورجف البحر، وبحر رجاف. قال تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} [النازعات: ٦]، {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ} [المزمل: ١٤]، {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف: ٧٨]، والإرجاف: إيقاع الرجفة، إما بالفعل، وإما بالقول، قال تعالى: {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}، ويقال: الأراجيف: ملاقيح الفتن".

قال الزمخشري:"المرجفون: ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هزموا وقتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال: أرجف بكذا، إذا أخبر به على غير حقيقة، لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت، من الرجفة وهي الزلزلة".

قال الهراسي:"قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، [الآية: ٦٠]. فيه دليل على تحريم الإيذاء بالإرجاف".

قوله تعالى: {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} [الأحزاب: ٦٠]، أي:"لنسلِّطنَّك عليهم".

قال مقاتل: "يقول: لنحملنك على قتلهم".

قال الطبري:"يقول: لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم".

قال الزمخشري:"لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم وتنوؤهم، فسمى ذلك إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز".

قال القرطبي:"أي: لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل".

قال السعدي:"أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع".

=

=

قال ابن عباس:"يقول: لنسلطنك عليهم".

قال قتادة:"أي: لنحملنك عليهم لنحرشنك بهم".

قال السدي:"يقول: لنعلمنك بهم".

قال المفسرون: "وقد أغري بهم، فقيل له {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِين} [التوبة: ٧٣]. وقال يوم جمعة: «اخرج يا فلان من المسجد فانك منافق. قم يا فلان فانك منافق» ".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: ٦٠]، أي:"ثم لا يسكنون معك فيها إلا زمنًا قليلا".

قال الطبري:"يقول: ثم لننفينهم عن مدينتك فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا من المدة والأجل، حتى تنفيهم عنها فنخرجهم منها".

قال السمعاني:"أي: في المدينة، إلا وقتا قليلا".

قال الزمخشري:"ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زمنا قليلا ريثما يرتحلون ويلتقطون أنفسهم وعيالاتهم، وإنما عطف بـ «ثم»، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه".

قال السعدي:"أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلا بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه".

عن قتادة: " {ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا}، أي: بالمدينة".

قال ابن عباس:"لا يجاورونك فيها إلا يسيرا، حتى يهلكوا".

=

=

قوله تعالى: {مَلْعُونِينَ} [الأحزاب: ٦١]، أي:"مطرودين من رحمة الله".

قال الطبري: يقول: " مطرودين منفيين".

قال مقاتل:"ونجعلهم {ملعونين أينما ثقفوا}، فأوجب لهم اللعنة على كل حال".

عن قتادة: " {ملعونين}، على كل حال".

قال السدي:"ثم قال: {ملعونين} ثم فصله في الآية {أينما ثقفوا} يعملون هذا العمل مكابرة النساء".

قال البغوي:"أي: الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به".

قال ابن كثير:"{مَلْعُونِينَ} حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين".

قال الزجاج:"{ملعونين}: منصوب على الحال، المعنى: لا يجاورونك إلا وهم ملعونون، ولا يجوز أن يكون {ملعونين} منصوبا بما بعد {أينما}، لا يجوز أن تقول: ملعونا أينما ثقف أخذ زيد يضرب، لأن ما بعدما حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها".

قال الفراء:"قوله: {ملعونين}: منصوبة على الشتم، وعلى الفعل أي لا يجاورونك فيها إلا ملعونين، والشتم على الاستئناف، كما قال: {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: ٤]، لمن نصبه".

قال الزمخشري:"{ملعونين}: نصب على الشتم أو الحال، أي: لا يجاورونك إلا ملعونين، دخل حرف الاستثناء على الظرف والحال معا، كما مر في قوله {إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاه} [الأحزاب: ٥٣]، ولا يصح أن ينتصب

=

=

عن: {أخذوا}، لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها. وقيل: في {قليلا} وهو منصوب على الحال أيضا. ومعناه. لا يجاورونك إلا أقلاء أذلاء ملعونين".

قوله تعالى: {أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا} [الأحزاب: ٦١]، أي:"أينما وجدوا وأُدركوا أُخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قُتِّلوا لكفرهم بالله تقتيلا".

قال الطبري: يقول: " مطرودين منفيين".

قال مقاتل:"يقول: حيثما لقوا من الأرض أخذوا وقتلوا لكفرهم بالله تقتيل".

قال ابن كثير:"{أَيْنَمَا ثُقِفُوا} أي: وجدوا، {أُخِذُوا} لذلتهم وقلتهم، {وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا}".

قال السعدي: أي:"أين وجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يحبسوا، أو يعاقبوا".

عن قتادة: " إذا هم أظهروا النفاق".

قال النحاس: قوله: {أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا}،" فهذا فيه معنى الأمر بقتلهم وأخذهم أي هذا حكمهم وهذا أمرهم أن يؤخذوا ويقتلوا إذ كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «خمس يقتلن في الحرم»، فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء. وهذا من أحسن ما قيل".

قال السدي:"هذا حكم في القرآن ليس يعمل به. لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها، ففجروا بها كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم}: {لئن} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لام قسم]

=

=

يعني: موطئة للقسم، وليست هي أداة القسم، والقسم محذوف، والتقدير: والله لئن لم ينته، أو وربك لئن لم ينته. فهي موطئة للقسم، وإنما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لام قسم]؛ لئلا يتوهم واهم أنها لام الابتداء، وقوله: (إن) هذه شرطية، وقوله تعالى: {لم ينته} مجزومة، والدليل حذف حرف العلة الياء، والجازم لها {لم}؛ لأنها هي المباشرة.

قال تعالى: {لئن لم ينته المنافقون} يعني: [عن نفاقهم]؛ كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وإنما قال: [عن نفاقهم]؛ لأنه هو الوصف الذي اشتق منه اسم (المنافقون)، وإلا قد يكون المعنى: لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم وعن أذيتهم للمؤمنين وغير ذلك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين في قلوبهم مرض} بالزنا] وهذا بناء على أن قوله تعالى: {ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين} أن المراد الأذية بالتعرض لهن بالفاحشة، فالمعنى: {والذين في قلوبهم مرض} هم الذين يتعرضون للنساء بطلب الفاحشة والزنا.

ويحتمل أن يكون المعنى أعم مما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أي: في قلوبهم مرض من الشك أو سوء الخلق، وغير ذلك، وهو أعم وأحسن.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والمرجفون في المدينة} المؤمنين...] المؤمنين مفعول {والمرجفون}؛ لأنه من أرجف يرجف، وهي مأخوذة من الرجفة، وهي الزلزلة، والمرجف هو الذي يقول: قد آتاكم العدو، وإن لكم عدوا كثيرا، وسراياكم قد قتلت، وهزمت الجنود، وما أشبه ذلك؛ ليدخل الخوف والرعب في قلوب الناس، وسمي ذلك إرجافا؛ لأنه يزلزل ثقة الإنسان بنفسه وبإخوانه؛ ولأنه يزلزل

=

=

أمنه وطمأنينته، قال بعضهم: ولأنه لا ثبات له؛ لأنه قول الكذب، كل هذه المعاني يحتمل أن يكون الإرجاف مشتقا منها أو دالا عليها.

إذن: فالمرجف هو الذي يخبر بما يزلزل طمأنينة المؤمنين من هزيمة أو قتل عدو أو كثرة جنود أو ما أشبه ذلك، ويوجد أناس من هذا النوع في المدينة إذا بعث النبي ﷺ السرايا قاموا يبثون مثل هذه الأقوال بأن السرية قد هزمت، وأسرت، وقتلت، وما أشبه ذلك.

فهل الإرجاف خاص بالمدينة؟

الجواب: المدينة وغيرها سواء، ولكن الإرجاف في المدينة بيان للواقع، والقيد إن كان لبيان الواقع فلا مفهوم له.

قال تعالى: {لنغرينك بهم} اللام في قوله تبارك وتعالى: {لنغرينك} واقعة في جواب القسم المقدر.

فالجملة إذن: جواب القسم وليست للشرط؛ لأن القاعدة أنه إذا اجتمع قسم وشرط فالجواب للسابق منها، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

وقال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{لنغرينك} لنسلطنك عليهم]، وهذا التفسير تفسير باللازم؛ لأن الإغراء معناه: الحث بإزعاج على أن ينكل بهم، ومنه إغراء الإنسان بالعدو، بمعنى أنه يحث عليه بإزعاج ليوقع به ويقتله أو يهزمه وما أشبه ذلك.

قال تعالى: {ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا (٦٠) ملعونين}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ثم لا يجاورونك} يساكنونك {فيها} يعني: في المدينة {إلا قليلا} ثم يخرجون {ملعونين} مبعدين من الرحمة الله]، يعني: نغرينك بهم بالتسلط

=

=

عليهم؛ إما بالتعزير أو بالتأديب أو بالقتل أو بغير ذلك، فإذا ضاقت عليهم المدينة خرجوا؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: {ثم لا يجاورونك} ولم يقل: فلا يجاورنك؛ وذلك لتأخر انتفاء المجاورة عن الإغراء؛ لأن الله تعالى يغريهم بهم فيحصل لهم من التعذيب والتعزير والإهانة ما لا يتمكنون معه من البقاء في المدينة؛ ولهذا جاءت بـ (ثم)، وقوله تعالى: {ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} يحتمل أن المعنى: إلا قليلا من الزمن أو إلا قليلا منهم.

وعلى كلا الاحتمالين فإن قوله سبحانه وتعالى: {ملعونين} حال من الفاعل في {يجاورونك}، وعلى تقدير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هي حال من فاعل حذف مع عامله؛ حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثم يخرجون {ملعونين}]، ولكن الأقرب أن لا نقدر، بل المعنى: {ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا} في حال كونهم ملعونين حال المجاورة، يعني: حتى في بقائهم عندك يكونون ملعونين مطرودين مبعدين لا يألفهم أحد ولا يحنو عليهم.

ثم قال تعالى: {أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أينما ثقفوا} وجدوا {أخذوا وقتلوا تقتيلا}]، {أينما} هذه أداة شرط تفيد العموم في المكان، وفعل الشرط قوله تعالى: {ثقفوا} وجواب الشرط {أخذوا وقتلوا تقتيلا}، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: الحكم فيهم هذا على جهة الأمر به]، الجملة: {أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا} جملة خبرية؛ لأنها شرطية، والجملة الشرطية خبرية، لكنها خبرية بمعنى الإنشاء، أي: بمعنى الأمر والطلب؛ أي: أينما وجدتموهم فخذوهم واقتلوهم.

وفي قوله سبحانه وتعالى: {تقتيلا} المصدر مؤكد دليل على أنهم يقتلون أفرادا

=

=

وجماعات.

وهـذه الآيـة -لا شـك- أن فيهـا وعيـدا لهـؤلاء الـذين جمعـوا هـذه الأوصـاف المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة، فيها وعيد؛ والبحث فيها:

البحث الأول: هل هذه الأوصاف لموصوف واحد أو أنها لأناس متعددين؟

هـل المعنـى أنهـم منـافقون وفي قلـوبهم مـرض ومرجفـون، فالأوصـاف هـذه لموصوف واحد، وصح العطف؛ لأنه من باب عطف الصفة كما في قوله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى}، وهو واحد لا متعدد فالعطف هنا عطف صفات، فهل نقول: إن هذه عطف صفات وأنها لموصوف واحد. أو نقول: إنها عطف أعيان موصوفين ليست لموصوف واحد؟

الجواب: هذا الأخير هو الأصح، وهو الأعم أيضا؛ لأن المنافق قد يكون في قلبه مرض يميل إلى الفاحشة وإلى الزنا، وقد لا يكون، وقد يكون مرجفا وقد لا يكون، وقد يجمع بين النفاق والمرض القلبي والإرجاف، وقد يكون الإنسان في قلبه مرض وليس منافقا، وقد يكون مرجفا وليس منافقا ولا في قلبه مرض، فحينئذ نتبين أن الأولى أن هذا العطف عطف لموصوف على موصوف، وليس عطف على موصوف واحد، يعني: ليس وصفا لموصوف واحد حتى نجعل العطف من باب عطف الصفات بعضها على بعض.

البحث الثاني: هل هؤلاء انتهوا أم لم ينتهوا؟

الجواب: الواقع أن الإغراء لم يحصل؛ ولهذا بقي المنافقون فلا قتلوا ولا

=

سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا (٦٢).

{سُنَّةَ الله} أَيْ سَنَّ الله ذَلِكَ {فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل} مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة فِي مُنَافِقِيهِمْ الْمُرْجَفِينَ الْمُؤْمِنِينَ {وَلَنْ تَجِد لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا} مِنْهُ(١).

=

أخذوا، فهم باقون، فهل نقول: إنهم انتهوا حينما رأوا هذا الوعيد. أو نقول: إنهم لم ينتهوا، لكنه ﷻ عفا عنهم فيما بعد، وأن هذا من باب إخلاف الوعيد، وإخلاف الوعيد من الكرم بخلاف إخلاف الوعد، فأيهما أرجح؟

الجواب: هما قولان للعلماء رحمهم الله: فبعضهم يقول: إنهم لما رأوا هذا الوعيد، وكانوا من أخوف الناس وأرعن الناس انتهوا وتركوا هذا الأمر. وبعضهم قال: إنهم لم ينتهوا، لكن الله ﷻ لم يغر نبيه ﷺ بهم؛ لحكمة اقتضت ذلك.

والذي يظهر لي -والله تعالى أعلم-: أنهم انتهوا؛ لأن المعروف من حال المنافقين أنهم جبناء، وأنهم يخافون ويحذرون؛ ولهذا يحلفون عند الرسول ﷺ بأنهم مؤمنون، ولما تخلفوا عن غزوة تبوك جاؤوا يحلفون ويعتذرون، فهم جبناء، وهم يعلمون أن وعد الله حق، وأنهم لو استمروا في أعمالهم العدوانية هذه لأغرى الله تعالى بهم نبيه ﷺ، وحصل الجلاء، ثم القتل.

(١) قوله تعالى: {سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} [الأحزاب: ٦٢]، أي:"سنة الله وطريقته في منافقي الأمم السابقة أن يؤسَروا ويُقَتَّلوا أينما كانوا".

قال مقاتل:"هكذا كانت سنة الله في أهل بدر: القتل، وهكذا سنة الله في هؤلاء الزناة وفي المرجفين: القتل، إن لم ينتهوا".

قال الطبري: يقول:"{سنة الله في الذين خلوا من قبل} هؤلاء المنافقين الذين في

=

=

مدينة رسول الله ﷺ معه من ضرباء هؤلاء المنافقين، إذا هم أظهروا نفاقهم أن يقتلهم تقتيلا ويلعنهم لعنا كثيرا".

قال الزجاج:"المعنى: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا".

قال الزمخشري:"أى: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا حيثما ثقفوا".

قال البيضاوي:"أي: سن الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا".

قال القرطبي:"أي: سن الله ﷻ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل".

قال ابن كثير:"أي: هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم".

قال السعدي:"أن من تمادى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة".

قال قتادة:"يقول: هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق".

قال السدي:"كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم".

قال يحيى:"أي: من أظهر الشرك قتل، وهذا إذا أمر النبيون بالجهاد".

قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢]، أي:"ولن تجد -أيها النبي- لطريقة الله تحويلا ولا تغييرًا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييرا، فأيقن أنه غير مغير في هؤلاء المنافقين سنته".

=

=

قال مقاتل:"يعني: تحويلا، لأن قوله- ﷻ- حق فى أمر القتل".

قال البيضاوي:"{ولن تجد لسنة الله تبديلا}، لأنه لا يبدلها ولا يقدر أحد أن يبدلها".

قال ابن كثير:"أي: وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير".

قال السعدي:"أي: تغييرًا، بل سنته تعالى وعادته، جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها".

قال السدي:"فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل، فليس على قاتله دية، لأنه مكابر".

قال القرطبي:"قال المهدوي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {سنة} السنة بمعنى: الطريقة، وسنة الله ﷻ نوعان سنة كونية وسنة شرعية:

أما السنة الشرعية فإنها تكون بحسب مصالح العباد وتختلف باختلاف الأمم كما قال تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} [المائدة: ٤٨]، وإن كانت هذه الشرائع كلها تتفق في أصول التوحيد فيما يتعلق بآيات الله تعالى وأسمائه وصفاته، وكذلك في القواعد العامة في الشريعة، وقد أشار الله تعالى إليها في قوله: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون} [الأعراف: ٣٣] هذه الفواحش: ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وأن

=

=

تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وأن تقولوا على الله تعالى ما لا تعلمون.

وهذه الأصول الخمس ذكر أهل العلم رحمهم الله أن جميع الشرائع متفقة عليها، لكن من الشرائع التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان والمكان والأمم، وهذه -أي: السنة الشرعية- لا بد أن تختلف أحكامها بحسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى.

أما السنة الكونية فهي ما يجريه الله تبارك وتعالى قدرا من العقوبات وغيرها، وهذه السنة لا تتبدل ولا تتغير، وإن كان الله ﷻ قد يضاعف العقوبة على بعض الناس دون بعض كما سبق لنا في نساء النبي ﷺ، قال تعالى: {من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين} [الأحزاب: ٣٠]، وقد يجزي الله تعالى بعض العاملين على العمل أكثر من البعض الآخر، كما في هذه الأمة، فإنها أعطيت كفلين من الأجر على من سبقها من الأمم، وكما في أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام الذين قال فيهم الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه".

لكن في العقوبات يقول الله تعالى: {سنة الله} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: سن الله ذلك]، وأفادنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التقدير أن {سنة} منصوب على المصدر المحذوف عامله أي: سننا بهم سنة الله، أي: سننا بهؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة سننا بهم سنة الله تعالى فيمن سبق، فإن كل من نابذ عباد الله تعالى وأولياءه سلط الله عليهم.

وقوله تبارك وتعالى: {سنة الله في الذين خلوا من قبل} و {خلوا} بمعنى: مضوا، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من الأمم الماضية في منافقيهم المرجفين

=

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣).

{يَسْأَلك النَّاس} أَهْل مَكَّة {عَنْ السَّاعَة} مَتَى تَكُون {قُلْ إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد الله وَمَا يُدْرِيك} يُعْلِمك بِهَا أَيْ أَنْتَ لَا تَعْلَمهَا {لعل الساعة تكون} توجد {قريبا}[1].

=

المؤمنين] {ولن تجد لسنة الله تبديلا} منه ولا من غيره، هذا في السنن الكونية. أما الشرعية فيمحو الله تعالى ما يشاء ويثبت، وربما تبدل، لكن سنة الله تعالى الكونية لن تجد لها تبديلا، لا منه ولا من غيره في إنزال العقوبة بمن يستحقها، وإن كانت هذه العقوبة قد تختلف، لكن لا بد للمخالفين من عقوبة، والله تعالى أعلم.

(١) قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ} [الأحزاب: ٦٣]، أي:"يسألك الناس -أيها الرسول- عن وقت القيامة استبعادًا وتكذيبًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {يسألك الناس} يا محمد {عن الساعة} متى هي قائمة؟".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ} [الأحزاب: ٦٣]، أي:"قل لهم: إنما علم الساعة عند الله".

قال الطبري:"قل لهم: إنما علم الساعة {عند الله} لا يعلم وقت قيامها غيره".

قال يحيى:"لا يعلم متى مجيئها إلا الله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا لرسوله ﷺ: أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك. وأرشده أن يرد علمها إلى الله، ﷻ، كما قال له في سورة
=

=

"الأعراف"، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رَدّ علمها إلى الذي يقيمها".

قال الزمخشري:"كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحانا، لأن الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسول الله ﷺ بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا".

قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [الأحزاب: ٦٣]، أي:"وما يدريك -أيها الرسول- لعل زمانها قريب؟".

قال الطبري:"يقول: وما أشعرك يا محمد لعل قيام الساعة يكون منك قريبا. قد قرب وقت قيامها، ودنا حين مجيئها".

قال عون بن عبد الله بن غنية:"{لعلّ} من الله واجب". وروي عن سفيان مثله.

قال يحيى:"أي: أنها قريب".

قال الزمخشري:"ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع، تهديدا للمستعجلين، وإسكانا للممتحنين قريبا شيئا قريبا. أو لأن الساعة في معنى اليوم، أو في زمان قريب".

عن سفيان بن عيينة -من طريق ابن أبي عمر العدني- قال: "كل شيء في القرآن {وما يُدْرِيكَ} فلم يخبره به، وما كان {ما أدْراكَ} فقد أخبره".

عن عبد الله بن عمر: "أنّه كان واقِفًا بعرفة، فنظر إلى الشمس حين تدلّت مثل التُّرْس للغروب، فبكى، واشتدَّ بكاؤه، وتلا قول الله تعالى: {اللهُ الَّذِي أنْزَلَ الكِتابَ بِالحَقِّ والمِيزانَ} إلى {العَزِيزُ}. فقيل له، فقال: ذكرتُ رسول الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا، فقال: «أيها الناس، لم يبقَ مِن دنياكم هذه فيما مضى إلا

=

=

كما بقي مِن يومكم هذا فيما مضى منه»".

قال العثيمين: قول الله تعالى: {يسألك الناس عن الساعة}: {يسألك الناس} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أهل مكة] والصواب: أنه أعم.

وفي قوله تعالى: {يسألك} ولم يقل: سألك. دليل على أن هذا السؤال ما زال مستمرا على رسول الله ﷺ، فيسأله الناس عن الساعة، والسؤال عن الساعة يحتمل أن يكون الحامل عليه التكذيب بها واستبعادها، وهذا يورد من الكفار، وتارة يسأل عنها سؤال استفهام متى تكون؟ مع الإيقان بها، وهذا قد يرد من المؤمنين، وتارة يسأل عنها؛ ليبين للناس أنه لا يمكن العلم بها، كما سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي ﷺ عن الساعة قال: متى الساعة؟ وهو لم يسأل استبعادا وإنكارا ولا استرشادا: متى يكون وقتها؟ ولكن إعلاما بأن وقتها لا يعلمه إلا الله تعالى.

ولكن قد يقول قائل: إن قوله تبارك وتعالى: {يسألك الناس} لا يدخل فيه سؤال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس من الناس، فيجاب عنه: بأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل كان على صورة الناس.

وقوله تعالى: {يسألك الناس عن الساعة} متى تكون؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يجيب بقوله تعالى: {قل إنما علمها عند الله}: {قل} في الجواب، وهذا تلقين من الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله ﷺ بالجواب أن يقول هذا، وإنما لقنه الله عَزَّ وَجَلَّ، ليتبين للناس عامة أن قوله تعالى: {إنما علمها عند الله} صادر من الله تعالى، وليس من تلقاء نفسه حتى يقتنع الناس بذلك ويوقنوا به.

وقوله تعالى: {إنما علمها عند الله} هذه الجملة فيها حصر طريقه {إنما}، يعني: ما علمها إلا عند الله تعالى وحده، وهذا كقوله تبارك وتعالى: {إن الله عنده علم

=

=

الساعة} [لقمان: ٣٤]، فلا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ﷻ، وكل ما قيل عن وقت قيامها من السابقين واللاحقين فما هو إلا تخرص كاذب، نعلم ذلك علم التقين؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: {قل إنما علمها عند الله}، وأعلم الرسل بالله تعالى البشري والملكي محمد ﷺ وجبريل عليه السلام، وكلاهما لا يعلم، فلما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، فإذا كنت أنت تجهل أيها السائل فأنا مثلك أجهل منك.

وقوله تعالى: {قل إنما علمها عند الله} وهذا كما يشمل الساعة العامة التي تقوم ويحشر الناس فيها من قبورهم لرب العالمين، يشمل أيضا الساعة الخاصة التي هي موت كل إنسان، فإن من مات قامت قيامته، وقامت ساعته، لأنه انتهى من الدنيا إلى دار الجزاء، ويدل لذلك قوله تبارك وتعالى: {وما تدري نفس بأي أرض تموت} [لقمان: ٣٤]، فما وجه الدلالة من أنه لا يدري أحد متى يموت؟

الجواب: وجه الدلالة أنه إذا انتفى علمه بأي أرض يموت ففي أي زمن من باب أولى، وذلك لأن الأرض يتمكن الإنسان أن يذهب إليها أو لا يذهب، والزمن ليس له فيه تصرف، فإذا انتفى علمه بما له فيه تصرف، وهو الانتقال من مكان لآخر فانتفاء علمه بما لا يتصرف فيه من باب أولى.

وقوله ﷻ: {وما يدريك} قال المصنف: [يعلمك بها] أي: أنت لا تعلمها، {وما يدريك}: (ما) يحتمل أن تكون نافية يعني: لا يدريك عنها شيء، ويحتمل أن تكون استفهامية يعني: أي شيء يعلمك بها حتى تسأل عنها، وأيا كان، فالله تعالى ينفي علم رسوله ﷺ بها، ويقول له: {وما يدريك}.

وقوله تعالى: {وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا} قال المصنف رحمه الله: [{لعل

=

=

الساعة تكون} توجد {قريبا}]، ظاهر صنيع المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أو المصنف أن قوله تعالى: {لعل الساعة} جملة مستأنفة لا علاقة لها بالفعل الذي قبلها، وأنها جملة مستأنفة من الله تعالى يعني: لا تدري عنها أنت، ولكنها قريبة.

وقوله تعالى: {لعل الساعة تكون قريبا} و {لعل} هنا للتوقع أي: أنها متوقعة، وذهب بعض المعربين إلى أن قوله سبحانه وتعالى: {لعل الساعة} مفعول لقوله تعالى: {يدريك} مفعول ثان وثالث، لكنه علق بـ {لعل}؛ لأن (لعل) من المعلقات يعني: وما يدريك عن توقع قربها، يعني: لا تدري عن قربها أيضا، ومن لم يدر عن قربها لا يدري عن وقوعها من باب أولى، و (لعل) في القرآن تكون للتأكيد، وقد تكون للتعليل أيضا، مثل {فاجتنبوه لعلكم تفلحون} [المائدة: ٩٠]، وما أشبهها، لكن لا تكون للرجاء، وبعضهم قال: تكون للرجاء باعتبار المخاطب لا باعتبار المتكلم.

وأيا كان، فالله عَزَّ وَجَلَّ نفى أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عالما بها أو بقربها، وإذا انتفى علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فعلم غيره من باب أولى أن ينتفي.

ثم إن السؤال عن الساعة ليس بذي قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة ما أشار إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال حين سأله رجل عن الساعة، قال: "انظر ماذا أعددت لها" هذه هي القيمة، أما متى تأتي أو لا تأتي فليس ذا قيمة كبيرة، لكن القيمة الحقيقية أن ينظر الإنسان ماذا أعد لها.

ومن ثم أعقب الله تعالى هذا بقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا} [الأحزاب: ٦٤] إلخ، يعني: احذر أن تقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء، إن الله تعالى لعن الكافرين.

إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤).

{إِنَّ الله لَعَنَ الْكَافِرِينَ} أَبْعَدَهُمْ {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} نَارًا شَدِيدَة يَدْخُلُونَهَا.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥).

{خَالِدِينَ} مُقَدَّرًا خُلُودهمْ {فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا} يَحْفَظهُمْ عَنْهَا {وَلَا نَصِيرًا} يَدْفَعهَا عَنْهُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ} [الأحزاب: ٦٤]، أي:"إن الله طرد الكافرين من رحمته في الدنيا والآخرة".

قال الطبري: يقول: "إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم عنه".

قال ابن كثير:"أي: أبعدهم عن رحمته".

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة".

قوله تعالى: {وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا} [الأحزاب: ٦٤]، أي:"وأعدَّ لهم في الآخرة نارًا موقدة شديدة الحرارة".

قال الطبري:"يقول: وأعد لهم في الآخرة نارا تتقد وتتسعر ليصليهموها".

قال مقاتل:"يعني: وقودا".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة".

قال الزمخشري:"السعير: النار المسعورة الشديدة الإيقاد".

عن سعيد بن جبير، قال: " السعير: وادي من فيح في جهنم".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الأحزاب: ٦٥]، أي:"ماكثين فيها أبدًا".

عن سعيد بن جبير: {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قال الطبري:"يقول: ماكثين في السعير أبدا إلى غير نهاية".

=

=

قال يحيى:"لا يموتون ولا يخرجون منها".

قال ابن كثير:"أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها".

قوله تعالى: {لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [الأحزاب: ٦٥]، أي:"لا يجدون وليًّا يتولاهم ويدافع عنهم، ولا نصيرًا ينصرهم".

قال الطبري:"{لا يجدون وليا} يتولاهم، فيستنقذهم من السعير التي أصلاهموها الله {ولا نصيرا} ينصرهم، فينجيهم من عقاب الله إياهم".

قال يحيى:"{لا يجدون وليا} يمنعهم من العذاب، {ولا نصيرا} ينصرهم".

قال ابن كثير:"أي: وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه".

قال العثيمين: قول الله ﷻ: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا} اللعن قال أهل العلم رحمهم الله: معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهذه جملة مؤكدة بـ (إن)، وقوله تعالى: {الكافرين} أي: الكافرين بالله تعالى، وبما يجب الإيمان به.

وقوله تعالى: {لعن الكافرين} أبعدهم عن الرحمة.

ثم قال سبحانه وتعالى: {وأعد لهم سعيرا} يعني: ليسوا مبعدين عن الرحمة فقط، وسالمين من الإثم، بل إنهم جمع لهم بين الإبعاد عن رحمة الله وبين العقوبة، {وأعد لهم} أي: هيأ لهم {سعيرا}، يقول: نارا شديدة يدخلونها، نارا يسعرون بها -والعياذ بالله- فهم وقودها والحجارة، نارا تطلع على الأفئدة، تصل إلى قلوبهم التي في أجوافهم -والعياذ بالله- وهذه النار ليسوا باقين فيها يوما أو يومين أو سنة أو سنتين.

يقول الله تعالى: {خالدين فيها أبدا} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مقدرا خلودهم] أشار

=

=

المصنف رَحِمَهُ اللهُ إلى أن الحال هنا حال مقدرة؛ لأن الخلود ليس حال كفرهم، ولكن حال مجازاتهم يوم القيامة، والحال هذه حال مقدرة {خالدين فيها أبدا}.

و {أبدا} هذه تفيد استمرار الزمن في المستقبل استمرار الزمن في المستقبل، وأزلا تفيد استمراره في الماضي؛ ولهذا نقول: إن علم الله تعالى علم ثابت لله تعالى أزلا وأبدا.

وقوله تعالى: {خالدين فيها أبدا} هذه إحدى آيات ثلاث صرح الله تعالى فيها بأبدية خلود أهل النار، والآية الثانية في سورة النساء: {إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا} [النساء: ١٦٨ - ١٦٩]، والآية الثالثة في سورة الجن: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣].

وفي بعض هذه الآيات -بل في واحدة منها- رد واضح على قول من قال: إن النار غير مؤبدة؛ ولهذا كان عقيدة أهل السنة والجماعة أن النار مؤبدة كالجنة، وليس في هذا منافاة لرحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وحكمته، ولا فيها إبطال لقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: "إن رحمتي سبقت غضبي"؛ لأن هذه العقوبة قد أنذر بها أولئك الذين فعلوا ما يستحقونها، وقامت عليهم الحجة بها، فليس لهم عذر، فيكونون قد عوملوا بمقتضى العدل فعقوبتهم هذه عدل من الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس فيها ظلم، ومن أنذر بشيء ففعل السبب الموصل إليه باختياره فهو الذي جنى على نفسه.

فائدة: قوله تعالى: {خالدين فيها أبدا} كيف قال تعالى: {فيها} و {سعيرا} مذكر؟

=

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦).

{يَوْم تُقَلَّب وُجُوههمْ فِي النَّار يَقُولُونَ يَا} للتنبيه {ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا[1]}.

=

الجواب: لأن المراد بالسعير هنا سعير النار، وهي مؤنثة.

يقول الله ﷻ: {خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا}، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{لا يجدون وليا} يحفظهم عنها، {ولا نصيرا} يدفعها عنهم] {لا يجدون وليا} يتولاهم بحصول المطلوب، {ولا نصيرا} ينصرهم بدفع المكروه فهم لا يجدون أحدا يوم القيامة يتولاهم، ويحصل لهم مطلوبهم بحمايتهم من النار وإدخالهم الجنة، ولا يجدون أحدا ينصرهم من هذه النار ويدفعهم عنها ويخرجهم منها بعد الدخول؛ لأن هؤلاء الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين، أما العصاة من المؤمنين فإنهم قد يجدون شفعاء في ذلك اليوم يشفعون فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ} [الأحزاب: ٦٦]، أي:"يوم تُقَلَّب وجوه الكافرين في النار".

قال الطبري:"لا يجد هؤلاء الكافرون وليا ولا نصيرا في يوم تقلب وجوههم في النار حالا بعد حال".

قال ابن كثير:"أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم".

قال الزمخشري:"معنى تقليبها: تصريفها في الجهات، كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة. أو تغييرها عن أحوالها

=

=

وتحويلها عن هيئاتها. أو طرحها في النار مقلوبين منكوسين. وخصت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده".

قوله تعالى: {يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا} [الأحزاب: ٦٦]، أي:"يقولون نادمين متحيِّرين: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا رسوله في الدنيا، فكنا من أهل الجنة".

قال الطبري:"{يقولون} وتلك حالهم في النار: {يا ليتنا أطعنا الله} في الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاءنا به عنه من أمره ونهيه، فكنا مع أهل الجنة في الجنة، يا لها حسرة وندامة، ما أعظمها وأجلها".

قال ابن كثير:"يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولا} [الفرقان: ٢٧ – ٢٩]، وقال تعالى: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر: ٢]، وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا".

قال العثيمين: قول الله تعالى: {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا}: {يوم} ظرف، والظرف والجار والمجرور لا بد له من عامل الذي يسمى المتعلق؛ ويحتمل أن العامل قوله تعالى: {وأعد لهم سعيرا}، ويحتمل أنها {خالدين}، ويحتمل أنها {يجدون}، فتكون تنازعت فيها العوامل الثلاثة، ويحتمل أن العامل محذوف أي: اذكر يوم تقلب وجوههم، وكل هذا

=

=

محتمل، وكل هذا هو الواقع.

وقوله تعالى: {تقلب وجوههم} أي: تصرف من جهة إلى جهة كما يقلب اللحم على النار لينضج، والعياذ بالله.

وفي قوله تعالى: {يوم تقلب} ولم يقل: يوم يقلبون؛ أن هذا الأمر يقع منهم على سبيل الكره -والعياذ بالله- وأنه ليس باختيارهم، تقلب وجوههم في النار.

وقوله تعالى: {يقولون} يحتمل أنها حال وهو الأقرب من الهاء في {وجوههم} يعني: تقلب وهم يتحسرون هذا التحسر {يقولون ياليتنا}، ويحتمل أن تكون استئنافية، أي: حكاية الله سبحانه وتعالى لهم عنهم ما يقولون {يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا}.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(يا) للتنبيه] وليست للنداء، لأن ياء النداء لا تدخل إلا على من يصح نداؤه حقيقة أو حكما، و (ليت) لا يصح نداؤها، لأنها حرف، لأن: (ليت) للتمني.

يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها [للتنبيه]، وقيل: إنها نداء لمنادى محذوف يناسب المقام: {يقولون ياليتنا أطعنا الله} المنادى المحذوف تقديره: يا ربنا ليتنا أطعنا الله تعالى وأطعنا الرسول ﷺ، فعلى الأول يكون التنبيه هنا يراد به زيادة التحسر، كأنهم ينبهون أنفسهم لهذا التمني ألا يتمنوه، وعلى الثاني يكون المنادى محذوفا للمبادرة بذكر التمني دون ذكر من وجهوا الخطاب إليه، وأيا كان فإنه يدل على شدة تحسرهم.

وقوله تعالى: {ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} هذا تمني ما يتعذر حصوله في ذلك الوقت، وهذا أشد تعذرا من قول الشاعر:

=

=

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وقوله تعالى: {ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا}: {أطعنا} هي أصلا بلا ألف فنقول: أطعن الله وأطعن الرسول، ولا تقل: إنه يجب أن أشير إلى الألف؛ لئلا تشتبه النون، وأما قوله تعالى: {وقالا الحمد لله} [النمل: ١٥]، فليس فيها شيء، تحذف الألف لالتقاء الساكنين.

فهنا أيضا نحذف الألف لالتقاء الساكنين، ولا نقول: إن بحذفنا إياها يشتبه ضمير المتكلم بضمير النسوة، لأن السياق يدل على المعنى، فالألف موجودة خطا، لكن لا ينطق بها لفظا، وكذلك في قوله تعالى: {أطعنا الله} موجودة خطا، لكن في اللفظ لا تنطق بها، وجمثله: {دعوا الله} [الأعراف: ١٨٩]، تحذف الألف.

فقوله تعالى: {ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا}: {الرسولا} بالألف، والألف هنا للإطلاق، وتقدم في هذه السورة نظيرها: {وتظنون بالله الظنونا} [الأحزاب: ١٠]، وسيأتي بعدها أيضا كلمة أخرى {فأضلونا السبيلا}، فهذه ثلاث كلمات فيها ألف تسمى ألف الإطلاق، وهي ثلاث ألفات فيها ثلاث قراءات: قراءة بإثبات الألف وصلا ووقفا، وقراءة بحذفها وصلا ووقفا، وقراءة بحذفها وصلا وإبقائها وقفا.

ففي قوله تعالى: {ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا (٦٦) وقالوا}، يجوز أن نقرأها على الثلاث -وكلها سبعية- على النشر: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا)، (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا)، هذه قراءة، أي: أننا أثبتنا الألف وصلا ووقفا.

=

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧).

{وَقَالُوا} أَيْ الْأَتْبَاع مِنْهُمْ {رَبّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتنَا} وَفِي قِرَاءَة سَادَاتنَا جَمْع الْجَمْع {وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} طَرِيق الْهُدَى.

رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨).

{رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنْ الْعَذَاب} أَيْ مِثْلَيْ عذابنا {والعنهم} عذبهم {لعنا كثيرا} عدده وفي قراءة بالموحدة أي عظيما(١).

=

والقراءة الثانية: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول وقالوا)، (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول * وقالوا)، بحذف الألف وصلا ووقفا.

القراءة الثالثة: (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول * وقالوا)، (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا)، وهذه التي تثبتها وقفا لا وصلا.

وقوله تعالى: {أطعنا الله وأطعنا الرسولا}: (الرسول) هنا اسم جنس، يشمل كل رسول أرسل إلى هؤلاء، لأن أهل النار ليسوا مختصين بأمة محمد ﷺ، بل بجميع الأمم، فتقصدون بالرسول الجنس، وبالله تعالى واحدا.

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} [الأحزاب: ٦٧]، أي:"وقال الكافرون يوم القيامة: ربنا إنا أطَعْنا أئمتنا في الضلال وكبراءنا في الشرك، فأزالونا عن طريق الهُدى والإيمان".

قال الطبري: يقول: " وقال الكافرون يوم القيامة في جهنم: ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة وكبراءنا في الشرك، فأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى والإيمان بك والإقرار بوحدانيتك وإخلاص طاعتك في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا

=

=

الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئا، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء".

قال مقاتل:"فهذا قول الأتباع من مشركي العرب من أهل مكة قالوا: {ربنا إنا أطعنا سادتنا}، نزلت في اثني عشر رجلا وهم المطعمون يوم بدر فيهم أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، {وكبراءنا}، يعني: ذوي الأسنان منا فى الكفر، {فأضلونا السبيلا}، يعني: المطعمين في غزوة بدر والمستهزئين من قريش، فأضلونا عن سبيل الهدى، يعنى: عن التوحيد".

عن قتادة، قوله: " {ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا}، أي: رؤوسنا في الشر والشرك".

قال ابن زيد:"هم رءوس الأمم الذين أضلوهم، قال: سادتنا وكبراءنا واحد".

وقال طاووس: " {سادتنا}: يعني: الأشراف، و {كبراءنا}: يعني العلماء".

قال الزمخشري:"{ساداتنا}: هم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم".

قال النحاس:"وكان في هذا زجر عن التقليد".

قوله تعالى: {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ} [الأحزاب: ٦٨]، أي:"ربنا عذِّبهم من العذاب مثلَيْ عذابنا الذي تعذبنا به".

عن قتادة:" {رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ}، يعني بذلك جهنم".

قال الطبري: يقول: " يقول: عذبهم من العذاب مثلي عذابنا الذي تعذبنا".

قال السمعاني:"أي: عذبهم ضعفي عذاب غيرهم. وقيل: عذبهم عذاب الدنيا والآخرة، والأول أولى".

قال ابن كثير:"أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا".

=

=

قال الزمخشري:"ضعفين ضعفا لضلاله وضعفا لإضلاله: يعترفون، ويستغيثون، ويتمنون، ولا ينفعهم شيء من ذلك".

قال مقاتل:"يعنون القادة والرؤوس من كفار قريش".

قوله تعالى: {وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٦٨]، أي:"واطردهم من رحمتك طردًا شديدًا".

قال الطبري:"يقول: واخزهم خزيا كبيرا".

قال مقاتل:"يعني: عظيما، يعني: اللعن على أثر اللعن".

قال السمعاني:"أي: مرة بعد مرة".

وقرئ: «لعنا كثيرا»، من الكثرة. قال الزجاج:"ومعناهما قريب".

قال الزمخشري:"وقرئ: «كثيرا»، تكثيرا لإعداد اللعائن. و «كبيرا»، ليدل على أشد اللعن وأعظمه".

عن عبيد الله بن أبي رافع، في تسمية مَنْ شهد مع علي، رضي الله عنه: "الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة، وهو الذي كان يقول عند اللقاء: يا معشر الأنصار، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} ؟".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا} [{وقالوا} أي: الأتباع منهم]، كما قال المصنف رحمه الله.

قوله تعالى: {ربنا} يعني: يا رب، فحرف النداء محذوف.

يقول المصنف رحمه الله: [{إنا أطعنا سادتنا} وفي قراءة] يعني: سبعية ["ساداتنا" جمع الجمع] فسادة جمع سيد، وسادات جمع سادة، فهي جمع الجمع، ففيها

=

=

قراءتان: {سادتنا} و"ساداتنا"، وإنما جمعت؛ لكثرة الأسياد في الأمم.

والسيد: هو ذو الشرف والقدر في قومه المقدم فيهم، هذا السيد.

أما قوله تعالى: {وكبراءنا} فهم الذين فوق الأسياد، كالأمراء ونحوهم، فالناس لهم أسياد مطاعون، ولهم كبراء فوق هؤلاء، فتقولون: {إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا} الصنفين جميعا، وبطاعتهم {فأضلونا السبيلا} أي: فبسبب طاعتنا لهم أضلونا السبيل، والضلال هنا بمعنى: الضياع عن الصواب وعن الحق، أو التيهان، يعني: تهنا السبيل، والمراد بالسبيل: الطريق الذي هو طريق الله تعالى، فـ (أل) هنا للعهد الذهني أي: السبيل المعهود الموصل إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: {ربنا آتهم ضعفين من العذاب} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ في السبيل: [طريق الهدى {ربنا آتهم ضعفين من العذاب} أي: مثلي عذابنا...] الله أكبر! كانوا في الدنيا يجلونهم ويحترمونهم ويعظمونهم ويؤثرونهم على أنفسهم، وفي الآخرة على العكس، قال تعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا} [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]، فالمتبوعون يتبرؤون، وهؤلاء أيضا يشتمون ويلعنون، يقولون: {ربنا آتهم ضعفين من العذاب}.

وهم بهذا الدعاء ليسوا جائرين؛ لأنهم أرادوا بالضعفين أن هؤلاء الكبراء ضلوا وأضلوا، فيكون عليهم إثمان: إثم الضلال بأنفسهم، وإثم الإضلال بغيرهم، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"، وقال تعالى: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم} [العنكبوت: ١٣]، فدعاء هؤلاء الأتباع دعاء عدل وليس دعاء جور، لأن هؤلاء

=

=

المتبوعين مستحقون للعذاب مرتين.

قوله تعالى: {ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والعنهم} عذبهم]، ففسر اللعنة بالعذاب، لأنهم في النار، فهم مطرودون عن رحمة الله، ولكن لو أن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبقاها على ما هي عليه لكان حقا، فتقول: العنهم، يعني: أبعدهم إبعادا كبيرا عن رحمتك؛ حتى لا ترحمهم يوما من الدهر.

وقوله تعالى: {كبيرا} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ["كثيرا" عدده، وفي قراءة بالموحدة أي: عظيما] ففيها قراءتان: "والعنهم لعنا كثيرا" وهذا باعتبار الكمية، و {لعنا كبيرا} باعتبار الكيفية أي: عظيما.

فإن قيل: كيف يكون فيها قراءتان والقول واحد صادر من هؤلاء؛ فهم إما أن يكونوا قالوا: كبيرا. وإما أن يكونوا قالوا: كثيرا. والله عَزَّ وَجَلَّ يحكي عنهم؟

بمعنى: أن الله يحكي عن هؤلاء الكفار أنهم يقولون: {والعنهم لعنا كبيرا} وعلى القراءة الثانية: "كثيرا" فكيف يحكي قولين عن قائل واحد، يعني: هم إما قالوا: (كبيرا) أو قالوا: (كثيرا)؟

فالجواب: على أحد وجهين: إما أن بعضهم يقول: كثيرا. والآخر يقول: كبيرا. وإما أنهم يقولون أحيانا: {كبيرا}، وأحيانا: "كثيرا"؛ ولا يحتمل أن الواحد منهم يجمع بينهما في كلمة واحدة بمعنى: أن يقول: والعنهم لعنا كبيرا كثيرا؛ لأنه ما حكى هذا، بل الكلمة واحدة، إما (كبيرا) وإما (كثيرا).

ولهذا لا نجمع بين الكلمتين، لا في الآية هذه، ولا في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين علم أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا" وفي لفظ: "كبيرا"، فلا نجمع بينهما

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا (٦٩).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا} مَعَ نَبِيّكُمْ {كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى} بِقَوْلِهِمْ مَثَلًا مَا يَمْنَعهُ أَنْ يَغْتَسِل مَعَنَا إلَّا أَنَّهُ آدَر {فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُوا} بِأَنْ وَضَعَ ثَوْبه عَلَى حَجَر لِيَغْتَسِل فَفَرَّ الْحَجَر بِهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْن مَلَأ مِنْ بَنِي إسْرَائِيل فَأَدْرَكَهُ مُوسَى فَأَخَذَ ثَوْبه فَاسْتَتَرَ بِهِ فَرَأَوْهُ وَلَا أُدْرَة بِهِ وَهِيَ نَفْخَة فِي الْخُصْيَة {وَكَانَ عِنْد الله وَجِيهًا} ذَا جَاه وَمِمَّا أُوذِيَ بِهِ نَبِيّنَا ﷺ أَنَّهُ قَسَم قَسْمًا فَقَالَ رَجُل هَذِهِ قِسْمَة مَا أُرِيد بِهَا وَجْه الله تَعَالَى فَغَضِبَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ يَرْحَم الله مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا فَصَبَرَ رواه البخاري[1].

=

ونقول: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا كبيرا. بل نقول أحد اللفظين؛ لأن السنة لم ترد بالجمع بينهما، وكذلك هنا في القرآن لا يجوز لأحد أن يقول: والعنهم لعنا كثيرا كبيرا، هذا حرام؛ لأنه إذا قال ذلك فقد زاد في القرآن، فنقول إما هذا وإما هذا.

وقوله تعالى: {ضعفين} يقال ضعف. ويقال: ضعفين، بمعنى واحد.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأحزاب: ٦٩]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله".

قال الأعمش عن خيثمة:"ما تقرؤون من القرآن {يا أيها الذين آمنوا}، فإن في التوراة "يا أيها المساكين".

=

=

قوله تعالى: {لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا} [الأحزاب: ٦٩]، أي:"ا تؤذوا رسول الله بقول أو فعل، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا نبيَّ الله موسى، فبرَّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور".

قال الطبري: يقول:"لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه منكم، ولا بفعل لا يحبه منكم، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله فرموه بعيب كذبا وباطلا {فبرأه الله مما قالوا} فيه من الكذب والزور بما أظهر من البرهان على كذبهم".

وفيما آذوا به رسوله محمد -ﷺ-، قولان:

أحدهما: قولهم: زيد بن محمد، حكاه النقاش.

الثاني: أن النبي -ﷺ-قسم قسمًا، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي -ﷺ- فغضب، وقال: «رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر». قاله أبو وائل.

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود، قال: قَسَمَ رسول الله ﷺ قَسْمًا، فقال رجل: إن هذه لَقسمة ما أُريد بها وجه الله. فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فاحمرَّ وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى؛ لقد أُوذِي بأكثر مِن هذا فصبر».

واختلف أهل التفسير في الأذى الذي أوذي به موسى الذي ذكره الله في هذا الموضع؛ على أقوال:

أحدها: أنهم رَمَوهُ بالسحر والجنون. حكاه الماوردي.

الثاني: أنهم رموه بأنه آدر. قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن زيد، ورواه أبو هريرة عن رسول الله -ﷺ-.

آدر: أي: عظيم الخصيتين. والأدرة -بالضم- نفخة في الخصية، يقال: رجل آدر

=

=

بين الأدر -بفتح الهمزة والدال-، وهي التي تسميها الناس القيلة.

قال ابن عباس:"قال له قومه: إنك آدر، فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشتد بثيابه وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل، قال: فرأوه ليس بآدر، قال: فذلك قوله: {فبرأه الله مما قالوا}".

قال ابن عباس:"كان أذاهم موسى أنهم قالوا والله ما يمنع موسى أن يضع ثيابه عندنا إلا أنه آدر، فآذى ذلك موسى، فبينما هو ذات يوم يغتسل وثوبه على صخرة، فلما قضى موسى غسله وذهب إلى ثوبه ليأخذه انطلقت الصخرة تسعى بثوبه وأنطلق يسعى في أثرها حتى مرت على مجلس بني إسرائيل وهو يطلبها، فلما رأوا موسى ﷺ متجردا لا ثوب عليه قالوا: ولله ما نرى بموسى بأسا، وإنه لبريء مما كنا نقول له فقال الله: {فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها}".

عن الحسن، وقتادة، في قوله تعالى: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا} [الأحزاب: ٦٩] قال: إن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة فلا يستترون، وكان موسى رجلا حييا لا يفعل ذلك، فكانوا يقولون ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، فاغتسل يوما ووضع ثوبه على حجر فسعى الحجر بثوبه فأتبعه موسى يسعى خلفه ويقول: «ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى مر على بني إسرائيل فنظروا إليه فرأوه بريئا مما كانوا يقولون، فأدرك الحجر فأخذ ثوبه".

وقال ابن زيد:"كان موسى رجلا شديد المحافظة على فرجه وثيابه، قال: فكانوا يقولون: ما يحمله على ذلك إلا عيب في فرجه يكره أن يرى، فقام يوما يغتسل في الصحراء فوضع ثيابه على صخرة، فاشتدت بثيابه، قال: وجاء يطلبها عريانا حتى

=

=

اطلع عليهم عريانا، فرأوه بريئا مما قالوا، وكان عند الله وجيها، قال: والوجيه في كلام العرب: المحب المقبول".

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: " {لا تكونوا كالذين آذوا موسى}، قال: قالوا هو آدر قال: فذهب موسى يغتسل، فوضع ثيابه على حجر فمر الحجر بثيابه فتبع موسى قفاه، فقال: ثيابي حجر. فمر بمجلس بني إسرائيل، فرأوه؛ فبرأه الله مما قالوا (وكان عند الله وجيها}".

الثالث: أنهم وصفوه بأنه أبرص.

روي أبو هريرة عن النبي -ﷺ-، أنه قال: "إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا بموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملإ من بين إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا}".

الرابع: أنهم ادَّعَوا عليه قتل هارون أخيه.

روي ابن عباس عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن:"صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته وكان أشد حبا لنا منك وألين لنا منك، فآذوه

=

=

بذلك، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني إسرائيل، وتكلمت الملائكة بموته، حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه، فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرخم؛ فجعله الله أصم أبكم".

عن عبد الله بن مسعود، وناس من الصحابة -من طريق السُّدِّيّ، وعن مرة- وعبد الله بن عباس -من طريق السُّدِّيّ، عن أبي مالك-: "أنّ الله أوحى إلى موسى: إنِّي مُتَوَفٍّ هارون، فائْتِ به جبلَ كذا وكذا. فانطلقا نحو الجبل، فإذا هم بشجرة وبيتٍ فيه سريرٌ عليه فرشٌ وريح طيب، فلما نظر هارون - عليه السلام - إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه، قال: يا موسى، إنِّي أُحِبُّ أن أنام على هذا السرير. قال: نمْ عليه. قال: نمْ معي. فلما ناما أخذ هارونَ الموتُ، فلما قُبض رُفع ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، ورُفع السرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قتَل هارونَ، وحسده حبُّ بني إسرائيل له. وكان هارون أكفَّ عنهم وألْيَنَ لهم، وكان موسى فيه بعض الغلظة عليهم، فلمّا بلغه ذلك قال: ويحكم، إنّه كان أخي، أفتروني أقتله! فلما أكثروا عليه قام يصلي ركعتين، ثم دعا الله، فنُزِل بالسرير، حتى نظروا إليه بين السماء والأرض، فصدَّقوه".

الخامس: أن قارون استأجر بغيا لتقذف موسى بنفسها على ملأ من بني إسرائيل فعصمها الله تعالى وبرأ موسى من ذلك، قاله أبو العالية.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن بني إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به، فبرأه الله مما آذوه به. وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم: إنه أبرص. وجائز أن يكون كان ادعاءهم عليه قتل أخيه هارون.

=

=

وجائز أن يكون كل ذلك؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا".

وقال ابن كثير: "يحتمل أن يكون الكل مرادًا، وأن يكون معه غيره".

قوله تعالى: {وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا} [الأحزاب: ٦٩]، أي:"وكان عند الله عظيم القدر والجاه".

قال الطبري: "يقول: وكان موسى عند الله مشفعا فيما يسأل ذا وجه ومنزلة عنده بطاعته إياه".

عن الحسن، قوله:"{وكان عند الله وجيها}، قال: مستجاب الدعوة".

قال ابن عباس:"كان حظيًّا عند الله، لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه".

قال ابن زيد:"الوجيه -في كلام العرب-: المحب المقبول".

قال مقاتل:"يعنى: مكينا".

عن سنان، عمن حدثه في قوله: " {وكان عند الله وجيها}، قال: ما سأل موسى عليه السلام ربه شيئا قط إلا أعطاه إياه إلا النظر".

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ موسى بن عمران كان إذا أراد أن يدخل الماء لم يُلْقِ ثوبه حتى يواري عورتَه في الماء».

قال العثيمين: قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى} تقدم الكلام مرارا وتكرارا على قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا} على كونها صدرت بالنداء، وعلى أن فيها وصف الإيمان.

قوله تعالى: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى}: {كالذين} الكاف هنا اسم بمعنى: مثل، فهي خبر (تكون) {كالذين آذوا موسى}، ولكنهم آذوه بدون ضرر ما

=

=

أضروا به، بل آذوه فقط.

وهذه الآية لها صلة بما سبق في قوله تعالى: {إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة} [الأحزاب: ٥٧].

وفي قوله تعالى: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى} فيها تحذير، وفيها تسلية، أما التحذير فللمؤمنين؛ لأنهم إذا آذوا نبيهم استحقوا ما استحقه من آذوا موسى عليه السلام، وفيها تسلية للرسول ﷺ؛ لأنه إن أوذي فقد أوذي من قبله؛ ولهذا ثبت عنه أنه ﷺ قال: "رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من ذلك فصبر".

وقوله تعالى: {لا تكونوا كالذين آذوا موسى} هو موسى بن عمران ﷺ أفضل أنبياء بني إسرائيل؛ وبماذا آذوه؟

قال المصنف رحمه الله: [بقولهم مثلا: ما يمنعه أن يغتسل معنا إلا أنه آدر]، فهم يؤذونه بغير هذا الكلام، ويؤذونه بالفعل أيضا، لكن المصنف رحمه الله قال مثلا، فموسى عليه الصلاة والسلام على ما فيه من الشدة كان حييا، وكان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ولكنه يغتسل وحده، لا يغتسل معهم، ولا يتعرى، فقال بنو إسرائيل: لماذا يشذ هذا الرجل عنا؟! لولا أن فيه آفة برص أو أدرة ما انفرد عنا، والآدر كبير الخصيتين، فيكون هذا سبب أنه كان يغتسل وحده، أو فيه آفة فيه برص أو غير ذلك، وإلا كان يغتسل مع الناس.

فأراد الله عز وجل أن يتبين لبني إسرائيل أن الرجل من أحسن خلق الله تعالى وأسلمهم، فاغتسل ذات يوم وحده ووضع ثوبه على حجر، ولما خرج ليلبسه فر الحجر بثوبه، فجعل يلحقه يقول: "ثوبي حجر، ثوبي حجر" يكلم ويخاطب، ولكن الحجر مأمور بأمر الله عز وجل، فما وقف حتى وصل ملأ من بني إسرائيل،

=

=

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يمشي وراءه عريانا، فلما وصل بني إسرائيل رأوا الرجل، وإذا الرجل سليم ليس فيه شيء أبدا، بل من أحسن خلق الله تعالى وأسلمهم من العيب، ووقف الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وجعل يضرب الحجر بعصاه حتى صار فيه أثر من ضرب العصا، وإنما ضرب الحجر؛ لأنه لما عمل عمل العاقل بهربه بالثوب استحق تأديب العاقل، وإلا فالحجر لا يستفيد.

ولهذا الآن صار لنا فيه نوع من التأسي بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يعثر الصبي بحجر، نقول له: تعال! تريد أن نضربه؟ فإذا ضربت الحجر يهدأ الصبي ويقف عن البكاء، لكن شتان ما بين المسألتين، نقول: فيه نوع من الأصل.

فالخلاصة: أن موسى عليه الصلاة والسلام أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يبين لبني إسرائيل أنه ليس كما قالوا: وأنه سليم، وسيأتي في الفوائد ما في هذه القصة من الحكمة.

وقوله تعالى: {فبرأه الله مما قالوا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأن وضع ثوبه على حجر ليغتسل ففر الحجر به حتى وقف بين ملأ من بني إسرائيل فأدركه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فأخذ ثوبه، فاستتر به فرأوه لا أدرة به]، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي نفخة في الخصية] فرأوا أنه عليه الصلاة والسلام سليم.

وقوله تعالى: {فبرأه الله مما قالوا}، أفادنا سبحانه وتعالى بقوله: {مما قالوا} أن الأذية التي أشار الله تعالى إليها هي قول.

وقوله تعالى: {مما قالوا}: (ما) اسم موصول، والعائد محذوف تقديره: مما قالوه.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وكان عند الله وجيها} أي: ذا جاه] والجاه بمعنى: القدر وعلو المنزلة، فكان موسى عليه الصلاة والسلام وجيها عند الله تعالى، يعني: ذا

=

=

قدر ومنزلة رفيعة، وقد وصف الله تعالى غيره من الأنبياء بالوجاهة، مثل عيسى عليه السلام، فقال تعالى: {وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين (٤٥) ويكلم الناس في المهد وكهلا} [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، لكن إذا كان موسى عليه السلام وجيها عند الله تعالى وعيسى عليه السلام، فمحمد عليه الصلاة والسلام أعظم جاها منه؛ لأنه أفضل الرسل.

ولكن لا يلزم من الجاه أن يتوسل الإنسان بجاه النبي ﷺ إلى الله تعالى؛ لأن جاه النبي ﷺ قدر ومنزلة خاصة بالنبي ﷺ، فلا تنتفع بجاهه؛ لأن مجرد وجاهة النبي ﷺ عند الله تعالى لا تنفع أحدا من الناس؛ ولهذا القول الراجح من أقوال أهل العلم رحمهم الله: "أن التوسل بجاه النبي ﷺ محرم".

فإن قال قائل: هل قراءة: "وكان عبد الله وجيها" شاذة؟ وإن احتجوا بها على نفي العندية، فماذا يقال لهم؟ وكيف نرد على نفي العندية والقرب من الله عز وجل؟

فالجواب: هذه قراءة شاذة، ويقال لهم: هذه شاذة. أما قوله تعالى: {وكان عند الله وجيها}، متواترة تلقاها المسلمون من رسولنا ﷺ إلى يومنا، وأما تلك فشاذة؛ وهؤلاء نرد عليهم بالآيات الكثيرة وبالأحاديث أيضا، وهو إثبات القرب لله عز وجل، ولكنه لا يلزم من القرب الحلول، يعني: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} [البقرة: ١٨٦]، لا يلزم من ذلك أن يكون قريبا عندك في مكانك، لكنه قريب وإن كان عاليا، يعني: الله تعالى ليس كمثله شيء.

قال المصنف رحمه الله: [{وكان عند الله وجيها} ذا جاه، ومما أوذي به نبينا ﷺ أنه قسم قسما فقال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله] أعوذ بالله! وهذا من أعظم ما يكون من السب، لكن سب النبي ﷺ محق له، إذا عفا عنه وأسقطه فله الحق،

=

=

ولا أحد يتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه ما أراد بها وجه الله تعالى، وإن قاله بعض الناس غيره، كما قاله بعض من قاله من الأنصار حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، قالوا: إن الرجل وجد قومه، وأراد أن يغدق عليهم المال، ونحن قاتلنا وفعلنا ولم يعطنا شيئا؛ لكن الذي قاله شبان من الأنصار ليس لهم قيمة بالنسبة للكبار منهم، ومع ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام خطب بهم تلك الخطبة العظيمة، التي بين فيها فضلهم وبين الحكمة من إعطاء هؤلاء القوم دونهم، وأنه يعطي هؤلاء ليتألفهم على الإسلام، ويقوى إيمانهم أو ينكف شرهم، أما الأنصار فليسوا بحاجة إلى ذلك، لأن الناس يذهبون بالشاة والبعير وهم يذهبون برسول الله ﷺ، وشتان ما بين هذا وهذا، حتى قال لهم: "لو أن الناس سلكوا شعبا أو واديا وسلك الأنصار شعبا أو واديا، لسلكت شعب الأنصار"، وقال ﷺ لهم: "الأنصار شعار، والناس دثار"، وقال ﷺ لهم: "لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار".

وكل هذا أقنعهم، حتى جعلوا يبكون حتى أخضبوا لحاهم بالبكاء رضي الله عنهم؛ لأن هذا يساوي الدنيا كلها، ففرق عظيم بين من يذهب بالشاة والبعير، ومن يذهب برسول الله ﷺ، فهذا فيه حكمة من الله عز وجل: أن الله قد يقدر للإنسان ما يكرهه ليكون بعد ذلك ما يحبه، فموسى ﷺ كره أن يفر الحجر بثوبه بلا شك، ولكن صار فيه حكمة عظيمة، وهو أن ما يتكلم به بنو إسرائيل من الكلام والاتهام كله ذهب.

والمناسبة لهذا -كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله تعالى بيان أنه عليه الصلاة والسلام مع كونه مبرأ مما أوذي فهو ذو منزلة عالية عند الله تعالى.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} صوابا.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١).

{يُصْلِح لَكُمْ أَعْمَالكُمْ} يَتَقَبَّلهَا {وَيَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبكُمْ وَمَنْ يُطِعْ الله وَرَسُوله فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} نَالَ غَايَة مَطْلُوبَة[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأحزاب: ٧٠].

قال الطبري: يقول:"يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {اتَّقُوا اللهَ} [الأحزاب: ٧٠]، أي:"راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم".

قال الطبري: يقول:"اتقوا الله أن تعصوه، فتستحقوا بذلك عقوبته".

عن السدي:"{اتقوا الله}، يعني: وحدوا الله".

قوله تعالى: {وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [الأحزاب: ٧٠]، أي:"وقولوا قولًا مستقيمًا مرضيًا لله".

قال الطبري: " يقول: قولوا في رسول الله والمؤمنين قولا قاصدا غير جائز، حقا غير باطل".

قال الزمخشري:"{ولا سديدا}: قاصدا إلى الحق والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. يقال: سدد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن سمتها، كما قالوا: سهم قاصد، والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسد قولهم في كل باب لأن حفظ اللسان =

=

وسداد القول رأس الخير كله. والمعنى: راقبوا الله في حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم الله ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وقيل إصلاح الأعمال التوفيق في المجيء بها صالحة مرضية وهذه الآية مقررة للتي قبلها، بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه على الأمر باتقاء الله تعالى في حفظ اللسان، ليترادف عليهم النهى والأمر، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه".

عن مجاهد: " {وقولوا قولا سديدا}، يقول: سدادا".

قال ابن عباس:"صوابا".

قال قتادة:"أي: عدلا، يعني به: في منطقه وفي عمله كله، و «السديد»: الصدق".

عن عكرمة، قوله:"{وقولوا قولا سديدا}، قولوا: لا إله إلا الله".

قال مقاتل:"يعني: قولا عدلا وهو التوحيد".

عن الكلبي: " {وقولوا قولا سديدا}، قال: صدقا".

قوله تعالى: {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} [الأحزاب: ٧١]، أي:"إذا اتقيتم الله وقلتم قولا سديدًا أصلح الله لكم أعمالكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين: اتقوا الله وقولوا السداد من القول يوفقكم لصالح الأعمال، فيصلح أعمالكم".

قال السمعاني:"أي: يزك لكم أعمالكم. وقيل: يصلح لكم أعمالكم: يتقبل منكم الحسنات".

=

=

قال ابن عباس: يتقبل حسناتكم".

وقال مقاتل: يعني: يزكي لكم أعمالكم بالتوحيد".

قال يحيى:"لا يقبل العمل إلا ممن قال: لا إله إلا الله مخلصا من قلبه".

قال الحسن:"إن الله لا يقبل عمل عبد حتى يرضى قوله".

قوله تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} [الأحزاب: ٧١]، أي:"ويمحو عنكم الذنوب والأوزار".

قال الطبري:"يقول: ويعف لكم عن ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها".

قال السمعاني:"أي: يسترها ويعف عنها".

قال سهل:"من وفقه الله لصالح الأعمال فذاك دليل على أنه مغفور له، لأن الله تعالى قال: {يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم}".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧١]، أي:"ومن يطع الله ورسوله فيما أمر ونهى فقد فاز بالكرامة العظمى في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"{ومن يطع الله ورسوله} فيعمل بما أمره به وينتهي عما نهاه ويقل السديد، فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله".

قال مقاتل:"يقول: قد نجا بالخير وأصاب منه نصيبا وافرا".

قال السمعاني:"أي: ظفر بالخير كله".

قال يحيى:"وهي النجاة العظيمة من النار إلى الجنة".

قال العثيمين: قوله تبارك وتعالى: {ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠) يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم} أمر الله تعالى بأمرين؛ بتقوى

=

الله، وأن يقول الإنسان قولا سديدا؛ أي صوابا. والتقوى: فعل أوامر الله واجتناب نواهيه.

أما القول السديد؛ فهو القول الصواب وهو يشمل كل قول فيه خير، سواء كان من ذكر الله، أو من طلب العلم، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من الكلام الحسن الذي يستجلب به الإنسان مودة الناس ومحبتهم، أو غير ذلك، ويجمعه قول النبي ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"، وضد ذلك: القول غير السديد؛ وهو القول الذي ليس بصواب، بل خطأ إما في موضوعه وإما في محله:

أما في موضوعه: بأن يكون كلاما فاحشا يشتمل على السب، والشتم، والغيبة، والنميمة، وما أشبه ذلك. أو في محله: أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خير، لكن كونه يقال في هذا المكان ليس بخير؛ لأن لكل مقام مقالا، فإذا قلت كلاما هو في نفسه ليس بشر، لكنه يسبب شرا إذا قلته في هذا المحل فلا تقله؛ لأن هذا ليس بقول سديد، ففي هذا الموضوع لا يكون قولا سديدا، بل خطأ، وإن كان ليس حراما بذاته.

فمثلا؛ لو فرض أن شخصا رأى إنسانا على منكر، ونهاه عن المنكر، لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئا، أو أغلظ له في القول، أو ما أشبهه، لعد هذا قولا غير سديد.

فإذا اتقى الإنسان ربه، وقال قولا سديدا؛ حصل على فائدتين: {يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم} فبالتقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب، وبالقول السديد صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. وعلم من هذه الآية أن من لم =

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢).

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَة} الصَّلَوَات وَغَيْرهَا مِمَّا فِي فِعْلهَا مِنْ الثَّوَاب وَتَرْكهَا مِنْ الْعِقَاب {عَلَى السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَالْجِبَال} بِأَنْ خَلَقَ فِيهِمَا فَهْمًا وَنُطْقًا {فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ} خِفْنَ {مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَان} آدَم بَعْد عَرْضهَا عَلَيْهِ {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا} لِنَفْسِهِ بِمَا حَمَلَهُ {جَهُولًا} بِهِ[1].

=

يتق الله ويقل قولا سديدا؛ فإنه حري بأن لا يصلح الله له أعماله، ولا يغفر له ذنبه، ففيه الحث على تقوى الله وبيان فوائدها.

ثم قال تعالى جملة عامه: {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز} [الأحزاب: ٧١]؛ والفوز هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ ودليل ذلك: قوله تعالى: {فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز} [آل عمران: ١٨٥] فبالزحزحة عن النار يحصل زوال المكروه، وبإدخال الجنة يحصل المطلوب، فالفوز هو أن تنجو من المرهوب، وتفوز بالمطلوب.

قوله: {فوزا عظيما} وليس فوزا دنيئا أو يسيرا؛ بل هو فوز عظيم، {ومن يعص الله ورسوله} فقد خسر، وفي نفس السورة: {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا} [الأحزاب: ٣٦]، فالإنسان العاصي: ضال ضلالا مبينا، والإنسان المطيع: فائز فوزا عظيما، وانظر أي الطريقين تريد؟! والجواب: الطاعة، التي بها الفوز العظيم في الدنيا وفي الآخرة.

(١) قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: ٧٢].

=

=

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ} [الأحزاب: ٧٢]، على أقوال:

أحدها: أنها الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إن أدتها أثابها، وإن ضيعتها عذبها، فكرهت ذلك وعرضها على آدم فقبلها بما فيها، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وابن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وأبو العالية ، وابن جريج ، وبه قال ابن قتيبة ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

عن ابن عباس، قوله: " {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال} ، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله: {وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} ، غرا بأمر الله".

قال ابن عباس:"عرضت على آدم، فقال: خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك، قال: قد قبلت، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة".

قال مجاهد:"لما خلق الله السموات والأرض والجبال، عرض الأمانة عليهن فلم يقبلوها، فلما خلق آدم عليه السلام عرضها عليه قال: يا رب، وما هي؟ قال: هي إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك قال: فقد تحملت يا رب قال: فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج إلا قدر ما بين الظهر والعصر".

عن قتادة، قوله: " {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال} ، يعني به: الدين والفرائض والحدود، {فأبين أن يحملنها وأشفقن منها} ، قيل لهن: احملنها تؤدين حقها؟ فقلن: لا نطيق ذلك: {وحملها الإنسان إنه كان ظلوما

=

=

جهولا}، قيل له: أتحملها؟ قال: نعم، قيل: أتؤدي حقها؟ قال: نعم، قال الله: إنه كان ظلوما جهولا عن حقها".

قال ابن زيد:"إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثوابا وعقابا، ويستأمنهن على الدين، فقلن: لا نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثوابا ولا عقابا، قال رسول الله ﷺ: "وعرضها الله على آدم، فقال: بين أذني وعاتقي". قال ابن زيد فقال الله له: أما إذ تحملت هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجابا إذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك، فأرخ عليه حجابه، وأجعل للسانك بابا وغلقا، فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباسا، فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك".

عن ابن أشوع في الآية، قال: "عرض عليهن العمل وجعل لهن الثواب فضججن ثلاثة أيام ولياليهن، فقلن: ربنا لا طاقة لنا بالعمل ولا نريد الثواب".

وقال أهل العلم: "الأمانة قطب الإيمان".

قال النبي -ﷺ-: "لا إيمان لمن لا أمانة له".

قال السمعاني:"ومن الأمانة: أن يكون الباطن موافقا للظاهر، فكل من عمل عملا يخالف عقيدته فقد خان الله ورسوله. وقد قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: ٢٧]، نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، وقد كان وضع أصبعه على حلقه، يشير إلى بني النضير إنكم إن نزلتم فهو الذبح".

الثاني: أنها الأمانات التي يأتمن الناس بعضهم بعضًا عليها وأولها ائتمان آدم ابنه قابيل على أهله، وولده حين أراد التوجه إلى أمر ربه فخان قابيل الأمانة في قتل

=

=

أخيه هابيل، قاله السدي.

روي عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قال: "كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له اثنان، يقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوجها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى، وإنهما قربا قربانا إلى الله أيهما أحق بالجارية، وكان آدم يومئذ قد غاب عنهما، أي بمكة ينظر إليها، قال الله لآدم: يا آدم هل تعلم أن لي بيتا في الأرض؟ قال: اللهم لا قال: إن لي بيتا بمكة فأته، فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال للأرض فأبت، فقال للجبال فأبت، فقال لقابيل فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك، فلما انطلق آدم وقربا قربانا وكان قابيل يفخر عليه فيقول: أنا أحق بها منك؛ هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصي والدي، فلما قربا، قرب هابيل جذعة سمينة وقرب هابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها فأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال هابيل {إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين...} إلى قوله {فطوعت له نفسه قتل أخيه} فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رءوس الجبال،

=

=

وأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنمه في جبل وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، وتركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن؛ فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثا عليه فلما رآه قال: {ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي} فهو قول الله تبارك وتعالى: {فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه} فرجع آدم فوجد ابنه قد قتل أخاه فذلك حين يقول: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال...} إلى آخر الآية".

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: "القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها، أو قال: يكفر كل شيء إلا الأمانة؛ يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له: أد أمانتك، فيقول: أي رب وقد ذهبت الدنيا، ثلاثا. فيقال: اذهبوا به إلى الهاوية، فيذهب به إليها، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها، فيجدها هناك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها إلى شفير جهنم، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت، فهوى في أثرها أبد الآبدين". قالوا: والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع، فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله؟ فقال: صدق".

الثالث: أنها ائتمان الرجال والنساء على الفروج، قاله أبيّ بن كعب.

قال أبيّ بن كعب:"من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها".

روي عن أبي حازم، قال: "إن الله عرض الأمانة على سماء الدنيا فأبت ثم التي تليها حتى فرغ منها، ثم الأرضين ثم الجبال، ثم عرضها على آدم فقال: نعم بين أذني وعاتقي. فثلاث آمرك بهن فإنهن لك عون: إني جعلت لك لسانا بين لحيين

=

=

فكفه عن كل شيء نهيتك عنه، وجعلت لك فرجا وواريته فلا تكشفه إلى ما حرمت عليك".

وعن أبي حمزة السكري أنه قال: "إني أعلم من نفسي أني أؤدي الأمانة في مائة ألف دينار، ومائة ألف دينار، ومائة ألف دينار إلى أن ينقطع النفس، ولو باتت عندي امرأة وأتمنت عليها خفت ألا أسلم منها".

الرابع: أن هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السموات والأرض والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يظهرونها فأظهروها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها. حكاه الماوردي عن بعض المتكلمين.

قال ابن كثير:"كل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا مَنْ وفق اللهُ، وبالله المستعان".

وللمفسرين في المراد بعرض الأمانة على السموات والأرض، ثلاثة اقوال:

أحدها: أن الله تعالى ركب العقل في هذه الأعيان، وأفهمهن خطابه، وأنطقهن بالجواب حين عرضها عليهن، ولم يرد بقوله: «أَبَيْنَ» المخالفة، ولكن أبين للخشية والمخافة، لأن العرض كان تخييرا لا إلزاما، و «أشفقن»، بمعنى: خفن منها أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب، حكاه ابن الجوزي عن الأكثرين.

والثاني: أن المراد بالآية: إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض وأهل الجبال من الملائكة، قاله الحسن.

قال السمعاني:"وهو مثل قوله: {واسأل القرية} أي: أهل القرية".

=

=

الثالث: ذكره الزجاج، قال:"حقيقة هذه الآية - والله أعلم، وهو موافق للتفسير - أن الله ﷻ ائتمن بني آدم على ما افترضه عليهم من طاعته، وائتمن السماوات والأرض والجبال على طاعته والخضوع له، فأعلمنا الله أنه قال: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١]. وأعلمنا أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله وأن الشمس والقمر والنجوم والملائكة وكثيرا من الناس يسجدون لله. فأعلمنا الله أن السماوات والأرض والجبال لم تحتمل الأمانة، أي: أدتها، وكل من خان الأمانة فقد احتملها، وكذلك كل من أثم فقد احتمل الإثم، قال الله عز جل: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِم} [العنكبوت: ١٣]. فأعلم الله أن من باء بالإثم يسمى حاملا للإثم. فالسماوات والأرض والجبال أبين أن يحملن الأمانة وأدينها. وأداؤها طاعة الله فيما أمر به، والعمل به وترك المعصية. وحملها الإنسان، قال الحسن: «الكافر والمنافق حملا الأمانة ولم يطيعا». فهذا المعنى والله أعلم".

قال السمعاني:"وقد أحسن وأجاد أبو إسحاق الزجاج في هذا القول".

قوله تعالى: {وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} [الأحزاب: ٧٢]، أي:"وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه".

وفي المراد بالإنسان، أربعة أقوال:

أحدها: أنه آدم -عليه السلام-. قاله أبو العالية ، ومقاتل ، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

وحكي الماوردي عن الحسن، قال:"أنه آدم ثم انتقلت منه إلى ولده".

حكي ابن قتيبة عن بعض المفسرين: "إن آدم لما حضرته الوفاة قال: يا رب! من

=

=

أستخلف بعدي؟ فقيل له: اعرض خلافتك على جميع الخلق، فعرضها، فكل أباها غير ولده".

الثاني: قابيل. في قول السدي.

الثالث: المنافق والمشرك، قاله الحسن.

قال الحسن:"هما اللذان ظلماها، هما اللذان خاناها: المنافق والمشرك".

الرابع: جميع الناس، قاله ثعلب.

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]، أي:"إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه".

قال مقاتل:"ظلوما لنفسه بخطيئته، جهولا بعاقبة ما تحمل من الطاعة على الثواب والعقاب".

قال ابن عباس:"يعني: غرا بأمر الله".

قال قتادة:"ظلوما لها، يعني: الأمانة، جهولا عن حقها".

قال ابن جريج:"إنه كان ظلوما ظلمه نفسه في خطيئته، جهولا بعاقبة ما تحمل".

قال يحيى:"{إنه كان ظلوما} لنفسه. {جهولا} بربه، وهذا المشرك".

قال العثيمين: قوله ﷻ: {إنا عرضنا} تحدث الله تعالى عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، لتعظيم نفسه ﷻ؛ لأنه سبحانه العظيم الذي لا أعظم منه.

وقد شبه النصارى على عوام المسلمين فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى متعدد لأنه يقول: {إنا عرضنا الأمانة} [الأحزاب: ٧٢]، ويقول تعالى: {إنا نحن نحي الموتى} [يس: ١٢]، ويقول: {إنا نحن نزلنا الذكر} [الحجر: ٩] فيشبهون! لأن هذه الضمائر تدل على الجمع، لكنها في اللغة العربية تدل على الجمع وعلى

=

=

التعظيم، وهؤلاء عموا عن قول الله ﷻ: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} [البقرة: ١٦٣]، وهكذا كل من في قلبه زيغ فإنه يتبع ما تشابه من القرآن والسنة فيضرب بعضه ببعض، ولكن يقيض الله ﷻ لدينه من يحفظه ويدفع هذه الشبهات ويبين الحق فيها.

وهؤلاء هم الراسخون في العلم؛ لقول الله سبحانه وتعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب} يعني: القرآن {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات} فذكر قسمين: آيات محكمات، وأخر متشابهات، {فأما الذين في قلوبهم زيغ} أي: ميل عن الحق وضلال، {فيتبعون ما تشابه منه} ويدعون المحكم {ابتغاء الفتنة}، أي: فتنة الناس عن دينهم، {وابتغاء تأويله} أي: تحريفه على ما يريدون.

إذن: قوله ﷻ: {إنا عرضنا الأمانة}، وقوله: {إنا نحن نحي الموتى} [يس: ١٢]، وقوله: {إنا نحن نزلنا الذكر} [الحجر: ٩] وأشباهها من الآيات: يراد بها التعظيم.

وقوله: {إنا عرضنا الأمانة} يعني: القيام بما يجب.

قوله: {على السماوات والأرض والجبال} سبحان الله! مخلوقات عظيمة عرض الله عليها الأمانة هل تقوم بها أم لا؟ فقال الله ﷻ: {فأبين أن يحملنها}.

وقوله: (أبين) أي: امتنعن عن حملها لأنها مسؤولية عظيمة.

ولعل قائلا يقول: كيف تعرض الأمانة على الجماد؟

فالجواب: الجماد وذو الشعور أمام أمر الله على حد سواء، يوجه الله الخطاب إلى الجماد فيجيب الجماد، لأن كل شيء بالنسبة لله على حد سواء، واسمع قول

=

=

الله ﷻ: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها}، فهذا أمر موجه لجماد {قالتا أتينا طائعين} [فصلت: ١١] وهذا هو الجواب، فأجابت هذه الجمادات لله ﷻ.

ولما تجلى الله ﷻ للجبل حين قال موسى عليه السلام: {رب أرني أنظر إليك} [الأعراف: ١٤٣] شوقا إلى الله ﷻ، قال: {قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}، فنظر موسى إلى الجبل بعد أن تجلى الله له فجعله دكا، اندك لعظمة الله ﷻ وخشيته، فخر موسى صعقا، غشي عليه؛ لما رأى من الهول العظيم، فهذا جبل أمامه! وصخر عظيم اندك في لحظة! ومن المعلوم أن الإنسان لا يتحمل هذا {وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} [الأعراف: ١٤٣].

ولقد قال الله ﷻ: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل}، هذا القرآن وهو كلام الله وصفة من صفاته، {لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} [الحشر: ٢١].

قوله: {وأشفقن منها} خفن منها، ألا يقمن بواجب الأمانة.

قوله: {وحملها الإنسان} الله أكبر! حملها الإنسان، بما أعطاه الله من العقل والتفكير وبما أرسل إليه من الرسل وبين له السبل وهداه.

قوله: {إنه} أي: الإنسان {كان ظلوما جهولا}، وقوله: {إنه} قال بعض أهل العلم رحمهم الله: الضمير يعود على الإنسان الكافر، فهو الظلوم الجهول، وليس عائدا على كل إنسان؛ لأن المسلم ذو عدل وذو علم وذو رشد.

فالإنسان الذي كان ظلوما جهولا هو الكافر، أما المؤمن فلا يمكن، إذ المؤمن

=

لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣).

{لِيُعَذِّب الله} اللَّام مُتَعَلِّقَة بِعَرَضْنَا الْمُتَرَتِّب عَلَيْهِ حَمْل آدَم {الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَات وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَات} الْمُضَيِّعِينَ الْأَمَانَة {وَيَتُوب الله عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات} الْمُؤَدِّينَ الْأَمَانَة {وَكَانَ الله غَفُورًا} لِلْمُؤْمِنِينَ {رَحِيمًا} بِهِمْ[1].

=

يمنعه إيمانه عن الظلم، ويمنعه إيمانه عن السفه والغي.

(١) قوله تعالى: {لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ} [الأحزاب: ٧٣]، أي:"لتكون عاقبة حمل الإنسان الأمانة أن يعذب الله المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويُخفون الكفر، والمنافقات، والمشركين في عبادة الله غيره، والمشركات".

قال الطبري: يقول:"وحمل الإنسان الأمانة كيما يعذب الله المنافقين فيها الذين يظهرون أنهم يؤدون فرائض الله مؤمنين بها وهم مستسرون الكفر بها والمنافقات والمشركين بالله في عبادتهم إياه الآلهة والأوثان {والمشركات}".

قال السمعاني:"«اللام» -ها هنا-: لام كي، ومعناه: كي يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات يعني إذا خانوا".

قال القرطبي:"اللام في {ليعذب} متعلقة بـ«حمل»، أي: حملها ليعذب العاصي ويثيب المطيع، فهي لام التعليل، لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة. وقيل بـ«عرضنا»، أي عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شرك المشرك ونفاق المنافق ليعذبهم الله، وإيمان المؤمن ليثيبه الله".

=

=

قال ابن كثير:"أي: إنما حمل ابن آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله، {وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله، ﷻ، ومخالفة رسله".

وقال مقاتل:"يقول: عرضنا الأمانة على الإنسان لكي يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات بما خانوا الأمانة وكذبوا الرسل، ونقضوا الميثاق الذي أقروا به على أنفسهم، يوم أخرجهم من ظهر آدم- عليه السلام- حين قال- ﷻ- {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: ١٧٢]، فنقضوا هذه المعرفة وتركوا للطاعة، يعنى: التوحيد".

عن قتادة: " {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات}، هذان اللذان خاناها".

قال الحسن:"اللذان خاناها اللذان ظلماها: المنافق والمشرك".

قوله تعالى: {وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [الأحزاب: ٧٣]، أي:"ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بستر ذنوبهم وترك عقابهم".

قال الطبري: يقول:"{ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات} يرجع بهم إلى طاعته وأداء الأمانات التي ألزمهم إياها حتى يؤدوها".

قال السمعاني:"أي: يهديهم ويرحمهم إذا أدوا الأمانة".

قال ابن كثير:"أي: وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته".

قال مقاتل:"يقول: ولكي يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بما وفوا بالأمانة

=

=

ولم ينقضوا الميثاق".

عن قتادة: " {ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات}، هذان اللذان أدياها".

وقرئ الحسن «وَيَتُوب» بالرفع يقطعه من الأول، أي: يتوب الله عليهم بكل حال.

قوله تعالى: {وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب: ٧٣]، أي:"وكان الله غفورًا للتائبين من عباده، رحيمًا بهم".

قال مقاتل:"{وكان الله غفورا} لذنوبهم، {رحيما} بهم".

قال الطبري: يقول:"{وكان الله غفورا} لذنوب المؤمنين والمؤمنات بستره عليها وتركه عقابهم عليها، {رحيما} أن يعذبهم عليها بعد توبتهم منها".

قال العثيمين: المعنى: أن الله ﷻ بين لنا الأمانة، وأنه عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان لأجل هذه النتيجة: {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات} هؤلاء ثلاثة أقسام انقسم إليها الخلق:

الأول: المنافقون.

الثاني: المشركون.

الثالث: المؤمنون.

فانتبه -يا أخي- وانظر سبيل من تسلك!

فالمنافقون: هم الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر، فيظهرون الإسلام ويقولون: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، ويحضرون الصلاة، ويتصدقون، لكن قلوبهم خربة خالية من الإيمان، أعاذني الله وإياكم من

=

=

ذلك! اللهم أعذنا من النفاق وهذا الصنف من الناس خرج حينما صار للمسلمين قوة وعزة، لكن في مكة قبل الهجرة ليس هناك منافق، فالناس إما مؤمن صريح وإما كافر صريح، لكن لما قويت شوكة المؤمنين وخصوصا بعد أن هزم الكفار في بدر -وقد كانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان-، فلما هزم المشركون بدأ النفاق؛ لأنهم -أي: المنافقين- عرفوا أن محمدا ﷺ سيظهر دينه، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

وأنزل الله فيهم سورة كاملة من طوال المفصل، وهي قوله تعالى: {إذا جاءك المنافقون} فكانوا يحضرون الصلاة، لكنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، ويتصدقون لكن رياء وسمعة، ويأتون إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ويقولون: نشهد إنك لرسول الله. سبحان الله! فقال الله فيهم: {والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} [المنافقون: ١] أي: لكاذبون في قولهم: (نشهد)؛ لأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

ولذلك إذا احتاجوا إلى هذه الكلمة عجزوا عنها، فإن المنافق إذا دفن في قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان يسألانه: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته! فيقول: لا أدري؛ لأنه ليس في قلبه إيمان، والآخرة مبنية على السرائر لا على الظواهر، أما الدنيا فمبنية على الظواهر، كما قال النبي ﷺ حين استؤذن في قتل المنافقين، قال: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"، وفي الآخرة العبرة بالسرائر: {أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩) وحصل ما في الصدور} [العاديات: ٩ - ١٠]، {إنه على رجعه لقادر (٨) يوم تبلى السرائر} [الطارق: ٨ - ٩] اللهم طهر سرائرنا يا رب

=

=

العالمين، وأمتنا على الإيمان والتوحيد.

فالمنافقون لهم روغان عن الحقائق، ولذلك كان من صفاتهم أنهم إذا حدثوا كذبوا، وأكذب حديث أنهم يقولون: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهم كاذبون في هذا فلا يؤمنون به، وإذا عاهدوا غدروا، فلا يوفون بالعهد؛ لأنه ليس عندهم إيمان يحملهم على الوفاء بالعهد، وإذا خاصموا فجروا؛ فجحدوا ما يجب عليهم وادعوا ما ليس لهم، وإذا اؤتمنوا خانوا.

فهذه علامات النفاق، فاحذر أن تتصف بواحدة منها؛ لأن نبينا محمدا ﷺ حذرنا منها؛ والآن لو نظرت في واقع المسلمين اليوم لوجدت كثيرا منهم إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا اؤتمن خان.

إن كثيرا من المسلمين وليس أكثرهم، فالحمد لله أكثرهم مستقيم، لكن فيهم من إذا حدثك كذبك، وإذا وعدك أخلفك، وإذا عاهدك غدر بك، وإذا خاصمك فجر بك، وما أكثر الذين يتون إلينا يشكون من كفلائهم! أتى به على عقد معلوم فيما بينهم ثم لا يفي بالعهد ولا يفي بالعقد، يماطل بالأجرة وربما ينكرها، ويؤذي العامل ويحمله ما ليس واجبا عليه.

وهناك أيضا من إذا اؤتمن خان، وما أكثرهم! إذا اؤتمنوا خانوا، وما أكثر الخيانة في كثير من الناس! ومن ذلك -مثلا- أن يعرض الإنسان سلعته فيأتيه الزبون ليشتري فيقول: كم قيمة هذه؟ فتقول: ألف ريال، وقيمتها في الحقيقة خمس مئة، لكن استغل فرصة جهل هذا المشتري بالثمن وقال: بألف ريال، فهذا جمع بين الكذب والخيانة والغدر، ثلاث صفات من صفات المنافقين، وما يدري أن ما ترتب على هذا الكذب من كسب مادي فهو حرام، ويوشك من أكل الحرام ألا

=

=

تستجاب دعوته؛ لأنه ﷺ ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟

ومن الخيانة في الأمانة: ما يفعله كثير من أولياء النساء في التزويج، فتجده يخطب منه الرجل الصالح المستقيم في دينه وخلقه، ولكن إذا عرف أنه لن يعطيه مالا رده، وقال: البنت صغيرة، البنت مخطوبة لغيرك، وما أشبه ذلك، ثم يزوجها ابن عمها الذي ليس عنده خلق ولا دين، أو يزوجها من ليس ابن عمها ولكن أكثر الدراهم لأبيها، وهذه والله خيانة، وستطالبه البنت يوم القيامة، وحينئذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه؛ فلماذا تحجب المرأة عن خاطبها الكفء من أجل مصلحتك الخاصة؟ أليس هذا من الخيانة؟! أليس هذا من الظلم؟! سبحان الله! لو أنك أنت -أيها الأب- خطبت امرأة ثم منعت منها لاستكبرت هذا الشيء وعددته ظلما وجورا.

والعجب: أن هؤلاء يظلمون أقرب الناس إليهم وهن بناتهم اللاتي هن بضعة من الأب -قطعة وجزء منه-، ومع ذلك يظلمها هذا الظلم، فيحجرها لابن عمها، أو يقول: لا تتزوجي رجلا من غير القبيلة، أو ما أشبه هذا! هذا من المنكر، وللقضاة أن يتدخلوا في هذا الموضوع، بمعنى: أن المرأة إذا خطبها كفء لها وأبى أبوها فلها أن ترفع الأمر إلى القاضي ويقول لأبيها: زوجها وإلا زوجتها أنا أو من يليك في الولاية من عصبتها.

ومن الخيانة -وهي من صفات المنافقين-: ما ذكره الله ﷻ في قوله: {ويل للمطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو

=

وزنوهم يخسرون} [المطففين: ١ - ٣]، إذا استوفى لنفسه استوفى كاملا، وإذا كال لغيره نقص، {يخسرون} أي: ينقصون، قال الله ﷻ: {ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين} [المطففين: ٤ - ٦].

ومن الخيانة في الأمانة: ما يفعله بعض الناس في أهله، يرضيهم بما حرم الله عليهم، فيجلب لهم من وسائل الإعلام المنظورة والمقروءة والمسموعة ما فيه البلاء والشقاء، وهذا خيانة للأمانة، وسوف يحاسب عند الله ﷻ يوم القيامة، لقول الله ﷻ: {ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة} [التحريم: ٦]، فجعل وقاية الأهل كوقاية النفس، وقال النبي ﷺ: "الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته"، مسؤول أمام الله يوم القيامة. أسأل الله أن يعينني وإياكم على أداء هذه الأمانة الكبرى.

فعليك أن توجه أهلك من بنين وبنات وزوجات وغيرهم ممن لك ولاية عليهم، أن توجههم إلى الطريق السوي، الطريق المستقيم، ولا تظن أنك بريء من المسؤولية أبدا، فقد حملك إياها الله رب العالمين وحملك إياها رسول رب العالمين محمد ﷺ.

ومن النفاق: أن بعض الناس يرائي، بمعنى: أنه يفعل العبادة ليقول الناس: إن فلانا عابد. اللهم أعذنا من الرياء! "ومن راءى راءى الله به"، وسوف يفضحه إما في الدنيا وإما في الآخرة؛ ومن ذلك أيضا: أن يتصدق بشيء أمام الناس ليقولوا: فلان كريم، لا ليتقرب إلى رب العالمين، وهذا الرياء مبطل للعمل، قال الله ﷻ في الحديث القدسي الصحيح: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا

=

أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"، ولما سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل أعداء الله، يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ قال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

فالمراءاة في العمل محبطة له، وماذا ينفعك الناس إذا راءيتهم؟! وماذا يضرونك إذا أخلصت العمل لله وتركتهم؟! إنهم لن يضروك شيئا بالإخلاص، وإنهم يضرونك بالرياء، وأنت الذي أضررت بنفسك. فاحذر أخي من النفاق، احذر من النفاق العقدي والعملي، فالعقدي في القلب -أجارني الله وإياكم منه-، والعملي بالجوارح.

وقال تعالى: {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات}.

المشرك: من اتخذ مع الله إلها يعبده، أو اتخذ مع الله ربا يعتقد أن له تدبيرا في الكون، والمشرك كافر واضح وليس ينافق، فهو يظهر شركه علنا ويقاتل المؤمنين من أجله، مثل مشركي قريش، أليسوا قاتلوا النبي ﷺ عمدا؛ أليسوا أخرجوه وأصحابه من ديارهم؟ أليسوا يسيئون إليه بالقول وبالفعل؟ فيقولون: إنه ساحر، إنه مجنون، إنه كاذب؛ وأساؤوا إليه بالفعل أيضا، فقد كان النبي ﷺ ذات يوم ساجدا تحت الكعبة، آمن مكان على الأرض ذلك المكان، وهو محترم معظم عند قريش إلا مع النبي ﷺ فكان ساجدا لله ﷻ فقالوا: من يذهب إلى جزور بني فلان ويأتي بسلاها -القذر المكروه منظرا- ويضعه على ظهر محمد؟ فانتدب لذلك أشقاهم والعياذ بالله! فذهب وأتى بسلى الناقة -الذي يخرج منها عند الولادة-، فألقى السلى على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، وفي هذا إهانة للرسول، بل وإهانة للمسجد الحرام، والعجب أنه لو جاء بدوي جاهل يسجد

=

=

تحت الكعبة لعظموه واحترموه، وهذا النبي الكريم الذي هو أولى بالكعبة من هؤلاء المشركين يفعل به هكذا! لأن المشركين لا يبالون، فهم يعلنون بشركهم ولا يبالون، وليس عندهم نفاق، هذا الصنف الثاني من الناس.

الصنف الثالث: قال سبحانه وتعالى: {ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات} [الأحزاب: ٧٣]، اللهم تب علينا يا رب العالمين! يتوب الله على المؤمنين الموحدين الذين ليس عندهم نفاق، فهم موحدون ضد المشركين، وهم خالصون ضد المنافقين، فيتوب الله عليهم، حتى لو أنهم تابوا من الشرك ومن النفاق تاب الله عليهم؛ لقول الله تعالى: {قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} [الزمر: ٥٣].

وكم من مشرك منابذ للدعوة الإسلامية تاب فتاب الله عليه، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ضد الدعوة الإسلامية، فأسلم وكان الجليفة الثاني في هذه الأمة. وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم من صناديد قريش وكفارها أسلموا فتاب الله عليهم.

وهذا أبو سفيان زعيم قريش كان يقول يوم أحد: اعل هبل؛ لأن أبا سفيان لما انتهت امحرب وصارت الهزيمة على المسلمين -لأنهم حصل منهم ما يوجب الهزيمة-؛ افتخر وقال: أفيكم محمد؟ قال النبي ﷺ: "لا تجيبوه" إهانة له، وحتى يربو بنفسه بعد ذلك ويفتخر؛ فانظر إلى الحكمة النبوية، وهكذا وقع، ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ قال ﷺ: "لا تجيبوه" حينئذ افتخر وانتفخ، ورأى أنه حصل على كل شيء، فقال: اعل هبل. وهبل صنم لقريش في

=

=

وسط الكعبة، والمعنى: ما أعلاك اليوم! اليوم أنت العالي!

ثم قال النبي ﷺ: "أجيبوه"، فالآن حمي الوطيس فقد وصلت المسألة إلى الباري ﷻ، فقال: "أجيبوه"، قالوا: بماذا نجيبه؟ قال: "قولوا: الله أعلى وأجل"، فقالوا: "الله أعلى وأجل"، فإذا كنت اليوم تفتخر بصنمك بأنه عال فالله أعلى وأجل؛ ثم قال أبو سفيان -لما رد عليه بالتوحيد أتى عن طريق الرسالة-: يوم بيوم بدر والحرب سجال؛ ويوم بدر كان النصر للمسلمين، وقتل من صناديد قريش وكبرائهم ما هو معلوم؛ فقال: يوم بيوم بدر، أي: اليوم غلبناكم، وأنتم غلبتمونا يوم بدر، والحرب سجال، أي: مرة لكم ومرة عليكم!. فأجابوه: (لا سواء!)؛ أي: بين اليومين، فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار؛ وهل هذان اليومان على حد سواء بعد أن كان قتلى المسلمين في الجنة وقتلى الكفار في النار؟ الجواب: لا.

والمقصود: من هذا أن المشركين يصرحون بمنابذة المؤمنين، وأن الإنسان إذا تاب ولو كان مشركا منابذا تاب الله عليه؛ فهذا الرجل أبو سفيان أسلم وصار من الصحابة، لكنه تأخر إسلامه فتأخرت مرتبته.

إذن: من تاب تاب الله عليه، حتى من الشرك، وحتى من النفاق، وحتى من الاستهزاء بالله وآياته.

والدليل على أن التائب من النفاق يتوب الله عليه قول الله ﷻ: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥) إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما} [النساء: ١٤٥ - ١٤٦]، لكن لاحظ أن الله تعالى ذكر

=

=

أشياء مهمة:

١- {الذين تابوا} أي: رجعوا من النفاق إلى الإيمان الخالص.

٢- {واعتصموا بالله} أي: توكلوا عليه واعتصموا به.

٣- {وأخلصوا دينهم لله}.

فهذه ثلاثة أوصاف؛ {فأولئك مع المؤمنين}.

والمستهزئ بالله وآياته هل تصح توبته؟

الجواب: نعم تصح، والدليل: قول الله ﷻ: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} [التوبة: ٦٥] أي: سألت المستهزئين، لأنهم كانوا يستهزئون ويقولون: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون: النبي ﷺ وأصحابه- أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء. وكذبوا والله، فهذه الأوصاف في المنافقين تماما، قال الله ﷻ: {ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون (٦٥) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة} [التوبة: ٦٥ - ٦٦]، فمعناه: أن هؤلاء قد يعفو الله عنهم وذلك بالتوبة، فمن تاب مهما كان شركه وكفره فإن الله يتوب عليه.

وهؤلاء الذين تابوا من الكفر وقد قتلوا من قتلوا من المسلمين هل يلزمهم ضمان المسلمين الذين قتلوهم؟ لا يلزمهم، لقول الله تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين} [الأنفال: ٣٨] ولهذا لو رأى شخص شخصا كان كافرا وقد قتل أباه ثم أسلم فإنه لا يجوز له أن يقتله؛ لأن إسلامه عصمه وغفر له به ما سلف.

ثم قال تعالى: {ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما}

=

=

وقد تشكل عليك هذه الجملة: {وكان الله غفورا رحيما} أي: كان فيما مضى، ولكن الآن؟ فـ (كان) فعل ماض؟!

فنقول: (كان) هنا لا يقصد بها الزمان، بل يقصد بها تحقيق اتصاف الله ﷻ بالمغفرة والرحمة، فهي كما يقول النحويون: مسلوبة الزمان، والمقصود بها التوكيد، فالله تعالى متصف بالمغفرة والرحمة دائما وأبدا.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) (الأحزاب: ٨)، وفيما بعد من السورة: (لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) (الأحزاب: ٢٤)، (يسأل عما أعقبت به كل من الآيتين مع تقارب ما بني عليه التعقيب)؟

والجواب، والله أعلم: أاختلاف العقيب مرعي فيه ما تقدم قبل كل واحدة من الآيتين، أما الأولى فالمتقدم قبلها قوله تعالى: (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) (الأحزاب: ١)، ثم لم يعد الكلام إلى شيء من مرتكبات المنافقين ولا تفصيل أحوالهم، فناسب هذا قوله: (وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) (الأحزاب: ٨)، والكافر بالنفاق كاكافر المتظاهر بكفره. وأما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) (الأحزاب: ١٢)، ثم تتابعت الآي بعد معرفة بسوء مرتكبهم وقبيح أفعالهم في ثماني آيات أو نحوها إلى قوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١)، ثم أعقب هذا بذكر حال المؤمنين، وذكر بأحسن ما يتحلى به الصادق في إيمانه، فقال تعالى: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا

=

=

اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٢٢). إلى عظيم ما وصفهم به سبحانه، ثم أعقب بذكر حال الفريقين فقال: (لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) (الأحزاب: ٢٤)، (وقد أبقى سبحانه عليهم بقوله: (إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ)) جريًا على المطرد من عظيم حمله وسعة عفوه. ورحمته، وكل من هذا وارد على أعظم مناسبة. قلت: وهذا (مما) يشبه المتشابه من الضرب الذي بني عليه هذا الكتاب وليس منه.

الآية الثانية من سورة الأحزاب قوله تعالى: (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) (الأحزاب: ٣٨)، وفي آخر السورة: (سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب: ٦٢) للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية منها؟ ففي الأولى: (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)، وفي عقب الثانية (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا). ووجه ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى معقب (بها) قصة زينب أم المؤمنين وزيد بن حارثة، ﵄ وما جرى في ذلك إلى أن تزوجها رسول الله ﷺ (فهذه الآية تأنيس لرسول الله ﷺ)، وإعلام له أن تلك سنته سبحانه في عبادة التي شاءها وقدرها حكمًا ثابتًا فيمن تقدم من الرسل والأنبياء ومن اهتدى بهديهم، فلا حرج عليك يا محمد فلا تصغ إلى قول منافق (يقول) تزوج محمد حليلة ابنه، فإن زيدًا ليس ابنك: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) (الأحزاب: ٤٠)، وأنا شئت تزويجك إياها وحكمت به في سابق عملي بعد تطليق زيد لها وانفصاله عنها: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) (الأحزاب: ٣٧) ليعلم أن تلك سنتك وسنة أمتك بعدم

=

=

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) (الأحزاب: ٣٧)، فهذه الآيات تأنيس للنبي ﷺ، وتسلية له عن خوض المنافقين، وتنزيه لقدره العلي وتبرئة من كل متوهم فيه أدنى نقص، ورفع لما يتوهم ويقدر وليس على ظاهره السابق من قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) (الأحزاب: ٣٧). فهذه آية تعلق (بها) من كان في قبله مرض وتهجموا على باد من مفهومها، فقالوا: إنه عليه السلام رآها فمال إليها وأحبها في حكاية ذكرها المفسرون، يبطلها ويردها المقطوع به من أن زينب نشأت معه، ولم يزل يراها لمكان قرابتها منه، وقوله لزيد عتيقه الذي أنهم عليه بالعتق: اتق الله – يريد اتق الله فيما تذكر عن زينب، لأن زيدًا نسب إليها نشوزًا وتوقفًا عن طاعته، فأمره بتقوى الله في أمرها والتثبت فيما يحكيه عنها مما كان يظنه نشوزًا، وكانت زينب، رضي الله عنها، أعظم قدرًا من أن تقع في معصية النشوز عمدًا، ولكن الزوجين يطلب كل منهما غاية في الوفاء يرى عند غلبة (حب) هذا المطلب عليه ما يقتصر عنه نشوزًا، ففي الجاري من هذا قال له عليه السلام، اتق الله، وأخفى عنه ما كان تقدم له الإخبار به بالوحي من أنه سيطلقها وأنه، عليه السلام اتق الله، وأخفى عنه ما كان تقدم له الإخبار به بالوحي من أنه سيطلقها وأنه، عليه السلام، سيتزوجها، فهذا الذي أخفاه، عليه السلام، في نفسه ولك يتكلم به حتى أبداه الله، وقوله تعالى: (وَتَخْشَى النَّاسَ) أي تخشى كلام المنافقين وقولهم إن محمدًا تزوج امرأة ابنه، من حيث كان، عليه السلام، قد تبناه قبل الوحي، وقصة ذلك معروفة مشهورة، فكانوا يقولون: زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ

=

=

هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ) (الأحزاب: ٥)، فقيل له، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد أدرك الاستيحاء من أن يتكلم المنافقون بذلك وخشية منهم فقال له: لا تخش أحدًا إنما جريت في ذلك كله على ما بين الله لك من الشرع الذي جعله سبحانه سبيلك ودينك الذي تدعو إليه، وطريق من تقدمك من الرسل الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، فالله أحق أن تخشاه أنت يا محمد، ولا تصغ إلى أحد، ولا تستحي منه، فإنك على صراط مستقيم، فقد وضح ما أخفاه في نفسه وهذا الذي أبداه تعالى، ألا ترى أنه سبحانه قد وعد أنه يبدي ما أخفاه ﷺ في نفسه، فهل ترى في تلك القصة خلاف ما نطق به كتابه من قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) (الأحزاب: ٣٧)، وكانت زينب تفخر بهذا وتقول لأزواج النبي ﷺ: زوجكن أهلوكن زوجني الله من فوق سبع سماوات، فهذا إخباره سبحانه وما أبداه مما أخفاه نبيه ﷺ في نفسه وما سوى هذا فاختلاق. ونقول: وقد تسامح المفسرون هنا، وتبع آخرهم أولهم في نقل ما كان الواجب تركه، إذ هو خلاق القرآن لمن وفق لتدبره ولحظ شهادة بعضه لبعض، فهذا مقصود هذه الآية، ولمجموع ما ذكرنا أعقبت بقوله: (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) (الأحزاب: ٣٨). وقد اتبعت الآية بذكر من سن سبحانه حكم هذه الآية لهم، وأنهم الرسل، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقال: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ) (الأحزاب: ٣٩)، فتأمل هذا التعقيب، وقد قيل له، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله تعالى: (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا) (الإسراء: ٧٧)، وقيل له: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) (الأنعام: ٩٠)، وعرفنا ربنا سبحانه أن نبينا كذلك فعل فقال: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى: ٥٢).

=

سُورَة سَبَأ(١)

=

وأما الآية الثانية فإنه سبحانه لما قال: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) (الأحزاب: ٦٠ - ٦١) أتبع تعالى بالإخبار أن تلك سنته الجارية في الذين خلوا من قبل، وهذا كقوله: (سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) (غافر: ٨٥)، فأعلم أنها سنته الجارية فيهم: (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب: ٦٢)، وقد تكرر هذا في مواضع من كتاب الله سبحانه، ووضح هذا التناسب في كل من الإعقابين، والله سبحانه أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٠٥-٤٠٧).

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدها: أنها نزلت بمكة. قاله ابن عباس ، وقتادة ، ويحيى بن سلام.

قال ابن الجوزي:"هي مكية بإجماعهم".

قال الفيروزآبادي:"السورة مكية بالاتفاق".

الثاني: أنها مكية إلا قوله تعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سبأ: ٦]، نزلت في مدينة. وهذا قول الضحاك ، وابن السائب ، ومقاتل ، وبه قال الزمخشري.

قال مقاتل:"{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} بالله- ﷻ-، يعني: مؤمني أهل الكتاب.

قال ابن عاشور:"عن مقاتل أن آية: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، إلى قوله: {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سبأ: ٦] نزلت بالمدينة، ولعله بناء على تأويلهم أهل العلم

=

=

إنما يراد بهم أهل الكتاب الذين أسلموا مثل عبد الله بن سلام. والحق أن الذين أوتوا العلم هم أصحاب محمد ﷺ".

* عدد آياتها خمس وخمسون فى عدِّ الشَّام، وأَربع فى عدِّ الباقى. وكلماتها ثمانمائة وثمانون. وحروفها أَربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر. المختلف فيها آية واحدة: {عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} فواصل آياتها (ظن لمدبّر).

* تسمى «سورة سبأ» اشتهرت تسميتها باسم «سورة سبأ»، وكتبت في المصاحف وكتب التفسير، سميت سورة سبأ، لاشتمالها على قصة سبأ {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَة} [سبأ: ١٥].

قال المهايمني:"سميت بها، لتضمن قصتها آية تدل على نعيم الجنة في السعة وعدم الكلفة والخلو عن الآفة وتبديلها بها بالنقك، لمن كفر بالمنعم، وهذا من أعظم مقاصد القرآن".

قال ابن عاشور:"هذا اسمها الذي اشتهرت به في كتب السنة وكتب التفسير وبين القراء ولم أقف على تسميتها في عصر النبوءة".

* مقصود السّورة: بيان حجّة التوحيد، وبرهان نبوّة الرسول ﷺ ومعجزات داود، وسليمان، ووفاتهما، وهلاك سبأ، وشؤم الكفران، وعدم الشكر، وإِلزام الحجّة على عُبّاد الأَصنام، ومناظرة مادَّة الضَّلالة، وسَفِلتهم، ومعاملة الأُمم الماضية مع النَّبيِّين، ووعد المنفقين والمصَّدّقين بالإخلاف، والرّجوع بإِلزام الحجّة على منكِرى النبوّة، وتمنى الكفَّار فى وقت الوفاة الرّجوعَ إِلى الدّنيا فى قوله: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} إلى آخره.

* المتشابهات: قوله: {مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض} مرّتين، بتقديم

=

=

السّماوات؛ بخلاف يونس؛ فإن فيها {مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء}؛ لأَنَّ فى هذه السّورة تقدَّم ذكرُ السّماوات فى أَوّل السّورة {الحمد للهِ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض} وقد سبق فى يونس.

قوله: {أَفَلَمْ يَرَوْا} بالفاءِ ليس غيره. زيد الحرف؛ لأَنَّ الاعتبار فيها بالمشاهدة على ما ذكرنا، وخصّت بالفاءِ لشدّة اتِّصالها بالأَوّل، لأَنَّ الضَّمير يعود إِلى الذين قَسَموا الكلام فى النبيِّ ﷺ، وقالوا: محمّد إِمّا عاقل كاذب، وإِما مجنون هاذِ، وهو قولهم: {أفترى عَلَى الله كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ} فقال الله: بل تركتم القِسم الثالث، وهو إِمّا صحيح العقل صادق.

قوله: {قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ الله} وفى سبحان: {قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ}، لأَن فى هذه السّورة اتَّصلت بآية ليس فيها لفظ الله، فكان التصريح أَحسن، وفى سبحان اتَّصل بآيتين فيهما (بضعة عشر) مرّة ذكر الله صريحًا وكناية، (وكانت) الكناية أَولى. وقد سبق.

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ}، وبعده، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} بالجمع؛ لأَن المراد بالأَوّل: لآية على إِحياءِ الموتى فخُصّت بالتوحيد، وفى قصّة سبأ جمع؛ لأَنَّهم صاروا اعتبارًا يضرب بهم المثل: تفرّقوا أَيدى سبا: فُرِّقُوا كلَّ مفرَّق، ومُزِّقوا كلَّ ممزق، فوقع بعضهم إِلى الشأم، وبعضهم إِلى يَثْرِب، وبعضهم إِلى عُمان، فخُتم بالجمع، وخُصَّت به لكثرتهم، وكثرة مه يعتبر بهنّ، فقال {لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ} على المِحنة {شَكُورٍ} على النِّعمة، أَى المؤمنين.

قوله {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ} وبعده: {لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ

=

مَكِّيَّة إلَّا آيَة ٢ فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٥٤ أو ٥٥ آية نزلت بعد لقمان.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١).

{الْحَمْد لِلَّهِ} حَمِدَ تَعَالَى نَفْسه بِذَلِكَ وَالْمُرَاد بِهِ الثَّنَاء بِمَضْمُونِهِ مِنْ ثُبُوت

=

وَيَقْدِرُ لَهُ} سبق. وخصّ هذه السّورة بذكر الربِّ لأَنه تكرّر فيها مرّات كثيرة. منها {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} {رَبَّنَا بَاعِدْ} {يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا} {مَوْقُوفُوْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} ولم يذكر مع الأَول {مِنْ عِبَادِهِ}؛ لأَن المراد بهم الكفَّار. وذكر مع الثانى؛ لأَنهم المؤمنون. وزاد (له) وقد سبق بيانه.

قوله: {وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ} ولم يقل: من قبلك، ولا قبلَك. خُصّت السورة به، لأَنه فى هذه السّورة إِخبار مجرّد وفى غيرها إِخبار للنبىِّ ﷺ، وتسلية له، فقال: {قَبْلِكَ}.

قوله {وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، وفى غيرها {عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ}؛ لأَن قوله {أَجْرَمْنَا} بلفظ الماضى، أَى قبل هذا، ولم يقل: نُجْرِم فيقع فى مقابلة (تعملون)؛ لأَن مِن شرط الإِيمان وصف المؤمن أَن يعزم أَلاَّ يُجرِم. وقوله: {تَعْمَلُوْنَ} خطاب للكفَّار، وكانوا مصرِّين على الكفر فى الماضى من الزَّمان والمستقبل، فاستغنت به الآية عن قوله {كُنْتُمْ}.

قوله: {عَذَابَ النار التي} قد سبق. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٨٢ - ٣٨٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

الْحَمْد وَهُوَ الْوَصْف بِالْجَمِيلِ لِلَّهِ تَعَالَى {الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وَخَلْقًا {وَلَهُ الْحَمْد فِي الْآخِرَة} كَالدُّنْيَا يَحْمَدهُ أَوْلِيَاؤُهُ إذَا دَخَلُوا الْجَنَّة {وَهُوَ الْحَكِيم} فِي فِعْله {الْخَبِير} فِي خَلْقه(١).

---

(١) قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: ١]، أي:"الثناء على الله بصفاته التي كلُّها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، الذي له ملك ما في السموات وما في الأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الشكر الكامل والحمد التام كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه لا مالك لشيء من ذلك غيره، فالمعنى الذي هو مالك جميعه".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمدَ المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: {وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٧٠]؛ ولهذا قال هاهنا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ} أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأولَى} [الليل: ١٣]".

قال مقاتل:"وذلك أن كفار مكة لما كفروا بالبعث، حمد الرب نفسه قال- ﷻ- {الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض}، من الخلق".

قال يحيى:"حمد نفسه وهو أهل الحمد".

قال الزجاج:"والله المحمود في الدنيا والآخرة".

=

=

قال الزمخشري:"ما في السماوات والأرض كله نعمة من الله، وهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجله، ولما قال الحمد لله ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية، كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، كما تقول: احمد أخاك الذي كساك وحملك، تريد: احمده على كسوته وحملانه".

قال الضحاك:"«الحمد لله»: رداء الرحمن".

قال كعب:"«الحمد لله»: ثناء على الله".

قوله تعالى: {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ} [سبأ: ١]، أي:"وله الثناء التام في الآخرة".

قال ابن عباس: "يريد حيث لا يحمد أحد غيره".

قال الطبري:"يقول: وله الشكر الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة؛ لأن منه النعم كلها على كل من في السماوات والأرض في الدنيا، ومنه يكون ذلك في الآخرة فالحمد لله خالصا دون ما سواه في عاجل الدنيا وآجل الآخرة لأن النعم كلها من قبله لا يشركه فيها أحد من دونه".

قال مقاتل:"يعني: يحمده أولياؤه في الآخرة إذا دخلوا الجنة فقالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَه} [الزمر: ٧٤]، {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: ٤٣]".

قال ابن كثير:"فهو المعبود أبدا، المحمود على طول المدى".

قال الزجاج:"حمده في الآخرة يدل عليه قول أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ} [الزمر: ٧٤]، أي: أورثنا أرض الجنة".

قال ابن المنير في حاشيته:"الفرق بين الحمدين: أن الأول عبادة مكلف بها،

=

=

والثاني غير مكلف به ولا متكلف، وإنما هو في النشأة الثانية كالجليات في النشأة الأولى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس» وإلا فالنعمة الأولى كالثانية بفضل من الله تعالى على عباده، لا عن استحقاق".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ: ١]، أي:"وهو الحكيم في فعله، الخبير بشؤون خلقه".

قال الطبري:"وهو الحكيم في تدبيره خلقه وصرفه إياهم في تقديره، خبير بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا وما هم عاملون، محيط بجميع ذلك".

قال ابن كثير:"{وَهُوَ الْحَكِيمُ} أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره، {الْخَبِيرُ} الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء".

قال يحيى:"{وهو الحكيم} في أمره، أحكم كل شيء. {الخبير} بخلقه".

قال مقاتل:"{وهو الحكيم}: حكم البعث، {الخبير} به".

قال قتادة:"حكيم في أمره، خبير بخلقه".

قال ابن عباس: "حكيم في خلقه أن يميتهم ثم يحييهم، الخبير لمن أطاعه ومن عصاه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الحمد لله}: (أل) يقول العلماء رحمهم الله: إنها للاستغراق؛ أي: كل حمد، و (أل) التي للاستغراق هي التي محل محلها (كل) مثل قوله تعالى: {إن الإنسان لفي خسر} [العصر: ٢] أي: كل إنسان لفي خسر، وقوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، أي: كل إنسان، فمعناها: أن كل حمد فهو لله تعالى، واللام هنا للاستحقاق والاختصاص؛ للاستحقاق لأنه لا أحد يستحق أن يحمد لذاته إلا الله ﷻ، والاختصاص لأن الحمد

=

=

المستغرق لكل المحامد لا يكون إلا لله ﷻ.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [حمد تعالى نفسه بذلك] يعني: حمد الله تعالى نفسه بهذا الوصف الذي هو الحمد [والمراد به الثناء بمضمونه من ثبوت الحمد]؛ يعني: ليس هذا تجديدا لحمد الله سبحانه وتعالى، ولكنه ثناء على الله تعالى بمضمون الحمد [وهو الوصف بالجميل لله تعالى]، ولو قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الوصف بالكمال لكان أعم، فالحمد وصف المحمود بالكمال. هذا الحمد، فإن كرر وصفه بالكمال صار ثناء، قال الله ﷻ: {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة: ٢] فيجيب الله: حمدني عبدي. فإذا قال العبد: {الرحمن الرحيم} [الفاتحة: ٣] يجيب الله تعالى: أثنى على عبدي. والله سبحانه وتعالى يحمد على ما له من الكمال الذاتي، والكمال المتعدي للغير، أي: على كماله بذاته وعلى كماله بفعله وإحسانه ﷻ فيحمد على الأمرين جميعا، أما غيره فلا يحمد إلا على فعله إن كان فعله مما يحمد عليه، أما حمد للذات نفسها فهذا لا يكون إلا لله تعالى.

فمثلا إذا حمدنا الله سبحانه وتعالى على ما له من صفات الكمال؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة والعظمة وما أشبهها، فهذا حمد على الكمال الذاتي، وإذا حمدنا الله تعالى على ما له من الإحسان والإنعام فهو حمد على الكمال المتعدي، فإذا حمدناه ﷻ على إنزال الغيث وإنزال الكتب وإرسال الرسل ودفع الضرر فهذا حمد على الكمال المتعدي.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض} ملكا وخلقا] {الذي له ما في السماوات} هذا كالتعليل للحمد؛ لأن هذا الوصف يدل على العلية؛ أي: يحمد الله تعالى نفسه؛ لأنه مالك لما في السموات وما في

=

=

الأرض.

وقوله تعالى: {له ما في السماوات وما في الأرض} يشمل العقلاء وغير العقلاء؛ ولهذا أتى بـ {ما} لأجل أن يشمل هؤلاء وهؤلاء؛ وإنما غلب غير العقلاء؛ لأنهم أكثر من حيث النوع، أما من حيث العدد فإن في ذلك شكا؛ لأن الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا شك أنهم من العقلاء، وهم لا يحصيهم إلا الله ﷻ؛ "ما من موضع أربع أصابع في السماء إلا وفيه ملك".

وقوله تعالى: {السماوات} جمع سماء، وجمعت لأنها متعددة، فهي سبع سموات، كل واحدة فوق الأخرى، وهي مأخوذة من السمو، وهو العلو والرفعة.

وقوله تعالى: {الأرض} أفردت، لكن المراد بها الجنس فتشمل الأرضين السبع؛ لأن الأرضين سبع بصريح السنة، وسبع بظاهر القرآن، فهي سبع بصريح السنة؛ لقول النبي ﷺ: "من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين"، وبظاهر القرآن؛ لقوله سبحانه وتعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا قطعا ليست بالصفة فتكون بالعدد.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ملكا وخلقا]، يعني: أنه هو الذي خلقها سبحانه وتعالى وهو المالك لها المدبر، ولو قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتدبيرا) لكان أبين، وإن كانت كلمة [ملكا] تتضمن التدبير.

فالله سبحانه وتعالى له ما في السموات والأرض خلقا فلم يخلقها إلا الله ﷻ، وملكا فلا مالك لها إلا الله ﷻ، وتدبيرا فلا تدبير لأحد فيها على وجه الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى.

=

=

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {وله الحمد في الآخرة} كالدنيا يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة].

قوله تعالى: {وله الحمد في الآخرة} هنا خص الحمد في الآخرة مع أنه محمود في الدنيا والآخرة؛ كما قال الله سبحانه وتعالى في آية ثانية: {له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم} [القصص: ٧٠]، لكنه ذكر ذلك؛ لأن ظهور حمده في الآخرة أبين وأوضح، فإن في الدنيا من ينكر حمد الله سبحانه وتعالى، ويكفر به، ولا يرى إلا أن هذه الدنيا طبيعة تتفاعل بذاتها وليس لها مدبر، ومن اعتقد هذا الاعتقاد فهل يمكن أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ؟ أبدا! لا يمكن حتى لو رأى الجير واندفاع الشر فانه لا يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا يقر به، لكن في الآخرة لا يمكن لأحد إلا أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ، فالحمد في الآخرة لله عَزَّ وَجَلَّ، كما أنه أيضا في الآخرة لا أحد يحمد إلا النادر، قال الله تعالى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} [الإسراء: ٧٩]، ، أما بقية الناس ممن لم يحمدهم الله سبحانه وتعالى فإنهم ليس لهم حمد في الآخرة، فأنت في الدنيا تحمد من يحسن إليك لكن في الآخرة لا تحمد صديقك ولا صاحبك، اللهم إلا أن يكون ذلك بعد دخول الجنة فربما.

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وله الحمد في الآخرة} كالدنيا]، يعني: كما أن له الحمد في الدنيا، وكأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا التقدير يقول: إنه حذف الشق الآخر لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى: {وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر} [النحل: ٨١]، يعني: والبرد.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [يحمده أولياؤه إذا دخلوا الجنة]؛ قال الله تعالى: {وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض} [الزمر: ٧٤]، ولكن الصحيح أنه يحمد

=

=

حتى على جزائه الكافرين؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال في آخر سورة الزمر لما ذكر سوق أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة، قال تعالى: {وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين} [الزمر: ٧٥]، فإن الله تعالى يحمد على كمال عدله وكمال فضله، ومجازاته لأهل النار من باب العدل فيحمد عليه.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ؟ [{وهو الحكيم} في فعله]، وهذا فيه قصور، لأنه حكيم في شرعه وفعله أيضا؛ الذي هو القدر، فليست الحكمة خاصة بالفعل، بل حتى في الشرع الذي يكون بكلامه فإن الشرع هو الوحي وهو كلام الله سبحانه وتعالى، وليس فعلا له، بل هو كلامه، وكذلك فعله وهو حكيم فيه، والحكمة مأخوذة من الإحكام وهو الإتقان، ولهذا يقال في تفسيرها: إنها وضع الشيء موضعه، وهذا هو الإتقان، ولكن {الحكيم} له معنيان: الحاكم والمحكم؛ لأنها مأخوذة من الحكم ومن الإحكام، وأن حكم الله تعالى نوعان: حكم شرعي وحكم كوني، وأن الحكمة نوعان أيضا: صورية وغائية.

فالصورية: بمعنى أن كون هذا الشيء على هذا الصور المعينة موافق للحكمة.

والغائية: بأن الغاية من هذا الشيء حكمة يحمد الله تعالى عليها.

فمثلا كون الصلاة على هذا الوجه والصيام على هذا الوجه والوضوء على هذا الوجه، هذه في الأمور الشرعية، وكذلك في الأمور الكونية؛ كون خلقة الإنسان على هذا الوجه والشمس والقمر وما أشبه ذلك؛ هذه حكمة صورية، بمعنى: كون الشيء على هذه الصورة المعينة هذا لا شك أنه موافق للحكمة، ثم الغاية من ذلك الشيء حكمة أخرى.

وتكون هذه الحكمة الصورية والغائية في الشرع وفي القدر، وإذا ضربت اثنين في

=

=

اثنين تكون أربعة:

١- حكمة غائية في الشرع.

٢- حكمة صورية في الشرع.

٣- حكمة غائية في القدر.

٤- حكمة صورية في القدر.

وكل ذلك ثابت لله ﷻ، وإذا آمن الإنسان بهذا اطمأن إلى أحكام الله تعالى الكونية والشرعية، ولم ينقدح في ذهنه أي اعتراض؛ لأنه يعلم أن هذا صادر عن حكمة، وإذا علم أنه صادر عن حكمة فإنه لا يبقى في قلبه شك من أن هذا هو عين الصواب، وهو الذي تقتضيه الحكمة؛ وبهذا يطمئن الإنسان إلى شريعة الله تعالى، ويطمئن الإنسان أيضا إلى قدر الله ﷻ، ويعلم أن هذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره.

و(حكيم) بمعنى حاكم فهو إذا صيغة مبالغة (فعيل)، وإذا كان (حكيم) من أحكم فهو بمعنى محكم وفعيل تأتي بمعنى مفعل ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{الخبير} بخلقه]، و (الخبير) معناها: ذو الخبرة وهي العلم ببواطن الأمور، ومنه سمي الزارع خبيرا؛ لأنه يستر الحب بالحرث، وهل ينافي ذلك العلم بظواهر الأمور؟ لا، بل إنه يؤيده لأن الذي يعلم ببواطن الأمور من باب أولى أن يعلم بظواهرها، والحكمة دائما يقرنها الله ﷻ بالعزة وبالعلم، وهنا قرنت بالعلم الذي يتضمنه الخبرة وإنما يقرنها الله ﷻ بذلك ليتبين أن حكمته سبحانه وتعالى مبنية على علمه وأنه إذا تراءى لك أن هذا الشيء ليس

=

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢).

{يَعْلَم مَا يَلِج} يَدْخُل {فِي الْأَرْض} كَمَاءٍ وغيره {وما يخرج منها} كنبات وَغَيْره {وَمَا يَنْزِل مِنْ السَّمَاء} مِنْ رِزْق وَغَيْره {وَمَا يَعْرُج} يَصْعَد {فِيهَا} مِنْ عَمَل وَغَيْره {وَهُوَ الرَّحِيم} بِأَوْلِيَائِهِ {الْغَفُور} لَهُمْ[1].

=

بحكمة فذلك لنقصان علمك، وإلا ولو كان عندك علم وفهم لعرفت أن الحكمة فيما شرعه الله ﷻ وفيما قدره.

(١) قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} [سبأ: ٢].

قال الطبري: يقول: " يعلم ما يدخل الأرض وما يغيب فيها من شيء، وما يخرج من الأرض".

قال أبو عبيدة:"{يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}، أي: يدخل ويغيب فيها قال طرفة:

رأيت القوافي يتّلجن موالجا... تضايق عنها أن تولّجها الإبر"".

قال ابن قتيبة:"{ما يلج في الأرض} أي يدخل. {وما يعرج فيها} أي: يصعد".

قال الزجاج:"أي: ما يدخل في الأرض وما يخرج منها. ما يدخل في الأرض من قطر وغيره، وما يخرج منها من زرع وغيره".

قال ابن كثير:"أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته".

عن السدى: " {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}، قال: من المطر. {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} قال: من النبات". وروي عن الضحاك مثله.

قوله تعالى: {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: ٢]، أي:"وما ينزل من

=

=

السماء من الأمطار والملائكة والكتب، وما يصعد إليها من الملائكة وأفعال الخلق".

قال الطبري:"يعني: وما يصعد في السماء، وذلك خبر من الله أنه العالم الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض، مما ظهر فيها وما بطن".

قال ابن كثير:"{وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} أي: من قطر ورزق، {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك".

قال الزجاج: " {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} : " ما يصعد فيها، يقال: عرج يعرج إذا صعد، والمعارج – الدرج – من هذا، ويقال: عرج يعرج، إذا صار ذا عرج، وعرج يعرج، إذا غمز من شيء أصابه".

عن السدى: " {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} ، قال: الملائكة. {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} ، قال: الملائكة". وروي عن الضحاك نحوه.

قوله تعالى: {وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} [سبأ: ٢]، أي:"وهو الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه".

قال الطبري:"وهو الرحيم بأهل التوبة من عباده أن يعذبهم بعد توبتهم، الغفور لذنوبهم إذا تابوا منها".

قال ابن كثير:"أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه".

عن قتادة:"قوله: {غفورا} ، قال: للذنوب الكثيرة أو الكبيرة" ، " {رحيما} ، بعباده".

عن عطاء بن دينار، قوله: " {غفور} لما كان منهم قبل التوبة، {رحيم} بهم بعد

=

=

التوبة".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {الغفور}، يعني: غفور الذنوب، {الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يعلم ما يلج في الأرض}: {ما} اسم موصول يفيد العموم، و {يلج} بمعنى: يدخل، فكل ما يدخل في الأرض فالله سبحانه وتعالى يعلمه.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كماء] الماء يدخل إلى الأرض ويخرج منها، فإذا أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ الماء من السماء أدخله في الأرض ينابيع، وإذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يخرج خرج بآلة أو بغير آلة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وغيره] كالأموات وغيرهم؛ كالأشياء التي لها جحور في الأرض، والنبات أيضا وبذورها أيضا، كلها داخلة في الأرض.

المهم: أن ما يلج في الأرض لا يحصى أصنافه فضلا عن أفراده وهو واسع جدا، والله عَزَّ وَجَلَّ يعلمه حتى الذرة التي تدخل في جحرها يعلمها الله سبحانه وتعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وما يخرج منها} كنبات وغيره] فالنبات واضح؛ و [غيره] كالماء والمعادن والحيوانات التي تنتشر في الأرض، ومن ذلك الإنسان؛ لقوله تعالى: {منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى} [طه: ٥٥] إخراج وإدخال، وقوله تعالى: {والله أنبتكم من الأرض نباتا (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا} [نوح: ١٧ - ١٨].

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وما ينزل من السماء} من رزق وغيره] كيف ينزل من السماء الرزق؟ هل تبقى في البيت كل يوم ويأتيك التمر والثياب وينزل من

=

=

السماء؟

الجواب: لا ولكن الرزق يكون بالمطر مثلا، ينزل الله سبحانه وتعالى المطر فتنبت الأرض؛ ويخرج منها الماء والمرعى، قال تعالى: {متاعا لكم ولأنعامكم (٣٢)} [عبس: ٣٢]، وغير ذلك أيضا: ينزل أمر الله سبحانه وتعالى: {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض} [السجدة: ٥]، وتنزل أيضا الملائكة، وتنزل الشهب ترمى بها الشياطين، وأشياء كثيرة من هذا، الله ﷻ يعلمها.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وما يعرج} يصعد {وفيها} من عمل وغيره]؛ هنا (يعرج) بمعنى يصعد و (يعرج) تعدى بـ (إلى) كما قال تعالى: {تعرج الملائكة والروح إليه} [المعارج: ٤]، وقال تعالى: {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه} [السجدة: ٥]، وهنا قال: (يعرج فيها) والنحويون اختلفوا في مثل هذا؛ فمنهم من قال: إن الحرف بمعنى يناسب الفعل؛ يعني: أن يجعل حرف بمعنى حرف آخر يناسب الفعل؛ فمثلا يقول: (في) بمعنى (إلى)، ومنهم من يقول: بل الحرف باق على معناه الأصل، ويضمن الفعل معنى يناسب ذلك الحرف، وهذا مذهب البصريين فيقول: {يعرج} مضمن مع معناه الظاهر -وهو العروج- معنى الدخول؛ يعني: يعرج فيدخل فيها، ليس المراد ما يعرج فقط ولا يدخل، وسبق لنا في مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا المذهب هو المذهب الصحيح المحقق؛ وهو أن نضمن الفعل معنى يناسب الحرف؛ لأن هذا التضمين يجعل للفعل معنيين: أحدهما: المعنى الظاهر من اللفظ، والثاني: المعنى الذي تضمنه؛ ليناسب الحرف الذي تعلق به.

ويظهر لك ذلك جليا في قوله تعالى: {عينا يشرب بها عباد الله} [الإنسان: ٦]،

=

=

ومعلوم أننا لا نشرب بالعين إذ ليست بآلة للشرب، ويرى بعض العلماء رحمهم الله أن نجعل الباء بمعنى (من) أي: يشرب منها، ويرى آخرون أننا نضمن (يشرب) معنى (يروى) فإذا ضمنا نستفيد فائدتين:

الأولي: الشرب.

والثانية: والري.

ولكن إذا قلنا: إن الباء بمعنى (من) لم نستفد هذه الفائدة.

فالمهم: أن المذهب الصحيح هو أننا نضمن الفعل معنى يناسب الحرف، ولا نجعل الحرف بمعنى حرف آخر.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وهو الرحيم} بأوليائه {الغفور} لهم] وهذا أيضا من التخصيص بلا دليل.

وقوله تعالى: {الرحيم} لم يذكر متعلقها، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [بأوليائه] فعليه يكون أعداؤه لا رحمة لهم على كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، و {الغفور} أيضا لأوليائه، فأعداؤه لا مغفرة لهم، ولكن الصحيح: العموم، لأن هذين الاسمين مطلقان فيبقيان على إطلاقهما؛ فهو رحيم حتى بأعدائه، فالكافر قد أعطاه الله تعالى صحة ورزقا من اللباس والطعام والشراب والمسكن والزوجة والأهل، وكل هذا رحمة، لكنها رحمة عامة، يعني: أنها لا تكون خاصة كرحمة المؤمنين.

والمغفرة أيضا يستحقها من تاب من عداوته لله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا تاب فهو ولي من أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن قد يكون في الإنسان عداوة وولاية، كما في قوله تعالى: {خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا} [التوبة: ١٠٢]، وهم مستحقون لمغفرة الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذن: فكلمة {الرحيم} عامة، لأنها تختص بالفعل وهو إيصال الرحمة إلى

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَة} الْقِيَامَة {قُلْ} لَهُمْ {بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنكُمْ عَالِم الْغَيْب} بِالْجَرِّ صِفَة وَالرَّفْع خَبَر مُبْتَدَأ وَعَلَّام بِالْجَرِّ {لَا يَعْزُب} يَغِيب {عَنْهُ مِثْقَال} وَزْن {ذَرَّة} أصغر نملة {في السماوات وَلَا فِي الْأَرْض وَلَا أَصْغَر مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَر إِلَّا فِي كِتَاب مُبِين} بَيِّن هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ(١).

=

المرحوم.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ} [سبأ: ٣]، أي:"وقال الكافرون المنكرون للبعث: لا تأتينا القيامة".

قال الطبري:"ويستعجلك يا محمد الذين جحدوا قدرة الله على إعادة خلقه بعد فنائهم بهيئتهم التي كانوا بها من قبل فنائهم من قومك بقيام الساعة؛ استهزاء بوعدك إياهم وتكذيبا لخبرك".

قال الزمخشري:"قولهم: {لا تأتينا الساعة}، نفى للبعث وإنكار لمجيء الساعة. أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم: «متى هذا الوعد»".

قوله تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} [سبأ: ٣]، أي:"قل لهم-أيها الرسول-: أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة".

قال الطبري: أي:"قل لهم: بلى تأتيكم وربي، قسما به لتأتينكم الساعة".

قال ابن كثير:"هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله رسولَه

=

=

ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره مَنْ أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: ٥٣]، والثانية هذه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، والثالثة في التغابن: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧]، فقوله: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره: {عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}".

قال الزمخشري:"أوجب ما بعد النفي بـ «بلى» على معنى: أن ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه مؤكدا بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله ﷻ، ثم أمد التوكيد القسمي إمدادا بما أنبع المقسم به من الوصف بما وصف به، إلى قوله ليجزي لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته، لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أعلى كعبا وأبين فضلا وأرفع منزلة، كانت الشهادة أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ".

قوله تعالى: {عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: ٣]، أي:"هو جل وعلا العالمُ بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، لا يغيب عنه مقدار وزن الذرة في العالم العلوي أو السفلي".

قال الطبري: أي:"ولكنه لا يعلم وقت مجيئها أحد سوى علام الغيوب، الذي لا يغيب عنه شيء من زنة ذرة فما فوقها فما دونها، أين كان في السماوات ولا في

=

=

الأرض".

قال أبو عبيدة:"{لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ}، أي: لا يشذّ ولا يغيب مثقال ذرة، أي: زنة ذرة".

قال الزمخشري:"{لا يعزب}: بالضم والكسر في الزاى، من: العزوب، وهو البعد. يقال: روض عزيب: بعيد من الناس مثقال ذرة مقدار أصغر نملة ذلك إشارة إلى مثقال ذرة".

قال ابن قتيبة:"{لا يعزب عنه} لا يبعد. {مثقال ذرة} أي وزن ذرة، وهي: النملة الحمراء الصغيرة".

عن ابن عباس، قوله: " {لا يعزب عنه}، يقول: لا يغيب عنه".

عن مجاهد: {لا يعزب عنه}، قال: لا يغيب".

قوله تعالى: {وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٣]، أي:"ولا أصغر من الذرة والا أكبر منها إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ".

قال الطبري: "يقول: ولا يعزب عنه أصغر من مثقال ذرة {ولا أكبر} منه {إلا} هو مثبت في كتاب يبين للناظر فيه أن الله تعالى ذكره قد أثبته وأحصاه وعلمه فلم يعزب عن علمه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الذين كفروا} أي: بالله ﷻ وبقدرته وبحكمته، قالوا: {لا تأتينا الساعة} هل قالوا هذا اللفظ أم قالوا معنى هذا اللفظ؟

الجواب: قالوا هذا اللفظ؛ لأن الأصل أن ما نقل عن الغير فإنه منقول بنصه وفصله، فهم قالوا: {لا تأتينا الساعة}، وقالوا في موضع آخر: {من يحي العظام

=

=

وهي رميم} [يس: ٧٨]، وتنوعت عباراتهم في إنكار القيامة هم قالوا: {لا تأتينا الساعة} يعني: لا يمكن أن تأتينا الساعة مع أن الله ﷻ يقول: {وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور} [الحج: ٧]، فكذبوا بذلك قول الله تعالى مستندين إلى استبعاد عقولهم أن ترجع هذه العظام النخرة حتى تعود إنسانا حيا، وما علموا أن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته؛ قال تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧]، فشبهتهم إذن في هذا الإنكار هي: الاستبعاد فقط؛ هذه واحدة.

ثانيا: يقولون إذا كنتم صادقين في أننا سنبعث فأتوا بآبائنا، ابعثوهم لنا، وهذا تحد في غير موضعه؛ لأن الرسل لم تقل لهم: إنكم تبعثون الآن. بل إذا انتهت الخلائق ومات الخلق كلهم بعثوا، فهذا التحدي في غير موضعه، هذا التحدي في موضعه لو كانت الرسل تقول: إن الناس سيبعث أولهم الآن مع وجود آخرهم صح أن يقال {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} [الدخان: ٣٦] أما وقد قالوا: إنهم سيبعثون بعد أن يفنى الخلق كله ممن سيبعث، فهذا ليس فيه التحدي.

إذن: شبهتهم الاستبعاد، والتحدي في غير موضعه حيث قالوا: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين}.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قل بلى وربي لتأتينكم}: {بلى} هذه يؤتى بها لإبطال النفي {قل بلى وربي} أمر الله ﷻ النبي عليه الصلاة والسلام أن يصدع بخلاف ما قالوا مؤكدا ذلك بالقسم واللام والنون، فـ {قل بلى} جواب: لإبطال النفي و (ربي): قسم، واللام للتوكيد، والنون أيضا للتوكيد فالجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات.

=

=

وقوله تعالى: {لتأتينكم} أي: الساعة، وهذا أحد المراضع الثلاثة التي أمر الله به نبيه أن يقسم عليها.

والموضع الثاني: قوله تعالى: {ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق} [يونس: ٥٣].

والموضع الثالث: قوله تعالى: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير} [التغابن: ٧].

وإنما أمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ أن يقسم على ذلك؛ لأهميته وعظمه؛ ولأنه مقتضى البلاغة؛ فإن مقتضى البلاغة أن المنكر يؤتى له بالكلام مؤكدا بمؤكد واحد أو اثنين أو ثلاثة حسب ما يقتضيه المقال؛ ولأهمية هذا الموضوع أمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يقسم عليه.

فإن قلت: ما فائدة القسم أمام من ينكر، لأن من أنكرك بدون قسم أنكرك مع القسم؟

فالجواب: من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا هو مقتضى القسان العربي، أن الأخبار تؤكد بأنواع المؤكدات.

الوجه الثاني: أن التأكيد يدل على أن المتكلم جازم بهذا المقسم عليه جزمه بما أقسم به؛ فكما أننا جازمون بالله بوجوده وكماله، فنحن جازمون أيضا بما أقسم عليه وهو: إتيان الساعة.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{عالم الغيب} بالجر صفة، والرفع خبر مبتدإ، وفي قراءة: (علام) بالجر] ففيها إذن: ثلاث قراءات: {عالم} مرفوعة ومجرورة، و

=

=

(علام) مجرورة فقط.

وقوله تعالى: {عالم الغيب} مناسبة ذكر هذه الصفة لإثبات القيامة ظاهر؛ لأن قيام الساعة من علم الغيب، والذي أخبر به هو (علام الغيب)، فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب وجب علينا قبوله؛ ولهذا الخبر عن المستقبل إذا صدر من جاهل لا يدري فإننا نرفضه، وإذا صدر من عالم فإننا نقبله.

وعلم الله تعالى الغيب أمر معلوم حتى عند الكفار، فإن الله سبحانه وتعالى يخبر بأشياء ثم تقع ويشاهدونها، وهذا شيء لا يمترون فيه؛ فلهذا وصف الله تعالى نفسه بهذه الصفة بعد إثبات إتيان الساعة؛ لأنه أمر معلوم عندهم، فإذا صدر هذا الخبر من عالم الغيب الذي يقرون بعلمه للغيب صار الخبر مؤكدا واقعا.

وقوله تعالى: {عالم الغيب} [بالجر صفة] لـ (رب)؛ لأن (رب) مجرور فنقول في إعرابه: الواو حرف قسم وجر، (ربي) مقسم به مجرور بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، فليست الكسرة هذه كسرة الإعراب، وإنما قلنا ذلك لأنه ربما يرد علينا مثل قولنا: (ربي الله) ليست مجرورة، وهذه الكسرة من أجل المناسبة، فالكسرة إذن ثابتة قبل أن يدخل حرف الجر؛ فلذلك تكون الكسرة الإعرابية مقدرة على ما قبل ياء المتكلم.

وقوله تعالى: {عالم الغيب} صفة لـ (رب)؛ وصفة المجرور مجرور.

أما بالرفع فيكون خبر مبتدإ؛ يعني: (هو عالم الغيب) والجملة كلها: إما حال من (رب)، وإما استئنافية لبيان اتصاف الله تعالى بهذا العلم.

و(الغيب): ما غاب عن الإنسان وهو أمر نسبي، لكن الغيب المطلق لا يكون إلا

=

=

لله، أقول: (إن الغيب أمر نسبي)؛ لأنه قد يغيب عنك ما لا يغيب عن غيرك فصاحب الدكان الذي عند المسجد الآن تصرفه الذي يتصرفه الآن بالنسبة لنا غيب، لكن بالنسبة لمن عنده شهادة، فالغيب أمر نسبي؛ ولذلك الخبر عن الشيء الواقع هل يعتبر من الغيب الذي يختص به الله تعالى؟

الجواب: لا؛ لأنه يعلمه من وقع عنده وحدث عنده، لكن الغيب المستقبل هذا هو الذي من خصائص علم الله؛ ولهذا من ادعى علم الغيب في المستقبل صار مكذبا لقول الله تعالى: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله} [النمل: ٦٥].

ومن ادعى علم غيب واقع فهذا الغيب ليس غيبا مطلقا، ولكنه غيب نسبي؛ يعلمه من شاهده، ولا يعلمه من لم يشاهده؛ فغيب الله تعالى في قوله: {عالم الغيب} يشمل الأمرين أو يشمل المستقبل فقط؟

الجواب: يشمل الأمرين؛ لأن كل ما حدث ولو في أزمان بعيدة جدا فالله عالم به، وكل ما سيحدث فالله عالم به، فالغيب المطلق للواقع والمنتظر هذا من خصائص علم الله تعالى، والغيب المقيد بالواقع هذا ليس من خصائص علم الله تعالى، بل هو حاصل لكل من شاهده.

قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {لا يعزب} يغيب {عنه}]، يعني عن الله [{مثقال} وزن {ذرة} أصغر نملة {في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}].

وقوله تعالى {لا يعزب عنه} إلى آخره؛ صفة من الصفات السلبية، و {عالم الغيب} من الصفات الثبوتية، فالصفات الثبوتية -كما تقرر- كلها صفات كمال،

=

=

والصفات السلبية تأكيد لصفات الكمال؛ لأنها تتضمن صفة الكمال المنفي عنها هذا العيب، فالصفات السلبية يعني النفي تأكيد للكمال؛ لأنها تتضمن ثبوت الصفات الكمالية الخالية من هذه الصفة التي تعتبر صفة نقص.

ولهذا ما من نفي في صفات الله إلا وهو متضمن لإثبات كمال ضده، فمثلا: إذا قلنا: لا يعزب عن علم الله شيء فذلك لكمال علمه، وإذا قلنا: إنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يمسه لغوب فذلك لكمال قدرته، وعلى هذا فقس.

فكل صفات النفي المضافة إلى الله يراد بها إثبات كمال الضد؛ كأنه وصف الله تعالى بالكمال الخالي عن هذا النقص.

وقوله تعالى: {مثقال ذرة} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها صغار النمل [أصغر نملة] أفادنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من النمل ما هو صغير وما هو كبير، ونحن في عرفنا على خلاف ذلك، عندنا أن النملة نوع معين من الذر، وعندنا الذرة الصغار، وعندنا شيء يسمونه نملة؛ والنمل معروف أنه الذي أكبر من الذر قليلا ودون القعر.

يقولون: إن هذا القعر من أعند ما يكون، يضرب بها المثل في العناد؛ لأنك تزحزحها عنك، ولكنها ترجع، ثم إذا أمسكت ثوبك أو جلدك ما يمكن أن تنفك، تنقطع ولا تنفك -سبحان الله تعالى-، ومن عنادها أنها إذا أمسكت في الثوب يعني: عضته بقرنيها أو الجلد ما تزحزح أبدا حتى تنقطع، وفيها أيضا يسمونها عندنا القعس، ولكن هذه أنواع لجنس في الواقع، وكلها تسمى نملا، وكلها ذر؛ ولهذا نهي الرسول ﷺ عن قتل النمل يشمل هذا كله.

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {إلا في كتاب مبين} بين، وهو اللوح المحفوظ] هل في هذا

=

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤).

{لِيَجْزِيَ} فِيهَا {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَة وَرِزْق كَرِيم} حَسَن فِي الْجَنَّة[1].

=

إثبات العلم، من قوله تعالى: {ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}؟

الجواب: نعم فيه إثبات العلم؛ لأنه لا كتابة إلا بعد العلم؛ فكتابة المجهول لا تتصور، فيكون فيه فائدة زائدة على إثبات العلم؛ وهو أن معلوم الله مكتوب في اللوح المحفوظ.

ولو قال قائل: الجنة وما فيها شيء واقع يختص بعلم الله سبحانه وتعالى؟

فنقول له: بل نحن نعلم الجنة من وجه ونجهلها من وجه آخر، فنعرف الأسماء منها دون المسميات، فهذا علم وواقع؛ فنعرف أن هناك جنة الآن ونارا، وفيهما ما ذكر من النعيم أو من العذاب لكن نجهل الحقيقة.

فلو أخبرك إنسان بخبر واقع في بلادك مثلا، بل في بيتك الآن الذي أنت ما أنت فيه، فستعرف المعنى لكن لا تعرف الحقيقة كما هي إلا إذا شاهدتها.

(١) قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سبأ: ٤]، أي:"ليثيب الذين صدَّقوا بالله، واتَّبَعوا رسوله، وعملوا الصالحات".

قال الطبري: يقول:"أثبت ذلك في الكتاب المبين كي يثيب الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به وانتهوا عما نهاهم عنه على طاعتهم ربهم".

قال الزجاج: " «اللام» دخلت جوابا لقوله: {قل بلى وربي لتأتينكم} للمجازاة، أي: من أجل المجازاة بالثواب والعقاب".

=

=

قال ابن كثير:"ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..}".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سبأ: ٤]، أي:"أولئك لهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة من ربهم لذنوبهم وعيش هنيء يوم القيامة في الجنة".

قال الزجاج: " بين الله أن جزاءهم المغفرة وهي التغطية على الذنوب".

عن قتادة: " {أولئك لهم مغفرة} لذنوبهم، {ورزق كريم}: في الجنة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ليجزي} اللام هنا للتعليل، وقد علمنا من قواعد اللغة العربية أن حروف الجر لا بد لها من متعلق، ومتعلق هذه اللام قوله سبحانه وتعالى: {لتأتينكم} أي: (لتأتينكم ليجزي الذين) فهذه اللام للتعليل، وهي متعلقة بقوله سبحانه وتعالى: {لتأتينكم} و (يجزي) بمعنى: يكافئ أو يثيب، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيها] أشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [فيها] إلى أن الجار والمجرور متعلق بـ {لتأتينكم}؛ لأن الضمير (فيها) يعود على الساعة.

وقوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات}: {آمنوا} بالقلب، {وعملوا الصالحات} بالجوارح، والإيمان إذا أطلق: شمل أعمال الجوارح الظاهرة، وكذلك العمل إذا أطلق: يشمل الإيمان بالقلب؛ لأن الإيمان بالقلب من أعمال القلوب، فإذا قرنا جميعا صار الإيمان في القلب والعمل في الجوارح، فالإيمان سر والعمل علانية.

=

=

وقولـه تعـالى: {آمنـوا} الإيمـان في اللغـة: التـصديق، وفي الـشرع: التـصديق المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد تصديق، بل هو التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ القبول في الأخبار، والاذعان في الطلب، فيقبل -مثلا-: ما أخبر الله تعالى به رسوله ﷺ، ويقبل: كون هذا الحكم فرضا وكونه تطوعا، وما أشبه ذلك، ويذعن لذلك؛ بمعنى: أنه يتعبد لله تعالى بمقتضي ما آمن به، وبمقتضى ما شرعه الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} يعني: عملوا الأعمال الصالحات، فتكون {الصالحات} وصفا لموصوف محذوف، وحذف المنعوت جائز إذا قامت القرينة عليه، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وما من المنعوت والنعت عقل ... يجوز حذفه وفي النعت يقل

ومن حذف المنعوت قوله تعالى: {أن اعمل سابغات} [سبأ: ١١] أي: دروعا سابغات، فعلى هذا تكون: {الصالحات} صفة لموصوف محذوف؛ أي: الأعمال الصالحات.

وما هي الأعمال الصالحات؟

الجواب: العمل الصالح؛ هو الذي جمع بين أمرين: الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والمتابعة للرسول ﷺ، فإن فقد الأول لم يكن صالحا؛ وكان مردودا على العامل؛ وإن فقد الثاني لم يكن صالحا، وكان مردودا على العامل أيضا.

والدليل في الأول قال الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"، وفي الثاني قال النبي ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" أو: "من أحدث في أمرنا هذا ما

=

=

ليس منه فهو رد".

فلا يمكن أن يكون العمل صالحا إلا بهذين الشرطين: الإخلاص، والمتابعة للرسول ﷺ.

ولو أن رجلا أحدث بدعة من البدع يتدين بها إلى الله سبحانه وتعالى ويجد من قلبه الاطمئنان إليها والخشوع والبكاء لكنها محدثة في دين الله تعالى هل تكون عملا صالحا؟

الجواب: لا تكون، حتى وإن زين للإنسان هذا العمل واطمأن إليه؛ فإنه ليس من العمل الصالح، فلا يكون مقبولا ولا نافعا، بل يأثم به الإنسان؛ لأنه من التقرب إلى الله تعالى بما يكرهه والتقرب إلى الله تعالى بما يكرهه نوع من الاستهزاء بالله.

أرأيت لو أنك آتيت لملك من الملوك، وأهديت إليه قارورة فيها ما يستقذر، فهل تكون مكرما له؟

الجواب: لا يكون مكرما له؛ لأنه يكره هذا الشيء، وأهد إليه طيبا فلا بأس، أما أن تهدي إليه هذا الشيء تتقرب إليه بذلك فهذا ضد ما تريد وهو نوع من الاستهزاء بهذا المكرم أو المعظم.

إذن: الأعمال الصالحات؛ هي التي جمعت بين شرطين: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول ﷺ.

ويوجد بعض الأعمال مما يكره في الشرع لكن الإنسان يطمئن إليه ويرتاح له.

فنقول: لا تغتر بهذه الراحة وهذه الطمأنينة؛ فإن ذلك من تزيين الشيطان، وعباد الأصنام الذين جعلوها شفعاء لهم عند الله تعالى يرتاحون لهذا، ويرون أنها

=

=

واسطة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فهي من الشرك.

مثال هذا: يوجد بعض الناس يغمض عينيه في الصلاة، ويقول: إن ذلك أدعى للخشوع، فهذا من تزيين الشيطان؛ لأن تغميض العين في الصلاة لغير سبب مكروه وخلاف هدي النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان لا يغمض عينيه، ولكنه: إما أن ينظر إلى موضع سجوده أو إلى تلقاء وجهه، أما أنه يغمض عينيه فهذا خلاف السنة، ولهذا كرهه الفقهاء رحمهم الله.

نعم، لو كان هناك سبب للتغميض كما لو كان أمامك شيء يجهر عينيك، أو نقوش تشغلك فهنا التغميض لسبب، لا للتقرب به إلى الله تعالى، ولكن لدفع ما يشوش عليك.

وقوله تعالى: {أولئك لهم مغفرة ورزق كريم} هذه جملة استئنافية لبيان جزائهم؛ لأن قوله تعالى: {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات} مبهم فبين هذا الجزاء بقوله تعالى: {أولئك لهم مغفرة ورزق كريم}، والإشارة في قوله ﷻ: {أولئك} تعود إلى {الذين آمنوا وعملوا الصالحات} وهي مبتدأ، و {لهم} خبر مقدم، و {مغفرة} مبتدأ مؤخر {ورزق كريم} معطوف عليه، والجملة الثانية من المبتدأ والخبر: خبر المبتدإ الأول، فعندنا الآن مبتدآن {أولئك} و {مغفرة}، {أولئك} مبتدأ و {لهم} جار ومجرور خبر مقدم لـ {مغفرة}، {مغفرة} مبتدأ مؤخر، و {ورزق كريم} معطوف عليه، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، والرابط هو الضمير في {لهم}؛ لأنه يعود على المشار إليه.

وقوله سبحانه وتعالى: {أولئك} أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنبيها على علو

=

=

مرتبتهم؛ لأن هذا الصنف من الناس هو أعلى طبقات الناس: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات}.

وقوله تعالى: {مغفرة} بها زوال المكروه، {ورزق كريم} به حصول المطلوب، (فلهم مغفرة) لذنوبهم وخطاياهم، فيغفر الله تعالى لهم الخطايا والذنوب بأن يتجاوز عنهم، ويسترها عليهم؛ لأن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، إذ إن اشتقاقها من المغفر، وهو الذي يلبس على الرأس عند الحرب؛ وفيه فائدتان: ستر الرأس؛ ووقايته من السهام؛ فالمغفرة إذن فيها ستر الذنوب، والتجاوز عنها، وعدم العقوبة عليها.

وقوله تعالى: {ورزق كريم} الرزق: بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا} [النساء: ٨]؛ أي: أعطوهم، والكريم بمعنى الحسن في كيفيته وفي كميته، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أن حسن هذا الرزق لا تبلغه العقول في قوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧]، فثواب هؤلاء المؤمنين العاملين الصالحات أن تغفر سيئاتهم وأن يجازون على عملهم الصالح بالرزق الكريم.

قلت: "الكريم هو الحسن في كميته وكيفيته"، فكميته لا تحص ولا يفنى ولا يبيد وكيفيته أيضا لا يدركها القلب، {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون} [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى: {والذين سعوا في آياتنا معاجزين} إلى آخره؛ سبق وقلنا: إن القرآن مثاني كما وصفه الله تعالى به؛ فقال تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها

=

=

مثاني} [الزمر: ٢٣]، و (مثاني) هذه غير (المثاني) في قوله تعالى: {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} [الحجر: ٨٧]؛ لأن المراد بالسبع من المثاني الفاتحة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، فالمثاني معناه: أنه تثنى فيه المعاني؛ فغالبا إذا ذكر جزاء المتقين ذكر جزاء الكافرين، وإذا ذكر وصف الجنة ذكر وصف النار، إذا ذكرت الأوصاف المحبوبة إلى الله تعالى ذكرت الأوصاف المكروهة إليه؛ لأنه لو ذكر المطلوب فقط من أوصاف أو جزاء أخذ الإنسان الرجاء حتى أمن مكر الله سبحانه وتعالى، وإن ذكر المكروه من ذلك أخذه القنوط واليأس، فكان الله يذكر هذا ثم يذكر إلى جانبه الشيء الآخر؛ حتى يكون الإنسان سائرا إلى ربه بين الخوف والرجاء، لأن هذا هو الاعتدال أن تكون خائفا راجيا في سيرك إلى ربك؛ لأنك إن غلبت الرجاء كنت من الآمنين مكر الله تعالى؛ لأن من غلب الرجاء صار يعمل الذنب ويقول: أرجو أن الله سبحانه وتعالى يغفر لي. ويتهاون بالواجب ويقول: أرجو الله تعالى أن يغفر لي، ومن غلب الخوف دخل في القنوط من رحمة الله.

وبعض العلماء رحمهم الله خالف في هذا، وقال: إنه ينبغي لك عند فعل الطاعة أن تغلب الرجاء، لأنك قمت بما أمرت فارج الله سبحانه وتعالى ثوابه؛ لأن هذا من باب إحسان الظن بالله تعالى، وإذا كنت في مقام المعصية فغلب جانب الخوف؛ لتردع نفسك عما تريد أن تفعله من المعصية.

وأن بعض العلماء رحمهم الله ذهب مذهبا آخر وقال: في حال المرض تقدم جانب الرجاء؛ لأنك الآن في مقام الضعف فتغلب جانب الرجاء وإحسان الظن بالله، فلا تموتن إلا وأنت تحسن الظن بربك ﷻ، وإذا كنت في حال الصحة

=

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥).

{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي} إبْطَال {آيَاتنَا} الْقُرْآن {مُعْجِزِينَ} وَفِي قِرَاءَة هُنَا وَفِيمَا يَأْتِي مُعَاجِزِينَ أَيْ مُقَدِّرِينَ عَجْزنَا أَوْ مُسَابِقِينَ لَنَا فَيَفُوتُونَا لِظَنِّهِمْ أَنْ لَا بَعْث وَلَا عِقَاب {أُولَئِكَ لَهُمْ عذاب من رجز} سيء الْعَذَاب {أَلِيم} مُؤْلِم بِالْجَرِّ وَالرَّفْع صِفَة لِرِجْزٍ أو عذاب[1].

=

فغلب جانب الخوف، والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا فأيهما غلب هلك صاحبه.

والإنسان طبيب نفسه في الواقع لا شك أنك إذا رأيت نفسك تميل إلى الباطل فإنه يجب عليك أن تخوفها بالله، ولا ترجها؛ لأنك إن رجيتها في هذه الحال تقدم على المعاصي.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سبأ: ٥]، أي:"والذين سعوا في الصدِّ عن سبيل الله وتكذيب رسله وإبطال آياتنا مشاقين الله مغالبين أمره".

قال ابن كثير:"أي: سعوا في الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله".

قال أبو عبيدة:"{مُعاجِزِينَ}، أي: مسابقين، {سعوا}: كذّبوا".

قال ابن قتيبة:"{معاجزين} أي: مسابقين. يقال: ما أنت بمعاجزي، أي بمسابقي. وما أنت بمعجزي، أي سابقي وفائتي".

عن قتادة:"{والذين سعوا في آياتنا معاجزين}، قال: أي: لا يعجزون".

وقرئ: «معجزين».

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ} [سبأ: ٥]، أي:"أولئك لهم أسوأ العذاب وأشده ألمًا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠]، وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: ٢٨]".

قال قتادة:"الرجز: هو العذاب الأليم الموجع".

وقرئ: «أليم»، بالرفع والجر.

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{سعوا} في إبطال {آياتنا} القرآن]، فجعل في الآية محذوفا تقديره: في إبطالها، ومعنى (سعوا) أي: مشوا بشدة، هذا في الأصل، ومنه السعي أي: الركض، فالمراد أن هؤلاء يسابقون ويتسارعون إلى إبطال آيات الله سبحانه وتعالى، وإبطالها بالنسبة لهم أن لا يقوموا بها، وإبطالها بالنسبة لغيرهم أن يصدوا الناس عن دين الله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى: {إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام} [الحج: ٢٥] فهؤلاء سعوا غاية السعي في آيات الله لإبطالها وإخفاقها.

وقوله سبحانه وتعالى: {سعوا في آياتنا} لم يبين بماذا سعوا؛ لأن هؤلاء يسعون في إبطال آيات الله تعالى أحيانا بالصراع المسلح، يعني: يهاجمون الديار ويقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم، وأحيانا بالسلاح الفكري، فيبثون فيهم الشبهات؛ في دينهم، في نبيهم، في ربهم؛ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأحيانا يسعون في ذلك بالشهوات؛ فيبثون في الناس حب اللهو والشهوة.

ومن هذا ما تبثه وسائل الإعلام الخبيثة في الدول الكافرة ومن تشبهت بها، فتجدهم يدعون إلى أسافل الأخلاق، يدعون بالقلم وبالصورة، فيصورون

=

=

النساء الفاتنات وعلى صفة مزرية -والعياذ بالله تعالى-، ويكتبون أيضا بالدعوة إلى ذلك، وهذا الأمر يمس العقيدة في الواقع، وليس قاصرا على البدن فقط؛ لأن الإنسان إذا أصبح بهيميا ليس له إلا إشباع بطنه، وإشباع غريزته؛ فإنه يبقى لا صلة له بالله، أهم شيء عنده هذا الذي انغمس فيه من الشهوات واللهوات، فتجده يعرض عن دين الله ولا يهتم به.

ولذلك من أضر ما يكون على البلاد الإسلامية بعد بث السموم الفكرية بث السموم الشهوانية؛ لأن الشهوانية هذه يميل إليها الإنسان بفطرته التي تمليها عليه نفسه الأمارة بالسوء، فيدخل فيها مكرها فإذا انغمس -نسأل الله تعالى العافية- فيها فإنه يقل أن ينتشل نفسه منها.

فالمهم: أن الذين كفروا يسعون سعيا حثيثا في إبطال آيات الله تعالى أن تنشر، أو أن يعمل بها أو أن يتجه الناس إليها، بكل ما يستطيعون من قوة؛ إما بالصراع المسلح، وإما ببث الأفكار المشككة المشبهة، وإما ببث الشهوات حتى يعرض الناس عن دينهم.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{آياتنا}: القرآن] والصواب: أن آياتنا هنا أعم من القرآن؛ لأن الساعين في آيات الله تعالى ليسوا هم من هذه الأمة فقط، حتى في الأمم السابقة فإن فيهم من يسعى في آيات الله تعالى، فمثلا فرعون يهدد قومه يقول: {ما علمت لكم من إله غيري} [القصص: ٣٨]؛ ويحثهم على أن يكفروا بموسى عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك أيضا من الأمم الآخرين كلهم يسعون في آيات الله في إبطالها وصد الناس عنها.

وعلى هذا فنقول: إن المراد بآيات الله تعالى هنا أعم من القرآن، يشمل السعي في

=

=

أي آية من آيات الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{معاجزين} وفي قراءة هنا وفي ما يأتي]، والأصل (معجزين) (يسعون في آياتنا معجزين)، وفي قراءتنا هنا وفي ما يأتي [{معاجزين} أي: مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا فيفوتونا بظنهم أن لا بعث ولا عقاب].

إذن: فيها قراءتان سبعيتان أم إحداهما شاذة؟

الجواب: سبعيتان؛ لأن من اصطلاح المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: (وفي قراءة) فهي سبعية، أما إذا قال: (وقرئ) فهي شاذة، وهذا اصطلاح خاص بالمصنف، فهذا وجدت في هذا التفسر (تفسير الجلالين): (وفي قراءة) فاعلم أنها قراءة سبعية، وإذا وجدت: (وقرئ) فهي قراءة شاذة، والفرق بينهما أن القراءة السبعية يجوز أن يقرأ بها الإنسان في صلاته ويتعبد لله سبحانه وتعالى بها، وأما الشاذة فهي على اسمها شاذة، لكن هل يحتج بها في الأحكام أو لا يحتج؟ فيه خلاف بين العلماء رحمهم الله.

إذن فيها قراءتان: (معجزين) أو {معاجزين}، المعجز معناه: الذي يريد أن يعجز غيره بدون أن يكون من الغير مقابلة له، هذا المعجز، فيكون الإعجاز من طرف واحد، أي: أنهم يريدون بهذا أن يعجزوا الله في عدم مؤاخذتهم وعقابهم؛ لأنهم آمنون من مكر الله سبحانه وتعالى.

و{معاجزين} تكون من طرفين كل واحد منهم يريد إعجاز الآخر فكأنهم لطغيانهم وعدوانهم جعلوا أنفسهم في مقام الصراع مع الله؛ وإن كان الله يريد أن يعجزهم فإنهم أيضا يريدون أن يعجزوا الله سبحانه وتعالى.

وقد سبق أن القراءتين قد تدل كل واحدة منهما على معنى يكمل القراءة

=

=

الأخرى؛ فأيهما أبلغ (المعجز) أو (المعاجز)؟

الجواب: (المعاجز) أبلغ في الطغيان؛ لأنه: أراد أن يجعل نفسه حربا لله ﷻ مقابلا له، فما جزاؤهم؟ قال سبحانه وتعالى: {والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم} [سبأ: ٥].

فقوله تعالى: {أولئك لهم عذاب} نقول في إعراب هذه الجملة كما قلنا في قوله سبحانه وتعالى: {أولئك لهم مغفرة} فهي مبتدأ، وخبره الجملة بعده {لهم عذاب من رجز أليم} العذاب بمعنى: العقاب، والرجز يقول المصنف رحمه الله: [سيئ العذاب]، الرجز هو السيئ من كل شيء، فإذا قيل: عذاب من رجز. فمعناه: سيئ العذاب، بل إنه أسوأ العذاب، فإن أعظم عذاب يعذب به البشر هو عذاب النار -نسأل الله العافية- فهو أسوأ العذاب.

وقول المصنف رحمه الله: [{أليم} أي: مؤلم بالجر والرفع]، يعني: القراءتان [صفة لرجز أو عذاب] يعني: كلمة (أليم) فيها قراءتان: {أولئك لهم عذاب من رجز أليم} أو {عذاب من رجز أليم}.

أما كون (أليم) صفة لعذاب فهي كثيرة في القرآن، {ولهم عذاب أليم} كثيرا ما يصف الله تعالى العذاب بالألم، وأما (الرجز) فإنها كانت صفة لها؛ لأنها أقرب من (عذاب)، وعليه فإذا قلت: {أولئك لهم عذاب من رجز أليم} برفع (أليم) قلنا: إنها صفة لـ (عذاب) وإذا قلت: {أولئك لهم عذاب من رجز أليم} بجر (أليم) قلنا: إنها صفة لـ {رجز}.

ويجوز أن تقرأ بهذا وبهذا، بل يستحب لك أن تقرأ بالقراءتين جميعا وبالثلاث إذا كان فيها ثلاث قراءات؛ لأن اختلاف القراءات كاختلاف الصفات في العبادات،

=

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦).

{وَيَرَى} يَعْلَم {الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم} مُؤْمِنُو أَهْل الْكِتَاب كَعَبْدِ الله بْن سَلَّام وَأَصْحَابه {الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبّك} أَيْ الْقُرْآن {هُوَ} فَصْل {الْحَقّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاط} طَرِيق {الْعَزِيز الحميد} أي الله أي ذِي الْعِزَّة الْمَحْمُود[1].

=

وقد سبق لنا أن الأفضل في ما جاء من العبادات على صفات متعددة أن تعمل بهذا مرة وبهذا مرة حتى تحصل على السنن كلها، وهكذا القراءات، ولكن إياك أن تقرأ وأنت شاك في القراءة؛ لأنه لا يجوز أن نقرأ إلا ونحن متيقنون بأن هذه هي القراءة الصحيحة.

(١) قوله تعالى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ} [سبأ: ٦]، أي:"ويعلم الذين أُعطوا العلم أن القرآن الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق".

قال الطبري: يقول:"أثبت ذلك في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا والذين سعوا في آياتنا ما قد بين لهم، وليرى الذين أوتوا العلم، وهم: مسلمة أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، ونظرائه الذين قد قرءوا كتب الله التي أنزلت قبل الفرقان-، يقول: وليرى هؤلاء الذين أوتوا العلم بكتاب الله الذي هو التوراة الكتاب الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق".

قال الزمخشري:"ويعلم أولو العلم، يعني: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته. أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله ابن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. الذي أنزل إليك... الحق".

=

قال أبو السعود:"أي يعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن يشايعهم من علماء الأمة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضي الله عنهم {الذى أنزل إليك من ربك} أي: القرآن {هو الحق}".

قال السمعاني:"{ويرى الذين أوتوا العلم}، قال بعضهم: هذا في مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وغيره، والصحيح أن الآية في الذين آمنوا بالنبي من أهل مكة وغيرهم، وهو بمكة؛ لأن السورة مكية، وعبد الله بن سلام وأشباهه إنما آمنوا بالمدينة، وقوله: {الذي أنزل إليك من ربك هو الحق} يعني: أنه من الله تعالى".

قال الزجاج:"ههنا علماء إليهود الذين آمنوا بالنبي عليه السلام، منهم: كعب الأحبار وعبد الله بن سلام".

عن السدي: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، قال:"ويعلم الذين أوتوا العلم".

عن الضحاك، قوله:"{ويرى الذين أوتوا العلم}، قال: الذين أوتوا الحكمة من قبل قال: يعني المؤمنين من أهل الكتاب".

وروي عن قتادة:"{ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق}، قال: أصحاب محمد".

قال ابن كثير:"هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله في الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضًا: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣]، ويقال أيضًا: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: ٥٢]، {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ

=

الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ} [الروم: ٥٦]، {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}".

قوله تعالى: {وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [سبأ: ٦]، أي:"ويرشد إلى طريق الله، العزيز الذي لا يغالَب ولا يمانع، بل قهر كل شيء وغلبه، المحمود في أقواله وأفعاله وشرعه".

قال الطبري:"يقول: ويرشد من اتبعه وعمل بما فيه إلى سبيل الله العزيز في انتقامه من أعدائه الحميد عند خلقه، فأياديه عندهم ونعمه لديهم. وإنما يعني أن الكتاب الذي أنزل على محمد يهدي إلى الإسلام".

قال الشوكاني:"الصراط: الطريق، أي: ويهدي إلى طريق العزيز في ملكه الحميد عند خلقه، والمراد: أنه يهدي إلى دين الله وهو التوحيد".

قال السمعاني:"يعني: أن القرآن الذي أنزله الله يهدي إلى صراط العزيز الحميد، وهو الله تعالى".

قال ابن كثير:"العزيز هو: المنيع الجناب، الذي لا يُغالب ولا يُمَانع، بل قد قهر كل شيء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه، وقدره، وهو المحمود في ذلك كله".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ويرى} بمعنى: يعلم؛ لأن الرؤية تكون بمعنى الرؤية بالعين، وتكون الرؤية بالقلب، والرؤية بالقلب هي العلم، و (رأى) بمعنى: علم، وتأتي في القرآن كثيرا مثل قوله تعالى: {إنهم يرونه بعيدا (٦) ونراه قريبا} [المعارج: ٦ - ٧] (نراه) بمعنى: نعلمه؛ لأنه ليس المعنى: نراه بأعيننا، إذ إنه لم

=

=

يقع، وليس المعنى: نظنه؛ لأن الله تعالى منزه عن الظن، وعلى هذا فيكون (نراه) بمعنى: نعلمه، وهنا قوله تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم} أي: [يعلم]، لكنه إذا جاءت: (يرى) بمعنى: (يعلم) دلت على أن العلم في أعلى مقامات العلم؛ وأنه صار كالمشاهد بالعين يرى رؤيا بالغة كالذي يشاهد.

وقوله تعالى: {الذين أوتوا العلم} أي: أعطوه.

وهل المراد بهم أهل الكتاب أو هو عام؟ يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{الذين أوتوا العلم} مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه].

والصواب: أنها أعم من ذلك، وأن المراد بالذين أوتوا العلم كل من أعطاهم الله تعالى العلم فيشمل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فالنجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من النصارى، ورأى أن الذي أنزل إلى النبي عليه الصلاة والسلام حق، وعبد الله بن سلام من أحبار اليهود رأى أن الذي أنزل على النبي ﷺ هو الحق، وكذلك أيضا من آتاه الله تعالى علما من هذه الأمة فإنه يرى أن الذي أنزل إلى النبي ﷺ هو الحق، بخلاف من كان جاهلا فإن إيمانه إيمان تقليد، وهو وإن كان مجزئا عنه لكنه ليس كإيمان الذي آتاه الله تعالى العلم.

ويدل على أن المراد بالذين أوتوا العلم ما هو أعم قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم} [آل عمران: ١٨] فالذين أوتوا العلم هم الذين يرون أن ما أنزل إلى النبي ﷺ هو الحق؛ وذلك بما آتاهم الله سبحانه وتعالى من العلم الراسخ في قلوبهم.

ولهذا تجد عبادة العامي يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة أشبه ما تكون بالعادة، وإن حضر في قلبه الإنابة والخشوع والاستحضار، لكنه ليس كالذي يعبد الله تعالى على بصيرة

=

=

وعلى علم؛ لأن في قلب هذا من اليقين ما ليس في قلب الأول، فيكون عاما.

وقوله تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق} إذا كانت (يرى) علمية فإنها تنصب مفعولين: المفعول الأول: {الذي أنزل} الاسم الموصول، والمفعول الثاني: {هو الحق}، وأما {الذين} الأولى فهي فاعل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{الذي أنزل إليك من ربك} يعني: القرآن]، فإن الله تعالى أنزله إلى النبي ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقول تعالى: {من ربك} هنا أضاف الربوبية إلى النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأن الوحي ربوبية خاصة، إذ لا أحد يشارك النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الأمة في ذلك؛ فلهذا أضاف الربوبية إليه وحده؛ فقال تعالى: {الذي أنزل إليك من ربك} للعناية بهذا المنزل إليه، والمنزل أيضا.

وقوله تعالى: {من ربك} تقدم أن معنى الربوبية هو الخلق والملك والتدبير، فالله تعالى خالق النبي ﷺ ومالكه ومدبره.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: القرآن {هو} فصل {الحق}] هذا هو المفعول الثاني، و (هو) ضمير فصل، لفظه لفظ الضمير لكنه ليس ضميرا؛ ولذلك لا نقول: إنه اسم، وأيضا لا نقول: له محل من الإعراب، يعني: لا محل له من الإعراب، وليس باسم، لكنه جيء به للفصل.

والدليل على أنه لا محل له من الإعراب قوله تعالى: {لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين} [الشعراء: ٤٠]، ولو كان له محل من الإعراب لقال: (هم الغالبون) فلما قال: {هم الغالبين}؛ وصارت {الغالبين} خبر (كان)، دل ذلك على أن هذا الضمير ليس له محل من الإعراب، لكن ما فائدته؟

=

=

الجواب: ذكر العلماء رحمهم الله أن له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: الفصل بين الصفة والخبر.

الفائدة الثانية: الحصر.

الفائدة الثالثة: التوكيد.

أما وجه كونه فاصلا بين الصفة والخبر فلو قلت: "زيد الفاضل"؛ (الفاضل): هنا يحتمل أنها صفة لـ (زيد)، وأن الخبر لم يأت، فيكون الإنسان الآن مترقب للخبر، كأن يكون تقديره: (زيد الفاضل حاضر)، وإذا قلت: "زيد الفاضل حاضر"؛ صارت (الفاضل) هنا صفة بلا شك و (حاضر) خبرا، فإذا قلت: "زيد الفاضل" فقط، يحتمل أنك تريد أن تخبر بأن (زيد فاضل) ويحتمل أنك تريد أن تصف زيدا بأنه فاضل، والخبر لم يأت، فإذا قلت: "زيد هو الفاضل" تعين أن تكون الفاضل خبرا.

وأما كونه مؤكدا أيضا؛ لأنك إذا قلت: زيد الفاضل، وزيد هو الفاضل. هذه أوكد بلا شك، كذلك أيضا مفيد للحصر: فإذا قلت: زيد هو الفاضل؛ معناه: لا غيره. فضمير الفصل إذن يفيد ثلاث فوائد: الحصر، والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

وقوله ﷻ: {هو الحق} بمعنى: الشيء الثابت، فقولك: أحق الشيء. أي: أثبته، ومثاله أيضا قوله تعالى: {حقت عليهم كلمت ربك} [يونس: ٩٦] أي: ثبتت ووجبت، فما هو الثبوت في القرآن؟

الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، فالحق إذا أضيف إلى الحكم فمعناه: العدل، أي: أنه حكم عادل؛ ولهذا لو تنازع خصمان عند القاضي وحكم

=

=

لأحدهما بما تقتضيه الشريعة قلنا: هذا حق؛ لأنه عدل، ولو حكم للثاني بخلافه قلنا: هذا ليس بحق هذا باطل؛ لأنه حكم بغير الحق، فالحق في الأحكام هو العدل، وفي الأخبار هو الصدق، فالذين آتاهم الله تعالى العلم يعلمون أن هذا القرآن حق في أحكامه وحق في أخباره، فأحكامه كلها عدل؛ لأنها وضعت الشيء في نصابه وجعلت الحق لمستحقيه، وأخباره أيضا ثابتة حق، يعني: ثابتة ما فيها كذب، فإذا قلت: هذا خبر حق. أي: صدق، هذا حكم حق، أي: عدل.

ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا} [الأنعام: ١١٥]، وقال العلماء رحمهم الله: صدقا في الأخبار؛ وعدلا في الأحكام.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {هو الحق} ومع ذلك [{ويهدي إلى صراط} طريق {العزيز الحميد} أي: الله؛ ذي العزة المحمود] يهدي بمعنى: يدل، فالهداية هنا هداية دلالة وإرشاد، والهداية نوعان: هداية توفيق؛ وهداية دلالة.

أما هداية التوفيق فلا يملكها إلا الله، قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: ٥٦].

وأما هداية الدلالة فثابتة لكل ما يكون به الإرشاد والدلالة، فالقرآن يهدي إلى صراط مستقيم، والنبي ﷺ يهدي إلى صراط مستقيم، وهنا (يهدي) أي: يدل.

وقوله سبحانه وتعالى: {ويهدي إلى صراط العزيز الحميد} يعني: (الله)، وهنا قال: {صراط العزيز الحميد} كما قال تعالى في سورة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: {لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد} [إبراهيم: ١]، فأضافه إلى هذا الاسم العظيم وهو الدال على العزة؛ إشارة إلى أن من تمسك بهذا الصراط كانت له العزة.

=

=

{الحميد} أيضا إشارة إلى أن من لزم هذا الصراط كان في مقام محمود.

أما {العزيز} الذي هو اسم الله تعالى، فإن {العزيز} من له العزة، والله تعالى له العزة جميعا {إن العزة لله جميعا} [يونس: ٦٥]، العزة التي وصف الله تعالى بها تتضمن ثلاثة معاني: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

أما عزة القدر فمعناها: أن الله ﷻ ذو قدر عظيم، وأما عزة القهر فمعناها: أن الله ذو قهر عظيم؛ وغلبة لا يغلبه أحد، وأما عزة الامتناع فمعناه: أن الله يمتنع عليه النقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يناله نقص أبدا، فهذه هي العزة المضافة إلى الله.

فإن قيل مثلا: هذا عزيز علي؛ أي: ذو قدر شريف عندي، وفي الآية: {وعزني في الخطاب} [ص: ٢٣] يعني: غلبني، هذه عزة القهر والغلبة، ويقال: أرض عزاز. أي: قوية شديدة ما يؤثر فيها وطء الأقدام، وهذه عزة الامتناع، فالله موصوف بالعزة بمعانيها الثلاثة.

وأما {الحميد} فيقول المصنف رحمه الله: إنه بمعنى: [المحمود] وصحيح أن (فعيل) تأتي بمعنى (مفعول)، ومنه قولهم: (قتيل) بمعنى (مقتول)، و (جريح) بمعنى (مجروح)، لكنها تأتي بمعنى (الفاعل) أيضا؛ مثل (عليم) بمعنى (عالم)، (عزيز) بمعنى (عاز)، (حكيم) بمعنى (محكم)، وهكذا تأتي بهذا المعنى.

فإذا كانت تأتي بالوجهين جميعا، أي: بالفاعل والمفعول؛ فهل الأولى أن نجعلها مقصورة على المفعول أو نجعلها شاملة؟

الجواب: الأولى أن نجعلها شاملة؛ فهو ﷻ حميد بمعنى: حامد، وبمعنى (محمود)، أما كونه حامدا فما أكثر ما يثني الله على عباده المؤمنين، إذن هذا

=

=

(حمد) فهو (حامد) سبحانه وتعالى، وأما كونه محمودا، فهذا ظاهر أن الله تعالى له الحمد على كل حال.

والحاصل: أن تفسير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ {الحميد} بـ (المحمود) فيه قصور، والصواب: أنه بمعنى (محمود) وبمعنى (حامد)، وأن له الحمد سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.

وفي إضافة الصراط إلى اسم الله تعالى {الحميد} فيه فائدة؛ أنه يدل على أن من تمسك بهذا الصراط فإنه (عزيز) و (محمود) أيضا؛ (محمود) على التزامه بهذا الصراط.

فإن قيل: في قوله تعالى: {لهم مغفرة ورزق كريم} في الدنيا أم في الآخرة؟

فالجواب: أنه لما ذكر المغفرة فإن آثارها لا تظهر إلا في الآخرة، ولكن -كما سبق- أن الأحسن العموم.

فإن قلت: إننا نجد من المؤمنين العاملين الصالحات من هو فقير، فأين الكرم في الرزق؟

فالجواب: أن نقول كما قال النبي ﷺ: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس"، فقد يكون الإنسان عنده مال كثير لكن حاله حال الفقراء.

أما من لا يرى أن ما أوتيه النبي ﷺ حق فهذا لا يمكن، فكل من أوتي علما فإنه يرى أن ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو الحق، لكنه يكون معاندا مستكبرا، مشكلة هذا المكابرة، وهي أمر ما فيها إلا السيف إذا استحق القتل، وإلا كل إنسان يؤتى العلم لا بد أن يشهد بالحق لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن ما جاء به الرسول مطابق للواقع، فلا بد أن يعلم أنه حق.

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ قَالَ بَعْضهمْ عَلَى جِهَة التَّعْجِيب لِبَعْضٍ {هَلْ نَدُلّكُمْ عَلَى رَجُل} هُوَ مُحَمَّد {يُنَبِّئكُمْ} يُخْبِركُمْ أَنَّكُمْ {إِذَا مُزِّقْتُمْ} قطعتم {كل ممزق} بمعنى تمزيق {إنكم لفي خلق جديد}[١].

=

وقد قال الله سبحانه وتعالى عن آل فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا} [النمل: ١٤]، فهم يستيقنون بها، ويعلمون أنها الحق لكنهم يجحدون، وقال: {قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [الأنعام: ٣٣].

وقوله تعالى: {ويرى الذين أوتوا العلم} يشمل كل من آتاه الله تعالى العلم حتى عبد الله بن سلام وغيره، ومن الجائز أن تنزل الآية قبل أن يحدث الواقع.

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سبأ: ٧].

قال الطبري: يقول:"وقال الذين كفروا بالله وبرسوله محمد ﷺ متعجبين من وعده إياهم البعث بعد الممات بعضهم لبعض".

قال مقاتل:"{وقال الذين كفروا} بالبعث: أبو سفيان، قال لكفار مكة".

قال الزجاج:"هذا قول المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث".

قوله تعالى: {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ} [سبأ: ٧]، أي:"هل ندلكم على رجل (يريدون محمدًا ﷺ) يخبركم".

قال الطبري: يقول:"{هل ندلكم} أيها الناس {على رجل} يخبركم".

قال مقاتل:"يعني النبي - ﷺ - {ينبئكم}: يخبركم".

=

=

قال الزجاج:"يقول بعضهم لبعض: هل ندلكم على محمد".

قال ابن كثير:"هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك".

قوله تعالى: {إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [سبأ: ٧].

قال الطبري: يقول:"أنكم بعد تقطعكم في الأرض بلاء وبعد مصيركم في التراب رفاتا، عائدون كهيئتكم قبل الممات خلقا جديدا".

قال مقاتل:"يخبركم أنكم إذا تفرقتم في الأرض وذهبت اللحوم والعظام، وكنتم ترابا {إنكم لفي خلق جديد}، يعني: البعث بعد الموت".

قال يحيى:"إذا متم وتفرقت عظامكم وكانت رفاتا إنكم لمبعوثون خلقا جديدا، إنكار للبعث".

قال الزجاج:"الذي يزعم أنكم مبعوثون بعد أن تكونوا عظاما وترابا ورفاتا".

قال ابن كثير:"أي: تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق: {إِنَّكُمْ} أي: بعد هذا الحال {لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك".

قال السمعاني:"أي: إذا فرقتم كل تفريق، وقطعتم كل تقطيع، والمعنى: إذا أكلتم الأرض، وصرتم رفاقا وترابا ينبئكم محمد إنكم لفي خلق جديد، قالوا ذلك على طريق الجحد والتكذيب".

عن قتادة: " {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق}، قال ذلك مشركو قريش والمشركون من الناس {ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق} إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطير {إنكم

=

=

لفي خلق جديد} ستحيون وتبعثون".

قال ابن زيد:"يقول: {إذا مزقتم} وإذا بليتم وكنتم عظاما وترابا ورفاتا، ذلك {كل ممزق إنكم لفي خلق جديد}".

قال العثيمين: أولا: في الإعراب والمعاني البلاغية قوله سبحانه وتعالى: {هل ندلكم} المقصود بالاستفهام هنا السخرية، وقوله تعالى: {على رجل} نكر للتحقير، يعني: أنه رجل حقير، كقوله تعالى عمن كذب الرسل عموما: {أهذا الذي يذكر آلهتكم} [الأنبياء: ٣٦]، وقوله سبحانه وتعالى: {أهذا الذي بعث الله رسولا} [الفرقان: ١٤]، فإن هذا للتحقير.

وقوله سبحانه وتعالى: {ينبئكم} تنصب ثلاثة مفاعيل، المفعول الأول الكاف، والمفعول الثاني والثالث معلق بقوله تعالى: {إنكم لفي خلق جديد}.

يقول الله عن الكافرين: إن بعضهم يقول لبعض على جهة التعجب، كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، بل على جهة التحقير: {وقال الذين كفروا} [أي: قال بعضهم على جهة التعجب لبعض: {هل ندلكم على رجل} هو محمد]، الاستفهام هنا قلت: إنه للسخرية.

والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ زاد معنى آخر وهو التعجب، يعني: ألا تتعجبون مما سندلكم عليه.

وقوله تعالى: {على رجل} يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو محمد] لكنهم قالوه بالتنكير على سبيل التحقير لم يذكروه باسمه؛ لأن ذكر الشخص باسمه قد يعني تعلية منزلته، ولكنهم قالوا بهذا اللفظ المنكر تحقيرا له [{ينبئكم} يخبركم أنكم {إذا مزقتم} وقطعتم {كل ممزق} بمعنى: تمزيق] {إنكم لفي خلق جديد} هذا ما ينبأ به

=

=

يقول: {ينبئكم} أي: يخبركم، فالنبأ بمعنى الخبر، وقد يكون النبأ في الأشياء الهامة والخبر في ما هو أعم، فتخبر عن الشيء الهام وعن الشيء الحقير، ولكنك لا تنبئ إلا بشيء عظيم، كقوله تعالى: {عم يتساءلون (١) عن النبإ العظيم} [النبأ: ١ - ٢] وقال تعالى: {قل هو نبأ عظيم (٦٧) أنتم عنه معرضون} [ص: ٦٧ - ٦٨]، فالنبأ قد يستعمل في الأشياء العظيمة بخلاف الخبر فإنه يكون أعم.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {إذا مزقتم كل ممزق} [إذا قطعتم] يعني: تمزيق الأرض للحوم البشر، فإن الإنسان إذا دفن مزقته الأرض وقطعته وصارت عظامه الصلبة رميما: فهم يقولون: إنه {ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: بمعنى تمزيق.

وعلى هذا فكلمة {ممزق} مصدر، لكنه مصدر ميمي.

وقوله تعالى: {إنكم لفي خلق جديد} هذا هو محل النبأ، وهو في محل نصب سد مسد مفعولي ينبئكم الثاني والثالث.

وقوله سبحانه وتعالى: {إذا مزقتم} كلمة {إذا} ظرفية متعلقة بشيء محذوف يدل عليه السياق؛ لأن إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تمزيقهم، ولكنه أنبأهم في الحياة الدنيا: أنما تمزيقهم إذا دفنوا، يعني أنكم إذا دفنتم ومزقتم تكونون في خلق جديد، وهذا الخلق الجديد هو البعث، وهل البعث إعادة لما مضى، أو ابتداء خلق غير الأول؟

الصواب: أنه إعادة ما مضى كما قال الله سبحانه وتعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده} [الروم: ٢٧]، ولكنه سمي خلقا جديدا؛ لأن الإنسان إذا بعث فإنه لا يبعث كحاله في الدنيا، بل يبعث في حال أشد وأقوى؛ لأنه سيبعث على أنه مؤبد

=

أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨).

{أَفْتَرَى} بِفَتْحِ الْهَمْزَة لِلِاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ همزة الوصل {على الله كذبا} في ذلك {أَمْ بِهِ جِنَّة} جُنُون تَخَيَّلَ بِهِ ذَلِكَ قال تعالى {بَلْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} الْمُشْتَمِلَة عَلَى البعث والعذاب {في العذاب} فيها {وَالضَّلَال الْبَعِيد} عَنْ الْحَقّ فِي الدُّنْيَا[1].

=

لا يموت.

ولهذا يتحمل الناس يوم القيامة من الكرب والهم والغم ما لا يتحملونه في الدنيا، فالناس مثلا لو دنت الشمس منهم قدر ميل في الدنيا لأحرقتهم، ولكنها في الآخرة تدنو منهم ومع ذلك لا تحرقهم.

وقوله تعالى: {إنكم لفي خلق جديد} في أوصافه؛ لأن الصحيح أن الخلق هو إعادة ما مضى.

(١) قوله تعالى: {أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ} [سبأ: ٨]، أي:"هذا الرجل هل أختلق الكذب على الله أم به جنون، فهو يتكلم بما لا يدري؟".

قال مقاتل:"ثم قال أبو سفيان: {أفترى محمد} -ﷺ- {على الله كذبا} حين يزعم أنا نبعث بعد الموت؟ {أم به جنة}، يقول: أم بمحمد جنون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هؤلاء الذين كفروا به وأنكروا البعث بعد الممات بعضهم لبعض معجبين من رسول الله ﷺ في وعده إياهم ذلك: أفترى هذا الذي يعدنا أنا بعد أن نمزق كل ممزق في خلق جديد على الله كذبا، فتخلق عليه بذلك باطلا من القول وتخرص عليه قول الزور، أم هو

=

=

مجنون فيتكلم بما لا معنى له".

قال ابن كثير:"وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون".

قال قتادة:"قالوا تكذيبا: {أفترى على الله كذبا} قال: قالوا: إما أن يكون يكذب على الله {أم به جنة} وإما أن يكون مجنونا {بل الذين لا يؤمنون...}، الآية".

قال ابن زيد:"قال ابن زيد: ثم قال بعضهم لبعض: {أفترى على الله كذبا أم به جنة} الرجل مجنون فيتكلم بما لا يعقل؟ فقال الله: {الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد}".

قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ} [سبأ: ٨]، أي:"ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون، بل الذي يجحدون البعث ولا يصدقون بالآخرة".

قال الطبري: يقول:"ما الأمر كما قال هؤلاء المشركون في محمد ﷺ وظنوا به من أنه افترى على الله كذبا، أو أن به جنة، لكن الذين لا يؤمنون بالآخرة من هؤلاء المشركين في عذاب الله في الآخرة وفي الذهاب البعيد عن طريق الحق وقصد السبيل فهم من أجل ذلك يقولون فيه ما يقولون".

قال ابن كثير:"أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، {فِي الْعَذَابِ}، أي: في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، {وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ} من الحق في الدنيا".

=

=

قال السدي، ومقاتل ويحيى بن سلام: {الضلال البعيد}، يعني:"الشقاء الطويل".

قال ابن زيد:"وأمره أن يحلف لهم ليعتبروا وقرأ: {قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن...} الآية كلها، وقرأ: {قل بلى وربي لتأتينكم}".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أفترى} بفتح الهمزة للاستفهام واستغني بها عن همزة الوصل] (أفترى) أصلها (أافترى) لكن همزة الوصل مع همزة الاستفهام تسقط، ومنه قوله تعالى: {أصطفى البنات على البنين} [الصافات: ١٥٣]، {أصطفى} بمعنى: (أاصطفى) فسقطت الهمزة؛ لأنها وقعت بعد همزة الاستفهام، وأظن سقوطها معلوما؛ لأن همزة الوصل تسقط في الوسط، فهذا جاءت همزة الاستفهام صار الكلام متصلا، وإذا كان متصلا سقطت همزة الوصل، ففي قوله تعالى: {فأوحينا إليه أن اصنع الفلك} [المؤمنون: ٢٧] أين ذهبت همزة الوصل في {اصنع}؟

سقطت لاتصال الكلام، فإذن {أفترى} سقطت لاتصال الكلام {أفترى على الله كذبا} في ذلك؛ يعني: في قوله: (إنكم ستبعثون وتنشرون خلقا جديدا) هل هذا افتراء على الله تعالى؟ سيبين الله تعالى ذلك، لكنهم يقولون: إن حاله دائرة بين أمرين: إما رجل مفتر على الله تعالى، افترى على الله تعالى الكذب في ذلك، {أم به جنة} [جنون تخيل به ذلك].

إذن: هم -والعياذ بالله تعالى- قسموا حال النبي ﷺ إلى حالين لا ثالث لهما وهما الافتراء على الله، والثاني الجنون {أم به جنة} أي: جنون تخيل له ذلك به.

فإن قيل: هل هناك حال ثالثة؟

=

=

فالجواب: نعم، هناك حال ثالثة، لكنهم لا يقرون بها، وهو أنه صادق عاقل، صادق لم يفتر، وعاقل ليس به جنة، وهذا هو الواقع، لكنهم هم -والعياذ بالله تعالى- أسقطوا هذا القسم الثالث؛ لأنهم لا يقرون به.

ومن عجب أن هؤلاء الذين يقولون في الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الوصف: إنه إما (مفتر) أو (مجنون) أو (شاعر) أو (كاهن) أو ما أشبه ذلك؛ كانوا يسمونه قبل النبوة (الأمين)، ويرون أنه من أصدق الناس وأعظمهم أمانة؛ لكن -والعياذ بالله تعالى- لما جاء بما لم يوافق أهواءهم صاروا يلقبونه بهذه الألقاب.

وهذه الألقاب السيئة التي لقب المشركون بها رسول الله ﷺ موروثة ورثها أعداء المؤمنين وأولياء المجرمين كما قال تعالى: {إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩) وإذا مروا بهم يتغامزون} [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، فهذه الألقاب السيئة موجودة الآن، كل أعداء الرسل يلقبون أولياء الرسل بمثل ما لقب به الرسول ﷺ.

وسبق في العقيدة أن من الناس من يلقب أهل السنة والجماعة بـ (الحشوية) و (النوابت) و (الغثاء) و (المجسمة) وما أشبه ذلك؛ كل هذا تنفيرا للناس عن سلوك مذهبهم.

يقول تعالى: {أم به جنة} قال الله مبطلا ذلك: {بل الذين لا يؤمنون بالآخرة} [المشتملة على البعث والعذاب {في العذاب والضلال البعيد} عن الحق في الدنيا]، وقوله تعالى: {بل} للإضراب الإبطالي؛ يعني أن الله أبطل هذين القسمين اللذين ردد هؤلاء الكفار حال النبي ﷺ بينهما؛ يعني: بل هو غير مفتر

=

=

وليس به جنة، ولكن هؤلاء الذين لا يؤمنون في العذاب والضلال البعيد، ولا يمكن أن يقروا.

والإضراب قسمان: إضراب إبطالي، وانتقالي، الإضراب الإبطالي معناه: أن ما قبل (بل) باطل، والإضراب الانتقالي معناه أن ما قبل (بل) مرحلة انتقل منها إلى مرحلة أخرى بدون إبطال لها.

ومثال الإضراب الانتقالي قوله تعالى: {بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون} [النمل: ٦٦]، فإن هذا انتقالي، يعني إنهم أولا بعد عنهم الآخرة، ثم شكوا فيها، ثم بعد ذلك عموا عنها - والعياذ بالله تعالى-، فهذه أحوالهم الانتقالية.

قال تعالى: {بل الذين لا يؤمنون بالآخرة} أي: لا يصدقون بها ويعترفون، أي: لا يؤمنون بوجودها ولا يؤمنون بما يحصل فيها، وقد سبق أن اليوم الآخر يدخل فيه كل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فكل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت كفتنة القبر ونعيمه وعذابه فإنها داخلة في الآخرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المشتملة على البعث والعذاب {في العذاب} فيها {والضلال البعيد} يعني: الحق في الدنيا] المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيد المطلق في الموضعين، فهنا قال الله تعالى: {في العذاب} والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [في الآخرة] وقال سبحانه وتعالى: {والضلال البعيد} وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الدنيا].

والأصح أن الآية مطلقة؛ فهم في العذاب في الدنيا وفي الآخرة، أما عذاب الآخرة فظاهر، وأما عذاب الدنيا فما في قلوبهم من الحرج والضيق وما يحصل عليهم أيضا من العذاب من الله، كما قال سبحانه وتعالى: {فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من

=

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩).

{أَفَلَمْ يَرَوْا} يَنْظُرُوا {إِلَى مَا بَيْن أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفهمْ} مَا فَوْقهمْ وَمَا تَحْتهمْ

=

أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا} [العنكبوت: ٤٠]، وكذلك العذاب الذي يجري على أيدي الرسل كالعذاب الذي يحصل لهم بالهزائم، فإن هذا من عذاب الدنيا، أما الآخرة فظاهر.

إذن: {في العذاب} يشمل الدنيا والآخرة، وتقييده بالآخرة فيه نظر، بل إنه يجب علينا ألا نقيد شيئا أطلقه الله تعالى إلا بدليل من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والضلال البعيد} عن الحق في الدنيا]؛ فهم في ضلال بعيد، يعني: عن الحق، وهم أيضا في ضلال في الآخرة فإنهم لا يهدون إلى الصراط الذي ينجو به من عبره من النار، ولكنهم يهدون إلى صراط الجحيم فيضلون عن الصراط الذي به النجاة.

قال الله سبحانه وتعالى: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم} [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، وقال تعالى عن المؤمنين: {نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} [التحريم: ٨]، فدل ذلك على أن الضلال كما يكون في الدنيا يكون كذلك في الآخرة، فالأولى إذن إبقاء النص على عمومه في الدنيا وفي الآخرة.

{مِنْ السَّمَاء وَالْأَرْض إنْ نَشَأْ نَخْسِف بِهِمْ الْأَرْض أَوْ نُسْقِط عَلَيْهِمْ كِسْفًا} بِسُكُونِ السِّين وَفَتْحهَا قطعا {من السماء} وَفِي قِرَاءَة فِي الْأَفْعَال الثَّلَاثَة بِالْيَاءِ {إنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَرْئِيّ {لَآيَة لِكُلِّ عَبْد مُنِيب} رَاجِع إلَى رَبّه تَدُلّ عَلَى قُدْرَة الله عَلَى الْبَعْث وَمَا يَشَاء[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [سبأ: ٩]، أي:"أفلم ير هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة عظيم قدرة الله فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض مما يبهر العقول، وأنهما قد أحاطتا بهم؟".

قال الطبري: يقول:"أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون البعث بعد الممات القائلون لرسولنا محمد ﷺ {أفترى على الله كذبا أم به جنة} إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ فيرتدعوا عن جهلهم وينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا".

قال الزجاج:"أي: ألم يتأملوا ويعلموا أن الذي خلق السماء والأرض قادر على أن يبعثهم".

قال ابن كثير:"أي: حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مظلة مُظلَّلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ. وَالأرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} [الذاريات: ٤٧، ٤٨]".

قال قتادة:"ينظرون عن أيمانهم وعن شمائلهم كيف السماء قد أحاطت بهم".

قوله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} =

=

[سبأ: ٩]، أي:"إن نشأ نخسف بهم الأرض، كما فعلنا بقارون، أو ننزل عليهم قطعًا من العذاب، كما فعلنا بقوم شعيب".

قال الطبري: يقول:"حذرا أن نأمر الأرض فتخسف بهم أو السماء فتسقط عليه قطعا، فإنا إن نشأ نفعل ذلك بهم فعلنا".

قال ابن كثير:"أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا".

قال الزجاج:"وقادر أن يخسف بهم الأرض أو يسقط السماء عليهم كسفا".

قال قتادة: " {إن نشأ نخسف بهم الأرض}، كما خسفنا بمن كان قبلهم، {أو نسقط عليهم كسفا من السماء}، أي: قطعا من السماء".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} [سبأ: ٩]، أي:"إن في ذلك الذي ذكرنا من قدرتنا لَدلالة ظاهرة لكل عبد راجع إلى ربه بالتوبة، ومقر له بتوحيده، ومخلص له في العبادة".

قال الطبري: يقول:"إن في إحاطة السماء والأرض بعباد الله لآية: يقول: لدلالة لكل عبد منيب: يقول لكل عبد أناب إلى ربه بالتوبة، ورجع إلى معرفة توحيده والإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته والإذعان لطاعته على أن فاعل ذلك لا يمتنع عليه فعل شيء أراد فعله ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه".

قال الزجاج:"أي: إن في ذلك علامة تدل من أناب إلى الله ورجع إليه وتأمل ما خلق على أنه قادر على أن يحيي الموتى".

قال ابن كثير:"أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن مَنْ

=

=

قـدر علـى خلـق هـذه الـسموات في ارتفاعهـا واتـساعها، وهـذه الأرضـين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى} [يس: ٨١]، وقال: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧]".

قال قتادة:"المنيب: المقبل التائب".

قال ابن عباس:"المنيب: المقبل إلى طاعة الله".

عن مجاهد وعكرمة، قالا: "المنيب: المخبت".

قال يحيى بن سلام:"هو المقبل إلى الله بالإخلاص له".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{أفلم يروا} ينظروا {إلى ما بين أيديهم وما خلفهم} وما فوقهم وما تحتهم {من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء}] إلخ؛ الاستفهام هنا للتهديد يعني أن الله تعالى هدد هؤلاء الذين كذبوا النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: إنهم سيعادون. هددهم بأحد أمرين: بالخسف أو إسقاط الكسف، أي: القطع من العذاب من فوقهم، وإنما ذكر الفوق والتحت؛ لأنه لا يمكن الفرار منهما، أما اليمين والشمال والخلف والأمام فيمكن الفرار؛ فلو جاءك عدو من الخلف أمكنك أن تفر إلى الأمام، ولو جاءك من الأمام أمكنك أن تفر إلى الخلف، لكن إذا جاء من أسفل إلى أين تذهب؟! تقفز ما تستطيع، وإذا جاءك من فوق أين تذهب؟! لا تستطيع؛ لهذا هددهم الله تعالى بأمرين لا يمكنهم الفرار منهما.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: {يروا} فسرها بمعنى: [ينظروا]، والأولى أن تكون شاملة

=

=

للرؤية البصرية التي بمعنى النظر، والرؤية القلبية التي بمعنى العلم والتفكر، يعني: أن الله يحثهم على أن يتفكروا حثا يراد به التهديد، فالرؤية هنا شاملة لرؤية النظر بالعين ورؤية القلب بالتفكر.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ما بين أيديهم وما خلفهم} ما فوقهم وما تحتهم]، أيهما الذي بين الأيدي على كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بناء على أنه لف ونشر مرتب؛ يكون ما فوقهم هو الذي بين أيديهم وما خلفهم هو الذي تحتهم.

ولكن قد يقول قائل: إن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، بل نقول: ما بين أيديهم، أي: ما أمامهم وما خلفهم ما وراء ظهورهم. فيحتمل أن المراد بما بين أيديهم أمامهم من الزمن، ويحتمل أن يكون المراد ما بين أيديهم أي: المكان، وكذلك نقول فيما خلفهم.

فقد يكون ما بين اليد هو ما أمامك من الزمان وما خلفك ما خلفته من الزمان، كما في قوله تعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} [البقرة: ٢٥٥]، أي: ما بين أيديهم ما يستقبل، وما خلفهم ما مضى، وقد يكون المراد به المكان، كما تقول: مررت بين يدي المصلي. أي: أمامه، وتقول: المأموم يقف خلف الإمام. أي: وراءه في المكان.

وأما في قوله تعالى: {أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم} نقول فيها: يحتمل أن يكون المراد فيها المكان، ويحتمل أن يكون المراد الزمان، والمراد أن يتفكروا في الأمر: هل نجا أحد من عذاب الله؟ انظر ما بين يديك في المكان، أو ما بين يديك في الزمان، وما خلفك من المكان أو الزمان: هل نجا أحد من عذاب الله؟

=

=

والجواب: لا، لم ينج، إذن: هم أيضا لا ينجون من عذاب الله تعالى.

وإعراب قوله تعالى {أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم}: اختلف فيه علماء النحو رحمهم الله هو: أن النحويين اختلفوا في إعراب الجملة إذا كانت مصدرة بهمزة الاستفهام وبعدها حرف عطف، فقيل: إن الهمزة -يعني: همزة الاستفهام- داخلة على شيء مقدر بحسب السياق، وقيل: إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة بدون تقدير، وأن حرف العطف كان من حقه أن يتقدم على الهمزة؛ لكنها قدمت عليها لأن لها الصدارة.

فعلى الوجه الأول يكون التقدير في قوله تعالى: {أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم} أغفلوا أو أأعرضوا وما أشبه ذلك.

وأما على الثاني فلا حاجة إلى هذا التقدير، بل نقول: إن (الهمزة) للاستفهام والفاء حرف عطف وتأخرت عن الهمزة؛ لأن لها الصدارة.

والثاني أحسن؛ لأن كوننا نقول: إن الهمزة داخلة على هذه الجملة نفسها أولى، وذلك لأن القول الأول قد يعوزك تقدير المحذوف -يعني: بمعنى أنه يصعب عليك أن تقدر المحذوف-، أما هذا فبناء على أن الجملة هذه معطوفة على ما سبق، لكن لا تحتاج إلى تقدير فلا تتعب فيه.

وقوله تعالى: {إن نشأ نخسف بهم الأرض} الجملة هنا شرطية، وفعل الشرط فيها وجوابه مضارع مجزوم {إن نشأ نخسف}، وقوله: {أو نسقط} معطوفة على {نخسف}، أو إن نشأ نسقط عليهم كسفا، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بسكون السين وفتحها: قطعة] يعني: أن فيها قراءتين سبعيتين: بسكون السين (كسفا) أو (كسفا) بفتح السين، ويجوز القراءة بهما جميعا.

=

وقد سبق أن ذكرنا أن القراءات إذا تعددت فالأفضل أن يقرأ بهذا تارة وبهذا تارة؛ لأنها كلها حق، وكونه يلتزم قراءة واحدة فهذا فيه قصور؛ إلا أن القراءات التي لم تتيقن أنها ثابتة فلا يجوز لك أن تقرأ بها؛ لأنه يجب أن تقرأ بما ثبت عندك.

وقوله تعالى: {نسقط عليهم كسفا من السماء} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءة: في الأفعال الثلاثة بالياء] والأفعال الثلاثة (يشأ)، (يخسف)، و (يسقط)، بالياء فيقال: (إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء) والفاعل في الضمائر هنا يعود على الله، أما على قراءة النون: (إن نشأ) فالأمر ظاهر؛ لأن الضمير فيها ضمير المتكلم، لكن على قراءة الياء الضمير فيها ضمير الغائب، وضمير الغائب لا بد فيه من مرجع يرجع إليه إما سابق وإما لاحق، فأين مرجع الضمير {إن نشأ}؟

الجواب: يقال: إنه معلوم من السياق، كما في قوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، من الذي خلقه؟ الله تعالى، فهنا يعلم كل أحد أنه لا يستطيع أحد من البشر -ولا من غير البشر- أن يخسف الأرض بالناس، أو يسقط عليهم قطعا من العذاب، فيكون مرجع الضمير معلوما بالسياق.

قوله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن في ذلك} المرئي {لآية لكل عبد منيب} راجع إلى ربه، تدل على قدرة الله على البعث وما يشاء]، يعني: إن الآية تدل على البعث، {إن في ذلك} أي: فيما بين أيديهم من السماء والأرض، يعني: يشمل كل ما سبق، وكل ما مضى، وكل ما أمامهم من مكان، وكل ما كان خلفهم، ومن ذلك أننا نرى الآية في السماء ينزل المطر من السماء على الأرض الهامدة اليابسة فترجع مخضرة حية؛ أفلا يكون في ذلك دليل على إمكان إعادة الخلق؟

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠).

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُد مِنَّا فَضْلًا} نُبُوَّة وَكِتَابًا وَقُلْنَا {يَا جِبَال أَوِّبِي} رَجِّعِي {مَعَهُ}

=

الجواب: بلى؛ ولهذا قال تعالى: {إن في ذلك} أي: المنظور من ما بين أيدينا وما خلفنا من السماء والأرض {لآية} أي: علامة على قدرة الله وعلى علمه وحكمته، لكن هذه الآية ليست آية عامة لأحد، بل: {لكل عبد منيب}.

وقوله سبحانه وتعالى: {عبد} مأخوذ من العبودية وهي التذلل، وقد سبق لنا أن التذلل نوعان: تذلل للأمر الشرعي، وتذلل للأمر الكوني، وأيهما المحمود المثاب عليه؟

الجواب: التذلل للأمر الشرعي، أما التذلل للأمر الكوني فإن هذا لا طاقة للإنسان به، ولا يحمد عليه، فكون الإنسان يذل لأمر الله تعالى الكوني من مرض أو فقر أو موت أهل أو ما أشبه ذلك، هل يحمد عليه؟

الجواب: لا يحمد عليه؛ لأنه ليس من فعله، لكن كونه يذل لأمر الله تعالى الشرعي فيقوم بشرع الله سبحانه وتعالى هذا هو الذي يحمد عليه، هنا المراد بـ (العبد) المتذلل للأمر الشرعي، بدليل قوله تعالى: {منيب} أي: راجع إلى الله سبحانه وتعالى من معصيته إلى طاعته، فيشمل القائم بالعبادة ولو بدون أن يذنب، ويشمل التائب من الذنب.

فإن الرجل إذا قام يصلي يتعبد لله يقال: إنه أناب إلى الله تعالى. وإذا أذنب ثم استغفر وعاد يقال: إنه أناب إلى الله تعالى. أيضا، فالإنابة هنا تشمل الإنابة من ذنب فعله فتكون بمعنى التوبة، وتشمل الإنابة إلى الله تعالى القيام بطاعته فتكون أشمل وأعم.

بِالتَّسْبِيحِ {وَالطَّيْر} بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلّ الْجِبَال أَيْ ودعوناهما تُسَبِّح مَعَهُ {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيد} فَكَانَ فِي يده كالعجين.

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١).

وَقُلْنَا {أَنْ اعْمَلْ} مِنْهُ {سَابِغَات} دُرُوعًا كَوامِلَ يَجُرّهَا لَابِسهَا عَلَى الْأَرْض {وَقَدِّرْ فِي السَّرْد} أَيْ نَسْج الدُّرُوع قِيلَ لِصَانِعِهَا سَرَّاد أَيْ اجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَب حِلَقه {وَاعْمَلُوا} أَيْ آل دَاوُد مَعَهُ {صَالِحًا إنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير} فأجازيكم به[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا} [سبأ: ١٠]، أي:"ولقد آتينا داود نبوة، وكتابًا وعلمًا".

قال الطبري: يقول:"ولقد أعطينا داود منا فضلا".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدَد والعُدَد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات".

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود».

وقال أبو عثمان النهدي: " صليت خلف أبي موسى الأشعري فما سمعت صوت صنْجٍ ولا بَرْبَط ولا ناي أحسن من صوته".

=

=

قوله تعالى: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ} [سبأ: ١٠]، أي:"وقلنا للجبال والطير: سبِّحي معه".

قال الطبري: يقول:"وقلنا للجبال: سبحي معه إذا سبح".

قال ابن قتيبة:"أي: سبحي. وأصله: التأويب في السير؛ وهو: أن تسير النهار كله وتنزل ليلا. قال ابن مقبل:

لحقنا بحي أوبوا السير بعد ما... دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح

كأنه أراد: أوبي النهار كله بالتسبيح إلى الليل".

قال أبو عبيدة:"التأويب: أن يبيت فى أهله، قال سلامة بن جندل:

يومان يوم مقامات وأندية... ويوم سير إلى الأعداء تأويب

أي: رجوع".

عن ابن عباس: " {أوبي معه}، قال: سبحي معه". وروي عن مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، والزهري، وابن جريج، وابن زيد، مثله.

قال قتادة:"أي: سبحي معه إذا سبح".

عن أبي ميسرة: " {يا جبال أوبي معه}، قال: سبحي بلسان الحبشة".

قال ابن كثير:"وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سَبّحي بلسان الحبشة، وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه "الجُمل" في باب النداء منه: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} أي: سيري معه بالنهار كله، والتأويب: سير النهار كله، والإسآد: سير الليل كله. وهذا لفظه، وهو غريب جدًا لم أجده لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة، لكنه بعيد في معنى الآية هاهنا.

=

=

والصواب أن المعنى في قوله تعالى: {أَوِّبِي مَعَهُ} أي: رَجّعي معه مُسَبّحة معه، كما تقدم، والله أعلم".

قوله تعالى: {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} [سبأ: ١٠]، أي:"وجعلنا الحديد لينًا بين يديه حتى كان كالعجين".

قال الحسن:"يصير في يده مثل العجين، فيصنع منه الدروع".

قال قتادة:"لينه الله فكان يعمله بغير نار".

قال قتادة:"سخر الله له الحديد بغير نار".

قال قتادة:"كان يسويها بيده ولا يدخلها نارا ولا يضربها بحديدة".

قال يحيى:"ألانه الله له فكان يعمله بلا نار ولا مطرقة، بأصابعه الثلاث كهيئة الطين بيده".

قوله تعالى: {أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ} [سبأ: ١١]، أي:"أن اعمل منه دروعًا تامات واسعات التي تقي الإنسان شر الحرب".

قال الطبري:"يقول: وعهدنا إليه أن اعمل سابغات: وهي التوام الكوامل من الدروع".

قال ابن قتيبة:"{السابغات}: الدروع الواسعة".

قال ابن زيد:"السابغات دروع الحديد".

قال قتادة:"دروع سابغات".

عن قتادة: " {أن اعمل سابغات}: دروع وكان أول من صنعها داود، إنما كان قبل ذلك صفائح".

قوله تعالى: {وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ} [سبأ: ١١]، أي:"وقدر في نسج الدروع بحيث

=

=

تتناسب حلقاتها".

قال الطبري: يقول:"وقدر المسامير في حلق الدروع حتى يكون بمقدار لا تغلظ المسمار، وتضيق الحلقة فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة وتصغر المسامير وتدقها فتسلس في الحلقة".

قال ابن قتيبة:"أي: في النسج، أي: لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتكسر الحلق. ومنه قيل لصانع حلق الدروع: سراد وزراد. تبدل من السين الزاي، كما يقال:

سراط وزراط. والسرد: الخرز أيضا. قال الشماخ:

كما تابعت سرد العنان الخوازر

ويقال للإثفى: مسرد وسراد".

قال مجاهد: "قدر المسامير والحلق؛ لا تدق المسامير فتسلس ولا تجلها، قال محمد بن عمرو وقال الحارث: فتفصم".

قال الحكم:"لا تغلظ المسمار فيفصم الحلقة ولا تدقه فيقلق".

قال ابن كثير:": هذا إرشاد من الله لنبيه داود، عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع".

وفي معنى «السرد»، هاهنا- قولان:

أحدهما: أن السرد هو مسمار حلق الدرع. قاله قتادة.

قال قتادة:"كان يجعلها بغير نار، ولا يقرعها بحديد، ثم يسردها. والسرد: المسامير التي في الحلق".

الثاني: انه الحلق بعينها. وهذا قول ابن زيد.

وقال ابن عابس:"يعني بالسرد: ثقب الدروع فيسد قتيرها".

=

=

قوله تعالى: {وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [سبأ: ١١]، أي:"واعمل يا داود أنت وأهلك بطاعة الله".

قال الطبري: يقول:"واعمل يا داود أنت وآلك بطاعة الله".

قال ابن كثير:"أي: في الذي أعطاكم الله من النعم".

قوله تعالى: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سبأ: ١١]، أي:"إني بما تعملون بصير لا يخفى عليَّ شيء منها".

قال الطبري: يقول:"إني بما تعمل أنت وأتباعك ذو بصر لا يخفى علي منه شيء، وأنا مجازيك وإياهم على جميع ذلك".

قال ابن كثير:"أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء".

قال العثيمين: الواو حرف عطف، ويجوز أن تكون للاستئناف واللام موطئة للقسم، و (قد) للتحقيق، ومثل هذا التركيب يأتي في القرآن كثيرا، ويقال فيه: إن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، و (قد)، فتقدير هذه الجملة: "والله لقد آتينا داود منا فضلا".

وهل يجوز أن تحذف اللام؟

الجواب: نعم يجوز، قال الله سبحانه وتعالى: {والشمس وضحاها (١) والقمر إذا تلاها (٢) والنهار إذا جلاها (٣) والليل إذا يغشاها (٤) والسماء وما بناها} [الشمس: ١ – ٥]، إلى أن قال سبحانه وتعالى: {قد أفلح من زكاها} [الشمس: ٩]، هذا جواب القسم، ويجوز في (قد أفلح من زكاها) في غير القرآن أن نقول: لقد أفلح.

=

=

وهل يجوز أن تحذف اللام و (قد)؟

الجواب: نعم يجوز، كقوله تعالى: {والسماء ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣) قتل أصحاب الأخدود} [البروج: ١ - ٤]، فـ (قتل) هذا جواب القسم ليس فيه (قد) ولا اللام.

فصار جواب القسم إذا كان فعلا ماضيا جاز فيه ثلاثة أوجه: أن يقترن باللام و (قد)، أن يقترن بـ (قد)، أن تحذف منه اللام و (قد)، لكن لا تحذف اللام ولا تحذف (قد) في الغالب إلا إذا طال القسم، أما إذا لم يطل فإنها لا تحذف، فإن قلت: (والله لقد قام زيد)، فهذا صحيح، وهذا هو الأصل، (والله قد قام زيد)، هذا أيضا صحيح حذفنا اللام، و (الله قام زيد) هذا أيضا صحيح حذفنا منه اللام و (قد).

وقوله تعالى: {آتينا} بمعنى: أعطينا، وهي تنصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وكل فعل ينصب مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر يسمى من (باب أعطى وكسا)، فهنا: {آتينا داوود منا فضلا}، {داوود} المفعول الأول، و {فضلا} المفعول الثاني، ولا يمكن أن يكون هذا مبتدأ وخبرا؛ فلو قلت: (داود فضل) فإنه لا يصلح، ويقال: (أتينا) ولكنها يختلف معناها عن معنى {آتينا}، بل معنى {آتينا}: جئنا، قال الله تعالى: {ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون} [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: {أتى أمر الله} [النحل: ١] أي: جاء أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: {داوود} هو أحد أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، وهو بعد موسى قال تعالى: {ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي

=

=

لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله} [البقرة: ٢٤٦]، وفي القصة أن داود كان منهم، إذن فهو بعد موسى، وهو نبي من الأنبياء، وقد أنكرت اليهود -لعنة الله عليهم- كونه نبيا، ووصفوه بأنه ملك، وقد كذبوا في ذلك، فإنه كان نبيا من أنبياء الله تعالى الذين يجب علينا أن نؤمن بهم، ولا يتم إيماننا إلا بالإيمان بهم؛ لأن أركان الإيمان كما نعلم: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، وهو أيضا رسول؛ لأن كل نبي ذكر في القرآن فهو رسول.

وقوله تعالى: {ولقد آتينا داوود منا فضلا}: {منا} بدأ بالجهة قبل الفضل؛ ليتبين عظم ذلك الفضل؛ لأن الشيء إذا نسب إلى جهة عظيمة كان عظيما كما في قوله في الحديث الصحيح: "واغفر لي مغفرة من عندك وارحمني" قال: "من عندك" فأضافها إلى الله تعالى؛ حتى يتبين في ذلك عظمها.

قوله سبحانه وتعالى: {آتينا داوود منا فضلا} [نبوة وكتابا]، وهذا الذي فسر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ به من باب التمثيل، فإن الله سبحانه وتعالى أعطاه النبوة والرسالة أيضا، وأعطاه الكتاب قال الله تعالى: {وآتينا داوود زبورا} [النساء: ١٦٣]، وهل أعطاه شيئا آخر غير هذا؟ نعم؛ ولهذا نكر كلمة (فضل)، جاءت منكرة؛ لتشمل كل ما أعطيه من فضل؛ سواء كان ذلك دينيا أو دنيويا.

وكان داود عليه الصلاة والسلام من أحسن الناس صوتا وترنما بالذكر، حتى إن الله أمر الجبال أمرا إما كونيا وإما شرعيا؛ فقال تعالى لها: {ياجبال أوبي معه} (أوب) بمعنى: (رجع)، ومنها (الأواب) أي: (الرجاع) إلى الله تعالى، ومنه (آب، يؤوب، أوبا) بمعنى: (رجع)، فـ (أوبي معه) أي: رجعي معه، والترجيع معناه: أن تردد الصوت الذي يقوله، فمثلا: إذا قرأ سمعت كأن الجبال التي حوله

=

=

كلها تقرأ بقراءته.

وهذا غير ما نسمعه نحن من الصدى الذي يحصل لكل إنسان؛ لأن هذا الصدى الذي يحصل لكل إنسان إذا كانت قد أحاطت به الجبال هذا أمر طبيعي، لكن هذا الذي أوتيه داود عليه السلام فوق ذلك، فكانت الجبال ترجع معه؛ وذلك لحسن صوته، ونغماته؛ حتى إن الجبال ترجع معه بأمر الله سبحانه وتعالى.

{والطير} الطير يقول: [بالنصب؛ عطفا على محل الجبال]، لأن (يا جبال) هذه منادى مبني على الضم في محل نصب، وإنما بني على الضم وهو نكرة؛ لأنه مقصود، والنكرة المقصودة بمعنى العلم، فلهذا بنيت على الضم.

{والطير} لو عطفت على اللفظ {ياجبال} لكانت مرفوعة مبنية على الضم؛ لكنها عطفت على محل الجبال وهو النصب، يعني: وكذلك أمر الله تعالى الطير بأن ترجع معه، فكانت الطيور في جو السماء تقف عند سماع قراءة داود عليه الصلاة والسلام فترجع معه.

وأنت إذا تصورت هذا الأمر وأن رجلا يقرأ الزبور بتلك القراءة والنغمات الجميلة ثم الطيور من فوق تسبح والجبال؛ لا شك أنه مشهد عظيم ورهيب، فكل شيء يقرأ بقراءة هذا الرجل بأمر الله!.

وقوله رحمه الله: {وألنا له الحديد} [فكان في يده كالعجين] أي: جعلناه لينا بيده حتى إنه كالعجين في يد أحدنا، وهل المراد أن الله تعالى ألانه له بالوسائل التي تلين الحديد سخرت له وهيئت له، أو أن الله تعالى ألان له الحديد بغير السبب المعلوم؟

الجواب: يرى بعض الناس أنه الأول؛ وأن المراد بقوله سبحانه وتعالى: {وألنا

=

=

له الحديد} أي: يسرنا له الأسباب التي تلين ذلك الحديد؛ لأن تيسير الأسباب لا شك أنه من نعمة الله سبحانه وتعالى، أرأيت لو أنك تريد أن تعكف سيخا من الحديد وعندك نار ضعيفة فإنك تتعب في ذلك، لكن لو كان عندك نار قوية جدا كان في خلال دقائق قليلة يلين هذا الحديد كما تشاء. فيرى بعض العلماء رحمهم الله أن المراد من تليين الحديد لداود عليه السلام تيسير
الأسباب التي يسرع بها لينه.

ولكن بعض أهل العلم رحمهم الله يقول: إن الله تعالى ألان له الحديد بغير سبب، بل بقدرة الله، وجعل الله تعالى ذلك آية له؛ كما جعل الله عصا موسى إذا نزلت في الأرض كانت حية، وإذا رفعها صارت عصا في آن واحد وفي لحظة واحدة، فالله تعالى على كل شيء قدير، والذي جعل الحديد صلبا قادر على أن يجعله لينا.

وعندي أن هذا أقرب إلى المعنى، أولا: لأن الله سبحانه وتعالى قال: {وألنا له} فجعل التليين مضافا إليه؛ إشارة إلى أن لين هذا الحديد بمجرد القدرة، وكوننا نقول: إن هذا بأسباب عادية لكنها يسرت له. هذا خلاف ظاهر الآية، ثم لو قلنا بهذا القول هل تكون هذه آية له؟

الجواب: لا؛ لأن كل من تيسر له أسباب إلانة الحديد ألان الله سبحانه وتعالى له الحديد.

فألان الله تعالى له الحديد حتى صار بيده مثل العجين يقدر على أن يدوره، على أن يجعله دقيقا، على أن يجعله غليظا حسبما يريد؛ ولهذا قال تعالى: {أن اعمل سابغات}، هذه هي الحكمة من كون الله تعالى ألان له الحديد أن يعمل منه

=

=

الدروع للمجاهدين في سبيل الله تعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقلنا {أن اعمل}] أما {أن} مصدرية عرف عاملها، والتقدير: [وقلنا] {أن اعمل}] أي: بـ (أن اعمل) أي: بالعمل، ويحتمل أن تكون (أن) تفسيرية؛ وأن نقدر المحذوف بـ (أوحينا) و (أوحينا إليه أن اعمل)؛ لأن (أن) التفسيرية هي التي سبقها معنى القول دون حروفه.

وهذا أقرب من تقدير المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (وأن اعمل) أي: وأوحينا إليه أن اعمل سابغات.

واعمل بمعنى: اصنع، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [منه] أي: من الحديد {سابغات} فسرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دروعا كوامل يجرها لابسها على الأرض]، وأفادنا بقوله: دروعا. أفادنا بأن {سابغات} صفة لموصوف محذوف، وهذا المحذوف تقديره: دروعا، وحذف الموصوف جائز، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وما من المنعوت والنعت عقل ... يجوز حذفه وفي النعت يقل

والسابغ من كل شيء هو الكامل الضافي التام، ومنه قوله تعالى: {وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة} [لقمان: ٢٠]، أي: أتمها وأكملها، ومنه: إسباغ الوضوء أي: إتمامه وإكماله.

فهذه الدروع السابغات؛ يعني: الوافيات الكوامل التي تمنع لابسها من أن يناله أذى، وأما قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يجرها لابسها على الأرض] ففي هذا نظر؛ لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يجرها على الأرض؛ ولأنها إذا بلغت إلى هذا المستوى فربما تعيق من الكر والفر، والمعروف أن الدروع تصل إلى الركبة فقط، هذا غايتها؛ لأنها حديد، وإذا لبس الإنسان حديدا يصل إلى الأرض فإنه سيكون

=

=

مكبلا بالأغلال، فالواجب أن نقول: "سابغات أي: كاملات، ليس فيها نقص". وكمال كل شيء بحسبه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {أن اعمل سابغات وقدر في السرد} أي: [نسج الدروع قيل لصانعها: (سراد) أي: اجعله بحيث تتناسب حلقه]، {وقدر في السرد} السرد معناه: نسج الدروع، كما ينسج الثوب من القطن ومن الصوف: ينسج الدرع من الحديد.

ومعنى (تقدير السرد) أي: اجعل هذا السرد أي: النسج مقدرا متناسبا، من التقدير وهو: أن تجعل الحلقات متناسبة ما تأتي بحلقة كبيرة وحلقة صغيرة، ومنها ألا تجعل الحلقات ضيقة؛ لأنه إذا كانت ضيقة وقف الدرع ولم يكن سهل الحركة، ولا تجعلها واسعة جدا؛ لأنك إذا جعلتها واسعة جدا لا تقي، ثم هي تكبر إذا جعلتها واسعة جدا كبرت وآذت اللابس، ولكن اجعلها مقدرة متناسبة.

والدروع عبارة عن قمص من حديد، قميص تلبسه كما تلبس الثوب، إلا أنه لا يصل كمه إلى الكف، كمه إلى العضد فقط، وهذه الدرع منسوجة من حلق حديد صغيرة مشبوكة بعضها ببعض، مداخلة بعضها في بعض حتى يتم النسج، وهي موجودة وتوجد عند متحف أهل البلد، وأما ما يمسك باليد حتى يتقى به الرمح فهذا يسمى ترسا.

وقوله تعالى: {وقدر في السرد} معنى التقدير في السرد: أن تكون الحلقات متناسبة، وألا تكون ضيقة ولا واسعة؛ لأنها إذا لم تتناسب فإنها تؤذي، تكون واحدة صغيرة وواحدة كبيرة، وإذا كانت واسعة فإنها تؤذي وقد لا تقي السهام، وإذا كانت ضيقة فإنها لا تتحرك كما ينبغي ويثقل على اللابس.

=

=

وقوله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{واعملوا} أي: آل داود معه {صالحا إني بما تعملون بصير} فأجازيكم به] لما بين الله بما من به على داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من تعليم صنعة الدروع وتليين الحديد له، وتوجيهه كيف يصنع هذه الدروع قال تعالى: {واعملوا} [أي: آل داود معه].

وقوله تعالى: {واعملوا} كيف عدل عن ضمير المفرد: {وقدر في السرد} إلى ضمير الجمع {واعملوا صالحا}؛ لأن تقدير السرد خاص بداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والعمل الصالح عام له ولغيره، فوجه الخطاب إلى جميع آل داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال سبحانه وتعالى: {واعملوا صالحا}.

وقوله تعالى: {صالحا} هو صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملا صالحا، والعمل الصالح ما جمع وصفين: الإخلاص لله تعالى، الموافقة لشريعته، فلا بد فيه من هذين الشرطين، فإن فقد الإخلاص فليس بصالح لوجود الشرك؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

والشرط الثاني: الموافقة لشريعة الله تعالى، فإن لم يوافق شريعة الله تعالى فإنه ليس بصالح ولا يقبل؛ والدليل قوله ﷺ: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، وقوله سبحانه وتعالى: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} [الشورى: ٢١]، فلا بد لقبول العمل الصالح من هذين الشرطين.

وقوله تعالى: {إني بما تعملون بصير} هذه الآية فيها تقديم وتأخير، فقوله تعالى: {بصير} هو المؤخر، والمقدم المعمول، فإن قلت: من القواعد المقررة أن تقديم المعمول يدل على الحصر، فصار الله تعالى بصيرا بما يعملون من دون

=

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢).

{و} سخرنا {لِسُلَيْمَان الرِّيح} وَقِرَاءَة الرَّفْع بِتَقْدِيرِ تَسْخِير {غُدُوّهَا} مَسِيرهَا مِنْ الْغُدْوَة بِمَعْنَى الصَّبَاح إلَى الزَّوَال {شَهْر وَرَوَاحهَا} سَيْرهَا مِنْ الزَّوَال إلَى الْغُرُوب {شَهْر} أَيْ مَسِيرَته {وَأَسَلْنَا} أَذَبْنَا {لَهُ عَيْن الْقِطْر} أَيْ النُّحَاس فَأُجْرِيَتْ ثَلَاثَة أَيَّام بِلَيَالِيِهِنَّ كَجَرْيِ الْمَاء وَعَمَل النَّاس إلَى الْيَوْم مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَان {وَمِنْ الْجِنّ مَنْ يَعْمَل بَيْن يَدَيْهِ بِإِذْنِ} بِأَمْرِ {رَبّه وَمَنْ يَزُغْ} يَعْدِل {مِنْهُمْ عَنْ أَمْرنَا} لَهُ بِطَاعَتِهِ {نُذِقْهُ مِنْ عَذَاب السَّعِير} النَّار فِي الْآخِرَة وَقِيلَ فِي الدنيا أن يَضْرِبهُ مَلَك بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَة تُحَرِّقهُ[1].

=

غيره، مع أنه بصير بكل شيء، فما هو السبب؟

الجواب: السبب في ذلك: التقديم، حيث جاء بصيغة الحصر للردع عن المخالفة، كأنه لو لم يكن الله تعالى بصيرا بالشيء لكان بصيرا بأعمالكم، فلما كان الإنسان قد يقول: إن الله تعالى لا يبصر عملي، جعل الله تعالى الصيغة دالة بظاهرها على الحصر؛ حتى لا يدعي مدع أن الله تعالى ليس عالما بعمله، هذا من وجه، ومن جهة أخرى لمناسبة فواصل الآيات.

(١) قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ: ١٢]، أي:"وسخَّرنا لسليمان الريح تجري من أول النهار إلى انتصافه مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر بالسير المعتاد".

قال الطبري: يقول:"وسخرنا لسليمان الريح، غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة

=

=

شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان، من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر".

قال قتادة:"تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر، قال: مسيرة شهرين في يوم".

قال الحسن:"كان يغدو فيقيل في إصطخر، ثم يروح منها فيكون رواحها بكابل".

قال ابن زيد:"كان له مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت تركب فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان، يرفعون ذلك المركب هم والعصار فإذا ارتفع أتت الريح رخاء فسارت به وساروا معه، يقيل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسى عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدري القوم إلا وقد أظلهم معه الجيوش والجنود".

قوله تعالى: {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [سبأ: ١٢]، أي:"وأسلنا له النحاس كما يسيل الماء، يعمل به ما يشاء".

قال الطبري:"يقول: وأذبنا له عين النحاس، وأجريناها له".

قال ابن عباس:"يعني: عين النحاس أسيلت".

قال قتادة:"عين النحاس كانت بأرض اليمن، وإنما ينتفع اليوم بما أخرج الله لسليمان".

قال ابن زيد:"الصفر سال كما يسيل الماء، يعمل به كما كان يعمل العجين في اللبن".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ} [سبأ: ١٢]، أي:"وسخَّرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه".

=

=

قال قتادة:"ليس كل الجن صخر له كما تسمعون: {ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه}".

عن مجاهد:"{بإذن ربه}: بالسخرة التي سخرها الله له".

قال الطبري: يقول:"ومن الجن من يطيعه ويأتمر بأمره وينتهي لنهيه؛ فيعمل بين يديه ما يأمره طاعة له بإذن ربه، يقول: بأمر الله بذلك، وتسخيره إياه له".

قال ابن كثير:"أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله، أي: بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك".

عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ؛ أن رسول الله ﷺ قال: "الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون".

وقال الحسن: "الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومَنْ كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولي الله، ومَنْ كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} [سبأ: ١٢]، أي:"ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرناه به من طاعة سليمان نذقه من عذاب النار المستعرة".

قال الطبري:"يقول: ومن يزل ويعدل من الجن عن أمرنا الذي أمرناه من طاعة سليمان {نذقه من عذاب السعير} في الآخرة، وذلك عذاب نار جهنم الموقدة".

قال ابن كثير:"أي: ومَنْ يعدل ويخرج منهم عن الطاعة {نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} وهو الحريق".

=

=

عن مجاهد: "{ومن يزغ منهم عن أمرنا} قال: من الجن".
عن قتادة، قوله: "{ومن يزغ منهم عن أمرنا}، يعدل منهم عن أمرنا عما أمره به سليمان {نذقه من عذاب السعير}".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {و} [وسخرنا] {لسليمان الريح}، وإنما قدر: [وسخرنا]؛ لأن (الريح) منصوبة، فلا بد من تقدير عامل يتم به النصب، وهنا نقدر ما يناسب وهو (سخرنا له) كما جاء ذلك في آية أخرى: {فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب} [ص: ٣٦].

وقوله تعالى: {لسليمان} هو ابن داود عليهما السلام، وقد آتاه الله تعالى الرسالة والملك ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده؛ لأن الله تعالى سخر له الإنس والجن.

وقوله تعالى: {الريح} هي الهواء، سخرها الله تعالى له؛ أي: ذللها بحيث تجري بأمره يأمرها فتتجه إلى الشمال إذا كان يريد ناحية الشمال، ويأمرها فتتجه إلى الجنوب إذا كان يريد ناحية الجنوب، ويأمرها أن تذهب شرقا فتذهب، وأن تذهب غربا فتذهب، وأن تسرع فتسرع، وأن تبطئ فتبطئ؛ تجري بأمره.

ولا يقال: إن هذا يدل على أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مشارك لله تعالى في الخلق؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يصرف الهواء، لو اجتمع الخلق كلهم على أن يصرفوا الهواء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يستطيع ذلك، فلا يقال: إنه شريك لله تعالى؛ لأن الذي سخر الريح له هو الله تعالى.

ولهذا لا نقول: إن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شريك مع الله تعالى في الخلق، حيث قال الله تعالى: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني}

=

=

[المائدة: ١١٠]؛ لأن قدرة هؤلاء الخلق على ما يقدرون عليه مما لا يقدر عليه غيرهم من المخلوقين إنما كانت بأمر الله، فهم لم يستقلوا بذلك، ولكن الله تعالى أعطاهم قدرة، كما أن الله تعالى يمن على بعض العباد بقدرة هائلة في الحفظ أو في الفهم أو في قوة السمع أو البصر أو البدن أو غير ذلك، فالريح هي الهواء سخرت لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {الريح}، وفي قراءة: [وقراءة الرفع بتقدير: تسخير] تركيب المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا لبيان القراءة الثاني غريب، ما كان معهودا منه، وكان الأولى أن يقول: وفي قراءة بالرفع على تقدير تسخير. هذا هو الأولى؛ لأن قوله: وقراءة الرفع. لم نستفد: هل هذه القراءة سبعية أو شاذة؛ لأن المعهود أنه يقول في السبعية: وفي قراءة. وفي الشاذ يقول: قرئ. وهنا يقول: وقراءة الرفع. ما ندري! لكن على كل حال القراءة سبعية، ففيها قراءة: (ولسليمان الريح غدوها شهرا).

وقوله تعالى: {الريح} إعرابها على هذه القراءة.

نقول: إنها مبتدأ مؤخر، وأصل الكلام: تسخير الريح؛ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وما يلي المضاف يأتي خلفا ... عنه في الاعراب إذا ما حذفا أي: (لسليمان تسخير الريح).

ولو قال قائل: (لسليمان الريح) أن (الريح) مبتدأ بدون تقدير. لم يكن بعيدا، ويكون معنى كون الريح له أنها مسخرة له، فيكون له التصرف فيها.

وقوله تعالى: {غدوها شهر} أي: [مسيرها من الغدوة، بمعنى: الصباح إلى الزوال شهر]، و {ورواحها شهر}، [سيرها من الزوال إلى الغروب شهر]؛ أي:

=

=

مسيرة شهر.

الريح سخرها الله تعالى له إذا سارت به من الصباح إلى الزوال فهي مسيرة شهر؛ بسير الإبل، وعلى هذا فإنها تكون سريعة، رواحها شهر فيستطيع أن يذهب إلى مكان مسيرته شهر ويرجع إلى بلده في نفس اليوم؛ لأن غدوها شهر ورواحها شهر، ومع ذلك فقد وصفها الله تعالى بأنها عاصفة، ولكنها غير مؤثرة: {ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره} [الأنبياء: ٨١]، وقوله: {فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب} [ص: ٣٦]، فهي سريعة لكنها غير مزعجة، لكن كيف يطير في الريح؟ قال العلماء رحمهم الله: إنه يضع بساطا عاديا ويجلس هو وحاشيته عليه، ثم يأمر الريح فتطير بهم؛ بهذا البساط، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، والعادة أنه إذا كان الإنسان مع حاشيته على بساط ويرتفع أنه يسقط، هذه العادة، ولكن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

هل يمكن أن نقول: إن قانون الطيران بالطائرات الحديثة مبني على هذا؟

الجواب: نعم قانون الطيران مبني على هذا، مبني على الهواء الذي تولده هذه المولدات، فهذه الطائرات لا يحملها إلا الهواء، وهي حديد، وثقيلة وعليها أناس وعليها عفش، ونفس المراوح هذه والاندفاع هذا فيه هواء شديد؛ ولذلك انظر كيف تنضبط إذا نزلت إلى الأرض بسبب الهواء في مؤخرها عند (الشكمان) فيها حديدة تنعكس حتى ترد الهواء؛ حتى لا تندفع الطائرة.

وقوله تعالى: {غدوها شهر ورواحها شهر} هل هي في سرعة الطائرة؟

الجواب: لا هي أقل من الطائرة؛ لأن الطائرة تذهب مسيرة شهر بأقل من الغدو،

=

=

ولكنها أسرع من السيارة بلا شك، يبقى علينا هذا المرور السريع عادة إذا لم يكن هناك حجاب يمنع من عصف الهواء؛ أن الهواء يعصف بالراكب حتى يسقط؟ لأنها دون الطائرة وفوق السيارة في سرعتها، وبعض السيارات يعصف الهواء فيها بالإنسان ويقلقه، لكن الله تعالى بين في آيات أخرى أن هذه الريح تكون رخاء ما فيها إزعاج ولا فيها قلق.

قال الله تعالى أيضا مما من الله تعالى به على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وأسلنا له عين القطر} أي: أذبنا له {عين القطر} أي: النحاس، هذا أيضا قد يكون أبلغ مما أوتيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سبحانه وتعالى: {وألنا له الحديد}، أما هذا فأسال الله تعالى له عين القطر؛ يعني: فجر له عينا من النحاس تسيل كما يسيل الماء مع إنها نحاس، وهذا دليل على كمال قدرة الله؛ لأن المعروف أن النحاس معدن جامد فجعله الله سبحانه وتعالى لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عينا سائلة كأنها الماء؛ ولهذا قال تعالى: {وأسلنا له عين القطر}.

وقوله: {عين القطر} يدفع ما قيل: إن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يذيب النحاس فيسيل، كما أن الرصاص إذا أذبناه يصير سائلا، كالزئبق.

فنقول: لا، بل إن الله تعالى يقول: {وأسلنا له عين القطر} فجعل هذا عينا يندفع من الأسفل ويسيل، ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خالق الأشياء جامدها ومائعها، وأنه قادر على أن يجعل الجامد مائعا والمائع جامدا، وهذا الماء المائع المتدفق الجاري لما ضرب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعصاه البحر انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، كالجبل العظيم، وهو ماء سائل ضربه مرة واحدة فقط فتفرق البحر وصار اثني عشر طريقا، كل طريق بينه وبين الطريق الآخر مثل الجبل من

=

=

الماء، وهذا فوق الأمر الطبيعي؛ لأن خالق الأشياء قادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأجريت له ثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء] هذا التقدير يحتاج إلى توقيف، يعني: أن الله تعالى أجراها له ثلاثة أيام فقط قد نقول: إن الله تعالى أسال له عين القطر يتصرف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكون هذه الإسالة مستمرة حيثما أرادها وجدها، وهذا هو الأقرب، ولا يمكن أن نحددها بثلاثة أيام إلا بدليل من الشرع، إما من الكتاب أو من السنة، وليس في الكتاب تحديد، وكذلك ليس في السنة، فالأولى أن نجعلها على ظاهرها.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وعمل الناس إلى اليوم مما أعطي سليمان] يعني: أن انتفاع الناس بهذا النحاس وتذويبه حتى يكون كالماء هذا أثره من عمل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني: أن النحاس إنما ذاب من وقت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليوم، وقد قيل: إن النحاس من قبل كان لا يذوب أبدا، ولكنه في عهد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ذاب وصار مستمر الذوبان.

قوله تعالى: {ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه}: {من} للتبعيض، و {الجن} عالم غيبي مستتر عن الأعين؛ ولهذا جاء بلفظ الجن، وأصل هذه المادة -الجيم والنون- الاستتار؛ ومنه سميت الجنة الترس الذي يستتر به الإنسان، وسميت الجنة للبستان الكثير الأشجار؛ لأنه يجن من فيه، أي: يغطيه، وسميت الجنة أيضا لهذا السبب، وسمي الجنين، لأنه مستتر، فهذه المادة - الجيم والنون - كلها تدل على الخفاء والاستتار.

فالجن إذن عالم غيبي ليسوا بظاهرين، لكنهم قد يرون، هذا العالم منهم صالح

=

=

ومنهم دون ذلك، ومنهم مسلم ومنهم كافر، كما في سورة الجن، يأكلون ويشربون ويتقيئون ويبولون؛ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، وهؤلاء الجن قد يظهرون أمام الناس ويشاهدون، إما بصورهم التي هم عليها وإما بتصورات ثانية، وإما على صورة القطط، أو على صورة الدواب كما جاء في الحديث الصحيح في النهي عن قتل الجنان التي تكون في البيوت؛ لأن بعضها قد يكون من الجن وربما يتلبسون بالإنسان؛ أي: يدخلون في جوفه حتى يكون كاللباس لهم، فيصرعونه ويؤذونه.

وقد أشار الله بقوله: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} [البقرة: ٢٧٥]، يعني: مثل المصروع الذي صرعه الشيطان، وهذا الصرع؛ أي: صرع الجني للإنسي لا ينكره إلا الملاحدة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد: إنهم لم يصلوا إلى هذا النوع من الصرع فجعلوا ينكرونه ويحيلون جميع أنواع الصرع إلى صرع الأعصاب والمخ وما أشبه ذلك، وصرع الجن للإنس معلوم بالمشاهدة أيضا، فلا ينكره إلا مكابر، لأنه شوهد من يصرع ويخاطب الجني الذي صرعه مخاطبة صريحة واضحة، وجرى ذلك على يد أئمة الإسلام كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، وغيرهم إلى يومنا هذا.

جيء مرة بمصروع إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوعظ الجني الذي صرعه ونصحه وقال له: اخرج. فقال: إني لا أخرج، إني أحبه وكانت امرأة التي صرعته، قالت: إني أحبه. فقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكنه لا يحبك. فقالت: إني أريد أن أحج به – بأن تحمله إلى مكة – فقال: إنه لا يريد أن يحج معك. ثم وعظها فلم

=

=

تتعظ، ثم ضربها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعل يضربها على رقبة هذا المصروع؛ يقول: حتى تعبت يدي من الضرب. فقالت: أنا أخرج كرامة للشيخ. فقال: لا تخرجي كرامة لي، اخرجي طاعة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. فخرجت على ألا تعود، فأفاق الرجل، فلما أفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ؛ يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقيل له: "إنه قد فعل كذا وكذا. فقال: والله ما أحسست بشيء من هذا، لا أني خاطبته ولا أنه ضربني. وهذه القصة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد عن شيخه، وابن القيم ثقة، وشيخ الإسلام كذلك ثقة، وقد ورد مثل ذلك عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لو قال قائل: هل يتلبس الجني الذكر بالإنسي الذكر، والعكس، أم أنه فقط يتلبس الرجل امرأة والعكس المرأة يتلبس بها رجل من الجن؟

فالجواب: قد يتلبس بالرجل رجل، ويكون مثلا مولعا به لسبب من الأسباب، وكذلك العكس.

إذن: الجن نقول في تعريفهم: عالم غيبي مستترون عن الإنس، وربما يظهرون، ومنهم صالح، ومنهم دون ذلك، ومنهم قاسط، ومنهم مسلم، ويأكلون ويشربون ويبولون ويتقيئون، كل هذا ثبت في القرآن وفي السنة.

وقوله سبحانه وتعالى: {ومن الجن من يعمل بين يديه} : {من} بمعنى: الذي، {يعمل بين يديه} فهي اسم موصول، وما محلها من الإعراب؟

الجواب: يحتمل أن يكون محلها الرفع على أنها مبتدأ مؤخر، وخبره {ومن الجن} ، ويحتمل أنها في محل نصب؛ يعني: وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه، وأيهما أولى؟ سبق وأن ذكرنا قاعدة؛ أنه إذا دار الأمر بين التقدير وعدم

=

=

التقدير فعدم التقدير أؤلى؛ لأنه الأصل، والأصل أن الكلام لم يحذف منه شيء، وعلى هذا فنقول: {ومن الجن} جار ومجرور خبر مقدم، و {من يعمل} مبتدأ مؤخر.

وقوله تعالى: {بين يديه} يعني: يدي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني: أمامه، لكن {بإذن} [بأمر] {ربه}، والإذن هنا كوني، يعني: أن الله تعالى سخر الجن ليعملوا بين يدي سليمان علية السلام بإذنه، بأمره الكوني، قد يقال: إنه إذن شرعي؛ بدليل قوله تعالى: {ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير}.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {ومن يزغ} [يعدل] وقيل: يمل، أي: يميل، وهذا أقرب، ومنه: زاغت الشمس، أي: مالت عن وسط السماء، قوله تعالى: {ومن يزغ منهم} يعني: من يمل {عن أمرنا} [له بطاعته له] أي: للجن [بطاعته] أي: بطاعة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ {نذقه من عذاب السعير} النار في الآخرة، {نذقه} ما الذي جزمها؟ {من}؛ لأنها جواب الشرط، وفعل الشرط {يزغ}.

وقوله تعالى: {نذقه من عذاب السعير} أي: نعذبه بالنار حتى يذوق عذابها، وهل هذه نار الدنيا أو الآخرة؟ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الآخرة، وقيل: في الدنيا بأن يضربه ملك بسوط منها ضربة تحرقه].

والله أعلم هل عذابه في الدنيا بواسطة الملك، أو أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أذن له بتعذيبهم في النار.

إذن فالذي يزيغ من الجن عن أمر الله بطاعته سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا يعذب بالنار، إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولكن إذا قلنا: إنه في الدنيا، فإنه لا يتعين أن يكون الأمر كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه ملك يضربه بسوط منها حتى يحرقه.

=

=

ولو قال قائل: أن طاعة الجن لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر الله الكوني فهل هذه تعتبر لهم عبادة لله عَزَّ وَجَلَّ؟

فالجواب: بلى؛ ولهذا قلنا: فيه احتمال إذن شرعي، ويؤيده قوله تعالى: {عن أمرنا}، وهذا أرجح، لكنه لا يمنع الأول.

ولو قال قائل: هل يدخل الجن الجنة؟ وماذا يستفيدون منها؟

فالجواب: أن الله تعالى يقول في آخر سورة الرحمن: {ولمن خاف مقام ربه جنتان (٤٦) فبأي آلاء ربكما تكذبان} [الرحمن: ٤٦ - ٤٧]؛ فالخطاب في {ربكما} يعود للجن والإنس، فإذا كان الجن لا يستفيد من هاتين الجنتين فما فائدة خطابهم في قوله تعالى: {فبأي آلاء ربكما تكذبان}؟! ثم إنه قال في نفس الآيات: {فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان} [الرحمن: ٥٦]؛ وهذا أيضا يدل على أنهم يدخلون الجنة، وهذا هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أما دخول الكافر منهم النار فإنه بالاتفاق؛ لأن الله تعالى نص عليه في القرآن، وأما دخول المؤمن منهم الجنة فهذا هو الصحيح الذي عليه جمهور أهل العلم.

وأما قول الله تعالى: {ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم} [الأحقاف: ٣١]، لا يمنع من دخولهم الجنة، لأنه لم يقل: ويدخلكم الجنة. وليس فيها دليل على أن دخولهم الجنة ممنوع؛ لأن من أجير من العذاب الأليم فليس هناك في دار الآخرة إلا داران؛ إما نار وإما جنة، وعندنا آيات كثيرة تدل على أن من آمن وعمل صالحا فله جنات المأوى.

مسألة: تقدم بحث في حكم الاستعانة بالجن تحت الآية رقم (١٢٨) من سورة

=

=

الأنعام.

ونلخصه هنا: قوله تعالى: {ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه} تسخير الله الجن لسليمان يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، وتوعدهم الله إن خالفوا أمر نبيه سليمان بالعذاب، وهو الحرق.

والجن كالإنس خلقهم الله لعبادته، ولكن الله جعلهم عالما مجهولا للإنس، وجعل الإنس عالما معلوما للجن، والأصل في تعامل الخلق فيما ببنهم الإباحة؛ ولكن تعامل الجان مع الإنسان تعامل معلوم مع مجهول بالنسبة للإنسان، وتعامل معلوم مع معلوم بالنسبة للجان، وبالنظر إلى التعامل بالنسبة للإنسان، وهو المقصود هنا، فإن التعامل على نوعين:

النوع الأول: تعامل عارض؛ من السؤال والجواب ، ورد القول والاستنطاق عند المس والضر، والوعظ والنصح، والترهيب والترغيب؛ فذلك جائز، وقد حادث النبي ﷺ الجان، واسمعهم كلام الله، ووعظهم وعلمهم؛ لأنه رسول إليهم أرسل إلى الثقلين، ولأن النفع في ذلك للجان، لا للإنسان، فالإنسان بادل لا آخذ.

النوع الثاني: التعامل الدائم؛ كأن يتخذ الإنسان جنيا أو جنا يحادثهم، ويستخبرهم ويخبرونه، ويستعين لهم ويعينونه، ويسألهم ويعطونه، فهذا لا يجوز؛ لأمور:

أولا: لأن الجان مجهول لا يعرف كفره من إيمانه، وصدقه من كذبه، وعلمه من جهله، ومثل هذا التعامل الدائم لا يصح أن يكون مع إنسان هذه حاله؛ فكيف بجان؟! وإن أحازه أحد لنفسه مرة، فإنه لا يجيزه لنفسه مرات، حتى يكون تعامله

=

=

معه كتعامل المعروف مع المعروف من الإنس.

ثانيا: أن خبر المجهول لا يصح العمل به، ونقله مذموم، وكما جاء في الخبر: (كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع) (١)، وهذا في أحاديث الإنس، فكيف بأحاديث الجان؟! وغالب ما يحدثون به من يستعين بهم هو من الغيبيات والظنيات التي لا يتمكن الإنسان من رؤية حقيقتها بعينيه؛ وإنما هي ظنون، وقد يخبر ببعض الحق ليخدع الإنسان فيصدقه، ثم يمزحه بباطل كثير؛ فيضل الإنسان بالباطل الكثير؛ اغترارا بالحق القليل.

ثالثا: أن الجان يعادي الإنسان، بخلاف الإنسان فإنه لا يعادي الجان، وكثير منهم شياطين مردة، ومن كانت هذه حاله، كثرت شروره، وعظمت مخاطره؛ قال تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض} [الأنعام: ١٢٨]؛ ولهذا كانت الإنس في الجاهلية تخاف الجن وضرها وشرها؛ حتى عبدتها دفعا لشرها؛ كما قال تعالى: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (٦)} [الجن: ٦]، وشياطن الجان فيهم شر عظيم على المسلمين؛ ولهذا ذكر الله وقوف الجان وإعانتهم للكافرين على المؤمنين، وتسليطهم عليهم، وتلقينهم الحجج من حيث لا يشعرون؛ قال تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين (٢٢١) تنزل على كل أفاك أثيم} [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢].

رابعا: أن الغالب أن الجان لا ينفع الإنسان إلا بما يستمتع به منه، فإن لم يكن له مطلوب في أول مرة، فسيكون له مطلوب بعد ذلك، وقد يستدرج الإنسان في نفعه وإخباره بالغيب؛ حتى يعلقه به ولا يستطيع معه الفكاك والاستغناء عنه، فيطلب

=

=

منه الجان ما يريد، ويصبح الإنسان بين أمرين عظيمين في نفسه: بين أن يقدم للجان ما يريد، أو أن يتخلى عن متعته العظيمة التي أعطاه إياها واعتادها، وربما آتاه الله جاها بها عند الناس؛ بإخبار عن غيب، أو سيادة، أو منافع دنيوية كقضاء الحاجات ونحو ذلك، وأكثر هؤلاء يقعون في شراك التأويل؛ فيبدؤون ببذل ما يريده الجان منهم تأويلا ثم كفرا صريحا؛ ويتوهمون أنهم متأولون؛ حيث أعمتهم متعتهم من الجان، ولو زالت تلك المتعة، لأبصروا ما هم ليه من كفر وشرك بين صريح.

خامسا: أن الاستعانة الدائمة بالجان فتنة لا تنتهي غالبا إلى حد، فمن تشربها قلما يقلع عنها، ولو رأى ضرها عليه مرة أو مرتين، فإنه لا يقدر عليها؛ فلها فتنة على أصحابها أشد من فتنة إدمان الخمر والمسكرات، وقد ذكر بعض من أنجاه الله من هذا السبيل أنهم كانوا يظنون أنفسهم بقدرون على الرجوع من أول طريقهم، فاستدرجوا حتى قيدهم الشيطان بفتنته، ومن دخل في هذا الباب بنية صالحة، وأدرك ما هو فيه من بلاء، لا يصور نفسه أنه يتعامل معهم بالشرك والكفر والمعاصي والشهوات، بل يصورها للناس على أنها أبواب ولاية وكرامة، وعامتهم ليس فيهم عبادة ولا يشتهرون بديانة بين الناس؛ فلا يعرفهم الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولا ورع؛ بل منهم من يذكر بخلاف ذلك، مما يقطع معه العارف أن الجان لم يخصهم بذلك كرامة لهم ولا حبا لهم في دين الله.

سادسا: أن القول بتجويز التعامل الدائم مع الجان باب يفتح للسحرة والكهنة للدخول فيه بهذه الذريعة؛ فلا يعرف الساحر والكاهن من غيره، وهذه فتنة عظيمة، وشر كبير.

=

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣).

{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِنْ مَحَارِيب} أَبْنِيَة مُرْتَفِعَة يُصْعَد إِلَيْهَا بِدَرَجٍ {وَتَمَاثِيل} جَمْع تِمْثَال وَهُوَ كُلّ شَيْء مُثْلَته بِشَيْءٍ أَيْ صُوَر مِنْ نُحَاس وَزُجَاج وَرُخَام وَلَمْ يَكُنْ اتِّخَاذ الصُّوَر حَرَامًا فِي شَرِيعَته {وَجِفَان} جَمْع جَفْنَة {كالجواب} ي جَمْع جَابِيَة وَهُوَ حَوْض كَبِير يَجْتَمِع عَلَى الْجَفْنَة أَلْف رَجُل يَأْكُلُونَ مِنْهَا {وَقُدُور رَاسِيَات} ثَابِتَات لَهَا قَوَائِم لَا تَتَحَرَّك عَنْ أَمَاكِنهَا تتخذ من الجبال اليمن يُصْعَد إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ وَقُلْنَا {اعْمَلُوا} يَا {آل دَاوُد} بِطَاعَةِ الله {شُكْرًا} لَهُ عَلَى مَا آتَاكُمْ {وَقَلِيل مِنْ عِبَادِي الشَّكُور} الْعَامِل بِطَاعَتِي شكرا لنعمتي[1].

=

ولا ينكر أن السلف يعرض لهم شيء من الكرامات في هذا الباب، ولكنها لم تكن لأحد منهم دائمة وبطلب منه يتبعها ويتعامل مع قرينه كما يتعامل الجان، بل سمعنا منهم من يسمع أصواتا توقظه للصلاة إن كان نائما، ويسمع نداء يرشده إن كان تائها، وهذا عارض، ليس طلبا وبحثا منهم عن ذلك، كما يتعامل من يقصد الجن بالسؤال والجلوس إليهم والخلوة بهم في البر والظلمات؛ فليس هذا من هديهم ولا يجيزونه.

وهذه الأمور كلها قد دفعها الله عن نبيه سليمان، فأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره من أمر الجان، وسخرهم له كالعبد مع سيده.

(١) قوله تعالى: {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ} [سبأ: ١٣]، أي:"يعمل الجن لسليمان ما يشاء من مساجد للعبادة".

قال الطبري: يقول:"يعمل الجن لسليمان ما يشاء من محاريب وهي جمع

=

=

محراب

قال ابن كثير:"أما المحاريب فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره".

قال الفراء:"المحاريب: المساجد".

قال أبو عمر الزاهد:"أَي: من غرف".

عن مجاهد:"{من محاريب} قال: بنيان دون القصور".

عن عطية في الآية، قال:"المحاريب: القصور".

عن قتادة:"{من محاريب} قال: قصور ومساجد".

عن الضحاك:"{من محاريب} قال: المساجد".

قوله تعالى: {وَتَمَاثِيلَ} [سبأ: ١٣]، أي:"وصور من نحاس وزجاج".

قال أبو عبيدة:"المحراب: سيّد المجالس ومقدّمها وأشرفها، وكذلك هو من المساجد".

وقال أبو عبيدة:"«المحاريب»: واحدها: محراب، وهو مقدم كل مسجد ومصلّى وبيت قال وضّاح اليمن:

ربّة محراب إذا جئتها... لم ألقها أو أرتقى سلّما".

قال الفراء:"{تماثيل}: ذكر أنها صور الملائكة والأنبياء، كانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة".

عن مجاهد:"{وتماثيل} قال: من نحاس".

عن عطية في الآية، قال:"التماثيل: الصور".

عن قتادة:"{وتماثيل} قال: من رخام وشبه".

=

=

عن الضحاك:"{وتماثيل} قال: الصور".

قال الجصاص:"قوله تعالى: {يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل} يدل على أن عمل التصاوير كان مباحا، وهو محظور في شريعة النبي ﷺ لما روي عنه أنه قال: «لا يدخل الملائكة بيتا فيه صورة» ، وقال: «من صور صورة كلف يوم القيامة أن يحييها وإلا فالنار» ، وقال: «لعن الله المصورين».

وقد قيل فيه: إن المراد من شبه الله تعالى بخلقه".

قوله تعالى: {وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ} [سبأ: ١٣]، أي:"وقِصَاع كبيرة كالأحواض التي يجتمع فيها الماء".

عن مجاهد:"{وجفان} قال: صحاف كالجوابي، قال: الجفنة مثل الجوبة من الأرض".

عن قتادة:"{وجفان كالجواب} كالحياض".

عن عطية، قال:"{وجفان كالجواب} قال: كالجوبة من الأرض".

عن الضحاك:"الصور {وجفان كالجواب} قال: كحياض الإبل العظام".

قال الفراء:"{وجفان}: وهى القصاع الكبار {كالجواب} الحياض التي للإبل".

قال أبو عبيدة:"{وَجِفانٍ كَالْجَوابِ} واحدتها: جابية، وهى الحوض الذي يجبى فيه الماء قال:

فصبّحت جابية صهارجا... كأنه جلد السماء خارجا".

قوله تعالى: {وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ} [سبأ: ١٣]، أي:"وقدور ثابتات لا تتحرك من أماكنها لعظمهن".

قال الفراء:"يقول: عظام لا تنزل عن مواضعها".

=

=

عن مجاهد:"{وقدور راسيات} قال: عظام".

عن سعيد بن جبير:"{وقدور راسيات}، قال: عظام تفرغ افراغا".

عن الضحاك:"{وقدور راسيات} قال: قدور عظام كانوا ينحتونها من الجبال".

عن قتادة:"{وقدور راسيات} قال: ثابتات لا يزلن عن مكانهن كن يرين بأرض اليمن".

قال أبو عبيدة:"{وَقُدُورٍ راسِياتٍ}: عظام، ويقال: ثابتات دائمات، قال زهير:

وأين الذين يحضرون جفانه... إذا قدّمت ألقوا عليها المراسيا

أي: أثبتوا عليها".

قوله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [سبأ: ١٣]، أي:"وقلنا يا آل داود: اعملوا شكرًا لله على ما أعطاكم، وذلك بطاعته وامتثال أمره".

قال ابن شهاب: "قولوا الحمد لله".

قال الطبري: يقول:"وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرا له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصكم بها عن سائر خلقه مع الشكر له على سائر نعمه التي عمكم بها مع سائر خلقه".

قال ابن كثير:"أي: وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم في الدنيا والدين.

وشكرًا: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية، كما قال:

أَفَادَتْكُمُ النّعْمَاء منِّي ثَلاثةً:... يدِي، ولَسَاني، وَالضَّمير المُحَجَّبَا".

عن ابن زيد، قوله:"{اعملوا آل داود شكرا}، قال: أعطاكم وعلمكم وسخر لكم

=

=

ما لم يسخر لغيركم، وعلمكم منطق الطير، اشكروا له يا آل داود قال: الحمد طرف من الشكر".

عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قوله: " {اعملوا آل داود شكرا}، فالصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير يعمل لله شكر؛ وأفضل الشكر الحمد".

قال محمد بن كعب القُرَظي: "الشكر: تقوى الله والعمل الصالح".

وفي رواية:"الشكر تقوى الله والعمل بطاعته".

قال مجاهد:"قال داود لسليمان -عليهما السلام-: قد ذكر الله الشكر فاكفني قيام النهار أكفك قيام الليل، قال: لا أستطيع. قال: فاكفني صلاة النهار، فكفاه".

قال السعدي:"الشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقارا إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية".

قال ثابت البُنَاني: "كان داود، عليه السلام، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}".

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى".

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة".

وعن أبي يزيد فيض بن إسحاق الرقي قال: "قال فضيل في قوله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}. فقال داود: يا رب، كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال:

=

=

"الآن شكرتني حين علمت أن النعمة مني".

قوله تعالى: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣]، أي:"وقليل من عبادي من يشكر الله كثيرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقليل من عبادي المخلصو توحيدي والمفردو طاعتي وشكري على نعمتي عليهم".

قال ابن عباس:"يقول: قليل من عبادي الموحدون توحيدهم".

قال القرطبي:"يحتمل أن تكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن تكون مخاطبة لآل محمد ﷺ، وعلى كل وجه ففيها تنبيه وتحريض".

قال ابن كثير:"قوله: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} إخبار عن الواقع".

عن إبراهيم التيمي، قال: "قال رجل عند عمر: اللهم اجعلني من القليل، قال: فقال عمر: «ما هذا الذي تدعو به؟»، فقال: إني سمعت الله يقول: {وقليل من عبادي الشكور} [سبأ: ١٣]، فأنا أدعو أن يجعلني من أولئك القليل، قال: فقال عمر: «كل الناس أعلم من عمر».

عن الضحاك، قال: «المتقين هم القليل».

قال العثيمين: قوله تعالى: {يعملون له} أي: لسليمان عليه السلام، وهذا كالتفصيل لقوله تعالى: {ومن الجن من يعمل بين يديه} كأنه قيل: ماذا يعملون؟ ففصل فقال تعالى: * {يعملون له ما يشاء من محاريب}: {من} بيانية مبينة للإبهام في الاسم الموصول، وهو قوله تعالى: {ما يشاء} يعني {ما} اسم موصول، ومعلوم أن الاسم الموصول من الأسماء المبهمة.

فقوله: {من محاريب} يقول المصنف رحمه الله: [أبنية مرتفعة يصعد إليها بدرج]،

=

=

فالمحاريب: عبارة عن أبنية مرتفعة ذات أسوار منيعة قال الله تعالى في داود عليه السلام: {وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب (٢١)} [ص: ٢١]، وأما محراب المسجد فيسمى طاقا.

وقول المصنف رحمه الله: {وتماثيل} [جمع تمثال، وهو كل شيء مثلته بشيء أي: صور من نحاس وزجاج ورخام ولم يكن اتخاذ الصور حراما في شريعته]، التماثيل: جمع تمثال وهو ما صور على مثال شيء آخر، فكل ما صور على مثال شيء آخر؛ فإنه يقال: تمثال له.

وعلى هذا فيمكن أن نقول لمن صور صورة شجرة ونحتها من جسم نقول له: إن هذا تمثال للشجرة، وكذلك نقول لمن نحت خشبا أو حجرا على صورة حيوان نقول: إن هذا تمثال.

والمصنف رحمه الله جزم بأن المراد بالتماثيل ما كان تمثالا لحيوان؛ ولهذا قال: أو صورا. وكل شيء مثلته بشيء هذا أصل التمثال أو صور النحاس وزجاج ورخام، والنحاس معروف، والزجاج أيضا معروف، والرخام.

وأما قوله رحمه الله: [ولم يكن اتخاذ الصور حراما في شريعته] فهذا مبني على أن المراد بالتماثيل تماثيل ما يحرم تصويره كالحيوان من إنسان وغيره، ولكن نقول: إن هذا لا يلزم أن يكون المراد بالتماثيل هي صور الحيوان، فمن الجائز أن ينحتوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام، كأن ينحتوا له أشياء على صور شجر، ويقال: إن هذا تمثال.

ويوجد الآن مجسمات يجعلونها على صورة نخلة، وعلى صورة سيف، وعلى صورة قصر، وما أشبه ذلك، نقول: هذا تمثال. ويوجد أيضا مجسمات على

=

=

صورة حيوان؛ أسد أو جمل أو بقر أو ما أشبه ذلك هذا أيضا تمثال.

فنقول: إن كان قوله تعالى: {ما يشاء من محاريب وتماثيل} إنه عام لتمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذ أن نجيب بما أجاب به المصنف؛ وهو أن الصور في شريعتهم ليست حراما، ولكن ما دام الأمر غير لازم، إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بها تماثيل أشياء يجوز تصويرها فلا حاجة إلى هذا الجواب.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وجفان} جمع جفنة {كالجواب} جمع جابية وهي حوض كبير] والجفنة: هي الصحفة التي يوضع فيها الطعام، {كالجواب} جمع جابية، والجابية: هي الحوض الكبير، ومنه البركة تسمى جابية، حتى الآن يسمون البرك الجوابي، وهل الجفان على ما تقتضيه الآية الكريمة جفان كبيرة واسعة؟ يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ مبينا سعتها: [يجتمع على الجفنة ألف رجل يأكلون منها]، وهذا قد يكون واقعا وقد يكون الأمر أكبر من هذا، وقد يكون دون هذا.

المهم: أن هذه الجفان بسعتها وكبرها مثل الجوابي وهي الأحواض الكبيرة، يعني: البرك.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وقدور راسيات} ثابتات لها قوائم لا تتحرك عن أماكنها، تتخذ من الجبال باليمن يصعد إليها بالسلالم].

قوله تعالى: {وقدور} جمع قدر، وهو ما يطبخ فيه الطعام.

قوله تعالى: {راسيات} قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الراسي الثابت، وإنما كانت راسية في الأرض لكبرها، فهي لكبرها لا يستطيع أحد أن يتناولها ويقلبها، والعادة أن

=

=

القدور منقولة مقلبة، لكن هذه لكبرها وسعتها راسية لا تتحرك.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [لها قوائم] المراد به: المناصب التي تنصب عليها يعني: أرجلا، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [تتخذ من الجبال باليمن]، وهذا ليس بلازم أنها متخذة من الجبال، وإن كانت القدور قد تتخذ من النحاس والحديد، وكذلك من الأحجار يمكن أن تنحت وتكون قدرا، وممكن أن تجعل طينا يتخذ منه الفخار؛ ولكن ليس بلازم، يعني: تتخذ من الحديد والنحاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقلنا: {اعملوا} يا {آل داوود} بطاعة الله {شكرا} له على ما آتاكم] أفاد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن {اعملوا} جملة في محل نصب لقول محذوف التقدير: [قلنا:] {اعملوا آل داوود}، وأما {آل داوود} فهي منصوبة بـ (يا) النداء المحذوفة؛ أي: يا آل داود، وآل داود هنا ذريته وقرابته؛ لأن الله تعالى أنعم على هذه القبيلة؛ قبيلة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بنعم عظيمة، أنعم على أبيهم وعلى ابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: {شكرا} أفادنا بتقدير الشكر لله تعالى على أن {شكرا} مفعول من أجله وأن مفعول {اعملوا} محذوف، تقديره: بطاعة الله تعالى؛ يعني: اعملوا بطاعة الله تعالى لأجل الشكر لله تعالى، ويحتمل أن تكون {شكرا} مفعولا به لـ {اعملوا}؛ يعني: اعملوا الشكر، والشكر هو: الطاعة، ولكن هذا الوجه نسلم فيه من التقدير، أما على الوجه الأول فإنه لا بد أن نقدر مفعول: {اعملوا}.

والشكر عرفه العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بأنه: القيام بطاعة المنعم في القلب واللسان والجوارح، أما في القلب فأن تعتقد بأن ما بك من نعمة فهي من الله تعالى، وأما في اللسان بأن تثني على الله تعالى بالنعمة، لا تذكر النعمة افتخارا بها على الناس،

=

=

وأما الجوارح فأن تكون بطاعة الله سبحانه وتعالى فيما يختص بتلك النعمة أو بطاعته على سبيل العموم.

والفرق بين هذا وهذا؛ إذا قلنا: أن تقوم بطاعة الله فيما يختص بهذه النعمة، فإذا أنعم الله تعالى عليك بمال فشكره الزكاة والإنفاق، وما أشبه ذلك، فإذا عصيت الله تعالى في غير ذلك لا يقال: إنك لم تقم بشكر المال. أما إذا قلنا: إن الشكر هو أن تقوم بطاعة الله تعالى فيما يختص بهذه النعمة وفي غيره؛ فإن الإنسان إذا أنعم عليه بمال وقام بحقه على الوجه الكامل، ولكنه يعصي الله سبحانه وتعالى في أمور أخرى يقال: إن هذا ليس بشاكر.

ولكن قد نقول: إن الشكر نوعان: شكر مطلق؛ وهو الذي يقوم بطاعة المنعم فيما أنعم به عليه فيه وفي غيره، وشكر خاص مقيد لهذه النعمة المعينة؛ فيكون هذا الشاكر إذا قام بما يجب عليه في هذه النعمة المعينة شاكرا، لكنه لا يعطى وصف الشكور، ونظير ذلك ما سبق لنا في التوبة، أن التوبة تصح من الذنب مع الإصرار على غيره، لكن لا يستحق التائب وصف التوبة المطلق.

قال الله تعالى: {وقليل من عبادي الشكور} العامل بطاعتي شكرا لنعمتي، وقوله تعالى: {وقليل} خبر مقدم، و {الشكور} هو مبتدأ مؤخر؛ لأن المقصود الإخبار عن {الشكور} بأنه قليل، ويكون تقدير الآية: والشكور من عبادي قليل.

وقوله تعالى: {وقليل من عبادي} هو متعلق بما بعده فلما قدم عليه صار في موضع نصب على الحال؛ يعني: {الشكور} حال كونه من عباده {وقليل} وتعليل ذلك أن أكثر بني آدم غير شكور، بل هم ضالون، فبنو آدم يكون منهم تسع مئة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة، ولا شك أن واحدا إذا نسب

=

=

إلى المئة يكون قليلا.

وقوله سبحانه وتعالى: {من عبادي} المراد بالعبودية هنا: العامة الشاملة للكافرين والمؤمنين. انتهى.

مسألة: حكم عمل المحراب بالمسجد.

المحراب في اللغة كلمة تطلق، ويراد بها: " صدر البيت، وأكرم موضع فيه والغرفة، وأرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد والقبلة، ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم، والعرب تسمي القصر محرابا، والمحراب مأوى الأسد، ومجلس الناس ومجتمعهم، والمحراب عند العامة: الذي يقيمه الناس اليوم مقام الإمام في المسجد، وسمي محرابا لأنه صدر المسجد وقبلته، وأشرف موضع فيه".

والمحراب يوضع في مقدمة المسجد، ويستدل به على القبلة؛ لأن القبلة شرط لصحة الصلاة.

ويقال: إن المحراب كان حنية موجودة في كنائس النصارى بمصر ونجران، وإنه ليس أساسيا في بناء الكنيسة؛ لأنه لا يصلي إلا القسيس وحده، وصلاته عزف وغناء، والموجودون يؤمنون على أغانيه، وينحنون تبعا لإشارته، فهم لا يحتاجون إلى محراب. وقيل: إن أول من عمل المحراب على شكل حنية عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، واستمر استعمال المحاريب في المساجد من العصر الأموي إلى يومنا هذا (٣).

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في حكم اتخاذ المحاريب في المساجد على قولين:

=

=

القول الأول: يجوز اتخاذ المحراب في المسجد، وهذا الصحيح من مذهب الإمام أحمد ، ولم أجد فيما بحثته نصا لغير الإمام أحمد في حكم اتخاذ المحراب، لكني وجدت ابن قدامة صاحب المغني، وابن عابدين، وغيرهما يتكلمون عن المحراب كدليل من أدلة القبلة، ويرون وجوب الاستدلال به إن كان في مصر كبير، وهو من محاريب المسلمين، أما محراب المسجد في القرية فتقليد المجتهد في القبلة أولى من اعتباره، وأما الأعمى فيلزمه أن يتلمس المحراب ليعرف القبلة، وهكذا من كان في الظلمة، ويكره للإمام أن يتنفل في محرابه، ويسن له أن يقف أمامهم في مقابل وسط الصف إن كان رجلا، أما المرأة التي تؤم النساء فتقف وسطهن في الصف، ومن تقدم على إمامه بطلت صلاته.

هذا ملخص لبعض ما قرأته من كلام بعض الفقهاء رحمهم الله تعالى في المحراب. والذي يظهر لي من خلال قراءتي: أن جمهور العلماء رحمهم الله تعالى يرون صحة اتخاذ المحراب ما دام مساويا للصفوف التي خلفه غير مرتفع عليها (٣).

وبه قال جماعة من السلف، وقد فعلته طائفة منهم؛ حيث روى ابن أبي شيبة أن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقيس بن أبي حازم، وسويد بن غفلة، وسعيد بن جبير، صلوا في المحاريب بالمساجد.

القول الثاني: يكره اتخاذ المحاريب في المساجد، روي هذا عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبي ذر، وعلي بن أبي طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وعن النخعي وسفيان الثوري والحسن وموسى الجهني، وليث بن أبي سليم، روى ذلك ابن أبي شيبة. وبه قال ابن حزم ، وهي رواية عن الإمام أحمد ومذهب أتباعه (٣)، وذكر بعض

=

=

المعاصرين أن المسلمين أخذوا المحراب عن النصارى.

استدل أصحاب القول الأول بما يلي:

١- عن وائل بن حجر قال (حضرت رسول الله ﷺ نهض إلى المسجد فدخل المحراب، ثم رفع يديه بالتكبير) ولكنه حديث ضعيف كما في الضعيفة (٤٤٩).

الشاهد: "فدخل المحراب".

وجه الدلالة أنه ﷺ نهض إلى المسجد فدخل محرابه؛ وهذا يدل على وجود المحراب في زمن الرسول ﷺ ولقد استحبه الإمام أحمد فيما روي عنه.

٢- عن أم عمرو المرادية قالت: (رأيت البراء بن عازب يصلي في الطاق) رواه ابن أبي شيبة. المصنف لابن أبي شيبة (٢/ ٦٠) وأم عمرو المرادية لم أجد لها ترجمة، والطاق: المراد به محراب القبلة، وهو فارسي معرب. مختار الصحاح (ص٤٠٠).

الشاهد: "رأيت البراء يصلي في الطاق"، وجه الدلالة: أن الصحابي الجليل صلى في المحراب؛ مما دل على أنه كان موجودا في عصر الصحابة رضي الله عنهم.

٣- تقرر شرعا أن السنة وقوف الإمام أمام المصلين وسط الصف، والمحراب علامة على وسط الصف، وعلى جهة القبلة؛ ودليل على ذات المسجد، فإن بعض المساجد لا تعرف إلا بمحاريبها ومنائرها، وقد تعارف على ذلك المسلمون (٣).

واستدل الفريق الثاني بما يلي:

أ- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كره الصلاة في المحراب وقال: (إنما كانت للكنائس، فلا تشبهوا بأهل الكتاب) قال الهيثمي: رواه البزار ورجاله موثوقون.

=

=

وقال عنه العلامة الألباني في الضعيفة تحت الحديث (٤٤٨): قال الهيثمي (٢/ ٥١): ورجاله موثقون. قلت: وفيما قاله نظر فقد أشار البزار إلى أنه تفرد به أبو حمزة عن إبراهيم واسم أبي حمزة ميمون القصاب وهو ضعيف اتفاقا ولم يوثقه أحد فإعلاله به أولى من إعلاله بشيخ البزار محمد بن مرداس بدعوى أنه مجهول، فقد روى عنه جمع من الحفاظ منهم البخاري في " جزء القراءة " وقال ابن حبان في ثقاته (٩/ ١٠٧): مستقيم الحديث لكن يقويه ما رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن إبراهيم قال: قال عبد الله: اتقوا هذه المحاريب وكان إبراهيم لا يقوم فيها.

قلت: فهذا صحيح عن ابن مسعود، فإن إبراهيم وهو ابن يزيد النخعي وإن كان لم يسمع من ابن مسعود، فهو عنه مرسل في الظاهر، إلا أنه قد صحح جماعة من الأئمة مراسيله، وخص البيهقي ذلك بما أرسله عن ابن مسعود.

قلت: وهذا التخصيص هو الصواب لما روى الأعمش قال: قلت: لإبراهيم: أسند لي عن ابن مسعود، فقال إبراهيم: إذا حدثتكم عن رجل عن عبد الله، فهو الذي سمعت، وإذا قلت: قال عبد الله، فهو عن غير واحد عن عبد الله. علقه الحافظ هكذا في " التهذيب "، ووصله الطحاوي (١/ ١٣٣)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٧٢)، وأبو زرعة في تاريخ دمشق (١٢١/ ٢) بسند صحيح عنه.

قلت: وهذا الأثر قد قال فيه إبراهيم: " قال عبد الله "، فقد تلقاه عنه من طريق جماعة، وهم من أصحاب ابن مسعود، فالنفس تطمئن لحديثهم لأنهم جماعة، وإن كانوا غير معروفين لغلبة الصدق على التابعين، وخاصة أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه، ثم روى ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال: " لا تتخذوا

=

=

المذابح في المساجد". وإسناده صحيح. ثم روى بسند صحيح عن موسى بن عبيدة قال: رأيت مسجد أبي ذر، فلم أر فيه طاقا، وروى آثارا كثيرة عن السلف في كراهة المحراب في المسجد، وفي ما نقلناه عنه كفاية.

وأما جزم الشيخ الكوثري في كلمته التي صدر بها رسالة السيوطي السالفة (ص ١٧): أن المحراب كان موجودا في مسجد النبي ﷺ، فهو مع مخالفته لهذه الآثار التي يقطع من وقف عليها ببدعية المحراب، فلا جرم جزم بذلك جماعة من النقاد، كما سبق، فإنما عمدته في ذلك حديث لا يصح.

والشاهد من الآثر: "كره الصلاة في المحراب... إنما كانت للكنائس، فلا تشبهوا بأهل الكتاب". وجه الدلالة: أنه المحاريب كانت لكنائس اليهود والنصارى، وقد أمرنا بمخالفتهم؛ خاصة في عباداتهم، كما أمرنا باجتناب معابدهم، ولهذا فإن اتخاذ المحاريب بالمساجد مكروه؛ لأنه تقليد للكفار، وتقليدهم قد يجر إلى الكفر، أو إلى مودتهم.

٢- عن موسى الجهني قال قال رسول الله ﷺ (لا تزال هذه الأمة أو قال: أمتي - بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كمذابح النصارى) وهو حديث ضعيف كما في الضعيفة (٤٤٨).

٣- وروي أن أبا ذر رضي الله عنه قال (من أشراط الساعة: أن تتخذ المذابح في المساجد) رواه ابن أبي شيبة. وإسناده ضعيف.

وجه الدلالة: أن اتخاذ المذابح في المساجد محرم شرعا، ومن علامات الساعة، والمراد بالمذابح المحاريب. أحكام المساجد في الشريعة الإسلامية (١/ ٣٣٨).

=

=

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن اتخاذ هذه المحاريب بدعة، وينهى عنها، واستدلوا بحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (اتقوا هذه المذابح) والحديث قال عنه العلامة الألباني في الثمر المستطاب (١/ ٤٧٣): وهذا سند حسن رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير عبد الرحمن بن مغراء وهو إنما تكلم في روايته عن الأعمش وليس هذا منها..... غير أن الاستدلال بالحديث على النهي عن المحاريب المبتدعة في المساجد - كما فهم السيوطي على ما نقله المناوي عنه صراحة ويشير إليه كلامه المذكور سابقا - غير ظاهر وإن سبقه البيهقي إلى ذلك حيث أورد الحديث في (باب في كيفية بناء المساجد) قال المناوي متعقبا كلام السيوطي المشار إليه: (أقول: وهذا بناء منه على ما فهمه من لفظ الحديث أن مراده بالمحراب ليس إلا ما هو المتعارف عليه في المسجد الآن.

ولكن يجاب عن هذا الاستدلال بأن المحاريب في هذا الحديث ليست هي المحاريب التي في المساجد، وإنما المراد بذلك صدور المجالس، فهذا نهي من النبي ﷺ عن التصدر في المجلس، لما يخشى منه من حصول الرياء أو شيء من العجب في صاحبه.

قال ابن الحاج في المدخل (٢/ ٢٧٢): ولم يكن للسلف رضوان الله عليهم محراب وهو من البدع التي أحدثت لكنها بدعة مستحبة لأن أكثر الناس إذا دخلوا المسجد لا يعرفون القبلة إلا بالمحراب فصارت متعينة، لكن يكون المحراب على قدر الحاجة وهم قد زادوا فيه زيادة كثيرة، والغالب من بعض الأئمة أنهم يصلون داخل المحراب حتى يصيروا بسبب ذلك على بعد من

=

=

المأمومين وذلك خلاف السنة. ثم إنه يخرج نفسه بذلك من الفضيلة الكاملة لأن باقي المسجد أفضل منه. ألا ترى أن علماءنا رحمة الله عليهم قالوا فيمن اضطر إلى النوم في المسجد أنه ينام في محرابه لأنه أخف من باقي المسجد بل ينبغي له أنه إذا كان المسجد لم يضق بالناس فلا يدخل الإمام إلى المحراب، فإن ضاق بهم فليدخل على الصفة المتقدمة لأنه إذا لم يدخل يمسك بوقوفه خارجا عنه موضع صف من المسجد وهو قد يسع خلقا كثيرا. ا. هـ

ونقل الحطاب في مواهب الجليل (٢/ ١٠٩) أراء المانعين والمجزين من السلف والخلف لإنشاء المحاريب في المساجد وختمها بقوله: والمشهور الجواز بلا كراهة ولم يزل عمل الناس عليه من غير نكير انتهى.

وقال ابن مفلح في الفروع (٢/ ٣٨): وعنه -أي الإمام أحمد- يستحب -يعني المحراب- واختاره الآجري وابن عقيل وابن الجوزي، ليستدل به الجاهل. ا. هـ

وقال في الآداب الشرعية (٣/ ٤٠٥): وقال ابن عقيل: ينبغي اتخاذ المحراب فيه ليستدل به الجاهل، وقطع به ابن الجوزي، وقال بعضهم: ويباح اتخاذ المحراب نص عليه، وقيل: يستحب أومأ إليه أحمد ا. هـ

وقال الشيخ منصور الطبلاوي -من الشافعية- في حاشيته (١/ ٤٩٩) قال شراح المنهاج: المحراب المجوف على الهيئة المعروفة حدث بعده ومن ثم قال الأذرعي يكره الدخول في طاقة المحراب ورأيت بهامش نسخة قديمة ولا يكره الدخول في الطاقة خلافا للسيوطي. انتهت عبارة البرماوي، ولا تكره الصلاة في المحراب المعهود ولا بمن فيه خلافا للجلال السيوطي ولم يكن في زمنه ﷺ،

=

=

والخلفاء بعده إلى آخر المائة الأولى وإنما حدثت المحاريب في أول المائة الثانية. انتهى.

ونقل القاسمي في إصلاح المساجد من البدع والحوادث (ص٢٦٦) عن الإقناع وشرحه: يباح اتخاذ المحراب في المسجد وفي المنزل والربط والمدارس ا. هـ

وسئل علماء اللجنة الدائمة (٦/ ٢٥٢، ٢٥٣): المحراب في المسجد، هل كان على عهد رسول الله ﷺ؟

فأجابوا:"لم يزل المسلمون يعملون المحاريب في المساجد في القرون المفضلة وما بعدها؛ لما في ذلك من المصلحة العامة للمسلمين، ومن ذلك بيان القبلة، وإيضاح أن المكان مسجد " انتهى.

وسئل العلامة ابن باز كما في فتاوى نور على الدرب (١١/ ٣٥٧): هل المحراب بدعة في المسجد أم لا؟

فأجاب: ليس المحراب بدعة، بل فعله السلف الصالح من آخر القرن الأول إلى يومنا هذا، وفيه فوائد منها: توضيح أن هذا مسجد يوضح القبلة يستفيد منه الناس في معرفة القبلة، وقد يحتاج إليه في زيادة صف إذا دخل فيه الإمام عند الحاجة، وعند الضيق فليس ببدعة، وفيه فوائد طيبة ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: عن حكم اتخاذ المحاريب في المساجد؟ وما الجواب عما روي من النهي عن مذابح كمذابح النصارى؟

فأجاب: اختلف العلماء رحمهم الله في اتخاذ المحراب هل هو سنة، أو مستحب، أو مباح؟ والذي أرى أن اتخاذ المحاريب مباح، وهذا هو المشهور من المذهب، ولو قيل باستحبابه لغيره لما فيه من المصالح الكثيرة، ومنها تعليم

=

=

الجاهل القبلة لكان حسنا، وأما ما روي عن النبي ﷺ: " النهي عن مذابح كمذابح النصارى " أي: المحاريب: فهذا النهي وارد على ما إذا اتخذت محاريب كمحاريب النصارى، أما إذا اتخذت محاريب متميزة للمسلمين فإن هذا لا ينهى عنه " انتهى " مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين " (١٢ / السؤال رقم ٣٢٦).

وسئل - أيضا -: عد بعض أهل العلم المحاريب في المساجد من البدع ومن التشبه بالكافرين، فهل هذا القول صحيح؟

فأجاب:"هذا القول - فيما أرى - غير صحيح؛ وذلك لأن الذين يتخذونه إنما يتخذونه علامة على القبلة، ودليلا على جهتها.

وما ورد عن النبي ﷺ عن اتخاذ مذابح كمذابح النصارى: فإن المراد به أن نتخذ محاريب كمحاريب النصارى، فإذا تميزت عنها زال الشبه " انتهى. مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (١٢ / السؤال رقم ٣٢٧).

وقال العلامة العثيمين أيضا في الشرح الممتع (٢/ ٢٧٥): وقد اختلف العلماء رحمهم الله في اتِّخاذ المِحراب؛ هل هو سُنَّة؛ أم مستحبٌّ؛ أم مباح؟ والصَّحيح أنَّه مستحبٌّ، أي: لم تَرِدْ به السُّنَّة، لكن النُّصوص الشَّرعيَّة تدلُّ على استحبابه؛ لما فيه من المصالح الكثيرة، ومنها بيان القِبْلة للجاهل. وأما ما رُويَ عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام من النَّهي عن مذابح كمذابح النَّصارى أي: المحاريب، فهذا النَّهيُ فيما إذا اتُّخِذَت محاريب كمحاريب النَّصارى، أما إذا اتُّخِذت محاريب متميّزة للمسلمين، فإن هذا لا نهي عنه ا. هـ

وقال أيضا في نفس المصدر (٤/ ٣٠٣): ويمكن أن يُؤخذ مِن كلام المؤلِّف: أنَّ

=

=

هذا الطَّاق الذي هو المِحراب ليس بمكروه وهو كذلك، فاتخاذ المحراب ليس بمكروه، وإن كان بعضُ العلماء استحبَّه؛ لما فيه مِن الدلالة على القِبْلة، وعلى مكانِ الإمامِ. وبعضُهم كَرِهَه، وقال: إنَّه غيرُ معروف في عهد الرسول ﷺ، وإنَّ الرَّسولَ ﷺ نَهى عن اتِّخاذِ المساجدِ مذابحَ مثلَ مذابحِ النَّصارى يجعلون لها الطَّاق. فهذا يقتضي كراهته.

والصَّحيحُ: أنَّه مباحٌ، فلا نأمرُ به ولا ننهى عنه، والقول بأنه مستحبٌّ أقربُ إلى الصَّوابِ مِن القول بأنه مكروه، لأنَّ الذي وَرَدَ النَّهيُ عنه مذابح كمذابح النصارى، أي: أن نتخذَ المحاريبَ كمحاريب النَّصارى، أما إذا كانت تختلِفُ عنهم فلا كراهة؛ لأن العِلَّةَ في المحاريب المشابهة لمحاريب النَّصارى هي التشبُّه بهم، فإذا لم يكن تشبُّه فلا كراهة.

فلو قال قائل: إذا كان الرَّسولُ ﷺ لم يفعلْها فما بالُنا نفعلها؟ فالجواب: أن النَّبيَّ ﷺ لم يفعلْها إما لعدمِ الحاجةِ إليها، أو لأن ذلك قد يكلِّفُ في البناء في ذلك الوقت، أو لغير ذلك مِن الأسبابِ، فما دامت ليست متَّخذة على وَجْهِ التعبُّدِ، وفيها مصلحةٌ؛ لأنَّها تبين للنَّاسِ محلَّ القِبْلة فكيف نكرهها؟!

ولو أنَّ المسجدَ لا مِحراب فيه ثم دَخَلَ رَجُلٌ غريبٌ فسوف تشتبه عليه القِبْلة، ولهذا قالوا في باب استقبالِ القبلة: إنَّه يُستدلُّ عليها بالمحاريبِ الإسلاميةِ ا. هـ

ثانيا: ذكر أقوال بعض العلماء الذين رجحوا أن اتخاذ المحراب بدعة لا يجوز: منهم ابن مسعود، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن طرخان، وليث بن أبي سليم، وكعب، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وخالد الوالبي، ونقل ابن حزم في المحلى (٤/ ٢٤٠) عن الطبري القول بكراهتها.

=

=

وقال ابن حزم في المحلى (٤/ ٢٣٩): وتكره المحاريب في المساجد، قال علي -أي ابن حزم-: أما المحاريب فمحدثة وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقف وحده ويصف الصف الاول خلفه ثم أسند إلى أنس بن مالك رضي الله عنه (أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر يوم الاثنين وأبوبكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد كشف سجف حجرة عائشة رضي الله عنها فنظر إليهم وهم صفوف في الصلاة ثم تبسم، فنكص أبوبكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحا برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر).

قال علي: لو كان أبوبكر في محراب لما رآه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ كشف الستر. ثم ذكر آثارا لعلي وإبراهيم النخعي والحسن وغيرهم ا. هـ

وألف السيوطي رسالة في بدعيته سماها (إعلام الاريب بحدوث بدعة المحاريب).

وقال السبكي في المنهل العذب المورود شرح سنن أبي داود (٤/ ٩٥): قوله: قبلة المسجد، أي: جدار القبلة وليس المراد بها المحراب الذي يسميه الناس قبلة، لان المحاريب من المحدثات بعده صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن ثم كره جمع من السلف اتخاذها والصلاة فيها. اهـ المراد.

القضاعي نقل عنه القول بكراهتها السبكي في المنهل العذب.

=

=

وقال الشيخ على محفوظ في كتابه الابداع في مضار الابتداع (ص١٨٤) قال: وأما اتخاذ المحاريب فلم يكن في زمانه محراب قط ولا زمان الخلفاء الاربعة فمن بعدهم، وإنما حدثت في آخر المائة الاولى مع ورود الحديث بالنهي عن اتخاذه وأنه من شأن الكنائس، وأن اتخاذه في المساجد من أشراط الساعة، ثم ذكر بعض الاحاديث والآثار التي سبق أن ذكرناها ا. هـ

وقال العلامة الألباني فقال في الضعيفة تحت الحديث (٤٤٩): وأما استحسان الكوثرى وغيره المحاريب، بحجة أن فيها مصلحة محققة، وهي الدلالة على القبلة، فهي حجة واهية من وجوه:

أولا: أن أكثر المساجد فيها المنابر، فهي تقوم بهذه المصلحه قطعا، فلا حاجة حينئذ للمحاريب، وينبغي أن يكون ذلك متفقا بين المختلفين في هذه المسألة لو أنصفوا، ولم يحاولوا ابتكار الأعذار إبقاء لما عليه الجماهير وإرضاء لهم.

ثانيا: أن ما شرع للحاجة والمصلحة، ينبغي أن يوقف عندما تقتضيه المصلحة، ولا يزاد على ذلك، فإذا كان الغرض من المحراب في المسجد، هو الدلالة على القبلة، فذلك يحصل بمحراب صغير يحفر فيه، بينما نرى المحاريب في أكثر المساجد ضخمة واسعة يغرق الإمام فيها، زد على ذلك أنها صارت موضعا للزينة والنقوش التي تلهى المصلين وتصرفهم عن الخشوع في الصلاة وجمع الفكر فيها، وذلك منهي عنه قطعا.

ثالثا: أنه إذا ثبت أن المحاريب من عادة النصارى في كنائسهم، فينبغي حينئذ صرف النظر عن المحراب بالكلية، واستبداله بشيء آخر يتفق عليه، مثل وضع عمود عند موقف الإمام، فإن له أصلا في السنة، فقد أخرج الطبراني في الكبير

=

=

(١/ ٨٩/ ٢) والأوسط (٢/ ٢٨٤/ ٩٢٩٦) من طريقين عن عبد الله بن موسى التيمي، عن أسامة بن زيد، عن معاذ بن عبد الله بن خبيب، عن جابر بن أسامة الجهني قال: " لقيت النبي ﷺ في أصحابه في السوق، فسألت أصحاب رسول الله أين يريد؟ قالوا: يخط لقومك مسجدا، فرجعت فإذا قوم قيام، فقلت: ما لكم؟ قالوا: خط لنا رسول الله ﷺ مسجدا، وغرز في القبلة خشبة أقامها فيها.

قلت: وهذا إسناد حسن أو قريب من الحسن رجاله كلهم ثقات معروفون من رجال " التهذيب "، لكن التيمي مختلف فيه وقد تحرف اسم أحدهم على الهيثمي فقال في " المجمع (٢/ ١٥): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه معاوية بن عبد الله بن حبيب، ولم أجد من ترجمه.

وإنما هو: معاذ لا معاوية وابن خبيب بضم المعجمة، لا حبيب بفتح المهملة، وعلى الصواب أورده الحافظ في الإصابة (١/ ٢٢٠) من رواية البخاري في تاريخه، وابن أبي عاصم، والطبراني، وقد خفيت هذه الحقيقة على المعلق على رسالة السيوطي، وهو الشيخ عبد الله الغماري، فنقل كلام الهيثمي في إعلال الحديث بمعاوية بن عبد الله وأقره، وجملة القول: أن المحراب في المسجد بدعة، ولا مبرر لجعله من المصالح المرسلة، ما دام أن غيره مما شرعه رسول الله ﷺ يقوم مقامه مع البساطة، وقلة الكلفة، والبعد عن الزخرفة ا. هـ

وقال خير الدين وانلي في كتابه المسجد في الإسلام ص (١٤ - ١٥): المحراب هو ما أخذه المسلمون عن النصارى، ثم ذكر بعض الآثار التي تقدم ذكرها في كراهية المحراب وقال: هذا المحراب عدا كونه نصراني المنشأ، فإنه كما هو معلوم يكلف نفقات كبيرة، ويشوه منظر المسجد من الخارج، هذا بالاضافة إلى

=

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤).

{فلما قضينا عليه} على سليمان {الموت} أَيْ مَاتَ وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيِّتًا وَالْجِنّ تَعْمَل تِلْكَ الْأَعْمَال الشَّاقَّة عَلَى عَادَتهَا لَا تَشْعُر بِمَوْتِهِ حَتَّى أَكَلَتْ الْأَرَضَة عَصَاهُ فَخَرَّ مَيِّتًا {مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْته إِلَّا دَابَّة الْأَرْض} مَصْدَر أَرَضَتْ الْخَشَبَة بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَكَلَتْهَا الْأَرَضَة {تَأْكُل مِنْسَأَته} بِالْهَمْزِ وَتَرْكه بِأَلِفٍ عَصَاهُ لِأَنَّهَا يُنْسَأ يُطْرَد وَيُزْجَر بِهَا {فلما خر} ميتا {تبينت الجن} انكشفت لَهُمْ {أَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ أَنَّهُمْ {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْب} وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْت سُلَيْمَان {مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَاب الْمُهِين} الْعَمَل الشَّاقّ لَهُمْ لِظَنِّهِمْ حَيَاته خِلَاف ظَنّهمْ عِلْم الْغَيْب وَعِلْم كَوْنه سُنَّة بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرَضَة مِنْ الْعَصَا بَعْد مَوْته يَوْمًا وليلة مثلا[1].

=

فتنة المصلين بزخارفه، وقد رأينا كيف أمر عمر ببناء المسجد وقال: أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس، وكم شغل هذا المحراب بنقوشه المصلين، وألهاهم عن ذكر الله، وتدبر آياته، وقد روى البخاري في صحيحه: أنه كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال لها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (أميطي عنا قرامك هذا، فإنه لا يزال تصاويره تعرض لي في صلاتي)، وقد رد رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- الخميصة إلى أبي جهم من أجل الاعلام التي فيها، وقال: (فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي).

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ} [سبأ: ١٤]، أي:"فلما قضينا على سليمان بالموت".

=

=

قال السدي:"يعني: فلما أنزلنا عليه الموت".

قال الطبري: يقول:"فلما أمضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات".

قال القرطبي:"أي: فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت".

قوله تعالى: {مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ} [سبأ: ١٤]، أي:"ما دلَّ الجن على موته إلا الأَرَضَةُ تأكل عصاه التي كان متكئًا عليها".

قال الطبري:"يقول: لم يدل الجن على موت سليمان {إلا دابة الأرض} وهي الأرضة وقعت في عصاه التي كان متكئا عليها فأكلتها".

قال القرطبي:"وذلك أنه كان متكئا على المنسأة، فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميتا لانكسار العصا لأكل الأرض إياها، فعلم موته بذلك، فكانت الأرضة دالة على موته، أي سببا لظهور موته، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة".

قال السعدي:"فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان، عليه الصلاة والسلام، كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُرِيَ العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، واتَّكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا، وهابوه، فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}

=

=

وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه".

عن ابن عباس، قوله:"{إلا دابة الأرض تأكل منسأته}، يقول: الأرضة تأكل عصاه".

قال قتادة:"أكلت عصاه حتى خر".

قال عطاء:"كان سليمان بن داود يصلي، فمات وهو قائم يصلي والجن يعملون لا يعلمون بموته، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر".

قال ابن زيد: "المنسأة العصا".

قال السدي:"المنسأة: العصا بلسان الحبشة".

قال ابن قتيبة:"{المنسأة}: العصا. وهي مفعلة من نسأت الدابة: إذا سقتها قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من كبر... فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقال الآخر:

وعنس كألواح الإران نسأتها... إذا قيل للمشبوبتين: هماهما".

قال الفراء: {منسأته}: "هي العصا العظيمة التي تكون مع الراعي: أخذت من نسأت البعير: زجرته ليزداد سيره كما يقال: نسأت اللبن إذا صببت عليه الماء وهو النسئ. ونسئت المرأة إذا حبلت. ونسأ الله في أجلك، أي: زاد الله فيه".

وقرئ: «منساته»، غير مهموزة.

قوله تعالى: {فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} [سبأ: ١٤]، أي:"فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم

=

=

أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا، ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة".

قال الطبري: يقول:"فلما خر، تبين وانكشف أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين".

قال ابن قتيبة:"كان الناس يرون الشياطين تعلم كثيرا من الغيب والسر؛ فلما خر سليمان تبينت الجن أي ظهر أمرها، ثم قال: {أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين}، وقد يجوز أن يكون {تبينت الجن} أي علمت وظهر لها العجز. وكانت تسترق السمع وتلبس بذلك على الناس أنها تعلم الغيب؛ فلما خر سليمان زال الشك في أمرها كأنها أقرت بالعجز".

قال ابن كثير:"تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك".

عن عكرمة:"أنها كانت تنبت في مسجد سليمان بن داود، كل يوم شجرة فيسألها، لأي شيء تصلحين؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأخذ بها لذلك، قال: فنبتت يوما في مسجده شجرة، فقال: ما أنت؟ فقالت: أنا الخروبة قال: ما أراك نبت إلا على خراب بيت المقدس، وما كان الله ليخربه وأنا حي، ثم لبس ثيابه، وسأل الله أن يعمي موته على الجن، حولا، فاعتمد على عصاه فقبض روحه وهو كذلك، فأكلت دابة الأرض، وهي الأرضة، عصاه بعد حول فخر: {تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين} [سبأ: ١٤]".

قال قتادة:"كانت الجن تخبر الإنس أنهم كانوا يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتلوا بموت سليمان، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا

=

=

يشعرون بموته، وهم مسخرون تلك السنة يعملون دائبين {فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين} ولقد لبثوا يدأبون، ويعملون له حولا".

عن قتادة، قال: " كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فذلك قول الله ﷻ {تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا} [سبأ: ١٤] في العذاب المهين قال: وفي بعض الحروف تبينت الإنس أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين".

وفي مصحف عبد الله بن مسعود: «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب».

عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ قال: "كان سليمان يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر، يدخل طعامه وشرابه، فدخله في المرة التي مات فيها، وذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه، إلا تنبت فيه شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا، فيقول لها: لأي شيء نبت، فتقول: نبت لكذا وكذا. فيأمر بها فتقطع؛ فإن كانت نبتت لغرس غرسها، وإن كانت نبتت لدواء قالت: نبت دواء لكذا وكذا، فيجعلها كذلك، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة، فسألها ما اسمك؟ فقالت له: أنا الخروبة، فقال: لأي شيء نبت، قالت: لخراب هذا المسجد، قال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له ثم دخل المحراب،

=

=

فقام يصلي متكئا على عصاه، فمات ولا تعلم به الشياطين في ذلك، وهم يعملون له يخافون أن يخرج فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب، وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه، وكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول: ألست جلدا إن دخلت، فخرجت من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق، فمر ولم يسمع صوت سليمان عليه السلام، ثم رجع فلم يسمع، ثم رجع فوقع في البيت فلم يحترق، ونظر إلى سليمان قد سقط فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات، ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا منسأته، وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة، ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوما وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة". وهي في قراءة ابن مسعود: فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا كاملا فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم، ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له، وذلك قول الله: {ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين}، يقول: تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب، ولكنا سننقل إليك الماء والطين، فالذي يكون في جوف الخشب فهو ما تأتيها به الشياطين شكرا لها".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {قضينا} أي: قدرنا عليه الموت فمات، والقضاء هنا قضاء قدري، وقضاء الله سبحانه وتعالى نوعان: قدري وشرعي،

=

=

فهنا {فلما قضينا عليه} القضاء قدري، وقوله سبحانه وتعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين} [الإسراء: ٤]، هذا أيضا قضاء قدري، أي: قدرنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شرعي، وهذا إذا تعلق بما أمر الله تعالى به فإنه قضاء شرعي، كقوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء: ٢٣]، فالقضاء هنا قضاء شرعي، إذ لو كان قضاء قدريا لوقع ولعبد الناس الله تعالى كلهم بدون إشراك، وهنا القضاء قدري {فلما قضينا عليه الموت} أي: قدرناه عليه فمات.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومكث قائما على عصاه حولا ميتا، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة على عادتها لا تشعر بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتا] وكل هذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضح من الآية لما قضى الله تعالى عليه الموت، بقي مدة لا تعلم الجن أنه مات، وهم يعملون دائبين، لأنه قد كلفهم بذلك، فمات وبقي متكئا على عصاه.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بقي حولا] تقييد هذا بالحول ليس فيه دليل، لكن لا شك أنه بقي مدة وهم يعملون بين يديه ولا يدرون أنه ميت، أما أن نقيده بحول أو بأقل أو بأكثر فهذا يحتاج إلى دليل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه متكئ على عصاه] فيه دليل من الآية؛ لقوله تعالى: {فلما خر} وهذا لا يمكن إلا وهو متكئ.

قال تعالى: {ما دلهم على موته إلا دابة الأرض} مصدر: أرضت الخشبة، بالبناء للمفعول: أكلتها الأرضة، وكلمة {الأرض} هل المراد بها الجنس أي: الدابة التي تكون في الأرض، أو المراد بها المصدر؟

=

الجواب: أن المصنف يرى أن المراد بها المصدر مأخوذ من قوله: (أرضت الخشبة)، يعني: أكلتها الأرضة، يعني: ما دلهم على موته إلا الدابة التي تأرض الخشب، فعليه يكون كلمة أرض مصدر: (أرض يأرض أرضا) مثل (ضرب يضرب ضربا)، هذا تقرير كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، وما قرره بعيد من مفهوم الآية؛ لأنك عندما تفهم {إلا دابة الأرض} ما تفهم الذي قرره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، بل الذي يتبادر إلى الذهن أن المراد بالأرض الجنس، يعني: إلا الدابة التي تخرج من الأرض.

وقوله تعالى: {تأكل منسأته}.

فإن قيل: هل تأكل الأرض أجساد الصالحين؟

فالجواب: إننا لا نجزم بذلك، ولكن قد يعثر على بعضهم لم تأكلهم الأرض، والجزم لا يكون إلا في الأنبياء فقط.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{تأكل منسأته} بالهمزة ألف] يعني فيها قراءتان: (منسأته)، القراءة الثانية: اجعل الهمزة ألفا أي: (منساته)؛ ولهذا قال: [بالهمز وتركه]، ولكن إذا تركناه يكون ألفا؛ لأنه ينسأ ويطرد ويزجر بها، كأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يبين اشتقاق هذه الكلمة، وأنها من النسأ، أي: الطرد والزجر، فإن الإنسان يزجر بعصاه بحزها على من يوجه إليه الخطاب ويطرد بها بالضرب، وهذا يدل على أن الكلمة عربية.

ولكن بعض المصنفين يقولون: إن الكلمة غير عربية، وإنها من الكلام الذي عرب، وإذا كان من الكلام المعرب فإنه لا يشتق لها من العربية، فكل كلمة لها اشتقاق في العربية فإنها تكون عربية، وعلى كل حال: فالخلف في هذا سهل.

=

المهم: أن المنسأة كلمة واحدة، وهي [العصا يطرد] بها الشيء [ويزجر بها].
وقوله: {فلما خر} [ميتا]، {تبينت الجن} الجملة كما تشاهدون جملة شرطية، وأداة الشرط فيها (لما) وقد سبق لنا أن (لما) تأتي لعدة معان: تكون شرطية، وتكون للنفي، وتكون بمعنى (إلا)، والرابع أن تكون ظرفا بمعنى (حين)، وهنا استعملت شرطية بدليل أنه جاء بعدها شرط، وجوابه: {فلما خر تبينت}، ونافية كقوله تعالى: {بل لما يذوقوا عذاب (٨)} [ص: ٨]، أي: لم يذوقوا عذابي، وتأتي بمعنى (إلا) كما في قوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ (٤)} [الطارق: ٤]، أي: إلا عليها حافظ، وتأتي بمعنى (حين) أي: ظرفا، مثل أن تقول: أكرمتني لما زرتك. أي: حين زرتك، إذن لها أربعة معان، أو تأتي على أربعة أوجه.
وقوله تعالى: {تبينت الجن}: {تبينت} أي: علمت وبان لها، وفسرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [انكشف لهم]، (أن) مخففة من الثقيلة؛ أي: أنهم (لو كانوا يعلمون الغيب)، وإذا خففت الثقيلة وجب حذف اسمها، وكان خبرها جملة فهنا الخبر: {لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين} وإعرابها أن تقول: (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن مستتر، وجملة {لو كانوا يعلمون الغيب} في محل رفع خبرها.
وفي قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أنهم] إشارة إلى ما سبق أن قلنا: أن ضمير الشأن ينبغي أن يكون مناسبا للمقام، فقد يكون مفردا، وقد يكون جمعا، وقد يكون للغائب، وقد يكون للمخاطب، خلافا لما عليه أكثر النحويين حيث يقدرونه مفردا للغائب، ويقولون: إنه أي: الحال {لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا}.

=

=

قوله تعالى: {لو} شرطية، وجوابها {ما لبثوا}، و {لو} تأتي شرطية، وتأتي مصدرية، وتأتي بمعنى: ود كذا، فتأتي شرطية مثل هذه الآية، ومثل أن تقول: (لو زرتني لأكرمتك) وتأتي مصدرية إذا جاءت بعد (ود)، كقوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون (٩)} [القلم: ٩] أي: أن تدهنوا، وهذا معناها فقط، وهنا هي شرطية وفعل الشرط فيها قوله تعالى: {كانوا يعلمون} وجوابه: {ما لبثوا في العذاب المهين}.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {لو كانوا يعلمون الغيب} [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان {ما لبثوا في العذاب المهين} العمل الشاق لهم لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب]، وهذا واضح؛ لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا أنه مات قبل أن يخر بسبب تآكل عصاه، ولعلهم كانوا يظنون أو يدعون أنهم كانوا يعلمون الغيب، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين حالهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يعلمون الغيب، مع أن الغيب الذي حصل هنا ليس غيبا مطلقا، ولكنه غيب نسبي، إذ إن من كان قريبا جدا من سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد يعرف أنه مات، يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ومنه ما غاب عنهم من موت سليمان].

وقوله تعالى: {ما لبثوا} أي: ما بقوا، {في العذاب المهين} الذي ألحق بهم المهانة والذل، وقال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشاق لظنهم حياته خلاف ظنهم علم الغيب] يعني: كانوا يظنون أنهم يعلمون الغيب، فلما خر ميتا تبين لهم أنهم لا يعلمون الغيب قال: [وعلم كونه سنة بحساب ما أكلته الأرضة من العصا بعد موته يوما وليلة مثلا]، هذا جواب عما قيل: إنه بقي سنة وهو ميت ولم يعلم به، يعني: أنه لو قال قائل: ما الذي أعلمكم بأنه سنة؟ قال: علمنا ذلك بالحساب،

=

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥).

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ} بِالصَّرْفِ وَعَدَمه قَبِيلَة سُمِّيَتْ باسم جد لهم من العرب {في مساكنهم} بِالْيَمَنِ {آيَة} دَالَّة عَلَى قُدْرَة الله تَعَالَى {جَنَّتَانِ} بَدَل {عَنْ يَمِين وَشِمَال} عَنْ يَمِين واديهم وشماله وقيل لهم {كُلُوا مِنْ رِزْق رَبّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} عَلَى مَا رَزَقَكُمْ مِنْ النِّعْمَة فِي أَرْض سَبَأ {بَلْدَة طَيِّبَة} لَيْسَ فِيهَا سِبَاخ وَلَا بَعُوضَة وَلَا ذُبَابَة وَلَا بُرْغُوث وَلَا عَقْرَب وَلَا حَيَّة وَيَمُرّ الْغَرِيب فِيهَا وَفِي ثِيَابه قَمْل فَيَمُوت لِطِيبِ هَوَائِهَا {وَ} الله {رَبّ غَفُور}[1].

=

لأننا حسبنا ما أكلته الأرض يوما وليلة من العصا فقسنا عليه ما مضى؛ فمثلا إذا كانت تأكل في اليوم والليلة مثلا (سنتيمتر) عرفنا أنها تأكل في السنة ثلاث مئة وستين (سنتيمترا) وعرفنا هذا من طول العصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس متعينا، إذ قد تأكل اليوم أكثر مما تأكله بالأمس أو بالعكس، وحتى نقول أيضا: من الذي قال: إنها أكلت في اليوم والليلة هذا المقدار حتى عرف به ما مضى. يحتاج إلى دليل؛ ولهذا الصواب أن ما سبق أن قلناه: بأنه لا حاجة لنا إلى تقدير المدة التي لبثها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن مثل هذه الأمور لا يركن إليها ولا يعتمد إلا إذا جاءت عن الشارع عن النبي ﷺ، أو جاءت في كتاب الله تعالى، وأما ما يأتي عن بني إسرائيل في مثل هذه الأمور فإننا نقف فيه لا نصدق ولا نكذب.

(١) **ذكر سبب النزول.**

عن علي بن رباح؛ قال: حدثني فلان: أن فروة بن سليك الغطفاني قدم على رسول الله، فقال: يا نبي الله! إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز، وإني أخشى أن

=

=

يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: "ما أمرت فيهم بشيء بعد"؛ فأنزل هذه الآية: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ فيه رجل لم يسم.

وعن أبي رزين: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الشام، وبقي الآخر، فلما بُعِثَ النبي ﷺ؛ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال له: دلني عليه. وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو؟ قال: "إلى كذا كذا"، فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: "وما علمك بذلك؟ "، قال: إنه لا يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم؛ فنزلت هذه الآية: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)}؛ فأرسل إليه النبي ﷺ: "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت".

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨٠)، وقال: وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن أبي رزين به. وهذا مرسل حسن الإسناد إن صح السند إلى الثوري.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٧٠٤) وزاد نسبته لابن أبي شيبة.

* قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} [سبأ: ١٥]، أي:"لقد كان لقبيلة سبأ بـ «اليمن» في مسكنهم دلالة على قدرتنا

و«اللام» موطئة للقسم، أي: والله لقد كان لقوم سبإ في موضع سكانهم باليمن آية

=

=

عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازات المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فإن قوم سبإٍ لما كفروا نعمة الله خرَّ الله ملكهم، وشتَّت شملهم، ومزَّقهم شرَّ ممزَّق، وجعلهم عبرةً لمن يعتبر".

وقد اختلف أهل العلم في «سبإ» على قولين:

أحدهما: أنه اسم أرض باليمن يقال لها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. قاله قتادة.

قال ابن لهيعة:"يقولون: إن مأرب مدينة بلقيس لم يكن بينها وبين بيت المقدس إلا ميل، فلما غضب الله عليها بعدها فهي اليوم باليمن وهي التي ذكر الله في القرآن: {لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية}، حتى بلغ: {ذلك جزيناهم بما كفروا}".

قال النحاس:"قرأ أبو عمرو: «لقد كان لسبإ» بغير صرف جعله اسما للقبيلة، وهو اختيار أبي عبيد واستدل على أنه اسم قبيلة أن بعده في مسكنهم ولو كان كما كان لكان في مساكنها".

الثاني: اسم قبيلة.

واختلف من قال بهذا هل هو اسم امرأة أو رجل على قولين:

أحدهما: أنه اسم امرأة نسبت القبيلة إليها لأنها أمهم. حكاه الماوردي.

الثاني: أنه رجل. قاله مقاتل ، واختاره الواحدي ، وهو قول الأكثرين.

قال مقاتل:"وهو رجل بن يشخب بن يعرب بن قحطان".

قال ابن كثير:"قال علماء النسب، منهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان".

=

=

قال السمعاني:"أكثر أهل التفسير على أن سبأ اسم رجل، ونسبت القبيلة إليه، كما أن تميما اسم رجل، ونسبت القبيلة إليه".

قال النحاس:"هو في الأصل اسم رجل جاء بذلك التوقيف عن النبي ﷺ".

عن ثابت بن سعيد عن أبيه: "أن فروة بن مسيك المرادي، حدثه أنه سأل رسول الله ﷺ عن سبأ فقال: يا رسول الله ما سبأ؟ أرجل أم جبل أم واد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، بل رجل ولد عشرة فتشاءم أربعة، وتيامن ستة، تشاءم لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وتيامن حمير، ومذحج، والأزد، وكندة، والأشعريون، وأنمار التي منها بجيلة».

وفي رواية عن عبد العزيز بن يحيى، قال: "كنا عند عبيدة بن عبد الرحمن بأفريقية فقال يومًا: ما أظن قوما بأرض إلا وهم من أهلها. فقال علي بن رباح: كلا قد حدثني فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفي قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية، وإني أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: "ما أمرت فيهم بشيء بعد". فأنزلت هذه الآية: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} الآيات، فقال له رجل: يا رسول الله، ما سبأ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله: أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو؟ أبلد، أم رجل، أم امرأة؟ قال: "بل رجل، وَلَد له عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة، أما اليمانيون: فمذحج، وكندة، والأزد، والأشعريون، وأنمار، وحمير غير ما حلها. وأما الشام: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة".

قال ابن كثير:"كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس – صاحبة سليمان – منهم.. وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان يقال

=

=

له: الرائش؛ لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه، فسمي الرائش، والعرب تسمي المال: ريشا ورياشا. وذكروا أنه بشَّر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم".

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: المراد بـ «سبإ» -ها هنا-: القبيلة التي هم من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان".

قال أبوعبيدة:"ينوّن «سبأ» بعضهم لأنه يجعله اسم أب، ويهمزه وبعضهم لا ينون فيه بجعله اسم أرض".

قوله تعالى: {جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سبأ: ١٥]، أي:"بستانان عن يمين وشمال".

قال الطبري:"يعني: بستانان كانا بين جبلين، عن يمين من أتاهما وشماله".

قال مقاتل:"جنتان أحدهما عن يمين الوادي والأخرى عن شمال الوادي، واسم الوادي العرم".

قال قتادة:"كانت جنتان بين جبلين فكانت المرأة تخرج مكتلها على رأسها فتمشي بين جبلين، فيمتلئ مكتلها، وما مست بيدها، فلما طغوا بعث الله عليهم دابة، يقال لها «جرذ» فنقبت عليهم فغرقتهم، فما بقي لهم إلا أثل، وشيء من سدر قليل".

قال ابن زيد:"ولم يكن يرى في قريتهم بعوضة قط، ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، وإن كان الركب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدواب، فما هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم، فتموت الدواب، قال: وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين، فيمسك القفة على رأسه فيخرج حين يخرج، وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ولم يتناول منها شيئا بيده، قال: والسد يسقيها".

=

=

قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} [سبأ: ١٥]، أي:"كلوا من رزق ربكم، واشكروا له نعمه عليكم".

قال الطبري: أي:"الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، {واشكروا له} على ما أنعم به عليكم من رزقه ذلك".

قوله تعالى: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: ١٥]، أي:"فإن بلدتكم كريمة التربة حسنة الهواء، وربكم غفور لكم".

قال الطبري:"بلدة ليست بسبخة، لم يكن فيها شيء مؤذ؛ الهمج والدبيب والهوام، ورب غفور لذنوبكم إن أنتم أطعتموه".

قال السمعاني:"أي: [بلدة] طيبة الهواء، عذبة الماء، كثيرة الفواكه، ورب غفور للذنوب إن شكرتم نعمه".

قال قتادة:"وربكم غفور لذنوبكم، قوم أعطاهم الله نعمة، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته".

فإن قيل: "أي فائدة لتخصيصهم بهذا، والله غفور لكل العباد؟

والجواب عنه: أن مغفرة الرب مع طيب البلدة على تلك الغاية لم تكن إلا لهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لقد كان لسبإ} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات وهي: اللام و (قد) والقسم المقدر؛ لأن هذا على تقدير القسم أي: (والله لقد كان لسبأ) و {كان} هنا تدل على مجرد الحدوث؛ أي: أنها مسلوبة الدلالة على الزمن، فإن هذه الآية باقية حتى الآن، كل من قرأ خبرها.

وقوله تعالى: {لقد كان لسبإ} قبيلة سميت باسم جد لهم من العرب و (سبأ) في الأصل اسم رجل يسمى (سبأ)، وكان من (قحطان)، واختلف المؤرخون

=

=

النسابون في (قحطان) هل هو من العرب العاربة أو من العرب المستعربة، والمشهور أنهم من العرب العاربة؛ الذين قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن روى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: أن النبي ﷺ مر على قبيلتين من الأنصار كانوا يترامون بالنبل، فقال لهم النبي ﷺ: "ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا"، وهذا يدل على أنهم عرب مستعربة؛ لأن الأنصار معروف أنهم الأوس والخزرج كلهم من قبائل اليمن من قحطان، نزلوا وتفرقوا في البلاد بعد الغرق ونزلوا المدينة، وعلى هذا فيكون ظاهر حديث البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن قحطان كلهم من بني إسماعيل.

والحاصل: أن العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في النسب يقسمون العرب إلى قسمين: ما كان قبل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فهم عرب عاربة، وما كان من بعده من ذريته فهم عرب مستعربة.

المهم: أن (سبأ) اسم لرجل كان له أولاد كثيرون جاء في الحديث أنهم عشرة بقي منهم ستة في اليمن وأربعة في الشام، وانتشروا في الأرض وكثروا، وفيها قراءتان يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالصرف وعدمه، {لسبإٍ} هذا الصرف، عدمه: (لسبأ).

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{في مسكنهم} في اليمن]، {آية} يقول: [{في مسكنهم}] أتى بقراءة الجمع، ولم أره ذكرها بقراءة الإفراد، وفيها قراءتان سبعيتان، قراءة الإفراد: {في مسكنهم}، وقراءة الجمع: {في مسكنهم}، ولا خلاف بينهما في المعنى؛ لأن (مسكن) مفرد، والمفرد المضاف يعم ويشمل كل ما يدخل تحت هذا المعنى، مثاله قوله تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [النحل: ١٨]، فهنا (نعمة) مفرد وقال فيها: {لا تحصوها} إذن هي كثيرة، فـ(مسكن) من حيث المعنى بمعنى (مساكن)؛ لأنه مفرد مضاف، والمفرد المضاف يعم.

إذن: هناك قراءتان سبعيتان: {مسكنهم} و {مسكنهم}، والمسكن ما يسكنه

=

=

الإنسان فيسكن فيه ويطمئن، كالبيوت والحدائق والبساتين وما إلى ذلك.

وقوله سبحانه وتعالى: {آية} بمعنى: علامة، قال الله سبحانه وتعالى: {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١)} [يس: ٤١]، {أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل (١٩٧)} [الشعراء: ١٩٧]، فالآية بمعنى العلامة الدالة على الشيء، وهذه الآية دالة على قدرة الله، وعلى نعمته وعلى حكمته في النهاية، و {آية} من حيث الإعراب اسم (كان) مؤخر، و {لسبإ} خبر مقدم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{آية} دالة على قدرة الله تعالى] وعلى إحسانه وإنعامه وعلى حكمته في النهاية، لأن هذه المساكن - كما سيأتي- دمرت بسبب إعراضهم.

وقوله تعالى: {جنتان} بدل من {آية}، ويجوز أن تكون عطف بيان؛ لأنها بينت الآية ووضحتها، والجنة هي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأنها تجن من فيها، أي: تستره، وقد علمنا سابقا أن هذه المادة؛ وهي الجيم والنون تدور على معنى الاستتار والخفاء.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {عن يمين وشمال} يقول: [عن يمين واديهم وشماله]، وكان هذا الوادي بين الجبال، وكان على أطراف هذا الوادي هذه الجنان العظيمة، من الأشجار المتنوعة الكثيرة الثمار، وكانوا في أحسن ما يكون من الرغد والهناء والأمن.

وقوله تعالى: {عن يمين وشمال} يعني: إذا كانت على يمين الوادي وشماله صار لها أيضا منظر بديع جذاب.

وقوله سبحانه وتعالى: {جنتان} ليس المراد (جنتان) يعني: بستانين؛ واحد يمينا

=

=

وواحد شمالا، المراد بساتين، لكن قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لما كانت هذه البساتين متصلة صارت كأنها بستان واحد، وللمعلوم لو كان بستان وبستان ما هي بآية يعني أنها بسيطة، لكنها بساتين متصلة بعضها ببعض على يمين الوادي وشمال الوادي، فلما كانت متصلة بعضها ببعض صارت كانها جنه واحدة عن اليمين، وجنة واحدة عن الشمال.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {كلوا من رزق ربكم واشكروا له} [على ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ] إلى آخره، يعني أن الله سبحانه وتعالى جعل في هذه الجنتين خيرا كثيرا، وجعل تناولها ميسرا؛ ولهذا قال تعالى: {كلوا من رزق ربكم} مما يدل على أن الأمر ميسر، كما لو قدمت لك طعاما وقلت: كل، إذن فهذه الجنات تعطي ثمارها بدون مشقة، بل باليسر والسهولة.

وقوله تعالى: {من رزق ربكم} الرزق بمعنى: العطاء، ومنه قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه} [النساء: ٨].

وقوله تعالى: {ربكم} الرب معناه: الخالق المالك المدبر، والربوبية هنا ربوبية خاصة لعنايته سبحانه وتعالى بهم بما أعطاهم في هذه الجنات.

وقوله تعالى: {واشكروا له} هذا هو الذي يطالبون به جزاء أو إظهارا لنعمة الله سبحانه وتعالى عليهم، والشكر: يتعلق بالقلب واللسان والجوارح؛ يعني: فاعترفوا بأن هذه النعمة من الله تعالى، وأثنوا على الله تعالى بها، وقوموا بجوارحكم بطاعته حتى تؤذوا الشكر على الوجه المطلوب منكم، واشكروا له على ما رزقكم من النعمة في أرض سبأ.

وقوله تعالى: {واشكروا له} أحيانا تتعدى (شكر) بنفسها فيقال: شكرت الله

=

=

تعالى. ويقال: شكرت له. فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازمة ومتعدية، وتكون لازمة إذا جاء حرف الجر له، وتكون متعدية إذا لم يأت حرف الجز، فإذا قلت: شكرت الله تعالى. صارت متعدية، وإذا قلت: شكرت لله تعالى. صارت لازمة.

وقوله سبحانه وتعالى: {بلدة طيبة} إعرابها: خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذه بلدة طيبة، أو [هي بلدة طيبة، ليس فيها سباع ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، ويمر الغريب فيها وفي ثيابه قمل فيموت؛ لطيب هوائها] هكذا قال المصنف؛ وإنما نقول: هي بلدة طيبة، أما كون الغريب يأتي من البر وفي ثيابه القمل فيموت القمل لطيب هوائها.

فنقول: الله تعالى أعلم. لكن نقول: لا شك أن وصف الله تعالى إياها بالطيبة أنها من أحسن البلاد في هوائها وفي قرها وفي حرها، ليس في الحر الشديد ولا القر القارس، وليس فيها عفونة الهواء والماء وما أشبه ذلك، فخذ بما شئت من طيب المسكن في كل ما يسمى طيبا.

وقوله تعالى: {ورب غفور} يعني: يقول: والله رب غفور، غفور للذنوب، فمن الله تعالى عليهم بنعمتين: نعمة السكن وطيبه، ونعمة المغفرة، فيكون في نعمة المغفرة السلامة من الآثام وعقوباتها في الآخرة، وفي البلدة الطيبة السلامة من الآفات في الدنيا.

و(الغفور) صيغة مبالغة، واسم الفاعل منها (غافر)، وهي مأخوذة من (الغفر) بمعنى الستر مع الوقاية، ومنه قولهم: (المغفر) الذي يلبسه الإنسان؛ ليتقي به السهام في الحرب، ففيه تغطية وستر، وفيه أيضا وقاية، وهكذا (مغفرة الذنوب)

=

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦).

{فَأَعْرَضُوا} عَنْ شُكْره وَكَفَرُوا {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْل الْعَرِم} جَمْع عَرِمَة وَهُوَ مَا يُمْسِك الْمَاء مِنْ بِنَاء وَغَيْره إلَى وَقْت حَاجَته أَيْ سَيْل وَادِيهمْ الْمَمْسُوك بِمَا ذُكِرَ فَأَغْرَقَ جَنَّتَيْهِمْ وَأَمْوَالهمْ {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ} تَثْنِيَة ذَوَات مُفْرَد عَلَى الْأَصْل {أُكُل خَمْط} مُرّ بَشِع بِإِضَافَةِ أُكُل بِمَعْنَى مَأْكُول وَتَرْكهَا وَيُعْطَف عَلَيْهِ {وأثل وشيء من سدر قليل}[1].

=

فإن معناه أن الله تعالى يستر عليك الذنب ويقيك عقوبته.

(١) قوله تعالى: {فَأَعْرَضُوا} [سبأ: ١٦]، أي:"فأعرضوا عن أمر الله وشكره وكذبوا الرسل".

قال الطبري: يقول:"فأعرضت سبأ عن طاعة ربها وصدت عن اتباع ما دعتها إليه رسلها من أنه خالقها".

قال السمعاني:"أي: فأعرضوا عن شكر النعم".

قال ابن كثير:"أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ} [النمل: ٢٢، ٢٤]".

قال وهب بن منبه: "لقد بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم".

قال السدي:"بعث إلى سبأ اثنا عشر نبيا فسمى تبع لكثرة من تبعه".

=

=

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} [سبأ: ١٦]، أي:"فأرسلنا عليهم السيل الجارف الشديد الذي خرَّب السد وأغرق البساتين".

قال الطبري: يقول:"فثقبنا عليهم حين أعرضوا عن تصديق رسلنا سدهم الذي كان يحبس عنهم السيول، وكان العرم فيما ذكر مما بنته بلقيس".

قال الفراء:"فلما أعرضوا وجحدوا الرسل بثق الله عليهم المسناة، فغرقت أرضهم ودفن بيوتهم الرمل".

عن مجاهد:"أن ذلك السيل الذي أرسل عليهم من العرم كان ماء أحمر أتى الله به من حيث شاء هو شق السد وهدمه، وحفر بطن الوادي عن الجنتين، فارتفعتا وغار عنهما الماء فيبستا".

واختلفوا في العرم على أربعة أقوال:

أحدها: أنه اسم الوادي. قاله ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء.

قال ابن عباس:"واد كان باليمن، كان يسيل إلى مكة، وكانوا يسقون وينتهي سيلهم إليه".

قال قتادة:"ذكر لنا أن «سيل العرم» واد كانت تجتمع إليه مسايل من أودية شتى، فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة وجعلوا عليه أبوابا، وكانوا يأخذون من مائه ما احتاجوا إليه، ويسدون عنهم ما لم يعنوا به من مائه شيئا".

قال الضحاك:"واد يدعى العرم، وكان إذا مطر سالت أودية اليمن إلى العرم، واجتمع إليه الماء فعمدت سبأ إلى العرم فسدوا ما بين الجبلين، فحجزوه بالصخر والقار، فانسد زمانا من الدهر، لا يرجون الماء، يقول: لا يخافون".

الثاني: أن «العرم»: المسنأة التي تحتبس الماء، وهذا قول المغيرة بن حكيم ،

=

=

ومجاهد، والسدي، وعمرو بن شرحبيل، والفراء، والمبرد، وأبي عبيدة، وابن قتيبة.

قال أبوعبيدة:" {سَيْلَ الْعَرِمِ}: واحدها: «عرمة»، وهو بناء مثل المشار يحبس به الماء ببناء فيشرف به على الماء فى وسط الأرض ويترك فيه سبيل للسفينة فتلك: العرمات، واحدها: عرمة، و «المشار» بلسان العجم. قال الأعشى:

وفى ذاك للمؤتسى إسوة... ومأرب قفّى عليها العرم

رخام بناه لهم حمير... إذا جاش دفّاعه لم يرم

أي: حبسه. وقال آخر:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ... يبنون من دون سيله العرما".

قال مجاهد:"هي: المنسأة التي يجتمع فيه الماء ثم ينشف".

قال مجاهد:"«العرم» بالحبشة، وهي المسناة التي يجتمع فيها الماء ثم ينبثق".

روي عن أبي ميسرة، قوله: " {فأرسلنا عليهم سيل العرم}، قال: المسناة بلحن اليمن".

قال يحيى بن سليمان الجعفي: "المسناة هي التي يسميها أهل مصر الجسر فكانوا يفتحونها إذا شاؤوا فإذا رويت جنتهم سدوها".

قال يحيى بن سليمان:"هذا الذي يسمونه الجسر يحبس به الماء، وكان سدا قد جعل في موضع الوادي تجتمع فيه المياه. وذكروا أنه إنما نقبه دابة يقال له الخلد، ليس له عينان، له نابان يحفر بهما الأرض".

قال السمعاني:"وقد كانوا بنوا المسناة بالصخر والقار بينه وبين الماء، وجعلوا على المسناة أبوابا تفتح وتسد، فإذا احتاجوا إلى الماء فتحوا، وإذا استغنوا

=

=

سدوا".

قال الفراء:"كانت مسناة كانت تحبس الماء على ثلاثة أبواب منها، فيسقون من ذلك الماء من الباب الأول، ثم الثاني، ثم الآخر، فلا بنفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. وكانوا أنعم قوم عيشا".

وذكر النقاش: "أنه كان ذلك من عمل بلقيس، وكانت جعلت على المسناة اثني عشرة مخرجا، يخرج منها اثنا عشر نهرا، وكانت المسناة سدا بين جبلين، والمياه وراء السد تجتمع من السيول".

وعن هب، قال أبي: "فسألت المغيرة بن حكيم عن «العرم»، فقال: هو بكلام حمير المسناة، فسدت ما بين الجبلين فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له أبوابا بعضها فوق بعض وبنت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجا على عدة أنهارهم، فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السد فأمرت بالباب الأعلى ففتح فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها فجعل بعض البعر يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البعر في الماء حتى خرج جميعا معا، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان".

قال المغيرة بن حكيم: "لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم، قال فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها، فتركت ملكها وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها فأبت فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا تطيعونني وليست لكم عقول، ولا تطيعوني، قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرا بعدك، فجاءت فأمرت

=

=

بواديهم، فسد بالعرم".

الثالث: أن «العرم»: هو اسم الجرذ، وهو الفأرة، وقيل: كان اسم الخلد، وسلطه الله تعالى على المسناة حتى نقبها، ودخل الماء وغرق البلد والبساتين.

وقال ابن الأعرابي: "العرم والبر من أسماء الفأرة، ومنه قولهم: فلان لا يعرف هرا من برا أي: السنور من الفأرة".

قال الراغب:"قيل: «العرم»: الجرذ الذكر، ونسب إليه السيل من حيث إنه نقب المسناة".

وذكر أبو الحسين بن فارس في تفسيره: "أن القوم كانوا قد سمعوا أن هلاك بلدهم بالفأر من كهانهم، فجاءوا بالسنانير وربطوها عند كل جرف في المسناة، فجاءت فأرة حمراء كبيرة وساورت السنور وهزمته ودخلت في الجرف، وتغلغلت المسناة حتى نقبتها وخرقتها".

الرابع: أن «العرم»: هو السيل الشديد، أي: أرسلنا عليهم السيل الشديد. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد.

قال الراغب:"العرامة: شراسة وصعوبة في الخلق، وتظهر بالفعل، يقال: عرم فلان فهو عارم، وعرم: تخلق بذلك، ومنه: عرام الجيش، وقوله تعالى: {فأرسلنا عليهم سيل العرم} [سبأ: ١٦]، قيل: أراد سيل الأمر العرم".

قال الواحدي:"فأكثر المفسرين على أن العرم: السكر والمسناة، وهي التي تحبس الماء".

وقال ابن عباس:"وكان السبب الذي سبب الله لإرسال ذلك السيل عليهم فيما ذكر لي جرذا ابتعثه الله على سدهم، فثقب فيه ثقبا".

=

=

ثم اختلف أهل العلم في صفة ما حدث عن ذلك الثقب مما كان فيه خراب جنتيهم، على قولين:

أحدهما: أن السيل لما وجد عملا في السد عمل فيه، ثم فاض الماء على جناتهم؛ فغرقها وخرب أرضهم وديارهم. قاله قتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، ووهب بن منبه.

قال قتادة:"لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جرذا يسمى الخلد، فثقبه من أسفله حتى غرق به جناتهم، وخرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم".

قال الضحاك: "لما طغوا وبغوا، يعني سبأ، بعث الله عليهم جرذا فخرق عليهم السد فأغرقهم الله".

قال ابن زيد: "بعث الله عليه جرذا وسلطه على الذي كان يحبس الماء الذي يسقيها، فأخرب في أفواه تلك الحجارة وكل شيء منها من رصاص وغيره، حتى تركها حجارة، ثم بعث الله سيل العرم، فاقتلع ذلك السد وما كان يحبس، واقتلع تلك الجنتين، فذهب بهما، وقرأ {فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين}، قال: ذهب بتلك القرى والجنتين".

قال وهب بن منبه اليماني: "كان لهم، يعني لسبأ، سد، قد كانوا بنوه بنيانا أبدا، وهو الذي كان يرد عنهم السيل إذا جاء أن يغشى أموالهم، وكان فيما يزعمون في علمهم من كهانتهم، أنه إنما يخرب عليهم سدهم ذلك فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما جاء زمانه وما أراد الله بهم من التغريق، أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرر فساورتها، حتى استأخرت عنها أي الهرة، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فغلغلت في السد

=

=

فحفرت فيه حتى وهنته للسيل وهم لا يدرون، فلما جاء السيل وجد خللا فدخل فيه حتى قلع السد وفاض على الأموال فاحتملها فلم يبق منها إلا ما ذكره الله، فلما تفرقوا نزلوا على كهانة عمران بن عامر".

الثاني: أن الماء الذي كانوا يعمرون به جناتهم سال إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، فبذلك خربت جناتهم. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"بعث الله عليهم، يعني على العرم، دابة من الأرض فثقبت فيه ثقبا، فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به، وأبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، وذلك حين عصوا، وبطروا المعيشة".

قال الطبري:"والقول الأول أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه أرسل عليهم سيل العرم، ولا يكون إرسال ذلك عليهم إلا بإسالته عليهم، أو على جناتهم وأرضهم لا بصرفه عنهم".

قوله تعالى: {وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ: ١٦]، أي:"وبدَّلناهم بجنتيهم المثمرتين جنتين ذواتَيْ أكل خمط، وهو الثمر المر الكريه الطعم، وأثْل وهو شجر شبيه بالطَّرْفاء لا ثمر له، وقليل من شجر النَّبْق كثير الشوك".

قال الطبري:"وجعلنا لهم مكان بساتينهم من الفواكه والثمار بساتين من جنى ثمر الأراك، والأراك هو الخمط، والأثل: فإنه يقال له: الطرفاء، وقيل: شجر شبيه بالطرفاء غير أنه أعظم منها، وقيل: إنها السمر، وشيء من سدر قليل".

قال ابن كثير:"فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك

=

=

والطرفاء والسّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل".

قال ابن قتيبة:"«الخمط»: شجر العضاه. وهي: كل شجرة ذات شوك، و «الأثل»: شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه".

قال أبو عبيدة:"«الخمط»: كل شجرة ذى شوك والأكل هو الجنى".

قال ابن عباس:"أبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، والخمط: الأراك".

قال ابن عباس:"الأثل: الطرفاء".

قال الحسن ومجاهد:"الخمط: الأراك".

قال قتادة:"الخمط: الأراك، وأكله: بريره".

قال الضحاك:"بدلهم الله بجنان الفواكه والأعناب، إذ أصبحت جناتهم خمطا وهو الأراك".

قال ابن زيد:"أذهب تلك القرى والجنتين، وأبدلهم الذي أخبرك ذواتي أكل خمط، قال: فالخمط: الأراك، قال: جعل مكان العنب أراكا، والفاكهة أثلا وشيئا من سدر قليل".

قال قتادة:"بينما شجر القوم خير الشجر، إذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {فأعرضوا} [عن شكره وكفروا] الفاء هنا عاطفة؛ يعني: أنهم مع هذه النعم؛ جنات وبساتين عظيمة وبلد طيب ومغفرة للذنوب إذا قاموا بطاعة الله، قال تعالى: {فأعرضوا} يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أعرضوا عن شكره وكفروا]، فأعرضوا عن الشكر وقابلوا هذه النعمة بالكفر فماذا كانت عاقبتهم؟

=

=

قال تعالى: {فأرسلنا عليهم سيل العرم} والفاء هنا عاطفة وتفيد السببية أيضا؛ أي: فبسبب إعراضهم أرسلنا عليهم سيل العرم، وهذه سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه كما قال الله تعالى: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢)} [النحل: ١١٢]، هؤلاء أعرضوا فدمر الله تعالى ديارهم.

وقوله: {فأرسلنا عليهم سيل العرم} [جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من إناء وغيره إلى وقت حاجته، أي: سيل واديهم الممسوك بما ذكر، فأغرق جنتيهم وأموالهم].

{سيل العرم}، العرم بمعنى: السد، يعنى أن هذا السيل منسوب إلى السد، أو بمعنى: سيل العرم، من باب إضافة الشيء إلى صفته، أي: السيل العارم الجارف الذي يتلف كل ما مر عليه، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم سيلا عظيما، وذلك بفساد السد الذي جعلوه بين هذا الجبال.

وكان هذا السد المنيع تجتمع فيه السيول وتمتصها الأرض وتخرج في العيون، فلما تصدع هذا السد جرت المياه بغير تقدير، وذلك بقدرة الله سبحانه وتعالت فقال تعالى: {فأرسلنا عليهم سيل العرم}.

ويقول: {وبدلناهم بجنتيهم جنتين} الجنتان السابقتان كلها ثمار طيب يؤكل وينتفع به بالبيع والشراء وغير ذلك، أما البدل فيقول سبحانه وتعالى: {وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي}.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {ذواتي} [تثنية ذوات، مفرد على الأصل]، وهو في الأصل (ذات) المفرد، و (ذوات) للجمع، فثنى الجمع وصارت {ذواتي أكل} ويمكن

=

=

أن يقال خلاف كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فيقال: إن الأصل (ذات)، لكن لما ثني عادت الواو فصارت (ذواتي)، ومعنى (ذواتي) أي: صاحبتي؛ لأن (ذات) بمعنى: صاحبة، قال الله تعالى: {والسماء ذات البروج (١)} [البروج: ١]، أي: صاحبة البروج.

وقوله تعالى: {جنتين ذواتي أكل خمط} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مر بشع بإضافة أكل بمعنى: مأكول وتركها، ويعطف عليه] {وأثل}؛ يعني أن فيها قراءتين: {ذواتي أكل خمط} هذي الإضافة، وتركها: {ذواتي أكل خمط} أما الإضافة واضح، {ذواتي أكل خمط} يعني أنها الأكل يخمط خمطا، وهو شجر الأراك؛ كما فسره بذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والأراك هي مساويك لها أوراق بسيطة جدا، وليست بذات اللذيذة؛ ولهذا يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [مر بشع] بدل الفواكه والخضر والزروع وغيرها، ويقول: {أكل} بمعنى: مأكول، يعني: ذواتي مأكول يخمط خمطا {وأثل} بدل الأشجار المثمرة البهيجة صار بدلها أثل، والأثل بعضهم قال: هو الطرفاء، والصحيح أنه غير الطرفاء؛ لأن الطرفا تكون صغيرة ما تكبر والأثل معروف.

قوله تعالى: {وشيء من سدر قليل} هنا قال: شيء من سدر. وهناك قال: {خمط وأثل}؛ لأن السدر أحسن هذه الأنواع الثلاثة، ولم يعطوا منه إلا الشيء القليل شيء من سدر، وأيضا قليل مع أن كلمة: {وشيء من سدر} تدل على القلة، لكنها أكدت هذه القلة بقوله تعالى: {قليل}.

الخلاصة: أن هؤلاء لما أعرضوا ولم يقوموا بشكر الله أرسل الله عليهم السيل، فأغرق أموالهم وهدم بناءهم، وأبدلهم بهاتين الجنتين جنتين لا يساويان ولا

=

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

{ذَلِكَ} التَّبْدِيل {جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} بِكُفْرِهِمْ {وَهَلْ نجازي إِلَّا الْكَفُور} بِالْيَاءِ وَالنُّون مَعَ كَسْر الزَّاي وَنَصْب الْكَفُور أَيْ مَا يُنَاقَش إِلَّا هُوَ[١].

=

يقاربان ما سبق، ذواتي أكل ليس بالكثير خمط، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنه [مر بشع] {وأثل وشيء من سدر قليل} بدل تلك الجنات العظيمة المفيدة النافعة.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} [سبأ: ١٧]، أي:"ذلك التبديل من خير إلى شر بسبب كفرهم، وعدم شكرهم نِعَمَ الله".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي فعلنا بهؤلاء القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيل العرم، حتى هلكت أموالهم، وخربت جناتهم، جزاء منا على كفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا".

قال ابن كثير:"وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل".

قوله تعالى: {وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ: ١٧]، أي:"وما نعاقب بهذا العقاب الشديد إلا الجَحود المبالغ في الكفر، يجازى بفعله مثلا بمثل".

قال الطبري: يقول:"وهل يجازى إلا الكفور لنعمة الله".

قال ابن كثير:"أي: عاقبناهم بكفرهم".

عن مجاهد: " {وهل نجازي} : نعاقب".

قال الحسن البصري:"صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور".

وقال طاوس: "يجازى ولا يغفر له؛ والمؤمن لا يناقش الحساب".

قال ابن خيرة: "جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر

=

=

في اللـذة. قيـل: ومـا التعسر في اللـذة؟ قـال: لا يـصادف لـذة حـلالا إلا جـاءه مَـنْ يُنَغِّصه إياها".

قال قتادة:"إن الله تعالى إذا أراد بعبده كرامة تقبـل حسناته، وإذا أراد بعبـده هوانـا أمسك عليه ذنوبه حتى يوافى به يوم القيامة. قـال: وذكـر لنـا أن رجـلا بينمـا هـو في طريق من طريق المدينة، إذ مرت به امرأة، فأتبعها بصره، حتى أتـى علـى حـائط، فشج وجهه، فأتى نبي الله ووجهه يسيل دما، فقال: يا نبي الله فعلت كذا وكذا، فقال له نبي الله: «إن الله إذا أراد بعبد كرامة عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد هوانا أمسك عليه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة، كأنه عير أبتر»".

قـال العثيمـين: قـول المـصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {ذلـك} [التبـديل] {جزينـاهم}، ولـو قـال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلـك التبـديل وإرسـال الـسيل. لكـان أعـم وأشـمل، أو لـو قـال: ذلـك المذكور. لكان أشمل، {وهل نجازي إلا الكفور}.

وقوله: [{جزيناهم بما كفروا} بكفرهم] وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا أفادنا أن (ما) مصدرية، وأما الباء فهي للسببية أي: جزيناهم هذا الجزاء بإغراق أموالهم، وهدم بنائهم، وإبدال الجنتين بهاتين الجنتين {بما كفروا} أي: بسبب كفرهم.

وقوله: {وهل نجازي إلا الكفور}: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(وهل يجازي إلا الكفور)، بالياء والنـون مـع كـسر الـزاي ونـصب (الكفـور)، أي: مـا ينـاقش إلا هـو]، ففـي قولـه تعـالى: {وهـل نجـازي} قراءتـان {نجـازي}، وعلـى هـذه القـراءة يجـب نـصب (الكفور) على أنها مفعول بـه، والقـراءة الثانيـة "يجـازى" وعليـه ترفـع (الكفـور) على أنها نائب فاعل، والاستفهام هنا بمعنى النفـي؛ لأنـه عقـب بــ (إلا)، فيكـون: {وهل نجازي إلا الكفـور} أي: مـا نجـازي إلا الكفـور، والمجـازاة هنـا بمعنـى:

=

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨).

{وَجَعَلْنَا بَيْنهمْ} بَيْن سَبَأ وَهُمْ بِالْيَمَنِ {وَبَيْن الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} بِالْمَاءِ وَالشَّجَر وَهِيَ قُرَى الشَّام الَّتِي يَسِيرُونَ إلَيْهَا لِلتِّجَارَةِ {قُرًى ظَاهِرَة} مُتَوَاصِلَة مِنْ الْيَمَن إلَى الشَّام {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْر} بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَة وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى إلَى انْتِهَاء سَفَرهمْ وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إلَى حَمْل زَاد وَمَاء أَيْ وَقُلْنَا {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمَنِينَ} لَا تَخَافُونَ فِي لَيْل وَلَا فِي نَهَا[1].

=

المناقشة، أو بمعنى: المكافأة على الفعل، والكفور صيغة مبالغة؛ أي: ذو الكفر بالله سبحانه وتعالى.

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً} [سبأ: ١٨]، أي:"وجعلنا بين أهل «سبأ» -وهم «باليمن» - والقرى التي باركنا فيها - وهي «الشام» - مُدنًا متصلة يُرى بعضها من بعض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن نعمته التي كان أنعمها على هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم: وجعلنا بين بلدهم وبين القرى التى باركنا فيها وهي الشأم، قرى متصلة، وهي قرى عربية.

قال ابن كثير:"يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم".

=

=

قال الحسن:"قرى متواصلة، قال: كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية ويروح فيأوي إلى قرية أخرى. قال: وكانت المرأة تضع زنبيلها على رأسها، ثم تمتهن بمغزلها، فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ من كل الثمار".

عن معمر، قوله: {التي باركنا فيها}، قال:"هي قرب الشام".

عن مجاهد، قوله: {التي باركنا فيها}، قال: " هي قرى الشام".

واخرج الطبري عن مجاهد، وقتادة، في قوله: {القرى التي باركنا فيها}، قالا: "الشأم".

عن قتادة: " {قرى ظاهرة}، أي: متواصلة".

عن مجاهد: " {قرى ظاهرة}، قال: السروات".

عن مجاهد: {قرى ظاهرة}، قال:"كل يوم هم على ماء".

قال سعيد بن جبير:"هي قرى عربية ، وهي القرى التي ما بين مأرب ، والشام".

عن ابن عباس، قوله:"{قرى ظاهرة}، يعني: قرى عربية بين المدينة والشام". وروي عن الضحاك مثله.

وعن ابن عباس، قوله:"{وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة}، قال: الأرض التي باركنا فيها: هي الأرض المقدسة".

قال ابن زيد:"كان بين قريتهم وقرى الشأم قرى ظاهرة، قال: إن كانت المرأة لتخرج معها مغزلها ومكتلها على رأسها، تروح من قرية وتغدوها، وتبيت في قرية لا تحمل زادا ولا ماء لما بينها وبين الشأم".

قوله تعالى: {وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ} [سبأ: ١٨]، أي:"وجعلنا السير فيها سيرًا مقدَّرًا من منزل إلى منزل لا مشقة فيه".

=

=

قال ابن قتيبة: أي: جعلنا ما بين القرية والقرية مقدارا واحدا".

قال الطبري: يقول:"وجعلنا بين قراهم والقرى التي باركنا فيها سيرا مقدرا من منزل إلى منزل وقرية إلى قرية، لا ينزلون إلا فى قرية ولا يغدون إلا من قرية".

قال الحسن:"يصبحون في منزل وقرية وماء، ويمسون في منزل وقرية وماء".

قوله تعالى: {سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ} [سبأ: ١٨]، أي:"وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى في أيِّ وقت شئتم من ليل أو نهار، آمنين لا تخافون عدوًّا، ولا جوعًا ولا عطشًا".

قال الطبري: "يقول: وقلنا لهم سيروا في هذه القرى ما بين قراكم والقرى التي باركنا فيها ليالي وأياما آمنين لا تخافون جوعا ولا عطشا، ولا من أحد ظلما".

عن ابن زيد، قوله: " {وأياما آمنين} ، قال: ليس فيها خوف".

قال قتادة:"لا يخافون ظلما ولا جوعا، وإنما يغدون فيقيلون، ويروحون فيبيتون في قرية أهل جنة ونهر، حتى لقد ذكر لنا أن المرأة كانت تضع مكتلها على رأسها، وتمتهن بيدها، فيمتلئ مكتلها من الثمر قبل أن ترجع إلى أهلها من غير أن تخترف شيئا، وكان الرجل يسافر لا يحمل معه زادا ولا سقاء مما بسط للقوم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وجعلنا بينهم} نسبة الفعل إلى (نا) الدالة على العظمة، والضمير في {وجعلنا بينهم} يعود على سبأ.

وقوله تعالى: {القرى} جمع قرية، وهي البلدة سواء كانت كبيرة أو صغيرة، وسميت قرية؛ لأنها تجمع، وما اشتهر عند الناس أن القرية هي المدن الصغار، هذا اصطلاح عرفي، وإلا فإن الله تعالى يقول: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك} [محمد: ١٣]، فالقرية اسم للبلد سواء كان كثيرا أو

=

=

قليلا، سمي بذلك لأنه يجمع الناس.

وقوله تعالى: {القرى التي باركنا فيها} ما هي القرى التي بارك الله تعالى فيها؟ قيل: إنها قرى اليمن، كصنعاء ونحوها. وقيل: إنها قرى الشام. ولكل من القولين وجه؛ لأن الله سبحانه وتعالى بارك في الشام، وبارك في اليمن؛ قال النبي ﷺ: "اللهم بارك لنا في شامنا ويمننا"؛ ولهذا اختلف المصنفون رَحِمَهُ اللَّهُ: هل المراد القرى التي بارك الله تعالى فيها قرى الشام أو المراد القرى التي بارك الله تعالى فيها قرى اليمن؟ أيهما أعظم منة أن يكون المراد بقرى الشام أو قرى اليمن؟

الجواب: قرى الشام؛ لبعدها، فهم يذهبون إلى الشام ويرجعون منها فيقول سبحانه وتعالى: {وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [باركنا فيها بالماء والشجر والثمار وهي قرى الشام التي يسيرون إليها للتجارة {قرى ظاهرة} متواصلة من اليمن إلى الشام]، قوله سبحانه وتعالى: {ظاهرة} يعني: بينه يرى بعضها من بعض؛ لأن القرية إذا كانت بعيدة عن الثانية ما صارت ظاهرة، وإذا خرجت من قرية إلى قرية، وهي بعيدة منها هل تكون القرية الثانية ظاهرة لك؟ لا، بل تحتاج إلى أحد ليدلك، لكن إذا كانت متواصلة متقاربة صارت ظاهرة بادية للعيان، فهذه القرى متواصلة بعضها ببعض من اليمن إلى الشام.

والذين قالوا: إن المراد قرى اليمن؛ قالوا: لأنهم لا يعلم أن هناك قرى متصلة بين اليمن والشام، وقالوا: إن الواقع يدل على خلاف ذلك، وأن المراد بالقرى قرى اليمن، وعلى كل حال: لكل قول وجه.

وقوله تعالى: {وقدرنا فيها السير} يعني: جعلناه مقدرا بمراحل ينزلون من قرية

=

=

إلى أخرى مرحلة مرحلة.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [{وقدرنا فيها السير} بحيث يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، إلى انتهاء سفرهم، ولا يحتاجون فيه إلى حمل زاد وماء] هذا معنى تقدير السير: أن يكون مقدرا بمراحل حسب هذه القرى، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى، ثم يقيلون في الثانية ويبيتون في الأخرى وهكذا، ولا شك أن تقدير السير على هذا الوجه أنه من نعمة الله على الناس، فإن الخطوط الطويلة التي ليست بها مدن تكون في الغالب طرقا مهلكة مخيفة، لكن إذا كانت متواصلة صارت أيسر للسالك، وأشد طمأنينة، بل وأقرب للسير؛ لأنك إذا مشيت من قرية إلى أخرى تحس أنك قطعت مرحلة، مثل القرآن الكريم: لما جعل آيات وسورا وأجزاء صار أسهل للقارئ، الكتاب إذا كان مفضلا بأبواب وفصول صار أيسر، والطريق الحسي أيضا طريق الأرض إذا كان فيه قرى متوالية صار أيسر من الطريق الطويل الذي يمل الإنسان ولا يرى أنه قطع مرحلة فيه.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: {وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين}

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقلنا: سيروا]، وعليه فتكون هذه الجملة في موضع نصب، مقولا لقول محذوف (قلنا: سيروا)، وهذا القول شرعي أو قدري؟

الجواب: قدري؛ يعني: أن الله سبحانه وتعالى قال لهم: سيروا في هذه الطرق فيها ليالي، أي: في هذه القرى، {ليالي وأياما آمنين} لا تخافون لا في ليل ولا في نهار، وهذه من نعم الله سبحانه وتعالى أنهم يسيرون ليلا ونهارا آمنين لا يخافون من أحد، ولا يخافون من تلف، ولا يخافون من انقطاع ماء، ولا من فقد طعام، ولكن لم يصبروا على هذه النعمة - والعياذ بالله تعالى- {فقالوا ربنا باعد بين

=

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩).

{فَقَالُوا رَبّنَا بَعِّدْ} وَفِي قِرَاءَة بَاعِدْ {بَيْن أَسْفَارنَا} إلَى الشَّام اجْعَلْهَا مَفَاوِز لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَرَاء بِرُكُوبِ الرَّوَاحِل وَحَمْل الزَّاد وَالْمَاء فَبَطِرُوا النِّعْمَة {وَظَلَمُوا أَنْفُسهمْ} بِالْكُفْرِ {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيث} لِمَنْ بَعْدهمْ فِي ذَلِكَ {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلّ مُمَزَّق} فَرَّقْنَاهُمْ فِي الْبِلَاد كُلّ التَّفْرِيق {إنَّ فِي ذَلِكَ} الْمَذْكُور {لَآيَات} عِبَرًا {لِكُلِّ صَبَّار} عَنْ الْمَعَاصِي {شَكُور} عَلَى النِّعَم[1].

=

أسفارنا} ما شكروا النعمة، وكان عليهم أن يشكروا الله تعالى على هذه النعمة، ويغتبطوا بها، ولكنهم لم يصبروا عليها حتى سألوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم، فتكون الأسفار طويلة ما فيها قرى.

وهذا نظير قول أصحاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ له: {لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها} [البقرة: ٦١]، بينما كانوا في الأول يأكلون رغدا من المن والسلوى بلا تعب وطعاما طيبا؛ لكن قوم سبأ ما صبروا على هذه النعمة التي هي من أحسن النعم في الأسفار.

(١) قوله تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} [سبأ: ١٩].

قال الطبري: يقول:"فقالوا: يا ربنا باعد بين أسفارنا؛ فاجعل بيننا وبين الشأم فلوات ومفاوز، لنركب فيها الرواحل، ونتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على بطر القوم نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدار العافية، ولقد عجل لهم ربهم الإجابة، كما عجل للقائلين: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ

=

=

الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]، أعطاهم ما رغبوا إليه فيه وطلبوا من المسألة".

قال ابن كثير:"وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ} [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: ١١٢]".

قال أبو مالك:"كانت لهم قرى متصلة باليمن، كان بعضها ينظر إلى بعض، فبطروا ذلك، وقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، قال: فأرسل الله عليهم سيل العرم، وجعل طعامهم أثلا وخمطا وشيئا من سدر قليل".

قال ابن عباس:"فإنهم بطروا عيشهم، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه، فمزقوا بين الشأم وسبأ، وبدلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، وأثل وشيء من سدر قليل".

عن ابن زيد، قوله:"{فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا}، حتى نبيت في الفلوات والصحاري، {فظلموا أنفسهم}".

=

=

قال قتادة:"بطر القوم نعمة الله وغمطوا كرامة الله، قال الله: {وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث}".

قال الحسن:"إنهم ملوا النعمة كما ملت بنو إسرائيل المن والسلوى".

وعن الكلبي:"إنهم قالوا لرسلهم حين ابتلوا حين كذبوهم: قد كنا نأتي عليكم وأرضنا عامرة، خير أرض، فكيف اليوم وأرضنا خراب".

وقرأه قوم: "ربنا بعّد بين أسفارنا".

قوله تعالى: {وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [سبأ: ١٩]، أي:"وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة".

قال ابن كثير:"أي: بكفرهم".

قال الطبري:"وكان ظلمهم اياها عملهم بما يسخط الله عليهم من معاصيه مما يوجب لهم عقاب الله".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} [سبأ: ١٩]، أي:"وجعلناهم عبرًا وأحاديث لمن يأتي بعدهم".

قال ابن قتيبة: أي: عظة ومعتبرا".

قال الطبري:"يقول: صيرناهم أحاديث للناس يضربون بهم المثل في السب، فيقال: تفرق القوم أيادي سبا، وأيدي سبا إذا تفرقوا وتقطعوا".

قال ابن كثير:"أي: جعلناهم حديثا للناس، وَسمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا".

قال الفراء:"صاروا مثلا عند العرب. والعرب تقول: تفرقوا أيادي سبا وأيدي

=

=

سبا قال الشاعر:

عينا ترى الناس إليها نيسبا... من صادر ووارد أيدي سبا".

عن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، سمعت أبي يقول:"سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ، قال: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} إلى قوله: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} وكانت فيهم كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا، وأن العذاب قد أظلهم. فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار، فقال لرجل من بنيه – وهو أعزهم أخوالا –: إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل، فإذا انتهرتك فانتهرني، فإذا تناولتك فالطمني. فقال: يا أبت، لا تفعل، إن هذا أمر عظيم، وأمر شديد، قال: يا بني، قد حدث أمر لا بد منه. فلم يزل به حتى وافاه على ذلك. فلما أصبحوا واجتمع الناس، قال: يا بني، افعل كذا وكذا. فأبى، فانتهره أبوه، فأجابه، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه، فوثب على أبيه فلطمه، فقال: ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة. قالوا: وما تصنع بالشفرة؟ قال: أذبحه. قالوا: تذبح ابنك. الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال: فأبى، قال: فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك، فجاء أخواله فقالوا: خذ منا ما بدا لك. فأبى إلا أن يذبحه. قالوا: فلتموتن قبل أن تذبحه. قال: فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه، اشتروا مني دوري، اشتروا مني أرضي، فلم يزل حتى باع دوره وأرضيه وعقاره، فلما صار الثمن في يده وأحرزه، قال: أي قوم، إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد دنا، فمن أراد منكم دارا جديدا، وجملا شديدا، وسفرا

=

=

بعيدا، فليلحق بعمان. ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير - وكلمة، قال إبراهيم: لم أحفظها - فليلحق ببصْرَى، ومن أراد الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، المقيمات في الضحل، فليلحق بيثرب ذات نخل. فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان. وخرجت غسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل. قال: فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان: هذا مكان صالح، لا نبغي به بدلا. فأقاموا به، فسموا لذلك خزاعة، لأنهم انخزعوا من أصحابهم، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة، وتوجه أهل عمان إلى عمان، وتوجهت غسان إلى بصرى".

قوله تعالى: {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سبأ: ١٩]، أي:"وفَرَّقناهم كل تفريق وخربت بلادهم".

قال الطبري:"يقول: وقطعناهم في البلاد كل مقطع".

قال أبو عبيدة:"أي: قطعناهم وفرقناهم".

قال ابن قتيبة: فرقناهم في كل وجه. ولذلك قالت العرب للقوم إذا أخذوا في وجوه مختلفة: تفرقوا أيدي سبا. و «أيدي» ، بمعنى: مذاهب وطرق".

قال عامر الشعبي: "أما غسان فقد لحقوا بالشأم، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان".

قال ابن إسحاق:"يزعمون أن عمران بن عامر وهو عم القوم كان كاهنا، فرأى في كهانته أن قومه سيمزقون ويتباعدون؛ فقال لهم: إني قد علمت أنكم ستمزقون، فمن كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد جديد فليلحق بكأس أو كرود، قال: فكانت وادعة بن عمرو، ومن كان منكم ذا هم مدن وأمرد عن فليلحق

=

=

بأرض شن فكانت عوف بن عمرو، وهم الذين يقال لهم بارق، ومن كان منكم يريد عيشا آينا وحرما آمنا فليلحق بالأرزين فكانت خزاعة، ومن كان يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج فهما هذان الحيان من الأنصار، ومن كان يريد خمرا وخميرا وذهبا وحريرا وملكا وتأميرا فليلحق بكوسى وبصرى فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشأم ومن كان منهم بالعراق، قال ابن إسحاق: قد سمعت بعض أهل العلم يقول: إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمران بن عامر، وكانت كاهنة، فرأت في كهانتها ذلك، والله أعلم أي ذلك كان، قال: فلما تفرقوا، نزلوا على كهانة عمران بن عامر".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ: ١٩]، أي:"إن فيما حل «بسبأ» لَعبرة لكل صبَّار على المكاره والشدائد، شكور لنعم الله تعالى".

قال الطبري: يقول:"إن في تمزيقناهم كل ممزق لآيات، يقول: لعظة وعبرة ودلالة على واجب حق الله على عبده من الشكر على نعمه إذا أنعم عليه وحقه من الصبر على محنته إذا امتحنه ببلاء لكل صبار شكور على نعمه".

قال قتادة:"كان مطرف يقول: نعم العبد الصبارالشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر".

قال العثيمين: قوله رَحِمَهُ اللهُ: [(فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا) وفي قراءة سبعية: {باعد بين أسفارنا} إلى الشام اجعلها مفاوز].

{(المفاوز) جمع مفازة، وهي الأراضي التي يخشى فيها من الهلاك، وسميت مفازة من باب التفاؤل، ولكن في الحقيقة ما هي مفازة، بل هي هلاك ومهلكة،

=

=

لكن العرب تطلق الشيء على ضده تفاؤلا كما قالوا في الكسير: إنه جبير. فهذا أيضا مثلها، يقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: {باعد بين أسفارنا}: [اجعلها مفاوز؛ ليتطاولوا على الفقراء بركوب الرواحل وحمل الزاد والماء فبطروا النعمة] لما كانت القرى ظاهرة ومتقاربة ولا يحتاج فيها إلى حمل زاد وماء صار فيها الفقراء والأغنياء على حد سواء، كل منعم في هذه الطرق، فإذا تباعدت صار ذلك من حظ الأغنياء، فسألوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم من أجل أن يتطاولوا على فقرائهم، فهؤلاء الأغنياء يركبون الإبل، ويحملون ما شاؤوا من الزاد، وأما الفقراء فلا يستطيعون ذلك، هذا هو السبب في أنهم دعوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم.

يقول تعالى: {وظلموا أنفسهم} إما بالكفر، وإما بدعاء الله سبحانه وتعالى أن يباعد بين أسفارهم فلم يقبلوا نعمته بهذه الراحة [{فجعلناهم أحاديث} لمن بعدهم في ذلك {ومزقناهم كل ممزق} فرقناهم في البلاد كل التفريق {إن في ذلك} المذكور {لآيات} عبرا {لكل صبار} عن المعاصي {شكور} على النعم].

قوله تعالى: {أحاديث} جمع حديث، وهو ما يتحدث الناس به، يعني أنهم بعد أن كانوا موجودين صاروا خبرا من الأخبار؛ إذ إن قصصهم كانت أحاديث للناس يتحدثون بها، يقول: حصل كيت وكيت؛ ولهذا من الأمثال المعروفة: تفرقوا أيادي سبأ؛ يعني: أنهم تفرقوا كتفرق سبأ، قال الله تعالى: {فجعلناهم أحاديث} بعد أن كانوا أشياء حقيقية ثابتة صاروا أحاديث، وهذا قول الشاعر:

بينا يرى الإنسان فيها مخبرا ... حتى يرى خبرا من الأخبار

=

=

وقوله تعالى: {ومزقناهم كل ممزق} يعني: فرقناهم في البلاد كل مفرق وشردوا وتشتتوا؛ لأنهم كفروا النعمة وظلموا أنفسهم.

قوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} الإشارة تعود إلى كل ما سبق، من هذه القرى الظاهرة وسهولة السفر، ثم سؤالهم أن يباعد الله تعالى بين أسفارهم، ثم تمزيقهم في البلاد كل ممزق.

وقوله تعالى: {لآيات} أي؟ لعبرا، كيف قال آيات وهي قصة واحدة؟

الجواب: لكنها تشتمل على أجزاء، كل جزء منها يستحق أن يكون آية.

وقوله تعالى: {لكل صبار}: {صبار} صيغة مبالغة، أي: ذي صبر على البلايا، والصبر في اللغة بمعنى: الحبس، وفي الشرع: الحبس عما يحرم عند المصائب، والناس في المصائب لهم أربعة مراتب: مرتبة السخط، ومرتبة الصبر، ومرتبة الرضا، ومرتبة الشكر، وهو أعلاها، التسخط حرام والصبر واجب، والرضا مستحب -على القول الراجح-، والشكر كذلك مستحب، ولهذا قال سبحانه وتعالى هنا: {لكل صبار} المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينها أي: عن المعاصي، بل وعلى أقدار الله تعالى، بل وعلى أوامر الله سبحانه وتعالى، لأن الصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله تعالى، وصبر عن معصيته، وصبر على أقدار الله تعالى.

وقوله تعالى: {شكور} أي: قائم بشكر الله تعالى بقلبه ولسانه وجوارحه، فيشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه، وأما كونها آية للصبار فظاهر، وكونها آية للشكور كيف ذلك؟

الجواب: لأن الإنسان إذا نظر إلى حالهم وأنهم حينما كانوا شاكرين لله تعالى كان الله تعالى قد أنعم عليهم بهذه النعمة، فيستدل بها على أن شكر الله تعالى

=

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠).

{وَلَقَدْ صَدَقَ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {عَلَيْهِمْ} أَيْ الْكُفَّار مِنْهُمْ سَبَأ {إبْلِيس ظَنّه} أَنَّهُمْ بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ {فَاتَّبَعُوهُ} فَصَدَقَ بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنّه أَوْ صَدَّقَ بِالتَّشْدِيدِ ظَنّه أَيْ وَجَدَهُ صَادِقًا {إلَّا} بِمَعْنَى لَكِنْ {فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} لِلْبَيَانِ أَيْ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ[1].

=

موجب لبقاء نعمته على العبد.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} [سبأ: ٢٠]، أي:"ولقد ظن إبليس ظنًا غير يقين أنه سيضل بني آدم، وأنهم سيطيعونه في معصية الله، فصدَّق ظنه عليهم".

قال الطبري: يقول:"ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط عقوبة منا لهم، ظنا غير يقين، علم أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله فصدق ظنه عليهم بإغوائه إياهم".

قال السعدي:"يحتمل أن قصة سبأ، انتهت عند قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}، ثم ابتدأ فقال: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ} أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه".

عن ابن عباس، أنه قرأ: {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه}، مشددة، وقال: ظن ظنا فصدق ظنه".

قال مجاهد:"يقول: صدق إبليس ظنه فيهم حيث جاء أمرهم على ما ظن".

قال الحسن:"ظن ظنه ولم يقل ذلك بعلم، يقول: فصدق ظنه فيهم".

قال قتادة:"والله ما كان إلا ظنا ظنه ، فنزل الناس عند ظنه".

=

=

قال قتادة:"قال الله: ما كان إلا ظنا ظنه، والله لا يصدق كاذبا ولا يكذب صادقا".

قال ابن الجوزي:"صدقه في ظنه أنه ظن بهم أنهم يتبعونه إذ أغواهم، فوجدهم كذلك. وإنما قال: ولأضلنهم ولأمنينهم بالظن، لا بالعلم".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} [سبأ: ٢٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه لما أُهْبِطَ آدم من الجنة ومعه حواء، وهبط إبليس، قال إبليس أما إذ أصيب من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ظنًا من إبليس، فأنزل الله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ}. قاله الحسن.

وقال الحسن:"فقال عند ذلك إبليس: "لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعدُه وأُمَنّيه وأخدعه". فقال الله: «وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له»".

الثاني: أن إبليس إذ قال: خُلِقْتُ من نار وخلق آدم من طين والنار تحرق كل شيء، لأحتنكن ذريته إلا قليلًا، فصدق ظنه عليه، قاله ابن عباس ، ومقاتل.

الثالث: أنه قال: يا رب أرأيت هؤلاء القوم الذين كرمتهم وشرفتهم وفضلتهم عليّ لا تجد أكثرهم شاكرين، وكان ذلك ظنا منه بغير علم، فصدق عليهم ظنه، قاله ابن زيد.

الرابع: أنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أَضَلّهم أطاعوه فصدق ظنه فاتبعوه قاله الكلبي.

وقرئ: «ولقد صدق» بتخفيف الدال، بمعنى: ولقد صدق عليهم ظنه.

قوله تعالى: {فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سبأ: ٢٠]، أي:"فأطاعو إبليس

=

=

وعصوا ربهم إلا فريقًا من المؤمنين بالله، فإنهم ثبتوا على طاعة الله".

قال الطبري: يقول:"أطاعوه وعصوا ربهم إلا فريقا من المؤمنين بالله فإنهم ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس".

قال السمعاني:"يعني: إلا كل المؤمنين، هكذا قاله أكثر أهل التفسير؛ لأن المؤمنين لم يتبعوه في أصل الدين، وقد قال الله تعالى: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان}، يعني: المؤمنين وعن بعضهم: إلا فريقا من المؤمنين: خواص المؤمنين؛ وهم الذين يطيعون الله ولا يعصونه".

قال الزمخشري:"وقلل المؤمنين بقوله: {إلا فريقا}، لأنهم قليل بالإضافة إلى الكفار، كما قال {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢]، {وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: ١٧]".

عن سفيان بن عيينة -من طريق ابن أبي عمر- في قوله: " {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين}، قال: إنّ الناس يظنون أنّ الفريق قليل وهم كثير، قال الله -جلَّ ذكره-: {فريق في الجنة وفريق في السعير} [الشورى: ٧]".

قال العثيمين: قوله (صدق) بالتخفيف والتشديد {صدق} بمعنى: أخبر بالصدق، و {صدق} من أخبر بالصدق، فالإنسان إما مخبر وإما مخبر، فالمخبر نقول: صدق. والمخبر نقول: صدق. يقول الله ﷻ: (صدق) و {صدق} والقراءتان هنا تحملان معنيين، معنى الصدق، والتصديق فالفائدة من هاتين القراءتين أنهما تدلان على معنيين، وبيان ذلك قال تعالى: {صدق عليهم} أو (صدق عليهم) [أي: الكفار منهم سبأ، {إبليس ظنه} أي: بإغوائه يتبعونه

=

=

{فاتبعوه}، فـ (صدق) بالتخفيف في ظنه أو {صدق} بالتشديد {ظنه}، أي: وجده صادقا]، إبليس له ظنه في بني آدم، فما هو ظنه؟

الجواب: أنه يغويهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: {قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين} [ص: ٨٢ - ٨٣]، وقال سبحانه وتعالى: {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين} [الأعراف: ١٦ - ١٧]، هذا ما كان يؤمله ويرجوه ويظنه إما ظنا راجحا وإما ظنا متيقنا، لكن لا يمكن أن يتيقن، وإنما يظن ظنا راجحا، فهنا صدق ظنه الذي كان يقول: إنه سيغويهم فـ (صدقه)؛ لأنه أغواهم، أو (صدق) عليهم إبليس ظنه أنه لما ظن نفذ ما قال، فيكون صدق حيث أغواهم.

والحاصل: أن الظن الذي ظنه إبليس هو إغواؤهم، هذا الظن إما أن يكون بإغوائه إياهم قد صدقه حيث وقع منه أولا فصدقه بتطبيقه فعلا، أو صدق عليهم إبليس ظنه أنه لما ظن ذلك الظن طبقه وفعله، والمعنى: أن ما توقعه الشيطان وظنه من إغوائه الكفار ومنهم سبأ وقع مؤكدا باللام و (قد) والقسم.

وقوله سبحانه وتعالى: {فاتبعوه} اتبعوا الشيطان، ولو نظرنا ما هو الجامع لما يأمر به الشيطان؛ يأمر بالفحشاء {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء} [البقرة: ٢٦٨]؛ فهو يأمر بالفحشاء والمنكر وكل فعل قبيح، فإذا اتبعه الإنسان بالفحشاء والمنكر والفعل القبيح فقد تبعه وضل عنه، وإن خالفه فقد خالفه؛ ولهذا قال تعالى: {فاتبعوه إلا فريقا} فاتبعوه، (إلا) بمعنى [لكن فريقا {من المؤمنين} للبيان].

=

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إلا} يعني: لكن] إشارة إلى أن الاستثناء هنا منقطع، لأن الاستثناء إذا كان بمعنى (لكن) صار منقطعا، ولكن الذي حمل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا؛ لأن قوله سبحانه وتعالى: {ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين} ظاهره أنه صدق عليهم جميعا، وعليه فالمؤمنون لم يدخلوا في ذلك؛ فيكون الاستثناء هنا منقطعا، لأن إبليس لم يصدق الظن إلا على الكفار، أما لو جعلنا: {صدق عليهم إبليس ظنه} عاما للقبيلة كلها أو لبني آدم كلهم ثم قال: إلا فريقا من المؤمنين، لكان هذا الاستثناء متصلا.

والحاصل: إذا جعلنا الضمير {عليهم} عائدا على الكفار الذين اتبعوا إبليس فإن الاستثناء هنا يجب أن يكون منقطعا، وإن جعلناه عاما لبني آدم أو جنس هذه القبيلة سبأ صار الاستثناء متصلا.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {من المؤمنين} [للبيان] يعني: (من) بيانية، وليست تبعيضية؛ لأنها لو كانت للتبعيض لكان المعنى: إلا فريقا من المؤمنين نجا منهم، وفريق آخر لم ينج، وهذا المعنى فاسد، وعلى هذا فتكون (من) للبيان {إلا فريقا} من هؤلاء الفريق؟ {المؤمنين}.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: هم المؤمنون لم يتبعوه، وهذا المعنى دقيق، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثاله جيد، إذا قلت: جاء فريق من القوم؛ وهل جاء كلهم؟

الجواب: لا؛ لأن (من) للتبعيض {إلا فريقا من المؤمنين} إذا جعلنا (من) للتبعيض كما هي في قولك: (جاء فريق من القوم) فسد المعنى؛ لأن المؤمنين كلهم لم يتبعوه؛ ولهذا احتاج المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يجعل (من) بيانية، وتكون (المؤمنين) بيانا لقوله: {فريقا} كأنه قال: فاتبعوه إلا المؤمنين، هذا معنى الآية.

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١).

{وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَان} تَسْلِيط {إِلَّا لِنَعْلَم} عِلْم ظُهُور {مَنْ يُؤْمِن بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكّ} فَنُجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا {وَرَبّك عَلَى كُلّ شَيْء حَفِيظ} رَقِيب[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} [سبأ: ٢١].

قال الطبري: يقول:"وما كان لإبليس على هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم من حجة يضلهم بها إلا بتسليطناه عليهم؛ ليعلم حزبنا وأولياؤنا من يصدق بالبعث والثواب والعقاب {ممن هو منها في شك} فلا يوقن بالمعاد، ولا يصدق بثواب ولا عقاب".

قال الزمخشري:"وما كان له عليهم من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء إلا لغرض صحيح وحكمة بينة، وذلك أن يتميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها، وعلل التسليط بالعلم والمراد ما تعلق به العلم".

قال ابن كثير:"أي: إنما سلطناه عليهم ليظهرَ أمر مَنْ هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيُحسِنَ عبادة ربه ﷻ في الدنيا، ممن هو منها في شك".

قال السمعاني:"{وما كان له عليهم من سلطان} أي: من سلطان على المؤمنين، وقوله: {إلا لنعلم} معناه: لكي نعلم {من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك} أي: لنعلم المؤمن من الكافر علم وقوع، وقد علم علم الغيب، وقد بينا هذا من قبل. قال ابن فارس: هذا على عادة كلام العرب مع الجهلة، فإنك لو قلت: =

=

السكين تقطع اللحم، أو اللحم يقطع السكين، وقد علم قطعا أن السكين هو الذي يقطع اللحم، ولكن يخرج الكلام على خطاب الجاهل، وتقرير الأمر له".

قال يحيى:"وإنما جحد المشركون الآخرة ظنا منهم، وذلك منهم على الشك".

قال الحسن: "والله ما ضربهم بعصا ولا سيف ولا سوط، إلا أماني وغرورا دعاهم إليها".

قال قتادة:"وإنما كان بلاء ليعلم الله المؤمن من الكافر".

وقرئ: «ليعلم»، على البناء للمفعول.

قوله تعالى: {وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} [سبأ: ٢١]، أي:"وربك على كل شيء حفيظ، يحفظه ويجازي عليه".

قال الطبري: يقول:"وربك يا محمد على أعمال هؤلاء الكفرة به، وغير ذلك من الأشياء كلها {حفيظ} لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مجاز جميعهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من خير وشر".

قال السمعاني:"أي: رقيب".

قال يحيى:"حتى يجازيهم في الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: ومع حفظه ضَلّ من ضَلّ من اتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سَلِم مَنْ سلم من المؤمنين أتباع الرسل".

قال السعدي:"يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها، كاملة موفرة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وما كان له} الضمير يعود على إبليس، و {عليهم} أي: على القوم الذين أغواهم {من سلطان}: {من} زائدة لفظا لا معنى و

=

=

{سلطان} اسم (كان) مؤخر؛ أي: ما كان له سلطان عليهم، والمراد بالسلطان هنا التسلط أو التسليط؛ ولهذا قال: [تسليط] فهي إذن اسم مصدر، وليس المراد بها السلطان الذي هو المعنى القريب، فالمعنى: ما كان للشيطان عليهم تصديق {إلا لنعلم}.

وعلى تقدير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن السلطان بمعنى التصديق يكون الاستثناء متصلا؛ أي: ما جعلنا للشيطان تسليطا عليهم إلا لنعلم، وإذا جعلنا السلطان بمعنى التسلط أو القدرة، فإن الاستثناء يكون منقطعا؛ أي: ما كان له عليهم سلطة، لكن لنعلم من يتبعه إلى آخره.

وقوله تعالى: {إلا لنعلم} اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟

الجواب: يحتمل أن تكون للتعليل أو للعاقبة، وعلى كلا التقديرين فيها إشكال، وهو أن ظاهرها تجدد علم الله تعالى، ومعلوم أن علم الله تعالى أزلي أبدي؛ أي: قديم مستمر لا بد أن يستمر، فكيف صح أن تكون اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟

يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: [علم ظهور]، وذلك لأن تعلق علم الله تعالى بالشيء له حالان:

الحال الأولى: قبل وجوده.

الحال الثانية: بعد وجوده.

فتعلق علم الله تعالى به بعد الوجود يسمى علم ظهور؛ أي: علمه بعد أن ظهر وبان، وعلم الله تعالى قبل وجوده علم تقدير؛ أي: أنه قدر أن يكون وعلم التقدير ثابت بلا شك فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال عالما بكل ما يكون.

وإذا قلنا: إن العلم علم تقدير وعلم ظهور. زال الإشكال؛ وصار علم الله تعالى

=

=

للشيء بعد وقوعه علما بأنه ظهر ووقع، وعلم الله تعالى قبل وقوعه علما بأنه سيقع، وفرق بين المتعلقين.

وقيل: إن المراد بالعلم هنا العلم الذي يترتب عليه الجزاء؛ وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علم لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم ينه، فإذا أمر ففعل أو أمر فلم يفعل حينئذ صار مثابا أو معاقبا، كما قال سبحانه وتعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} [محمد: ٣١] {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين} [آل عمران: ١٤٢].

وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علمين:

١- علم معناه: أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب.

٢- علم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به. وهل يفعل أو لا يفعل؛ يعني هل يمتثل أو لا يمتثل، فتبين أن الجواب عن هذه المسألة التي ظاهرها تجدد علم الله تعالى: أن العلم الذي يتبين به الخفي؛ لأن الأمر لم يزل ولا يزال أمام الله تعالى واضحا ظاهرا، قال تعالى: {إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك} هنا ضمنت (نعلم) معنى (نميز)؛ ولهذا قال تعالى: {ممن هو} يعني: إلا لنميز من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

والناس بالنسبة للآخرة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا بها، وقسم كفروا بها وأنكروا، وقسم فيه شك وتردد، الذين آمنوا بها أمرهم واضح، والذين كفروا بها وقالوا: {أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا} [الإسراء: ٩٨]، هذا

=

=

لا يمكن، هؤلاء أيضا أمرهم واضح، والذين ترددوا وقالوا: يمكن أن يكون حقا ويمكن أن تكون باطلا يلحقون بالكافر؛ لأن الواجب أن يؤمن؛ ولهذا قال: {ممن هو منها في شك} فكيف ممن هو منها منكر وجاحد ومكذب.

فالله جعل للشيطان سلطة علي بني آدم؛ لأجل أن يمتحن هؤلاء الناس فيعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك، فالذي فيه شك من الآخرة يتبع الشيطان قطعا؛ لأنه لا يؤمن بأن هناك يوما آخرا يثاب الناس فيه ويعاقبون، فهو يرى أن لنفسه الحرية المطلقة، وهي في الحقيقة حرية من شيء، ورق في شيء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... وبلوا برق النفس والشيطان

والرق الذي خلقنا له هو العبودية لله، (وبلوا برق النفس والشيطان) نسأل الله تعالى العافية، يعني: صاروا عبيدا لأنفسهم وشياطينهم، فلا يمكن أن يتحرر الإنسان من عبادة الله تعالى على زعمه إلا كان رقيقا لغيره، للناس والشيطان.

والحاصل: أن هؤلاء الذين كانوا في شك من الآخرة لا يمكن أن يعملوا ولا أن يقوموا بطاعة الله تعالى، ذلك لأن الذي يقوم بطاعة الله تعالى هو الذي يؤمن بأنه سوف يحشر ويثاب أو يعاقب.

وقوله تعالى: {هو منها في شك} فنجازي كلا منهما {وربك على كل شيء حفيظ} الجملة خبرية تفيد معنى، ولازم ذلك المعنى، فهي خبرية تفيد أن الله تعالى على كل شيء حفيظ؛ أي: مراقب ومطلع ومهيمن على كل شيء، سواء كان ذلك مما يتعلق بفعله أو مما يتعلق بفعل الخلق، فهو جل وعلا رقيب على كل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هذا المعنى يستلزم

=

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِكُفَّارِ مَكَّة {اُدْعُوَا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أَيْ زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَة {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره لِيَنْفَعُوكُمْ بِزَعْمِكُمْ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَال} وَزْن {ذَرَّة} مِنْ خَيْر أو شر {فِي السماوات وَلَا فِي الْأَرْض وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْك} شَرِكَة {وَمَا لَهُ} تَعَالَى {مِنْهُمْ} مِنْ الْآلِهَة {مِنْ ظَهِير} مُعِين(١).

=

معنى آخر، وهو التحذير من المخالفة؛ لأن الإنسان متى علم أن الله سبحانه وتعالى حفيظ على كل شيء خاف ولم يخالف، أما إذا كان في شك من هذا فإنه سوف يعمل كما يشاء.

(١) قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} [سبأ: ٢٢].

قال ابن كثير:"أي: من الآلهة التي عبدت من دونه".

قال الطبري: يقول:"فهذا فعلنا بولينا ومن أطاعنا، داود وسليمان الذي فعلنا بهما من إنعامنا عليهما النعم التي لا كفاء لها إذ شكرانا، وذاك فعلنا بسبأ الذين فعلنا بهم، إذ بطروا نعمتنا وكذبوا رسلنا وكفروا أيادينا، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك الجاحدين نعمنا عندهم: ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم لله شريك من دونه، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بالذين وصفنا أمرهم من إنعام أو إياس، فإن لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنكم مبطلون؛ لأن الشركة في الربوبية لا تصلح ولا تجوز".

قال الزمخشري:"قل لمشركي قومك ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه كما تدعون الله، والتجئوا إليهم فيما

=

=

يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم ورحمتهم كما تنتظرون أن يستجيب لكم ويرحمكم".

قال السعدي:"أي: {قُلْ} يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزما لهم بعجزها، ومبينا لهم بطلان عبادتها: {ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ} أي: زعمتموهم شركاء لله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه".

قوله تعالى: {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: ٢٢]، أي:"فهم لا يملكون وزن نملة صغيرة في السموات ولا في الأرض".

قال الطبري: يقول:"إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض من خير ولا شر ولا ضر ولا نفع، فكيف يكون إلها من كان كذلك".

قال السعدي: أي:"على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك".

قال الزمخشري:"يريد: أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية، فكيف يصح أن يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ} [سبأ: ٢٢]، أي:"وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقًا ولا ملكًا ولا تصرفًا".

قال الطبري: يقول:"ولا هم إذ لم يكونوا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض منفردين بملكه من دون الله يملكونه على وجه الشركة، لأن الأملاك في المملوكات لا تكون لمالكها إلا على أحد وجهين: إما مقسوما، وإما مشاعا، يقول: وآلهتهم التي يدعون من دون الله لا يملكون وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، لا مشاعا ولا مقسوما، فكيف يكون من كان هكذا شريكا لمن له ملك

=

=

جميع ذلك".

قال ابن كثير:"أي: لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة".

قال السعدي:"أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم {فِيهِمَا} أي: في السماوات والأرض، {مِنْ شِرْكٍ} أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك".

قال قتادة:"يقول: ما لله من شريك في السماء ولا في الأرض".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢]، أي:"وليس له تعالى من الآلهة معينٌ يُعينه في تدبير أمرهما، بل هو وحده الخالق لكل شيء، المنفرد بالإيجاد والإعدام".

قال الطبري:"يقول: وما لله من الآلهة التي يدعون من دونه معين على خلق شيء من ذلك، ولا على حفظه، إذ لم يكن لها ملك شيء منه مشاعا ولا مقسوما، فيقال: هو لك شريك من أجل أنه أعان وإن لم يكن له ملك شيء منه".

قال ابن كثير:"أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيد لديه".

قال قتادة:"{وما له منهم} من الذين يدعون من دون الله، {من ظهير} من عون بشيء".

قال السعدي:"بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعوانا للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: {وَمَا لَهُ} أي: لله تعالى الواحد القهار {مِنْهُمْ} أي: من هؤلاء المعبودين {مِنْ ظَهِيرٍ} أي: معاون ووزير يساعده على

=

=

الملك والتدبير".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {قل} [يا محمد لكفار مكة] هنا جعل الخطاب خاصا؛ من جهتين: من جهة المخاطب، ومن جهة المدعو، فالمخاطب قال تعالى: ({قل} يا محمد) والمدعو كفار مكة، ولكن هذا غير مسلم للمفسر، بل نقول: إن {قل} يمكن أن تكون موجهة لكل من يتوجه الخطاب إليه، من الرسول ﷺ أو غيره ممن ورثه في أمته، أي: (قل أيها الناس).

أما بالنسبة للمدعوين فنقول: الأصح أنه عام لكل من دعا مع الله تعالى غيره من كفار مكة وغيرهم، فيجب أن يكون لدينا قاعدة وهو أنه إذا دار الأمر بين أن يكون الخطاب خاصا أو عاما وجب أن يكون عاما؛ لأن العام يدخل فيه الخاص ولا عكس، وكلما كان معنى القرآن أوسع كان أوجب.

إذن نقول: قل أيها المخاطب ممن تدعو مع الله تعالى؛ قل للذين يدعون مع الله سبحانه وتعالى غيره {ادعوا الذين زعمتم} أي: زعمتموهم آلهة: (ادعوهم)، وهل المراد بالدعاء هنا دعاء المسألة، أو دعاء الإحضار؟

(ادعوهم) يعني: أحضروهم أو دعاء المسألة يعني اسألوهم اطلبوا منهم الحوائج، هل يستجيبون لكم أم لا؟

الجواب: يحتمل المعنيين: يحتمل معنى: أحضروهم؛ لنناقشهم، أو ادعوهم دعاء مسألة، يعني: اسألوهم؛ كما تقول: أدعو الله تعالى، أي: أسأله، وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: زعمتموهم آلهة] لم يقدر المصنف ضميرا ووصفا ظاهرا، الضمير [زعمتموهم] (هم) هذا هو الضمير، والاسم الظاهر [آلهة]، فأفادنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن (زعم) تنصب مفعولين، وأن المفعولين محذوفان، وتقدير الكلام:

=

=

(زعمتموهم آلهة)، لأن (زعم) من الأفعال التي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر؛ فهي من أخوات (ظن).

وقوله تعالى: {ومن دون الله} قال رَحِمَهُ اللهُ: [من غيره لينفعوكم بزعمكم]، هذه الآلهة لا يمكن أن تنفع المشركين، وذلك لانتفاء أسباب النفع من عدة أوجه:

أولا: {لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض} استقلالا.

ثانيا: ولا يملكون ذلك مشاركة.

ثالثا: وليس لهم معونة يعينوا الله تعالى بها.

رابعا: ليس لهم شفاعة إلا بعد إذن الله تعالى.

فبين الله سبحانه وتعالى أن أسباب النفع في هذه الآلهة منتفية، فقوله تعالى: {لا يملكون} الجملة استئنافية؛ لبيان حال هؤلاء الآلهة: {لا يملكون مثقال ذرة} [وزن ذرة من خير أو شر] {في السماوات ولا في الأرض}، لا يملكون مثقال ذرة لا في السموات ولا في الأرض، ولا يملكون ما دون المثقال؛ لأن التقدير إذا قصد به المبالغة فلا مفهوم له سواء كان في الكثرة أو في القلة، فهنا لا يملكون مثقال ذرة، يعني: ولا دونها.

ومثال الكثرة: {إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} [التوبة: ٨٠]، ولو أكثر من سبعين ما يغفر الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المنافقين: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين} [المنافقون: ٦]، فإذا جاء القيد للمبالغة قلة أو كثرة فليس له مفهوم، إذن لا يملكون مثقال ذرة ولا دونها لا في السموات ولا في الأرض، ولو كانوا يملكون ذلك لقلتم: نتعلق بهم لعلهم يعطوننا مما يملكون.

=

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣).

{ولا تنفع الشفاعة عنده} تعالى ردا لقولهم إنَّ آلِهَتهمْ تَشْفَع عِنْده {إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ} بفتح الهمزة وضمها {له} فيها {حَتَّى إذَا فُزِّعَ} بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُول {عَنْ قُلُوبهمْ} كَشَفَ عَنْهَا الْفَزْع بِالْإِذْنِ فِيهَا {قَالُوا} قَالَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ اسْتِبْشَارًا {مَاذَا قَالَ رَبّكُمْ} فِيهَا {قَالُوا} الْقَوْل {الْحَقّ} أَيْ قَدْ أَذِنَ فِيهَا {وَهُوَ الْعَلِيّ} فَوْق خَلْقه بِالْقَهْرِ {الْكَبِير} العظيم[1].

=

وهل لهم شرك في السموات أو في الأرض؟

الجواب: لا، ولو كان لهم شرك لقلتم: لعلهم يعطوننا من نصيبهم؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {وما لهم فيهما من شرك} شركة {من} هذه زائدة لفظا لا معنى، وعلى هذا فـ {شرك} مبتدأ مؤخر، وخبره الجار والمجرور المقدم {وما لهم} يعني: ما لهم شرك في السموات ولا في الأرض.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما له} تعالى {منهم} من الآلهة {من ظهير} معين] نقول في إعراب {من ظهير} كما قلنا في إعراب {من شرك} أي: أن (من) زائدة لفظا لا معنى، و (ظهير) مبتدأ مؤخر، والظهير بمعنى: المعين، كما قال تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: ٨٨]، إذن ليس لهم مع الله تعالى معونة حتى يدلوا على الله تعالى بها ويقولون: أعطنا عوضا عن معونتنا لننفع من يدعوننا، ما لهم مساعدة مع الله تعالى: {وما له منهم من ظهير} أي: [معين].

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣]، أي:"ولا تنفع

=

=

شفاعة الشافع عند الله تعالى إلا لمن أذن له".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إن نبي الله ﷺ قال: " إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها، وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء).

قال الطبري: يقول:"ولا تنفع شفاعة شافع كائنا من كان الشافع لمن شفع له، إلا أن يشفع لمن أذن الله في الشفاعة، يقول تعالى: فإذا كانت الشفاعات لا تنفع عند الله أحدا إلا لمن أذن الله في الشفاعة له، والله لا يأذن لأحد من أوليائه في الشفاعة لأحد من الكفرة به وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعما منكم أنكم تعبدونه ليقربكم إلى الله زلفى وليشفع لكم عند ربكم".

قال ابن كثير:"أي: لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥]، وقال: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦]، وقال: {وَلا

=

=

يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} [الأنبياء: ٢٨]".

قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ} [سبأ: ٢٣]، أي:"ومن عظمته وجلاله ﷻ أنه إذا تكلم سبحانه بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أُرعدوا من الهيبة، حتى يلحقهم مثل الغشي، فإذا زال الفزع عن قلوبهم سأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: قال الحق".

قال الطبري:"معنى الكلام: لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع عنده، فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه، حتى إذا فزع عن قلوبهم فجلي عنها، وكشف الفزع عنهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحق".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ} [سبأ: ٢٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: جلي عن قلوبهم الفزع، قاله ابن عباس ، وقتادة.

وقال قطرب: "أخرج ما فيها من الخوف".

وقال أبو عبيدة:"نفّس الفزع عن قلوبهم وطيّر عنها".

وقال ابن قتيبة:"خفف عنها الفزع".

الثاني: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة، قاله مجاهد.

الثالث: أنهم دعوا فاستجابوا من قبورهم مأخوذ من الفزع الذي هو الدعاء والاستصراخ، فسمي الداعي فزعًا والمجيب فزعًا. حكاه الماوردي وأبو حيان ، قال زهير:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم... طوال الرماح لا قصار ولا عُزْلُ

الرابع: وهو تفسير قراءة الحسن: «حتى فرغ عن قلوبهم» ، بالغين معجمة، وفي معناها وجهان:

=

=

الأول: يعني: فرغ ما فيها ما فيها من الشك والتكذيب. قاله الحسن ، وروي عن ابن زيد نحوه.

الثاني: يعني: صارت فارغة من الفزع الذي كان حل بها. ذكره الطبري ، وابن قتيبة.

قال الطبري:"ذُكر عن مجاهد أنه قرأ ذلك «فُزِعَ» بمعنى: كشف الله الفزع عنها".

واختلف أهل التفسير في الموصوفين بهذه الصفة من هم؟ وما السبب الذي من أجله فزع عن قلوبهم؟، وفيه أقوال:

أحدها: أن الذي فزع عن قلوبهم هم الملائكة، وذلك من غشية تصيبهم عند سماعهم الله تعالى بالوحي. وهذا قول ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد ، وقتادة ، والكلبي ، ومقاتل ، وبه قال الطبري ، ابن عطية ، وأبو حيان ، والثعالبي ، وابن كثير.

قال الطبري:"بالصواب القول الذي ذكره الشعبي عن ابن مسعود لصحة الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ بتأييده".

قال ابن كثير:"وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة. وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم} أي: زال الفزع عنها، فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا؛ ولهذا قال: {قَالُوا الْحَقّ} أي: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان.. وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه

=

=

والآثار".

قال الثعالبي:"إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل، أو الأمر يأمر الله به، سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة لله تبارك وتعالى".

قال ابن عطية:"وتظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية أعني قوله {حتى إذا فزع عن قلوبهم}، إنما هي الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل وبالأمر يأمر به سمعت كجر سلسلة الحديد على صفوان فتفزع عند ذلك تعظيما وهيبة، وقيل خوف أن تقوم الساعة فإذا فزع ذلك فزع عن قلوبهم أي أطير الفزع عنها وكشف فيقول بعضهم لبعض ولجبريل ماذا قال ربكم فيقول المسئولون قال الحق وهو العلي الكبير وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله: {الذين زعمتم} [سبأ: ٢٢] لم تتصل لهم هذه الآية بما قبلها فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها".

قال عبد الله بن مسعود:"إن الوحي إذا قضى في زوايا السماء، قال: مثل وقع الفولاذ على الصخرة، قال: فيشفقون لا يدرون ما حدث فيفزعون، فإذا مرت بهم الرسل: {قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير}".

وقال ابن مسعود:"إذا حدث أمر عند ذي العرش سمع من دونه من الملائكة صوتا كجر السلسلة على الصفا فيغشى عليهم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم تنادوا: {ماذا قال ربكم}؟ قال: فيقول: من شاء قال الحق وهو العلي الكبير".

قال ابن عباس:"لما أوحى الله تعالى ذكره إلى محمد ﷺ دعا الرسول من

=

=

الملائكة فبعث بالوحي، سمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله فقالوا الحق وعلموا أن الله لا يقول إلا حقا وأنه منجز ما وعد، قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خروا سجدا، فلما رفعوا رءوسهم: {قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} ثم أمر الله نبيه أن يسأل الناس {قل من يرزقكم من السماوات...} إلى قوله: {في ضلال مبين}".

قال سعيد:"ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا؛ فيفزع أهل السماء الدنيا، حتى يستبين لهم الأمر الذي نزل فيه، فيقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق وهو العلي الكبير، فذلك قوله: {حتى إذا فزع عن قلوبهم...}، الآية".

وقال مقاتل:"وذلك أن أهل السموات من الملائكة لم يكونوا سمعوا صوت الوحي ما بين زمن عيسى ومحمد- ﷺ- وكان بينهما قريب من ستمائة عام، فلما نزل الوحي على محمد- ﷺ- سمعوا صوت الوحي كوقع الحديد على الصفا، فخروا سجدا مخافة القيامة، إذ هبط جبريل على أهل كل سماء فأخبرهم أنه الوحي، فذلك قوله- عز وجل-: {حتى إذا فزع عن قلوبهم} تجلى الفزع عن قلوبهم قاموا من السجود قالوا فتسأل الملائكة بعضها بعضا ماذا قال جبريل عن ربكم؟ {قالوا الحق}، يعني: الوحي".

قال الزجاج:"وتفسير هذا أن جبريل عليه السلام كان لما نزل إلى محمد ﷺ بالوحي ظنت الملائكة أنه نزل لشيء من أمر الساعة فتفزعت لذلك، فلما انكشف عنها الفزع: {قالوا ماذا قال ربكم}، فسألت لأي شيء ينزل جبريل؟ {قالوا الحق}،

=

=

أي: قالوا قال الحق".

الثاني: أن الموصوفين هم الشفعاء من الملائكة والأنبياء، والمعنى: حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء، من الملائكة والأنبياء، قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ فأجابوهم بقولهم: قد أذن فيها للمؤمنين. ذكره الزمخشري ، والقرطبي ، واختاره الصابوني. ويدخل هذا القول في عموم القول الأول.

قال الزمخشري:"يفهم من هذا الكلام، من أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أو لا يؤذن؟ وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملي من الزمان، وطول من التربص، ومثل هذه الحال دل عليه قوله ﷻ: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا} [النبأ: ٣٧]، {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ: ٣٨، كأنه قيل: يتربصون ويتوقفون كليا فزعين وهلين، {حتى إذا فزع عن قلوبهم}، أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن: تباشروا بذلك وسأل بعضهم بعضا ماذا قال ربكم قالوا قال الحق أى القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى".

قال القرطبي:"إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله، كما قال: {وهم من خشيته مشفقون} [الأنبياء: ٢٨] والمعنى: أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير، فإذا سري عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: {ماذا قال

=

=

ربكم}، أي: ماذا أمر الله به، فيقولون لهم: {قالوا الحق}، هو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين".

الثالث: أن الموصوفين بذلك هم الملائكة، إنما يفزع عن قلوبهم فزعهم من قضاء الله الذي يقضيه حذرا أن يكون ذلك قيام الساعة. وهذا قول قتادة.

قال قتادة:"يوحي الله إلى جبرائيل فتفرق الملائكة، أو تفزع مخافة أن يكون شيء من أمر الساعة، فإذا جلي عن قلوبهم وعلموا أنه ليس ذلك من أمر الساعة: {قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير}".

الرابع: أن ذلك من فعل ملائكة السماوات إذا مرت بها المعقبات فزعا أن يكون حدث أمر الساعة. وهذا القول حكاه الضحاك عن ابن مسعود.

قال الضحاك:"زعم ابن مسعود أن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى الأرض يكتبون أعمالهم، إذا أرسلهم الرب فانحدروا سمع لهم صوت شديد، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فخروا سجدا، وهكذا كلما مروا عليهم يفعلون ذلك من خوف ربهم".

الخامس: أن الموصوفين بذلك هم المشركون، وإنما يفزع الشيطان عن قلوبهم، فيقولون: ماذا قال ربكم عند نزول المنية بهم. وهذا قول زيد بن أسلم، وابنه.

عن زيد بن أسلم:"في قوله {حتى إذا فزع عن قلوبهم} قال: فزع الشيطان عن قلوبهم ففارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم {قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} قال: وهذا في بني آدم عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الاقرار".

قال ابن زيد:"فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم، وما كان يضلهم: {قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} قال: وهذا في بني آدم، وهذا

=

=

عند الموت أقروا به حين لم ينفعهم الإقرار".

وقال السعدي:"يحتمل أن الضمير في هذا الموضع، يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقرون، أن ما هم عليه من الكفر والشرك، باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم".

قال ابن عاشور:"التفزيع يحصل لهم بانكشاف إجمالي يلهمونه فيعلمون بأن الله أذن بالشفاعة ثم يتطلبون التفصيل بقولهم: «ماذا قال ربكم» ليعلموا من أذن له ممن لم يؤذن له، وهذا كما يكرر النظر ويعاود المطالعة من ينتظر القبول، أو هم يتساءلون عن ذلك من شدة الخشية فإنهم إذا فزع عن قلوبهم تساءلوا لمزيد التحقق بما استبشروا به فيجابون أنه قال الحق. فضمير «قالوا ماذا قال ربكم» عائد على بعض مدلول قوله: «لمن أذن له». وهم الذين أذن للشفعاء بقبول شفاعتهم منهم وهم يوجهون هذا الاستفهام إلى الملائكة الحافين، وضمير «قالوا الحق» عائد إلى المسئولين وهم الملائكة، ويظهر أن كلمة الحق وقعت حكاية لمقول الله بوصف يجمع متنوع أقوال الله تعالى حينئذ من قبول شفاعة في بعض المشفوع فيهم ومن حرمان لغيرهم كما يقال: ماذا قال القاضي للخصم؟ فيقال: قال الفصل. فهذا حكاية لمقول الله بالمعنى. هذا هو المعنى الذي يقتضيه نظم الآية ويلتئم مع معانيها. وقد ذهبت في تفسيرها أقوال كثير من المفسرين

=

=

طرائق قددا، وتفرقوا بددا بددا".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣]، أي:"وهو العليُّ بذاته وقهره وعلوِّ قدْره، الكبير على كل شيء".

قال الطبري:"{وهو العلي} على كل شيء {الكبير} الذي لا شيء دونه".

قال يحيى بن سلام:"لا شيء أكبر منه".

قال مقاتل:"{العلي}: الرفيع، {الكبير}: العظيم فلا أعظم منه".

قال الماوردي:"إنما جاز وصفه بأنه (عليّ) ولم تجز صفته بأنه (رفيع)، لأنها صفة قد تنقل من علو المكان إلى علو الشأن والرفيع لا يستعمل إلا في ارتفاع المكان".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {ولا تنفع الشفاعة عنده} سبحانه وتعالى، رد لقولهم: إن آلهتهم تشفع عنده {إلا لمن أذن} بفتح الهمزة وضمها، {وله} فيها]، إذا قالوا: نعم؛ آلهتنا لا تملك شيئا في السموات ولا في الأرض، آلهتنا ليس لها مشاركة مع الله سبحانه وتعالى، آلهتنا لم تعن الله تعالى، لكنها تشفع، كما قالوا: {هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: ١٨]، فقطع الله تعالى هذه الوسيلة الأخيرة {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} إذن هذه الآلهة ما تستطيع أن تشفع إلا بعد إذن الله تعالى.

وهل يمكن أن يأذن؟

الجواب: لا يمكن؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} [النجم: ٢٦]، ويقول الله: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء: ٢٨]، ومعلوم أنه الله تعالى

=

=

لا يرضى عن الكافرين لا أن يشفعوا ولا أن يشفع فيهم، فتبين أن جميع ما يتعلق به المشركون في شركهم مع الله تعالى كله باطل، وكله ممتنع، فإن الأسباب التي يمكن أن ينتفعوا بها واحد من أمور أربعة:

١- الملك استقلالا.

٢- الملك مشاركة.

٣- الإعانة.

٤- الشفاعة.

وكل هذه الأربعة منتفية في عبادة هذه المدعوة من دون الله تعالى، فانقطع كل سبب يتشبث به المشركون، وحينئذ فيجب أن يكون العبادة والدعاء لله تعالى وحده؛ لأنه الذي له ملك السموات والأرض.

وأما تعريف الشفاعة في اللغة: هي جعل الفرد شفعا أو جعل الوتر شفعا، والشفع والوتر، فضم واحد إلى واحد شفع، وضم واحد إلى ثلاثة شفع، وهكذا.

أما تعريف الشفاعة في الاصطلاح: فهو التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، أن تتوسط لغيرك إما بجلب منفعة له أو دفع مضرة، فالشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة هي في جلب منفعة، والشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج، فهذه شفاعة لدفع الضرر.

فلا تخلو الشفاعة من هذين الأمرين، إما لجلب النفع، وإما لدفع الضرر، مثاله: إنسان شفع لشخص في أن تعل مرتبته هذا لجلب منفعة، شفع لشخص كتب عليه غرامة أن ترفع عليه الغرامة، فهذا لدفع مضرة.

وقوله سبحانه وتعالى: {إلا لمن أذن له} وهل الإذن كوني أم شرعي؟ الكوني

=

=

يعني: إلا من رخص له في أن يشفع، وشرط الإذن أن يكون الله سبحانه وتعالى راضيا عن الشافع والمشفوع له، فيأذن فيها سبحانه وتعالى كرامة للشافع، وبيانا لفضله، ورحمة بالمشفوع له، وإحسانا إليه.

وقول: {عنده} أي: عند الله سبحانه وتعالى {إلا لمن أذن له} وهنا لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له؛ لكمال سلطانه، فالنفي هنا متضمن لإثبات وهو كمال السلطان؛ لأن من كمال السلطان ألا يتكلم أحد عند الملك المشفوع إليه أبدا إلا بإذنه.

ولهذا تجد الإنسان إذا كان ذا هيبة عند الناس وكان في مجلس تجد الناس لا يتكلمون هيبة له، وتجد السلطان إذا كان ذا هيبة ما أحد يقدر أن يتكلم في مكان جلوسه ولا مع أخيه سرا؛ لأنهم يهابونه؛ فلكمال سلطان الله لا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، حتى أخص عباده به وهم الأنبياء وأخصهم محمد ﷺ لا يمكن أن يشفع إلا إذا أذن الله تعالى، حتى في مقام الرحمة يوم القيامة فإن الله تعالى يجعل يوم القيامة مئة رحمة يرحم بها الخلق في مقام الرحمة وعند شدة الهم والغم المقتضي لرحمة الله تعالى ما يمكن أن يشفع الرسول ﷺ إلا بإذن الله تعالى أبدا؛ لكمال سلطان الله إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، فهل هذه الأصنام المكروهة عند الله تعالى المنحطة عنده قدرا هل يمكن أن تشفع لعابديها؟ أبدا حتى عيسى ﷺ الذي عبد من دون الله تعالى لا يمكن أن يشفع لعابديه؛ ولهذا يقول عليه السلام يوم القيامة: {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم} [المائدة: ١١٧]، ولا يمكن أن يشفع لهم، {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقد سبق أن الله سبحانه وتعالى لا يأذن

=

=

إلا إذا كان الشافع والمشفوع له من أهل الشفاعة، وقال الله تعالى: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} [النجم: ٢٦]، وقال: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء: ٢٨]؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن شروط الشفاعة ثلاثة: رضا الله عن الشافع، ورضاه عن المشفوع له، والثالث إذنه بالشفاعة.

وقوله تعالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم} حتى هنا ابتدائية وليست غائية؛ لأن (حتى) تأتي للغاية، وتأتي للابتداء وتأتي للتعليل، ولها معان متعددة من أحب الوقوف عليها فليرجع إلى كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه مفيد لطالب العلم، يقول تعالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم} فيها قراءتان {فزع} و (فزع) كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالبناء للفاعل والمفعول].

وقوله تعالى: {عن قلوبهم} أي: عن قلوب الخلق، أو عن قلوب الملائكة، فيها قولان لأهل العلم، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- بيانهما.

{فزع عن قلوبهم} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [كشف عنها الفزع بالإذن فيها]، و (فزع) و (فزع) بمعنى: أزال الفزع، وليس (فزع) بمعنى: ألحق الفزع، بل بمعنى أزاله، وهو فعل يراد به السلب؛ لأن هناك أفعالا يراد بها سلب المعنى؛ يعني: ضد هذا المعنى، ومنه قولهم: قرد البعير. أي: أزال منه القراد، وهو شيء يكون في جلد البعير دابة أو حشرة صغيرة تعض البعير فتشرب الدم منها، وهو مثل القمل للإنسان، هو قمل الإبل، يعني: يلصق في الجلد، وهو إذا أمسك الجلد ما يطلقه أبدا إلا أن تمسكه وتجره جرا.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: {فزع عن قلوبهم} أو (فزع عن قلوبهم) يعني: أزال الفزع عن قلوبهم،

=

=

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالإذن فيها] أي: بالشفاعة، وعلى هذا فيكون الضمير هنا عائدا على المشفوع له، يعني إذا لحق المشفوع له من الهم والكرب والغم ما لحقه، وكذلك الخوف والفزع فأذن الله تعالى له بالشفاعة زال الفزع عن القلوب؛ لأنه قرب الفرج قال تعالى: {حتى إذا فزع عن قلوبهم} بالإذن فيها.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{قالوا} قال بعضهم لبعض استبشارا: {ماذا قال ربكم} فيها أي: في الشفاعة {قالوا} القول: {الحق}، أي: قد أذن فيها {وهو العلي} فوق خلقه بالقهر {الكبير} العظيم] أفادنا المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الضمير في {قلوبهم} يعود على المشفوع له، فإن المشفوع له قبل الشفاعة يلحقه الفزع والخوف من ذنوبه، أو من غير ذلك، فإذا أذن في الشفاعة زال الفزع، وقالوا: ماذا قال الله سبحانه وتعالى، فيقول بعضهم لبعض: {قالوا الحق} أي: قالوا القول الحق؛ بمعنى: الثابت الموافق لمحله، وقد سبق لنا أن الحق في الأخبار هو الصدق، والحق في الأحكام هو العدل، كما قال تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا} [الأنعام: ١١٥].

وهذا ما ذهب إليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الضمير في {قلوبهم} يعود إلى المشفوع لهم، وأن التفزيع بمعنى إزالة الفزع، وهو الخوف بالإذن في الشفاعة، والسياق لا يأباه، ولكن قد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أن المراد به غير ذلك، وأن المراد به الملائكة الذين هم عند الله تعالى، إذا تكلم الله تعالى بالوحي صعقوا، فإذا صعقوا {فزع عن قلوبهم} يعني: أزيل الفزع عنها، ثم صاروا يتساءلون: ماذا قال الله تعالى؟ فيقال: {قالوا الحق وهو العلي الكبير}.

=

=

وإذا جاءت السنة بتفسير القرآن كانت أولى، على أننا سبق أن قلنا: إن القرآن إذا دل على عدة معان لا تتناقض حمل على جميع المعاني؛ لأنه أوسع وأعظم مما يصل إليه فكر الإنسان، فقد يصل فكري إلى شيء ويصل فكر الآخر إلى شيء آخر، وفكر الثالث إلى شيء ثالث، والآية كلها تحتمل هذه المعاني، فتحمل عليها، أما إذا كان لا يحتمل إلا معنى واحدا فإنه يجب أن يحمل على ما قام الدليل عليه.

وقال بعض أهل العلم رحمهم الله: حتى إذا فزع عن قلوبهم عند الموت، ليس يوم القيامة (عند الشفاعة)، ولكن إذا فزع عن قلوبهم (عند الموت)، ولكن هذا ضعيف وإن كان قد يرد فيفزع عن القلب عند الموت ويعترف بالحق، فإن فرعون حين غرق ماذا قال؟ حتى إذا أدركه الغرق قال: {آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين} [يونس: ٩٠]، وقال الله تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين} [غافر: ٨٤]، لكن هذا المعنى ضعيف، فالآية دائرة بين ما قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وما ثبت به الحديث الصحيح، وهي دالة قطعا على ما جاء به الحديث الصحيح، وما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فهو محتمل ولا تأباه الآية.

وقوله تعالى: {الحق} وأما إعرابها صفة لمصدر محذوف؛ أي قال: [القول {الحق}] ولا يصلح أن تكون مفعولا لـ (قالوا)؛ لأن القول لا ينصب إلا جملة أو ما بمعنى الجملة، كقوله تعالى: {قال إني عبد الله} [مريم: ٣٠] أين مقول القول؟ {إني عبد الله} جملة، أو بمعنى الجملة؛ كقولك: قلت قصيدة، أو قلت كلمة. هذه بمعنى الجملة؛ لأن الكلمة والقصيدة والشعر لا يكون إلا جملة.

=

=

فإن قلت: ما تقول في قوله سبحانه وتعالى: {وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا} [النحل: ٣٠]؟

فالجواب: هذه ليست مفعولا لـ (قالوا)، لكنها مفعول لفعل محذوف؛ والتقدير: (أنزل خيرا).

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو العلي فوق خلقه بالقهر]، وهذا فيه إما تقصير وإما قصور؛ لأن علو الله ﷻ ليس بالقهر، بل علوه ثلاثة أقسام: علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات، لكن المصنف -عفا الله تعالى عنا وعنه- كأنه لا يرى علو الذات، والمنكرون لعلو الله سبحانه وتعالى ينقسمون إلى قسمين: حلولية، ومعطلة تعطيلا محضا.

فالحلولية يقولون: إنه يجب عليك أن تؤمن بأن الله تعالى في كل مكان بذاته، وتنكر علوه، إن كنت في المسجد أو كنت في السوق، أو كنت في البر أو كنت في البحر، فالله سبحانه وتعالى بذاته في ذلك المكان، وإن كنت في الحش فهو في الحش!! والحش هو: مكان التخلي، يعني -والعياذ بالله تعالى- ما نزهوا الله تعالى عن الأنتان والأقذار -نسأل الله تعالى العافية- ولا شك أن هذا كفر محض ولا يشك أحد في كفر من اعتقد هذه العقيدة.

والطائفة الثانية المنكرة للعلو يقولون: إنه لا يجوز أن نقول: إن الله تعالى فوق العالم ولا تحته ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف، ولا متصل ولا منفصل، وهذا تعطيل محض، يعني: لو قيل لك صف لنا المعدوم؟ ما وجدت أشد إحاطة بالمعدوم من هذا الوصف، الذي ليس فوق العالم ولا تحته ولا يمينه ولا شماله ولا خلف ولا أمام، ولا متصل ولا منفصل، هذا ليس بموجود قطعا.

=

=

أما الرسل وأتباعهم فيؤمنون بأن الله بذاته فوق كل شيء، وهذا هو الذي دل عليه العقل والفطرة والإجماع والكتاب والسنة.

ولنستعرض لهذا الأمر، وإن كان -الحمد لله- ظاهرا.

فظاهر الكتاب دل على أن الله تعالى بذاته فوق عرشه؛ من وجوه متنوعة: فتارة بذكر العلو مثل: {وهو العلي العظيم} [الشورى: ٤]، وتارة بذكر الفوقية مثل: {وهو القاهر فوق عباده} [الأنعام: ١٨]، وتارة بذكر صعود الأشياء إليه مثل: {إليه يصعد الكلم الطيب} [فاطر: ١٠]، وتارة بذكر نزول الأشياء منه، مثل قوله تعالى: {يدبر الأمر من السماء إلى الأرض} [السجدة: ٥]، فقد تنوعت الأدلة من كتاب الله تعالى على علو الله سبحانه وتعالى.

وأما السنة فكذلك، دلت السنة على علو الله تعالى بذاته من قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره؛ فقال عليه الصلاة والسلام: "ربنا الله الذي في السماء"، وقال ﷺ: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء"، وأما فعله فإنه في يوم عرفة وهو يخطب الناس عندما خطب تلك الخطبة العظيمة قال ﷺ لهم: "ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد"، يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، "اللهم اشهد"، هذه سنة فعلية، بإشارته ﷺ إلى السماء حين ذكر الله تعالى، وأما الإقرارية فإنه أتي إليه بجارية فسألها فقال: "أين الله؟ قالت: في السماء. قال: أعتقها فإنها مؤمنة"، هكذا قال، ويعتبر هذا إقرارا، فقد تنوعت السنة بالدلالة على علو الله تعالى بذاته.

وأما الإجماع فقد أجمع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الأمة على أن الله تعالى في السماء بذاته، ولم يقل أحد منهم بحرف واحد أبدا: إن الله تعالى ليس

=

=

في السماء. أو: إن الله تعالى في كل مكان بذاته.

وأما العقل فاسأل عقلك: هل الكمال في علو الذات أو في نفي العلو عنه؟

الجواب: الأول بلا شك، علو الذات تدل على الكمال، بل هي الكمال، فإذا كان العلو هو الكمال، فإن من المعلوم عقلا أن الرب متصف بالكمال، وحينئذ يثبت له العلو عقلا.

أما الفطرة فاسأل فطرتك عندما تسأل الله تعالى شيئا -افرض أنك ما درست ولا حضرت في المساجد ولا شيء- إذا سألت الله شيئا أين ينصرف قلبك؟

الجواب: إلى الأعلى؛ ولهذا كان أبو المعالي الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ يقرر فيقول: كان الله تعالى ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء. وما ذكر استواء العرش، يريد بذلك أن ينكر استواء الله تعالى على العرش الذي من لازمه الإقرار بالعلو، فقال له أبو جعفر الهمذاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "دعنا من ذكر العرش، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا، ما قال عارف قط: يا الله. إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو"، فلطم الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ على رأسه وصرخ وقال: حيرني الهمذاني!. لأن الدليل الفطري لا يمكن النزاع فيه، ولو نازعك منازع فيه قلت: هذا مجنون؛ فلو أن أحدا أنكر طلب الطعام للجائع فلا يصدق؛ ولهذا تحير أبو المعالي الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ وعجز عن الإجابة؛ لأن هذا دليل فطري لا ينازع فيه أحد.

وعليه فقد تطابقت الأدلة على علو الله تعالى بذاته، أما علوه بصفاته سواء كانت صفات قدر أو قهر، فهذا يقر به جميع المنتسبين إلى الإسلام، حتى الجهمية والأشاعرة وغيرهم يقرون بأن الله تعالى عال علوا معنويا، وهو علو الصفات.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وهو العلي} فوق خلقه بالقهر {الكبير} العظيم] لا

=

=

شك أن هذا ليس تفسيرا مطابقا، وكأن المصنف أخذها من قرن (العظيم) بـ (العلي) في آية الكرسي حيث قال تعالى: {ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم} [البقرة: ٢٥٥]، وهنا قال سبحانه وتعالى: {وهو العلي الكبير} ففسر الكبير بالعظيم، ولكن الصحيح أن الكبير أعم؛ لأن الكبير ليس معناه العظيم، بل معناه: ذو الكبرياء، ومعناه أن الله تعالى لا يماثله شيء في ذاته.

فالسموات السبع والأرضين السبع في كفه تعالى كخردلة في كف أحدكم، يعني: السموات السبع على عظمها والأرضين السبع مثلما لو وضع الإنسان في يده خردلة -وهي حبة الخردل التي بكبر حبة السمسم- وهذا أيضا تمثيل على سبيل التقريب، وإلا فالله تعالى أعظم وأجل، فكل المخلوقات بالنسبة له تعالى ليست بشيء.

فينبغي أن نقول: إن الكبير ليس هو العظيم. بل يفيد معنى آخر، وهو الذي له الكبرياء، وهو الذي لا ينسب إليه شيء من خلقه، فالسموات السبع والأرضين السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا.

(فائدة): قوله تعالى: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)} سبأ: ٢٣، هذه الآية تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم، ولهم مكانة عند ربهم، والمؤمن الذي يعبد الله، ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إليهم ويؤذيهم، خاصة وأن الملائكة ممن

=

تشفع للمسلمين يوم القيامة ، قال تعالى: {إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} فنص تعالى على أن الشفاعة يوم القيامة تنفع عنده – ﷻ – ممن أذن له فيها ورضي قوله، ولا يخفى أن الله تعالى بوأ الملائكة المكانة العليا لديه، واصطفاهم وقربهم منه سبحانه، ووصفهم بصفات تقتضي احترامهم وإكرامهم وحبهم.

فكانت هذه الآية رادةً على من أنقص الملائكة عن الحق المشروع لهم من التعظيم والمحبة، قال ابن حزم – رَحِمَهُ اللَّهُ –: " وصح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى، أو بملك من الملائكة، أو بنبي من الأنبياء –عليهم السلام–، أو بآية من القرآن، أو بفريضة من فرائض الدين؛ فهي كلها آيات الله تعالى بعد بلوغ الحجة إليه فهو كافر".

ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

الملائكة هي من أعظم وأكبر من عُبِدَ من دون الله، وسبب عبادتها كان التوسل بهم إلى الله تعالى ،

وطلب القربة إليه؛ لأجل صلاحهم، لذلك قالوا: {هَـؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ} يونس: ١٨، وهذا اعتقاد في الملك بأنه لأجل صلاحه وقربه يملك أن يشفع عند الله، ولأجل قربه لا يَرُدُّ الله تعالى طلبه كما هو الشأن في المخلوقين.

فرد الله عليهم هذا المعتقد الفاسد في قوله تعالى: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}، فبين الله تعالى أن شفاعة الملائكة لا تكون إلا بإذنه، ولا تكون إلا لمن ارتضى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)} الأنبياء: ٢٨ – ٢٩، فذكر هذا الوعيد في الملائكة تنبيهًا على أن دعوى الإلهية لا

=

تجوز لأحد من المخلوقين، لا ملك ولا غيره، وأنه لو قدر وقوع ذلك من ملك من الملائكة لكان جزاؤه جهنم، فكيف بمن دونهم؟ وهذا التخصيص لإفراد الله بالإلهية.

كما جاء في قوله: {حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)}، بيان لحال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله فإذا كان حالهم مع الله ما ذُكر من هيبتهم منه وخشيتهم له فكيف يُدعون مع الله، فغيرهم من باب أولى. ففي ذلك ردٌّ على جميع المشركين الذين يدعون مع الله من لا يُداني الملائكة.

ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو: قياسهم الفاسد، فمنهم من قاس الملائكة الكرام على المحسوسات فأنكر المغيبات، ومن ذلك عالم الملائكة الغيبي، وبعضهم أنقصها عن قدرها الذي ارتضاه الله - ﷻ - لها، فلم يتقرب إلى الله بحبها ولم يطمع في شفاعتها؛ لأن الشفاعة كذلك أمر غيبي.

ومنهم من قاسها على المخلوقين، فاتخذ الملائكة شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة عند المخلوقين؛ لأنهم أهل قرب ومنزلة وجاه وفضل، ومن كان كذلك فقد تأهل للشفاعة، قال الله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)} يونس: ١٨، فنفى الله - ﷻ - هذه الشفاعة التي أثبتها المشركون، وظنوها حاصلة ممن قصدوه وتوجَّهوا إليه، وسألوه رغبا ورهبا.

=

رابعا: أثر اجتماع الرد على البدع المتقابلة في موطن واحد.

أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، فهم وسط في مسألة الشفاعة بين الغلاة والجفاة، فقد أجمعوا على ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ وللملائكة والصالحين من عباد الله تعالى، كما نطَق بذلك القرآن العزيز والسنَّة الصحيحة المتواترة، وبذلك انعقد إجماع أئمَّة الأمة، ولم يشذَّ عنهم إلا المُبتدعة من الفِرَق المارقة، ومن ثَمَّ كانت من المعلوم من الدين بالضرورة.

وكما أثبت أهل السنة الشفاعة، فهم لا يطمعون فيها إلا بشروطها ، قال تعالى: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} سبأ: ٢٣، وقال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢)} سبأ: ٢٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - معقبًا على الآيتين السابقتين: " نفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونا لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} البقرة: ٢٥٥. وقال تعالى عن الملائكة: {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ

يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} الأنبياء: ٢٧ - ٢٨. وقال: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)} النجم: ٢٦، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن".

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤).

{قُلْ مَنْ يَرْزُقكُمْ مِنْ السَّمَاوَات} الْمَطَر {وَالْأَرْض} النَّبَات {قُلْ الله} إنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَاب غَيْره {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ} أَيْ أَحَد الْفَرِيقَيْنِ {لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن فِي الْإِبْهَام تَلَطُّف بِهِمْ دَاعٍ إِلَى الْإِيمَان إِذَا وُفِّقُوا لَهُ.

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥).

{قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا} أَذْنَبْنَا {وَلَا نُسْأَل عَمَّا تَعْمَلُونَ} لِأَنَّا بَرِيئُونَ مِنْكُمْ.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦).

{قُلْ يَجْمَع بَيْننَا رَبّنَا} يَوْم الْقِيَامَة {ثُمَّ يَفْتَح} يَحْكُم {بَيْننَا بِالْحَقِّ} فَيُدْخِل الْمُحِقِّينَ الْجَنَّة وَالْمُبْطِلِينَ النَّار {وَهُوَ الْفَتَّاح} الْحَاكِم {الْعَلِيم} بِمَا يحكم به[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سبأ: ٢٤]، أي:"قل - أيها الرسول- للمشركين: مَن يرزقكم من السماوات بالمطر، ومن الأرض بالنبات والمعادن وغير ذلك؟".

عن ابن عباس، قال: "ثم أمره الله أن يسأل الناس فقال {قل من يرزقكم من السماوات والأرض} ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام: من يرزقكم من السماوات والأرض بإنزاله الغيث عليكم منها حياة لحروثكم، وصلاحًا لمعايشكم، وتسخيره الشمس والقمر =

=

والنجوم لمنافعكم، ومنافع أقواتكم، والأرض بإخراجه منها أقواتكم وأقوات أنعامكم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مقررًا تفرُّدَه بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أي: بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ} [سبأ: ٢٤]، أي:"أي قل لهم: الله الرازق لا آلهتكم".

قال الطبري:"ترك الخبر عن جواب القوم استغناء بدلالة الكلام عليه، ثم ذكره، وهو: فإن قالوا: لا ندري، فقل: الذي يرزقكم ذلك الله".

قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ: ٢٤]، أي:"وإنَّ أحد الفريقين منا ومنكم لعلى هدى متمكن منه، أو في ضلال بيِّن منغمس فيه".

قال الطبري: يقول:"وإنَّا أو إياكم أيها القوم لعلى هدى أو في ضلال مبين: يقول: قل لهم: إنا لعلى هدى أو في ضلال، أو إنكم على ضلال أو هدى".

قال يحيى:"أي: أن أحد الفريقين نحن وأنتم {لعلى هدى أو في ضلال مبين}".

قال ابن كثير:"هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله".

قال قتادة:"قد قال ذلك أصحاب محمد للمشركين، والله ما أنا وأنتم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد".

وروي عن عكرمة وزياد بن أبي مريم في قوله: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي

=

=

ضَلالٍ مُبِينٍ}، قال: "إنا لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين".

قوله تعالى: {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا} [سبأ: ٢٥]، أي:"قل: لا تؤاخذون على ما ارتكبنا من إجرام".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين: أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال، لا تسألون أنتم عمَّا أجرمنا نحن من جرم".

قال ابن عباس: "لا تؤاخذون بجرمنا".

قوله تعالى: {وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سبأ: ٢٥]، أي:"ولا نؤاخذ نحن بما اقترفتم، وإنما يعاقب كل إنسان بجريرته".

قال ابن عباس: " ولا نسأل عن كفركم وتكذيبكم، وهذا على التبري منهم ومن أعمالهم".

قال الطبري: يقول:"ولا نسأل نحن عما تعملون أنتم من عمل".

قال ابن كثير في الآية:"معناه التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم بُرآء منا، كما قال تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١]، وقال: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [سورة الكافرون]".

قوله تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} [سبأ: ٢٦]، أي:"قل: ربنا

=

=

يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يقضي بيننا بالعدل".

قال الطبري: أي:"قل لهم: يجمع بيننا ربنا يوم القيامة عنده ثم يقضي بيننا بالعدل، فيتبين عند ذلك المهتدي منَّا من الضال".

قال القرطبي:"يريد يوم القيامة، يقضي فيثيب المهتدي ويعاقب الضال".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة، يجمع بين الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [الروم: ١٤ - ١٦]".

عن قتادة، قوله:"{قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا}، يوم القيامة، {ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا}، أي: يقضي بيننا".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [سبأ: ٢٦]، أي:"وهو الفتَّاح الحاكم بين خلقه، العليم بما ينبغي أن يُقْضى به، وبأحوال خلقه، لا تخفى عليه خافية".

قال الطبري: "يقول: والله القاضي العليم بالقضاء بين خلقه، لأنه لا تخفى عنه خافيه، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من المبطل".

قال ابن كثير:"أي: الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور".

عن ابن عباس، قوله: " {وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}، يقول: القاضي".

عن السُّدِّيّ: {وهُوَ الفَتّاحُ}، "يعني: القاضي".

=

=

قال محمد بن إسحاق: "العليم بما يخفون".

قال القرطبي: "{وهو الفتاح} أي: القاضي بالحق {العليم} بأحوال الخلق. وهذا كله منسوخ بآية السيف".

قال العثيمين: قوله تعالى: {من} اسم استفهام، والمراد به التحدي، تحدي هؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله غيره، وهل هذه الأصنام ترزقهم من السموات والأرض؟

الجواب: لا، ولكن الذي يرزق هو الله تعالى، فيتحداهم بالسؤال: {من يرزقكم من السماوات والأرض}.

وقوله تعالى: {من السماوات}: (من) لابتداء الغاية؛ أي: أن الرزق يأتي من السموات، والرزق بمعنى: العطاء، فما هو الرزق من السموات؟ قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالمطر]، فإن المطر رزق ينزل إلى الأرض فتنبت، وأما الرزق من الأرض فأمره ظاهر {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا} [البقرة: ٢٩]، ثم إننا نقول بأن الرزق من السموات أشمل من المطر؛ فإن السموات ينزل منها المطر وينزل منها المن والسلوى، وربما نقول: إن الطيور في جو السماء أنها من رزق السماء؛ لأنها تأتي من فوق، فكل ما يأتي من فوق فإنه يصدق عليه أنه رزق من السموات.

والمطر ينزل من سماء واحدة، من العلو؛ ويراد بالسموات أحيانا جهة السموات كما في قوله تعالى: {وجعل القمر فيهن نورا} في السموات، مع أنه في العلو من جهة الغرب.

وقوله تعالى: {قل من يرزقكم من السماوات والأرض} الخطاب في قوله ﷺ:

=

=

{قل} للرسول ﷺ، والمخاطب في قوله: {من يرزقكم} المشركون الكفار فبماذا يجيبون؟ أحيانا يجيبون بالصواب كما في قوله تعالى في سورة يونس: {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون} [يونس: ٣١] هذا جواب صحيح، وأحيانا لا يجيبون يتلعثمون أو يأبون أن يتكلموا عنادا وخوفا من الإلزام؛ لأنهم إذا قالوا: الله. ألزموا بألا يعبدوا إلا الله تعالى؛ كيف تعبدون من لا يرزق؟!

فهم أحيانا يجيبون بالصواب ويقولون: الله. ثم يكابرون ويعاندون ويقولون: (إنما نعبدهم شفعاء لنا عند الله تعالى؛ ليقربونا إلى الله تعالى زلفى)؛ أي: ما نعبدهم لذواتهم، وأحيانا يأبون الجواب يتلعثمون، لأن الحق ثقيل عليهم.

فإذا لم يقولوا شيئا فقل: الله؛ ولهذا قال: {قل الله} هو الذي يرزقكم من السموات والأرض. فإن أبوا بأن قالوا: لا، هو غيره. ولكن لا يملكون أن يقولوا: هو غيره. فقل: من؟ أعد عليهم السؤال مرة ثانية.

قال الله سبحانه وتعالى: {قل الله} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [إن لم يقولوه] يعني: إن لم يقولوا: الله، فأنت قل هذا وأعلن هذا، [لا جواب غيره]، يعني: لا يمكن أن يجيب أحد بغير هذا الجواب، وإن أجاب فقل له: أين ذلك؟ وكيف يكون؟

وقوله تعالى: {قل الله} فإذا كان هو الله، فما الواجب علينا نحن؟ إذا كان الذي يرزقنا هو الله فمن أين نطلب من الرزق؟ من الله تعالى، والذي أحق أن يعبد هو الذي يرزق.

وقوله سبحانه وتعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى}: {وإنا} الضمير يعود على

=

=

النبي ﷺ ومن آمن معه، {أو} حرف عطف (إيا) معطوفة على اسم (إن)؛ ولهذا جاءت بالضمير المنفصل المنصوب؛ وخبر المبتدأ قوله سبحانه وتعالى: {لعلى هدى أو في ضلال مبين} يعني: أننا لا نخرج عن إحدى هاتين الحالين: إما الهدى، وإما الضلال؛ ولا يخرج أحدنا عن ذلك؛ فإما نحن على الهدى وأنتم على الضلال، وإما نحن على الضلال وأنتم على الهدى، وأما كلنا على الهدى أو كلنا على الضلال فلا؛ لأن قولنا وقولهم متناقض؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ ولهذا قال تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين}، وليس هناك ثالث؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال!.

وقوله تعالى: {وإنا أو إياكم} أي: أحد الفريقين {لعلى هدى أو في ضلال مبين} فقال سبحانه وتعالى: {لعلى هدى} ولم يقل: (لفي هدى أو في ضلال) ولم يقل: (لعلى هدى) أو (ضلال)؛ لأن الذي على هدى على جادة بينة عليا واضحة؛ فلهذا قال تعالى: {لعلى هدى}، وصاحب الحلال منغمس في ضلاله تائه حائر ليس له حق من العلو، بل هو مغمور بالجهل بكل جانب؛ ولهذا قال: {أو في ضلال} و (في) للظرفية، ومعلوم أن الظرف محيط بالمظروف؛ فالضلال محيط بهم قد أعمى بصائرهم.

وقوله: {وإنا أو إياكم لعلى هدى} يعني: أننا على هدى ظاهر بين عال {أو في ضلال} مبين منغمس في الجهل والضلال لا ندري أين يذهب!

وتأمل ما في هذه الآية من الإنصاف، فهو إنصاف تام لا جدال فيه؛ يقول: أنا أو أنت على هدى أو في ضلال مبين، فهذا إنصاف، فلو قلت: أنا على هدى وأنت على ضلال صار هذا جورا، ولا يطيعك أحد؛ لأن خصمك سيقول: (بل على

=

=

العكس: أنا على هدى وأنت في ضلال!)؛ فإذا أنصفت وقلت: أنا أو أنت على هدى أو في ضلال مبين، فإن ذلك إنصاف لا أحد يجادل فيه.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{في ضلال مبين} بين] أفادنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن المبين من الرباعي بمعنى: بين، من الثلاثي، لأن (أبان) تأتي متعدية وتأتي لازمة؛ فتقول: (أبان الحق) بمعنى: أظهره، وتقول: (أبان الصبح) و (بان الصبح) بمعنى: ظهر.

إذن: {مبين} تقع في سياق بمعنى: مظهر، وتقع في سياق بمعنى: ظاهر، فمثلا في {ضلال مبين} بمعنى: ظاهر، وقوله سبحانه وتعالى: {حم (١) والكتاب المبين} [الزخرف: ١ - ٢] بمعنى: المظهر، وقوله تعالى: {وأنزلنا إليكم نورا مبينا} فهو بمعنى: المظهر. أما (بان) بدون همزة فهي بمعنى ظهر لا غير، ولا تأتي بمعنى: مظهر.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الإبهام تلطف بهم، داع إلى الإيمان إذا وفقوا له]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الإبهام] الإبهام في: {وإنا أو إياكم} فلم يقل: نحن على هدى وأنتم على ضلال، أو نحن على ضلال وأنتم على هدى، بل قال سبحانه وتعالى: {وإنا أو إياكم}، وهذا إبهام؛ لأنه لا يدرى أهؤلاء أم هؤلاء؛ فتقول: إن هذا الإبهام فيه تلطف بهم داع إلى الإيمان إذا وفقوا له، هذا من جهة معاملتهم، وفيه أيضا ما أشرنا إليه قبل، وهو الإنصاف والعدل وعدم الجور، فمعناه: أننا نقف معكم مقام المنصف؛ فإما نحن على الحق وأنتم على الباطل، وإما أنتم على الباطل وأنتم على الحق، ليس هناك سبيل ثالث.

ثم قال تعالى: {قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون]؛ لأننا بريئون منكم، {قل} لهم مخاطبا إياهم في مجادلتهم {لا تسألون عما أجرمنا} والجرم

=

=

والإجرام بمعنى: الذنب؛ يعني: الذي وقعنا فيه من الإجرام لا تسألون عنه؛ قال تعالى: {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم} [البقرة: ١٣٤]، وقال تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة: ٢٨٦] فالإنسان لا يسأل عن جرم غيره، ولا يسأل غيره عن جرمه، كذلك لا نسأل عما تعملون من إجرام أو غيره.

وفي هذه الجملة في الحقيقة غضاضة على النفس أكثر من الغضاضة على الخصم: فبالنسبة لنا قلنا: لا تسألون عما أجرمنا؛ أولا: وصفنا عملنا بأنه إجرام، وثانيا: وصفناه بالفعل الماضي الدال على الوقوع: {عما أجرمنا}.

وفي الخصم قلنا أولا: {ولا نسأل عما تعملون}، وليس عما تجرمون؛ وكل هذا من باب التلطف، والله يعلم من المجرم من غيره، لكن لأجل أن نقيم الحجة على هؤلاء بأننا عاملناهم بأكمل العدل والإنصاف، بل بما ظاهره الغضاضة علينا؛ وثانيا أنه قال تعالى: {عما تعملون} ولم يقل: عما عملتم. ومعلوم أن الماضي محقق الوقوع، والمضارع قد يقع وقد لا يقع فـ {عما تعملون} يعني: ما عملتم.

فتأمل كيف كانت هذه المحاجة في ظاهرها الغضاضة على المسلمين؛ ففي الأول: وإنا أو إياكم. هذه مرتبة، وهي كافية في إقامة العدل والإنصاف، لكن الثانية أعظم منها: {قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون}.

ونظير هذا: ما وقع من النبي ﷺ مع قريش في صلح الحديبية من أن من ذهب من المسلمين إليهم لا يردونه، ومن جاء من المشركين مسلما إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يرده؛ فعندما تنظر إلى هذا الشرط تجد أنه شرط الرابح فيه

=

=

هم المشركون؛ ولهذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم نعطي الدنية في ديننا؟ ولماذا نتنازل هذا التنازل ونحن على الحق وهم على الباطل؟! ولكن الرسول ﷺ أجابه بقوله: "إني رسول الله ولست عاصيه وهو ناصري"، فانظر إلى الثقة بالله في هذا المقام الضنك الذي لم يصبر عليه أجلد الصحابة كعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أجابه ﷺ بكلام هادئ، كلام واثق بالله، جازم بالنصر: "إني رسول الله"، والرسول يأتمر بأمر من أرسله "ولست عاصيه"، هذا بالنسبة للطاعة؛ ثم الثقة: "وهو ناصري"، يقول موسى لما قال: {قال كلا إن معي ربي سيهدين} [الشعراء: ٦٢]، فما أعظم ثقة الرسل عليهم الصلاة والسلام بنصر الله عَزَّ وَجَلَّ، ونسأل الله تعالى أن يهب لنا من الثقة به ما يزداد به إيماننا وتوكلنا.

وأقول: إن الرسول عليه الصلاة والسلام أتى بهذه الشروط مع أن فيها غضاضة على المسلمين في ظاهرها، ولكن كان في هذا الاتفاق فتح عظيم سماه الله عَزَّ وَجَلَّ فتحا فقال: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا} [الحديد: ١٠]، فسماه الله سبحانه وتعالى فتحا؛ وقال الرسول ﷺ: "أما من جاء إلينا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجا، وأما من ذهب منا إليهم فلا نريده لا رده الله"، وحصل هذا في قصة أبي بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى انتهى الأمر إلى إلغاء الشرط من قبل المشركين.

والشاهد: أن صاحب الحق وإن أتى بما ظاهره الغضاضة فإنه واثق؛ فهنا قال تعالى: {قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون}.

وانظر إلى الثقة قال سبحانه وتعالى: {قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم}.

=

=

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{قل يجمع بيننا ربنا} يوم القيامة]، وهذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لا شك أنه محتمل في الآية، ويحتمل أن الجمع أعم من ذلك، وهو الجمع في القتال والجمع يوم القيامة يجمع بيننا ربنا في الدنيا في القتال كما قال الله تعالى: {يوم التقى الجمعان} وقال تعالى: {وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان} [الأنفال: ٤١]، فهؤلاء وهؤلاء جمع الله تعالى بينهم، فيمكن أن يراد بقوله تعالى: {يجمع بيننا ربنا} أي: في الدنيا في القتال وفي الآخرة للفصل، ثم بعد ذلك يفتح بيننا، يحكم بيننا بالحق، فيدخل المحقين الجنة والمبطلين النار.

وقوله سبحانه وتعالى: {ثم يفتح بيننا} يعني: ينصر بعضنا على بعض في الدنيا، والمستحق للنصر منهم المسلمون بلا شك؛ قال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم} [محمد: ٧]، وقال ﷻ: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} [الحج: ٤٠]، فيجمع الله تعالى بيننا، ثم يفتح بيننا بالحق، والحق يعني: بالعدل الذي لا جور فيه.

وإنما قلنا: إن الحق هنا هو العدل؛ لأنه وصف به الحكم قال تعالى: {يفتح بيننا بالحق}، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الحق إن أضيف إلى الأخبار فهو بمعنى الصدق، وإن أضيف إلى الأحكام فهو بمعنى العدل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح} الحاكم {العليم} بما يحكم به] {الفتاح} صيغة مبالغة مثل (الرزاق) صيغة مبالغة، وإنما سمى الله تعالى نفسه بالفتاح؛ لكثره فتوحاته على خلقه وحكمه بينهم.

والفتح يأتي بمعنى: النصر والحكم بين الناس والفصل، فله معان بحسب السياق، فالله تعالى هو الفتاح الذي يفتح على عباده بالنصر، ويفتح على عباده

=

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧).

{قل أروني} أعلموني {الذي أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاء} فِي الْعِبَادَة {كُلَّا} رَدْع لَهُمْ عَنْ اعْتِقَاد شَرِيك لَهُ {بَلْ هُوَ الله الْعَزِيز} الْغَالِب عَلَى أَمْره {الْحَكِيم} فِي تَدْبِيره لِخَلْقِهِ فَلَا يَكُون لَهُ شَرِيك فِي ملكه[1].

=

بالعلم، ويفتح على عبادة بالفهم، ويفتح على عباده بحسن النية والقصد؛ فهو متضمن لأشياء كثيرة؛ ولهذا جاء بصيغة المبالغة {الفتاح}.

وأما قوله تعالى: {العليم} ذو العلم الواسع، وقد سبق عن لنا أن علم الله أزلي أبدي؛ أزلي لم يسبق بجهل، أبدي لا يلحقه نسيان قال الله تعالى: {علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}، يعني: لا يجهل ما سيأتي ولا ينسى ما مضى.

وعلم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء جملة وتفصيلا؛ قال الله تبارك وتعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام: ٥٩]، فكل شيء فالله تعالى عالم به جملة وتفصيلا.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ} [سبأ: ٢٧]، أي:"قل: أروني بالحجة والدليل الذين ألحقتموهم بالله وجعلتموهم شركاء له في العبادة، هل خلقوا شيئًا؟".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الآلهة والأصنام: أروني أيها القوم الذين ألحقتموهم بالله فصيرتموهم له شركاء في عبادتكم إياهم ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات".

=

=

قال يحيى:"يعني: أوثانهم ما نفعوكم وأجابوكم به".

قال ابن كثير:"أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا".

قال القرطبي:"يكون {أروني} هنا من رؤية القلب، فيكون {شركاء} المفعول الثالث، أي: عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله ﷻ، وهل شاركت في خلق شي، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها. ويجوز أن تكون من رؤية البصر، فيكون {شركاء} حالا.

قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سبأ: ٢٧]، أي:"ليس الأمر كما وصفوا، بل هو المعبود بحق الذي لا شريك له، العزيز في انتقامه ممن أشرك به، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير أمور خلقه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: كذبوا ليس الأمر كما وصفوا، ولا كما جعلوا وقالوا من أن لله شريكًا، بل هو المعبود الذي لا شريك له، ولا يصلح أن يكون له شريك في ملكه، العزيز في انتقامه ممن أشرك به من خلقه، الحكيم في تدبيره خلقه".

قال ابن كثير:"أي: ليس له نظير ولا نَديد، ولا شريك ولا عديل، ولهذا قال: {بَلْ هُوَ اللهُ}: أي: الواحد الأحد الذي لا شريك له {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} أي: ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء، وَغَلَبت كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس".

قال القرطبي:"{كلا}، أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إن {كلا}، رد لجوابهم المحذوف، كأنه قال: أروني الذين ألحقتم به شركاء. قالوا: هي

=

=

الأصنام. فقال كلا، أي ليس له شركاء: {بل هو الله العزيز الحكيم}".

قال يحيى:"أي: لم ينفعوكم ولم يجيبوكم ولا ينفعونكم ولا أنفسهم".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن الحسن: " {الحَكِيمُ} الذي أحكم كل شيء".

عن قتادة بن دعامة: {الحَكِيمُ} في أمره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أروني} يقول المصنف: [أعلموني {الذين ألحقتم به شركاء}] وعلى تفسير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يكون هناك جملة محذوفة: (أروني الذين ألحقتم به شركاء ماذا صنعوا؟ هل خلقوا؟ هل رزقوا؟ هل فتحوا؟ هل هدوا؟) كل ذلك لم يكن، ويحتمل أن يكون {أروني} أبصروني إياه، من رؤية العين، كما قال تعالى: {أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات} [فاطر: ٤٠]، وأيا كان فالمراد بهذا الاستفهام التحدي؛ تحدي هؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله سبحانه وتعالى شركاء قل: هاتوا الشركاء أروني ماذا صنعوا.

وقوله تعالى: {الذين ألحقتم به شركاء} يعني: جعلتموهم شركاء في العبادة، لا في الخلق والرزق؛ لأن المشركين في عهد الرسول ﷺ لم يدعوا أبدا أن أصنامهم شريكة مع الله تعالى في الخلق والرزق والتدبير أبدا، بل كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، لكنهم ينكرون إفراد الله تعالى بالعبادة فيعبدون مع الله تعالى غيره، وهذا لا ينفعهم؛ أي أن إقرارهم بالربوبية لا ينفعهم مع إنكارهم لتوحيد الألوهية؛ نقول: أروني الذين أحق من شركائي في العبادة.

قوله سبحانه وتعالى: {كلا} ردع لهم عن اعتقاد شريك، أو ردع لهم أو إبطال

=

=

لما يمكن أن يدعوه من اعتقاد الشريك، فقوله سبحانه وتعالى: {كلا} يعني: لا شريك له، ففيها إبطال شرك هؤلاء، بل إبطال آخر {بل هو الله العزيز الحكيم}، {بل هو الله} أي: هو الله، الجملة هذه مكونة من مبتدأ وخبر {هو الله}، وكلاهما معرفة، وقد قال أهل البلاغة: إنه إذا عرف المسند والمسند إليه في الجملة الخبرية كانت دالة على الحصر؛ مثال ذلك: تقول: زيد قائم. وتقول: زيد القائم؛ الأولى: زيد قائم. لا تمنع أن يكون غيره قائما، والثانية: زيد القائم. تدل على الحصر، أي: أنه وحده القائم؛ وهنا: {بل هو الله} جملة خبرية تفيد الحضر، يعني: ليس معبود غير الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العزيز} الغالب على أمره الحكيم في تدبيره لخلقه، فلا يكون له شريك في ملكه، في هذا قصور جدا.

فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{العزيز} الغالب] سبق لنا أن العزة لها ثلاثة معان: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، فهو عزيز القدر مثل قولنا: فلان عزيز علي. أي: قدره عندي عظيم، وعزة القهر مثل قوله تعالى: {وعزني في الخطاب} أي: غلبني فيه عزة الامتناع، أي: أن الله تعالى يمتنع أن يناله سوء؛ لعزته، ومنهم قولهم: (أرض عزاز) أي: قوية صلبة.

أما {الحكيم} فتقدم أن الحكيم مشتق من الحكم والإحكام، وأن الحكم كوني وشرعي، والإحكام يكون في الكوني والشرعي في وصفه أو في صورته وغايته، وحينئذ تكون الحكيم دالة على أربعة أمور: حكم كوني وحكم شرعي، وكل منهما محكم في صورته التي هو عليها وفي الغاية منه، فتكون المجموع أربعة؛ اثنان في اثنين بأربعة.

=

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨).

{وَمَا أَرْسَلْنَاك إِلَّا كَافَّة} حَال مِنْ النَّاس قُدِّمَ لِلِاهْتِمَام {لِلنَّاسِ بَشِيرًا} مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ {وَنَذِيرًا} مُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} أَيْ كُفَّار مَكَّة {لَا يَعْلَمُونَ} ذَلِكَ(١).

=

وأما قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{الحكيم} في تدبيره إلى خلقه فلا يكون له شريك في ملكه] فهذا خطأ؛ لأن الشريك في الملك ما ادعاه المشركون، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه في الأول يقول: شركاء في العبادة، فحينئذ يكون الصواب: فلا يكون له شريك في عبادته، فما دام هو الذي له العزة والغلبة والحكم والحكمة فإنه لا ينبغي أن يكون له شريك في العبادة، بل العبادة له وحده.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ: ٢٨]، أي:"وما أرسلناك -أيها الرسول- إلا للناس أجمعين مبشرًا بثواب الله، ومنذرًا عقابه".

قال الطبري: يقول: " وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين؛ العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا من أطاعك، ونذيرًا من كذبك".

قال ابن كثير:"أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين، كقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]، {تَبَارَكَ الَّذِي نَزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]. {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي: تبشر مَنْ أطاعك بالجنة، وتنذر مَنْ عصاك بالنار".

قال قتادة:"أرسل الله محمدًا إلى العرب والعجم، فأكرمُهُم على الله أطوعهم له".

=

=

قال قتادة:"ذكر لنا نبي الله ﷺ قال: «أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشة»".

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق، فهم معرضون عنه".

قال الطبري: يقول: يقول:"{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر".

قال ابن كثير:"{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}، كقوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]، {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الأنعام: ١١٦]".

قال القرطبي:"{ولكن أكثر الناس لا يعلمون} ما عند الله وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا".

قال العثيمين: سبق لنا أن المصنف رَحِمَهُ اللهُ فصل في قوله في تفسير (العزيز) [بغالب]، وفي قوله: الحكيم [بتدبيره للخلق]، وأخطأ أيضا في قوله: [فلا شريك له في ملكه]؛ لأنه ليس المقام مقام نفي الشريك في الملك، إنما المقام مقام نفي الشريك في العبادة، إذ إن هؤلاء المشركين يعترفون بأن الله تعالى لا شريك له في ملكه.

=

=

قال الله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة} حال من الناس قدم للاهتمام، {للناس} {وما أرسلناك إلا كافة}، وهذا الاستثناء يسمونه استثناء مفرغا من اعم الأحوال يعني: {وما أرسلناك} لأي حال من الأحوال إلا لهذه الحال، يعني: {إلا} للناس {كافة} بمعنى: جميعا.

وقوله سبحانه وتعالى: {أرسلناك} الإرسال معناه: الأمر بتبليغ الشيء؛ فأنت إذا أرسلت شخصا من الناس إلى شخص آخر معناه أنك أمرته أن يبلغ شيئا ما إلى المرسل إليه؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله في تفسير (الرسول): وهو الذي أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وقوله تعالى: {إلا كافة للناس}: {للناس} معناه: هم البشر، وسموا ناسا من قولهم: أنس. إذا تحرك وعمل، وعلى هذا فيكون الناس اسما مشتقا، وليس اسما جامدا، قالوا: وأصله: (الأناس)، لكنها حذفت الهمزة تخفيفا؛ لكثرة الاستعمال، ومثل ذلك قولهم: شر وخير. كأن تقول: هذا خير من هذا. بمعنى: أخير من هذا، فحذفت الهمزة للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، قالوا: ومن ذلك (الله)، وأصله الإله؛ حذفت الهمزة للتخفيف؛ لكثرة الاستعمال، على أن هذه المسألة الثانية الأخيرة فيها شيء من النظر؛ لأن (الإله) تأتي إلى جانب (الله)، وتقول: هو الله الإله العظيم.. إلى آخره.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وما أرسلناك إلا كافة للناس} أي: كفار مكة]، وهذا قصور من المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأننا إذا قلنا: إنك أرسلت إلى كفار مكة فغيرهم لم يرسل إليهم، وهذا قصور عظيم جدا؛ كيف تأتي كلمة (الناس) في مقام الرسالة ونقول: المراد بها كفار مكة.

=

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩).

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْد} بِالْعَذَابِ {إِنْ كُنْتُمْ صادقين} فيه[1].

=

والصواب: المراد بها كفار مكة وغيرهم، وكل الكفار إلى يوم القيامة، وليس في حياته فقط، إلى يوم القيامة للناس عموما.

وقوله تعالى: {بشيرا ونذيرا} أي: مبشرا للمؤمنين بالجنة، ونذيرا: منذرا للكافرين بالعذاب، بشيرا: حال أيضا من الكاف في قوله تعالى: {وما أرسلناك}، وقوله تعالى: {بشيرا} (فعيل) بمعنى (مفعل) أو (بشير) بمعنى: ببشارة، و (فعيل) تأتي بمعنى (مفعل) كما أسلفنا ذلك كثيرا، وقوله تعالى: {بشيرا} للمؤمنين بالجنة {ونذيرا} للكافرين بالنار، وينبغي أن يقال: بشيرا للمؤمنين بالجنة -كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونذيرا للعاصين بالعقوبة؛ ليشمل الإنذار عن الكفر والإنذار عن المعاصي، بمعنى: أنه حتى المعاصي رتبت عليها عقوبات، من أجل أن تردع الإنسان عن فعلها.

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩)} [سبأ: ٢٩]

ويقول هؤلاء المشركون مستهزئين: متى هذا الوعد الذي تَعِدوننا أن يجمعنا الله فيه، ثم يقضي بيننا، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به؟

قال الطبري: يقول:"ويقول هؤلاء المشركون بالله إذا سمعوا وعيد الله الكفار وما هو فاعل بهم في معادهم مما أنزل الله في كتابه {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} جائيًا، وفي أي وقت هو كائن {إِنْ كُنْتُمْ} فيما تعدوننا من ذلك {صَادِقِينَ} أنه كائن".

قال البيضاوي:"ويقولون من فرط جهلهم: متى هذا الوعد يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله: {يجمع بيننا ربنا}. {ن كنتم صادقين}،

=

=

يخاطبون به رسول الله ﷺ والمؤمنين".

قال السمعاني:"يعني: القيامة".

قال القرطبي:"يعني: موعدكم لنا بقيام الساعة".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {ويقولون} يعني: المكذبين للرسول ﷺ الذين توعدوا بالعذاب والنكال فيقولون متحدين ومستبعدين ومنكرين: {متى هذا الوعد}: {متى} اسم استفهام المراد به الإنكار والتحدي.

وقوله: {الوعد} أي: بالعذاب الذي وعدتمونا به، ويحتمل أن يكون {متى هذا الوعد} بالنصر لكم؛ لأن المعروف أن الوعد بالخير وبالشر وعيد، ولكن قد يقال: إن الوعيد لهؤلاء الكفار هو بالنسبة للمؤمنين معدوم {متى هذا الوعد} بالعذاب {إن كنتم صادقين} فيه، يعني: إن كنتم صادقين بما تقولون من أن العذاب سيحل بنا وسنعاقب، والصدق: هو الإخبار بما يوافق الواقع، والكذب: الإخبار بما يخالف الواقع، فإذا قلت: (قدم زيد البلد) ولم يكن قدم فهو كذب؛ لأنه خلاف للواقع، وإذا قلت: (قدم زيد البلد) وقد قدم فهو صدق؛ لموافقة الواقع، فيقولون: إن كنتم صادقين فمتى يكون هذا؟

وهذا كقوله سبحانه وتعالى في الساعة: {وما يدريك لعل الساعة قريب (١٧) يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق} [الشورى: ١٧ - ١٨]، فالكفار يستعجلون العذاب تكذيبا للرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: {أفبعذابنا يستعجلون (٢٠٤) أفرأيت إن متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم ما كانوا يوعدون (٢٠٦) ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} [الشعراء:

=

قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠).

{قُلْ لَكُمْ مِيعَاد يَوْم لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَة وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} عَلَيْهِ وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة[1].

=

٢٠٤ – ٢٠٧]، يعني: أي شيء يغني عنهم، فمهما طال بهم الأمد فإن المسألة محدودة معدودة {إن متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم ما كانوا يوعدون (٢٠٦) ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} فهم يتحدون ومع ذلك أحيانا يتحدون كذبا، فإنهم قالوا حين أخبروا بالبعث، قالوا متحدين للرسل عليهم الصلاة والسلام: {فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين} [الدخان: ٣٦]، وهل قيل لهم: إن آباءهم يأتون الآن. حتى يوجهوا الصورة إلى هذا؟ لا، بل قيل لهم: إن آباءهم سيبعثون يوم القيامة. لكنهم يموهون على العامة بمثل هذه الدعاوى.

(١) قوله تعالى: {قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)} [سبأ: ٣٠]

قال الطبري: " قال الله لنبيه: {قُلْ} لهم يا محمد {لَكُمْ} أيها القوم {مِيعَادُ يَوْمٍ} هو آتيكم {لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ} إذا جاءكم {سَاعَةً} فتنظروا للتوبة والإنابة {وَلا تَسْتَقْدِمُونَ} قبله بالعذاب لأن الله جعل لكم ذلك أجل".

قال ابن كثير:"أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرر، لا يزداد ولا ينتقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: {إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ} [نوح: ٤]، وقال {وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٤، ١٠٥]".

قال القرطبي: أي:"فلا يغرنكم تأخيره. والميعاد: الميقات. ويعني بهذا الميعاد:
=

=

وقت البعث وقيل وقت حضور الموت، أي: لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولي. وقيل: أراد بهذا اليوم يوم بدر، لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدنيا في حكم الله تعالى".

قال الضَّحّاك بن مُزاحِم: " {قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ} يوم الموت لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون؛ بأن يُزاد في أجلكم أو يُنقص منه".

قال السمعاني في الآية:"قد فسر هذا بيوم البعث، وقد فسر بيوم الموت، وكلاهما صحيح".

قال البيضاوي، الأية:"جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ميعاد} يحتمل أن يكون ظرف مكان أو زمان، ويحتمل أن يكون مصدرا ميميا؛ والمعنى: أن لكم وعدا يكون في يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون عليه، وذلك لأن الله ﷻ بحكمته البالغة قدر لكل شيء أجلا معينا، قال الله ﷻ: {وكل شيء عنده بمقدار} [الرعد: ٨]، فكل شيء بمقدار عند الله سبحانه وتعالى ومحدد بآجله، فالعذاب لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر.

وفي هذا الجواب من التهديد لهم ما هو ظاهر، كما لو قلت لإنسان: إن عندي لك موعد لا يتقدم ولا يتأخر. فالمعنى: احذر من هذا اليوم.

وقول المصنف: [هو يوم القيامة] هذا لا شك أنه محتمل، لكن فيه احتمال آخر، أنه يوم القيامة ويوم موتهم أيضا، فإن يوم موتهم يشاهدون العذاب، قال الله:

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {لَنْ نُؤْمِن بِهَذَا الْقُرْآن وَلَا بِالَّذِي بَيْن يَدَيْهِ} أَيْ تَقَدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيل الدَّالَّيْنِ عَلَى الْبَعْث لإنكارهم له قال تعالى فيهم {وَلَوْ تَرَى} يَا مُحَمَّد {إِذْ الظَّالِمُونَ} الْكَافِرُونَ {مَوْقُوفُونَ عِنْد رَبّهمْ يَرْجِع بَعْضهمْ إِلَى بَعْض الْقَوْل يَقُول الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا} الْأَتْبَاع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} الرُّؤَسَاء {لَوْلَا أَنْتُمْ} صَدَدْتُمُونَا عَنْ الْإِيمَان {لَكُنَّا مؤمنين}

=

{ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق (٥٠) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد} [الأنفال: ٥٠ – ٥١].

فهذا اليوم يجدون فيه العذاب قبل يوم القيامة {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون} [الأنعام: ٩٣].

وفي سورة الدخان: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب أليم (١١) ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون (١٢) أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين (١٣) ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون (١٤) إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون (١٥) يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} [الدخان: ١٠ – ١٦]، وهذا حصل في بدر حين قتل شرفاؤهم وساداتهم.

بالنبي[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [سبأ: ٣١]، أي:"وقال الذين كفروا: لن نصدِّق بهذا القرآن ولا بالذي تَقَدَّمَه من التوراة والإنجيل والزبور، فقد كذَّبوا بجميع كتب الله".

قال الطبري:"يقول:"{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} من مشركي العرب {لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ} الذي جاءنا به محمد ﷺ ولا بالكتاب الذي جاء به غيره من بين يديه".

قال الفراء:"{لا بالذي بين يديه}: التوراة لما قال أهل الكتاب: صفة محمد في كتابنا كفر أهل مكة بالقرآن وبالذي بين يديه: الذي قبله التوراة".

قال الزجاج:"يعنون: لا نؤمن بما أتى به محمد ﷺ ولا بالكتب المتقدمة".

قال قتادة:"قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه من الكتب والأنبياء".

عن السدي:"{ولا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، قال: بالتوراة، والإنجيل".

قال الزمخشري:"{الذي بين يديه}: ما نزل قبل القرآن من كتب الله: يروى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ في كتبهم، فأغضبهم ذلك وقرنوا إلى القرآن جميع ما تقدمه من كتب الله ﷻ في الكفر، فكفروا بها جميعا. وقيل: {الذي بين يديه}: يوم القيامة، والمعنى: أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله تعالى، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة".

قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [سبأ: ٣١].

قال السمعاني:"أي: محبوسون عند ربهم".

=

=

قال الزمخشري:"أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسوله عليه الصلاة والسلام أو للمخاطب: ولو ترى في الاخرة موقفهم".

قوله تعالى: {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ} [سبأ: ٣١]، أي:"يتراجعون الكلام فيما بينهم، كل يُلْقي بالعتاب على الآخر".

قال الطبري: يقول:"يتلاومون، يحاور بعضهم بعضًا".

قال السمعاني:"أي: يجادل بعضهم بعضا".

قال الزمخشري: أي:"وهم يتجاذبون أطراف المحادثة ويتراجعونها بينهم، لرأيت العجيب، فحذف الجواب".

قوله تعالى: {يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ: ٣١]، أي:"يقول المستضعفون للذين استكبروا -وهم القادة والرؤساء الضالون المضلون-: لولا أنتم أضللتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بالله ورسوله".

قال الطبري:"يقول المستضعفون، كانوا في الدنيا، للذين كانوا عليهم فيها يستكبرون: لولا أنتم أيها الرؤساء والكبراء في الدنيا لكنا مؤمنين بالله وآياته".

قال السمعاني:"{يقول الذين} أي: استحقروا، وهم الأتباع {للذين} تجبروا، وهم القادة والأشراف: لولا أنكم كنتم قادتنا ورؤساءنا لآمنا بالله وبرسوله".

قال ابن كثير:"{الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} منهم وهم الأتباع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} وهم قادتهم وسادتهم: {لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به".

قال الزمخشري:"المستضعفون: هم الأتباع، والمستكبرون: هم الرءوس

=

=

والمقدمون".

عن السدي:"{يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} قال: هم الأتباع -وفي لفظ: الأتباع من الكفار- {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} هم القادة -وفي لفظ: الكبراء والقادة في الكفر -".

قال العثيمين: قوله رَحِمَهُ اللهُ: {وقال الذين كفروا} من أهل مكة] لا ينبغي أن نخصص ما عممه الله عَزَّ وَجَلَّ، فالصواب: وقال الذين كفروا من أهل مكة وغيرهم، قالوا: {لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه} - والعياذ بالله تعالى- أتوا بـ (لن) الدالة على تأكيد النفي، ولم يقولوا: لا نؤمن. بل قالوا: {لن نؤمن} يؤكدون انتفاء إيمانهم بالقرآن في المستقبل.

وقوله تعالى: {لن نؤمن بهذا القرآن} هذه الإشارة للقريب تحقيرا له، كما في قوله تعالى: {أهذا الذي يذكر آلهتكم} [الأنبياء: ٣٦]، {أهذا الذي بعث الله رسولا} [الفرقان: ٤١].

وقوله سبحانه وتعالى: {القرآن} على وزن (فعلان) فهل هو بمعنى: المقروء، أو بمعنى: القارئ، أو هو مصدر بمعنى الجمع؟

الجواب: أن فيه خلافا عند علماء العربية رحمهم الله، والصواب: أنه متضمن للمعاني كلها فهو قارئ؛ أي: جامع؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة وجميع ما فيها من المصالح موجود فيه وهو مقروء؛ لأن الناس يقرؤونه ويتلونه، وهو جمع أيضا؛ لأنه جامع لكل شيء والفعلان بمعنى المصدر وارد وموجود في اللغة العربية، مثل: الشكران والكفران والنكران، وما أشبه ذلك.

والمراد بالقرآن هنا الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو اسم خاص به بهذا القرآن.

=

=

وقوله تعالى: {ولا بالذي بين يديه} يعني: ولا نؤمن بالذي [تقدمه كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث بإنكارهم له] يعني ولا نؤمن أيضا بالذي بين يديه، والمراد على رأي المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما بين يديه: ما سبقه، وليس ما يأتي بعده، ويحتمل أن المراد بقوله: ولا بالذي بين يديه، أي: ما يأتي مما أخبر به، فإن ما بين يدي الشيء مستقر كما قال الله سبحانه وتعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} [طه: ١١٠]، والمعنيان صحيحان، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين صحيحين لا يتنافيان وجب حملها على الجميع؛ لأن القرآن شامل وواسع، فقوله تعالى: {ولا بالذي بين يديه} أي: ولا بالذي يأتي بعده مما أخبر به أو (ولا بالذي بين يديه) ما تقدمه من الكتب كالتوراة والإنجيل.

وقوله سبحانه وتعالى: {ولو ترى} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا محمد {إذ الظالمون} الكافرون {موقوفون عند ربهم}] {ولو ترى} أي: {ولو} شرطية، وفعل شرطها {ترى}، وهي غير جازمة وجوابها محذوف؛ أي: لرأيت أمرا فظيعا، وجواب الشرط في مثل هذا التركيب أعظم من ذكره؛ لأن النفس تذهب في تقديره كل مذهب من الفظاعة والبشاعة.

و(لو) تأتي باللغة العربية على عدة معان؛ تأتي بـ (ما) الشرطية كما هنا، وتأتي مصدرية كما في قوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون} [القلم: ٩].

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا محمد] قمر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضمير على الرسول ﷺ، مع أنه يحتمل أن يكون المراد به كل مخاطب؛ يعني: ولو ترى أيها المخاطب حال هؤلاء لرأيت أمرا فظيعا.

وقوله تعالى: {إذ الظالمون}: {إذ} بمعنى: (وقت) أو (حين) فهي ظرف زمان،

=

=

و {الظالمون} مبتدأ و {موقوفون} خبره، والمراد بالظالمين هنا قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [الكافرون]، وإنما خصها بالكافرين مع أن الظلم أعم بقرينة السياق، حيث قال الله عَزَّ وَجَلَّ في آخرها: {وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا} [سبأ: ٣٣]، فكان المراد بالظالمين هنا الكافرين.

وهل كل ظالم كافر؟

الجواب: لا؛ ولهذا لما قال الله تعالى: {والكافرون هم الظالمون} قال العلماء رحمهم الله: نحمد الله تعالى أن لم يقل: والظالمون هم الكافرون.

وقوله تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم} أي: محبوسون، فمعنى (وقفه) أي: حبسه، ومنه سمي الوقف للمال الحبيس الذي تحبس عينه وتسبل منفعته، فمعنى {موقوفون} أي: محبوسون عند الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله سبحانه وتعالى: {عند ربهم} ولم يقل: عند الله سبحانه وتعالى؛ لأن مثل هذا الفعل العظيم الدال على العظمة يتناسب مع الربوبية، لكمال ربوبيته عَزَّ وَجَلَّ وكمال ملكه وسلطانه، تجد هؤلاء الظلمة الذين عندهم من العتو والاستكبار والعناد في الدنيا في أذل شيء أمام ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: {يرجع} بمعنى: يرد؛ وعلى هذا فتكون متعدية؛ لأن رجع تأتي لازمة وتأتي متعدية، فقولك: رجعت من مكة إلى المدينة. هذه لازمة؛ لأنها لم تنصب المفعول، وقوله تعالى: {فإن رجعك الله إلى طائفة منهم} [التوبة: ٨٣]، هذه متعدية، وهنا قال عَزَّ وَجَلَّ: {يرجع بعضهم إلى بعض القول} فهذه متعدية؛ أي: يردهم، و {القول} هنا مبهم ومجمل، ثم فصله بقوله تعالى: {يقول الذين استضعفوا}.

=

=

وفائدة الإبهام المفصل عظيمة؛ لأنه إذا أجمل أولا وأبهم، فإن النفس تتطلع إلى بيان ذلك الشيء وتفصيله، فعندما أقرأ: {يرجع بعضهم إلى بعض القول} ماذا يكون ذهنك؟

الجواب: يكون ذهنك متطلعا إلى بيان هذا القول الذي يتراجعونه، لكن لو قال: "ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يقول الذين استضعفوا" هكذا جاءت لم يكن لها من التمكن في الذهن مثل ما كان لها حينما أبهم القول، ثم بين أو أجمل، ثم فصل.

وقوله ﷻ: {يرجع بعضهم إلى بعض القول} ماذا يقولون؟ [{يقول الذين استضعفوا} الأتباع {للذين استكبروا} الرؤساء {لولا أنتم} صددتمونا عن الإيمان {لكنا مؤمنين} بالنبي] (لولا) هذه شرطية، ويقال فيها: حرف امتناع لوجوب؛ لأنه امتنع جوابها؛ لوجود شرطها، وتأتي (لولا) الشرطية كما هنا، وتأتي للتحضيض، كما في قوله تعالى: {لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء} [النور: ١٣] وتأتي للنفي، كما في قوله ﷻ: {فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس} [يونس: ٩٨]، المعنى: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا، وهنا يقول: لولا أنتم.

وابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وبعد لولا غالبا حذف الخبر ... حتم......

فالمبتدأ موجود هنا وهو (أنتم)، والخبر محذوف قدره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [صددتمونا] وعرف أنه في هذا اللفظ من قولهم: {أنحن صددناكم عن الهدى} فلا نقدر هنا: لولا أنتم موجودون، لأن الصد أخص من مطلق الوجود، وإذا كان

=

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢).

{قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم} لا {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} فِي أَنْفُسكُمْ(١).

=

لنا طريق إلى تقدير الأخص فهو أولى من تقدير الأعم.

ولهذا قلنا: إن القارئ إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) يقدر المتعلق بقوله: أقرأ. لا بقوله: أبتدئ، لأن (أبتدئ) عامة و (أقرأ) خاصة، وهنا يمكن أن نقول: لولا أنتم موجودون. لكن ما دمنا نجد فعلا أخص وهو الصد المدلول عليه بقوله تعالى: {أنحن صددناكم} فإنه يجب أن نقدر لولا أنتم صددتمونا {لولا أنتم لكنا مؤمنين} هذا هو جواب الشرط لكنا مؤمنين؛ ولهذا اقترن باللام.

وقوله: [{لكنا مؤمنين} بالنبي]ﷺ، والأصح أنه أعم، أي: لكنا مؤمنين بما تشمله رسالة النبي ﷺ، من الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبغير ذلك مما يجب الإيمان به.

(١) قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} [سبأ: ٣٢].

قال الطبري:" {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} في الدنيا، فرأسوا في الضلالة والكفر بالله {لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} فيها فكانوا أتباعًا لأهل الضلالة منهم إذ قالوا لهم {لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى} ومنعناكم من اتباع الحق {بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ} من عند الله يبين لكم".

قال ابن كثير:"أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير

=

=

دليل ولا برهان".

عن السُّدِّيّ: " {عَنِ الهُدى}، يعني: عن الإيمان".

قوله تعالى: {بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} [سبأ: ٣٢]، أي:"بل كنتم مجرمين إذ دخلتم في الكفر بإرادتكم مختارين".

قال الطبري: "فمنعكم إيثاركم الكفر بالله على الإيمان من اتباع الهدى، والإيمان بالله ورسوله".

قال الزمخشري: أي:"بل أنتم منعتم أنفسكم حظها وآثرتم الضلال على الهدى وأطعتم آمر الشهوة دون آمر النهى، فكنتم مجرمين كافرين لاختياركم لا لقولنا وتسويلنا".

قال السمعاني:"أي: الجرم كان لكم في اتباعكم أهواءكم".

قال ابن كثير: أي:"خالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الأنبياء، لشهوتكم واختياركم لذلك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قال الذين استكبروا للذين استضعفوا} ردوا عليهم القول: {يرجع بعضهم إلى بعض القول} فكان الرد هو: {قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم}؟ والاستفهام هنا بمعنى النفي، يعني: لم نصدكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل أنتم الذين اخترتم الكفر، وهنا صدق قول الله سبحانه وتعالى: {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا} [البقرة: ١٦٦]، فهنا قال تعالى: {أنحن صددناكم} يعني: نحن متبرئون منكم، ولا أجبرناكم على الكفر، بل أنتم الذين اخترتم ذلك.

وقوله تعالى: {صددناكم} أي: صرفناكم.

=

وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي

=

وقوله سبحانه وتعالى: {عن الهدى بعد إذ جاءكم} هذا من باب تحقيق مجيء الهدى ووضوحه، وهذا إقرار من هؤلاء الرؤساء المستكبرين على أن الهدى قد جاء وبان ووضح {بعد إذ جاءكم}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تقديرها: [لا] إشارة إلى أن الاستفهام هنا للنفي، وكلما جاءت كلمة (لا) بعد الاستفهام فإن ترجمتها أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الاستفهام هنا للنفي، {بل كنتم مجرمين} في أنفسكم -والعياذ بالله تعالى- في الدنيا تجد يأتي إليه المستكبر هذا الرئيس يدعوه بلطف تام، وفي الآخرة يلعن بعضهم بعضا، ويتبرأ بعضهم من بعض.

وانظر إلى ملك غسان لما بلغه أن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسل إليه خطابا لطيفا رقيقا وقال له: إنه بلغنا أن صاحبك قد هجرك، فأت إلينا نواسك. انظر إلى التلطف!! ولكن لم ينخدع كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لإيمانه، وخاف أن ينخدع في المستقبل فذهب إلى التنور وأوقد هذه الورقة، وهكذا كل شيء تخشى على نفسك منه في المستقبل يجب عليك أن تتلفه، لا تقل: إني الآن ما يمكن أن أفعل هذا الشيء أبدا، ولا يمكن أن أضل به، صحيح أنك في بادئ البدء قد لا تنخدع، لكن الشيطان يعمل عمله، ولهذا يجب عليك أن تتلف كل ما تخشى أن تكون عاقبته عليك وخيمة.

الحاصل: أن هؤلاء في الآخرة ما يتوددون ولا يتلطفون ولا يفهمون هؤلاء الأتباع.

وقوله تعالى: {بل كنتم مجرمين} والإجرام هو الذنب الذي لا يرتفع.

أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣).

{وَقَالَ الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْر اللَّيْل وَالنَّهَار} أَيْ مَكْر فِيهِمَا مِنْكُمْ بِنَا {إذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُر بِاَللهِ وَنَجْعَل لَهُ أَنْدَادًا} شُرَكَاء {وَأَسَرُّوا} أَيْ الْفَرِيقَانِ {النَّدَامَة} عَلَى تَرْك الْإِيمَان بِهِ {لَمَّا رَأَوْا الْعَذَاب} أَيْ أَخْفَاهَا كُلّ عَنْ رَفِيقه مَخَافَة التَّعْيِير {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَال فِي أَعْنَاق الَّذِينَ كَفَرُوا} فِي النَّار {هَلْ} مَا {يُجْزَوْنَ إلَّا} جَزَاء {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فِي الدُّنْيَا[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} [سبأ: ٣٣].

قال الطبري: يقول: "{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا} من الكفرة بالله في الدنيا، فكانوا أتباعًا لرؤسائهم في الضلالة {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} فيها، فكانوا لهم رؤساء {بَلْ مَكْرُ} كم لنا بـ {اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} صدنا عن الهدى حين تأمروننا أن نكفر بالله {وَنَجْعَلَ لَهُ} أمثالا وأشباهًا في العبادة والألوهة".

قال ابن كثير: "أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا، وتَغُرّونا وتُمَنّونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل وكَذبٌ ومَيْن، {إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا} أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شُبَهًا وأشياءَ من المحال تضلونا بها".

قال السمعاني: "أي: مكركم بنا في الليل والنهار، وقيل: بل مكر الليل والنهار معناه: طول الأمل، وطول الأمل هو مكر الليل والنهار على طريق المجاز".

قال الزجاج: "{بل مكر الليل والنهار}، معناه: بل مكركم في الليل والنهار، {ونجعل له أندادا}: أشباها".

=

=

قال الفراء:"{المكر ليس لليل ولا للنهار}، إنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار. وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين، لأن العرب تقول: نهارك صائم، وليلك نائم، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار، وهو في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلك وعزم الأمر، إنما عزمه القوم. فهذا مما يعرف معناه فتتسع به العرب".

قال الزمخشري:"«بل مكر الليل والنهار» فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا، وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد".

قال ابن زيد:"يقول: بل مكركم بنا في الليل والنهار أيها العظماء الرؤساء حتى أزلتمونا عن عبادة الله".

عن سعيد بن جبير: " {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، قال: مرُّ الليل والنهار".

عن قتادة، قوله:" {وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا}، شركاء".

وقرئ في الشاذ: «بل مكر الليل والنهار»، أي: كرور الليل والنهار".

عن سفيان بن عيينة -من طريق ابن أبي عمر- في قوله: " {بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادًا}، قال: أعمالكم بالليل والنهار. قال سفيان: وكل مكر في القرآن فهو عمل".

قوله تعالى: {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ} [سبأ: ٣٣]، أي:"وأسرَّ كُلٌّ من الفريقين الحسرة حين رأوا العذاب الذي أُعدَّ لهم".

قال الطبري:"يقول: وندموا على ما فرطوا من طاعة الله في الدنيا حين عاينوا عذاب الله الذي أعده لهم".

=

=

قال الزجاج:"أسروها بينهم. أقبل بعضهم يلوم بعضا، ويعرف بعضهم بعضا الندامة".

قال ابن كثير:"أي: الجميع من السادة والأتباع، كُلٌّ نَدم على ما سَلَف منه".

عن قتادة: " {وَأَسَرُّوا النَدَامَةَ} بينهم، {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ}".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سبأ: ٣٣]، أي:"وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادةً على تعذيبهم بالنار".

قال الطبري:"وغلت أيدي الكافرين بالله في جهنم إلى أعناقهم في جوامع من نار جهنم".

قال ابن كثير:"هي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم".

قال السمعاني:"هو فرع من عذاب أهل النار".

قوله تعالى: {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٣]، أي:"لا يعاقَبون بهذا العقاب إلا بسبب كفرهم بالله وعملهم السيئات في الدنيا".

قال الطبري: يقول:"ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثوابًا لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأة لهم عليها".

قال السمعاني:"أي: يعملون من الكفر والمعاصي".

قال ابن كثير:"أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨]".

قال ابن عباس: "غلو بها في النيران والشركاء، وهم من الشياطين".

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب".

=

=

عن الحسن بن يحيى الخُشَني، قال: ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال: فحدثته أبا سليمان - يعني: الداراني، رحمة الله عليه- فبكى ثم قال: ويحك. فكيف به لو جمع هذا كله عليه، فجعل القيد في رجليه، والغُلّ في يديه والسلسلة في عنقه، ثم أدخل النار وأدخل المغار؟!".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار} إضراب على إضرابهم، فأولئك: قالوا: {بل كنتم مجرمين} إضراب عن قولهم: {لولا أنتم لكنا مؤمنين} فأضربوا عنهم، يعني: قابلوهم بإضراب آخر، قالوا: {بل مكر الليل والنهار} أي: مكر فيهما منكم بنا، مكر الليل والنهار، و (مكر) هنا مضاف إلى الليل، على تقدير (في)؛ لأن الإضافة قد تكون على تقدير (من)، وعلى تقدير اللام، وعلى تقدير (في)، فإن كان الأول من الثاني؛ يعني بأن كان الثاني جنسا للأول، فهو على تقدير (من)، وإذا كان الثاني ظرفا للأول فهو على تقدير (في)، وما عدا ذلك فعلى تقدير اللام.

وتكون الإضافة على تقدير (من) إذا كان الثاني جنسا للأول، وعلى تقدير (في) إذا كان الثاني ظرفا للأول، وعلى تقدير اللام فيما عدا ذلك، نحو: خاتم حديد، على تقدير (من)، ومثاله: ثوب خز، على تقدير (من).

وعلى تقدير (في): مكر الليل، أي: مكر في الليل.

ما هو المكر؟

قالوا في تعريف المكر: إنه التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالمقابل؛ يعني: بالذي قابلك، أو إن شئت فقل: بالخصم. و (مكر الليل) أضيف المكر هنا إلى

=

=

الليل؛ لأنه ظرف، والنهار كذلك.

أما من أي جهة وقع هذا المكر فهو من المستكبرين؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مكر فيهما منكم بنا] يعني: أنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا، تأتون إلينا تخدعوننا تقولون -مثلا-: محمد فيه كذا، ومحمد فيه كذا، ومحمد لن ينتصر، ومحمد خالف آباءه، ومحمد سب آلهتنا؛ وما أشبه ذلك، وهكذا عادة الرؤساء بالنسبة للأتباع يأتون بهم على سبيل المكر والخداع؛ وزعيمهم في ذلك إبليس حيث قاسم آدم وحواء؛ قاسمهما: إني لكما من الناصحين، يعني: أقسم لكل واحد منهما، قال سبحانه وتعالى: {وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٢١) فدلاهما بغرور} [الأعراف: ٢١ - ٢٢]، فهؤلاء الكفار المستكبرون السادة والرؤساء لا يمكن أن يخدعوا هؤلاء إلا بمكر؛ لأن الحق مقبول لدى الفطر، ولا يمكن صد هذه الفطرة إلا بخداع ومكر.

فلهذا انتبهوا لدعوة أهل الشر والفساد فإنهم لن يأتوا إليكم ويقولوا -مثلا-: ازنوا! اشربوا الخمر! ولكنهم يخادعون، ويأتون بأسباب الزنا وطرق الزنا بسبيل التقدم والحرية والمساواة وما أشبه ذلك؛ فمثلا: خلوا المرأة تخرج للسوق متبرجة، وخلها تشارك الإنسان في العمل، ودعوها تشاركه في الدراسة ودعوها تكون إلى جنبه في الكرسي، فأنتم إذا جعلتم المرأة تخالط الرجل وتمشي معه زالت الغريزة الجنسية في نفوس كل واحد منهما، لأنه سيكون الأمر عاديا بينهما، فجلوسه لجنب امرأة كجلوسه بجانب ذكر، لكن إذا حبستم ذلك وقلتم: إن الرجال هنا والنساء هنا. اشتاقت نفوس كل واحد منهم إلى الآخر، وحينئذ يزداد طلب الرجل للمرأة والمرأة للرجل!!

=

=

وانظر كيف هذا الخداع؟! وما علموا أنهم إذا اختلطوا حصل الزنا، بل لمجرد الاختلاط تحصل مفسدة وما حصلت الحوامل سفاحا والعاهرات والفاجرات إلا بالاختلاط، لكن هؤلاء الدعاة إلى الشر يمكرون بالناس؛ لأنهم لو أتوا بالبشع على وجهه هكذا نفرت منه النفوس، ولا قبلته، لكن يأتون بصيغة المكر والخداع والمبررات الفاسدة حتى يقبله ضعفاء النفوس، ومن ليس عندهم نظر عميق.

فالسطحيون يقبلون مثل هذا الغرور، ولكن المتعمقين في النظر يرفضون هذا رفضا باتا، ويقولون: إن تلبس هؤلاء بالإصلاح ما هو إلا خداع ومكر؛ هذا معنى قوله: {بل مكر الليل والنهار}.

ففي هذا من الفوائد: دليل أن الرؤساء يدعون ليلا ونهارا لا يسأمون لباطلهم وصد الناس عن دين الله ﷻ، وأهل الخير نائمون إلا من رحم الله -لكن غالب دعاة الخير مع الأسف نائمون، وليس عندهم اليقظة أيضا- فليس عندهم اليقظة لمكر هؤلاء الماكرين الخادعين، يأخذون بالظاهر، ولا يعلمون أن هؤلاء الخبثاء شر من الذين يتظاهرون بالسوء؛ ولهذا قال الله في المنافقين: {هم العدو فاحذرهم} [المنافقون: ٤]، وأتى بالجملة المفيدة للحصر {هم العدو}، وقد تقدم أنه إذا عرف الركنان في الجملة الخبرية صارت دالة على الحصر. نسأل الله تعالى لنا ولكم العافية والسلامة.

وقوله تعالى: {بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا}: {إذ} هذه ظرف بمعنى: وقت؛ يعني: وقت أمركم إيانا تأمروننا، وانظر إلى قوله تعالى: {تأمروننا} كيف يفهم بأن هؤلاء الذين استكبروا وهم الرؤساء ليسوا يشيرون عليهم إشارة، وإنما

=

=

يأمرونهم أمرا؛ لأنهم يعتقدون أن لهم السلطة عليهم، وفرق بين الأمر المقتضى لاستعلاء الآمر ومعاقبة المأمور إذا خالف وبين المشورة؛ لأن المشير ليس يأمر أمرا، ولكنه يعرض الشيء على سبيل التزيين لصاحبه، أما أن يأمره أمرا فلا.

وهنا قال تعالى: {إذ تأمروننا أن نكفر بالله} نسأل الله تعالى العافية! هذا من أشد المنكر أن يأمر الإنسان غيره بالكفر {أن نكفر بالله}، والكفر بالله تعالى يدور على شيئين: تكذيب بالخبر، واستكبار عن الطلب، فالكفر يدور على هذين الأمرين: إما تكذيب بالخبر، وإما استكبار عن الطلب، يعني: ترك الأمر، وفعل النهي.

ومن ذلك التكذيب بالخبر إنكار الله تعالى بالكلية بأن لا يصدق الإنسان بوجود الله ﷻ أو لا يصدق بربوبيته أو بألوهيته أو بأسمائه وصفاته.

وقوله تعالى: {ونجعل له أندادا} أي: [شركاء] {ونجعل له أندادا} الأنداد جمع ند، والند هو النظير، وجعل الأنداد لله تعالى شرك؛ ولهذا فسر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأنداد بأنه الشركاء، وفي قوله تعالى: {ونجعل له أندادا} دليل على أنهم لم يكفروا بالله، أي: بوجوده، لكن كفروا بحقوقه؛ لأن لازم جعل الأنداد: أن يكون هناك شيء موجود له ند.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وأسروا} أي: الفريقان {الندامة} على ترك الإيمان به] {وأسروا الندامة} فسرها بعض العلماء بـ (أظهروا) فمعنى {وأسروا}: أظهروا سرهم في الندامة، وفسرها آخرون بـ (أخفوا) الندامة؛ أما الذين فسروا أسروا بـ (أخفوا) فظاهر جدا؛ لأننا نعرف جميعا أن الإسرار بمعنى الإخفاء؛ لقوله تعالى: {وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية} [الرعد: ٢٢]، وأما من فسره بـ (أظهروا)

=

=

فقالوا: إن (أسر) من أفعال الأضداد؛ لأن في اللغة العربية أفعالا تدل على المعنى وضده، تسمى الأضداد.

وقد ألف علماء اللغة العربية بذلك كتبا سموها (الأضداد في اللغة)، يأتون بالكلمة ويبينون معناها الذي يتضمن الشيء وضده، ومنه قوله تعالى: {والليل إذا عسعس} [التكوير: ١٧] قال بعضهم: معناها: (أدبر)، وقال آخرون: معناه: (أقبل)، ومعلوم أن (أدبر) و (أقبل) ضدان.

وأيهما أقرب إلى الصواب في هذه الآية: (أسر) بمعنى: (أخفى) أو (أسر) بمعنى: (أظهر)؟

الجواب: بمعنى: (أخفى)، ولا يمكن أن نجمع بين القولين إلا إذا نزلناهما على اختلاف حالين، أو على اختلاف شخصين، على اختلاف حالين: بمعنى أنهم أحيانا يخفون وأحيانا يعلنون، أو باختلاف شخصين: بمعنى أن بعضهم يسر وبعضهم يعلن، أما أن نحملها على المعنيين في آن واحد من شخص واحد فهذا لا يمكن؛ للتضاد -جمع بين ضدين- وهذا مستحيل؛ وللنظر أيهما أولى بالصواب:

قوله تعالى: {وأسروا الندامة} يعني: أخفوها حين رأوا العذاب؛ وأخفوها حين رأوا العذاب لأجل أن لا يعاب عليهم فيظهر للناس أنهم نادمون على ما صنعوا وهذا دائما يقع حتى في أمور الدنيا إذا عرف الإنسان أنه أخطأ في تصرف ما: تجده يخفي خطأه ولا يظهر أنه نادم، ولا أنه مكترث بهذا الشيء، قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع فبعض الناس يتحمل ولا يري غيره أنه نادم، أو أنه ضجر، أو ما أشبه ذلك.

=

ويقال: إن رجلا عاد شخصا مريضا، وكان هذا المريض مدنفا أي: مرضه شديد، فقال له: كيف حالك؟ فقال: الحمد لله طيب، وأنا -يفتخر بنفسه كما قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم ... إني لريب الدهر لا أتضعضع

فقال له الذي عاده: ولكن:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

يعني: لو تجلدت وقبلت الموت لا ينفع ذلك.

والشاهد: أن الذين قالوا: (أسروا) بمعنى: (أخفوا). قا لوا ذلك لئلا يعابوا على ما صنعوا.

أما الذين قالوا: (أسروا) بمعنى (أظهروا). فقالوا: إن الآيات كثيرة تدل على ندمهم، وأنهم أظهروا ذلك وندموا على ما صنعوا، ولكن {ولات حين مناص} [ص: ٣].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {وأسروا الندامة} على ترك الإيمان به] الذي أسرهم الفريقان - كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: الذين استكبروا والذين استضعفوا.

وقوله ﷻ: {لما رأوا العذاب}: {لما} بمعنى (حين)، وتقدم قريبا أن {لما} تأتي في اللغة العربية على أربعة أوجه.

والرؤية هنا بصرية، أي: عاينوه بأعينهم وأسروا الندامة، لكن والله لا ينفع الندم حينذاك، فالندم حين يرى الإنسان العذاب لا ينفعه، إنما ينفع قبل أن يرى العذاب، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أخفاها كل عن فريقه مخافة التعيير] واضح أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فسر (أسروا) بمعنى: (أخفوا).

=

وقولـه رَحِمَهُ اللهُ: {وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا}؛ {وجعلنا} بمعنى: (صيرنا) أي: صيرنا الأغلال.

والأغلال جمع غل، وهو ربط اليدين بعضها إلى بعض، وتعليقهما في العنق، نسال الله العافية! ولهذا قال: {وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا}، وأعناق جمع عنق وهي الرقبة.

وقوله: {في أعناق الذين كفروا}؛ هل هم الذين استكبروا أو الذين استضعفوا؟

الجواب: كلا الفريقين؛ لأن هؤلاء كفار دعاة إلى الضلال، وأولئك كفار مقلدون بعد أن جاءهم الحق؛ ولهذا قال: {أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم} فالكل كافر، فجعل الله تعالى الأغلال في عنق هؤلاء وهؤلاء، فهل نفعت أحدا منهم محاجته؟ أبدا، وإنما هو من أجل إظهار العداوة بينهم، كما قال الله تبارك وتعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال لقومه: {ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا} [العنكبوت: ٢٥]؛ قال عَزَّ وَجَلَّ: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها} [الأعراف: ٣٨]، فهذه حال أهل النار يوم القيامة أعداء، ولعن وسب وشتم.

ولكن المتقون -اللهم اجعلنا وإياكم منهم- على العكس من ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين} [الحجر: ٤٧].

وقال تعالى: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} [الزخرف: ٦٧].

وقال سبحانه وتعالى: {وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما

=

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤).

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَة مِنْ نَذِير إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا} رؤساؤها المتنعمون {إنا بما

=

كانوا يعملون}، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{هل} ما]، يعني: أنها بمعنى: (ما)، أي: أن الاستفهام هنا بمعنى النفي: هل يجزون إلا جزاء ما كانوا يعملون، يعني: هل يكافؤون إلا على ما عملوا فقط، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يظلم أحدا.

فالاستفهام هنا بمعنى النفي، وقد تقدم: أن النفي إذا صيغ بصيغة الاستفهام كان مشربا معنى التحدي، يعني: أنه لا يمكن أبدا أن يجزي أحدا إلا ما عمل.

وهنا قال سبحانه وتعالى: {إلا ما كانوا يعملون}، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أضمر محذوفا قال: {إلا} جزاء {ما كانوا يعملون}]، وما في القرآن بلا شك أبلغ وأشد؛ لأنه إذا قال: إلا جزاء ما كانوا يعملون؛ فإنه قد يقول قائل: إن الجزاء ربما ينقص، وربما يزيد، لكن إذا قال: {إلا ما كانوا يعملون} كأنهم يجزون بالعمل نفسه؛ كان ذلك أبلغ في امتناع الزيادة أو النقص، فما في القرآن أوضح، يعني: أبلغ.

أما وجه كون المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [{إلا} جزاء]، فإنه يقول: إن الذي يكون يوم القيامة ليس هو العمل، ولكنه جزاء العمل، ولكننا نقول: إن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ أفصح وأبلغ، يعني: كأن العمل نفسه هو الذي يجزون به، فيكون ذلك أبلغ في العدل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: {إلا ما كانوا يعملون} في الدنيا] المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: [في الدنيا، أفادنا أن (كان) هنا للماضي المحقق، وقد تقدم أن (كان) يراد بها مجرد اتصاف اسمها بخبرها، مثل قوله تعالى: {وكان الله غفورا رحيما}، ليس المعنى: كان فيما مضى، بل المعنى أنه لم يزل ولا يزال كذلك.

أرسلتم به كافرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ} [سبأ: ٣٤].

قال الطبري: يقول:"وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرًا ينذيرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم إيانا".

قوله تعالى: {إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [سبأ: ٣٤]، أي:"إلا قال المنغمسون في اللذات والشهوات من أهلها: إنَّا بالذي جئتم به -أيها الرسل- جاحدون".

قال الطبري: يقول:"إلا قال كبراؤها ورؤساؤها في الضلالة كما قال قوم فرعون من المشركين له: إنَّا بما أرسلتم به من النذارة، وبعثتم به من توحيد الله، والبراءة من الآلهة والأنداد، كافرون".

قال مقاتل:"{مترفوها}: أغنياؤها وجبابرتها".

قال قتادة:"هم رؤوسهم وقادتهم في الشر".

قال ابن كثير:"هم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة".

قال الزمخشري:"«مترفوها»: الذين أترفتهم النعمة، أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه".

قال يحيى:"«المترفون»: أهل السعة والنعمة، [قالوا]: {إنا بما أرسلتم به كافرون}، فاتبعهم على ذلك السفلة، فجحدوا كلهم".

عن أبي رَزِين قال: "كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. قال: فترك تجارته ثم =

=

أتى صاحبه فقال: دلني عليه - قال: وكان يقرأ الكتب، أو بعض الكتب - قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: "إلى كذا وكذا". قال: أشهد أنك رسول الله. قال: "وما علمك بذلك؟ " قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم. قال: فنزلت هذه الآية: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} الآيات، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله قد أنزل تصديق ما قلت»".

قال ابن كثير:"وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك: أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل".

قال العثيمين: قول الله ﷻ: {وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [رؤساؤها المنعمون] {إنا بما أرسلتم به كافرون}.

قوله تعالى: {وما أرسلنا في قرية} المراد بالقرية البلد سواء كان كبيرا أم صغيرا؛ لأنه مأخوذ من الجمع، فالقرية سميت بقرية؛ لأنها تجمع الناس، وإن كان العرف عندنا الآن أن القرية هي البلد الصغير، لكن هذا عرف حادث، والقرية في اللغة تشمل البلد الكبير أو الصغير؛ قال الله سبحانه وتعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} [محمد: ١٣]، مع أن مكة أم القرى، وسماها الله تعالى قرية.

وقوله تعالى: {من نذير}، المراد بالنذير النبي، {نذير} نكرة في سياق النفي، وهذا من باب تأكيد العموم.

وقوله سبحانه وتعالى: {إلا قال مترفوها}، وبين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الاتراف

=

وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) .

=

بمعنى: التنعيم، يعني: إلا من نعموا في الدنيا كذا وكذا، والترف سبب للتلف، قال الله ﷻ: {وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١) في سموم وحميم (٤٢) وظل من يحموم (٤٣) لا بارد ولا كريم (٤٤) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين} [الواقعة: ٤١ – ٤٥].

وانظر إلى الترف ماذا يسبب؟ يسبب الكبرياء، ورد الحق، وعدم الإيمان بالرسل.

قال تعالى: {إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون} {بما} أي: بالذي.

قوله تعالى: {إنا بما أرسلتم به كافرون} الخطاب في {أرسلتم} للرسل الذي عبر عنهم بقوله فيما سبق: {من نذير}.

وقوله سبحانه وتعالى: {بما أرسلتم به كافرون} عندنا حرفا جر {بما أرسلتم} و {به}، ويتعلق الجار الأول {بما أرسلتم} بقوله تعالى: {كافرون}، وقدم عليه للحصر، كأنهم قالوا: لا نكفر بشيء إلا بما أرسلتم به، وهذا من المبالغة في العدوان، نسأل الله تعالى العافية!.

أما الثاني {به} فمتعلق بـ (أرسل)، وقدم المتعلق على المتعلق في {بما أرسلتم به كافرون}؛ لسببين: معنوي ولفظي: المعنوي: إفادة الحصر، واللفظي مراعاة فواصل الآيات؛ لأننا نرى أن الله ﷻ يأتي بالأشياء التي فيها مراعاة الفواصل حتى، وإن لزم أن يقدم المؤخر ويؤخر المقدم، ففي سوره طه: {قالوا آمنا برب هارون وموسى} [طه: ٧٠]، مع أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام، لكن أخر مراعاة لفواصل الآيات.

{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَر أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا} مِمَّنْ آمَنَ {وما نحن بمعذبين}[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا} [سبأ: ٣٥].

قال الطبري: يقول:"وقال أهل الأستكبار على الله من كل قرية أرسلنا فيها نذيرًا لأنبيائنا ورسلنا: نحن أكثر أموالا وأولادًا".

قال مقاتل:"وقالوا أيضا لفقراء المسلمين: أهؤلاء خير منا أم هم أولى بالله منا {نحن أكثر أموالا وأولادا}".

قال يحيى:"قالوا ذلك للأنبياء والمؤمنين يعيرونهم بالفقر وبقلة المال".

قال ابن كثير:"أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال: {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر: ١١ - ١٧]، وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين: أنه كان ذا مال وولد وثمر، ثم لم تُغن عنه شيئا، بل سُلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة".

قال الزمخشري:"هذه تسلية لرسول الله ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخرة وزخارفها، والتكبر بذلك على المؤمنين، والاستهانة بهم من أجله، وقولهم: {أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ =

=

خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [مريم: ٧٣]، وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة وكادوه بنحو ما كادوه به".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [سبأ: ٣٥]، أي:"وما نحن بمعذَّبين في الدنيا ولا في الآخرة".

قال الطبري: يقول:"وما نحن في الآخرة بمعذبين، لأن الله لو لم يكن راضيًا ما نحن عليه من الملة والعمل لم يخولنا الأموال والأولاد، ولم يبسط لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاه أعمالنا، وآثرنا بما آثرنا على غيرنا لفضلنا، وزلفة لنا عنده".

قال الزمخشري:"قاسوا أمر الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم، فعلى قياسهم ذلك قالوا: {وما نحن بمعذبين}، أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم، نظرا إلى أحوالهم في الدنيا".

قال العثيمين: قوله ﷻ: {وقالوا} يعني: المترفون {نحن أكثر أموالا وأولادا} [ممن آمن] {وما نحن بمعذبين}، افتخروا على هؤلاء؛ فقالوا: نحن أكثر أموالا وأولادا وكثرة أموالنا وأولادنا -على زعمهم- تدل على رضا الله تعالى عنا إذ لو لم يرض عنا ما رزقنا الأموال والأولاد.

وهذه الدعوى سيبين الله تعالى بطلانها، لكن هم زعموا أن الله سبحانه وتعالى لم ينعم عليهم بهذه الأموال ولا الأولاد إلا لأنهم على حق.

وقوله تعالى: {وما نحن بمعذبين} يحتمل نفيهم للعذاب يحتمل أمرين:

أحدهما: أنهم يدعون أنهم إذا بعثوا لن يعذبوا وإن كانوا يقرون بأصل العذاب.

=

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦).

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء} امْتِحَانًا {وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ لِمَنْ يَشَاء ابْتِلَاء {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} أَيْ كُفَّار مَكَّة {لَا يعلمون} ذلك[1].

=

الثاني: يحتمل أن: نفيهم للعذاب يراد به نفي البعث، يعني: لن نبعث فنعذب كما زعمتم أيها الرسل.

فهاهنا احتمالان؛ الأول: يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لن يعذبنا؛ لأنه أنعم علينا بالأموال والأولاد، والثاني: ينكرون البعث، يعني: {وما نحن بمعذبين}، لأننا لن نبعث، هذا واحد، فما نحن بمعذبين لأن الله تعالى قد رضي عنا فلا يعذبنا.

والواقع أنهم ينكرون البعث؛ لأن من آمن بالبعث لزم من إيمانه أن يؤمن بالرسل ويلتزم بالشريعة.

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [سبأ: ٣٦].

قال الطبري:"يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد {إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ} من المعاش والرياش في الدنيا {لِمَنْ يَشَاءُ} من خلقه {وَيَقْدِرُ} فيضيق على من يشاء لا لمحبة فيمن يبسط له ذلك ولا خير فيه ولا زلفة له استحق بها منه، ولا لبغض منه لمن قدر عليه ذلك ولا مقت، ولكنه يفعل ذلك محنة لعباده وابتلاء".

قال ابن كثير:"أي: يعطي المال لمن يحب ومَنْ لا يحب، فيفقر مَنْ يشاء ويغني مَنْ يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة الدامغة القاطعة".

عن الحسن، في قوله: " {إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر}، قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خير له أفقره".

=

=

قال الزمخشري:"قد أبطل الله تعالى حسبانهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كما يشاء".

وقرئ: «يقدر»، بالتشديد والتخفيف.

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٣٦]، أي:"ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك اختبار لعباده؛ لأنهم لا يتأملون".

قال الطبري: يقول:"وأكثر الناس لا يعلمون أن الله يفعل ذلك اختبارًا لعباده ولكنهم يظنون أن ذلك منه محبة لمن بسط له ومقت لمن قدر عليه".

قال مقاتل:"كفار مكة {لا يعلمون} أن البسط والقتر بيد الله- ﷻ-".

قال يحيى:"يعني: جماعة المشركين لا يعلمون".

قال العثيمين: قال الله سبحانه وتعالى آمرا رسوله ﷺ أن يرد عليهم: {قل إن ربي يبسط الرزق}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [يوسعه {لمن يشاء} امتحانا {ويقدر} يضيقه لمن يشاء ابتلاء {ولكن أكثر الناس} أي: كفار مكة {لا يعلمون} ذلك] رد على هؤلاء الذين قالوا: {نحن أكثر أموالا وأولادا} يعني: فنحن الذين رضي الله سبحانه وتعالى عنا، أما أنتم ففقراء، وفقركم يدل على أن الله تعالى لن يرضى عنكم.

والجواب: {قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر}، يبسط يعني: يوسع لمن يشاء، أي: من مؤمن وكافر، فهناك كفار قد ضيق الله تعالى عليهم الرزق، وهناك مؤمنون قد وسع الله عليهم الرزق، فالرزق بيد الله سبحانه وتعالى، ولكن قوله تعالى: {لمن يشاء} تقدم أن الله سبحانه وتعالى إذا قيد فعله بمشيئته فهو مربوط بحكمته، يعني: من يشاء ممن تقتضي الحكمة أن يوسع له، ويقدر: يضيق ممن

=

وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧).

{وَمَا أَمْوَالكُمْ وَلَا أَوْلَادكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبكُمْ عِنْدنَا زُلْفَى} قُرْبَى أَيْ تَقْرِيبًا {إلَّا} لَكِنْ {مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْف بِمَا عَمِلُوا} أَيْ جَزَاء الْعَمَل الْحَسَنَة مَثَلًا بِعَشْرٍ فَأَكْثَر {وَهُمْ فِي الْغُرُفَات} مِنْ الْجَنَّة {آمنون} من الموت وغيره وفي قراءة الغرفة بمعنى الجمع[1].

=

تقتضي الحكمة أن يضيق عليه.

ولهذا يروى أن الله سبحانه وتعالى قال في الحديث القدسي: "إن من عبادي من لو أغنيته لأفسده الغنى، وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر"، فالغني ربما يطغى بغناه ويستكثر، والفقير ربما يقنط من رحمة الله ويستحسر ويستبعد الفرج، فيكون الأول فاسدا بطغيانه، والثاني فاسدا بيأسه وقنوطه.

وقوله تعالى: {إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء} الرزق بمعنى: العطاء.

وقوله: {ولكن أكثر الناس} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [كفار مكة]، وهذا كما سبق من قصوره في التفسير، والواجب أن نقول: إن المراد بـ {الناس} جميع الناس؛ أهل مكة وغيرهم.

وقوله تعالى: {ولكن أكثر الناس لا يعلمون}، لا يعلمون أن الأمر بيد الله تعالى من حيث توسيع الرزق وتضييقه.

وقوله سبحانه وتعالى: {أكثر الناس} ولم يقل: كل الناس؛ لأن المؤمنين يعلمون ما لله سبحانه وتعالى من الحكم في بسط الرزق وتقديره.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى} [سبأ: ٣٧]،
=

=

أي:"وليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا قربى، وترفع درجاتكم".

قال الطبري: يقول:"وما أموالكم التي تفتخرون بها أيها القوم على الناس ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم، بالتي تقربكم منَّا قربة".

قال يحيى:"يقوله للمشركين، و «الزلفى»: القرابة".

قال ابن كثير:"أي: ليست هذه دليلا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم".

عن مجاهد، قوله: " {عِنْدَنَا زُلْفَى}، قال: قربى".

قال ابن زيد:"قالوا: نحن أكثر أموالا وأولادًا، فأخبرهم الله أنه ليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، {إلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، قال: وهذا قول المشركين لرسول الله ﷺ وأصحابه، قالوا: لو لم يكن الله عنا راضيًا لم يعطنا هذا، كما قال قارون: لولا أن الله رضِيَ بي وبحالي ما أعطاني هذا، قال: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُون...} إلى آخر الآية".

قال قتادة:"لا يعتبر الناس بكثرة المال والولد، وإن الكافر قد يعطى المال، وربما حبس عن المؤمن. وقال جل ثناؤه: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى}".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سبأ: ٣٧]، أي:"لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقربانهم منى".

قال الزمخشري:"المعنى: أن الأموال لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، والأولاد لا تقرب أحدا إلا من علمهم الخير وفقههم في

=

=

الدين ورشحهم للصلاح والطاعة".

قال السعدي: أي:"وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان".

قال يحيى:"أي: ليس القربة عندنا إلا لمن آمن {وعمل صالحا}".

قال الحسن: "من أدى الفراض فقد استكمل الإيمان، ومن لم يؤد الفرائض فلم يستكمل الإيمان".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سبأ: ٣٧]، قولان:

أحدهما: أن هذا استثناء منقطع، ومعناه: أي وليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا قربى، وترفع درجاتكم، لكن من آمن بالله وعمل صالحا فهؤلاء لهم ثواب الضعف من الحسنات. يدل عليه تفسير ابن عباس.

عن ابن عباس،: {إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، قال:"يريد أن عمله وإيمانه [يقر بأنه] مني".

الثاني: أن معنى الآية {إلا من آمن وعمل صالحا} فإنه تقربهم أموالهم وأولادهم بطاعتهم الله في ذلك وأدائهم فيه حقه إلى الله زلفى دون أهل الكفر بالله. وهذا قول ابن زيد، واختيار الزجاج.

قال الزجاج:"أي: ما تقرب الأموال إلا من آمن وعمل بها في طاعة الله".

قال ابن زيد، قوله:"{إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} قال: لم تضرهم أموالهم ولا أولادهم في الدنيا للمؤمنين، وقرأ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}، فالحسنى: الجنة، والزيادة: ما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به، كما حاسب الآخرين".

قال السمعاني: الثاني" أظهر القولين".

=

=

قال سعيد بن جبير: "المعنى: إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده في الدنيا".

وروى ليث وهو ضعيف عن طاوس أنه كان يقول: "اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنبني المال والولد، فإني سمعت فيما أوحيت: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} [سبأ: ٣٧]".

قال القرطبي:"قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم: جنبني المال والولد المطغيين أو اللذين لا خير فيهما، فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعم هذا!".

قال الغزي:"التكاثر بكثرة المال والولد هو جهل محض واغترار صرف ، وأكثر الأغبياء من الأغنياء يحسبون أن كثرة المال والولد دليل القرب والخيرية عند الله، وهذا غاية الجهل، وهو خلاف ما في كتاب الله تعالى، ولقد كان قارون يعتقد ذلك في ماله وما خول فيه. ألا ترى إلى قوله: {إنما أوتيته على علم عندي} [القصص: ٧٨]؟، فغلط المتخولين في الدُّنيا من أربعة أوجه:

أولها: أنهم يعتقدون أنها كرامة، وهي إهانة.

وثانيها: أنهم يستدلون بها على القرب والخيرية، وهي دليل الطرد والشرية.

وثالثها: أنهم يستدلون بحصولها في هذه الدار على حصولها في دار القرار وكأنهم أمِنُوا من أن يقال لهم هناك: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} [الأحقاف: ٢٠].

ورابعها: أنهم يعتقدون أنها منحة، والحال أنها محنة وفتنة كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥].

=

=

وإنما قدَّم الأموال في هذه الآية ، وفي الآيات السَّابقة ونحوها لأن المال يشترك فيه عموم الناس في الميل إليه، ويكون سببًا في تحصيل الأهل والمال؛ إذ بالمال تحصِّل النساء بالبيع أو النكاح، والولد لا يحصل إلا بالحليلة زوجة أو أَمَة. وأما قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ} [آل عمران: ١٤] فإنه قدَّم النساء والبنين لأنَّ التلذذ بهما لذاتهما، أمَّا النِّساء فبالاستمتاع، وأما البنون فبوجودهم صغارًا وبالاشتغال بهم والاستعانة بهم كبارًا، وأما التَّلذذ بالأموال فإنما هو من حيث التوصل بها إلى التلذذ بالنِّساء والبنين؛ فإن كثرة المال تضاعف التلذذ بالنساء والبنين؛ إذ أيهما وافقهما فيما يطلبانه منه كانوا أطوع له، وكلما كانوا أطوع له تضاعف تلذذه بهم. ولما كان ما يحصل للعبد من الفتنة وعدم القربة وما هو مغرم به من التكاثر وعدم الإغناء المشار إليه بقوله تعالى: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا} [آل عمران: ١٠] في المال أبلغَ وأكثرَ منها في الأولاد قُدِّمَتِ الأموال".

قوله تعالى: {فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا} [سبأ: ٣٧]، أي:"فهؤلاء لهم ثواب الضعف من الحسنات".

قال الطبري:"يقول: فهؤلاء لهم من الله على أعمالهم الصالحة الضعف من الثواب، بالواحدة عشر".

قال ابن زيد:"بأعمالهم الواحد عشر، وفي سبيل الله بالواحد سبعمائة".

قال ابن عباس: "يريد يضعف الله لهم حسناتهم".

عن مجاهد:"{جَزاءُ الضِّعْفِ}، قال: تضعيف الحسنة".

قال السمعاني:"«المضاعفة»: هو أنه يجزي بالواحد عشرا إلى سبعمائة".

=

=

قال ابن قتيبة:"لم يُرد فيما يَرى أهلُ النظر -والله أعلم- أنهم يُجازون على الواحد بواحدٍ مثلِه ولا اثنَيْن. وكيف يكون هذا واللهُ يقول: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} وَ {خَيْرٌ مِنْهَا}".

قال الزجاج:"«الضعف» -ههنا- يحتاج إلى تفسير، ولا أعلم أحدا فسره تفسيرا بينا. و «جزاء الضعف» -ههنا- عشر حسنات، تأويله: فأولئك لهم جزاء الضعف الذي أعلمناكم مقداره، وهو قوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها}".

وبهذه الآية استدل من فضل الغنى على الفقر. وقال محمد بن كعب: "أن المؤمن إذا كان غنيا تقيا آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية".

قوله تعالى: {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: ٣٧]، أي:"وهم في أعالي الجنة آمنون من العذاب والموت والأحزان".

قال الطبري:"يقول: وهم في غرفات الجنات آمنون من عذاب الله".

قال يحيى:"يعني: غرف الجنة، {آمنون} من النار، ومن الموت، ومن الخروج منها، ومن الأحزان ومن الأسقام".

قال الضحاك:"الغرفة: الجنة" وروى عن سعيد بن جبير وأبي جعفر محمد بن علي والسدي مثل ذلك.

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {وما أموالكم}: (ما) نافية وهي حجازية؛ لأن (أموال) اسمها، و {بالتي} خبرها.

إذن: فالمبتدأ والخبر موجودان، فتكون حجازية، والباء في قوله ﷻ: {بالتي} زائدة لفظا لا معنى، وهي خبر (ما)، أي: ما أموالكم أيها المفتخرون بها حيث

=

=

قلتم: {نحن أكثر أموالا وأولادا} وأموالكم؛ ما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى.

وما الذي يقرب عند الله تعالى؟

الجواب: الأعمال الصالحة، أما الأموال فإنها قد تكون ضررا على الإنسان، فليست هي التي تقرب إلى الله تعالى، فمجرد المال لا يقرب إلى الله ﷻ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {زلفى} قربى أي: تقريبا]، فأفادنا بهذا التقرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن {زلفى} مفعول مطلق لـ (تقرب)؛ لأن التقريب بمعنى: الزلفى، فهو إذن: مفعول مطلق، ولا نقول: إنه مصدر؛ لأنه مخالف لعامله في الاشتقاق فـ (تقرب) من قرب، و (زلفى) من ازدلف بمعنى قرب، فالمعنى: أن هذه الأموال والأولاد لا تقربكم تقريبا إلى الله ﷻ، ويحتمل أن المعنى: {بالتي تقربكم} أي: تدنيكم منا، والمعنى من حيث العموم سواء بالتي تقربكم عندنا زلفى، لكن يختلف الإعراب، فإنه على المعنى الثاني تكون {زلفى} مفعولا به لا مفعولا مطلقا.

قوله تعالى: {إلا من آمن} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {إلا} لكن] إشارة إلى أن الاستثناء هنا منقطع؛ ووجهه أن الكاف في قوله تعالى: {وما أموالكم ولا أولادكم} تعود على الكافرين؛ ومن آمن وعمل صالحا فليس من الكافرين.

والمستثنى إذا كان من غير جنس المستثنى منه فهو منقطع، فالمنقطع هنا إذا كان الضمير في أموالكم يعود على الكافرين فالاستثناء منقطع قطعا؛ لأن من آمن وعمل صالحا ليس من الكافرين، وإذا جعلنا الخطاب في قوله سبحانه وتعالى: {وما أموالكم} عائدا على جميع الناس المخاطبين صار الاستثناء متصلا.

وقوله سبحانه وتعالى: {إلا من آمن وعمل صالحا} يعني: فإن من آمن وعمل

=

=

صالحا تقربه أمواله وأولاده إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه يعمل فيها بطاعة الله تعالى، فيكتسب المال عن طريق حلال، ويصرفه أيضا في الطرق النافعة، وأولاده كذلك يربيهم ويؤدبهم حتى يكونوا قرة عين له في الحياة وبعد الممات.

وقد ثبت عن النبي ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

إذن: إذا دعا الولد الصالح لأبيه قرب إلى الله ﷻ وصار هذا الدعاء مقربا له.

قال ﷻ: {إلا من آمن وعمل صالحا} الإيمان يكون في القلب، وهي العقيدة و {وعمل صالحا} يكون في الجوارح، و {صالحا} صفة لمصدر محذوف تقديره: عملا صالحا، كما بين الله سبحانه وتعالى ذلك في سورة الفرقان في قوله ﷻ: {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات} [الفرقان: ٧٠].

والعمل الصالح: هو ما كان خالصا لله سبحانه وتعالى، موافقا لشريعة الله ﷻ، فالعمل الذي فيه رياء ليس بصالح؛ لأنه لم يكن خالصا، والعمل الخالص المبتدع ليس بصالح؛ لأنه ليس موافقا لشريعة الله ﷻ.

وقوله ﷻ: {فأولئك لهم جزاء الضعف}: (أولئك) المشار إليه: من آمن وعمل صالحا، وجاء بلفظ الجمع (أولئك) مراعاة للمعنى، أما اللفظ فإنه يقول: {إلا من آمن وعمل صالحا} فاللفظ مفرد، ولكنه عاد إلى {من} باعتبار المعنى، وقد سبق مرارا وتكرارا أنه يجوز في (من) و (ما) وما أشبههما؛ يجوز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ، ففي مراعاة المعنى نأتي بالإشارة أو بالضمير مجموعة، وفي مراعاة اللفظ نأتي به مفردا.

=

=

وربما نأتي مرة بمراعاة اللفظ، ومرة بمراعاة المعنى، ومرة بمراعاة اللفظ في سياق واحد؛ قال الله سبحانه وتعالى: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار} [الطلاق: ١١]، الضمائر هنا روعي فيها: في قوله تعالى: {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار} روعي فيها اللفظ، وفي قوله تعالى: {خالدين فيها أبدا} [الطلاق: ١١] روعي المعنى، وفي قوله ﷻ: {قد أحسن الله له رزقا} [الطلاق: ١١] روعي اللفظ؛ ففي سياق واحد روعي اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

وقوله ﷻ: {فأولئك لهم جزاء الضعف} أي: الجزاء المضاعف: الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله سبحانه وتعالى: {بما عملوا}: (ما) يحتمل أن تكون مصدرية، وأن تكون موصولة، فإن كانت موصولة فعائدها محذوف، والتقدير: بما عملوه، وإن كانت مصدرية فلا حاجة إلى عائد، ويكون التقدير: {بما عملوا}، أي: بعملهم، والباء هنا للسببية؛ لأن النبي ﷺ قال: "لن يدخل أحد الجنة بعمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته"؛ وهنا قال ﷻ: {جزاء الضعف بما عملوا} ولا منافاة؛ لأن الباء في قوله ﷺ: "لن يدخل الجنة أحد بعمله" باء المعاوضة التي هي كقولك: بعت هذا الثوب بدينار.

وأما الباء في قوله ﷻ: {بما عملوا} فهي باء السببية أي: أن الله ﷻ جعل العمل سبب دخول الجنة، ولم يجعل الجنة عوضا عن العمل، بل العمل سببها.

وقوله ﷻ: {وهم في الغرفات آمنون} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{بما عملوا} أي: جزاء العمل الحسنة بعشر أمثالها] الحسنة مثلا بعشر [فأكثر {وهم في الغرفات}

=

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) .

{والذين يسعون في آياتنا} القرآن بالإبطال {معجزين} لنا مقدرين عجزنا وأنهم يفوتوننا {أولئك في العذاب محضرون}[١].

=

من الجنة {آمنون} من الموت وغيره، وفي قراءة (الغرفة)، قراءة سبعية؛ لأن قاعدة المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال: (في قراءة) فهي سبعية، وإذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (قرئ) فهي شاذة، والقراءة هنا: (في الغرفة) و {في الغرفات}، ولكن الغرفة بمعنى: الجمع؛ لأن المفرد المحلى بـ (أل) غير العهدية يفيد العموم، كما في قوله سبحانه وتعالى: {إن الإنسان لفي خسر} [العصر: ٢]، أي: إن كل إنسان، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [بمعنى: الجمع] أي: الغرفة بمعنى: الجمع.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ} [سبأ: ٣٨].

قال الحسن:"يَظُنُّون أنّهم يسبقونا حتى لا نقدر عليهم فنعذبهم".

قال الطبري: يقول:"والذين يعملون في حججنا وآي كتابنا، يبتغون إبطاله ويريدون إطفاء نوره معاونين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ويعجزوننا".

قال البيضاوي: أي:"بالرد والطعن فيها، مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا".

قال البغوي: اي:"{الذين} يعملون في إبطال حجتنا، معاندين يحسبون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا".

قال مقاتل:"يقول: عملوا بالتكذيب بالقرآن مثبطين عن الإيمان بالقرآن".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} [سبأ: ٣٨]، أي:"هؤلاء في عذاب جهنم يوم القيامة، تحضرهم الزبانية، فلا يخرجون منها".

=

=

قال الطبري: "يعني: في عذاب جهنم محضرون يوم القيامة".

قال ابو الليث السمرقندي:"يعني: في النار معذبون".

قال قتادة:""محضرون في العذاب".

قال الكلبي:"{مُحْضَرُونَ} : مدخلون".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون} ؛ لما ذكر جزاء المؤمنين ذكر جزاء غيرهم؛ لأن القرآن مثان، تثنى فيه المعاني فإذا ذكر الثواب ذكر العقاب، وإذا ذكر المؤمن ذكر الكافر، وذلك لئلا تسأم النفس إذا بقيت في موضوع واحد؛ ولأجل أن يكون الإنسان عند تلاوة القرآن دائرا بين الخوف والرجاء، ومعلوم لنا جميعا أن الموضوع إذا كان واحدا فإن النفس تمله وتسأم منه، فإذا نوع صار في ذلك تنشيط لها.

قوله تعالى: {والذين يسعون في آياتنا} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن بالإبطال] يسعون: السعي يطلق على مجرد الحركة، ويطلق على الركض بشدة، ففي قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع} [الجمعة: ٩]، المراد بذلك مطلق الحركة، وليس المراد أن تركض، وإذا قلت: يسعى في الطواف، يسعى بين الصفا والمروة، يسعى بين العلمين.

فالمراد بذلك الركض، هنا {يسعون في آياتنا} يحتمل أن يكون المراد بذلك مطلق الحركة، ويحتمل أن يراد به الحركة بشدة، وهذا الأخير أبلغ؛ لأن هؤلاء يسعون جاهدين بآيات الله سبحانه وتعالى، وقول المصنف: [{يسعون في آياتنا} أي: القرآن] ووجهه: أن الذين كفروا لا ينكرون آيات الله تعالى الكونية، وإنما

=

=

ينكرون آيات الله تعالى الشرعية، على أنهم أحيانا يطلبون آيات كونية تعجيزا للرسول ﷺ كما حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالى: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا} [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

كم آية طلبوها من الآيات الكونية هنا، ومع ذلك قال الله سبحانه وتعالى: {قل سبحان ربي} يعني: تنزيها له أن يبعث رسولا بدون آيات يؤمن على مثلها البشر وما أنا إلا بشر رسول، كما أن الآيات هنا خصها المصنف رَحِمَهُ اللهُ بالآيات الشرعية، وقال: إن المراد بها القرآن.

ويحتمل أن يراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعا، لأن هؤلاء كما يعاجزون في القرآن يعاجزون أيضا في الآيات الكونية، وكأن القرآن آية من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ لاشتماله على ما يعجز عليه البشر، بل إن الله عَزَّ وَجَلَّ تحدى البشر وغيرهم {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} [الإسراء: ٨٨]، وقال سبحانه وتعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين (٥٠) أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} [العنكبوت: ٥٠ - ٥١].

وقوله سبحانه وتعالى: {والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب

=

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩).

{قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده} امْتِحَانًا {وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ {لَهُ} بَعْد الْبَسْط أَوْ لِمَنْ يَشَاء ابْتِلَاء {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْء} فِي الْخَيْر {فَهُوَ يُخْلِفهُ وَهُوَ خَيْر الرَّازِقِينَ} يُقَال كُلّ إنْسَان يَرْزُق عَائِلَته أي من رزق الله[1].

=

محضرون}: {معاجزين} لنا مقدرين عجزنا وأنهم يفوتوننا، و (المعاجز) هو: الطالب لإعجاز غيره فـ (عاجزه) مثل قاتله.

والمعنى: أنهم يعاجزون الله تعالى، أي: يطلبون على زعمهم ما به العجز؛ ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: مقدرين عجزنا وأنهم يفوتوننا، هؤلاء الذين فعلوا ذلك يعاجزون الله سبحانه وتعالى، ويطلبون ما فيه عجزه على زعمهم، ويقولون: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم} [الأنفال: ٣٢]، هذا تعجيز لله سبحانه وتعالى، لكن الله سبحانه وتعالى حكيم لا يجيبهم إلى ما أرادوا، بل ويجعل هذه الأمور حسب ما تقضيه الحكمة، قال الله تعالى: {أولئك في العذاب محضرون} سبق أن هذه الجملة هي خبر الذين يسعون، فخبر المبتدأ الآن جملة خبرية.

وقوله سبحانه وتعالى: {أولئك في العذاب محضرون} أي: محضرون في نفس العذاب، والعذاب بمعنى العقوبة والنكاية، وهذا خبر يراد به التهديد، لا مجرد أن نعلم بأن هؤلاء سيحضرون في العذاب ويعذبون، بل المراد التهديد، والتحذير من صنيعهم.

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} [سبأ: ٣٩].
=

=

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه فيوسعه عليه تكرمة له وغير تكرمة، ويقدر على من يشاء منهم فيضيقه ويقتره إهانة له وغير إهانة، بل محنة واختبارًا".

قال ابن كثير:"أي: بحسب مَا لَه في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيرا، ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدًا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا} [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني مُوَسَّع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح مَنْ أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه الله بما آتاه» ".

عن الحسن، في قوله: " {إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر}، قال: ينظر له، فإن كان الغنى خيرا له أغناه وان كان الفقر خير له أفقره".

قال الفخر الرازي: فيه" إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناء على الوعد، قطعا لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى، فقال هذا النقد غير مختص بكم، فإن كثيرا من الأشقياء مدقعون، وكثير من الأتقياء ممتعون".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} [سبأ: ٣٩]، أي:"ومهما أَعْطَيتم من شيء فيما أمركم به فهو يعوضه لكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب".

قال الطبري:"يقول: وما أنفقتم أيها الناس من نفقة في طاعة الله، فإن الله يخلفها

=

=

عليكم".

قال ابن كثير:"أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب".

قال سعيد بن جبير:"ما كان في غير إسراف ولا تقتير".

في الحديث: يقول الله تعالى: أَنْفق أُنْفق عليك".

وفي الحديث: أن ملكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: "اللهم أعط مُمْسِكا تَلَفًا"، ويقول الآخر: "اللهم أعط منفقا خَلَفًا".

وقال رسول الله ﷺ: "أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إقلالا".

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]، أي:"وهو -سبحانه- خير الرازقين، فاطلبوا الرزق منه وحده، واسعَوا في الأسباب التي أمركم بها".

قال الطبري:"يقول: وهو خير من قيل إنه يرزق ووصف به، وذلك أنه قد يوصف بذلك من دونه فيقال: فلان يرزق أهله وعياله".

قال مكحول: "بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بعدكم زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق». ثم تلا هذه الآية: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} ".

وقال مجاهد: " إذا كان في يد أحدكم ما يقيمه فليقتصد فإن الرزق مقسوم ولا تناول هذه الآية: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} ".

وفي رواية:"لا يتأول أحدكم هذه الآية: {أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ}، يعني: أن يسرف في ماله فينفقه، فإن الرزق مقسوم".

قال العثيمين: قوله {قل} الخطاب للنبي ﷺ، ويجوز أن المراد به كل من يتأتى

=

=

به الخطاب، من يصح توجيه الخطاب إليه، يخاطب هؤلاء الذين يسعون في آيات الله تعالى معاجزين، ويطلبون عجز الله تعالى في ما يدعون.

وقوله سبحانه وتعالى: {قل إن ربي يبسط الرزق}: يوسعه من البسط، وهو التوسعة؛ ولهذا يقال: بسط الكلام، واختصر الكلام، وبسط بمعنى: وسعه وطوله.

قوله سبحانه وتعالى: {الرزق} بمعنى العطاء، {لمن يشاء من عباده} امتحانا، {ويقدر} يضيقه له بعد البسط، أو لمن يشاء ابتلاء.

وقوله تعالى: {لمن يشاء} سبق لنا كثيرا بأن كل فعل علقه الله تعالى بالمشيئة فهو مقرون بالحكمة، مثاله قوله ﷻ: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما} [الإنسان: ٣٠]، بمشيئته ﷻ، فهي تابعة لحكمته، فهو إذا اقتضت حكمته أن يوسع الرزق لأحد وسعه، وإذا اقتضت حكمته أن يضيقه ضيقه.

وقوله سبحانه وتعالى: {من عباده} المراد بالعباد هنا العبودية العامة؛ لأن من يشاهد أن الكافرين والمؤمنين على السواء، منهم من يبسط الله ﷻ له الرزق، ومنهم من يضيقه له، فالمراد بالعباد إذن العبودية العامة، وقد سبق أيضا أن العبودية تنقسم إلى: عامة، وخاصة، فالعامة التي تشمل جميع الخلق، والمراد بها العبودية الكونية، التي قال الله سبحانه وتعالى عنها: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا} [مريم: ٩٣]، وأما الخاصة فهي عبودية الطاعة الشرعية، وهي التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} [الفرقان: ٦٣].

وقوله ﷻ: {من عباده} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امتحانا] يعني: اختبارا يختبره هل

=

=

يشكر أم يكفر، ولهذا قال سليمان عليه السلام: {هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم} [النمل: ٤٠] حين رأى عرش بلقيس حاضرا بين يديه في هذه المدة الوجيزة، وقال تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة} [الأنبياء: ٣٥]، يعني: ابتلاء واختبارا، وكم من إنسان كان في حال الفقر أصلح مما كان بعد الغنى! وكم من إنسان بالعكس إذا كان فقيرا ومسرفا على نفسه فلما أغناه الله تعالى هداه الله عز وجل!.

وقوله تعالى: {يبسط الرزق لمن يشاء} حسب ما تقتضيه الحكمة قال تعالى: {ويقدر له}: {له} هل يعود على المبسوط له أو يعود على من يشاء؟

الجواب: أن المصنف رحمه الله ذكر فيه المعنيين، و (يقدر) أي: يضيق له بعد البسط؛ يعني أنه عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء، ثم يضيق عليهم، ليبلوهم ويعطي النعم، ثم يزيلها امتحانا واختبارا، يمن الله عز وجل على الإنسان بالأولاد فيموتون، وبالمال فيفنى، وهذا تضييق بعد البسط، أو أن المعنى يبسط يقدر له، أي: لمن يشاء لا لهذا الذي كان مبسوطا له الرزق، لأن الله عز وجل يبسط الرزق لقوم ويقدره لآخرين.

وهل هذان المعنيان يتنافيان؟

الجواب: لا، وإذا كانا لا يتنافيان وقد سبق أن القاعدة في التفسير أن المعنيين إذا كانا لا يتنافيان فإن الآية تحمل عليهما جميعا.

وقوله تعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} يقال: إن كل إنسان يرزق عائلته؛ أي: من رزق لله تعالى.

{وما} هذه شرطية، وفعل الشرط {أنفقتم}، وجوابه: {فهو يخلفه}، واقترن

=

=

بالفاء؛ لأنها جملة اسمية، ويقترن جواب الشرط بالفاء في سبعة مواضع، وهي المجموعة في قوله:

اسمية طلبية وبجامد ... وبما وقد وبلن وبالتنفيس

وقوله ﷻ: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} يخلفه أي: يأتي بخلفه، واعلم أن هناك فرقا بين (يخلف) و (يخلف)، فـ(يخلف) يراد به الشيء الذي خلف غيره، قال الله ﷻ عن موسى عليه السلام حين وجه الخلف لهرون عليه السلام: {وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح} [الأعراف: ١٤٢]، أي: صر خلفا عني في قومي، وأما (أخلف) الرباعي فالمراد: أعطى الخلف، فالمخلف معطي الخلف، و (الخالف) الذي خلف غيره، الفرق بين الثلاثي والرباعي، الثلاثي معناه: خلف غيره، والرباعي أعطى الخلف، ومنه الحديث حديث أبي سلمة رضي الله عنه قال: "اخلفني في عقبي"، وحديث أم سلمة رضي الله عنها قالت نفس الشيء قالت: "وأخلف لي خيرا منها"، فاجتمع بالحديث الكلام جميعا، حديث أم سلمة رضي الله عنها: "ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها. إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها" هنا من الرباعي فهو يخلفه، أي: يعطي ما يكون خلفا عنه.

وقوله تعالى: {وما أنفقتم} الإنفاق معناه: بذل المال، والمصنف رحمه الله قيده بقوله: [وما بقي في الخير] وهذا القيد الذي قيده به المصنف رحمه الله دلت عليه آيات متعددة كما قال تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله} [البقرة: ١٩٧]، {وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون} [البقرة: ٢٧٢].

والآيات في هذا كثيرة؛ لأن من أنفق في غير الخير فالخلف غير مضمون له، لكن

=

=

من أنفق في الخير فالخلف مضمون له، ويشمل هذا النفقات الواجبة، كإنفاق الإنسان على زوجته وأمه وأبيه وابنه وبنته وما أشبه ذلك، ويشمل أيضا الإنفاق في الزكاة؛ لأنها هي أم الإنفاقات؛ لأن الإنفاق في الزكاة أحد أركان الإسلام، ويشمل الإنفاق في الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى، ويشمل الإنفاق في نزول الخير كالإحسان إلى الناس وغير ذلك.

وقوله سبحانه وتعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} هل الإخلاف في الكمية أو في الكيفية؟ بمعنى: هل الله ﷻ يعطيك بدلا عنه بالكمية إذا أنفقت عشرة أعطاك عشرة، أو بالكيفية بمعنى: أن الباقي ينزل الله سبحانه وتعالى به البركة حتى يكون مقابلا لما أنفقت مضموما إليه؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين؛ أن الله ﷻ يخلفه، يعطيك خلفا عنه بالكمية، فإذا أنفقت عشرة فتح الله تعالى لك باب الرزق وأعطاك عشرة، أو أنه يكون خلفا في الكيفية فإن أنفقت عشرة من مئة وبقي تسعون فإن هذه التسعين تقوم مقام مئة أو أكثر للبركة التي يحلها الله ﷻ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: "ما نقصت صدقة من مال"، يعني أن الصدقة لا تنقص المال، ولكنها تزيده كما قال الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: {وهو خير الرازقين} و {خير} أصلها: أخير؛ لأنها اسم تفضيل؛ لكنها حذفت الهمزة تخفيفا؛ لكثرة استعمالها، {الرازقين} المعطين، وكيف نقول: "خير الرازقين" مع أن الذي يبسط الرزق ويعطي الرزق هو الله تعالى؟

نقول: لأن غير الله تعالى يرزق؛ لكنه رزق محدود، يقال: رزق عائلته؛ قال الله سبحانه وتعالى: {وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم

=

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠).

{و} اذكر {يَوْم نَحْشُرهُمْ جَمِيعًا} أَيْ الْمُشْرِكِينَ {ثُمَّ نَقُول لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إيَّاكُمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الْأُولَى ياء وإسقاطها {كانوا يعبدون}(١).

=

منه وقولوا لهم قولا معروفا} [النساء: ٨].

فإذن: الرزق يكون من الله تعالى ويكون من غيره، لكنه من الله تعالى شامل عام، ومن غيره ناقص خاص، فالإنسان يكون كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنه يقال: كل إنسان يرزق عائلته. يعني: يعطيها، لكن عطاء الإنسان عائلته أو رزق غير عائلته من رزق الله ﷻ، لولا أن الله تعالى أعطاك ما أعطيت غيرك، فيعود المعنى إلى أن الرزق الله سبحانه وتعالى: {وهو خير الرازقين}.

(١) قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [سبأ: ٤٠]، أي:"واذكر -أيها الرسول- يوم يحشر الله المشركين والمعبودين من دونه من الملائكة".

قال الطبري: يقول:"ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعًا".

قال ابن الجوزي:"يعني: المشركين".

وقال مقاتل:"يعنى: الملائكة ومن عبدها، يجمعهم جميعا في الآخرة".

عن مجاهد:"{ويوم نحشرهم جميعا}، قال: الحشر: الموت".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} [سبأ: ٤٠]، أي:"ثم يقول للملائكة على وجه التوبيخ لمن عبدهم: أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون مِن دوننا؟".

قال الطبري: يقول:"ثم نقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟".

قال مقاتل:"يعني: عن أمركم عبدوكم؟".

=

=

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورة الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول للملائكة: {أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} ؟ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال في سورة الفرقان: {أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [المائدة: ١١٦]".

عن السدي، قوله: {أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون}، قال:"يعني: يطيعون في الشرك".

قال ابن الجوزي:"هذا استفهام تقرير وتوبيخ للعابدين".

قال قتادة:"استفهام كقوله لعيسى: {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَينِ مِنْ دُونِ الله}".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {و} اذكر {ويوم يحشرهم جميعا}] اذكر قدرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأن (إذ) ظرف، والظرف كالجار والمجرور لا بد له من متعلق، وهذا المتعلق يكون مذكورا ويكون مقدرا، فقوله سبحانه وتعالى: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت} [الأنعام: ٩٣] لعامل مذكور: ترى، وليس محذوفا، وفي قوله ﷻ: {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة} [الأنفال: ٥٠]، العامل هنا مذكور، وقد يحذف، وهو كثير في القرآن.

وهنا عامل {يوم} محذوف، واذكر: {ويوم يحشرهم} اذكر ذلك اليوم تحذيرا منه وتخويفا؛ لأن هذا اليوم يوم عظيم.

=

=

وقوله ﷻ: {يحشرهم جميعا} أي: يجمعهم، و {جميعا} حال من الهاء في قوله ﷻ: {يحشرهم}، ومتى يكون ذلك؟ قال الله تعالى: {يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن} [التغابن: ٩] يكون هذا يوم القيامة، يحشر الله تعالى الأولين والآخرين.

قال الله ﷻ: {قل إن الأولين والآخرين (٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} [الواقعة: ٤٩ – ٥٠]، وقال: {ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود} [هود: ١٠٣].

وقوله تعالى: {يحشرهم جميعا} أي: المشركين {ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون}، وقوله سبحانه وتعالى: {أهؤلاء} الهمزة للاستفهام و {هؤلاء} اسم إشارة مفعول مقدم لـ {يعبدون}، أو هي مبتدأ والمفعول {إياكم}؛ لأن {يعبدون} الآن مفرغة، يعني أنها لم تأخذ مفعولها، وإذا لم تأخذ مفعولها صار ما سبق هو المفعول.

وهل يجوز تقديم معمول خبر (كان) عليها؟

الجواب: نعم يجوز، وفي باب (كان) وأخواتها، أنه يجوز تقديم خبرها، ويجوز تقديم معمول خبرها، قال الله تعالى: {ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم} [هود: ٨] قدم عامل الخبر على الأداة، {إياكم} مفعول لـ {يعبدون}، يعني: أهؤلاء كانوا يعبدونكم، ولكنه فصل الضمير؛ لتقدمه.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أهؤلاء إياكم} بتحقيق الهمزتين وإبدال الأولى ياء وإسقاطها] عندنا همزتان، همزة {أهؤلاء} الثانية، وهمزة {إياكم} فيها ثلاث قراءات: القراءة الأولى تحقيق الهمزتين: (أهؤلاء إياكم)، والقراءة الثانية يقول

=

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١).

{قَالُوا سُبْحَانك} تَنْزِيهًا لَك عَنْ الشَّرِيك {أَنْتَ وَلِيّنَا مِنْ دُونهمْ} أَيْ لَا مُوَالَاة بَيْننَا وَبَيْنهمْ مِنْ جِهَتنَا {بَلْ} لِلِانْتِقَالِ {كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنّ} الشَّيَاطِين أَيْ يُطِيعُونَهُمْ فِي عِبَادَتهمْ إيَّانَا {أَكْثَرهمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} مُصَدِّقُونَ فِيمَا يَقُولُونَ لَهُمْ[1].

=

رَحِمَهُ اللَّهُ: وإبدال الأولى ياء: (أهؤلاي إياكم) بأن تجعل الهمزة ياء، والثالثة إسقاط الهمزة الأولى: (أهؤلا إياكم)، يعني الهمزة الأولى من الهمزتين المتجاورتين، وهي همزة (أولاء) الثانية وهمزة (إياك)؛ ثلاثة قراءات، وفي أيها قرأت أجزأ.

تنبيه: قوله تعالى: {أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون} بتحقيق الهمزتين وإبدال الأولى ياء، ذكر بعض المحشين أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وهم في هذا، وأن إبدال الياء إنما هو في الثانية لا في الأولى، يعني: أن الأولى ما فيها قراءة في إبدالها ياء، وإنما إبدال الياء في الثانية دون الأولى، فيكون هذا وهما من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أو سبقة قلم.

وقوله تعالى: {كانوا يعبدون} أي: في الدنيا يقول الله تعالى ذلك توبيخا وتقريعا لهؤلاء العابدين الذين كانوا يعبدون الملائكة، والملائكة تقدم لنا كثيرا أنها جمع (ملك)، وأصل (ملك: ملأك)، وأصل (الملأك) (مألك)، ففيها أصول، لكنها بالاستعمال وصلت إلى هذه اللغة.

(١) قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ} [سبأ: ٤١].

قال الطبري: يقول:"فتتبرأ منهم الملائكة {قَالُوا سُبْحَانَكَ} ربنا؛ تنزيهًا لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء من الشركاء والأنداد".

قال ابن الجوزي:"أي: تنزيها لك مما أضافوه إليك من الشركاء".

=

=

قال ابن كثير:"أي: تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله".

قال مقاتل:"فنزهت الملائكة ربها- ﷻ- عن الشرك".

قال يحيى:"ينزهون الله عما قال المشركون".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله} : اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

قوله تعالى: {أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ} [سبأ: ٤١]، أي:"أنت وليُّنا الذي نطيعه ونعبده وحده".

قال الطبري: أي: " {أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ} لا نتخذ وليًّا دونك".

قال ابن الجوزي:"أي: أنت ولينا من دونهم أي: نحن نتبرأ إليك منهم، ما توليناهم ولا اتخذناهم عابدين، ولسنا نريد وليا غيرك".

قال ابن كثير:"أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء".

قال يحيى:"أي: أنا لم نكن نواليهم على عبادتهم إيانا".

قوله تعالى: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} [سبأ: ٤١]، أي:"بل كان هؤلاء يعبدون الشياطين".

قال مقاتل:"بل أطاعوا الشيطان فى عبادتهم".

قال ابن كثير:"أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}، كما قال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء: ١١٧]".

وقال يحيى:"أي: الشياطين من الجن هي التي دعتهم إلى عبادتنا ولم ندعهم إلى عبادتنا، فهم بطاعتهم الشياطين عابدون لهم كقوله: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ

=

=

أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [يس: ٦٠] وكقوله: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا} [النساء: ١١٧]".

عن مجاهد، قوله: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}، قال: "الشيطان".

عن السُّدِّيّ: {قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ ولِيُّنا مِن دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ}، يعني: "يُطيعون الشياطين في عبادتهم إيّانا".

قوله تعالى: {أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: ٤١]، أي:"أكثرهم بهم مصدقون ومطيعون".

قال الطبري:"يقول: أكثرهم بالجن مصدقون، يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا".

قال مقاتل:"مصدقين بالشيطان".

قال ابن الجوزي:"أي: مصدقون لهم فيما يخبرونهم من الكذب أن الملائكة بنات الله".

قال يحيى:"يعني: المشركين بالشياطين مصدقون بما وسوس إليهم من عبادة من عبدوا فعبدوهم. وقوله ﷻ: {أكثرهم} جماعتهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قالوا} الضمير يعود إلى الملائكة {سبحانك} [تنزيها لك عن الشريك] يعني: إننا ننزهك عن أن تكون شركاء لك نحن ولا غيرنا وتنزيه الله سبحانه وتعالى يكون عن شيئين: أحدهما النقص، والثاني: مشابهة المخلوقين.

وإن كان مشابهة المخلوقين من النقص، لكن هذا من باب التفصيل في القول، ينزه الله سبحانه وتعالى عن النقص؛ فمثلا لا يوصف الله تعالى بالعمى والصمم

=

=

والعجز والضعف وما أشبه ذلك مشابهة المخلوقين فيما لهم من صفات الكمال، فلا يقال: علمه كعلم المخلوقين، أو وجهه كوجه المخلوقين، أو يده كيد المخلوقين، وما أشبه ذلك، فهو منزه عن هذين الأمرين.

وهنا ينزه عن أن يكون له شريك؛ لأنه لو كان له شريك لكان ناقصا؛ إذ إن الشريك معين لمن شاركه، أو مالك لما يملكه، فالله تعالى منزه عن هذا.

وتقول الملائكة: {سبحانك} أي: تنزيها لك عن الشريك، وأفادنا المصنف بقوله: تنزيها. أن (سبحان) منصوبة على أنها اسم مصدر، فتكون مفعولا مطلقا، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائما، وملازمة أيضا للإضافة، فلا تقع إلا مضافة وإلا منصوبة على المفعولية المطلقة.

قوله تعالى: {سبحانك أنت ولينا من دونهم} أي: لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا، يعني: أن هذه الجملة خبرية ثبوتية {أنت ولينا من دونهم} معناها جملة سلبية، أي: لا نتولاهم، بل {أنت ولينا من دونهم}، فلا موالاة بيننا وبينهم، وإذا انتفت الموالاة ثبت ضدها، وهي المعاداة، يعني: فهؤلاء أعداؤنا، وأنت ولينا من دونهم.

وهذا كقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات} [البقرة: ٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بل} للانتقال، {كانوا يعبدون الجن} الشياطين، أي: يطيعوهم في عبادتهم إيانا {أكثرهم بهم مؤمنون} مصدقون في ما يقولون].

قوله: [{بل} للانتقال]؛ لأن (بل) تأتي للإضراب الانتقالي، وللإضراب

=

=

الإبطالي، فإن كان المقصود بها إبطال ما سبق وإثبات ما لحق فالإضراب إبطالي، وإذا كان المقصود بها الانتقال من معنى إلى آخر فوقه أو دونه يسمى إضرابا انتقاليا.

وهنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول: إن هذا الإضراب انتقالي؛ يعني: وأنهم لم يبطلوا ما سبق، فهم باقون على قولهم: {سبحانك أنت ولينا من دونهم}، ولا مولاة بيننا وبينهم، ولا نواليهم ولا يوالوننا، بل نزيد على ذلك: كانوا يعبدون الجن، والمراد بالجن هنا الشياطين؛ لأن الجن هم الشياطين في الواقع؛ قال الله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه} [الكهف: ٥٠]، فهم يعبدون الجن.

فإن قيل: إذا كانوا يعبدون الملائكة، كما هو ظاهر السياق فكيف عبادتهم للجن؟ فالجواب: هنا عبادتهم للجن عبادة طاعة، أي أنهم يطيعونهم في الإشراك فالجن تأمرهم أن يجعلوا الملائكة شركاء مع الله تعالى في العبادة فيطيعونهم، ومن أطاع غير الله تعالى في معصية الله تعالى فقد اتخذه إلها، قال الله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم} [التوبة: ٣١]، وقد روي أنهم كانوا إذا أحلوا ما حرم الله أحلوه، وإذا حرموا ما أحل الله حرموه، فجعلوهم إلهة مع الله سبحانه وتعالى في التحليل والتحريم والطاعة، فيكون معنى قوله تعالى: {بل كانوا يعبدون الجن} أي: يطيعونهم في عبادة الملائكة، ومن أطاع غيره في معصية الله تعالى فقد اتخذه إلها.

وقوله تعالى: {أكثرهم بهم مؤمنون} أي: مصدقون فيما يقولون لهم.

وقوله تعالى: {أكثرهم} ولم يقل: كلهم. مع أن الجميع يعبدون الملائكة طاعة

=

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢).

قال تعالى {فَالْيَوْم لَا يَمْلِك بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ} أَيْ بَعْض الْمَعْبُودِينَ لِبَعْضِ الْعَابِدِينَ {نَفْعًا} شَفَاعَة {وَلَا ضَرًّا} تعذيبا {ونقول للذين ظلموا} كفروا {ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون}(١).

=

للجن.

فلماذا عبروا بقولهم: أكثرهم. ولم يقولوا: كلهم؟

جواب ذلك أن يقال: إن هؤلاء المشركين ينقسمون إلى قسمين: قسم عامة أتباع، لا يعرفون شيئا، وجدوا آباءهم على دين فمشوا عليه، والقسم الآخر مجتهدون يعرفون الأمر ولكنهم يؤمنون بهؤلاء الجن ويصدقونهم، ويكفرون بالرسل، وهؤلاء هم الأكثر، ومع ذلك فإن الأتباع -وهم القسم الأول- إذا تبين لهم الحق وأصروا على اتباع هؤلاء وقالوا كما قالت الأمم: {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} [الزخرف: ٢٢]، فإنهم مستحقون للعذاب؛ لأنهم كفروا على بصيرة.

(١) قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} [سبأ: ٤٢]، أي: "ففي يوم الحشر لا يملك المعبودون للعابدين نفعًا ولا ضرًّا".

قال الطبري: يقول: "فاليوم لا يملك بعضكم أيها الملائكة للذين كانوا في الدنيا يعبدونكم نفعًا ينفعونكم به، ولا ضرًّا ينالونكم به أو تنالونهم به".

قال يحيى: "{فاليوم}، يعني: يوم القيامة. {لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا}: الشياطين والكفار".

=

=

قال ابن الجوزي:"يعني: العابدين والمعبودين نفعا بالشفاعة ولا ضرا بالتعذيب".

قال ابن كثير:"أي: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا".

قال مقاتل:"لا تقدر الملائكة على أن تسوق إلى من عبدها نفعا، ولا تقدر على أن تدفع عنهم سوءا".

قوله تعالى: {وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سبأ: ٤٢]، أي:"ونقول للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون".

قال الطبري:"يقول: ونقول للذين عبدوا غير الله فوضعوا العبادة في غير موضعها، وجعلوها لغير من تنبغي أن تكون له {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا} في الدنيا {تُكَذِّبُونَ} فقد وردتموها".

قال ابن كثير:"{وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا} - وهم المشركون - {ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} أي: يقال لهم ذلك، تقريعا وتوبيخا".

قال مقاتل:"يأمر الله الخزنة أن تقول للمشركين من أهل مكة: {ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون}".

قال يحيى:"وهم جميعا قرناء في النار: الشياطين ومن أضلوا، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من البعض".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {فاليوم}: (أل) هنا للعهد الذكري،

=

=

والمذكور هو قوله سبحانه وتعالى: {ويوم يحشرهم} أي: فاليوم الذي نحشرهم فيه لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا.

وقوله تعالى: {فاليوم} نصبت على الظرفية، والعامل فيها قوله سبحانه وتعالى: {لا يملك} يعني: فلا يملك اليوم بعضكم لبعض، أي: بعض المعبودين للعابدين {نفعا} شفاعة {ولا ضرا} تعذيبا].

وقوله تعالى: {لا يملك بعضكم لبعض} الذي انتفى نفعه المعبود؛ لأن العابد يرجو من وراء المعبود النفع أو الضرر.

فنقول: لا يملك العابد للمعبود ضرا ولا نفعا، كما أنه لا يملك المعبود للعابد ضرا ولا نفعا.

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله ﷻ قال: {فاليوم لا يملك بعضكم لبعض} وجعله مبهما ليشمل العابد والمعبود والتابع والمتبوع؛ فكل أحد يوم القيامة لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، وقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [شفاعة] مع أن كلمة (نفع) أعم من الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ اللهُ قيدها بالشفاعة؛ لقولهم: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمر: ٣]، فادعوا أن عبادتهم إياهم من أجل أن تشفع لهم عند الله ﷻ وتقربهم إليه.

قوله سبحانه وتعالى: {فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا} يعني: نفعا في عبادتكم إياهم بالشفاعة، والأصح: وبغيرها.

{ولا ضرا} بعدم عبادتكم إياهم، أي: أنهم إذا لم تعبدوهم فإنهم لن يضروكم، وكما أنهم لا يملكون في ذلك اليوم لا نفعا ولا ضرا، فكذلك لا يملكون في الدنيا نفعا ولا ضرا.

=

=

فإن قلت: إنه قد يعبد الإنسان غير الله تعالى، فيدعوه لكشف ضر فينكشف ذلك الضر، فما الجواب عن هذه الآية وغيرها؟

فالجواب: إن هذا الذي حصل لم يحصل بالدعاء أو بالعبادة ولكن حصل عنده، فليس ذلك سببا.

فإذا قلت: قولك: إنه حصل عنده. هذه دعوى تحتاج إلى برهان، وإلا لكان الواجب أن يحال الأمر على الشيء أو على السبب الظاهر، وهو دعاء هذه الأصنام. فهذه الاعتراض يعني: أنك قد تقول: إن هذا الشيء حصل عند الدعاء لا بالدعاء. فيقال لك: هذه دعوى منك، ما دام دعا هذا الصنم أن يشفيه فشفي، فالأصل إحالة الحكم على السبب الظاهر، وهو هذا الدعاء فدعوى أنه حصل بغير هذا السبب الظاهر تحتاج إلى دليل!

فالجواب: أن لدينا دليلا على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: ١٨]، وقال تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون} [الأحقاف: ٥].

فهاتان الآيتان وما أشبههما كلها تدل على أن هذه الأصنام لا تنفع لا بجلب نفع ولا بدفع ضرر، فإن وجد شيء حصل بعد الدعاء فقد حصل عنده لا به.

فإن قلت: كيف يكون هذا الشيء؟ وما الحكمة من أن الله ﷻ يجعل حدوث هذا النفع أو اندفاع هذا الضرر عند دعاء هذه الأصنام؟

نقول: فتنة وامتحانا، فإن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العبد بالشيء المحرم يصر عليه، أو يبتليه بالشيء المحرم يمتنع منه، والله على كل شيء قدير.

=

=

وقوله تعالى: {ونقول} معطوف على قوله تعالى: {لا يملك} يعني: واليوم نقول للذين ظلموا.

الظلم في اللغة: النقص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا} [الكهف: ٣٣] أي: لم تنقص.

وأما في الاصطلاح أو في الشرع: فهو نقص ذوي الحق حقهم؛ إما بالمماطلة بالواجب، وإما بانتهاك المحرم، نقص ذوي الحق حقه، إما بالمماطلة في الواجب مثل قوله ﷺ: "مطل الغني ظلم)، وإما بالاعتداء على حقه كقوله تعالى: {إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق} [الشورى: ٤٢].

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{للذين ظلموا} كفروا، وهذا تفسير بالمعنى لا بالمراد؛ لأن الظلم من حيث المعنى أعم من الكفر، لكن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إنه يراد بالظلم هنا ظلم الكفر، كقوله تعالى: {والكافرون هم الظالمون} [البقرة: ٢٥٤]، وقوله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: ١٣]، وقوله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: ٨٢].

فالظلم قد يراد به بالكفر، وكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ خص الظلم بالكفر هنا، بدليل السياق: {ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} هذا مما يدل على أن المراد بالظلم هنا ظلم الكفر؛ لأن الذي يكذب بالنار حكمه كافر؛ لتكذيبه خبر الله تعالى ورسوله ﷺ.

وقوله سبحانه وتعالى: {ذوقوا} فعل الأمر، لكنه يراد به الإهانة؛ يعني: يقال لهم إهانة: {ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} أي: أن النار ستصيبكم حتى

=

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣).

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا} الْقُرْآن {بَيِّنَات} وَاضِحَات بِلِسَانِ نَبِيّنَا مُحَمَّد ﷺ

=

تذوقوها كما تذوقون الطعام.

وقوله تعالى: {التي كنتم بها تكذبون} كانوا يكذبون بالنار لأنهم ينكرون البعث، والنار إنما تكون بعد البعث، وهم يكذبون بذلك، ومن باب أولى أن يكذبوا بما يكون في القبر من العذاب، فهم يكذبون تكذيبا كاملا ويقولون: إن الروح إذا خرجت من الجسد لن تعود إليه، وهنا قال ﷻ: {التي كنتم بها تكذبون}، وفي سورة {الم (١) تنزيل} السجدة؛ قال تعالى: {ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون} [السجدة: ٢٠].

فعلى هاتين الآيتين يكون الوصف بالتكذيب، مرة بالنار ومرة بعذابها، فهم أحيانا ينكرون النار وأحيانا يكذبون التعذيب بالنار، ويقولون: كيف نعذب بالنار؟

وكيف نبقى أحقابا ونحن في النار، والإنسان إذا دخل في النار احترق وانتهى؟!

فيكذبون بالعذاب، وأحيانا يكذبون بالنار نفسها.

وقوله تعالى: {التي كنتم بها تكذبون} الجار والمجرور متعلق بـ {تكذبون}، ولكنه قدم للفواصل من جهة، وللحصر من جهة أخرى، ولكننا إذا قلنا: إنه للحصر. يرد علينا إشكال وهو أنهم كذبوا بالنار وبغيرها، فيقال: لما كان العذاب بالنار ذكروا بتكذيبهم بها خاصة؛ لأنهم عذبوا بها فكأنه قيل لهم: عذبتم بشيء أنتم كنتم تكذبون به، وإلا فلهم تكذيب آخر.

{قَالُوا مَا هَـذَا إِلَّا رَجُل يُرِيد أَنْ يَصُدّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُد آبَاؤُكُمْ} مِنْ الْأَصْنَام {وَقَالُوا مَا هَـذَا} الْقُرْآن {إِلَّا إِفْك} كَذِب {مُفْتَرًى} عَلَى الله {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ} الْقُرْآن {لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ} مَا {هَذَا إِلَّا سحر مبين} بين(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ} [سبأ: ٤٣].

قال الطبري: يقول:"وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات كتابنا بيِّنات، يقول: واضحات أنهن حق من عندنا، قالوا عند ذلك: لا تتبعوا محمدًا، فما هو إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباوكم من الأوثان، ويغير دينكم ودين آبائكم".

قال ابن كثير:"يعنون أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله -".

قال يحيى:"{قالوا ما هذا}، يعنون: محمدا ﷺ".

قال السعدي:"أي: هذا قصده، حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آبائكم، الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق، بقول الضالين، ولم يوردوا برهانا، ولا شبهة، فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين، باتباع الحق، فادَّعوا أن إخوانهم، الذين على طريقتهم، لم يزالوا عليه؟ وهذه السفاهة، ورد الحق، بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا مآله لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملحدين في دين الله، المارقين، فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة".

قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هَـذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى} [سبأ: ٤٣]، أي:"وقالوا: ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا -يا محمد- إلا كذب مختلق، جئتَ به من عند نفسك، =

=

وليس مِن عند الله".

قال الطبري: يقول:"وقال هؤلاء المشركون: ما هذا الذي تتلو علينا يا محمد، يعنون القرآن، إلا كذب مختلق متخرص".

قال السعدي:"ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق، {وَقَالُوا مَا هَـذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى}، أي: كذب افتراه هذا الرجل، الذي جاء به".

قال ابن كثير:"يعنون: القرآن".

قال القرطبي:"يعنون: القرآن، أي: ما هو إلا كذب مختلق".

قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [سبأ: ٤٣]، أي:"وقال الكفار عن القرآن لما جاءهم: ما هذا إلا سحر واضح".

قال الطبري: يقول:"وقال الكفار لمحمدًا ﷺ، لما بعثه الله نبيًّا: ما هذا إلا سحر مبين، يبين لمن رآه وتأمله أنه سحر".

قال السعدي:"أي: سحر ظاهر بيِّن لكل أحد، تكذيبا بالحق، وترويجا على السفهاء".

قال القرطبي:"فتارة قالوا سحر، وتارة قالوا إفك. ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك".

عن ابن إسحاق: " {هذا سحر مبين}، أي: ما ساحر أسحر منك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا} [القرآن] {بينات} [واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ] {قالوا} هذه الجملة الشرطية وهي {وإذا}، وفعل الشرط {تتلى} جوابه {ما هذا إلا رجل}.

=

=

وقولهم: {ما هذا إلا رجل}: {ما} نافية، وهنا لم تعمل لانتقاض النفي، وقد قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في ألفيته:

إعمال ليس أعملت ما دون إن ... مع بقا النفي وترتيب زكن

فإذا انتقض النفي فلا عمل.

وقوله سبحانه وتعالى: {ونقول للذين ظلموا} الإظهار في موضع الإضمار له فائدة دائمة مستمرة وهي التنبيه، وفائدة خاصة في كل سياق بحسبه، فهنا يقصد بها التعميم، يعني: للذين ظلموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبب الحكم وهو قوله تعالى: {ذوقوا} للذين ظلموا {عذاب النار التي كنتم بها تكذبون}، والتعميم والإشارة إلى علة الحكم، وهو الظلم للذين قالوا: نقول لهم: ما استفدنا أن سبب قول الله تعالى لهم وتوبيخهم إياهم هو الظلم.

وقوله سبحانه وتعالى: {آياتنا بينات}: {بينات} حال من آياتنا؛ لأنه وصف بعد معرفة، والوصف بعد المعرفة إذا كان نكرة يكون حالا، وكذلك إذا كان جملة، فالأوصاف بعد المعارف إذا كانت نكرة أو جملة تكون حالا، والأوصاف بعد المعارف إذا كانت معرفة تكون نعتا، فالحال والنعت كلاهما وصف، ولكن إن وافق متبوعه في التعريف والتنكير فهو نعت، وإلا فإن كان المتبوع معرفة والثاني نكرة أو جملة فهو حال، وقوله تعالى: {قالوا ما هذا} هو جواب الشرط.

وقوله سبحانه وتعالى: {وإذا تتلى عليهم آياتنا} أي: إذا تقرأ عليهم آياتنا ولم يبين القارئ فيشمل أن يكون القارئ النبي ﷺ أو غيره، إذا تتلى عليهم آيات الله تعالى {بينات} أي: ظاهرات فما ظهورها هنا؟ هل ظهورها بمعنى أنها واضحة أنها كلام الله تعالى؛ لعجزهم عنها، أو بينات فيما تدل عليه من معاني سامية لا

=

=

يمكن أن يأتي بمثلها البشر، أو الأمران؟

الجواب: يشمل هذا وهذا، فهي بينة في ذاتها واضحة أنها ليست من كلام البشر، وهي بينة في موضوعها وما تدل عليه من أنها ليست من أحكام البشر؛ لأنها لا تتناقض ولا يكذب بعضها بعضا، وهذا يدل على أنها من عند الله تعالى.

ولو كانت هذه الآيات خفية لكان لهم شيء من العذر في ردها، ولكنها آيات بينات، لا عذر لهم في ردها.

ومع هذا يقول الله سبحانه وتعالى: {قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها: [واضحات بلسان نبينا محمد ﷺ] {ما هذا} أي: الذي جاء بها وادعى أنها من عند الله إلا رجل يريد أن يصدكم، وانظر كيف تحمل هذه الجملة من الاحتقار والإنكار ما هو معلوم، فقولهم: {ما هذا} أتوا به بصيغة الحاضر وان كان غائبا للاحتقار، وقولهم: {إلا رجل} هذا للإنكار؛ لأنهم أتوا به بصيغة النكرة، كأنهم لا يعرفونه كأنه رجل أجنبي منهم، قالوا: ما هذا إلا رجل، ولم يقولوا: ما ذلك الرجل إلا رجل. بل قالوا: {ما هذا إلا رجل} احتقارا وإنكارا.

وقوله تعالى: {يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم} يعني: لا يريد أن يهديكم سبيل الرشاد، ولكن يريد {أن يصدكم} أن يصرفكم ويمنعكم {عما كان يعبد آباؤكم} أي: الأصنام من الأشجار والأحجار وغيرها، هذا هو غرض هذا الرجل الذي جاء بهذه الآيات التي تليت عليهم، وليس غرضه الصلاح ولا الإصلاح. هكذا ردوا الحق بهذه الدعوة الباطلة.

وقوله تعالى: {عما كان يعبد آباؤكم} ولم يقولوا: وعما كنتم تعبدون؛ لإثارة

=

=

الحمية في نفوسهم؛ لأن الإنسان يصعب عليه أن يدع ما كان آباؤه عليه، لا سيما مثل هؤلاء الجهلة، ولو قالوا: عما كنتم تعبدون. لكان يمكن أن يقال: إنهم عبدوا على غير أساس. لكن لما قال تعالى: {عما كان يعبد آباؤكم} كأن هذه العبادة لهذه الأصنام أمر مستقر كان عليه الآباء، ولا ينبغي لكم أن تتركوا ملة آبائكم.

ولهذا يقولون كما حكى الله عنهم في آيات أخرى: {قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون} [الزخرف: ٢٢]، أو {مقتدون} [الزخرف: ٢٣] آيتان.

وقول سبحانه وتعالى: {عما كان يعبد آباؤكم} من الأصنام، والمراد بالآباء هنا ما يشمل آباء الصلب، وهو الأب الأدنى والآباء الأعلين، وهم الأجداد وان علو.

وقوله تعالى: {آباؤكم} هل أمهاتهم كذلك؟

الجواب: نعم، لكن الإنسان تأخذه الحمية لأبيه أكثر مما تأخذه لأمه؛ لأنه من المعلوم أن الأب رجل والرجل أعقل من المرأة، فإذا كانت آباؤكم يعبدون هذه الأصنام ويصرون على عبادتها -وهم العقلاء- فإنه لا ينبغي لكم أن تتبعوا هذا الرجل؛ الذي كان يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم.

وقالوا في القرآن: {ما هذا إلا إفك} كذب {مفترى} على الله تعالى. فطعنوا في الرسول ﷺ بسوء قصده، وأنه لا يقصد الإصلاح، وانما يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم، وطعنوا في القرآن وفي الوحي الذي جاء به هذا الرسول ﷺ، وقالوا: {ما هذا إلا إفك مفترى}.

=

=

ومعلوم أن هذه الصيغة صيغة حصر، فعلى زعمهم ليس في القرآن شيء صدق، كل القرآن جملة وتفصيلا {إفك مفترى} أي: كذب، هو بنفسه كذب، وعلى على الله ﷻ؛ لأنه هناك كذب مطلق يكذبه الإنسان ولا ينسبه إلى أحد، وهنا كذب يفتريه الإنسان على غيره، فالقرآن يقولون: إنه كذب وإنه مفترى على الله ﷻ. ولا ريب أن هذه دعوى باطلة فالقرآن كما وصفه الله ﷻ: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا} [الأنعام: ١١٥]، وكذلك القرآن من عند الله ﷻ، بدليل أن الله ﷻ تحدى هؤلاء أن يأتوا بمثله فلم يأتوا، فهو دليل على أنه من عند الله وكل أخباره صدق وحق، خلاف ما طعن به هؤلاء.

وقالوا: {ما هذا إلا إفك مفترى} فطعنوا في الرسول وطعنوا في المرسل به، والطعن فيهما طعن في الله ﷻ، كيف؟

الجواب: لأن تمكين الله تعالى لهذا الرسول، وتأييده له، وإنزال الآيات عليه وهو كاذب سفه، والله سبحانه وتعالى يؤيد رسوله بما ينزل عليه، ويشهد له بأنه حق، والرسول ﷺ يدعو الناس علنا وسرا، فلو كان كاذبا على الله ﷻ والله ﷻ يؤيده ويمكنه لكان تمكين الله ﷻ له في غاية ما يكون من السفه، وهذا طعن في الله ﷻ.

وقوله تعالى: {وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين} هذه أيضا دعوى ثالثة كاذبة، لكنه أتى بالإظهار في موضع الإضمار {وقال} ولم يقل: وقالوا، بل {وقال الذين كفروا}؛ ليشمل هؤلاء وغيرهم، كما قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} [الذاريات: ٥٢].

=

=

فقوله تعالى: {وقال الذين كفروا} يشمل هؤلاء وغيرهم، ويفيد أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول كفار؛ لأنه وصفهم بالكفر مسندا إليهم هذا القول، فيكون ذلك سببا لكفرهم.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {إن} في تفسيرها [ما] أي: أن (إن) نافية، وهل يشترط لكونها نافية أن تأتي بعدها (إلا)؟

الجواب: لا، ولكن إذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية، كلما أتت (إلا) بعد (إن) فإن (إن) نافية، ولا نقول: إنها لا تكون نافية إلا إذا وقعت بعدها (إلا)؛ لأنها قد تأتي نافية، وليس بعدها (إلا)، كقوله تعالى: {إن عندكم من سلطان بهذا} [يونس: ٦٨]، أي: ما عندكم من سلطان بهذا، ومع ذلك فإن الجملة هذه ليس فيها (إلا).

والخلاصة: إذا أتت (إلا) بعد (إن) كانت (إن) نافية، ولا يلزم أن تأتي بعدها (إلا)، بل قد تكون نافية بدون (إلا).

ولنا أن نستطرد حتى نذكر معاني (إن)، فتأتي نافية كما هنا، وتأتي شرطية كقوله تعالى: {قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله} [آل عمران: ٢٩]، وتأتي زائدة كقول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولاصريف ولكن أنتم الخزف

وتأتي مخففة من الثقيلة، مثل:

.... وإن مالك كانت كرام المعادن

هذه مخففة من الثقيلة؛ إذا فتستعمل في اللغة العربية على أربعة أوجه.

وقوله تعالى: {إن هذا إلا سحر مبين} السحر هو في اللغة: كل شيء خفي، وسمي سحرا، لمطابقته السحر وهو آخر الليل، لأن آخر الليل تقع فيه الأشياء

=

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤).

قال تعالى {وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُب يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلك مِنْ نَذِير}

=

خفية؛ لكون الناس مستترين في بيوتهم، فالسحر في اللغة الشيء الخفي الذي يخفى أمره وسببه، ولهذا أول ما ظهرت الساعات هذه قيل: إنها سحر!. وإذا جاءت أشياء غريبة على الناس خارقة للعادة قالوا: هذا سحر. فهم يقولون: إن الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هذا سحر، فعصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على رأيهم سحر، وإحياء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى سحر، وهذا الكلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام سحر، "إن من البيان لسحرا"، فقالوا: هذا كلام فصيح سحر عقول الناس.

وقوله تعالى: {مبين} هذا من باب التمويه، يعني: أنه سحر بين لا تنبغي المجادلة فيه؛ لبيانه وظهوره، وهذا كما تؤكد الشيء فتقول: هذا أمر بين واضح. وإن كان ليس بينا واضحا، فإن هذا الذي جاءت به الرسل من الآيات ليس بينا أنه سحر، بل البين أنه حق وآيات حقيقية، لكن المكذبين -والعياذ بالله تعالى- يجادلون في الحق.

وقوله تعالى: {مبين}: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: بمعنى [بين]؛ لأن (أبان) يأتي لازما ومتعديا، فتقول: أبان الفجر. بمعنى: ظهر الفجر، وتقول: بان الفجر، فهنا كلمة {مبين} بمعنى: بين، هذا هو الأقرب، أما {مبين} بمعنى: أبان، أي: أوضح وأظهر، ففي مثل قوله تعالى: {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين} [يس: ٦٩]؛ لأن القرآن مبين للحق، فتكون {مبين} هناك من (أبان) المتعدي، و (مبين) هنا من (أبان) اللازم.

فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوك(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا} [سبأ: ٤٤].

قال الطبري: يقول:"وما أنزلنا على المشركين القائلين لمحمد ﷺ لما جاءهم بآياتنا: هذا سحر مبين، بما يقولون من ذلك كتبًا يقرءونها".

قال الزمخشري: أي:"وما آتيناهم كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك".

قال ابن كثير:"أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن".

عن قتادة، قوله: " {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}، أي: يقرءونها".

قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ} [سبأ: ٤٤]، أي:"وما أرسلنا إليهم قبلك -أيها الرسول- من رسول ينذرهم بأسنا".

قال الطبري:"يقول: وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركين من قومك يا محمد فيما يقولون ويعملون قبلك من نبي ينذرهم بأسنا عليه".

قال الزمخشري: أي:"ولا أرسلنا إليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا".

قال ابن كثير: أي:"وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون: لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه".

قال قتادة:"ما أنزل الله على العرب كتابًا قبل القرآن، ولا بعث إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ".

قال الزجاج في الآية:"يعنى: به مشركو العرب بمكة لم يكونوا أصحاب كتب ولا بعث بنبي قبل محمد ﷺ ".

قال القرطبي في الآية:"أي: لم يقرءوا في كتاب أوتوه بطلان ما جئت به، ولا
=

=

سمعوه من رسول بعث إليهم، كما قال: {أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون} [الزخرف: ٢١]، فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فمن أين كذبوك؟!] قوله تعالى: {وما آتيناهم من كتب يدرسونها} اختلف المصنفون رحمهم الله في معناها فقال بعضهم: {وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير} يناقض ما قلت، فإذا لم يكن عندهم علم من كتب يدرسونها، ولا علم من نذر أتتهم يخالف ما أنت عليه، فكيف يكذبونك؟! وعليه: فيكون المراد بهذه الآية أن تكذيبهم إياك صادر عن جهل؛ لأنه تعالى يقول: {وما آتيناهم من كتب} ولم يقل: آتيناهم.

وقوله تعالى: {من كتب يدرسونها} تدل على أن ما قالوه في وصفك حق، {وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير} يناقض ما جئت به، حتى يقولوا: إنك كاذب وساحر. فيكون المراد بالآية أن هؤلاء الذين كذبوك لم يستندوا في تكذيبك على علم، لا من كتب، ولا من وحي؛ لأن الكتب يدرسونها، ويفهمون ما فيها، ويعلمون أن ما جئت بها مناقض لها، ولا من نذير أنذرهم وحذرهم مما جئت به، وقال: إنه سيأتي كاذب مفتر فلا تطيعوه، ونحن لو جاءنا نبي وقال: إنه نبي من عند الله تعالى. نكذبه؟ نعم؛ لأننا قد أنذرنا من هؤلاء كما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام.

لكن لما جاء النبي عليه الصلاة والسلام هل هؤلاء المكذبون له علموا به

=

=

وحذروا منه؟ الجواب: لا.

وهل هناك كتب درسها هؤلاء تبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام على باطل؟

الجواب: لا.

هذا وجه، وهذا هو الذي مشى عليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولهذا قال: [فمن أين كذبوك].

والقول الثاني: إن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا عليه الصلاة والسلام في قوم أميين، لا يقرؤون، ولم يبعث إليهم نبي، كما قال الله تبارك وتعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته} [الجمعة: ٢]، وقال الله سبحانه وتعالى: {لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك} [السجدة: ٣]، أي: أن هؤلاء كان الأليق بهم أن يفرحوا برسالتك، وأن يقبلوا ما جئت به؛ لأنه ليس عندهم كتب يدرسونها كما عند اليهود والنصارى، ولم يبعث إليهم نبي قبلك، فكانوا في أشد الحاجة إليك، ومن كان محتاجا إلى الشيء كان به أفرح، ولخبره أشد تصديقا.

فيكون المراد بهذه الجملة توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ، وأنه كان الأليق بهم أن يفرحوا بذلك وأن يصدقوا؛ لانه ليس عندهم كتب تدرس، فليس له عندهم أثارة من علم، ولم يبعث إليهم نذير من قبلك، فكانوا في أشد الحاجة إلى تصديقك، وقبول ما جئت به، فتتضمن هذه الآية توبيخ هؤلاء على تكذيبهم النبي ﷺ.

وأيهما أولى: {وما آتيناهم من كتب يدرسونها}، أو {وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير}؟ وهل يمكن أن تحمل على المعنيين؟

=

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥).

{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ وَمَا بَلَغُوا} أَيْ هَؤُلَاءِ {مِعْشَار مَا آتَيْنَاهُمْ} مِنْ الْقُوَّة وَطُول الْعُمُر وَكَثْرَة الْمَال {فَكَذَّبُوا رُسُلِي} إلَيْهِمْ {فَكَيْفَ كَانَ نَكِير} إنْكَارِي عَلَيْهِمْ الْعُقُوبَة وَالْإِهْلَاك أَيْ هُوَ وَاقِع مَوْقِعه[1].

=

فالجواب: ننظر في حال هؤلاء، إذا كانت تصدق على حال هؤلاء على الوجهين حملناها، وقلنا: هؤلاء ما درسوا كتبا تدل على كذب محمد عليه الصلاة والسلام، ولا أنذرهم أحد منه، وكذلك هم لم يكونوا عالمين بالكتب السابقة، ولم يرسل إليهم رسول.

إذن: حالهم قابلة لهذين الوجهين، يعني: أن تنزيلها على الوجهين لا يتنافى مع حال هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، فالوجهان كلاهما يصدق عليهم، وإذا كان الوجهان كلاهما يصدق عليهم، فلا مانع من أن نقول: إن الآية يراد بها هذا وهذا؛ لأن حال الذين كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام قابلة للوجهين جميعا.

(١) قوله تعالى: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [سبأ: ٤٥].

قال الطبري:"يقول: وكذب الذين من قبلهم من الأمم رسلنا وتنزيلنا".

قال ابن كثير: "أي: من الأمم".

قال القرطبي:"أي: كذب قبلهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا، فأهلكتهم كثمود وعاد".

قوله تعالى: {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ} [سبأ: ٤٥]، أي:"وما بلغ أهل «مكة»

=

=

عُشرَ ما آتينا الأمم السابقة من القوة، وكثرة المال، وطول العمر وغير ذلك من النعم".

قال الطبري: "يقول: ولم يبلغ قومك يا محمد عشر ما أعطينا الذين من قبلهم من الأمم من القوة والأيدي والبطش، وغير ذلك من النعم".

قال الزجاج: "أي: عشر الذي آتينا من قبلهم من القوة والقدرة.

قال القرطبي: "قيل: ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان".

قال الزمخشري: " وما بلغ هؤلاء بعض ما آتينا أولئك من طول الأعمار وقوة الأجرام وكثرة الأموال".

وحكي النقاش: "ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم".

قال ابن كثير: هو " كما قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف: ٢٦]، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً} [غافر: ٨٢]، أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ}، من القوة في الدنيا".

قال ابن عباس: "يقول: ما جاوزوا معشار ما أنعمنا عليهم".

قال قتادة: "يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم من القوة وغير ذلك".

قال ابن زيد: "ما بلغ هؤلاء، أمة محمد ﷺ، معشار ما آتينا الذين من قبلهم، وما

=

=

أعطيناهم من الدنيا، وبسطنا عليهم".

وقال الحسن:"ما عملوا بعُشْرِ ما أُمِرُوا به".

قال الجوهري:"معشار الشيء: عشره".

قال الماوردي:"المعشار: هو عشير العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزءًا من ألف جزء، وهو الأظهر، لأن المراد به المبالغة في التقليل".

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [سبأ: ٤٥]، أي:"فكذبوا رسلي فيما جاؤوهم به فأهلكناهم، فانظر -أيها الرسول- كيف كان إنكاري عليهم وعقوبتي إياهم؟".

قال قتادة:"يقول: فقد أهلك اللهُ أولئك وهم أقوى وأَجْلَدُ".

قال الطبري:"يقول: فكذبوا رسلي فيما أتوهم به من رسالتي، فعاقبناهم بتغييرنا بهم ما كنا آتيناهم من النعم، فانظر يا محمد كيف كان نكير، يقول: كيف كان تغييري بهم وعقوبتي".

قال الزمخشري: " فحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم به مستظهرون، فما بال هؤلاء؟".

قال ابن كثير: " أي: فكيف كان نكالي وعقابي وانتصاري لرسلي".

قال السعدي:"قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على التكذيب، فيأخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم".

قال العثيمين: قوله ﷻ: {وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا} أي: هؤلاء {معشار

=

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦).

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} هِيَ {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ} أَيْ لِأَجْلِهِ {مَثْنَى} أَيْ اثْنَيْنِ

=

ما آتيناهم} أي: عشره من القوة، وطول العمر، وكثرة المال، وهذا فيه تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام، وفيه تهديد للمكذبين، ففيه معنيان: التسلية والتهديد.

وقوله سبحانه وتعالى: {وكذب الذين من قبلهم} مثل عاد وثمود وفرعون وأصحاب الأيكة وكثير، وهؤلاء المكذبون السابقون أشد قوة من هؤلاء وأكثر أموالا وأولادا، قال الله سبحانه وتعالى: {كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا} [التوبة: ٦٩]، فالآيات في هذا تدل على أن الذين كذبوا الرسل السابقين كانوا أعظم من الذين كذبوا الرسول ﷺ في قوة الأجسام، وكثرة الأموال، وكثرة البنين.

وهل أغنى ذلك عنهم شيئا؟ لا لم يغن عنهم شيئا؛ ولهذا قال الله ﷻ: {فكذبوا رسلي} [إليهم {فكيف كان نكير} إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك]، يعني: أن هؤلاء السابقين كذبوا رسل الله تعالى فماذا حصل؟

الجواب: حصل عليهم إنكار الله سبحانه وتعالى بالتعذيب والإهلاك، لم يقرهم الله سبحانه وتعالى على تكذيبهم، بل أنكر عليهم إنكارا بالفعل، أهلكهم وأبادهم، وعلى هذا فيكون الاستفهام في قوله تعالى: {فكيف كان نكير} للتعظيم والتفخيم، أي: فما أعظم إنكاري عليهم! لأنه إنكار أدى بهم إلى الهلاك؛ ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [أنه واقع موقعه].

اثْنَيْنِ {وَفُرَادَى} وَاحِدًا وَاحِدًا {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} فَتَعْلَمُوا {مَا بِصَاحِبِكُمْ} مُحَمَّد {مِنْ جِنَّة} جُنُون {إنْ} مَا {هُوَ إلَّا نَذِير لَكُمْ بَيْن يَدَيْ} أَيْ قَبْل {عَذَاب شَدِيد} فِي الْآخِرَة إنْ عَصَيْتُمُوهُ(١).

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} [سبأ: ٤٦].

قال ابن كثير: " يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون: {إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} أي: إنما آمركم بواحدة".

قال السعدي:"{قُلْ} يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصدين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: {إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم، من دون موجب لذلك".

وفي قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ} [سبأ: ٤٦]، أقوال:

أحدها: يعني: بطاعة الله ﷻ، قاله مجاهد ، وبه قال الطبري.

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إنما أعظكم أيها القوم بواحدة وهي طاعة الله".

الثاني: بلا إله إلا الله، قاله مجاهد-أيضا- ، والسدي ، ومقاتل ، ويحيى بن سلام.

قال مقاتل:"بكلمة واحدة كلمة الإخلاص".

قال الزجاج:"أي: أعظكم بأن توحدوا الله وأن تقولوا لا إله إلا الله مخلصا، وقد قيل واحدة في الطاعة، والطاعة تتضمن التوحيد والإخلاص".

الثالث: المعنى: إنما أعظكم بخصلة واحدة، ثم بينها فقال: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى}. وهذا قول قتادة.

=

=

عن قتادة، قوله:"{{قل إنما أعظكم بواحدة}، يقول بواحدة: {أن تقوموا لله مثنى وفرادى}، فهذه واحدة وعظهم بها".

الرابع: بالقرآن، لأنه يجمع كل المواعظ. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى} [سبأ: ٤٦]، أي:"وهي أن تنهضوا في طاعة الله اثنين اثنين وواحدًا واحدًا".

قال الطبري:"يقول: وتلك الواحدة التي أعظكم بها هي أن تقوموا لله اثنين اثنين، {وفُرادَى} فرادى".

قال ابن كثير: " أي: تقوموا قياما خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا، {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك".

قال الزجاج:"أي: أعظكم بطاعة الله لأن تقوموا لله منفردين ومجتمعين".

قال الفراء:"أي: يكفيني منكم أن يقوم الرجل منكم وحده، أو هو وغيره".

عن مجاهد: " {أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى}، قال: واحدًا واثنين".

قال قتادة:"رجلا ورجلين".

قال السدي:"ليس بالقيام على الأرجل، كقوله: {كُونُوا قَوّامِينَ بِالقِسْطِ} [النساء: ١٣٥]".

عن محمد بن كعب القرظي، في قوله: {قُلْ إنَّما أعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وفُرادى}، قال: يقوم الرجل مع الرجل أو وحده، فيتفكر {ما بِصاحِبِكُمْ مِن جِنَّةٍ}".

=

=

قال السعدي:"أي: تنهضوا بهمة، ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك، فإذا قمتم لله، مثنى وفرادى، استعملتم فكركم، وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيئته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ، ليس بمجنون، لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدبا، وسكينة، وتواضعا، ووقارا، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلا. ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب، أمنا، وإيمانا، وتزكى النفوس، وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب عن مساوئ الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم رمقته العيون، هيبة وإجلالا وتعظيما، فهل هذا يشبه هذيان المجانين، وعربدتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟ فكل من تدبر أحواله ومقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقا، ونبيه صدقا، خصوصا المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره".

قوله تعالى: {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ} [سبأ: ٤٦]، أي:"ثم تتفكروا في حال صاحبكم رسول الله ﷺ وفيما نسب إليه، فما به من جنون"

قال الفراء:"ثم تنفكروا هل جربتم على محمد كذبا أو رأوا به جنونا ففي ذلك ما يتيقنون أنه بنى".

=

=

قال الزجاج:"المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا أن النبي ﷺ ما هو بمجنون كما تقولون، والجنة الجنون".

قال النحاس:"أي: يقوم أحدكم وحده ويشاور غيره فيقول هل علمت أن هذا الرجل كذب قط أو سحر أو كهن أو شعر ثم تتفكروا بعد ذلك فإنه يعلم أن ما جاء به من عند الله جل وعز ويقال إن من تحير في أمر ثم شاور فيه ثم فكر بعد ذلك تبين له الحق واعتبر".

قال ابن قتيبة في الآية:"تأويله أن المشركين قالوا: إن محمدا مجنون وساحر، وأشباه هذا من خرصهم، فقال الله جل وعز لنبيه ﷺ: قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة، وهي أن تنصحوا لأنفسكم، ولا يميل بكم هوى عن حق، فتقوموا لله وفي ذاته، مقاما يخلو فيه الرجل منكم بصاحبه فيقول له: هلم فلنتصادق، هل رأينا بهذا الرجل جنة قط أو جرينا عليه كذبا؟ فهذا موضع قيامهم مثنى. ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيفكر وينظر ويعتبر. فهذا موضع قيامهم فرادى. فإن في ذلك ما دلهم على أنه نذير. وكل من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه: أن يسأل ويناظر، ثم يفكر ويعتبر".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: ٤٦]، أي:"وما هو إلا مخوِّف لكم، ونذير من عذاب جهنم قبل أن تقاسوا حرها".

قال الطبري:"يقول: ما محمد إلا نذير لكم ينذركم على كفركم بالله عقابه أمام عذاب جهنم قبل أن تصلوها".

قال الزجاج:"أي: ينذركم أنكم إن عصيتم لقيتم عذابا شديدا".

عن ابن عباس قال: "صَعدَ النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: "يا صباحاه".

=

=

فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقوني؟ " قالوا: بلى. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}".

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال: "أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "إنما مثلي ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس، أوتيتم. أيها الناس، أوتيتم - ثلاث مرات".

قال العثيمين: انظر إلى إنصاف الله ﷻ في مخاطبة الخلق!.

قوله تعالى: {قل} أي: يا محمد موجها الخطاب إلى هؤلاء المكذبين: {إنما أعظكم بواحدة} الجملة هذه فيها حصر وتقديرها: ما أعظكم إلا بواحدة، يعني: ما أدعوكم دعاء واعظ ناصح لكم إلا إلى واحدة فقط، فـ (أعظكم) هنا مضمنة معنى (أنصحكم)، يعني: أنا أدعوكم ناصحا لكم وواعظا إلى هذه الخصلة.

وقوله تعالى: {بواحدة أن تقوموا} قال المصنف رحمه الله: هي [أن تقوموا لله] وعلى هذا فيكون (أن تقوموا) في موضع جر عطف بيان على قوله سبحانه وتعالى: {بواحدة} يعني: أنه بين هذه الواحدة بقوله تعالى: {أن تقوموا لله} إلى آخره، و (أن تقوموا) هنا المراد بها: أن تثبتوا على الشيء، وليس المراد القيام ضد القعود، فهو كقوله سبحانه وتعالى: {وأن تقوموا لليتامى بالقسط} [النساء: ١٢٧]، ليس المراد أن تقوموا لليتامى؛ يعني: أن تقف له وقوفا، وهكذا {أن

=

=

تقوموا لله} ليس المراد أن تقفوا قياما، بل أن تثبتوا وتنظروا في الأمر.

وقوله تعالى: {أن تقوموا لله} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [لأجله] فاللام هنا للإخلاص، أي: أن تقوموا مخلصين لله عَزَّوَجَلَّ، لا مقلدين لآبائكم ولا متعصبين لآرائكم، جردوا نياتكم من كل شيء، إلا لله تعالى أن تقوموا لله سبحانه وتعالى وحده؛ لا مراعاة لي، ولا مراعاة لآبائكم، ولا لحميتكم، ولكن {لله}.

وقوله تعالى: {مثنى}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [اثنين اثنين]، وهل المراد حقيقة التثنية؟ يعني: أن يقوموا على اثنين اثنين، أو المراد مجرد الزيادة على الواحد؟ يعني: أنه مثنى لا يراد به حقيقة الاثنين؟ بل المراد أن تقوموا لله تعالى مجتمعين سواء كنتم اثنين أم ثلاثة أم أربعة أم خمسة أم عشرة، هذا هو الظاهر.

وقال بعض المصنفين رحمهم الله: المراد بالمثنى هنا حقيقة الاثنين. وعللوا ذلك بأن الناس إذا كثروا اضطربت آراؤهم، وكثر الشجار بينهم، وفات المقصود؛ لأنك الآن لو وضعت رأيا بين عشرة كم يأتيك من رأي؟

الجواب: عشرة آراء، وبين اثنين؟ يأتيك رأيان، قالوا: فالاثنان أقرب إلى الحصر وأقرب إلى تصور المسألة مما إذا كانوا أكثر من اثنين، ولكن قد يقال: إن هذا حقيقة.

لكن أحيانا يكون الثلاثة والأربعة أسد رأيا من الاثنين فقط، فتحمل الآية على أن المراد بالمثنى مطلق الجمع، سواء كانوا اثنين أو أكثر، والمثنى قد يراد به مطلق الجمع، كما في قوله تعالى: {فارجع البصر هل ترى من فطور (٣) ثم ارجع البصر كرتين} [الملك: ٣ - ٤]، أي: كرة بعد كرة، وليس المراد حقيقة الاثنين، وكقول الإنسان وهو يلبي بالحج أو العمرة يقول: لبيك. يعني: إجابة لك بعد

=

=

إجابة.

وقوله: {أن تقوموا} المراد بالقيام: الثبات على هذا الأمر، تقوموا ثابتين، ثم تتفكروا في شأن هذا الرسول الذي جاءكم من عند الله تعالى، وقال: إنه رسول الله تعالى.

وقوله سبحانه وتعالى: {ما بصاحبكم من جنة} هذا القول هل هو من كلام الله سبحانه وتعالى؛ ليبطل قولهم؟ أو أنه ما يتفكرون فيه، يعني -كما قال الشارح-: [فتعلموا ما بصاحبكم من جنة] المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أن: {ما بصاحبكم من جنة} هو مفعول لما يقتضيه التفكر، والقول الثاني: {ثم تتفكروا} أي: في شأنكم، وفي حالكم، ثم استأنف فقال تعال: {ما بصاحبكم من جنة}، وهذا من كلام الله تعالى، وليس مفعولا لما يقتضيه التفكر وهو العلم.

وقوله سبحانه وتعالى: {بصاحبكم} المراد به محمد رسول الله ﷺ، لكنه عبر عنه بالصاحب المضاف إليهم زيادة في التشنيع عليهم والتوبيخ، كأنه يقول: هذا صاحبكم الذي تعرفونه، ليس رجلا منكرا عليكم، بل هو صاحبكم الذين تعرفون عقله وصدقه وأمانته، فكيف تقولون: إنه ساحر، وإنه مجنون، وإنه شاعر، وإنه كاهن، وما أشبه ذلك؟! ففيه إضافة إليهم زيادة التشنيع عليهم، هذه واحدة.

فيه أيضا الإشارة إلى أنه كان ينبغي أن يكونوا أول من يصدق به، وأول من يناصره؛ لأنه صاحبهم، وصاحب الإنسان مستحق للنصر منه والمساعدة والمعاونة، فكان في الإضافة هنا فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التشنيع عليهم في أنهم يصفون صاحبهم الذي يعرفونه بهذا

=

=

الوصف.

الفائدة الثانية: أنه كان أولى بهم وهو صاحبهم أن يكونوا أول الناس تصديقا به، وأشد الناس معونة له.

وقوله تعالى: {ما بصاحبكم من جنة} الجار والمجرور خبر مقدم، و {من جنة} مبتدأ مؤخر قرنت به (من) الزائدة من حيث الإعراب المفيدة لمعنى، فمن حيث المعنى الفائدة منها هي المبالغة، أو التأكيد في النفي؛ لأن (من) إذا دخلت على المنفي أفادت العموم، وصارت نصا فيه.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{من جنة} جنون] فالجنة هنا بمعنى: الجنون، ويمكن أن يكون المراد به الجن الذي إذا خالط الإنسان جن.

وقوله تعالى: {إن هو إلا نذير لكم}: {إن} سبق لنا أنها تأتي في اللغة على أربعة أوجه، وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {إن} بمعنى [ما] وهي نافية، {هو} محمد عليه الصلاة والسلام، الذي هو صاحبكم {إلا نذير لكم بين يدي} أي: قبل عذاب شديد في الآخرة إن عصيتموه، يعني: ما محمد عليه الصلاة والسلام إلا رجل من أعقل الناس، ومن أحن الناس على قومه؛ لأنه نذير لكم، ينذركم من العذاب الشديد القريب لهم، عندما قال تعالى: {بين يدي عذاب شديد}، وبين يدي الشيء هو أن يكون قريبا منه، فالنبي عليه الصلاة والسلام هذه حاله رجل عاقل ناصح لقومه حان عليهم؛ لأن الذي ينذرك من العذاب يعتبر محسنا إليك.

ولو أن رجلا جاء يصيح: أيها الناس جاءكم العدو، أيها الناس جاءتكم النار السعير، أيها الناس جاءكم الماء الفيضان. نصف هذا الرجل بأنه ناصح وعاقل، وحان عليكم، يحب لكم السلامة من الشرور.

=

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧).

{قُلْ} لَهُمْ {مَا سَأَلْتُكُمْ} عَلَى الْإِنْذَار وَالتَّبْلِيغ {مِنْ أَجْر فَهُوَ لَكُمْ} أَيْ لَا أَسْأَلكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا {إنْ أَجْرِي} مَا ثَوَابِي {إلَّا عَلَى الله وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء شَهِيد} مُطَّلِع يَعْلَم صِدْقِي[1].

=

فالنبي عليه الصلاة والسلام بالنسبة لنا ما هو إلا نذير ينذرنا من العذاب الشديد القريب؛ ولهذا قال تعالى: {بين يدي عذاب شديد} والشديد بمعنى: القوي.

وهل المراد عذاب الآخرة أو يشمل عذاب الآخرة والدنيا؟

الصحيح: أنه يشمل عذاب الآخرة والدنيا، ولذلك عذب المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام في الدنيا قبل الآخرة.

فزعماء قريش وصناديدهم قتلوا في بدر، وألقوا جيفا منتنة في قليب من قرى بدر، ومن بقي منهم كان آخر أمرهم أن دخلت عليهم البلد من أقطارها، وأذلوا حتى كان الواحد لا يأمن إلا بتأمين؛ "من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"، ومن لم يكن في هذا فليس بآمن، وهذا من أكبر الذل، أن تستحل بلدك ولا تأمن فيها إلا بتأمين، هذا لا شك أنه ذل وعار.

وآخر الأمر أن النبي عليه الصلاة والسلام هو الذي من عليهم وقال ﷺ: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، وهذا بلا شك أنه عذاب في الدنيا، لكن إذا أسلموا كان مثل هذا العذاب كافيا، ومن أبى وكفر كان له العذاب الشديد في الآخرة.

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} [سبأ: ٤٧].

=

=

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لقومك المكذبيك، الرادين عليك ما أتيتهم به من عند ربك: ما أسألكم من جُعْلٍ على إنذاريكم عذاب الله، وتخويفكم به بأسه، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالإيمان بالله، والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجة لي به. وإنما معنى الكلام: قل لهم: إني لم أسألكم على ذلك جعلا فتتهموني، وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمال آخذه منكم".

قال الزجاج:"معناه: ما سألتكم من أجر على الرسالة أؤديها إليكم، والقرآن الذي أتيتكم به من عند الله - فهو لكم - وتأويله: أني إنما أنذركم وأبلغكم الرسالة ولست أجر إلى نفسي عرضا من أعراض الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله.

قال السعدي:"وثَمَّ مانع للنفوس آخر عن اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته. فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر فقال: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} أي: على اتباعكم للحق {فَهُوَ لَكُمْ} أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم".

عن قتادة، قوله: " {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ}، أي: جُعل {فَهُوَ لَكُمْ}، يقول: لم أسألكم على الإسلام جعلا".

قوله تعالى: {إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ} [سبأ: ٤٧]، أي:"ما أجري الذي أنتظره إلا على الله".

قال الطبري:"يقول: ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمان بالله والعمل بطاعته، وتبليغكم رسالته، إلا على الله".

=

=

قال الزجاج:"أي: إنما أطلب ثواب الله بتأدية الرسالة".

قال ابن كثير:"أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سبأ: ٤٧]، أي:"هو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع، كلٌّ بما يستحقه".

قال الطبري:"يقول: والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد يشهد لي به، وعلى غير ذلك من الأشياء كلها".

قال ابن كثير:"أي: عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم، وما أنتم عليه".

قال السعدي:"أي: محيط علمه بما أدعو إليه، فلو كنت كاذبا، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضا على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قل} [لهم] {ما سألتكم من أجر فهو لكم}: {قل} الخطاب معلوم أنه للرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنه هو النذير لهؤلاء.

وقوله تعالى: {ما} يحتمل أن تكون شرطية، يعني: أي أجر أسأله منكم فهو لكم، ويحتمل أن تكون اسما موصولا، كأن يقول: الذي سألتكم من الأجر فهو لكم. ويكون اقتران الفاء بالخبر؛ لأن اسم الموصول يشبه الشرط في العموم، فأعطي حكمه {قل ما سألتكم} على الإنذار والتبليغ {من} بيان لـ {ما}، وليست زائدة؛ لأن {ما} غير نافية.

وقوله تعالى: {من أجر} الأجر، هو ما يعطى في مقابلة عمل أو استيفاء نفع، في مقابلة عمل كما لو استأجرت رجلا ليعمل لي عملا، واستيفاء نفع كما لو

=

=

استأجرت منك بيتا، فالأجر هو ما يعطى على عمل أو استيفاء منفعة؛ لأن هذا العمل الذي قمت به إن كنت سألت عليه أجرا وقلت: تعطوني مالا أو أعطوني كذا فهو لكم.

وقوله تعالى: {ما سألتكم من أجر فهو لكم} هذا على فرض أن يكون ذلك موجودا، وإلا فإنه غير موجود، كما قال تعالى: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} [ص: ٨٦]، فالرسول عليه الصلاة والسلام ما سأل من أجر، بل قال لهم: إن كنت سألتكم أجرا فهو لكم، لا تعطوني إياه، قال: {إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد}: (إن) بمعنى (ما)، ومن علامة (إن) النافية أن يقع بعدها (إلا)، وذلك ليس بشرط.

وقوله تعالى: {إن أجري} أي: ثوابي على تبليغي وعلى إنذاري، إلا على الله ﷻ وحده، ونعم المثيب سبحانه وتعالى، فإن أجري على الله تعالى؛ فإنه سيجلب الثواب العظيم؛ لأن عطاء أكرم الأكرمين سيكون أعظم العطاء؛ ولهذا يجزي الله سبحانه وتعالى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

ثم الداعي إلى الله ﷻ يؤجر على دعوته سواء قبلت أم رفضت، ويؤجر أيضا على ما يناله عليه من أذى، سواء كان الأذى قوليا أو فعليا، وسواء كان يعود الأذى إلى رد ما جاء به، أو يعود الأذى إلى اتهام هذا الإنسان بما يشدخ كرامته.

وكل هذا قد وقع للرسول عليه الصلاة والسلام، أوذي على دعوته وأوذي في ما يخدش كرامته ونزاهته، فأصحاب الإفك لما رموا عائشة رضي الله عنها ما رموا عائشة لأنها عائشة، رموها لأنها زوج النبي ﷺ، فالرسول ﷺ أوذي في عرضه وأوذي في بدنه، وأوذي في مهمته التي جاء من أجلها، فأجره على الله سبحانه وتعالى.

=

=

واعلم أنك كلما أوذيت في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أجر لك من جهة، وزيادة قوة لدعوتك من جهة أخرى؛ لأن الإنسان إذا أوذي على شيء لا بد أن يجد من يتعاطف معه كما تقتضيه سنة الله ﷻ، حتى الذين يتكلمون بالباطل إذا أوذوا على باطلهم وجدوا من يتعاطف معهم، فكيف من يتكلم بالحق.

ولهذا أنا أدعو نفسي وإياكم أن يكون علمنا منسابا إلى غيرنا، بمعنى أن ننشر العلم وأن ندعو الناس إليه، صحيح أن حضورنا إلى مجلس العلم وتعلمنا لا شك أن فيه فائدة عظيمة، وأنه مجلس من مجالس الذكر، لكن ينبغي أن ننشر هذا العلم، وأن ندعو الناس إليه بقدر المستطاع.

وأما أن نبقى كنسخ من كتب، الفائدة لا تعدو صدورنا، فهذا لا شك أنه ضعيف، ولا يليق بطالب العلم، وعلينا أن نعرف ما جرى لأئمة المسلمين وعلماء المسلمين رحمهم الله من الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ولست بذلك أريد أن تكرسوا جهودكم كلها للدعوة، لأن الدعوة بلا علم ضررها أكثر من نفعها، كما يوجد من بعض الإخوة الحريصين على الخير تجدهم يضيعون أوقاتهم في الزيارات إلى فلان وإلى فلان، وفي الخروج، حتى إن العلم عندهم ليس بشيء، بل تجدهم يكرهون العلم والتعمق فيه، ويريدون أن تكون دعوتهم دعوة سطحية مهلهلة، أي إنسان يأتيهم يقفون!.

وأنا أريد منكم أن تكونوا علماء ربانين، دعاة إلى الخير مهما استطعتم، ويكون أجركم على الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان مسؤول عن علمه، فإن الله سبحانه وتعالى ما أعطاك العلم إلا بميثاق: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

=

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨).

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِف بِالْحَقِّ} يُلْقِيه إِلَى أَنْبِيَائِهِ {عَلَّام الْغُيُوب} مَا غَابَ عَنْ خَلْقه فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض[1].

=

لتبيننه للناس ولا تكتمونه} [آل عمران: ١٨٧].

وقوله سبحانه وتعالى: {إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد}، يعني: مطلع عليه، ومنه حالي معكم، فهو مطلع عليه، مطلع على أني بلغتكم وأنذرتكم، ومطلع على أنكم كذبتموني وخالفتموني، فأجري على الله سبحانه وتعالى، وعقوبتكم على الله ﷻ، كما قال سبحانه وتعالى: {فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمصيطر (٢٢) إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤) إن إلينا إيابهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم} [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وهل الله ﷻ شهيد على ما في نفس الإنسان؟

الجواب: نعم، شهيد حتى على ما لا يطلع عليه أحد، فالله تعالى شهيد عليه.

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} [سبأ: ٤٨].

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد لمشركي قومك {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ} وهو الوحي، يقول: ينزله من السماء، فيقذفه إلى نبيه محمد ﷺ".

قال الزجاج:"معنى: «يقذف بالحق» أي: يأتي بالحق ويرمي بالحق، كما قال - جل وعز -: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُه} [الأنبياء: ١٨]".

قال ابن كثيرهو:"كقوله تعالى: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [غافر: ١٥]. أي: يرسل الملك إلى مَنْ يشاء من عباده من أهل الأرض".

=

=

عن قتادة، قوله: " {إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ}، أي: بالوحي".

قوله تعالى: {عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [سبأ: ٤٨]، أي:"والله علام الغيوب، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء".

قال الحسن: " الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قال الطبري:"يقول: علام ما يغيب عن الأبصار، ولا مَظْهَر لها، وما لم يكن مما هو كائن".

قال ابن كثيرهو:"فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض".

قال السعدي: أي:"الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب، من الوساوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك، ويدفعه من الحجج".

قال ابن زيد:"يزهق الله الباطل، ويثبت الله الحق الذي دمغ به الباطل، يدمغ بالحق على الباطل، فيهلك الباطل ويثبت الحق، فذلك قوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ}".

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {إن ربي يقذف} هذه جملة خبرية مؤكدة بـ(إن) واسم (إن) {ربي} وخبرها جملة {يقذف}، و {علام الغيوب} خبر ثان؛ يعني: هو أيضا علام الغيوب.

وقوله تعالى: {يقذف} القذف هو الرمي بقوة.

وقوله تعالى: {بالحق} أي: بالقول الحق، وهو الوحي الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه، وظاهر كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن القذف هنا لازم لا يتعدى الأنبياء عليهم السلام، وأن المراد به الوحي المنزل على الرسل، ولكن قول المصنف فيه نظر، والصواب: أن هذه الآية تفسرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: {بل نقذف

=

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩).

=

بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق} [الأنبياء: ١٨]، وأن معنى الآية {قل إن ربي يقذف بالحق} على الباطل، وهو إشارة إلى أن حقه سوف يمحو باطله ويزهقه ويهلكه، بدليل قوله فيما بعد: {قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد} [سبا: ٤٩].

وقوله تعالى: {علام} بصيغة المبالغة؛ لأن الغيوب كثيرة، فناسب أن يضاف إليها العلم على سبيل المبالغة، كما أن فيه مبالغة أيضا من حيث الكيفية، لا من حيث الكمية فقط، فإن علم الله سبحانه وتعالى للغيوب ليس علما سطحيا، بل هو علم عميق يصل إلى أخفى شيء من الغيوب، قال الله تعالى: {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} [آل عمران: ٥].

وقوله تعالى: {الغيوب} جمع غيب، وهو ما غاب عن الإنسان، سواء كان في الحاضر أو الماضي أو المستقبل، أما المستقبل فظاهر، فإنه لا أحد يمكنه أن يعلم الغيب في المستقبل، بل من ادعى علم الغيب في المستقبل فهو كافر؛ لأن الله تعالى يقول: {قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله} [النمل: ٦٥]. فيكون مدعي الغيب في المستقبل مكذبا للقرآن، وتكذيب القرآن كفر.

أما الحاضر والماضي فهو في الحقيقة غيب نسبي بحيث يكون غيبا عني وليس بغيب عمن شاهده، فلو أن حادثة وقعت في بلد ما وأنا لست في هذا البلد فهي بالنسبة إلي غيب وبالنسبة لمن شاهدها ليست بغيب.

فإذن: المستقبل غيب مطلق، والحاضر والماضي غيب نسبي؛ يظهر لمن رآه ولا يظهر لمن لم يره.

{قُلْ جَاءَ الْحَقّ} الْإِسْلَام {وَمَا يُبْدِئ الْبَاطِل} الْكُفْر {وَمَا يُعِيد} أَيْ لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثر[١].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ} [سبأ: ٤٩]، أي:"قل -أيها الرسول-: جاء الحق والشرع العظيم من الله".

قال الطبري:"يقول: قل لهم يا محمد: جاء القرآن ووحي الله".

قال الزجاج:"أي: قل جاء أمر الله الذي هو الحق".

قال السعدي:"أي: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه".

قال النحاس:"التقدير: جاء صاحب الحق، أي: الكتاب الذي فيه البراهين والحجج الحق".

قال ابن كثيرهو:"أي: جاء الحق من الله والشرع العظيم، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يَطعنُ الصنم بسِيَة قَوْسِه، ويقرأ: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}، {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} ".

عن قتادة، قوله: " {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ}، أي: القرآن".

قوله تعالى: {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} [سبأ: ٤٩]، أي:"ذهب الباطل بالمرَّة فلم يبق له شيء يبدؤه ويعيده".

قال ابن فورك: أي:"أن الحق إذا جاء أذهب الباطل فلن يبق له بقية يبدئ بها ولا يعيد".

=

=

قال الثعلبي:"يعني: ذهب الباطل وزهق فلم تبق له بقية يبدي بها ولا يعيد".

قال السعدي:"أي: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدئ ولا يعيد".

قال ابن كثير:"أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة".

وقال الحسن: " {وما يبدئ الباطل} لأهله خيرا {وما يعيد}، أي: بخير الآخرة".

قال مقاتل:"يقول: ما يبدئ الشيطان الخلق فيخلقهم وما يعيد خلقهم في الآخرة فيبعثهم بعد الموت والله- جل وعز- بفعل ذلك".

وقال الضحاك: "الباطل: الآلهة، وقال: {وما يبدئ وما يعيد}، أي: ما يحيى وما يميت".

قال الطبري:"يقول: وما ينشئ الباطل خلقًا، ولا يعيده حيًّا بعد فنائه، والباطل هو فيما فسره أهل التأويل: إبليس".

قال الزجاج:"الباطل: -ههنا-: إبليس، والمعنى: وما يعيد إبليس وما يفيد، أي: لا يخلق ولا يبعث، والله - عز وجل - الخالق والباعث، ويجوز أن يكون الباطل صاحب الباطل وهو إبليس".

قال قتادة" و «الباطل»: إبليس، أي: ما يخلق إبليس أحدًا ولا يبعثه".

قال ابن كثير:"وهذا [أي: ان الباطل هو إبليس] وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا. والله أعلم".

قال القشيري في الآية:"الباطل على ممر الأيام لا يزيد إلا زهوقا، والحق على ممر الأيام لا يزداد إلا قوة وظهورا".

قال العثيمين: قال المصنف رحمه الله: [الإسلام]، والإسلام لا شك أنه دين الحق؛

=

=

وأنه سيعلو على جميع الأديان، كما قال الله ﷻ: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون} [الصف: ٩]، ولو أن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمم، وقال: جاء الحق. أي: كل ما أخبر به الرسول ﷺ وما جاء به من أحكام فهو حق.

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وما يبدئ الباطل} الكفر {وما يعيد} أي: لم يبق له أثر] هذه الجملة: {وما يبدئ الباطل وما يعيد} أو (ما يبدئ فلان وما يعيد) أسلوب من أساليب العرب، كناية عن هلاك هذا الشيء، وعدم وجوده؛ لأن الذي لا يبدئ يعني: لا يأتي بالشيء ابتداء، ولا يعيد ما صنعه أولا، هذا غير موجود في الواقع، ما له حراك، فهو موجود كالهالك.

والمعنى: {وما يبدئ الباطل} أي: ما يتبين ابتداء {وما يعيد} ما يتبين إعادة، فهو إذن هالك لا أثر له، لا ابتداء، ولا إعادة، فإذا كان الحق قد جاء، والباطل ما يبدئ ولا يعيد، فمعناها أن الدولة ستكون للحق لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام وإن كذبوه.

قوله تعالى: {الباطل} إن كان في الأخبار فهو الكذب، وإن كان في الأحكام فهو الجور والظلم، وكل ما خالف حكم الله تعالى فهو جور وظلم، وإن زعم أهله أنهم عادلون فيه فهم كاذبون.

فالقوانين الوضعية المخالفة لشريعة الله تعالى نقول: إنها باطل. ونقول: إنها ظلم وجور.

وأما ما وافق الشرع فإنه وإن سمي قانونا أو نظاما فهو شرع، يعني: لو أن أحدا صنع مواد معينة في الحكم، لكنها مأخوذة من الكتاب والسنة لا نقول: إن هذه

=

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) .

{قُلْ إنْ ضَلَلْت} عَنْ الْحَقّ {فَإِنَّمَا أَضِلّ عَلَى نَفْسِي} أَيْ إثْم ضَلَالِي عَلَيْهَا {وَإِنْ اهْتَدَيْت فَبِمَا يُوحِي إلَيَّ رَبِّي} مِنْ الْقُرْآن والحكمة {إنه سميع} للدعاء {قريب}[1].

=

قوانين وضعية أو نظم وضعية. بل نقول: هي أحكام شرعية، لكنها رتبت على مواد، كما إن الفقهاء رحمهم الله رتبوا الفقه على أبواب، فالخلاف في كيفية العرض وإلا فهو حق.

أما أن نقنن الشريعة بأن ندخل عليها أحكاما تخالف أحكامها فهذا كفر، {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة: ٤٤]، فأما تقنينها بمعنى: تبويبها وجعلها مواد معينة فهذا لا بأس به، بشرط ألا يكون الحكم لازما بهذه المواد، لأن إلزام القضاة مثلا أو الحكام بأن يحكموا بهذه المواد معناه أنهم يلزمون بأن يحكموا بما يعتقدون أن الحق في خلافه؛ لأن الناس يختلفون في مثل هذه، فقد ترى اللجان مثلا أن الحكم في هذا هو كذا وكذا، ويرى القاضي أن الحكم خلاف ذلك، فوضعها على أنها موضحة أو كاشفة أو دالة، هذا لا بأس به بلا شك، ولكن وضعها على أنها ملزمة هذا لا يجوز لأن الناس يختلفون في الاجتهاد.

(١) قوله تعالى: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي} [سبأ: ٥٠]، أي:"قل: إن مِلْت عن الحق فإثم ضلالي على نفسي".

عن عمر بن سعد:"{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي}، قال: أؤخذ

=

=

بجنايتي".

قال الطبري: يقول:"قل يا محمد لقومك: إن ضللت عن الهدى فسلكت غير طريق الحق، إنما ضلالي عن الصواب على نفسي، يقول: فإن ضلالي عن الهدى على نفسي ضره".

قال البيضاوي: أي:"قل إن ضللت عن الحق، فإن وبال ضلالي عليها لأنه بسببها إذ هي الجاهلة بالذات والأمارة بالسوء".

قال ابن كثير: أي: " ومَنْ ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه،، كما قال عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، لما سئل عن تلك المسألة في المفوَضة: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه ".

قال مقاتل:"وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - لقد ضللت حين تركت دين آبائك، {فإنما أضل على نفسي}، إنما ضلالتي على نفسي".

قال السعدي:"لما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له، يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق، ووضحه لهم، وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال، ليس بضائر الحق شيئا، ولا دافع ما جاء به. وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعد إلى غيره".

قوله تعالى: {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} [سبأ: ٥٠]، أي:"وإن استقمت عليه فبوحي الله الذي يوحيه إليَّ".

قال الطبري: يقول: وإن استقمت على الحق فبوحي الله الذي يوحِي إلي،

=

=

وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى".

قال ابن كثير:"أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله ﷻ من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد".

قال البيضاوي: " فإن الاهتداء بهدايته وتوفيقه".

قال السعدي:"فليس ذلك من نفسي، وحولي، وقوتي، وإنما هدايتي بما {يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي} فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري".

قوله تعالى: {إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سبأ: ٥٠]، أي:"إن ربي سميع لما أقول لكم، قريب ممن دعاه وسأله".

قال الطبري:"يقول: إن ربي سميع لما أقول لكم حافظ له، وهو المجازي لي على صدقي في ذلك، وذلك مني غير بعيد، فيتعذر عليه سماع ما أقول لكم، وما تقولون، وما يقوله غيرنا، ولكنه قريب من كل متكلم يسمع كل ما ينطق به، أقرب إليه من حبل الوريد".

قال ابن كثير: " أي: سميع لأقوال عباده، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه".

قال البيضاوي: أي:"يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه".

قال مقاتل:"{سميع} الدعاء، {قريب} الإجابة".

قال السعدي:"إن ربي {سَمِيعٌ} للأقوال والأصوات كلها {قَرِيبٌ} ممن دعاه وسأله وعبده".

وفي الحديث: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا».

قال العثيمين: قوله تعالى: {قل إن ضللت} هذا من باب التنزل مع الخصم، وإلا فمن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أهدى الناس.

=

=

وهذا كقول الرجل المؤمن من آل فرعون: {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم} [غافر: ٢٨] مع أن المؤمن هذا يؤمن بأنه صادق، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم؛ لإلزامه بقول الحق.

يقول الله سبحانه وتعالى: {قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي}، ومعلوم أن الإنسان لا يريد أن يتمادى في إضلال نفسه، ومثل النبي عليه الصلاة والسلام إذا ضل لا يكون ضلاله عليه وحده، بل عليه وعلى من اتبعه؛ ولهذا كان ضلال العالم أو زلة العالم من أعظم ما يفسد الناس، فزلة العالم ليست بهينة؛ لأنه قدوة وتتبعه أمة.

وقوله تعالى: {إن ضللت فإنما أضل على نفسي} وليس عليكم بذلك من شيء {وإن اهتديت} لم يقل: فإن ذلك من نفسي، بل وكله أو أضافه إلى ما جاء به الوحي النازل من عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: {فبما يوحي إلي ربي} والباء للسببية و {ما} إما أن تكون مصدرية، وإما أن تكون موصولة إن كانت موصولة فإن عائدها محذوف، تقديره: فبما يوحيه إلي ربي، وإن كانت مصدرية فلا تحتاج إلى عائد.

وقوله تعالى: {يوحي إلي ربي} الوحي في اللغة: هو الإعلام بخفاء وسرعة، سواء كان ذلك إعلاما بالهمس أو الإشارة بالعين أو الإشارة باليد، ومنه قوله تعالى: {فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا} [مريم: ١١] وما يتكلم؛ لأن الله تعالى قال: {قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا} [آل عمران: ٤١]، إذن أوحى إليه بمعنى: أشار إليه.

=

=

أما في الشرع: فهو إعلام الله سبحانه وتعالى أحدا من خلقه بشرع يؤمر بتبليغه أو لا يؤمر، فإن أمر بتبليغه فهو رسول، وإن لم يؤمر فهو نبي.

وقوله تعالى: {فبما يوحي إلي ربي} فالإضافة هنا إضافة خاصة {ربي}؛ لأن الله سبحانه وتعالى ربه ورب غيره، لكن الإضافة هنا إضافة خاصة، تفيد العناية واللطف، لأن من أكبر نعم الله على العبد أن يوحى إليه بالرسالة حتى ينال المرتبة العليا من بني آدم.

كذلك من نعمة الله سبحانه وتعالى على العبد أن يلهمه هذه الرسالة للتعلم؛ ولهذا كان العلماء هم ورثة الأنبياء عليهم السلام، فهي من أفضل النعم؛ ولهذا قال: {فبما يوحي إلي ربي} فأضاف الربوبية إلى نفسه؛ لأن هذه الربوبية خاصة، تقتضي العناية والتأييد والرحمة واللطف.

وقوله سبحانه وتعالى: {إنه سميع} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [للدعاء]، والصواب: أن الآية هنا عامة، فهو سميع لكل شيء، وليس للدعاء فقط، بل سميع لما أقول لكم، وسميع لما تقولون لي، وسميع لدعائي أيضا بمعنى: مجيب.

وقد سبق لنا أن السمع المضاف إلى الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى: إدراك المسموع، وسمع بمعنى: إجابة المسموع، أو إجابة السائل.

والسمع الذي بمعنى: إجابة المسموع تارة يراد به التهديد، وتارة يراد به التأييد، وتارة يراد به بيان الإحاطة، أي: إحاطة الله سبحانه وتعالى لكل مسموع، فهذه ثلاثة أشياء:

تارة يراد به التهديد؛ مثاله: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء} [آل عمران: ١٨١].

=

=

وتارة يراد به التأييد؛ مثاله: {قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦].
وتارة يراد به بيان الإحاطة؛ مثال: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير} [المجادلة: ١].
وأما السمع الذي بمعنى الإجابة فكقوله تعالى: {إن ربي لسميع الدعاء} [إبراهيم: ٣٩]، وقول المصلي: سمع الله لمن حمده.
وقوله سبحانه وتعالى: {قريب} اسم فاعل أو صفة مشبهة، والضمير المستتر فيها يعود على الله ﷻ، وكل فعل أو وصف يكون عائدا إلى الله تعالى فالمراد به ذات الله تعالى، هذه القاعدة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ -في مختصر (الصواعق) - يقول: كل فعل أو وصف تحمل ضميرا يعود إلى الله ﷻ فالمراد به ذات الله تعالى. لكن يجب أن يكون في ذهنك تنزه الله ﷻ عما لا يليق به، فيكون القرب هنا قرب رحمته، أو قرب علمه، أو قرب سمعه أو بصره، أو قرب ذاته.
قوله تعالى: {قريب} هو أي: ذاته؛ ولهذا صرح ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه قريب بذاته، لكن يجب أن تعلم أنه مع قربه بذاته فهو مستو على عرشه، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام: "إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"، يقوله وهم راكبون على رواحلهم، ولكن مع هذا يجب أن ننزه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به، بحيث نتوهم أنه معنا في المكان، هذا لا يمكن، بل هو قريب بذاته مع علوه.
وقد ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في (العقيدة الواسطية) قال: "هو علي في دنوه، قريب في علوه"، ولا تظن أن الجمع بين القرب والعلو فوق السموات متناقض:

=

=

أولا: لأن الله تعالى جمع بينهما لنفسه، ودل عليهما كتاب الله تعالى، وكتاب الله ﷻ لا يمكن أن يدل على المتناقض، قال تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء: ٨٢].

ثانيا: أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، يعني: لو فرض أن بين القرب والعلو تناقضا في حق المخلوق فإن ذلك لا يلزم في حق الخالق؛ لأن الله ﷻ ليس كمثله شيء.

ولهذا نقول: إن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، وهو مع ذلك مستو على عرشه، لا تقل: هذا محال، تقول: هذا محال بالنسبة للمخلوق. أما بالنسبة للخالق فيجب أن نؤمن بما أخبرنا به عن صفاته وهو الاستواء على العرش ونزوله إلى السماء الدنيا، ونقول: إن هذا ممكن في حق الخالق.

ثالثا: مما نجمع فيه بين القرب والعلو أنه قد يكون الشيء عاليا وهو قريب - حتى من المخلوقات- مثل القمر، فهو عال لكنه قريب كأنه معك، كأنه في المكان الذي أنت فيه وضوؤه واصل إلى الأرض وهو في السماء، قال الشاعر:

دان على أيدي العفاة وشاسع ... عن كل ند في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه ... للعصبة السارين جد قريب

المهم: أن إذا أضاف الشيء إلى نفسه سواء كان فعلا أو وصفا فإنه لا يجوز لنا العدول عن تحويل هذا الشيء المضاف إلى الله إلى شيء آخر؛ لأننا إذا سلكنا ذلك احتج علينا أهل التأويل من المعتزلة والأشاعرة وقالوا: كيف تؤولون هذه الآية وتنكرون علينا التأويل في آيات أخرى أو في نصوص أخرى؟! فإذا قلت لهم: إن هذا يمنعه العقل. قالوا: ونحن نرى أن ظواهر الآيات أو الأحاديث

=

=

يمنعها العقل.

لكن إذا أبقيت النصوص على ما هي عليه على ظاهر دلالتها مع تنزيه الله تعالى عما لا يليق به سلمت في دينك، وسلمت أمام الله ﷻ حين يسألك يوم القيامة: كيف تصرفت في كلامي؟ وكيف أخرجته عن ظاهره؟ وسلمت أيضا من معارضة أهل التأويل.

وقد سبق لنا في (تلخيص الحموية) أن الفلاسفة الذين ينكرون المعاد، بل وينكرون كل شيء، احتجوا على المعتزلة وأهل التعطيل، وقالوا: كيف تجوزون التأويل في آيات الصفات وأحاديثها ولا تجوزون التأويل في نصوص المعاد، إذا أولتم في هذا فأولوا في هذا، وإلا فقد ظهر تناقضكم؛ وسبق لنا إجابة المعتزلة للفلاسفة، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إننا قد علمنا بالاضطرار أن الرسل جاءت لإثبات المعاد، وعلمنا أن الشبهة المانعة منه فاسدة، ووجب القول بثبوته.

وهذه من أهم المسائل لطالب العلم في علم التوحيد.

وذكرنا أن هذه الحجة التي دافع بها المعتزلة اعتراض الفلاسفة احتج بها أهل السنة على المعتزلة، وقالوا: قد علمنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الصفات لله تعالى، وعلمنا فساد الشبهة المانعة منه فوجب القول بثبوته، وأن طرد القاعدة في هذا وهذا هو الذي فيه السلامة، أما أن نتناقض ونؤول في شيء ونبقي النصوص على ظاهرها في شيء فإن هذا وهم وضعف في الطريقة.

فالمهم: أن (القريب) هنا لا نقول: قريب في علمه، أو قريب في رحمته، أو قريب في سمعه، أو ما أشبه ذلك، فنخصصها بشيء، لأنك إذا قلت: قريب في رحمته أو سمعه أو بصره أو علمه أو ما أشبة ذلك خصصته، فإذا قلت: قريب بذاته. شمل

=

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١).

{وَلَوْ تَرَى} يَا مُحَمَّد {إِذْ فَزِعُوا} عِنْد الْبَعْث لَرَأَيْت أَمْرًا عَظِيمًا {فَلَا فَوْت} لَهُمْ مِنَّا أَيْ لَا يَفُوتُونَنَا {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَان قَرِيب} أَيْ الْقُبُور[1].

=

كل ما تقتضيه هذه الذات من الصفات، فكان أعم.

وقد صرح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في (شرح حديث النزول) بأنه سبحانه وتعالى قريب بنفسه، وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قال: إنه قريب بذاته. ولكن مع ذلك يجب علينا أن نعلم علم اليقين بأنه قريب، ولكنه في السماء على عرشه، وهذا لا تناقض فيه، وقد سبق الجواب على ما يوهم أنه متناقض، وأن الجواب عليه من ثلاثة أوجه.

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ} [سبأ: ٥١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى يا محمد إذ فزعوا".

قال ابن كثير:"ولو ترى - يا محمد - إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة، {فَلا فَوْتَ} أي: فلا مفر لهم، ولا وزر ولا ملجأ".

قال القرطبي:"ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق، والمعنى: لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم".

قال الزجاج:"هذا في وقت بعثهم، أي: فلا فوت لهم، لا يمكنهم أن يفوتوا".

واختلف أهل التفسير في فزعهم، على خمسة اقوال:

أحدها: فزعهم يوم القيامة، قاله مجاهد ، وابن معقل.

وقال مجاهد:"حين عاينوا عذاب الله".

=

=

عن الأوزاعي، قال: "سمعتُ بلال بن سعد يقول في قوله تعالى: {ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت}، قال: ذلك قوله تعالى: {يقول الإنسان يومئذ أين المفر} [القيامة: ١٠]".

الثاني: فزعهم في الدنيا حين عند نزول نقمة الله بهم. قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك ،وزيد بن أسلم.

قال ابن عباس:"هذا من عذاب الدنيا".

قال قتادة:"فزعوا " في الدنيا حين رأوا بأس الله {فلا فوت}".

قال قتادة:"في الدنيا، عند الموت، حين عاينوا الملائكة، ورأوا بأسَ الله".

قال الضحاك:"هذا عذاب الدنيا".

قال الضحاك:"هو يوم بدر". وروي عن زيد بن أسلم مثله.

قال السدي:"هذا يوم بدر حين ضُرِبَت أعناقُهم، فعاينوا العذابَ، فلم يستطيعوا فِرارًا من العذاب، ولا رجوعًا إلى التوبة".

الثالث: هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه، فيفزعوا فهذا هو فزعهم، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل.

وقال سعيد بن عبدالرحمن بن أبزى:"خُسِف بالبيداء".

وعن عطية بن سعد العوفي:"قوم خُسِف بهم؛ أُخذوا من تحت أقدامهم".

الرابع: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم فلم يستطيعوا فرارًا من العذاب ولا رجوعًا إلى التوبة، قاله السدي، وابن زيد.

وقال ابن زيد:"هؤلاء قتلى المشركين من أهل بدر، نزلت فيهم هذه الآية، قال: وهم الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم، أهل بدر من

=

=

المشركين".

الخامس: هو فزعهم يوم القيامة حين يخرجون من قبورهم. قاله الحسن.

قال الحسن:"في القبور من الصيحة".

وقال الحسن:"يعني: النفخة الأولى التي يُهلِك اللهُ بها كفارَ آخرِ هذه الأمة".

وقال ابن قتيبة:"أي: عند البعث".

قال الطبري:"والذي هو أولى بالصواب في تأويل ذلك، وأشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل قول من قال: وعيد الله المشركين الذين كذبوا رسول الله ﷺ من قومه، لأن الآيات قبل هذه الآية جاءت بالإخبار عنهم وعن أسبابهم، وبوعيد الله إياهم مغبته، وهذه الآية في سياق تلك الآيات، فلأن يكون ذلك خبراً عن حالهم أشبه منه بأن يكون خبراً لما لم يجر له ذكر. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ولو ترى يا محمد هؤلاء المشركين من قومك، فتعاينهم حين فزعوا من معاينتهم عذاب الله {فَلا فَوتَ} يقول: فلا سبيل حينئذٍ أن يفوتوا بأنفسهم، أو يعجزونا هربًا، وينجوا من عذابنا".

وفي قوله تعالى: {فَلَا فَوْتَ} [سبأ: ٥١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: فلا نجاة، قاله ابن عباس.

الثاني: فلا هرب. قاله الضحاك. وهو معنى قول مجاهد.

قال مجاهد:"يوم القيامة {فلا فوت} فلم يفوتوا ربك".

الثالث: فلا سبق، قاله قتادة.

قال يحيى بن سلام:"لا يفوت أحد منهم دون أن يهلك بالعذاب".

قال الزجاج:"أي: فلا فوت لهم، لا يمكنهم أن يفوتوا".

=

=

قوله تعالى: {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} [سبأ: ٥١]، أي:"وأُخذوا إلى النار من موضع قريب التناول".

قال الطبري:"يقول: وأخذهم الله بعذابه من موضع قريب، لأنهم حيث كانوا من الله قريب لا يبعدون عنه".

قال ابن كثير:"أي: لم يكونوا يُمنعون في الهرب بل أخذوا من أول وهلة".

وفي قوله تعالى: {وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ} [سبأ: ٥١]، وجوه من التفسير:

أحدها: من تحت أقدامهم، قاله مجاهد ، وعطية العوفي ، مقاتل ، وحكاه يحيى بن سلام عن بعضهم.

الثاني: يعني قتلهم يوم بدر، قاله عبد الرحمن بن زيد.

قال ابن زيد:"هؤلاء قتلى المشركين من أهل بدر، نزلت فيهم هذه الآية، قال: وهم الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم، أهل بدر من المشركين".

الثالث: هو جيش السفياني، قاله سعيد بن جبير ، وحكاه الماوردي عن ابن عباس.

قال ابن كثير:"حكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس، ثم أورد في ذلك حديثا موضوعا بالكلية. ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه".

الرابع: عذاب الدنيا، قاله ابن عباس ، والضحاك.

عن ابن عباس، قوله: " {وَلَوْ تَرَى إِذْ فُزِعُوا فَلا فَوْتَ...} ، الى آخر الآية، قال: هذا من عذاب الدنيا".

=

=

الخامس: حين خرجوا من القبور، قاله الحسن.

وقال الحسن:"وأي شيء أقرب من أن كانوا في بطن الأرض فإذا هم على ظهرها".

قال الواحدي:"يعني القبور، وحيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه، ولا يفوتونه".

السادس: هو يوم القيامة، قاله مجاهد ايضا ، والقاسم بن نافع.

وقال يحيى بن سلام:"النفخة الآخرة".

السابع: في أسرِّ ما كانوا فيه نفوسًا، وأقوى ما كانوا عليه أملًا لأنه أقرب بلاء من نعمه. أفاده الماوردي.

قال ابن كثير:"الصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك".

قال العثيمين: قوله تعالى {ولو} هذه شرطية، وفعل الشرط فيها {ترى}، وجواب الشرط محذوف تقديره: لرأيت أمرا عظيما، وحذف للتفخيم والتعظيم؛ لأجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب؛ أو لأنك مهما قدرت فالأمر أعظم مما قدرت.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا محمد] هذا لا شك أنه محتمل، أي: أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وفيه احتمال أن لمن يصح توجه الخطاب إليه؛ الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره، وهذا أحسن؛ لأنه أعم ومتى وجد الأعم والأخص فإن الأولى الأخذ بالأعم؛ لدخول الأخص فيه، ولا عكس.

وقوله تعالى: {إذ فزعوا} هذا يوم القيامة إذا نفخ في الصور، قال الله تعالى:

=

{ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض} [النمل: ٨٧]، وقوله تعالى {ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون (٥١) قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٥٢)} [يس: ٥١، ٥٢]، يعني: لو رأيت حين فزعوا لرأيت أمرا عظيما.

وقوله تعالى: {إذ فزعوا} الفرق بين (إذ) و (إذا): أن (إذ) لما مضى، و (إذا) للمستقبل، و (إذ) تأتي أيضا تعليلية، كقوله سبحانه وتعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩)} [الزخرف: ٣٩].

وقوله سبحانه وتعالى: {فزعوا} فعل ماض مقترن بواو الجماعة، وعبر سبحانه وتعالى بالماضي عن المستقبل، ومن التعبير بالماضي عن المستقبل قوله تعالى: {أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون (١)} [النحل: ١]، وهذه صريحة؛ لأنه لو كان قد وقع ما قال فلا تستعجلوه.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولو ترى إذ فزعوا} عند البعث لرأيت أمرا عظيما].

قوله عَجَلَّ: {فلا} هذه (لا) نافيه لا للجنس و {فوت} اسمها، وخبرها محذوف، وقد قال ابن مالك عَجَلَّ في ألفيته:

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوطه ظهر

وشاع في ذا الباب إسقاط الخبر يعني: كثر إذا المراد مع سقوطه ظهر.

وقوله تعالى: {فلا فوت} أي: فلا فوت لهم، وهذا يعني أن حذف الخبر في مثل هذا التركيب أبلغ.

قوله تعالى: {فلا فوت} يعني: ما في أبدا فوات، لو قلت: فلا فوت لهم. لكان أرق، أما: {فلا فوت} فهي أشد وقعا.

وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢).

{وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} بِمُحَمَّدٍ أَوْ الْقُرْآن {وَأَنَّى لَهُمْ التَّنَاوُش} بِوَاوٍ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلهَا أَيْ تَنَاوُل الإيمان {من مكان بعيد} عن محله إذ هم في الآخرة ومحله الدنيا[1].

=

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {فلا فوت} لهم منا، أي: لا يفوتوننا] {وأخذوا من مكان قريب}: {وأخذوا} معطوفة على {فزعوا} يعني: أنهم يفزعون ويؤخذون من مكان قريب، يؤخذون بالعذاب من مكان قريب، قال المصنف ﷺ: هي [القبور] وهذا احتمال بلا شك أنها القبور؛ لأنهم يخرجون من حين ما يخرجون يجدون – والعياذ بالله تعالى– أمرا عظيما، ولهذا يقولون إذا خرجوا من قبورهم: {قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا}، {يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا (٤٠)} [النبأ: ٤٠].

فهم يؤخذون من قريب من حين ما يخرجون من القبور يكشف لهم عن أمر أعظم مما كانوا يشاهدونه في القبور، وإلا فإنهم يعذبون في قبورهم، على القول الراجح، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {وأخذوا من مكان قريب} أي: القبور].

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} [سبأ: ٥٢].

قال مجاهد: يعني: «بالله».

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وبكتبه ورسله، كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢]".

قوله تعالى: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٢]، أي:"وكيف لهم تناول الإيمان في الآخرة ووصولهم له من مكان بعيد؟ قد حيل بينهم وبينه، =

=

فمكانه الدنيا، وقد كفروا فيها".

قال ابن كثير:"أي: وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد".

وفي معنى: «التناوش»، أقوال:

أحدها: هو الرجعة، قاله ابن عباس، ومجاهد. والضحاك، ومقاتل، ومنه قول الشاعر:

تَمَنَّى أَنْ تَؤُوْبَ إليَّ مَيٌّ... وليس إلى تناوُشِها سبيلُ

عن أَبي إسحاق عن التميمي قال: قلت لابن عباس: أرأيت قول الله: {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ}، قال: يسألون الرد وليس بحين رد".

وقال ابن عباس:"فكيف لهم بالرد".

وقال سعيد:"التناوب".

قال مقاتل:"الرجعة إلى التوبة بعيد منهم لأنه لا يقبل منهم".

الثاني: هو التوبة، قاله الحسن، وأبو مالك، والسدي.

قال قتادة:"أنى لهم أن يتناولوا التوبة".

وقال الزهري: "التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا".

وقال الحسن البصري: "أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال تعاطوا الإيمان من مكان بعيد".

=

=

قال ابن زيد:"هؤلاء قتلى أهل بدر من قتل منهم، وقرأ: {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ...} الآية، قال: التناوش: التناول، وأنى لهم تناول التوبة من مكان بعيد وقد تركوها في الدنيا، قال: وهذا بعد الموت في الآخرة".

وعن ابن زيد: قوله: " {وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ} بعد القتل، {وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} وقرأ: {وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} قال: ليس لهم توبة، وقال: عرض الله عليهم أن يتوبوا مرة واحدة، فيقبلها الله منهم، فأبوا، أو يعرضون التوبة بعد الموت، قال: فهم يعرضونها في الآخرة خمس عرضات، فيأبى الله أن يقبلها منهم، قال: والتائب

عند الموت ليست له توبة {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا...} الآية، وقرأ: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُون}".

الثالث: هو التناول، قاله مجاهد ، الفراء ، وابو عبيدة ، والزجاج ، ومنه قول الشاعر:

فهي تنوش الحوض نوشا من علا... نوشا به تقطع أجواز الفلا

قال الفراء:"وتناوش القوم في القتال: إذا تناول بعضهم بعضا ولم يتدانوا كل التداني".

قال الزجاج:"التناؤش: التناول، أي: فكيف لهم أن يتناولوا ما كان مبذولا لهم وكان قريبا منهم، فكيف يتناولونه حين بعد عنهم".

عن مجاهد:"{وأَنّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ} قال: التناول لذلك".

=

=

قال مجاهد:"التناوش التناول، سألوا الرد وليس بخير رد".

الرابع: أن التناوش: تناول التوبة. قاله قتادة.

قال النحاس:"هذا أبينها يقال: ناش ينوش، إذا تناول.. والمعنى: ومن أين لهم تناول التوبة {من مكان بعيد}، أي: يبعد منه تقبل التوبة".

وفي قوله تعالى: {مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٢]، أقوال:

أحدها: من الآخرة إلى الدنيا، قاله مجاهد.

الثاني: ما بين الآخرة والدنيا، رواه القاسم بن نافع عن مجاهد.

الثالث: هو طلبهم الأمر من حيث لا ينال، قاله الحسن.

الرابع: بعيد عليهم لاستحالته عندهم. حكاه الماوردي.

قال العثيمين: قوله: {وقالوا} أي: عند فزعهم وعند أخذهم من هذا المكان القريب؛ قالوا: {آمنا به} أي: بما كنا كافرين به في الأول. فيشمل الإيمان بمحمد ﷺ، والإيمان بموسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم من الرسل عليهم السلام، هذا إذا كان الكلام عاما في جميع الكفار، فإن كان خاصا بكفار قريش فالمراد {آمنا به} أي: بمحمد ﷺ. الذي قالوا عنه: إنه كذاب. وبالقرآن الذي قالوا عنه: إنه سحر.

وقول المصنف رحمه الله: [{وأنى لهم التناوش} بواو والهمزة بدلها {التناوش} و (التناؤش)] والهمزة بدل من الواو، و {التناوش} معناه: أخذ الشيء من بعيد، يقال: تناوشت الشيء، يعني أخذته بأطراف أصابعي على بعد؛ أي: أنهم لن يتمكنوا من تحقيق ما أرادوه من الإيمان، ولا من بعد؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى: {وأنى لهم التناوش}.

وقوله سبحانه وتعالى: {وأنى} هنا استفهام بمعنى الاستبعاد؛ يعني أنه يبعد لهم

=

=

التناوش من المكان البعيد، لأن الذي يتناول الشيء إذا كان عن قرب يقال: تناوله وأدركه. وأما إذا كان عن بعد فيقال: تناوشه.

ومع ذلك فإنه لا يتمكن منه، فهؤلاء يبعد عنهم كل البعد أن ينالوا ما يريدونه من هذا الإيمان؛ لأن هذا الإيمان ضروري، يعني: أنهم اضطروا إليه، حين رأوا العذاب قالوا: {آمنا به} بل كانوا يقولون: إنهم لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا. ولكن الله تعالى كذبهم بقوله: {بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون} [الأنعام: ٢٨]. فهم بإيمانهم هذا إنما يريدون الخلاص من العذاب، ولكن العذاب بعد وقوعه لا خلاص منه.

وهذا له شواهد في القرآن كثيرة:

قال الله تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} [غافر: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن} [النساء: ١٨].

وقوله تعالى: [{وأنى لهم التناوش} أي: تناول الإيمان {من مكان بعيد} عن محله، إذ هم في الآخرة ومحله في الدنيا]، وهذا بعيد؛ لأن ما مضى من الزمن لن يرجع حتى الأيام الماضية في الدنيا لا يمكن أن ترجع، فيوم الأحد اليوم ليس هو يوم الأحد الماضي، كان وافقه في الاسم، لكنه غيره، فالشيء الماضي بعيد، والشيء المستقبل قريب، والماضي بعيد وإن قرب، والمستقبل قريب كان بعد؛ لأن كل آت قريب.

إذن نقول: إن هؤلاء حكى الله سبحانه وتعالى عنهم أنهم يقولون حين يفزعون

=

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣).

{وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْل} فِي الدُّنْيَا {وَيَقْذِفُونَ} يَرْمُونَ {بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَان بَعِيد} أَيْ بِمَا غَابَ عِلْمه عَنْهُمْ غَيْبَة بَعِيدَة حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيّ سَاحِر شَاعِر كَاهِن وَفِي الْقُرْآن سِحْر شِعْر كِهَانَة(١).

=

ويؤخذون بالعذاب يقولون: (آمنا)، ولكن هذا الإيمان لا ينفعهم؛ لأنهم يتناولونه من مكان بعيد.

وقوله تعالى: {التناوش} بمعنى: تناول الشيء من بعد، وفي اللغة العامية يقول: تناوشت الشيء. يعني: تناولته من بعد، وأيضا ما تمكنت منه التمكن التام، وكذلك إذا صار بينهم ضرب يقول: تناوش مناوشة. أي: من بعيد من دون تمكن.

(١) قوله تعالى: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} [سبأ: ٥٣].

قال الطبري:"يقول: وقد كفروا بما يسألونه ربهم عند نزول العذاب بهم، ومعاينتهم إياه من الإقالة له، وذلك الإيمان بالله وبمحمد ﷺ وبما جاءهم به من عند الله".

قال ابن كثير:"أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا بالرسل؟".

قال مقاتل:"وقد كفروا به بالقرآن من قبل نزول العذاب حين بعث الله- ﷻ- محمدا- ﷺ-".

عن قتادة، قوله: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْل}،" أي: بالإيمان في الدنيا".

قوله تعالى: {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٣]، أي:"ويرمون بالظن

=

=

من جهة بعيدة عن إصابة الحق، ليس لهم فيها مستند لظنهم الباطل، فلا سبيل لإصابتهم الحق، كما لا سبيل للرامي إلى إصابة الغرض من مكان بعيد".

قال الطبري:"يقول: وهم اليوم يقذفون بالغيب محمدًا من مكان بعيد، يعني أنهم يرجمونه، وما أتاهم من كتاب الله بالظنون والأوهام، فيقول بعضهم: هو ساحر، وبعضهم شاعر، وغير ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: يرجمون بالظن ويقولون في الدنيا لا بعث ولا جنة ولا نار، قاله الحسن ، وقتادة.

قال الزجاج:"أي: كانوا يرجمون ويرمون بالغيب، وترجيمهم أنهم كانوا يظنون أنهم لا يبعثون".

الثاني: أنه طعنهم في القرآن، قاله ابن زيد.

الثالث: أنه طعنهم في رسول الله -ﷺ- بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن، قاله مجاهد ، وسماه قذفًا لخروجه عن غير حق.

قال العثيمين: قوله سبحانه وتعالى: {وقد كفروا به من قبل} يحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية، ويحتمل أن تكون حالية من قوله تعالى: {وأنى لهم} يعني: {وأنى لهم التناوش من مكان بعيد} والحال أنهم قد {وقد كفروا به من قبل}.

وقوله: {وقد كفروا به من قبل} [يرمون] {به} أي: بالنبي ﷺ أو بالقرآن، وهم أيضا: {ويقذفون بالغيب من مكان بعيد} أي: [يرمون] والقذف - كما سبق-

=

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤).

{وَحِيلَ بَيْنهمْ وَبَيْن مَا يَشْتَهُونَ} مِنْ الْإِيمَان أَيْ قَبُوله {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ} أَشْبَاههمْ فِي الْكُفْر {مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْلهمْ {إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكّ مُرِيب} مَوْقِع فِي الرِّيبَة لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ الْآن وَلَمْ يَعْتَدُّوا بِدَلَائِلِهِ فِي الدنيا(١).

=

هو الرمي بشدة.

وقوله تعالى: {ويقذفون بالغيب} أي: يتكلمون بأمر غائب عنهم يدعونه وهم فيه كاذبون، مثل أن ينكروا البعث ويقولوا: كيف يبعث الناس وقد كانوا عظاما رميما؟ قال تعالى: {قال من يحي العظام وهي رميم} [يس: ٧٨]، {ويقذفون بالغيب} [سبأ: ٥٣] يقولون: إن محمدا ﷺ شاعر، وكاهن ومجنون، وما أشبه ذلك، فهم يتكلمون بكلام لا حقيقة له، ليس بواقع ملموس مشهود، بل هو أمر غائب عنهم، وهم لا يعلمونه، والغيب هنا شبيه بقولنا: يتكلمون بالظن، ويقولون الظن، وما أشبه ذلك.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ويقذفون بالغيب} أي: بما غاب علمه عنهم غيبة بعيدة؛ حيث قالوا في النبي ﷺ: ساحر، وشاعر، وكاهن، وفي القرآن: سحر، وشعر، وكهانة]، وكذلك قالوا في البعث: إنه مستحيل، من يحيي العظام وهي رميم؟! فحال هؤلاء إذن الكفر والكلام بالغيب من مكان بعيد، يعني: أنهم يتكلمون بأمر غائب عنهم، والغائب بعيد عن الإنسان، وكيف يتكلمون به وهم لا يعلمون.

(١) قوله تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} [سبأ: =

=

.[٥٤

قال الطبري: يقول:"وحيل بين هؤلاء المشركين حين فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب، فقالوا: آمنَّا به {وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} حينئذٍ من الإيمان بما كانوا به في الدنيا قبل ذلك يكفرون، ولا سبيل لهم إليه".

وفي قوله تعالى: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} [سبأ: ٥٤]، وجوه:

أحدها: حيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا، قاله مجاهد.

قال الزجاج:"المعنى: من الرجوع إلى الدنيا، والإيمان".

الثاني: بينهم وبين الإيمان بالله، قاله الحسن.

الثالث: بينهم وبين التوبة، قاله السدي.

الرابع: بينهم وبين طاعة الله تعالى، قاله قتادة ، وخليد.

قال قتادة:"كان القوم يشتهون طاعة الله أن يكونوا عملوا بها في الدنيا حين عاينوا ما عاينوا".

الخامس: بينهم وبين ما يشتهون من مال وولد أو زهرة الدنيا. قاله مجاهد أيضا.

وقال ابن زيد:"في الدنيا التي كانوا فيها والحياة".

السادس: حيل بين المؤمن وبين العمل، وبين الكافر وبين الإيمان، قاله يزيد بن أبي يزيد.

قال الطبري:"لأن يكون قوله: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ} خبراً عن أنه لا سبيل لهم إلى ما تمنوه أولى من أن يكون خبراً عن غيره".

قوله تعالى: {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} [سبأ: ٥٤]، أي:"كما فعل الله بأمثالهم من كفرة الأمم السابقة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم، {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٤، ٨٥]".

قال السمعاني:"الأشياع: جمع شيعة، وهم الفرق".

وفي قوله تعالى: {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} [سبأ: ٥٤]، وجوه:

أحدها: أنهم أوائلهم من الأمم الخالية قبل هؤلاء، قاله مقاتل.

الثاني: أنه أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة، قاله الضحاك.

الثالث: هم أمثالهم من الكفار الذين لم يقبل الله سبحانه منهم التوبة عند المعاينة. وهذا قول ابن زيد.

وعن مجاهد: {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ}، قال: كما فعل بالكفار من قبلهم".

قال الثعلبي:"أي: أهل دينهم وموافقهم من الأمم الماضية حين لم يقبل منهم الإيمان والتوبة في وقت البأس".

وقال الزجاج:"{كما فعل} بمن كان مذهبه مذهبهم".

قال الطبري: معناه: "فعلنا بهؤلاء المشركين؛ فحلنا بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان بالله عند نزول سخط الله بهم، ومعاينتهم بأسه، كما فعلنا بأشياعهم على كفرهم بالله من قبلهم من كفار الأمم؛ فلم نقبل منهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما لم نقبل في مثل ذلك الوقت من ضربائهم".

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:"أنه شرب ماءا باردا فبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله: {وحيل بينهم وبين ما يشتهون}، فعرفت أن أهل النار لا

=

=

يشتهون إلا الماء البارد، وقال الله: {أفيضوا علينا من الماء}".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ} [سبأ: ٥٤]، أي:"إنهم كانوا في الدنيا في شَكٍّ من أمر الرسل والبعث والحساب، مُحْدِث للريبة والقلق، فلذلك لم يؤمنوا".

قال السمعاني:"أي: في شك مرتابين".

قال ابن كثير:"أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب".

قال الطبري: يقول:"وحيل بين هؤلاء المشركين حين عاينوا بأس الله وبين الإيمان؛ إنهم كانوا قبل في الدنيا في شك، من نزول العذاب الذي نزل بهم وعاينوه، وقد أخبرهم نبيهم أنهم إن لم ينيبوا مما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، أن الله مهلكهم، ومحلٌّ بهم عقوبته في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة قبل نزوله بهم، مريب يقول: موجب لصاحبه الذي هو به ما يريبه من مكروه، من قولهم: قد أراب الرجل إذا أتى ريبة وركب فاحشة، كما قال الراجز:

يا قَومُ مَا لِي وأَبَا ذُؤَيبِ؟... كنتُ إِذَا أَتَوْتُهُ من غَيبِ

يَشُمُّ عِطْفِي وَيُبُّز ثَوْبِي... كأَنَّما أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ

يقول: كأنما أتيت إليه ريبة".

وقال مقاتل:"{إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ} من العذاب بأنه غير نازل بهم في الدنيا، {مريب}، يعني: بمريب أنهم لا يعرفون شكهم".

قال الزجاج:"فقد أعلمنا الله جل وعز أنه يعذب على الشك، وقد قال قوم من الضلال أن - الشاكين لا شيء عليهم، وهذا كفر ونقض للقرآن لأن الله - جل

=

=

وعز - قال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]".

قال قتادة: "إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه".

قال العثيمين: قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وحيل بينهم وبين ما يشتهون} من الإيمان].

قوله سبحانه وتعالى: {وحيل} فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل هو الظرف، وينوب الظرف مناب الفاعل كما ذكره ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ألفيته:

ولا ينوب بعض هذي، إن وجد ... في اللفظ مفعول به، وقد يرد

وهذا النائب هو الظرف؛ لأن المفعول به لم يوجد.

وقوله سبحانه وتعالى: {وحيل بينهم وبين ما يشتهون} فما الذي يشتهونه؟ الذي يشتهونه هو النجاة من العذاب الذي حل بهم، ولكن هذه النجاة إنما تكون لو قبل الإيمان منهم، والإيمان منهم غير مقبول في هذه الحال؛ فلهذا لم يتمكنوا مما يريدون.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [{وبين ما يشتهون} من الإيمان، أي: قبوله]، ولكن هم في الحقيقة يشتهون شيئًا قبل قبول الإيمان، وهو النجاة من العذاب، وهذا فرع عن قبول الإيمان، وقبول الإيمان غير ممكن؛ لأنه فات محله.

إذن: حيل بينهم وبين ما يشتهون، ولذا قال سبحانه وتعالى: {وحيل بينهم وبين ما يشتهون} فالذي حال بينهم وما بين ما يشتهون هو تأخر الإيمان والتوبة، ولو أن ذلك حصل في الدنيا قبل أن يعاينوا العذاب لكان ممكنا.

=

=

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{كما فعل بأشياعهم} بأشباههم في الكفر {من قبل} أي: قبلهم].

وقوله تعالى: {وحيل بينهم وبين ما يشتهون} كما حيل بين أشباههم في الكفر {من قبل} أي: من قبل هؤلاء، مثل قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعاد، وصالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيرهم، وهذا يؤيد ما ذكره بعض المصنفين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن قوله تعالى: {ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت} يعني: عند الموت؛ لأنه قال: {كما فعل بأشياعهم من قبل}، وهذا فعل ماض يدل على أن هذا أمر قد مضى على من سبق، ولو كان يوم القيامة لم يكن قد مضى من قبل.

أما على رأي المصنف ومن تابعه من المصنفين رحمهم الله: بأن الفزع هذا هو فزع يوم القيامة، ويدل عليه الآية التي استشهدنا بها من قبل، فتقول: "كما فعل" أي: كما قدر أن يفعل بأشياعهم من قبل.

وقوله سبحانه وتعالى: {من قبل} إعرابها: ظرف مبني على الضم في محل جر، ويقولون: من قبل، ومن بعد، وما أشبههما لها أربع حالات:

١- إما أن تكون مضافة.

٢- مقطوعة عن الإضافة لفظا ومعنى.

٣- مقطوعة عن الإضافة لفظا تقديرا لا معنى.

٤- مقطوعة عن الإضافة لفظا، ولكنها معنى مضافة.

وقوله ﷻ: {كما فعل}، و (ما) مصدرية يعني: كالمفعول بأشياعهم من قبل، (ما) مصدرية، أي: كفعلنا، أو كالمفعول بأشياعهم {من قبل}.

وقوله سبحانه وتعالى: {إنهم كانوا في شك} الجملة هذه تعليل لما قبلها فصلتها

=

=

بما قبلها أنها تعليل، أي: إن هؤلاء الذين لم ينجوا من النار أو من العذاب كانوا في الدنيا في شك، والشك هو: التردد بين الإثبات والنفي، والإيمان يجب أن يكون جازما لا شك فيه؛ ولهذا من شك فيما يجب الإيمان به لم يكن مؤمنا.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{مريب} أي: موقع في الريبة لهم فيما آمنوا به الآن، ولم يعتدوا بدلائله في الدنيا]، يعني: أنهم في الدنيا غفلوا عن دلائل الإيمان، ولم يتفكروا بها، بل أنكروها إما مكابرة، وإما شكا وترددا، فلم ينفعهم.

والحاصل: أن هذه الآيات كلها فيها إنذار هؤلاء المكذبين للرسول سبحانه وتعالى، وتذكيرهم بهذه الأحوال التي ستكون واردة عليهم عند الموت وفي الآخرة.

الفهرس

